٩٧/١٨
٢٠
١٧

الإنسان في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسات الحديثة

٦١٣

إعداد

عاطف محمد مصطفى كنعان

عميد كلية الدراسات العليا

المشرف

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في

اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون الأول

١٩٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة واجيزت بتاريخ ١٩٩٧/١٢/٢٠

اعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور محمود السمرة، مشرفاً أستاذ النقد الأدبي	.....
الدكتور هاشم ياغي، عضواً أستاذ الأدب الجاهلي	.....
الدكتور نصرت عبد الرحمن، عضواً أستاذ الأدب الجاهلي	.....
الدكتور عبد القادر الرباعي، عضواً أستاذ الأدب العباسي	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــداء

إلى من يغتدي في عتمة الليل يشق أردية الزمان وأخبية المكان... إلى من نبش تراب أرضه، فروّاها بحبّات عرقه... إلى من علم الزمان معاني الصبر والإيثار... إلى رمز التضحية... ذاك هو أبي، مدّ الله عمره.

إلى من فاضت عيناها دموع الحنان عند كل أوبة ووداع... فعاش في قلبها تاريخ يحكي أسطورة الهديل، فرقّ لها قلب الزمان... إلى رمز الأمومة... تلك هي أمي، مدّ الله عمرها.

إلى من عاشت معي معاناة الأمل والعمل... فزرع وفاؤها في نفسي الجدّ والطموح... إلى التي ما رأيتها فجراً إلا وكتاب الله بين يديها... إلى زوجتي... رمز الإخلاص والمحبة.

إلى الذين لفرط براءتهم، منحوني صبرهم، فنسوا الطفولة ومراتعها... والتسال عن ماهيتها... إلى أبنائي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

إلى أستاذي الذي تفيض نفسه عطاءً تتجسد فيه أخلاق العلماء، ونبل أهل الفضل والمروءة... فقد علمني جمال الأدب لخير موروث أدبي... إلى أستاذي الدكتور محمود السمرة كل الشكر والتقدير على ما بذله من جهود مثمرة في هذا البحث الذي إن رأى النور، فبتوجيه وإرشاد منه، مدّ الله عمره.

وبالعرفان، فإنني أتقدم إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين ستكون لملاحظاتهم الأثر الكبير، والفائدة المتوخاة، في توجيه مسار هذا البحث، وتقويمه، فلهم كل التقدير والاحترام، وجزاهم الله جميعاً خير الجزاء.

ولا يفوتني أن أسدي شكري وتقديري إلى الأستاذين الفاضلين: الدكتور عفيف عبد الرحمن، والدكتور حنا حداد، اللذين كان لهما الفضل في تزويدي بجميع دواوين الشعر الجاهلي المحققة التي كانت مصدراً أساسياً لهذه الدراسة.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	جـ
شكر وتقدير	د
المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	ح
مقدمة	ي
الفصل الأول: حاجات الإنسان المادية	١
الإنسان والمال	١
الغنى والفقر	١٣
الطعام والشراب	٢٥
الخمر	٣٦
مجالس الخمر	٤٧
الفصل الثاني: الإنسان والمعتقد	٥٩
عقيدة التوحيد	٥٩
الرسل	٧٠
العبادات	٧٣
الوثنية	٧٦
دين الحنفية	٨٥
الأسطورة	٩٠
الجن	٩٧
الإنسان ومذاهبه	١٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث: الحياة والموت ١١٠
الإنسان والحياة ١١٠
بين الشباب والمشيب ١١٧
الدهر ١٢٨
الميسر ١٤٤
العيافة ١٤٩
الموت ١٥٨
البعث والحساب ١٧٢

الفصل الرابع: القيم الإنسانية ١٧٦
في مفهوم القيمة ١٧٦
الكـــرم ١٩٣
إغاثة الملهوف ٢٠١
صون الأعراض ٢٠٥
الخير والشر ٢٠٨
الثـــأر ٢١٤
حسن الجوار ٢١٩
نبل المحتد ٢٢٧

الفصل الخامس: الإنسان والقبيلة ٢٣٢
في النظام السياسي للمجتمع الجاهلي ٢٣٢
السيادة والنفوذ ٢٣٢
الفرد في مجتمع القبيلة ٢٣٨
الالتزام والخلع في مجتمع القبيلة ٢٤٦
علاقات القبائل ٢٦٣
مآثر القبيلة ٢٦٧
في النظام العسكري في المجتمع الجاهلي ٢٧١
الإنسان والحرب ٢٧١
مشاهد من الحرب ٢٧٧
استخدام أنواع السلاح ٢٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأيام والوقائع ٢٨٤
الشجاعة ٢٨٨
نتائج الحرب ٢٩٨
السبي والأسر ٣٠٢
الأحلاف والعهود ٣١٤

الفصل السادس: العلاقات الاجتماعية ٣٢١
العلاقات الأسرية ٣٢١
علاقات أبناء العمومة ٣٣١
العلاقات العامة ٣٣٧
المرأة ٣٤٢
الوصف الحسي ٣٤٢
المرأة المحبوبة ٣٥٣
المرأة الزوجة ٣٦٧

الخاتمة ٣٨٣
ثبت المصادر والمراجع ٣٨٧
أ. المصادر ٣٨٧
ب. المراجع ٣٩٥
جـ. رسائل الماجستير ٤٠٤
د. الدوريات ٤٠٤
الملخص باللغة الانجليزية ٤٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص الرسالة

الإنسان في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسات الحديثة

إعداد

عاطف محمد مصطفى كنعان

المشراف

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

يعد الشعر الجاهلي مادة خصبة لدراسة الإنسان بجوانبه المختلفة في عالمه الخاص والعام، وفي علاقته بالأرض والكون من حوله، وذلك من خلال خطابه الشعري الخاص. وهذه العلاقات التي تتشكل عبر رؤية الإنسان نحو محيطه دفعت هذا البحث إلى النظر في هذا الموروث الشعري نظرات جديدة يكون الإنسان محوراً أساسياً فيها.

ويتحرك الإنسان الجاهلي إلى أرضه من منطلقات، أساسها حاجاته المادية والروحية، ولما كان الشعر في تلك الفترة، هو الأداة الوحيدة تقريباً للتعبير عن تلك الحاجات فقد غدا مادة أساسية لأي دارس يبحث في منطلقات ذلك الإنسان لاكتشاف عالمه الداخلي والخارجي.

وقد جاء البحث موزعاً على العوالم المختلفة التي مس الإنسان الجاهلي في معتقده من حيث تشكل رؤيته للحياة والموت، واكتناه العلاقات الفكرية والروحية التي يربطها الإنسان الجاهلي من خلال الشعر، بالأرض، ثم البحث في سلوكه الفردي وعلاقاته الشخصية والقبلية وارتباطه بالمرأة، وتعامله مع المواد والأشياء من حوله، كل ذلك، من أجل الوصول إلى حقيقة تفكير الإنسان الجاهلي، وربطه بحقيقة الإنسان بشكل عام.

والوظيفة الأولى للإنسان الجاهلي بعامة، كانت البحث عن حاجاته وربطها بالواقع، حتى إذا ما أعرض عنه الزمان والمكان والعنصر الإنساني، راح يجابه أشياء الطبيعة وحده، أملاً في تغيير الواقع المتشظي، واستبداله بواقع يجد فيه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذاته؛ لأن الإنسان الجاهلي، كأي إنسان في الوجود، حاول أن يتعامل مع محيطه من خلال الرؤية الإنسانية الشمولية الهادفة في أساسها إلى السيطرة على الأشياء وتشكيلها خدمة لأغراضه وأهدافه، هذا فضلاً عن العلاقات الإنسانية المختلفة التي شكلت المجتمع الجاهلي بكيفيّة خاصة، وبنسق اجتماعي خاص.

ومحاولة سبر أغوار النفس للإنسان الجاهلي، كانت هدفاً رئيساً من أهداف هذا البحث، فكان الشعر الذي عدّ علم أولئك القوم وسيلة متميزة للكشف عما كان يشعر به ذلك الإنسان نحو ذاته وعلاقاته بالآخرين، أو الربط بينه وبين أشياء الطبيعة والأرض للخروج بفلسفة فكرية يتبلور موقف الإنسان الجاهلي منها، وذلك بفحص أنماط التعبير عن تلك النفس البشرية، وربطها بالحاجات الأساسية لذلك الإنسان مادة وروحاً، ثم الوقوف بعد ذلك على الأساليب الجمالية فيها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على رسوله الأمين محمد بن عبد الله خير البشر، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد،

فقد ازداد تعلقي بالموروث الشعري للعصر الجاهلي، وقت قيامي بإعداد رسالة الماجستير التي درست فيها الصورة الفنية في شعر الهذليين، لما لهذا الشعر من صلة وثيقة بطبيعة العصر الجاهلي، إن لم يكن متجسدا فيه بشكل واضح، فهو يشكل جانباً لاصقاً بهذا التراث.

وهذه الدراسة تركت في نفسي اهتماماً، دفعني إلى مواصلة البحث عن إنسان العصر الجاهلي من خلال شعره، لمعرفة مدى تشكل دلالات الرؤى النفسية والاجتماعية والفكرية لديه.

والدراسات الحديثة حول الإنسان وعلاقاته الاجتماعية والكونية، حفزتني إلى أن أنظر للموروث الشعري العربي نظرات جديدة يكون الإنسان محوراً أساسياً فيها.

والدراسات السابقة التي تناولت الأدب الجاهلي اقتصرت في مضمونها على الحياة التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية، فتعرضت إلى طبيعة الحياة الجاهلية بشكل عام، وهي دراسات في معظمها ليست متخصصة بدراسة الإنسان ضمن وضوح الرؤى المتعلقة بعالمه الداخلي والخارجي.

وقد كان بعض من الذين درسوا جوانب من الشعر الجاهلي، تعرض لجانب أو أكثر من ذلك الإنسان، إلا أن دراساتهم ظلت في حاجة إلى بلورة صورة الإنسان الجاهلي ولغته الشعرية ضمن دراسات أدبية ونقدية واجتماعية حديثة، قد تقود إلى معرفة طبيعة ذلك الإنسان الجاهلي بكل أبعاده ورموزه الاجتماعية والفكرية والنفسية والفلسفية.

ولما كانت الدراسات التي تناولت الإنسان من خلال أداة تعبيره عن حاجاته المادية والروحية قليلة، وإن لم تكن نادرة، فقد وجدت أن هناك إمكانية لدراسة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع من جميع جوانبه، مستفيداً من الدراسات الاجتماعية والنفسية والميثولوجية والدراسات الحديثة حول الإنسان وعالمه.

ولأجل ذلك، كان عنوان البحث وموضوعه (الإنسان في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسات الحديثة). اعتمدت في دراستي للإنسان الجاهلي المنهج التحليلي للنصوص الشعرية، فسجلت كل ما تمنحه إياي هذه النصوص من جوانب تتعلق بالإنسان في عوالمه المختلفة وعلاقاته المتشابكة في الحياة، ووزعت هذه المعطيات على أبواب الرسالة وفصولها، مراعياً في ذلك الترابط والتداخل الناشئين من حركة الإنسان وفق حاجاته المادية والروحية، وكذلك معتقداته الفكرية والدينية، واعتمدت لجلاء هذه الجوانب جميعها، على الدراسات الحديثة في المجالات الاجتماعية والتاريخية، والأنثربولوجية، والنفسية، وعلى خصائص الشعر الشفوي أيضاً.

إن للشعر الجاهلي خصوصية خاصة تبرزها الآثار التي خلفها إنسان ذلك العصر، وحفظتها لنا المصادر التاريخية والنقوش والآثار، لذا ستكون هذه المصادر مرجعاً أساسياً لبلورة صورة ذلك الإنسان من الوجهة التاريخية والحضارية.

انطلاقاً من ذلك كله فمنهجي الذي اعتمدته في الدراسة منهج تكاملي يتفاعل فيه الشعر مع الحكاية والتاريخ، والدراسات الإنسانية الحديثة بكل اتجاهاتها وفروعها. وبدأت أجمع دواوين الشعر الجاهلي والمختارات الشعرية، وفي النفس قلق التساؤل المتأرجح بين هاجس الشعور بالخوف من مواجهة هذا الموروث الضخم، والكشف عن رموزه ودلالاته، وبين دافع الرغبة الملحة التي يقف وراءها إصرار الكشف عن هذا الإنسان، والخوض في عالمه الذي امتد عبر الزمان قروناً طويلة لاكتناه آفاقه الممتدة عبر الزمان والمكان.

ولكن الإرادة كانت أقوى من كل هذه الهواجس، فرحت أجمع الدواوين الشعرية موضوع هذا البحث، ووجدت في ذلك عنتاً كبيراً في الحصول عليها، ثم لجأت إلى تصويرها بالتمام؛ لأن ظلها سيرافقني، ولكنه ظل ممتعٌ، فمحاورة الشعرالجاهلي تفضي إلى تحقيق الأهداف والغايات، لأن الولوج إلى محاورة النفس الإنسانية وتعرف ميولها واتجاهاتها، أمر يحتا ج إلى إطالة النظروالتفكير، والدراسة الفاحصة المتأنية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الطبيعي أن تكتمل هذه الدراسة، شأن أي دراسة، بمجموعة من آراء الباحثين الذين تناولوا الشعر الجاهلي بالدرس والتحليل، أو الذين كشفوا حاجات الإنسان، فرحت أصنف هذه الأشعار حسب موضوعاتها، حتى خرجت بصورتها التي هي عليها.

ونتيجة لغنى مادة هذا البحث، حاولت أن أحدد إطاره الفني، فرسمت مضامينة وعناوينه بالصورة التي اقتضتها طبيعة النصوص الشعرية، وما ترمي إليه من رؤية في تعدد الموضوعات وتجنب إلى حد بعيد التعرض إلى الأغراض الفنية المألوفة من مثل المديح، والهجاء والرثاء... لأن هذه الفنون مطروقة من قبل، لذلك، حرص هذا البحث على أن يتناول الإنسان الجاهلي، من حيث دلالات الصورة الشعرية التي تكشف عن اتجاهاته، وميوله، وألوان تفكيره، ونظرته إلى الحياة بأنماط فلسفية متعددة، قد يكون لها أبعاد حضارية تترجم واقع الإنسان القديم.

وحاولت جهدي أن أتعامل مع معطيات النصوص الشعرية، فقرأتها من الداخل لاكتناه أبعاد الإنسان الجاهلي فيما يتعلق بتعامله مع المدركات المشاهدة، ومع غيبيات الأمور، وما يرمي إليه من تصور للحياة الممتدة عبر صحراء الجزيرة العربية تلك الأرض التي صقلت عقول أبنائها وشحذت عواطفهم، فكان أن شيدت هذه الحضارة الأدبية الراقية، رغم هاجرة الصحراء، وجدبها ورمضائها.

وكنت أعود بين الفينة والأخرى إلى النصوص، فأطيل النظر فيما كتبت،وأعود إلية ثانية فأحاوره من جديد ضمن تشكلات لغوية جديدة، وأقف عند ذلك طويلاً، توخياً لجلاء الفكرة وإدراك مرامي الصورة، محاولاً في ذلك تحديد مسار هذه الدراسة، كلما أحسست أنها نأت عن الدرب،وجعلت ذلك في مقدمة وستة فصول، اقتضتها دلالات الشعر الفنية، وكان ذلك على النحو الآتي:

١. الفصل الأول (حاجات الإنسان المادية)، وقد تمثلت في الطعام والشراب وموارد الرزق، والغنى والفقر

٢. الفصل الثاني (الإنسان والمعتقد) وقد تناولت فيه عقيدة التوحيد، والعبادات كالوثنية والحنيفية، وتعرضت إلى الأسطورة، والجن، وبعض مذاهب العرب.

٣. الفصل الثالث (الحياة والموت) وتناولت فيه نظرة الإنسان الجاهلي إلى الحياة بعامة، ونظرته إلى الدهر والميسر، والعيافة، ثم إلى الموت وما فيه من بعث وحساب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤. الفصل الرابع (القيم الإنسانية) فكان من بينها الكرم، وإغاثة الملهوف، وصون الأعراض، وحسن الجوار، ونبل المحتد.

٥. الفصل الخامس (الإنسان والقبيلة) وقد تناولت فيه طبيعة النظام السياسي للمجتمع الجاهلي من حيث مكانة الفرد في القبيلة، السيادة والنفوذ، الالتزام والخلع في مجتمع القبيلة، ومآثرها التي درجت عليها، فغدت أعرافا وتقاليد.

وتضمن هذا الفصل طبيعة النظام العسكري في المجتمع الجاهلي، فأخذت الحرب مساحة واسعة من الشعر الجاهلي، ثم التعرض إلى مشاهد الحرب، والأيام والوقائع، وما فيها من فروسية وشجاعة، ثم ما يترتب عليها من ظهور الأحلاف والعهود، والسبي والأسر.

٦. الفصل السادس (العلاقات الاجتماعية) التي ترجمت علاقات أبناء العمومة، والعلاقات العامة، وعلاقة الإنسان الجاهلي بالمرأة

وللأمانة العلمية، فإنني حين فرغت من كتابة هذا البحث كنت أجوس في ردهات مكتبة الجامعة الأردنية أبحث عن كتاب الدكتور هاشم ياغي "معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة"، فدفعني فضولي أن أفتش عن رسالة الماجستير الخاصة بي، وقد فوجئت إلى حد بعيد برسالة ماجستير تحمل عنوان «الإنسان في الشعر الجاهلي» مقدمة في جامعة دمشق مؤرخة في سنة ١٩٨٦، وأخذت بعد إحساسي بالدهشة البالغة، أقلب فهرسها ومصادرها، فوجدت أنها تحمل بعضاً من مفردات موضوعات رسالتي وفصولها، فساورني قلق كبير، حتى اطلعت على مقدمتها وأجزاء من متنها، فوجدت صاحبها ينحو منحى آخر، مختلفاً كلياً عن منهج التحليل الذي اعتمدته في بحثي، فكان تناوله للشعر الجاهلي، ينطلق من منطلق قومي، يركز فيه على الروح القومية العربية للإنسان الجاهلي، فحمدت الله تعالى أن وجدت اختلافاً في الدرس والبحث والأسلوب وطريقة المعالجة، وفي نوع المصادر والمراجع، وفي عددها وفي مصادر النصوص الشعرية المتعلقة بدواوين الشعر الجاهلي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

حاجات الإنسان المادية

الإنسان والمال

تختلف نظرة الإنسان الجاهليّ إلى المال بشكل ينسجم مع طبيعة رؤيته له على أنه غاية أو وسيلة، وفي كيفية الحصول عليه، ووجوه إنفاقه، وقد يستطيع الحكم على أهمية المال للإنسان الجاهليّ من خلال البيئات الاقتصادية، ومتغيرات الحياة المعاشية، ومدى انعكاس ذلك على الإنسان الجاهليّ، يقول حاتم الطائي:

ولا أشْتَرِي مالاً بِغَدْرٍ عَلِمْتُه ... ألا كُلُّ مالٍ خَالَطَ الغَدْرَ أَنْكَدُ
إذا كان بَعْضُ المالِ ربًا لأهْلِه ... فَإنِّي بِحَمْدِ اللّه مالِي مُعَبَّدُ
يفُكّ به العَانِي وَيُؤْكَل طَيِّباً ... ويُعْطَى إذا مَنّ البَخِيلُ المُطَرَّدُ[١]

يسلك الشّاعر في كسب المال طريقاً مشروعة، بعيدة عن أساليب الغش أو الغدر، إنما يتحرى سبل الحق والحلال للحصول عليه، فيقيم به أوده، ويسدّ حاجته، ويفك أسر المحتاجين، ويعينه على مواجهة مشكلات الحياة التي تعترض الناس.

ويرفض الشّاعر أن يكون المال أسيراً في يد البخيل الذي لا يقيم له وزناً، فالمال عند حاتم، وليمة للناس جميعاً، وهو حق يقدمه لكل من يحل ضيفاً على مضاربه.

"وكان الجاهلي لا يجد خيراً في المرء الذي يقري الضيوف في حال النعيم والكثرة، وكان حاتم الطائي يبذل ماله حتى الفقر المدقع، ويجد في ذلك السبيل الفعلي للكرم، يضام حتى يقيل الآخرين عثرتهم"[٢].

---

(١) حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٥. أنكد: قليل الخير، المطرّد: المبعد.

(٢) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٢، ص ١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشكل كسب المال لدى بعض الجاهليّين، قيمة إنسانية، تمثلت في وجوه الخير والإصلاح، يقول أميّة بن أبي الصّلت:

إذا اكْتَسَبَ المالَ الفَتَى مِنْ وُجُوهِهِ ... وَأَحْسَنَ تدْبِيراً لهُ حِينَ يَجْمَعُ
وَمَيَّزَ في إنْفَاقِهِ بَيْنَ مُصْلِحٍ ... مَعِيْشَتَهُ فيما يَضُرُّ وَيَنْفَعُ
وأَرْضَى به أهْلَ الحُقُوقِ ولم يُضِعْ ... به الذُّخْرُ زاداً للَّتِي هِيَ أَنْفَعُ
فَذاك الفَتَى لا جَامِعُ المالِ ذاخِراً ... لأولادِ سُوءٍ حَيْثُ حَلُّوا وَأَوْضَعُوا[1]

فقد وضع الشّاعر شرطاً لكسب المال، وطرق إنفاقه، جعلهما محصورين في مشروعية الكسب الحلال، وحسن التدبير والإنفاق، فإذا ما حصل الإنسان على المال بطريقة مشروعة، وأنفقه في وجوه الحق والخير، وجنّبه طريق الشر والباطل، يرضي به أهل الحقوق، فذلك الإنسان الذي يستحق أن يدخر المال؛ لأنّه يصرفه للصالح العام تحقيقاً لنفع الناس وفائدتهم.

ومن القيم التي تركها المال المشروع في نفوس الناس، رفضهم الخبيث من المال الذي يؤتى إليهم بطرق غيرصحيحة، ، فهذا أوس بن حجر يفخر بأنه ترك الخبيث من الرزق، فأعف الله ماله ومطعمه، يقول:

تَرَكْتُ الخَبِيثَ لم أُشَارِكْ ولم أدِقْ ... ولكِنْ أعَفَّ اللّهُ مَالِي ومَطْعَمِي
فَقَوْمِي وأعْدائِي يَظُنُّون أنَّنِي ... مَتَى يُحْدِثُوا أمْثالَها أتَكَلَّمِ[2]

وإذا افترضنا أن أسباب الحصول على المال، تهيأت لبعض الناس، فانقادت إليه طائعة، فحرص على أن ينالها من وجهها المشروع، فقد نرى أناساً تجهمت لهم الحياة، فراحوا يحصلون منها على المال انتزاعاً، يقول النّمر بن تولب:

خَاطِرْ بِنَفْسِك كي تُصِيبَ غَنِيمَةً ... إنَّ الجُلُوسَ مع العِيَالِ قَبِيحُ
فَالمالُ فيه تَجِلَّةٌ ومَهابَةٌ ... والفَقْرُ فيه مَذَلَّةٌ وقَبُوحُ[3]

فكأن الشّاعر يقيم حرباً مع الحياة، يأخذ منها معاشه غصباً، فينتزعه انتزاعا وقد رأى ابن تولب القعود عن السعي في الدنيا طلباً للرزق ذلاً له وقبحاً، فلا بدّ

---

(١) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص٤١٦، أوضعوا: ساروا مسرعين.

(٢) أوس بن حجر- الديوان، ص ١٢٢، لم أدِقْ: لم أدْنُ.

(٣) النمر بن تولب- شعره، ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الحصول على المال حتى لو أدى إلى المخاطرة بالنفس؛ فالمال يكسب صاحبه القيمة والمكانة، والفقر يورثه القبح والذل، إذ أن من قبيح الصفات، أن يمكث الإنسان في بيته متقاعساً، ويقعد عن طلب الرزق.

وحين يخاطر الإنسان بنفسه للحصول على موارد رزقه، دليل على أن من بين المجتمع الجاهلي أناساً لا يحققون مصادر الرزق الأولية من مطعم أو مشرب، وهذا يعني أن "الإنسان في البيئة الفقيرة إنما يتجه أولاً إلى النواحي المادية التي تعود عليه بالنفع المادي، فهو لا يفكر إلا بالفائدة الحسية التي تقيم أوده، وتحفظ حياته أولاً، أما ما وراء ذلك من المغويات الأعلى شأناً من ذلك، فلا تجيء إلا بعد الاطمئنان على ما يمكنه أن يعيش عليه"[١]. وكان ابتعاد الشاعر عن المجتمع نحو الإنسان الذي يهيء له الخلعة والطعام، أي نحو مصدر الرزق، هو الطابع العام لحياة الشعر العربي[٢].

والمال في نظر حاتم الطائي عَرَض زائل، قد يصيب الإنسان، وقد يخطئه، ليس فيه سوى أثره المحمود، يقول حاتم الطائي:

أمَاوِيَّ إنَّ المَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ ... ويَبْقَى مِنَ المَالِ الأحَادِيثُ والذِّكْرُ[٣]

فالمال بأيدي الناس، لا يستقر على حال، فهو غاد ورائح، وقيمته تكمن فيما يتركه من أحاديث وذكر، بحسب المسار الذي ينفق فيه. والإنسان الجاهليّ حريص على أن ينفق المال في وجوه الخير، يقول النّمر بن تولب:

يَلُومُ أخِي عَلى إهْلاكِ مَالِي ... ومَا إنْ غَالَهُ ظَهْرِي وبَطْنِي
ولا ضَيَّعْتُه فَأُلامَ فيه ... فإنَّ ضَيَاعَ مَالِكَ غَيْرُ مَغْنِ
ولَكِنْ كُلُّ مُخْتَبِطٍ فَقِيرٍ ... يَقُولُ ألا اسْتَمِعْ أُنْبِئْك شَأْنِي
ومِسْكِينٍ وأعْمَى قال يوْماً ... أغِثْنِي للإله ولا تَدَعْنِي
وإعْطائِي ذوي الأرْحَام مِنْهُ ... وتَوْسِيعِي لذي عَجْزٍ وضَفْن
أقِي حَسَبِي به وَيَعِزُّ عِرْضِي ... عَلَيَّ إذا الحَفِيظَةُ أدْرَكَتْنِي
رأيْتُ المانِعينَ المالَ يَوْماً ... مصِيرهُمُ لإلْقَاءِ فَدَفْن[٤]

(١) علي الجندي- ملحق تاريخ الأدب الجاهلي، ص ٥٣.

(٢) إحسان عباس- فن الشعر، ص ١٧٠.

(٣) حاتم الطائي- الديوان، ص ٥٠.

(٤) النمر بن تولب- شعره، ص ١١٨-١١٩، غاله: ذهب به وأهلكه. غير معن: غير يسير ولا هين. ضفن مع الضيف: جاء معه وهو الضّيفن: الذي يجيء مع الضيف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينظر الشّاعر إلى المال على أنه وسيلة لتحقيق حاجات معاشية، ترتبط ببعد الزّمن الذي يعيشه الإنسان.

والشّاعر في النص السابق، يفند مزاعم أخيه الذي اتّهمه في إفناء ماله، طمعاً في الطعام والشراب، ويبرر ذلك بأنه لم يبذر ماله فيلام عليه، ولكنه أنفقه في مساعدة الفقراء، وأهل الفاقة، والعوز، والمساكين، وذوي الرحم، وهذا يعني، أن الشّاعر يغلب عليه مبدأ شيوع المال للجميع، دون أن يقتصر على شخص بعينه، وهذا إيحاء خفي لمفهوم الاشتراكية الذي نادى به الشّعراء الذين ثاروا على مجتمعهم، تحقيقاً لمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات.

وإذا افترضنا أن الشّاعر ينطلق من واقع اجتماعي، يشوب أبناءه الفقر والحاجة، فإن ذلك يعني، أن ليس كل غني موسر يوجه عنايته إلى مساعدة المحرومين البائسين. فثمّة مترفون وهبتهم الحياة مالاً، ومتاعاً، ولكنهم بخلاء يموت المال والغنى بموتهم.

ولعل الشّاعر، يجود بماله ليحقق بُعدين اجتماعيين: الأول، يقي حسبه من أي سوء، والآخر، يزداد به شرفاً وكرامة. فغدا الفرق بين الغني والبخيل، أن الأول، يرى في إنفاق المال وجوه خير متعددة، فيزداد حماساً وجوداً في بذله، والآخر، ينظر إلى المال من زاوية ضيقة لا تتجاوز حدود طرق جمعه، وكيفية الحصول عليه، ادخاراً وكسباً.

"والواقع أن صور الطعام التي وردت في الشعر الجاهلي، تدل على ما كان يقدم للضيوف في المآدب العامة أكثر مما تدل على الطعام الخاص الذي يطهوه المرء لنفسه"[1]، ولعل النصوص التي استشهد بها خير دليل على جلاء هذه الصورة الاجتماعية التي تسعى إلى تحقيق مفهوم الذات الإنسانية من خلال عناصر اجتماعية ذاقت اضطهاداً وذلاً في الوسط الاجتماعي الجاهلي.

والمال في نظر تأبّط شرّاً، متاع يسدّ به الإنسان حاجته وفقره، يقول:

عَاذِلَتِي إنَّ بَعْضَ اللَّومِ مَعْنَفَةٌ ... وهَلْ مَتَاعٌ وَإنْ أَبْقَيتُهُ بَاقِ
سَدِّدْ خِلَالَكَ مِنْ مَالٍ تُجَمِّعُه ... حَتَّى تُلَاقِي الذي كُلُّ امْرِئٍ لَاقِ[2]

---

(١) نصرت عبد الرحمن- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ٥٨.

(٢) تأبط شراً - شعره، ١١١-١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطلب الشّاعر من عاذلته الاّ تلومه لفقره وقلةحيلته، فهو، يكتفي بالمال الذي يجمعه ليقيم به أوده.

وكان إنفاق المال مقروناً بتحديد العلاقة بين الرجل الشاعر وزوجه، حين ترى الزوجة تفاقم المال وإهداره في وجوه شتى "والمرأة غالباً ما كانت تعذل لأسباب تتصل بالجود والسخاء، فالبذل على الاصدقاء ومجلس الشراب والذهاب مع نساء أخريات والميسر وعقر الإبل لإطعام الأصيحاب، كل هذه المسرات واللذات كانت تدعو المرأة إلى العذل"(١).

وكان بعض شعراء الجاهليّة، يتخذ المال وسيلة لحل مشكلة الفقر، حماية للأعراض، يقول تميم بن مقبل:

فِي دَارِ حَيٍّ يُهِينونَ اللِّحَامَ وهم ... للجَارِ والضَّيْفِ يَغْشَاهُم مَكَارِيم
فِتْيَانُ صِدقٍ إذا ما الأَمْرُ جَدَّ بِهِم ... أَيْدِي حَوَاطِبِهِمْ دامٍ وَمَكْلُوم
قد أَيْقَنُوا أنَّ مَالَ المرْءِ يَتْبَعُهُ ... حقٌّ علَى صَالحِ الأَقْوَامِ مَعْلُوم(٢)

فالمال الذي تدخره قبيلة الشّاعر، يرمي إلى تحقيق غرضين، لهما كبير الأثر في حفظ مكانة ذلك المجتمع، وإعلاء شأنه بين الأوساط الاجتماعية العربية، الأول يتمثل في معالجة أوضاع المحتاجين، محاولة في حماية الفرد من الفقر، والآخر يرمي إلى صون الأعراض درأ لأي فساد اجتماعي، قد ينجم عنه أي خلل في بنية المجتمع، وكلا الغرضين، يهدف في واقع الأمر إلى الحفاظ على لحمة المجتمع من العبثية، وحماية أفراده من التفسخ أو الانحراف.

وإذا كان إنفاق المال في رأي بعض الجاهليّين قد وجّه توجيهاً سليماً، خدمة للصالح العام، فقد وجدت فئة من المجتمع الجاهليّ، أنفقت أموالها في أمور غير شريفة، يقول أحيحة بن الجلاح:

أَهَنْتُ المالَ في الشَّهَوَاتِ حتَّى ... أَصَارَتْنِي أَسِيفاً عَبْدَ عَبْدِ(٣)

---

(١) محمد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص ٥٦.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٧٥، يهينون اللحام:أي يبذلون اللحم للمحتاجين.

(٣) أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٦٥. الأسيف: الأجير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد أحسّ الشّاعر بأهمية المال وقيمته في تسيير شؤون الحياة، بعد أن وجد نفسه خالي الوفاض؛ لأنّه أهلك ماله في الملذات والشهوات، ثم تردت حالة الشّاعر المعاشية، فصار أجيراً كالعبيد الذين هم في مستوى متدنٍ من المجتمع.

ومن خلال هذه الصورة البائسة التي تتردى فيها قيمة الإنسان، بسبب فقره وجوعه، فثمّة صورة مضادة تماماً، يكسب فيها الإنسان منزلة عالية لغناه وكثرة ماله، يقول حاتم الطائي:

إذَا كُنْت ذا مَالٍ كَثِيرٍ مُوَجَّهاً تُدَقُّ لك الأَفْحَاءُ في كلِّ مَنْزِلِ
فَإنَّ نَزِيعَ الجَفْرِ يُذْهِبُ عَيْمَتِي وأَبْلَغُ بالمَخْشُوبِ غَيْرِ المُفَلْفَلِ(١)

يرى الشّاعر أن صاحب المال تدق له الأنواء حيثما حل وارتحل، وقد يتبين من ذلك، أن قيمة الإنسان تقاس بمعايير مادية، وإذا كانت هذه المعايير سائدة في المجتمع الجاهليّ، فإن ذلك يعني سيطرة المادة على مجموعة المبادىء والقيم الإنسانية.

وقد وجدت في أوساط المجتمع الجاهليّ فئة تقف إزاء طبقة الأغنياء موقفاً عدائياً؛ لأنّها فئة فقيرة بائسة، قادها فقرها إلى الحقد على كل من يملك مالاً، يقول النّمر بن تولب:

لا تَغْضَبَنَّ على امرىءٍ في مَالِهِ وعَلَى كَرَائِمَ صُلْبِ مَالِكَ فَاغْضَبِ
وَإذَا تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ فارْجُ الغِنَى وإلَى الذي يُعْطِي الرَّغَائِبَ فَارْغَبِ(٢)

يحث الشّاعر الإنسان بعامة على ألاّ يقعد عن طلب الغنى إذا ما أصيب بفقر أو عوز، فيبعث بذلك أملاً في نفس الفقير يتمثل في أن الحياة لا تتوقف عند حدّ معين، ولا يعني أن الفقر هو نهاية المطاف، فعلى الإنسان السعي لمجابهة ظروف الحياة.

واستوحى بعض شعراء الجاهليّة صور الفقر من البيئة المحلية، فوظفها أحسن توظيف، يقول سلامه بن جندل:

كُنَّا نَحُلُّ إذا هَبَّتْ شَآمِيَّةٌ بِكُلِّ وادٍ حَطِيبِ البَطْنِ مَجْدُوبِ

---

(١) حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٨. الموجه: صاحب الجاه، الأفحاء: الأبزار، نزيع الجفر: الماء المنزوع، عيمتي: شهوتي للبن، أبلغ: أصل، المخشوب: اللحم النيء.

(٢) النمر بن تولب- شعره، ص ٤٤. الرغيبة: العطاء الكثير. الخصاصة: الفقر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شِيبِ المَبَارِكِ مَدْرُوسٌ مَدَافِعُهُ هَابِي المَرَاغِ قَلِيلِ الوَدْقِ مَوْظُوبِ[١]

يدلل الشّاعر على أنّ هذه الأمكنة جدباء قليلة المطر، لا ترى فيها سوى أكوام التراب، والحطب الذي لا يصلح طعاماً للإبل، وفي ذلك إشارة إلى كثرة الفقر، وندرة الغنى. والشّاعر حين يذكر هبوب ريح الشمال التي لا مطر فيها، ومبارك الإبل التي لا كلأ فيها، وأكوام التراب المكدّسة، والحطب الجاف، فإن ذلك يمثل عناصر الجدب والفقر.

وإذا ما راقك، أن تعرف مشاعر المرأة حين ترى زوجها يجلب المال والمتاع فانظر إلى قول أحيحة بن الجلاح:

إذا ما جِئْتُها قد بِعْتُ عِذْقاً تُعَانِقُ أو تُقَبِّلُ أو تُفَدِّي[٢]

إن ما تشعر به زوجة الشّاعر من سعادة، حين يعود زوجها، وقد جلب لها المال بعد أعمال التجارة والبيع، هو أمر، يشير إلى معاناة المجتمع الجاهليّ من خشونة الحياة وشظف العيش.

وقد ساء بعض شعراء الجاهليّة، أن رأى أناساً يكثر رزقهم في المال والولد وهم لا يستحقون ذلك. يقول الحارث بن حلّزة:

ولقد رَأَيْتُ مَعَاشِراً قد جَمَّعُوا مَالاً وولْدَا
وَهُمُ رَبَابٌ حَائِرٌ لا يُسْمَعُ الآذَانُ رَعْدا[٣]

ينكر الشّاعر على فئة من الناس قد جمعت مالاً، وأنجبت ذرية، وهي على كثرة ما جمعت من رزق، قليلة الخير والفائدة، وكأن مراد الشّاعر، يتركز على صنف معين من الناس، يشترط فيهم علوّ الهمة والشأن، يحق لهم أن يرزقوا المال والبنين. ويعيب الشّاعر على الزّمن الذي جعل أناسا صماً طرشاً تملك المال والخير.

ومن الشّعراء من نظر إلى المال، بين دفتي الخير والشر، أو الجود والبخل، فرأى أن الحمد لا يشترى إلا بالمال. يقول علقمة الفحل:

---

(١) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١١٩-١٢١ مدروس مدافعه: أي أوديته التي يكون بها النبت قد درست. هابي المراغ:أي منتفخ التراب. الهابي: الغبار. المراغ: التراب. شيب: ليس به كلأ. موظوب:واظبوا عليه حتى أكل ما فيه.

(٢) أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٦٥ العَذْق: النخلة بحملها، أو العرجون بما فيه الشماريخ.

(٣) الحارث بن حلزة- الديوان، ص ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجُودُ نَافِيَةٌ للمَالِ مُهْلِكَةٌ والبُخْلُ مَبْقٍ لأَهلِيه وَمَذْمُوم
والمالُ صُوف قَرَارٍ يَلْعَبُونَ به على نِقَادَتِه وافٍ وَمَجْلُوم
والحَمْدُ لا يُشْتَرَى إلاّ له ثَمَنٌ ممّا تَضِنُّ به النُّفُوسُ مَعْلُومُ(١)

يبين الشّاعر الأثر الذي ينجم عن المال، فالجود به وإنفاقه هلاك له وحمْد لصاحبه، والضنّ به إبقاء له لكنه مذمة لصاحبه، والحمد الذي يسعى إليه الإنسان لا يكون إلا بالحمل على النفس. "فالجواد لا يموت بسبب جوده وأن البخيل لا يقوم أحد برثائه، وكما أن الجود لا يقلل الثروة، فإن البخل لا يحميها من الزوال"(٢).

والمال كثيراً كان أو قليلاً، ليس سوى تسلية وملهاة، يستخدمه الإنسان لتصريف شؤونه الحياتية، وكأن الشّاعر يريد القول بأن الإنسان، يعيش الحياة بكل أشكالها بصرف النظر عن غناه أو فقره، ومن يسعى إلى تحقيق الغايات والأمجاد، فإن عليه بذل المال سبيلاً إلى ذلك.

وموقف علقمة إزاء المال يدعّمه قول حاتم الطائي الذي يرى المال وسيلة لكسب السيادة والزعامة، شريطة أن يستثمر في صالح العشيرة، يقول:

أُسَوِّدُ سَادَاتِ العَشِيرَةِ عَارِفاً ومِنْ دُونِ قَوْمِي في الشَّدَائدِ مِذْوَداً
وأُلْفَى لأَعْرَاضِ العَشِيرَةِ حَافِظاً وحَقِّهم حتَّى أَكُونَ المُسَوَّدا
يَقُولونَ لي: أَهْلَكْتَ مالَكَ فاقْتَصِدْ وما كُنْتُ لولا ما تَقُولُونَ سَيِّدا(٣)

يمنح الشّاعر نفسه حق الرياسة والسيادة في قومه، ويبرر ذلك بتحمّله أعباء قومه، وتبعاتهم، فهو يتحمل كل متطلبات الحياة دونهم، فيذود عنهم ويحمي حقوقهم، ثم هو لأعراض العشيرة حافظ، وذلك كله لا يتأتى إلا ببذل المال الوفير، فقد أهلك ماله في سبيل تحقيق الأمجاد. ولو لم يحقق أمجاد قومه، لما كان سيداً فيهم.

---

(١) علقمة الفحل- الديوان، ص ٦٤-٦٥، القرار: غنم صغار الأجساد والآذان. النَّقَد: غنم صغار، الواحدة: نَقدَة. الوافي: الذي لم يُجَزّ. المجلوم: المجزوز بالجَلَم:وهو ما يجز به الشعر أو الصوف.

(٢) محمد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص ٥٨.

(٣) حاتم الطائي- الديوان، ص ٤١. المذود: الذي يدفع عن قومه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خلال النماذج السابقة، نرى أن الشعراء يرفضون عبودية المال، ويؤكدون على بذله لأنه لا يخلد وهم يرون أن المال يحمي كرامة الإنسان في حياته ويكسبه قيمة اجتماعية(١).

ورأى بعض شعراء الجاهليّة أن إنفاق المال فيه متاع يخلف نسلاً لا ينقطع، يقول تميم بن مقبل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ يَخْلُفُ نَسْلَهُ وَيَأْتِي عَلَيه حَقُّ دَهْرٍ وَبَاطِلُه
فَأَخْلِفْ وَأَتْلِفْ إنَّمَا المَالُ عَارَةٌ وَكُلُّهُ مَعَ الدَّهْرِ الذي هُوَ آكِلُه(٢)

فالمال الذي يتحدث عنه الشّاعر محصور في الإبل؛ لأنّ المال في الحياة العربية أكثر ما يطلق على الإبل، ومادامت الإبل تخلف نسلاً، فهو إذن نسل يخلف أسلافه فلو أفناه الدهر بالموت، فإنه يأتي مرّة ثانية عن طريق التكاثر والتناسل فيغدو كأنه شيء مستعار دائم التجدد.

وظروف الحياة جعلت المال عزيزاً على النفس، فهو وحده الذي لا يخذل صاحبه، فقلة المال تلحق بالإنسان الغم والهم، وتدعه يعيش ذليلاً بين المجتمع، ومثال ذلك أن أحيحة بن الجلاح كان "ينزل بالمدينة فافتقر، فجفاه إخوانه وأحباؤه، وجفته زوجته، ثم أنه أثرى فاستفاد نيفاً وتسعين ببراً للنخل بالمدينة، وكان له نخلة على ثلاث منها، فكان يأتيها بنفسه ويسقيها ويتعهدها"(٣)، يقول أحيحة بن الجلاح:

استَغْنِ أو مُتْ ولا يَغْرُرْكَ ذُو نَشَبٍ مِن ابْنِ عَمٍّ ولا عَمٍّ ولَا خَالِ
يَلْوُونَ مَالَهُم عن حقِّ أَقْرَبِهِم وعن عَشِيرَتِهِم والحَقُّ لِلْوَالِي
فاجْمَع ولا تَحْقِرَنَّ شَيْئاً تَجْمَعُهُ ولا تُضَيِّعْنَهُ يَوْماً عَلَى حَالِ
كُلُّ النِّدَاءِ إذا نَادَيْتُ يَخْذُلُنِي إلاّ نِدَائِي إذَا نَادَيْتُ يا مَالِي(٤)

٤٨٣٤٥٠

(١) محمد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، انظر: ص ٥٨.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٤٣. العارة: الشيء المستعار. يخلف نسله: أي أنه يأتي مرة ثانية بعدما يضيع، فهو نسل يخلف أسلافه.

(٣) الجاحظ- الأمل والمأمول، ص ٤٨.

(٤) أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٧٨-٧٩. النشب: المال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن مبدأ الشّاعر المادي، يكمن في ضرورة أن يجمع الإنسان المال فيركن إليه، دون أن يغرّ بواحد من أبناء عمومته أو خؤولته فيطمع بنواله ثم يخدع به، وعليه، فقد افترض الشّاعر الخذلان في الناس، والأمان في المال. وبذلك يكون الشّاعر قد عاش تجربتين: اجتماعية واقتصادية، ثم وازن بين المال والناس في حالات الضيق والشدة، فوجد أن المال أكثر قربى للإنسان يفرج به هما ويزيل به غماً، ففضله على بني جنسه.

ويكاد أحيحة ينفرد في نظرته إلى المال عن غيره من الشّعراء، فقد رآه هدفاً يسعى إليه، وغاية سامية. وهذه نظرة تترجم مبدأ المادية في الحياة. وينظر عروة ابن الورد إلى المال نظرة ازدراء وامتهان إذا لم يفرج عن الناس كُربهم وهمومهم يقول:

إذا أذاكَ مالُكَ فَامْتَهِنْهُ لِجَادِيه وإنْ قَرَعَ المَرَاحُ
وإنْ أَخْنَى عَلَيْكَ فلم تَجِدْهُ فَنَبْتُ الأَرْضِ والمَاءُ القَرَاحُ
فَرَغْمُ العَيْشِ إِلْفُ فَنَاءِ قَوْمٍ وإنْ آسَوكَ والمَوْتُ الرَّوَاحُ[1]

فالشّاعر في حال غناه لا يقيم وزناً للمال، فهو ينفقه لطالبي المعروف. أما في حال فقره، فهو لا يطلب الناس لعزّة نفسه، ويلجأ إلى ما تنتجه الأرض، خشية ألا يعرّض نفسه لمنّة أحد، وعزيز النفس يتحمل ضنك الحياة على أنّ يعيش ذليلاً على موائد الآخرين.

وكان عروة بن الورد من بين مجتمع الصعاليك الذين ثاروا على الأغنياء البخلاء فسلبوهم أموالهم وأعطوها للفقراء، أو اتخذوا الغارة والنهب وسيلة لأرزاقهم، ومما روي عن عروة أنه كان "إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشياء هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدّة، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنُف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً حتى إذا أخصب الناس وألبثوا، وذهبت السنة، ألحق كل إنسان بأهله، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سمي عروة الصعاليك"[2].

---

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ٤٢، الجادي: المجتدي، طالب المعروف. قرع: خلا وفرغ. أخنى عليك: ضنّ عليك واشتد. القراح: العذب البارد. آسى: عزّى وأعان.

(٢) الأصفهاني- الأغاني، ج٣، ص ٧٨-٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما قيمة المال في المنظور الأسري أو العائلي في المجتمع الجاهليّ، فقد اتخذ أنماطاً إنسانية متعددة الميول والاتجاهات، يقول خداش بن زهير:

أَعَاذِلُ إِنَّ المَالَ أَعْلَمُ أَنَّهُ وَجَامِعُهُ لِلْغَائِلَاتِ الغَوَائِلِ
مَتَى تَجْعَلِينِي فَوْقَ نَعْشِكِ تَعْلَمِي أَيُغْنِي مَكَانِي أَبْكُرِي وَأَفَائِلِي[١]

يذهب الشّاعر إلى معرفة أثر المال في تحديد علاقاته الأسرية، فهو يقرّ أن المال الذي يدّخره الإنسان مسخّر لعظائم الأمور، يحل به الدواهي المهلكات، في حين أن المال وجامعه، صائر كلاهما إلى الزوال والفناء، فإذا رحل الشّاعر عن الدنيا فهل يغني عنه ماله ومتاعه، أم أن فضله على الناس، هو الذي سيخلد في القلوب والضمائر؟.

وإنفاق المال ربما يؤدي إلى إتلاف العلاقة الأسرية بين الزوج وزوجه، تصل أحياناً إلى الفراق والرحيل، يقول المرقّش الأصغر:

أَذَنَتْ جَارَتِي بِوَشْكِ رَحِيلٍ بَاكِراً جَاهَرَتْ بِخَطْبٍ جَلِيلِ
أَزْمَعَتْ بِالفِرَاقِ لَمَّا رَأَتْنِي أُتْلِفُ المَالَ لا يُذَمُّ دَخِيلِي
أَجْمِلِ العَيْشَ إِنَّ رِزْقَكَ آتٍ لا يَرُدُّ التَّرْقِيحُ شَرْوَى فَتِيلِ[٢]

"إن الحقيقة التي تشير إلى أن المرأة هي التي كانت تقوم بدور العاذلة تضيء جانباً آخر هو مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي، فالمرأة تختلف عن الرجل الذي كان يهتم بمكانته العامة في المجتمع غالباً. أما المرأة فعلى العكس من ذلك، لأنها كانت تهتم بأحوال العائلة والأطفال أولاً، ولهذا كانت ترى في تصرف الرجل اللامبالاة والتهديد المادي للعائلة"[٣].

إن زوج الشّاعر جاهرته بالمغاضبة والعداوة، وأصرت على فراقه بحجة أن زوجها الشّاعر يتلف ماله، ولا يعني أن إنفاق المال هلاك لصاحبه، فما دام رزق الإنسان مقدراً، فلا حاجة إلى الترنق بالمال وتدبيره. وقد ندرك من خلال هذه

(١) خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٤٠. الغائلات الغوائل: الدواهي المهلكات. الأبكر: البكر من الإبل، وهي الفتية. الأفائل: صغار الإبل.

(٢) المرقش الأصغر- شعره، ص ٥٤٣-٥٤٤، الترقيح: إصلاح المال والقيام عليه. الفتيل: ما ألبس النواة من قش رقيق بعد اللحاء. الشّروى: المثل. وقيل: الترقيح: التدبير.

(٣) محمد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص ٦٥-٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصورة، أن المرأة، أكثر حرصاً على المال من الرجل. ويعزز ذلك قول عبيد بن الأبرص:

زَعَمَتْ أَنَّنِي كَبِرْتُ وأَنِّي قَلَّ مَالِي وَضَنَّ عَنِّي المَوَالِي[١]

فكأن علاقة المرأة بالرجل، ترتبط بما يتمتع به من غنى وقوّة، ويعتقد الشّاعر أن من يهرم، ويقل ماله، يتخلى عنه أهله وأصدقاؤه، وهذه إشارات العزلة عن المجتمع.

وهذه قتيلة، صاحبة الأعشى، تعاقبه على تبدّل أحواله، ونحول جسمه، يقول الأعشى في ذلك:

قَالتْ قُتَيْلَةُ مالِجِسْمِكَ سَابِئاً وَأَرَى ثِيَابَكَ بَالِيَاتٍ هُمَّدا
أَذْلَلْتَ نَفْسَكَ بَعْدَ تَكْرِمَةٍ لها أو كُنْتَ ذَا عَوَزٍ وَمُنْتَظِراً غَدا
أَمْ غَابَ رَبُّكَ فَاعْتَرَتْكَ خَصَاصَةٌ فَلَعلَّ رَبَّكَ أَنْ يَعُودَ مَؤَيَّدا[٢]

فقد ساء قتيلة ما رأته من الشّاعر، فالجسم ناحل، والثوب خرق بالٍ، والحال فقيرة معدمة، يعيش يومه في عوز وفاقه، كأنه عبد، غاب عنه سيده، فتركه يصارع الفقر.

"وما عال الفقر على أحد ولا عدل عليه إلا ردّ عن الحجة وقورن بالخيبة، وانتكثت دونه الحيل، وضاق على الزين، واتسع فيه الشين، وسيم خسفاً وجشم إفراطاً، وحمل هضيمة، وألزم في كل أحواله عاراً ومذمة، وكان ضرعاً مستجدياً"[٣]. والذل الذي حاق بالشاعر جراء الفقر "إنما هو ضرب من الحتم الذي يرهق الإنسان ويدعه يتخلى عن القيم التي تصون كرامتـــه وتحفظ حياة الآخرين فضلاً عن حياته"[٤].

وقد يبدو أن المرأة بعامة في رأي الأعشى، تأبى أن ترى زوجها معرّضاً لحياة الفقر أو البؤس، فذلك أمر لا يروق لها، ولا أدري إن كان ذلك، يعود إلى افتراض قد

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٠٧.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٢٦٣. سايىء: يسوء مَنْ رآه.

(٣) الجاحظ- الأمل والمأمول، ص ٤٥.

(٤) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٢، ص ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتمثل ببعد الرؤية الحضارية لدى المرأة ونظرتها المتفائلة إلى الحياة، أم أنها كانت تهدف إلى إثبات مكانة المرأة وحضورها من خلال مشاركتها الشاعر الزوج للاهتمام بشؤون الأسرة في مجتمع يعيش العوز والفقر في ظل بيئة مغلقة[١].

الغنى والفقر

جاء في كتاب الأمل والمأمول المنسوب للجاحظ قوله: "ليس فضل السعي بزائد في مقسوم الرزق، ولكن الله جعل له سبيلاً إلى إزالة العتب عن النفس ودركاً في الاستسلام لغلبة القضاء والقدر إذ كان على المرء أن لا يقبل على نفسه ذلاً، وليس عليه أن يزيل عنها قدراً حتماً"[٢].

فقد يفهم من العبارة أن الأرزاق مقدرة للإنسان من عند الله تعالى بصرف النظر عن طبيعة السعي الذي يقدمه، ولكن طباع الناس ترمي بصورة غريزية إلى طول البحث والتقصي في طلب الرزق "فالقوى المحركة لسلوك الإنسان هي قواه الجسدية: البحث عن الطعام والبحث عن المسكن والبحث عن الجنس"[٣]. وكان من بعض أدعية العرب في باب الرزق قولهم: "أعوذ بك من بطر الغنى وذلة الفقر"[٤].

وقد عُني الشعر الجاهليّ بالحياة الاقتصادية والمعاشية، فتطرق إلى الغنى والفقر عند المجتمع الجاهليّ، ثم ممتلكات الفرد، والأسرة والقبيلة، ومن الشّعراء الذين تناولوا هذه الظاهرة أوس بن حجر، يقول:

وَقَوْمِي خَيَارٌ مِنْ أُسَيِّدَ شِجْعَةٌ كِرَامٌ إذا ما المَوْتُ خَبَّ وَهَرْوَلا
تَرَى النَّاشِىءَالمَجْهُول مِنَّا كَسيِّد تَبَحْبَحَ فِي أَعْرَاضِهِ وَتَأَثَّلا[٥]

---

(١) انظر صورة المال عند: حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٨، ٤٠-٤١، ٤٤، ٥٠-٥١، ٦٢-٦٣، ٧٣، ٧٥. ابن الاسلت- الديوان، ص ٧١، ٨١. دريد بن الصمّة- الديوان، ص ٦٠، ٩٦. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ٧٢-٧٣. أوس بن حجر- الديوان، ص ١٢٤.

(٢) الجاحظ- الأمل والمأمول، ص ٦١.

(٣) محمد قطب- دراسات في النفس الإنسانية، ص ٢٥٤.

(٤) الجاحظ- البيان والتبيين، ج٣، ص ٢٧٠.

(٥) أوس بن حجر- الديوان، ص ٩١. أسيّد: هو ابن عمرو بن تميم. الشجعة: جمع شجاع. الأعراض: جمع عرض وهو المال والثراء والمتاع. تأثل: تزيّد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يفخر الشّاعر بقومه الذين انحدروا من منابت وأصول كريمة، فمن صفاتهم أنهم لا يقيمون للمال وزناً، فينفقوه في وجوهه، لأنّهم يعرفون أنهم ميتون، وهذه العدوى المستحبة، انتقلت إلى أبنائهم الذين غدوا كسادتهم، لا يبالون في إنفاق المال والمتاع، وهذه النظرة للحياة، ولدت في نفس الإنسان الجاهليّ فلسفة تقضي بأن المال ليس سوى عرض زائل، وجد من أجل تسيير الإنسان دفّة حياته، فلم يعرف عن الإنسان الجاهليّ يوماً أنه سعى إلى أن يكون من ذوي رؤوس الأموال، وأصحاب الثراء، ودليل ذلك أن العربي قدّم راحلته وركوبته قرى للضيفان.

وقد رأى الإنسان الجاهليّ إنفاقه المال في سبيل رفاقه، وتجهيز الجيوش في أوقات الحروب والغزوات رمزاً لتحقيق أمجاد القبيلة، ورفعة لمكانتها بين القبائل، يقول عمرو بن كلثوم:

بَكَرتْ تَعْذُلُنِي وَسْطَ الحَلَالِ ... سَفَهًا بِنْتُ ثُوَيرِ بنِ هِلَالِ
بَكَرَتْ تَعْذُلُنِي في أَنْ رَأَتْ ... إبِلي نَهْباً لِشَرْبٍ وَفِضَالِ
لا تَلُومِينِي فَإِنِّي مُتْلِفٌ ... كُلَّ ما تَحْوِي يَمِينِي وَشِمَالِي
لَسْتُ إنْ أَطْرَفْتُ مَالاً فَرِحاً ... وإذا أَتْلَفْتُه لَسْتُ أُبَالِي
وابْتِذَالِي النَّفْسَ في يَوْمِ الوَغَى ... وطِرَادِي فَوْقَ مُهْرِي وَنِزَالِي(١)

فقد أنفق الشّاعر ماله في وجوه شتّى، فبذله لأصدقاء الشراب والندامى، وأصحاب الفضل، وتجهيز الجيوش، والغزوات في الحروب والمعارك، وهذا اللون من الإنفاق، جعل الشّاعر موضع لوم وعذل، لكنه لا يبالي، فقد عدّ هذا البذل من شيم الكرام. ، فالمال يهلك ويبلى، وجمعه في غير إنفاق ذل لصاحبه، وبذله مع النفس فيه خلود وحياة.

ويشير حاتم الطائي إلى شدة كرمه فيطلب من عاذلته نوار ألا تحيي ذكرى أفعال مضت في سبيلها، يقول:

مَهْلاً نُوَارُ أَقِلِّي اللَّوْمَ والعَذْلا ... ولا تَقُولِي لِشَيْءٍ فَاتَ مَا فَعَلا
ولا تَقُولِي لِمالٍ كُنْتُ مُهْلِكُهُ ... مَهْلاً وإن كُنْتُ أُعْطِي الجِنَّ والخَبَلا(٢)

---

(١) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٥٧. أطرفت مالاً: جمعته. يخلق: يُبلي. الحلال: جمع الحلة، وهي جماعة بيوت الناس. ابتذالي النفس: المخاطرة بها. الطّراد: الهجوم.

(٢) حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان الغنى إرثاً مكتسباً عند بعض القبائل العربية، فقد وجد في المجتمع الجاهليّ أناس تبدّلت أحوالهم، وصيرتهم الظروف أغنياء، بعد فقر وجوع، يقول زيد الخيل:

قَدِ انْبَعَثَتْ عِرْسِي بِلَيْلٍ تَلُومُنِي ... وَأَقْرِب بِأَحْلامِ النِّسَاءِ مِنَ الرَّدَى
تَقُولُ أَرَى زَيْداً وَقَدْ كَانَ مُقْتِرًا ... أَرَاهُ لَعَمْرِي قَد تَمَوَّلَ واقْتَنَى(١)

وإزاء طبقة الغنى والثراء في المجتمع الجاهليّ، فقد وجدت صورة مناقضة لها تماماً، تتمثل في طبقة الفقراء والمحرومين، تلك الطبقة التي سادت عناصرها معظم فئات المجتمع الجاهليّ. ولعل الشنفرى الأزدي خير مَن صوّر هذا الواقع، وتمثله في شعره يقول:

وَآلَفُ وَجْهَ الأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِها ... بِأَهْدَأَ اتْنِبيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ
وَأَعْدِلُ مَنْحُوضاً كَأَنَّ فُصُوصَهُ ... كَعَابٌ دَحَاهَا لاعِبٌ فَهْيَ مُثَّلُ
وَأُعْدِمُ أَحْيَاناً وَأَغْنَى وَإِنَّمَا ... يَنَالُ الغِنَى ذُو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ
فَلَا جَزِعٌ مِنْ خُلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ ... وَلا مَرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أَتَخَيَّلُ(٢)

يكشف الشّاعر واقعه المعاشي الذي ألبسه ثوب الفقر والعوز، فصار الفقرعنده، إلفاً وعادة. والشّاعر، لا يحاول أن يثأر لواقعه المعاشي، فيتمرد عليه، بل على العكس، فهو يتجلّد للفقر، قنوع بما تقدم له الحياة، تراه فقيراً تارة، وغنياً أخرى، لا يطلب الغنى إلا من وجوهه الصحيحة، وهو لقناعته لا يضعفه فقر، ولا يطربه غنى، فيذهب بعقله.

ويغدو الشّاعر بصيراً بما تمليه عليه الحياة من بؤس، فقد تعود على خشونة العيش، حتى باتت رياضة يومية يفترش الأرض بمنأى عن أبناء جنسه، فيتوسد ذراعاً أهزلها الجوع وهو راض بكل ذلك، وهذا يعبر عن فلسفة الزهد في الحياة التي كان يعيشها الشّاعر.

---

(١) زيد الخيل- الديوان، ص ٢٨.

(٢) الشنفرى- الديوان، إميل، ص ٦٧-٦٩. الأهدأ: الشديد الثبات. تنبيه:تجفيه. السناسن: فقرات العمود الفقري. أعدل: أتوسّد ذراعاً. المنحوض: الذي قد ذهب لحمه. الفصوص: مفاصل العظام. المتبذل: المسف، الخلة: الفقر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعد الشنفرى واحداً من بين الصعاليك الذين "جسموا في شعرهم وحياتهم موقف الحيوان في الصحراء، وكما يُصرع حيوان آخر، أخذ الصعلوك يصرع في شعره أو حياته إنساناً آخر... فلم يكن الصعلوك شاعراً فقيراً ثائراً على الغنى والأغنياء فحسب، بل كان ثائراً على الحياة في جملتها، مستهتراً ومفتوناً بها"(١).

ومقابل هذه الصورة الخشنة من الحياة التي تتخذ القوة أسلوباً تنتزع به وسائل العيش، فقد وجدت صورة أخرى مضادة، تتمثل في أن الإنسان يأتيه رزقه من حيث لا يدري، يقول امرؤ القيس:

وَلَبَيْنَا المرءُ يَهْوِي قُدُما أَفْسَد الدَّهْرُ غِنَاه فَفَسَد
وَبِجَهْدٍ يَتَنَضَّى عَيْشَهُ عَاضَهُ الدَّهْرُ ثَرَاءً فَمَجَد(٢)

لعل في هذا اللون من الشعر اتجاهاً تعليمياً، يريد الشّاعر أن يعززه في النفوس، فقد يعيش الإنسان حياة الغنى، ثم ينقلب عليه الدهر فيصيّره فقيراً، وقد يعيش شقياً معدماً، ثم يغنيه الدهر فيصيب ثراء ومجدا.

"ولعل هذا السلوك المعاشي يفسر غريزة تنازع البقاء التي تدفع الإنسان للمحافظة على حياته، وتدفع المرء إلى طلب المال والبراء خوفاً من الفقر الذي يتنفس فيه روح الموت"(٣).

ومن صور الفقر، قول تأبّط شرّاً:

فَأَقْسَمْتُ لا أَنْسَى وإنْ طَالَ عَيْشُنَا صَنِيعَ لَكِيزٍ والأَجلّ بنِ نَوْفَلِ
بَكَى إذَا رَآنا نَازِلَيْنِ بِبَابِه وَكَيْفَ بُكَاءُ ذي القَلِيل المُعَيَّل
فَلاَ وَأَبِيك ما نَزَلْنَا بِعَامِرٍ ولا عَامِرٍ ولا الرَّئيسِ ابنِ قَوْقَل(٤)

فالشّاعر، يذكر حادثته مع لكيز وقومه، حين نزل بهم ضيفاً، ورأى منهم البخل وسوء المعاملة. فقد كان بعض الناس يسوءه أن يحل به ضيف فيتجهّم له، لعلة

---

(١) مصطفى ناصف- دراسة الأدب العربي، ص ٢٩٥.

(٢) امرؤ القيس- الديوان، ص ٢١٧. يهوي: أي يجري في عيشه ومتقلبه. تنضّى عيشه: يعني يستله ويحتال في تخلّصه لنفسه. فمجد: فشرف وارتفع.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، انظر: ج٢، ص ٣٩.

(٤) تأبط شراً- شعره، ص ١٢٦. المعيّل: ذو العيال. عامر: هو ابن مالك أبو براء ملاعب الأسنة. عامر: عامر بن الطفيل. ابن قوقل: مالك بن ثعلبه أحد بني عوف بن الخزرج.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفقر، وقلة المال، لأنّه لا يستطيع أن يكرم مَنْ يفد اليه، فيخشى منه المذمة والمنقصة، وكان العرب قد "انتشر الفقر والبؤس فيهم، ولم يكن فيهم من الأغنياء إلا قلة، وكانت الغالبية فقراء، ومعظمهم فقراء مدقعين، ومن هنا شاع السلب والنهب وقطع الطرق[١]".

وقد يكون للبخل دوره في هذه المسألة، فمن الغرابة بمكان أن يلجأ الإنسان إلى البكاء، إذا حلّ به ضيف، أو نزل إنسان بباب بيته، كما هو الحال عند لكيز الذي أثار دهشة الشّاعر.

ولهذا، فقد وصف الشّاعر لكيزاً وقومه، بالبخل الشديد، وعلى رأسهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وعامر بن الطّفيل، ورئيسهم ابن نوفل. والشّاعر لا يكتفي بأن يصفهم بالبخل، بل يريد أن يشهّربهم إعلامياً فينتقص من مكانتهم الاجتماعية بين قبائل العرب، وفي ذلك ضرر كبير. ويقدم عبيد بن الأبرص صورة قاتمة للإنسان البخيل فيقول:

إذا ما كُنْتَ لحَّاساً بَخِيلاً ... سَئُولا لِلْمُطَاعِ وذا عِقَاصِ
بَكَى البَوَّابُ مِنْك وقَال هَلْ لي ... وهَلْ للبَابِ مِنْ ذا مِنْ خَلَاصِ
فَيُوشِكُ أنْ يَرَاك له عَدُوّا ... عَداوَةَ مَنْ يُلاطِمُ أو يُنَاصِي[٢]

يصور الشّاعر فئة البخلاء حين يقف أمام بيوتهم سائل يطلب حاجة، فقد يأخذهم الهم والغم ويتخذونه عدواً يتعجلون الخلاص منه.

"والبخل بالمال متأت عن البخل في الحياة، ومن يبذل المال فهو يبذل الحياة أيضاً مؤمناً بقدرة الإنسان في الانتصار على العاهات والمصاعب التي تعترضه وأنه قادر على أن يستدر من الحياة رزقاً آخر، لأنه لا يتقبل الوجود تقبلاً ويستسلم له استسلاماً، بل يصنعه صنعاً ويسيره وفقاً لإرادته"[٣].

واتخذت ظاهرة الفقر بعداً اجتماعياً، تمثل في إحساس الجاهليّ بطبيعة الفقراء ومعرفة مدى معاناتهم، يقول عروة بن الورد:

---

(١) علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي، جـ١، ص ٦٨.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٧٨. العقِص: البخيل.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٢، ص ١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا قلتُ قد جاءَ الغِنَى حالَ دونَهُ أَبُو صِبْيةٍ يَشْكُو المَفَاقِر أَعْجَفُ
له خُلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحقُّ دُونَها كَرِيمٌ أَصَابَتْهُ خُطُوبٌ تُجَرِّفُ
رأَيتُ بنِي لُبْنَى عليهِم غَضَاضةٌ بُيُوتُهم وَسْطَ الحُلُولِ التَكَنُّفُ[١]

لا يزال الشّاعر في حرب مع الفقر، فلم يشعر قط أنه عاش ذات يوم غنياً، وإذا ما أصابه غنى فسرعان ما يأتي رجل، يشكو ما به من عوز وحاجة، فيعطيه مما يملك دون تردد. لأنّ واقع الحال الذي يعيش فيه هؤلاء الفقراء من بني لبنى، يلزم الآخرين أن يمنحوهم الرعاية والعطاء، فلا بيوت يأوون إليها، وملاذهم الوحيد قوم الشّاعر، يجدون فيهم خير مُعين لهم، فهم لكثرة حيائهم وخجلهم، لا يسألون الناس، ولا يستجدون أحدا. فإذا جاوروا قوماً، فإنهم يلجأون إلى ناحية معزولة عنهم يتخذونها كنيفاً لهم. وهكذا شأن الفقراء مع الأغنياء.

وهذه الصورة الاجتماعية التي يقدمها الشّاعر، تكشف عن واقع اجتماعي، تكثر فيه حالات الفقر والجوع، وأن دور الشّاعر فيه إيجابي، يحاول من خلاله تعميم مبدأ الاشتراكية في الحياة، واقتسام الأموال والحقوق بين الناس بشكل متساوٍ، تحقيقاً للعدالة الاجتماعية في العيش.

"على هذا النحو كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة، وضريبة يدفعها القوي للضعيف والغني للفقير، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم فيها نصيباً بل حقاً يغتصبونه إن لم يؤدّ لهم، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية، والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين: طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء "فالغزو والاغارة للسلب والنهب" لم يعد عنده وسيلة وغاية وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعته الإنسانية وفكرته الاشتراكية"[٢] وقد تجلت صورة الفقر في أجمل معانيها الإنسانية عند الشنفرى فيقول:

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتّى أُمِيتَهُ وأَضْرِبُ عنه الذِّكْرَ صَفْحاً فَأُذْهَلُ
وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى له عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امرُؤٌ مُتَطَوِّلُ[٣]

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ١٠٧-١٠٨. خلّة: حاجة. الغضاضة: الحياة.

(٢) يوسف خليف- الشعراء الصعاليك، ص ٤٧.

(٣) الشنفرى- الديوان، (إميل)، ص ٦٢. امرؤ متطوّل: منّان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصور الشّاعر جانباً مميزاً من الصراع مع الجوع الذي بات يهدد حياته، فاتخذ منه موقف الصدّ والإحجام، وضرب عنه صفحاً.

والشّاعر لديه استعداد أن يستفّ تراب الأرض خير من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه، فيمنّ عليه، وهو بهذه الصفة، يعزز مفهوم عزة النفس، على أنها قيمة إنسانية، ويبدو أن الشّاعر استوحى هذه الصورة من واقع حياة الصعلكة التي تتخذ هذه القيمة مبدأً سامياً لها، ولو كان معدن الشّاعرغير ذلك، لحصل على طعامه بكل يسر وسهولة، فلا معيق له. وهو الذي يقول:

وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إلاَّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلَكِنَّ نَفْساً مُرَّةً لا تُقِيمُ بي عَلَى الذَّامِ إلا رَيْثَما أَتَحَوَّلُ(١)

فالأمر إذن، ليس متعلقاً بكيفية حصول الإنسان على طعامه، بقدر ما يتعلق بالبعد القيمي، وتعزيز الاتجاهات الإيجابية في النفس، التي يناضل الشّاعر من أجلها لإبقائها عزيزة مصونة، ولعل رفعة نفسه التي تسعى به دائماً إلى السمو، هي التي تحول بينه وبين حصوله على الطعام، فهو حريص على ألا يُهان بأي عيب أو ذم، ولأجل ذلك، فقد أبت نفسه قبول الذل، فكانت طواعية لأنفة الجوع، وكبرياء الفقر، انظر إليه وهو يقول:

وَأَطْوِي على الخَمْصِ الحَوَايَا كما انْطَوَتْ خُيُوطهُ مارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ
وأَغْدُو على القُوتِ الزَّهِيدِ كما غَدَا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ(٢)

يصور الشّاعر درجة الجوع التي يعانيها، فقد أخذت أمعاؤه تتلوى كالحبال التي أتقن فتلها، لا يجد قوت يومه، فتراه يتنقل من مكان إلى آخر كوحوش الصحراء التي تجوب الفيافي والوهاد، بحثاً عن طعامها، وبهذا، فقد تتساوى حياة الإنسان الجاهليّ مع الأحياء الأخرى في كيفية الحصول على الطعام. وهذا الطموح الذي يسعى إليه الشّاعر يعزز مبدأ الاعتماد على الذات، في مجتمع يفتقر إلى تحقيق مفهوم العدالة الاجتماعية، وتكافؤ الفرص.

---

(١) الشنفرى- الديوان، ص ٦٣.

(٢) الشنفرى- الديوان (إميل)، ص ٦٣. الخمص: الجوع. الحوايا: جمع الحوية وهي الأمعاء. ماريّ: فاتل. تغار: يحكم فتلها. الأزل: صفة للذئب القليل اللحم. تعاداه: تتناقله. التنائف: الأرضون. الأطحل: الذي في لونه كدرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه النظرة التي يراها الشنفرى بعمق رؤيته الإنسانية المنسجمة مع واقع إنساني يطمح إلى تحقيق شيء من العيش الكريم، وقدر من العدالة الاجتماعية تتمثل في أن "للإنسان حاجات هرمية تبدأ من أسفل الهرم بالحاجات العضوية في المأكل والمشرب، ثم الحاجات الاجتماعية كالعيش مع جماعة من البشر مثله، ثم تليها حاجات نفسية كالشعور بالأمن والمحبة المتبادلة، وتأتي على قمة ذلك الحاجة إلى تحقيق الذات"(١).

وتبدو ظاهرة الفقر، وما ينتج عنها من معاناة، مرتبطة بمجتمع الصعاليك أكثر من أي مجتمع آخر في الحياة الجاهليّة، يقول حاتم الطائي:

لَحَى اللّهُ صُعْلُوكاً مُنَاهُ وهَمُّهُ ... مِنَ العَيْشِ أنْ يَلْقَى لَبُوساً وَمُطْعَمَا
يَنَامُ الضُّحَى حتّى إذا لَيْلُه اسْتَوَى ... تَنَبَّه مَثْلُوجَ الفُؤَادِ مُوَرَّما
مُقِيماً مَعَ المُثْرِينَ لَيْسَ بِبَارِحٍ ... إذَا كَانَ جَدْوَى مِنْ طَعَامٍ وَمَجْثَمَا(٢)

فالشّاعر يعطي تصوراً واضحاً للحياة اليومية التي يمارسها الصعلوك، فكل ما يتمناه هو الحصول على لباسه وقوته اليومي، ولتحقيق هذه الغاية، فهو ينام في النهار، ويقضي ليله ضارباً في الزمان والمكان، حتى بات النهار هاجسه وقلقه، والليل أمله وسعادته، وإذا ما أتى قوماً مُطْعَمين، فإنه يقيم عندهم، لا يبرحهم، لأنّه يجد عندهم ضالته المنشودة المتمثلة في الطعام.

"وهذه المعاناة اليومية التي يكابدها الصعلوك، جاءت نتيجة لظلم مجتمعهم النظامي، ففروا عنه ليقيموا لأنفسهم مجتمعاً فوضوياً شريعته القوة ووسيلته الغزو والإغارة وهدفه السلب والنهب، ووجدوا في الصحراء الفسيحة التي لا تقيدها قيود مجالاً يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي ويقيمون دولتهم الفوضوية حيث يحيون حياة متمردة، تسودها العدالة الاجتماعية وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع"(٣).

وقد نجد ظاهرة الفقر هذه، لدى فئة من الصعاليك، والنصوص السابقة تشير إلى أن مجتمع الصعاليك وحدهم الذين يصورون الفقر والفقراء، وعلى الرغم من

(١) عبد الله الغذامي- الخطيئة والتكفير، ص ٢٤٢.

(٢) حاتم الطائي- الديوان، ص ٨٢. استوى: أقبل. مثلوج الفؤاد: بليده، المورم: الرجل الضخم، الجدوى: العطية.

(٣) يوسف خليف- الشعراء الصعاليك، انظر: ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العوز والفاقة، إلا أن الصعلوك البائس المحروم، يكاد يفوق بعض طبقات المجتمع الجاهليّ، بعزّة النفس والإباء والنخوة، وهي كلها قيم مستمدة من روح الحياة العربية في ذلك العصر، وقد يستدل من شعرهم، أنهم لا يسلكون الطرق غير الشريفة للحصول على مكاسب الحياة من مال أو متاع.

ومقابل طبقة الفقراء والصعاليك، وجدت في المجتمع الجاهليّ طبقة الأغنياء الذين يتحدثون عن سعة رزقهم ورغد عيشهم، يقول عدي بن زيد:

وَما دَهْرِي اطْبَأَنَّك غَيْر أَنّي بَنَى لي وَالِدِي بَيْتاً يَفَاعَا
أَخَذْتُ بِدَأْبِهِ فَوَرِثْتُ عَنْهُ مَكَارِمَ لم تَكُنْ منه ابْتِدَاعا[١]

فقد عاصر الشّاعر دهراً لا تبعث الحياة فيه على اطمئنان العيش، فقد بنى له أبوه بيتاً عالياً، ضمن له مستقبل أيامه، فسار على نهجه، وورث عنه مكارم الأخلاق التي يتصف بها حقيقة، لا بدعة وضلالة. وفي هذا ما يشير إلى قلق الإنسان الجاهليّ في حياته، فراح يتساءل عن مصائر الأيام وخفايا الدهر.

وأشار غير شاعر من شعراء الجاهليّة إلى طبيعة الحياة الاقتصادية، فأخذ بعضهم ينعى قومه الذين فارقوا الديار، وتركوا المال والممتلكات في البر والبحر يقول أبو دؤاد الإيادي:

أَوْحَشْتُ مِنْ سَرُوبِ قَوْمِيَ تَعَارُ فَأَرُومٌ فَشَابَةٌ فَالسَّتَارُ
بَعْدَ ما كَانَ سِرْبُ قَوْمِيَ حِيْنا لَهُم النَّخْلُ كُلُّها والبِحَارُ[٢]

يقف الشّاعر متحسراً على ما كان يملكه قومه من إبل وخيل ومنازل تعار وشابة والسّتار، وقد أصبحت اليوم خالية مقفرة، من أهلها وأصحابها، حتى لكأن هذه الممتلكات، فنيت بفناء أصحابها. ويعكس الشّاعر دور المجتمع الجاهليّ في استثمار الأرض، ومدى عنايتهم بالزراعة، والموارد الاقتصادية[٣].

---

(١) عدي بن زيد- الديوان، ص ٣٥. اليفاع: العالي.

(٢) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣١٦. سروب: جمع سرب وهو المال السارح.

(٣) انظر هذه الصورة عند: تميم بن مقبل- الديوان، ص٥٤٥. بشربن أبي خازم- الديوان، ص ٨٦-٨٧. الأفوه الأودي- الديوان، ص ٩. عمرو بن شأس- شعره، ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجم عن ظاهرة الغنى في المجتمع الجاهليّ أن شاعت حياة الترف والرفاهية في أوساطه، يقول الأعشى:

وكَأْسٍ شَرِبتُ علَى لَذَّةٍ وأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْها بِهَا
لِكَي يَعْلَمَ النَّاسُ أنّي امرُؤٌ أَتَيْتُ المَعِيشَةَ مِنْ بَابِها
وَشَاهِدُنا الوَرْدُ والياسَمِيـ نُ والمُسْمِعَاتُ بِقُصَّابِها[1]

إن ما يمارسه الشّاعر من ترف في العيش، يمثل جانباً حضارياً من حياة المجتمع الجاهليّ، وتمتع الشّاعر بهذه الأنماط الحياتية، من شرب الخمر، ومشاهدة الورد، والسماع إلى المغنيات، وآلات الطرب، يكشف عن حياة مترفة، تمارسُ طقوسها، شريحة اجتماعية من شرائح المجتمع الجاهليّ.

والشّاعر يعرف كيف يعيش حياته، فقد جاءها من بابها الواسع، فخبر مجاهلها، حتى ذلت له طائعة.

وقد يكون ترف العيش أحياناً، سبباً في قعود الأمة عن تحقيق غاياتها وأمجادها. فيجعلها عرضة للانقسام والضعف، يقول لقيط الإيادي:

مَالِي أراكُم نِيَاماً في بُلَهْنِيَةٍ وقد تَرَوْنَ شِهَابَ الحَرْبِ قد سَطَعا
فَاشْفُوا غَلِيلي بِرَأيٍ مِنْكُمْ حَسَنٍ يُضْحِي فُؤَادِي له رَيَّان قَد نَقَعا
ولَا تَكُونُوا كَمَنْ قد بَاتَ مُكْتَنِعاً إذا يُقَالُ له: افرجْ غُمَّةً كَنَعا
صُونُوا جِيَادَكُم واجْلُوا سُيُوفَكم وَجَدِّدُوا لِلْقِسيِّ النَّبْلَ والشُّرُعَا
اشْرُوا بِلَادَكُمْ في حِرْزِ أَنْفُسِكُمْ وحِرْزِ نِسْوَتِكُمْ لا تَهْلَكُوا هَلَعا[2]

يحاول الشّاعر أن ينهى قومه عن ضعف عزائمهم، نتيجة ركضهم وراء الدّعة ورغد العيش، فصاروا بذلك في غفلة من أمرهم، وأقعدهم ذلك عن الهمم العالية ومكارم الأمور. والمجتمع الذي ينظر أبناؤه إلى الحياة أنها ترف ومتاع، فإن ذلك من آيات انهياره، والشّاعر هنا يترفع عن مثل هذه الأمور، فيعاتب أبناء قومه بأنهم في متعهم وغيّهم سادرون، فاقدو الهمة والعزيمة، ليس لهم طموح، يتمنى

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٢٠٩.

(٢) لقيط الإيادي- الديوان: ص ٤١-٤٢ بلهنية: رخاء في العيش. الغليل: حرارة الجوف. كنع:خشع وانقبض. الشّرع: الأوتار الرقاق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشّاعر أن يكون لهم هدف سام، وبصيرة ثاقبة، يشفون بها غليله، فقد قتلته الغيرة عليهم، وعبثاً يحاول الشّاعر أن يدب الهمّة في نفوسهم، فيعدون العدّة للغزو والقتال، دفاعاً عن الحمى والشرف.

وكانت الزينة في الملبس والمأكل والمشرب، مظهراً من مظاهر الترف الحضاري الذي يفخر به الإنسان الجاهليّ، يقول سلامة بن جندل:

فكَأَنَّ مَدْفَعَ سَيْلِ كُلِّ دَمِيثَةٍ ... يُعْلَى بذِي هُدُبٍ مِنَ الأَعْلاقِ
مِنْ نَسْجِ بُصْرَى والمَدائِنِ نُشِّرت ... لِلْبَيْعِ يَوْم تَحَضُّر الأَسْوَاقِ
فَوَقَفْتُ فيها نَاقَتِي فَتَحَنَّنَت ... لِهَوَى الرَّوَاحِ تَتُوقُ كُلَّ مَتَاقِ[1]

يصف الشّاعر في رحلته أماكن في بصرى الشام، ومدائن كسرى ، حيث الناس دائبون في معاملاتهم التجارية، في أسواق البيع والشراء، فشاق ذلك الشّاعر، ووقف عندها حيناً من الزّمن، ينظر إلى الثياب الموشاة، وهي تتدلى من أسقف البيع.

ثم ينظر إلى ناقته، فيراها تحن وتشتاق للعودة إلى الوطن والديار، وفي ذلك إشارة إلى النشاط الاقتصادي والتجاري اللذين كانا شائعين في البيئة الجاهليّة. ولعل فروغ الشّاعر من مهمات البيع والشراء في تلكم الأسواق، كان يتزامن مع حنين ناقته إلى الرواح، والعودة إلى الوطن، حيث الأهل والأحبة.

وحياة الترف مرتبطة بأمن الإنسان الجاهليّ واستقراره، فهذا امرؤ القيس يتحدث عن حياة الرخاء والرفاهية التي كان يعيشها مع قومه قبل غزوةقرمل يقول:

وكُنَّا أُنَاساً قَبْلَ غَزْوَةِ قَرْمَلٍ ... وَرِثْنَا الغِنَى والمَجْدَ أَكْبَرَ أَكْبَرا
وما جَبُنَتْ خَيْلِي ولَكِن تَذَكَّرَتْ ... مَرَابِطَهَا من بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرا
وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنَا ... نِقَاداً وحتَّى نَحْسِبَ الجَوْنَ أَشْقَرَا[2]

ينسب الشّاعر المجد والغنى إلى قومه، إذ لا تزال هذه الأمجاد إرثاً لهم، وكانوا قبل أن يغزوهم قرمل، في ترف ونعيم، لا يكدر صفو حياتهم شيء، يفرطون في

---

(١) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٣٩. دميثة: أرض سهلة لينة. الأعلاق: متاع الرجل.

(٢) امرؤ القيس- الديوان، ص ٧١. النّقاد: غنم صغار. الجون: الفرس الأسود. قرمل: ملك من ملوك اليمن وكان غزا قوم امرىء القيس، أو غزَوْه، فنال منهم وظفر بهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشرب إلى حد لا يستطيعون فيه التفريق بين صغير وكبير، أو بين أسود وأبيض، حتى أنهم حسبوا الخيل غنماً صغيرة، لكثرة مبالغتهم في الشرب. ويبدو أن امرأ القيس، قد سئم الحرب في غزوة قرمل، فتذكر أيام مجونه ولهوه، فأخذت نفسه تحن إلى تلك الأوقات، فيعيش لذاته، لكنه جعل الحنين لخيله ادعاء ليخفي شوق نفسه إلى تلك الديار. وهذا ما يشير إلى تفضيله حياة اللهو على حياة الجد.

ورغد العيش الذي عبر عنه شعراء الجاهليّة، تمثل في أدوات الزينة والطيب التي تزدان به المرأة الجاهليّة، انظر إلى علقمة الفحل، وهو يصور المرأة بالأترجّة داخل الظعن يقول:

لَمْ أَدْرِ بالبَيْنِ حتّى أزْمَعُوا ظَعَناً ... كلُّ الجِمَالِ قُبَيْلَ الصُّبْحِ مَزْمُوم
يَحْمِلْنَ أترُجّةً نَضْخُ العَبِيرِ بها ... كأنَّ تَطْيَابَها في الأَنْفِ مَشْمُومُ
كأنَّ فَارَةَ مِسْكٍ في مَفَارِقِها ... لِلْبَاسِطِ المُتَعَاطِي وهو مَزْكُومُ[1]

فالمرأة التي يتحدث عنها الشّاعر، ذات ترف، ونعومة عيش، والعبير الذي يفوح من ثيابها ومفارقها، يشمه من كان مزكوماً لشدة عبقه.

والنعيم في ثقافة الإنسان الجاهليّ، لا يدوم لأحد، مهما طال أمده، يقول الأسود بن يعفر:

أيْنَ الذينَ بَنَوْا فَطَالَ بِنَاؤُهُم ... وتَمَتَّعُوا بالأَهْلِ والأَوْلَادِ
فإذَا النَّعِيمُ وكلُّ ما يُلهَى بِه ... يَوْماً يَصِيرُ إلَى بِلىً ونَفَادِ[2]

فالنعيم الذي يعيشه الإنسان ويتمتع به، لا يقتصر على ما يملك من مالٍ ومتاع، بل يتجاوز ذلك فيشمل الأهل والولد، وحقيقة الأمر ما ورد في القرآن الكريم ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا﴾[3]، يتمتع بها الإنسان إلى أجل ثم يؤول كل شيء إلى هلاك وبلى.

---

(١) علقمة الفحل- الديوان، ص ٥١-٥٣. مزموم: شدّ بالزمام. الأترجّة: نوع من الثمر من جنس الليمون، وهو هنا كناية عن المرأة. النّضخ: البلل. العبير: الزعفران. فارة المسك: وعاؤه. وفارة المسك: دابة صغيرة أشبه بالخشف، يؤخذ منها المسك،كانوا يذبحونها، ويجعلون دمها في حقيبة من الجلد حتى يتجمد فيصير مسكاً.

(٢) الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢٨.

(٣) سورة الكهف، الآية ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإنسان الجاهليّ لا يروم، يحث على ضرورة أن يتمتع المرء في حياته، قبل أن يفنى ويهلك، يقول امرؤ القيس:

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فإنَّكَ فَانٍ مِنَ النَّشَوَاتِ والنِّسَاءِ الحِسَانِ
مِنَ البِيْضِ كالآرَامِ والأُدْمِ كالدُّمَى حَوَاصِنُها والمُبْرِقَاتِ الرَّوَانِي[١]

ويقتنص الإنسان الجاهليّ لذائذ الحياة خلسة من الزّمن، فإذا ما توافرت له سبل الحياة الهانئة، راح يسرع السعي إليها، ولعل هذه الظاهرة تتجسد في الإنسان، فلا يقيدها زمان أو مكان. وهذا عديّ بن زيد يحث الإنسان على التزود بالخير والرزق كلما أمكنه ذلك سبيلاً، يقول:

ولا تُقْصِرَنْ عن سَعْيِ مَا قَدْ وَرِثْتَهُ وما اسْطَعْتَ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِكَ فَازْدَدِ
وَعَدِّ سِوَاهُ القَوْلَ واعْلَمْ بأنَّهُ مَتَى ما يُبِنْ في اليَوْمِ يَصْرِمْكَ في غَدِ[٢]

يقوم مبدأ الشّاعر في الحياة على ضرورة أن ينتهز الإنسان الظروف المواتية له، فإذا ما أصابه خير أو رزق، عليه أن يتزوّد منه، وبغير ذلك، فلن يكون على صواب؛ لأنّ الفرص قد لا تكون مواتية في جميع الأحوال والظروف، فعلى الإنسان أن ينال حظه من الدنيا، لأنّ ما يصيبه اليوم، قد يخطئه في الغد[٣].

الطعام والشراب:

"قال بعض الحكماء: عليكم بالرحل والارتحال، ونصب البدن، واحتياض الغمرات، واستهال الوعور، واجتراء أودية الرغبة لارتياد المنفعة وطلب المعيشة، فإن الحازم لا يدع لدعة نفسه ومصلحة شأنه مصعداً إلا صعده ولا موطّأً إلا التمسه، ولا مرجّماً إلا رجمه ولا مضيقاً إلا سلكه"[٤].

---

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ٨٧-٨٨. الأدم: اللاتي يضربن إلى السّمرة. الحواصن: العفائف. المبرقات من النساء: اللواتي يبرقن للرجال. أي يبرزن حليهن ومحاسنهن. الرّواني: الدائمات النظر.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ١٠٦.

(٣) انظر حياة الترف والنعيم عند: الأعشى- الديوان: ١٨٣-١٨٥، ٢٧٩، عنترة- الديوان، ص ٢٠٣، ٢١٤-٢١٥، الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢٢٦-٢٧، ٥٢-٥٣، امرىء القيس- الديوان، ص ٣٤. عروة بن الورد- الديوان، ص ١٢٥، بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٦٤-٦٥، السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٨، لبيد بن ربيعه- الديوان، ص ٧٠-٧١، عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٢٥، عدي بن زيد- الديوان، ص ١٧٢، طرفة بن العبد- الديوان، ص ٧-٩، لقيط الإيادي- الديوان، ص ٤٥.

(٤) الجاحظ- الأمل والمأمول، ص ٥٥-٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد نلحظ من هذا أن سعي الإنسان وراء رزقه من أهم مقومات وجوده، وإذا ألقينا نظرة على الإنسان الجاهلي موضوع هذا البحث، فإننا نجده يتمثل ما توحي إليه العبارة السابقة تمثلاً حقيقياً؛ لأن واقع الحياة بكل أنواع معاناتها تفرض على إنسانها هذا العنت والقهر، وما يترتب على ذلك من ممارسات الفناء والدمار.

فالعرب الجاهليون "هم نتيجة إقليم مطلق، لا يصد هواءه بناء، ولا يحجب شمسه غيم، لم يحبسهم زرع يتعهدونه، ولا صناعة يعكفون عليها، وهذا النوع من البيئة حدد نوع معيشتهم فهم رحّل، يتطلبون الكلأ، فثروتهم تحت رحمة الطبيعة، فقد يقل المطر فيقل المرعى ويسوء العيش"(١).

"والإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره"(٢) "وليست هناك في الحقيقية ظاهرة كونية لم تشغل الإنسان القديم، فخلع عليها إحساسه وشعوره في شكل حكاية تصويرية، وربما كانت ظاهرة الخصب والجدب من أكبر الظواهر الكونية التي شغلت الإنسان القديم بحيث أصبحت لكل شعب من شعوب العالم أسطورة تحكي بشكل أو بآخر قصة الخصب والجدب"(٣).

"وحاجة الإنسان إلى الطعام إنما هي من أجل ما يأخذ الهواء من جسده، فيحدث فيه خلل، فإذا أكل اللحم فقد رم الجسد بما هو من جنسه،، فكأنه رقع الديباج بالديباج، فإذا أكل غير اللحم فكأنه رقع الديباج بالكرباس"(٤).

قضى الإنسان الجاهليّ شطراً من حياته، مشرداً بين مجاهل الزمان والمكان، يندب فيها حظه من الدنيا، فراح يضرب في الأمصار هنا وهناك، يقاسي قحل الطبيعة، وقسوة المجتمع الذي أدار له ظهره في أغلب الأحيان، فأخذ يبحث عن لقمة عيشه يقيم بها أود حياته، ثم مضى حيث قاده الزّمن، فواجه تحديات كبيرة من الطبيعة، بمفهومها الواسع والمجتمع المحيط، حتى غدا وحيداً يقارع أحداث الحياة ويصارع أهوالها.

---

(١) أحمد أمين- فجر الإسلام، انظر: ص ٤٦.

(٢) ابن خلدون- المقدمة، ص ٢٤١.

(٣) نبيلة إبراهيم- الأسطورة، ص ٣٠.

(٤) العسكري- ديوان المعاني، ج١، ص ٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خلال هذا الواقع، فقد عانى الإنسان الجاهليّ كثيراً في الحصول على طعامه وشرابه، فكان يلتقطه من بين براثن الزّمن وأهوال الحياة، بمعزل عن مجتمعه الذي حاول أن يهمل أبناءه فلم يعرهم أي اهتمام.

ولذلك، فقد وجد الإنسان الجاهليّ، مشقة وعنتاً كبيرين في كيفية الحصول على ما يقيم أوده من طعام وشراب، ولترجمة هذا الواقع الإنساني، كان الشّعراء الجاهليّون سجّلوا معاناة الإنسان الجاهليّ في معظم أشعارهم التي تعكس الواقع الاجتماعي المضطرب في كثير من جوانب الحياة، فكانت ثمّة لوحات فنية تعبر عن هذا الواقع، يقول تأبط شراً:

وَقِرْبَةِ أَقْوَامٍ جَعَلْتُ عِصَامَها ... عَلَى كَاهِلٍ مِنِّي ذَلُولٍ مُرَحَّلِ
وَوَادٍ كَجَوْفِ العِيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ ... بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كالخَلِيعِ المُعَيَّلِ
نَسْقِي قَلائِصَنَا بِمَاءٍ آجِنٍ ... وَإِذَا يَقُومُ بِهِ الخَلِيعُ يُعَيَّلِ
طَرَحْتُ لهُ نَعْلاً مِنَ السِّبْتِ طَلَّةً ... خِلافَ نَدًى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مُخْضَلِ
فقلتُ لهُ لَمَّا عَوَى إنَّ شَأْنَنَا ... قَلِيلُ الغِنَى إنْ كُنْتَ لما تَمَوَّلِ
كِلانَا إذا مَا نَالَ شَيْئاً أَفَاتَهُ ... وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وَحَرْثَك يَهْزَلِ[1]

فقد اقتحم الشّاعر للحصول على الماء، وادياً سحيقاً كجوف حمار الوحش، لم يسمع فيه، سوى ذئب يعوي من شدة الجوع والعطش، اجتمع وإياه عند مضيق ذلك الوادي، حيث الماء الآجن فاستسقى الشّاعر منه، وسقى إبله وملأ قربته ماء.

"واستعار الشاعر جوف العير للدلالة على أنه لا ينتفع منه بشيء، ويضرب به المثل في كل ما لا بقية فيه"[2]، ثم ليدل على شدّة جدب الصحراء العربية التي باتت الأحياء فيها تتضور جوعاً وعطشاً.

ثم يقيم الشّاعر، حواراً مع الذئب، حين أحسّ كل منهما أنّ الآخر يقاسمه وسائل العيش، فما كان من الشّاعر أن طرح للذئب نعله التي كان ينتعلها ليدرأ بها شرّه، مصوراً حالة الفقر التي يكابدها كل منهما فلا يطمع فيها طامع إلاّ أصيب بالوهن والضعف.

---

(١) تأبط شراً- شعره شعره ص١٢٨ عصام القربة: حبل يشدّ به فمها. الخليع: المقامر، المعيل: الجائع. نعلاً من السبت: نعلاً من الجلد المدبوغ يحترث: يفتش.

(٢) التبريزي- شرح القصائد العشر، انظر: ص ٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الصورة الحوارية، تمثل شكلا من أشكال صراع الأحياء على الحياة، "فقد كانت حياة العربي في الجاهلية صراعاً دائماً بينه وبين بيئته القاسية؛ لأن كل ما فيها يوحي بالقوة وينطق بأن البقاء للأصلح والأقوى"[١] فالشّاعر لم يكن يملك ما يقيم به أوده من الطعام، سوى الجلد المدبوغ الذي أوهم به الذئب، وهو أقرب إلى ما تتغذى عليه السباع، وهذا الإجراء الذي قام به الشّاعر، كان يهدف إلى إشغال الذئب بالنعل ليحقق الهرب، فينجو من شرّه.

وقد قاسى الإنسان الجاهليّ شقاء الحياة، ومعاناتها، فكان ينبتّ في كثير من الأحيان عن مجتمعه، فيعيش وحده، يضرب في الأمصار، باحثاً عن وسائل رزقه ومعاشه، دون أن يشاركه في ذلك أحدٌ من بني جلدته. يقول الشنفرى:

وَنَائِحَةٍ أوحَيْتُ في الصُّبْحِ سَمْعَها ... فَرِيعَ فُؤَادِي واشْمَأَزَّ وأَنْكَرَا
فَخَفَّضْتُ جَأْشِي ثم قُلْتُ حَمَامَةٌ ... دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ في حَمَامٍ تَنَفَّرَا
وَمَقْرُونَةٍ شِمَالُها بِيَمِينِها ... أُجَنِّبُ بَزِّي مَاؤُها قَدْ تَعَصَّرَا
وَنَعْلٍ كَأَشْلَاءِ السُّمَانَى تَرَكْتُها ... على جَنْبِ مَوْرٍ كالنَّحِيزَةِ أَغْبَرَا[٢]

يصور الشّاعر نفسه مرتحلاً لا شيء يؤنسه، سوى قربة ماء أحكم ربطها لئلا يبتل بها ثوبه فتعيقه عن الجري، ونعل مقطعة كأشلاء طائر السّماني، تركها على جانب طريق مغبرّ، ثمّ ينتزع الشّاعر صورة تتمثل في حالة الحمامة التي أخذت تنوح على فرخها بين حمامٍ نفر فطار طيرة واحدة، لا يُعرف له مصير، ليقرنها مع أهله الذين افتقدوه، حين ضرب في عرض الصحراء مرتحلاً.

ولعل هذا التلازم بينه وبين فرخ الحمام، يعكس واقع الشّاعر النفسي المتمثل في افتقاره إلى حنان الأهل، وفي ذلك هروب من مجتمع القبيلة، فتراه يتوارى عن أنظار قومه؛ لأنّه فقد فيهم الحب والحنان.

فقد غدا الشاعر يبحث عن مجتمعه من خلال بحثه عن الطعام، وفي حين أن الشاعر منبت عن قومه، إلا أنه يجد شقاءً في العيش، وضنكاً في توفير وسائل الرزق وهو في عزلة عن مجتمع تلعب فيه "ثقافة المتطلبات دوراً هائلاً في عملية تطور وثراء العلاقات الاجتماعية"[٣].

(١) نوري القيسي- الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ٤٨.

(٢) الشنفرى- شعره ص ٣٥. نائحة: قُمَّرِيّة. النّحيزة: طريق مستو.

(٣) لودميلا- الإنسان، ص ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعاناة العيش التي صوّرها الشنفرى فعاش أحداثها، يعززها عروة بن الورد في قوله:

إذا المَرْءُ لم يَبْعَثْ سَوَاماً ولم يُرَحْ عليه ولم تَعْطِفْ عليه أقَارِبُه
فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى من حَيَاتِه فَقِيراً ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُه(١)

ينطلق الشّاعر من مبدأ وجوب محافظة القبيلة على أفرادها، واحتوائها إياهم عن طريق رعاية مصالحهم، وحفظ حقوقهم، وتوفير الحياة لهم بجميع وسائلها، فتستطيع القبيلة بذلك أن تكسب ولاءهم، وعلى العكس من ذلك، فالموت خير للإنسان من أن يبقى فقيراً معدماً، أو يلقى سوء المعاملة من أحد أقاربه.

فهذه الفئة لا تكابد الحياة المتمثلة في الطبيعة وحدها، بل تكابد أحياء الطبيعة الذين يضيقون على الإنسان حياته، فالمجتمع "يحاربهم، والطبيعة تحاربهم، فهم يستسلمون، ويلقون السلاح ويلوذون بالموت"(٢).

وعاش الإنسان الجاهليّ محنة الحياة، فذاق طعم الفقر، وراح يجابه صروف الدهر، لتوفير رزقه وعيشه، فهذا الشنفرى يروي صراعه في جانب من جوانب الحياة، يقول:

وَضَافٍ إذَا طَارَتْ له الرِّيحُ طَيَّرَت لَبَائِدَ عَنْ أَعْطَافِه ما تُرَجَّلُ
بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ له عَبَسٌ عَافٍ من الغِسْلِ مُحْوِلُ(٣)

إن سعي الشّاعر وراء قوت يومه، يكلفه مكابدة مستمرة إلى حدّ تتغير فيه ملامحه الشخصية، حتى يكاد لا يعرف. والصورة التي يرسمها الشّاعر لنفسه، تشي بحرمانه التام من مباهج الحياة ومسرّاتها، ولشدة فقره، فقد كانت ثيابه رثّة بالية، فقد تلبّد شعره واتّسخ، حتى إذا هبّت الرّيح، لا يتفرق عن بعضه، وهذا إشارة إلى أن الشّاعر مشغول بهموم الحياة لما فيها من عنت ومشقة فينتزع أسباب رزقه غصبا.

---

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص٢٩ السوام: ما يرعى من الإبل والماشية.

(٢) أحمد كمال زكي- شعر الهذليين، ص ١٠٥.

(٣) الشنفرى- الديوان، (إميل)، ص ٧٢ تُرجّل: تسرّح وتمشط. العبس: ما يتعلق بأذناب الإبل والضأن من الروث والبول فيجف عليها. عافٍ: كثير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد "كان العربي يكدح في سبيل العيش كدحاً، وكان يلقى عنتاً كبيراً من أرضه المجدبة التي لا تكاد تسعفه بالحاجة من الأشياء"(١).

وبعض الشّعراء كان يشكو ضيق ذات يده، إذا رحل عنه ذووه، فيظل يقارع الأيام وحده، دون نصير أو معين، يقول عديّ بن زيد:

وإذَا ذَكَّرْتُ نَفْسِي مَاخَلَا ... عادَ في العَيْنِ كَتَسْهِيدِ الرَّمَد
مِنْ أُنَاسٍ كُنْتُ أرْجُو نَفْعَهُم ... أَصْبَحُوا قَد خَمَدُوا تَحْتَ البَلَد
وأَرَانِي جَاهِداً من بَعْدِهِم ... في عِلَاجِ المَالِ تَأْمِيلَ البُعُد
كَادِحاً أَحْسَبُ أَنِّي مُخْلَدٌ ... جَاهِلُ اليَوْمِ وَتَيْسِيرِي لِغَد(٢)

يعيد الشّاعر ذاكرته إلى الوراء، فيتذكر أناساً كان يرجو نفعهم ونوالهم، وقد أمسوا في قبورهم يجثمون، فأورثوه القلق والأرق، وتركوه يجاهد في الحياة لكسب المال والرزق، يكدّ ويكدح ظاناً الخلود في الحياة.

فقد يرتبط الإنسان الجاهلي بمجموعة من النظم الاجتماعية والقوانين التي استنها المجتمع الجاهلي لتقاسم الأرزاق أو طريقة الحصول عليها ذلك لأن "طريقة البحث عن الطعام مثلاً في بعض القبائل البدائية لا تخضع لحاجة الفرد وحده إلى الطعام، وإنما تخضع للنظام الذي تسير عليه القبيلة بما يحكمه من روابط عائلية والتزامات نحو الأهل والجيران، وإخلاصه للشيوخ والكبار، والاحترام لمحظورات العشيرة ومعتقداتها في ضبط الطعام"(٣).

ونرى الشاعر في الأبيات السابقة يشير إلى هذا اللون من النظام الإنساني في وسائل العيش الذي تسيطر عليه القبيلة أو بعض أفرادها الحاكمين.

واشتد قحل الطبيعة، وضيقت الحياة على الناس، فألزمتهم أكل النتن والفاسد من الطعام والشراب، ونتيجة لذلك، دخل الناس في الميسر والقمار، يقول علقمة الفحل:

وَقَدْ أُصَاحِبُ فِتْيَاناً طَعَامُهُمُ ... خُضْرُ المَزَادِ ولَحْمٌ فيه تَنْشِيمُ

---

(١) طه أحمد إبراهيم- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٨.

(٢) عدي بن زيد-، الديوان، ص٤٣، البلد: المقبرة.

(٣) عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا، ص ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَقَدْ يَسَرْتَ إذَا ما الجُوعُ كُلِّفَهُ مُعَقَّبٌ من قِدَاحِ النَّبْعِ مَقْرُومُ
لو يَيْسِرُون بِخَيْلٍ قَدْ يَسَرْتُ بها وكلُّ ما يَسَر الأَقْوَامُ مَغْرُومُ[١]

فالشّاعر وصحبه، يتجلدون أمام نوائب الدهر الذي أذاقهم الجوع والعطش، حتى إذا ما اشتدت بهم، افتضّوا كروش الإبل للحصول على الطعام، فيجدونها مخضرة فظّة. ولعل ذلك، يفسر شدة جلد الإنسان، وصبره على تحمّل أعباء الحياة. "فهذا طعامهم في الغزو، والسفر البعيد الغاية وفي الصيف الذي يغير الطعام والشراب"[٢].

وقد يلجأ الإنسان الجاهليّ إذا اشتد به الزمان، وضاقت به سبل العيش، إلى الدخول في الميسر والقداح للحصول على الطعام، فيذبح الخيل، ويقامر عليها. وقد ورد في رسالة الميسر والقداح لابن قتيبة أن الاستقسام بالأزلام كان لغرضين: الأول استشارة الإله بأمر من الأمور، والثاني وهو نوع من القمار ليس إلا، يمارسونه عند الشدة والضيق، وهو ما يسمونه بالميسر[٣].

ومن معاناة الإنسان الجاهليّ، أنه كان معرّضاً لغير لون من ألوان الحياة، فيوماً تراه في نعيم، وآخر في شقاء، يقول عمرو بن معد يكرب:

فَيَوْماً تَرَانَا في الخَزُوزِ نَجُرُّها ويوماً تَرَانا في الحَديدِ عَوَابِسَا
ويَوْماً تَرَانَا في الثَّرِيدِ نَبُسُّهُ ويَوْماً تَرَانَا نَكْسِرُ الكَعْكَ يَابِسَا[٤]

فالإنسان يتقلب عليه الدهر، فيحلب أشطره، فيوماً تراه هادىء الحال، منعّماً، يرتدي الثياب المزركشة، ويوماً تراه شقياً، يرتدي الدّروع فيذهب إلى ساح الوغى، وهو في نعيمه، يأكل اللحم مغموساً بالمرق، وفي أيام شقائه، لا يجد سوى ما يَبُس من الكعك، يدقه ليأكله، وفي ذلك، إيضاح لبيان تقلب الحياة على الإنسان بنعيمها وشقائها.

---

(١) علقمة الفحل- الديوان، ص ٧٧. خضر المزاد: الفظ، وهو ماء الكرش. التنشيم: التغيير. معقب: قدح مشدود بالعقب، والعقب: عصب تقل فيه الأوتار. النبع: من أكرم شجر القسيّ. المقروم: الذي حزّ عليه بالأسنان.

(٢) الجاحظ- الحيوان، ج٥، ص ٣٣.

(٣) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص١٤٣.

(٤) عمرو بن معد يكرب- شعره ص١١٢ الخزوز: جمع خز، ثياب تنسج من الإبريسم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيراً ما كانت الحياة تشقّ على الإنسان الجاهليّ، خاصة في أثناء الرحلة، والغزوات والحروب، فهذا بشر بن أبي خازم، يذكر يوم النّسار، وقد اصطحب فتياناً شعثاً قطعوا فلاة، لا ماء فيها ولا طعام، فنحر لهم الإبل، فأكلوا حتى شبعوا، وكان دسم اللجم والشحم يظهر على لحاهم، كزهرة بيضاء تجمدت قطرات الندى عليها، يقول بشر:

وَشُعْثٍ قد هَدَيْتُ بِمُدْلَهِمٍّ ... مِنَ المَوْمَاةِ يَكْرَهُهُ الجَمِيعُ
تَرَى وَدَكَ السَّدِيفِ على لِحَاهُم ... كَلَونِ الرَّاءِ لَبَّدَهُ الصَّقِيعُ(١)

وكان التزاحم على مشارب المياه، من أشد أنواع الحياة معاناة، وأكثرها تعقيداً، وأدى هذا التزاحم أحياناً إلى الاقتتال بين أحياء العرب، وذلك نظراً لقلته أو انعدامه. "فالبدوي مضطر إلى الانتقال من مكان إلى مكان في البادية طلباً للماء والكلأ، كلما نفد الكلأ والماء في مكان، ارتاد مكانا آخر يجد فيه ماءً وكلأً من مطر جديد"(٢).

وكان همّ الإنسان الجاهليّ أن يوفر لإبله وسوامه الكلأ والماء، فاضطره ذلك إلى الارتحال في قلب الصحراء فلم يجد سوى الآسن منه، ولهذا، راح الشّعراء يصفون رحلاتهم المبكرة إلى مواطن الماء، ويصورون مشاقّها وصعوبة الوصول إليها، فيقتحمون تلك الأماكن، وهم مدجّجون بالأسلحة لمواجهة أي خطر يداهمهم، يقول الشنفرى يصف اقتحامه مشرب ماء:

وإنَّكِ لو تَدْرِينَ أَنْ رُبَّ مَشْرَبٍ ... مَخُوفٍ كَدَاءِ البَطْنِ أو هُوَ أَخْوَفُ
وإنَّكِ بِمَأْثُورٍ يَمَانٍ وَضَالَةٍ ... تَخَيَّرْتُها مِمَّا أَرِيشُ وأَرْصُفُ(٣)

فالشنفرى يُعدّ لهذه الرحلة سيفاً يمانياً، ويتسلح بالقوس والسهام، يقتحم بها ذلك الثغر المخوف وصولاً إلى مورد الماء، وقد وصف الشّاعر الطريق المؤدية إلى المورد بأنها تبعث الرعب في قلب من يسير إليها، فهي كداء البطن، بل أكثر أثراً، فهي محفوفةبالمخاطر، لا يجازف في الوصول إليها إلاّ من امتلك قلباً قوياً، وعقلاً ذكيّاً. وانظر كذلك إلى عبيد بن الأبرص، يخاطر بنفسه للحصول على ماء آجن

---

(١) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٣٤ الموماة: الفلاة الواسعة. الودك: الدّسم. السّديف: قطع السنام. الراء: شجر له زهرة بيضاء.

(٢) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٤٥.

(٣) الشنفرى- شعره، ص ٣٨. مأثور: سيف ذو أثر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متغير الرِّيح واللون، يقول:

فَرُبَّ ماءٍ وَرَدْتُ آجِن سَبِيلُهُ خَائِفٌ جَدِيبُ
رِيشُ الحَمَامِ عَلَى أَرْجَائِهِ لِلقَلْبِ مِنْ خَوْفِهِ وَجِيبُ
قَطَعْتُه غُدْوَةً مُشِيحاً وَصَاحِبِي بَادِنٌ خَبُوبُ(١)

فقد وصف الشّاعر الطريق إلى الماء مملوءاً بريش الحمام، وبعض بقايا الحيوان، للدلالة على أنها طريق موحشة، كأن كل من يمرّ بها يكون نهباً للسباع والضواري. وهذا المورد الذي تزاحمت فيه الأحياء: الإنسان، والسباع، والطير، يشير إلى قسوة الحياة وشح الطبيعة.

وكان الإنسان الجاهليّ يخاطر بنفسه، فيذهب إلى مورد الماء فجراً قبل أن تهوي الثريا إلى المغيب، ليدرك الماء قبل أن يسبقه إليه غيره، فيعكر صفوه. يقول ربيعه بن مقروم:

وَماءٍ آجِنِ الجَمَّاتِ قَفْرٍ تَعَقَّمُ في جَوَانِبِهِ السِّبَاعُ
وَرَدْتُ وقد تَهَوَّرَت الثُّرَيَّا وَتَحْتَ وَلِيَّتِي وَهْمٌ وَسَاعُ(٢)

فقد خيبت السباع أمل الشّاعر الذي زعم أنه أول من يرد الماء، فقد وجدها قبله على مواطن الماء، تروح وتجيء، ولعل ذلك، يفسّر تصارع الأحياء على وسائل العيش، لندرتها في أرض الجزيرة العربية، وأن هذه الموارد، غدت تحت حماية الحيوان الآبد الذي كان نفوذه في الأرض وسيطرته عليها أقوى من الإنسان.

ومن المغامرات التي وصفها الإنسان الجاهليّ في الورود إلى مواطن المياه، قول عمرو بن شأس:

وَماءٍ بِمَوْماةٍ قَلِيلٍ أَنِيسُهُ كأنَّ به من لونِ عَرْمَضِهِ غِسْلَا
حَبَسْتُ به خُوصاً أَضَرَّ بِنَيِّها سُرَى اللَّيْلِ واستِقْبَالُهَا البَلَدَ المَحْلَا(٣)

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٦. آجن: متغير الريح واللون. الوجيب: الخفقان. مشيحاً: مجداً.

(٢) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٢٤. الجمّات: جمع جمّة وهو ما كثر من الماء. تعقّم: تتعقم، أي تذهب وتجيء. الولية: ما ولى ظهر البعير من كساء ونحوه. الوهم: البعيد العظيم الجرم. الوساع: السريع.

(٣) عمرو بن شأس- شعره، ص ٤١. العرمض: الطحلب. الغسل: ما يغسل به الرأس من خطمي وغيره. خوص: إبل غائرة العينين من شدة الهزال. النيّ: الشحم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقف الشّاعر عند مورد للماء في فلاة لا أنيس بها، فيجعلها مستراحاً لإبله التي أنهكها السفر، فصارت غائرة العينين من شدة الهزال، ثم يصف الماء تطفو على سطحه الطحالب الخضراء ولا يملك إلا أن يشرب منه، فيسقي إبله، ويملأ قربه.

وفي ضوء هذه الحياة الشاقة، فإن الإنسان الجاهليّ، شديد الحرص على توفير الماء، خاصة في أيام المجاعات والقحط، وقد بلغ أن العرب شربت الثميلة، فلجأت بعض القبائل إلى تخزين الماء في جوف الإبل، يقول زيد الخيل:

نَصُولُ بكلِّ أَبْيَضَ مَشْرَفِيٍّ ... على اللَّاتِي بَقِيَّ فِيهِنَّ مَاءُ
عَشِيَّةَ تُؤْثِرُ الغُرَبَاءُ فِينَا ... فَلَا هُمْ هَالِكُونَ وَلَا رِدَاءُ[1]

فالشّاعر وقومه يخزنون الماء في أجواف الإبل أيام الحروب والغزوات، لئلا ينقص الماء منهم، فيولون هاربين. وورد أن العرب إذا أرادوا توغل الفلوات التي لا ماء فيها، سقوا الإبل على أتمّ أظمائها، ثم قطعوا مشافرها، لئلا ترعى، أو خزموها، فإذا احتاجوا إلى الماء، افتضوا كروشها، فشربوا ثميلتها[2]. وقد يبدو واضحاً، أن المجتمع الجاهليّ كان يخضع لمثل هذه الظروف إبان الحروب؛ لأنّ الماء يشكل مفصلاً أساسياً في نتائجها.

وكانت موارد الماء أهم ثروة في حياة العرب الجاهليّين، يبسطون نفوذهم عليها أوقات السلم والحرب، فيعدونها سلاح النصر، وكان الحصول على الماء يكلف الإنسان الجاهليّ عنتا ومشقة، فهذا النّمر بن تولب، يصف منهلاً قام بحراسته بعد أن تجشم عناء الوصول إليه، يقول:

وَمَنْهَلٍ لا يَنَامُ القَوْمُ حَضَرَتَهُ ... مِنَ المَخَافَةِ أَجْنَّ مَاؤُهُ طامي
قَدْ بِتُّ أَحْرُسُهُ وَحْدِي وَيَمْنَعُنِي ... صَوْتُ السِّبَاعِ به يَضْبَحْنَ والهَامِ
ما كَانَ إلاَّ اطِّلَاعِي في مُدَالَجَةٍ ... ثم انْصِرَافِي إلى وَجْنَاءَ مِجْذَامِ
أَفْرَغْتُ في حَوْضِها صُفْناً لِتَشْرَبَهُ ... في دَاثِرٍ خَلَقِ الأَعْضَادِ أَهْدَامِ
فَعَافَتِ الماءَ واسْتَافَتْ بِمِشْفَرِها ... ثم استَمَرَّتْ سَوَاءَطَرْفِها سَامِ
صَدَّتْ كما صُدَّ عَمَّا لا يَحِلُّ لَهُ ... سَاقِي نَصَارَى قُبَيْلَ الفِصْحِ قَوَّامِ

---

(١) زيد الخيل- الديوان، ص ٣٠.

(٢) زيد الخيل- الديوان، انظر: الحاشية، ص ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَرْمِي بها بَلَداً تَرْمِيه عَنْ بَلَدٍ حَتَّى أُنِيخَتْ على أَحْوَاضِ ضِرْسَامِ[١]

يصف الشّاعر جرأته على حراسة منهل ماء آجن، في وقت لا يستطيع غيره البقاء فيه لشدة وحشته، فكان لا يسمع فيه إلا صوت السباع والهام، أناخ الشّاعر بقربه ناقة وجناء قوية، أفرغ لها حوض ماء لتشربه، فصدّت عنه حين شمّته، كما يصدّ ساقي النصارى عما لا يحل له من طعام أو شراب في أثناء صومهم.

وصدود ناقة الشّاعر عن الماء، يدل على عدم صلاحه، وهذا يفسر شح الموارد المائية في بلاد العرب.ونجدالشّاعر قد اقتحم هذا المكان، وتابع المسير فيه، يقطع المسافة تلو الأخرى حتى وصل أحواض ضرسام فسقى منه وأسقى ناقته.

وهذه الرحلة التي تعبّر عن روح قصصية، تشير إلى أن الماء الذي كان يحصل عليه الإنسان الجاهليّ، هو ماء آسن متغير الطعم واللون والرائحة، عاثت فيه السباع والطير فساداً.

والإنسان الجاهليّ يقطع قفاراً موحشةواسعة، يبحث عن الماء، فلا يجد منها سوى مناهل محاطة بأسراب القطا، تسفّ عليها الرياح، التراب والرمال فتطمس معالمها، فيصير الماء آسناً كطعم اللبن الحامض؛ لأنّه أهمل، فطال مكثه، وتغير طعمه، يقول الأعشى في ذلك:

وَمَاءٍ صَرٍ لَم أَلْقَ إلاَّ القَطَا بِهِ وَمَشْهُورَةَ الأَطْوَاقِ وُرْقاً نُحُورُها
كَأَنَّ عَصِيرَ الضَّيْحِ في سَدَيَانِهِ دَفُوناً وأَسْدَاماً طَوِيلاً دُثُورُها[٢]

---

(١) النمر بن تولب- شعره، ص ١١٢-١١٤. الضّبح: الصوت. ناقة وجناء: تامة الخلق. المجذام: السريع. الصفن: من أدم كالسفرة لأهل البادية يجعلون منها زادهم. الأهدام: الأخلاق من الثياب. استافت: شمّت. ضرسام: اسم ماء.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٤٠٩. صرى الماء: طال مكثه فتغير طعمه. الضيح: اللبن الرقيق الممزوج. السادي من الإبل: المهمل المسيب. دفون: أي منهل مدفون مطموس. مياه سدم وأسدام: متغيرة من طول المكث والركود.

وانظر صورة الطعام والشراب عند: لبيد بن ربيعه- الديوان، ص ٢٧٧، زهير بن أبي سلمى- الديوان، ص ١٤٨. عروة بن الورد، الديوان، ص ٣٩-٤١، عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٢٨-١٢٩. الخنساء- الديوان، ص ٢٥. تابط شراً- شعره، ص ١٢١-١٢٢. عمرو بن براقة- قصائد نادرة، ص ١٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخمر

تشكل الخمر جانباً هاماً في حياة الإنسان الجاهليّ، فقد أولع بها، وعدّها جزءاً من حضارته، وامتداداً لتاريخه، فغدت مسألة اجتماعية؛ لأنّها انعكاس لتاريخ إنساني، سادته علاقات اجتماعية متعددة الميول والاتجاهات، فانبثق عنها سلوك، اتخذ الخمر وسيلة لتسليه النفس، ومنصرفاً لتجلية الهموم، ومتنفساً لتخفيف المعاناة.

وعلاقة الإنسان الجاهليّ بالخمر تكاد تكون علاقة تلازمية، فقد راح الشّعراء الجاهليّون، يصفون معاقرتهم لها، فذكروا أوقات شرابها، ووصفوا مجالس الشرب والندامى، وقرنوا لذتها بثغر المرأة. وهذا يعني، أن الخمر كان لها حضور دائم في حياة شاربها، فقد يشربها مع ندمائه في مجالس اللهو والطرب حيث القيان والنساء والغناء، أو في أوقات الرحلة والارتحال، أو يشربها منفرداً مع نفسه في أوقات بؤسه ومعاناته. "وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم"(١).

والجاهليّ شديد التعلق بالخمر، يحرص على شربها غنياً كان أو فقيراً أو معدماً لا يجد قوت يومه. يقول الأعشى:

عَلَى كُلِّ أَحْوَالِ الفَتَى قَدْ شَرِبْتُها غَنِياً وصُعْلُوكاً وما إن أُقَاتُها(٢).

فقد يخرج الأعشى عن طوره الاجتماعي والمادي وربما الديني متحدياً كل مزايا السلوك الإنساني ليحصل على الخمر في جميع أحواله وظروفه، لأن الخمر غدت جزءاً من نفسه وجسده فلها وجود داخلي "يتجلى في أن الذات تطلبها لتشربها فتتسرب إلى الجسد الداخلي وتسري في العروق وتصبح جزءاً من الوجود الداخلي للذات، ممتزجاً بل متحد بها، أي أن الوجود الخارجي أصلاً للخمرة لا يبقى وجوداً خارجياً بل سيحل بالضرورة في الذات"(٣).

---

(١) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص٧٠. وانظر قصة أول من شرب الخمر، وزرع غرس الكرم: المسعودي- مروج الذهب، ج١، ص٢١٢-٢١٣.

(٢) الأعشى- الديوان، ص١٢١. ما إن أقاتها: أي ليس عندي بقدر القوت.

(٣) كمال أبو ديب- جدلية الخفاء والتجلي، ص٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وراح الشّعراء يتعشقون الخمر، ويتلذذون في شربها، يقول المسيّب بن علس:

وَصَهْبَاءَ يَسْتَوْشِي بِذي اللُبِّ مِثْلَها قَرَعْتُ بها نَفْسِي إذا الدِّيكُ أَعْتَما
تَمَزَّزْتُها صِرْفاً وَقَارَعْتُ دَنَّها بِعُودِ أَرَاكٍ بَعْدَهُ فَتَرَنَّما
يَمُدُّ إلَيْها جِيدَهُ رَمْيَةَ الضُّحَى كَهَزِّك بالكَفِّ البَرِيِّ المُدَوَّمَا(١)

فالشّاعر يفجأ يومه بزجاجة من الخمر، يشربها صرفاً قبل طلوع الفجر، والديك لا يزال مبطئاً بالصباح، فأخذ يتمزز صهباءها، وطفق الشّاعر يقارع دنّ الخمر بعود أراك جسّده على هيئة إنسان، فأخذ يمدّ عنقه إلى زجاجة الخمر فابتل بها، وشعر بالنشوة والتلذذ وهذا التجسيد الذي تبدو صورته ماثلة بعود الأراك وهو يداعب الخمر ويتعشق عبقها، ما هو إلا انعكاس لنفسية الشاعر، ومدى حاجته إلى المرأة الجسد والنفس، ذلك لأن الاقتران بين الخمر والمرأة اقتران تلازمي شأنه في ذلك شأن الطلل والمرأة.

لذلك نجد أنّ "استطيقا الخمر في الشعر العربي تحتاج إلى بيان يكشف عما في دلالتها من كثافة بلغت معها مبلغ الرمز عند شعراء الصوفية شأنها شأن المرأة"(٢).

واتخذت الخمر بُعداً اقتصادياً، يرمي إلى إضعاف ممتلكات القبيلة وإتلافها، فقد ساء المجتمع الجاهليّ أن يرى أبناءه الذين شغفوا بالخمر ينفقون أموالهم فيها "وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنى فيه من رذائل"، يقول طرفة بن العبد:

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ ولَذَّتِي وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتْلَدِي
إلى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّها وأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ
رَأَيْتَ بَنِي غَبْرَاءَ لا يُنْكِرُونَنِي ولا أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ(٣)

فقد خرج الشّاعر عن أعراف عشيرته وقيمهم؛ لأنّه كلّفهم ما لا يطيقون، فانصرفوا عنه، وضربوا عليه حصاراً اجتماعياً، حتى غدا في عزلة عن قومه، كما

---

(١) المسيب بن علس- الديوان، ص ١٣٣ . يستوشي: يطلب ما عنده ليزيده. أعتم الديك: أبطأ في الصباح. الأراك: شجر من الحمض تصنع منه المساويك. البريّ: القدح إذا سوّي ولم يرش.

(٢) لطفي عبد البديع- التركيب اللغوي، ص ١٣٤.

(٣) طرفة بن العبد- الديوان، ص ٢٧. الغبراء: الأرض، والفقير ينسب اليها. الطراف: قبةمن أدم. الممدّد: الذي قد مدّ بالأطناب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعزل البعير الأجرب خشية ألا يعدي غيره. "ولكن عشيرته ما لبثت أن تصدت له، فقاطعته مقاطعة جماعية وعزلته عنها، كما تعزل البعير الأجرب عن القطيع، لتفطمه عن صباباته"(١).

وعلى الرغم من سياسة الإبعاد التي اتخذتها عشيرة الشّاعر بحقه، فقد ظلت علاقته موصولة مع طبقة الفقراء والمحتاجين لكسب ودهم، فهو يعطيهم المال ويحسن إليهم، ويبدو أن الشّاعر، غير آبه بما تفعله العشيرة، لأنّ الناس جميعاً أغنياء وفقراء يعرفون فضله وكرمه، والشّاعر يعدّ ذلك سابقة له في الفضل والجود.

ولعل الإجراء الوقائي الذي قامت به عشيرة طرفة يهدف إلى نشر السلوك الاجتماعي الصحيح بين أفرادها، ومنعهم من أي انحراف يعود عليهم بالضرر.

وبالغ الشّعراء في وصف الخمر، وحبهم لها، انظر إلى حاتم الطائي يوصي امرأته أن تسكب الخمر على قبره بعد موته، يقول:

أَمَاوِيَّ إِمَّا مُتُّ فَاسْعَيْ بِنُطْفَةٍ مِنَ الخَمْرِ رِيًّا فَانْضَحِنَّ بها قَبْرِي
فَلَوْ أَنَّ عَيْنَ الخَمْرِ في رَأْسِ شَارِفٍ مِنَ الأُسْدِ وردٍ لاعْتَلَجْنَا على الخَمْرِ(٢)

فقد بالغ الشّاعر في حبّه الخمر إلى حدّ التهوّر، وآية ذلك، أنه يبدي استعداداً لأن يحصل على الخمر حتى لو كانت عزيزة المنال.

ومما يلاحظ من شغف حاتم بالخمر، والحرص على اقتنائها ومعاقرتها أنه طلب إلى زوجته أن تسكب الخمر على قبره حين يموت، وهذا يعني أن "صورة الكون الخمري تشكل بديلاً للتراث الثقافي والتراث الديني الأخلاقي"(٣)وأن صورة الخمر قد تتخذ بعداً أسطورياً ترتبط "بطقوس الدين، فالخمر إما شراب الآلهة، وإما دم الإله الذي صرع ليشربه عابدوه لتحل فيهم روحه وقواه في احتفالات يمثل فيها مصرعه وقيامه من بين الأموات"(٤).

---

(١) أحمد الربيعي- الرمزية في مقدمة القصيدة، ص ٣١.

(٢) حاتم الطائي- الديوان، ص ٤٥. النطفة: الماء الصافي قل أو كثر، الريّ: الارتواء، انضحي: رشي، الشارف: المسن، الورد: الأحمر، اعتلجنا: اقتتلنا.

(٣) كمال أبو ديب- جدلية الخفاء والتجلي، ص ٢٠٩.

(٤) علي البطل- الصورة في الشعر العربي، ص ٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر تأبّط شراً ذهابه إلى المعارك، وقد روّى نفسه خمراً، ثم يمضي إلى السّاح ممتشقاً سيفه الذي سيخضبه بدماء أعدائه، فيقول:

ولَكِنَّنِي أَرْوِي مِنَ الخَمْرِ هَامَتِي وأَنْضُو المَلا بالشَّاحِبِ المُتَشَلْشِلِ[١]

فقد رأى الشاعر أن تحقيق غرضه مرتبط أيما ارتباط بالخمر، فهي مطلب منحها أولوية خاصة توصله إلى أمجاده، وهذا يجعلنا نعتقد أن الخمر "لم تعد مجرد شراب كائناً ما كانت مزاياه ومحاسنه، بل صارت مخلوقاً ذا شخصية، فرداً له ذات قائمة بنفسها"[٢] لأن الخمر في العصر الجاهلي اكتسبت قيمة مميزة في حياة الجاهليين فكانت "من أهم مظاهر الرجل النبيل الذي يحقق ما لا يستطيعه غيره"[٣]. وقد يفهم كذلك "أن الشعراء غالباً ما يأتي وصفهم للخمر مقترناً بظاهرة الهرب من الحياة أو من بعض ما يعانون، ومعاقرتها لم تكن نابعة من التلذذ بها، بقدر ما تكون وسيلة تفريج عن الكرب والأحزان"[٤].

وكان بعض شعراء الجاهليّة يميل إلى الاعتدال في شرب الخمر فيحتكم إلى العقل والمنطق فلا يدع الخمر تذهب بعقله عند الشرب. يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

والشُّربُ لا تُدمِنْ وخُذْ معروفَهُ تَخْرُجْ صَحِيحَ الرأْسِ لا تَتَصدَّعُ[٥]

يقف الشّاعر في نظرته إلى الخمر موقفاً تعليمياً، يرمي إلى منع الفساد أو الجريمة في الوسط الاجتماعي العربي، فمن الطبيعي أن ينجم عن الإدمان في الخمر سلوك يخرج عن الإلف الإنساني، والشّاعر هنا، يحاول حماية المجتمع من الانزلاق عن طريق الحكمة والموعظة[٦].

وقف شعراء الجاهليّة في أشعارهم على صناعة الخمر وتسويقها، والمتاجرة بها

---

(١) تابط شراً- شعره، ص ١٤٠. أنضو: أنزع وأكشف. الشاحب: السيف يتغير لونه مما يبس عليه من الدم. المتشلشل: الذي يقطر بالدم.

(٢) محمد النويهي- نفسية أبي نواس، ص ١٢.

(٣) مصطفى ناصف- قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص ١٣٤.

(٤) عاطف كنعان- الصورة الفنية في شعر الهذليين، ص ١٣.

(٥) حسان بن ثابت- الديوان، ص ٢٧٨.

(٦) انظر صورة الخمر عند: عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٦٠-٦١. الأعشى- الديوان، ص ٢٣٣. عدي بن زيد- الديوان، ص ٦٧. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٣٤. الحارث بن حلزة:- الديوان، ص ٢٢. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢٩. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام، ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم في بعض الأحياء، أو في بعض القرى، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم"(١).

وكان الجاهليّ يُعنى بشجر العنب، فيزور أماكن زراعته، وينتظر بشوق كبير وقت القطاف، يقول الأعشى:

أُحِبُّ أثافِتَ وقْتَ القِطَافْ ... وَوَقْتَ عُصَارةِ أعنابَها
وكعبةُ نَجْرانَ حتْمٌ عليـ ... ـك حتّى تُناخِي بأبْوابها
نَزورُ يزيدَ وعبدَ المسيح ... وقيساً هُمُ خيرُ أرْبابِها(٢)

فالأعشى لشدة حبّه الخمر، كان يرحل إلى أثافت، وكعبة نجران، حيث يعصر العنب فيها، فيجلس إلى أصحاب هذه المعاصر أوقات قطف العنب، ويقيم الشّاعر علاقة مع أربابها: يزيد وعبد المسيح وقيس، فيعقد معهم معاملات البيع والشراء. وكان تجار الخمر يبقونها زمناً فتخرج معتقة تلذّ لشاربها، يقول عديّ بن زيد:

بَاكَرَتْهُنَّ قَرْقَفٌ كَدَمِ الجَوْ ... فِ تُرِيكَ القَذَى كُمَيْتٌ رَحِيق
صَانَها التَّاجِرُ اليهودِيُّ حَوْلَيـ ... ـن فَأَذْكَى من نَشْرِها التَّعْتِيق
فاسْتَبَاها أشَمُّ خِرْق كَرِيمُ ... أَرْيَحِيٌّ غَمَنْدَرٌ غِرْنِيقُ(٣)

يصور الشّاعر طقوس صناعة الخمر والاتجار بها، فقد بقيت في دنانها حولين حتى خرجت معتقة، فاكتسبت حمرة اللون وشذا الرائحة، ثم أفرج عنها صاحبها اليهودي، بعد أن أحسن صنعها، حتى جاءه شاب أبيض وسيم، فاستباها يتاجر فيها بين البلدان. "وصور تجار الخمر تعد من أكثر صور التجارة التي تمر في الشعر الجاهلي حتى غلب لفظ التاجر على بائعها"(٤).

---

(١) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٧٠.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٢٠٩. أثافت: قرية باليمامة كثيرة الكروم.

(٣) عدي بن زيد- الديوان، ص ٧٧. قرقف: الخمرة الباردة. الكميت: من أسماء الخمرة. فيها حمرة وسواد. خرق: فلان خرق: يتخرق في السخاء، أي يتمتع به. الأريحي: الواسع الخلق. غرنيق: طائر مائي.

(٤) نصرت عبد الرحمن- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واكتسبت صناعة الخمر والمتاجرة بها في العصر الجاهليّ، لوناً من الهالة والتقديس، يقول الأعشى:

وصَهْباءَ طافَ يَهُوديُّها وأبرَزَها وعليها خُتِمْ
وقابَلَها الرِّيحُ في دنِّها وصلَّى على دنِّها وارتسمْ
تمزَّزْتُها غَيْرَ مُستَدبِرٍ عن الشَّربِ أو مُنْكرٍ ما عُلِمْ[١]

فالأعشى يستطيب الخمر التي لعب الريح في دنّها، كأنه أخذ يتلو عليها التعويذات والأدعية، قبل أن توضع في أختامها. وهذا يفسر مكانة الخمر عند الجاهليّين، من خلال طقوس صناعتها وحفظها وسبيها، وفي هذه الأبيات كذلك إشارة إلى دلالة الريح التي قد تحظى بشيء من القدسية لأنّ مصدرها السماء والسماء في معتقد الإنسان الجاهليّ مقدسة.

وكان الإنسان الجاهليّ على صلة وثيقة بالأمكنة التي تسبى فيها أطايب الخمر، فالشام وبُصرى وبيت رأس وبابل، كلها أسواق رائجة لتجارة الخمر، يقول النابغة الذّبياني:

كأنَّ مُشَعْشعًا من خَمْرِ بُصْرَى نَمَتْهُ البُخْتُ مَشْدُودَ الخِتَامِ
نَمَيْنَ قِلالَهُ من بَيْتِ رَأْسٍ إلى لُقْمَان في سُوقٍ مُقَامِ
إذا فُضَّتْ خَوَاتِمُه عَلاهُ يَبِيسُ القُمَّحَانِ من المُدَامِ[٢]

فالشّاعر يبين قيمة الخمر المعتقة في هذه الأماكن التي تشتهر بصناعتها، حتى غدت أسواقاً رائجة لهذه التجارة. فكان لقمان الخمّار ينقل هذه البضاعة الثمينة إلى أسواقها، حيث شاربوها وتجارها. والشّاعر شديد الإعجاب بهذه الخمر المعتقة التي إذا فتحت آنيتها، رأيت بياضاً كالذريرة يطفو على سطحها.

وخمر بابل عند الأعشى، أشبه بدم الذبيح[٣] وخمر بيسان عند حسان بن ثابت، أشبه بالدرياق[٤].

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٧١. الصهباء: الخمر. صلّى: برك ودعا. ارتسم الرجل بالله: كبّر ودعا وتعوذ.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٦٠. نمته البخت: حملته ورفعته.قلاله: ظروف الخمر. لقمان: خمّار. القمحان: الذريرة.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ٦٣.

(٤) حسان بن ثابت- الديوان، ص ١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقرن الشّاعر الجاهليّ الخمر بريق المرأة العذب، لما فيهما من تلازم في الوصف يعكس نفسية الإنسان الجاهليّ الذي يُعدّ الخمر والمرأة حاجات أساسية في الحياة، تكشف عنهما معطيات اجتماعية وعضوية. يقول عبيد بن الأبرص:

إذا ذُقْتَ فَاهَا قُلْتُ طَعْمَ مُدامةٍ مُشَعشَعةٍ تُرْخِي الإزَارَ قَدِيحُ
بماءِ سَحَابٍ من أباريقِ فِضَّةٍ لها ثَمَنٌ في البَائِعين رَبِيحُ[١]

فقد جانس الشّاعر بين مذاق الخمر المخلوطة بماء السحاب، وثغر المرأة الأشنب البارد، وقد وصف الشّاعر ثغر محبوبته، كأنه خمر رقيقة المزاج تلذ للشاربين ثم جعلها في أباريق من فضة إجلالاً لمكانتها.

ومن هنا، فقد يتبين لنا أن حياة الجاهلي كانت مرهونة بالخمر والنساء، فقد "كانت أوجه اللهو في الجاهلية قليلة أشهرها شرب الخمر، واللهو مع النساء والصيد والنزهة والمتعة"[٢].

ونلحظ من الأبيات، أن الشّاعر يوحي إلى شيء من القدسية جعلها كامنة في الخمر والماء والمرأة، ليرمز بها إلى سرّ وجوده، وامتداد حياته. "وقد كان الجاهليون يفخرون بشرب الخمرة الممزوجة بالماء الصراح لأنه لم يكن يتوفر للجاهلي دائماً، وربما توفرت الخمرة أحياناً من دونه"[٣]. وإنما "سميت الخمرة قهوة، لأنها تقهي عن الطعام، أي تقل طعم من أدمن عليها"[٤].

وهذه الصورة، وقف عليها حسان بن ثابت، حين وصف رضاب محبوبته بماء عذب ممزوج بخمر معتقة من بيت رأس[٥]، والأعشى الذي جعل رضاب محبوبته حين تصحو من نومها كطعم الخمر المعتقة[٦].

وإذا كان ثمّة تجانس بين ثغر المرأة والخمر المعتقة من حيث حلاوة الطعم

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٢٩-٣٠. المشعشعة: الرقيقة المزاج، أو المخلوطة بماء السحاب. ترخي الإزار: أي تجعل شاربها يسير مختالاً القديح: أي أخذ منها بالقدح. ربيح: مربح.

(٢) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٨.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٣، ص ٧٧-٧٨.

(٤) التبريزي- شرح اختيارات المفضل، ج٢، ص ١٠٨٢.

(٥) حسان بن ثابت- الديوان، ص ١٨٥.

(٦) الأعشى- الديوان، ص ٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمذاق، فإن تجانساً آخر بينهما يقوم على طيب الرائحة، يقول المرقّش الأصغر:

وما قهوةٌ صهباءُ كالمسك ريحُها تُعلَّى على النَّاجُودِ طوراً ويُقْدَحُ
ثوَتْ في سِبَاءِ الدنِّ عِشْرين حِجةً يُطَانُ عليها قَرْمَدٌ وتُروَّح
سَبَاها رجالٌ من يَهُودَ تَبَاعَدُوا لِجيلانَ تُدْنِيها من السّوقِ مُرْبِح
بأَطْيَبَ مِنْ فيها إذا جِئْتَ طَارِقاً من اللَّيْل بل فُوها أَلَذُّ وأنصَحُ[1]

فالشّاعر يجانس بين طرفي الصورتين، فيجعل ثغر محبوبته أخلص وأطيب من القهوة الصهباء المعتقة، وإذا جاز لنا الحكم بأن حصول الإنسان الجاهليّ على الخمر، أكثر يسراً وسهولة، من حصوله على المرأة، فإننا نجزم القول بوجوب تفضيل ثغر المرأة على الخمر التي بقيت لعتقها وجودتها عشرين عاماً مخبأة في الآجر.

وشُرب الخمر، يرتبط بالزمان والمكان، فكانت ساعات الفجر الأولى، أفضل أوقات الشرب عند الإنسان الجاهليّ، يطرد فيها ظلام الليل وهمومه، ويشرب على لذة ومتعة، احتفاءً بإطلالة ذلك اليوم الذي يبعث في نفسه الأمل والتجدد، ولذلك راح الشّعراء، يتغنون بشرب الخمر مقرونة بهذا الزّمن المبكر. يقول الأعشى:

وَكَأْسٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ بَاكَرْتُ حَدَّها بفِتْيَانِ صِدْقٍ والنَّواقيسُ تُضْرَبُ
سُلَافٍ كأنَّ الزعفران وعَنْدَماً يُصَفَّقُ في نَاجُودِها ثمَّ تُقْطَبُ
لها أَرَجٌ في البَيْتِ عالٍ كأنَّما ألمَّ به من تَجْرِ دَارِينَ أرْكُبُ[2]

فقد يصبّح الشّاعر ندماءه بخمر صافية كعين الديك، لها رائحة المسك ذكية عطرة، يصطبحون بها فجراً، والنواقيس تدق أجراسها، معلنة انبلاج الصبح، ولعل هذا التبكير يأتي منسجماً مع نفسية الشّاعر، للإعلان عن رحلته مع الحياة في صباح كل يوم. ويبدو أن البيئة النصرانية تتجسد في هذه الأبيات، من خلال أجراس النواقيس.

---

(١) المرقش الأصغر- شعره، ص ٥٣١-٥٣٢. تعلى: ترفع. الناجود: المصفاة ويقال: الباطية. تقدح: تغرف. سباء الدن: حصاره. يطان: يطيّن. تروّح: تبرز للروح. جيلان: قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٢٣٩. حدّ الخمر: سورتها وحدّتها. السلاف: ما تحلّب وسال قبل عصر الخمر، وهو أجودها. ناجود الخمر: الباطية. قطب الخمر: مزجها. دارين: موضع بالبحرين مشهور بالمسك. أركب: جمع ركب وهو جماعة المسافرين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أما تشبيه الخمرة بالصبح فهو تشبيه شائع، ما لبث يجري ضمن خط التقليد العام الذي يشبه الخمرة آنا بالنار، وآونة بالجذوة، وحيناً بالوهج أو الشعاع، وهي جميعاً معان متقاربة متناسخة، افتقدت جذوة الفطرة، وبداهة التشبيه وحيويته"(١).

وهذا عمرو بن كلثوم يدعو ساقية الخمر لتستيقظ من نومها، فتقدم له شراب الصباح يقول:

ألا هُبِّي بِصَحْنِك فاصْبَحِينا ... ولا تُبْقِي خُمُورَ الأنْدَرِينَا
مُشَعْشَعةً كأنَّ الحُصَّ فيها ... إذا ما الماءُ خالطَها سَخِينَا(٢)

وقد لا يعني شرب الخمر في نظر الإنسان الجاهليّ فقداً للذاكرة، أو امتهاناً للأخلاق، فالجاهليّ يستهلك في شرب الخمر ماله دون عرضه، يقول عنترة :

ولقد شَرِبْتُ من المُدامةِ بعدما ... رَكَدَ الهَوَاجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بزُجَاجةٍ صَفْراءَ ذاتِ أسرَّةٍ ... قُرِنَت بأزهَرْ في الشِّمَالِ مُفَدَّمِ
فإذا شَرِبْتُ فإنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي وعِرْضِي وَافِرٌ لم يُكْلَمِ(٣)

فقد اختار عنترة زمنا للشرب على غير ما ألفه الإنسان الجاهليّ، فهو يشرب خمراً معتقة دام حبسها طويلاً في دنانها عند اشتداد الهاجرة، من زجاجة صفراء مخططة، يعززها إبريق أبيض شدّت على فمه خرقة من قماش.

ويلاحظ أن عنترة يبذل ماله في جميع أحواله، صاحيا كان أو ثملاً للحصول على الخمر، ويهون عليه ذلك، في حين أن عرضه وافر سليم من أي أذى، فهو شديد الحرص على شرفه حتى في أوقات سكره. "فخبّر أن جوده باق لأنه لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه"(٤).

---

(١) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٣، ص ٧٥.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، إميل، ص ٦٤.الأندرين: قرية في جنوبي حلب. الحص: الزعفران.

(٣) عنترة- الديوان، ص ٢٠٥-٢٠٦. ركد الهواجر: سكنت، الأسرة: طرائق في الشراب، وأصل الأسرة الخطوط التي في الكف. أزهر: إبريق أبيض براق. المفدم: الذي عليه فدام وهي خرقة تشد على فم الإبريق.

(٤) المرزباني- الموشح، ص ٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقت الشرب عند النابغة الجعدي، يتزامن فيه صياح الديك وبنات نعش يقول:

وصَهْبَاءَ لا تُخْفِي القَذَى وهي دُونَهُ تُصَفَّقُ في رَاووقِها ثم تُقْطَبُ
شَرِبْتُ بها والدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوا فَتَصَوَّبُوا[١]

وهذا الزّمن المبكر من الفجر، يعكس الواقع النفسي للإنسان الجاهليّ، وإلاّ فما معنى أن يكون الشرب في هذا الوقت، وبنات نعش لا تزال غير مستترة.

وكان القوم يجتمعون إلى رجل، يجود بفضله وماله، فيشتري الخمر لأصدقائه، ثم يدعوهم للشرب قبل الصباح. يقول عبيد بن الأبرص:

وقَهْوةٍ كَرُفاتِ المِسْكِ طالَ بها في دَنِّها كرُّ حَوْلٍ بَعْدَ أحوالِ
باكَرْتُها قبلَ أن يَبْدُو الصَّباحُ لنا في بَيْتِ مُنْهَمِرِ الكَفَّيْنِ مِفْضالِ[٢]

ومن الجدير ذكره أن تجارة الخمر لقيت سوقاً تجارية رائجة في البلدان والأمصار، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

سُلافَةُ رَاحٍ ضُمَّنَتْها إداوَةٌ مُقَيَّرَةٌ رِدْفَ لآخِرَةِ الرَّحْلِ
تَزَوَّدَها مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ وَغَزَّةٍ على جَسْرَةٍ مَرْفُوعَةِ الذَّيْلِ والكفْلِ
فَوافَى بها عُسْفَانَ ثمَّ أَتَى بها مَجَنَّةَ تَصْفُوفِي القِلالِ ولا تَغْلِي[٣]

فقد ساق هذا التاجر الخمر محملة على ناقة جسيمة من بلاد الشام إلى عسفان ومجنة، حيث أسواق الجاهلية التي تزدحم بأهلها في المواسم التجارية والدينية. "وشيوع الخمر في أوساط هذيل الاجتماعية، حظيت بإقبال شديد، فكانت من أكثر السلع التجارية رواجاً ينال بها صاحبها مالاً كثيراً، خاصة تلك الخمر التي تجلب من الشام"[٤].

---

(١) النابغة الجعدي – الديوان، ص ٤. القذى في الشراب: ما يقع فيه من ذباب وغيره. الراووق: ناجود الشراب. والناجود: الباطية. تقطب: تمزج. تصوبوا: دنوا من الأفق للغروب.

(٢) عبيد بن الأبرص– الديوان، ص ١٠٣. القهوة: الخمر. رفات المسك: الدقوق المكسر..

(٣) أبو ذؤيب الهذلي– ديوان الهذليين، ج١، ص ٤٠. جسرة: ناقة جسيمة وماضية.

(٤) عاطف كنعان– الصورة الفنية في شعر الهذليين، ص ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمّة نصيب لبيئة الخمر في مجال الرحلة، فالأعشى يقف المطايا، وينيخ الرحل؛ لأنّ زمن الشراب قد حان، يقول:

وَعِنْدَ العَشِيِّ طِيبُ نَفْسٍ وَلَذَّةٌ ... ومالٌ كَثِيرٌ غُدْوَةً نَشَوَاتُها
أَتَانَا بها السَّاقِي فَأَسْنَدَ زِقَّهُ ... إلى نُطفَةٍ زلَّت بها رَصَفَاتُها
وُقُوفًا فَلَمَّا حَانَ مِنَّا إِنَاخَةٌ ... شَرِبْنَا قُعُودًا خَلْفَنَا رُكَبَاتُها
وَفِينَا إلى قَوْمٍ عَلَيْهِم مَهَابَةٌ ... إذا ما مَعَدٌّ أَحْلَبَتْ حَلَبَاتُها[1]

ففي احتساء الخمر "كان الجاهلي يحس بأنه لم يعد قائما في حكم المنفعة كالطعام واحتساء الماء، بل أنه تحرر من ذلك وعاد الطعام والشراب من بديهيات الحياة التي لا تقتضي جهداً وكفاحاً، وقد تفرغ للمتعة بعد أن كان مرتهناً للمنفعة"[2]. وما دام هذا الزمن له حضور في نفس الشاعر، فهيأ للشاربين إناخة الرحل، "فما الذي يمنع أن تكون الخمرة كائن حي متميزاً بإدراكه الخاص"،[3] تسير معهم وتقيم، يناجونها في حلهم وترحالهم، فترحل معهم وتقيم.

فالأعشى وصحبه يجدون المتعة وهم في رحلتهم ذاهبون، فأناخوا إبلهم عند العشاء، إلى جانب غدير، حيث يحط المسافر رحله طلباً للراحة، فالركب أضناه السفر، والليل فيه نزعة حنين إلى الأهل والأحبة، والخلو مع النفس فيه استرجاع إلى الماضي، فكل هذه الظروف جعلت الركب يحلّون في ذلك المكان، فيقطعون كلال الرحلة بأوقات الشرب واللهو، ثم يستأنفون الرحلة إلى قوم ذوي شأن ومهابة[4].

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ١٢١. نطفة: غدير. الرصفات: الحجارة المتراصفة. وفينا إلى قوم: أتيناهم. أحلبت: اجتمعت. الحلبات: جمع حلبة وهي الخيل تجمع للسباق. معد بن عدنان: هو الجد الذي ينتسب إليه عرب الشمال من ربيعة ومضر جميعاً.

(٢) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٢، ص ٦٩.

(٣) علي شلق- أبو نواس، ص ٧٧.

(٤) انظر صناعة الخمر والمتاجرة بها عند: عدي بن زيد- الديوان، ص ٧٨، ١١٧. الأعشى- الديوان، ص ١١٩، ١٩٩، ٣٥٥. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢٢. كعب بن زهير- الديوان، ص ٤٢-٤٣. النابغة الجعدي- شعره، ص ١٤-١٥، ٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجالس الخمر

كان الإنسان الجاهليّ في بعض أوقاته عبثياً، غارقاً في متع الحياة ولهوها، يبحث عن مواطن المتعة، ينشد فيها راحة النفس، وهدوء الخاطر، هربا من هموم الحياة، فلا يهمه ما يكتنز من مال وغنى، بقدر ما يجد ذاته من خلال تحقيق نزواته ورغباته، منفردا كان أو مع غيره. وذكر العرب أن "مجلس المدام مجمع الأنسة ومسرح اللبانة ، وهداد الهم ومرتع اللهو، ومعهد السرور"(١).

وراح الشّعراء يكشفون في أشعارهم عن واقع الإنسان الجاهليّ. يقول بشر بن أبي خازم:

وَعِشْتُ وقد أُفْنِي طَرِيفي وتَالِدي قَتِيلَ ثَلَاثٍ بينَهُنَّ أصَرَّعُ
فإنَّ سِقَاطَ الخَمْرِ كَانَتْ خبالَهُ قَدِيماً فَلُومُوا شَارِبَ الخَمْرِ أو دَعُوا
وَحُبُّ القِدَاحِ لا يَزَالُ مُنَادِياً إليها وإنْ كَانَت بِلَيْلٍ تَقَعْقَعُ
نِغَاءُ الحِسَانِ المُرْشِقَاتِ كأنَّها جآذِرُ من بَيْنِ الخُدُورِ تطلَّعُ(٢)

جعل الشّاعر حياته تتقلب في هذا الثالوث الذي يلبي حاجات الإنسان الجاهليّ وميوله، ويحقق شيئاً من رغباته، فشرب الخمر، واللعب بالميسر والقداح، ومحادثة النساء، والتودد إليهن والتعلق بهنّ، أشياء تشكل صلب حياة الإنسان، وجوهر وجوده، ولم تكن ميول الإنسان الجاهليّ تتجاوز هذه الأبعاد التي يحاول جاهداً انتزاعها من قحل الطبيعة وقمع المجتمع.

وإذا كان الإنسان الجاهليّ يسعى لنشدان الذات، فإنه قد يرى ذاته من خلال المجالس التي يأوي اليها، سواء كان ذلك متصلاً بمجالس الخمر، أو حلقات الميسر، أو مجتمع النساء، "ومهما يكن، فقد كانت الخمر، وما تبعها من استباحة النساء شائعة في هذا العصر، وكان يشيع معها القمار أو الميسر"(٣).

---

(١) الثعالبي- الكناية والتعريض، ص ٥٠.

(٢) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١١٩. سقاط الخمر: شرب الخمر. تقعقع: اضطراب. نغاء الحسان: محادثة الحسان وملاطفتهن عند المغازلة. المرشق من الظباء: التي تمد عنقها وتنظر.

(٣) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحين ينظر المرء إلى واقع الحياة الجاهليّة، فإنه يكاد يقطع القول بأن الإنسان الجاهليّ هائم الفكر، عبثي النزعة، يعيش حياته في فراغ روحي واجتماعي ووجودي، ولذلك، راح يحقق ذاته بين دنان الخمر، وندماء الشرب، وقيان الطرب واللهو. والأعشى يصور بعضاً من هذه الحياة، فيقول:

وإذَا الدَّنُّ شَرِبْنَا صَفْوَهُ ... أَمَرُوا عَمْراً فَنَاجَوْهُ بِدَنّ
بِمَتَالِيفَ أهانُوا مالَهُمْ ... لغِنَاءٍ وَلِلعْبٍ وأَذَنْ
فَتَرَى إبْرِيقَهُم مُسْتَرْعِفاً ... بَشمُولٍ صُفِّقَت مِنْ مَاءِ شَنْ
غُدْوَة حَتَّى يَمِيلُوا أُصُلاً ... مثلَ ما مِيْلَ بأَصْحَابِ الوَسَنْ
ثُمَّ رَاحُوا مَغْرِبَ الشَّمْسِ إلى ... قُطُفِ المَشْيِ قَلِيلات الحَزَن[١]

يصور الشّاعر فتيان قومه، في مجالس اللهو والسمر، فهم يتلفون المال طلبا للسعادة، فالمال وسيلة لتحقيق ما يلبي حاجاتهم، فحين يتحلقون على مائدة الشراب، يستدعون الخمار عمراً ليزودهم بشراب آخر من إبريق مملوءة خمراً امتزجت بماء قربة من أدم، يشربون حتى الصباح، ثم ينصرفون وقت غروب الشمس، متمايلين من نشوة الخمر، إلى نساء ناعمات يجدون فيهن جلاء للهموم والأحزان.

ومثل هذا النوع من الحياة التي يمارسها الإنسان الجاهليّ، قمين بأن يكشف الضوء عن جانب اجتماعي مهم في الحياة الجاهليّة، يتمثل في إشباع حاجات الإنسان الجاهلي الاجتماعية، ولذلك، فقد "نرى الأعشى في غزله وفي خمرياته جميعاً صاحب لذة، لا هم له في الحياة إلا إشباع حاجته من الخمر والنساء والطعام، يهلك فيها ماله، ويعصي فيها كل نصيح ويتخطى كل عرف".[٢] "وهكذا يكون بذل المال في سبيل الخمرة نوعاً من التمرس العقلي القادر بالحياة، وإيماناً بجدارة الإنسان في صنع مصيره"[٣].

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٣٩٥. الشمول: الخمر الباردة، صفق الخمر: روقها أو مزجها بالماء. الشنّ: القربة الناعمة. قطف: قصر خطوه وبطوء.

(٢) محمد محمد حسين- أساليب الصناعة، ص ٤٨.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ٢، ص ١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والفراغ الذي عاشه الإنسان الجاهليّ، كان يفرض عليه أن يتخذ مساراً يغاير الواقع الاجتماعي السائد، يقول الحادرة:

فَسُمَيَّ ما يُدْرِيك أَنْ رُبَّ فِتْيَةٍ بَاكَرْتُ لذَّتَهُم بأَدْكَنَ مُتْرَعِ
مُحْمَرَّةٍ عِقبَ الصَّبُوحِ عُيُونُهُم بِمَرًى هُنَاك من الحَياةِ ومَسْمَعِ
مُتَبَطِّحين على الكَنِيفِ كأَنَّهُم يَبْكُونَ حَوْلَ جَنَازةٍ لم تُرْفَعِ
بَكَرُوا عليَّ بسُحْرةٍ فَصَبَحْتُهُم من عَاتِقٍ كَدَمِ الذَّبيحِ مُشَعْشَعِ
ومُعَرَّضٍ تَغْلِي المَرَاجِلُ تَحْتَهُ عَجَّلْتُ طِبْخَتَهُ لِرَهْطٍ جُوَّعِ[1]

يستضيف الشّاعر ندماءه وقت الصبوح الباكر، فيقدم لهم زقاً مملوءاً خمراً مائلاً لونها إلى السواد، فألهاهم الشرب وصوت المغنيات، فانكبوا على وجوههم من أثر الشرب، كأنهم يبكون ميتاً في جنازة، ثم يسرع الحادرة في إعداد الطعام والشراب لهم، فشربوا حتى ثملوا، وأكلوا لحماً غير ناضج لشدة ما كانوا يعانون من الجوع.

وقد نضطرّ إلى القول أحياناً، بأن هذا النوع من الحياة التي يعيشها الإنسان الجاهليّ، كانت تنمّ عن عبثية واستهتار بأعراف المجتمع في معظم شؤون الحياة وقد يكون مرد ذلك إلى شظف العيش، وخشونة الحياة وضيق ذات اليد، فيصطدم الإنسان الجاهليّ بهذا الواقع المؤلم فيرى نفسه حينذاك ملزما برفضه والخروج عليه.

"وأكثر الشعراء الجاهليين ذكروا الخمر، وافتخروا بشربها لأن شربها من علائم السخاء والأريحية والكرم، وأنها تبعث في النفوس القوة والنشوة وتهز للكرم والعطاء"[2].

ويذهب زهير بن أبي سلمى إلى تصوير مشهد آخر، من مشاهد الخمر مع ندماء الشراب يقول:

وقد أَغْدُو عَلى ثُبةٍ كِرامٍ نَشَاوَى واجِدين لِما نَشَاءُ

(١) الحادرة- الديوان، ص ٥٦-٥٨. أدكن مترع: زق مملوء. بمرى: الأصل بمرأى ولكنه ترك الهمز. الكنيف: حظيرة من خشب أو شجر. المشعشع: المرقق بالماء. المعرض: اللحم الذي لم يتم نضجه.

(٢) يحيى الجبوري- الشعر الجاهلي، ص ٣٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَجُرُّون البُرُودَ وقد تَمَشَّت حُمَيَّا الكَأْسِ فِيهم والغِنَاءُ
تَمَشَّى بين قَتْلَى قد أُصِيبَت نُفُوسُهُمُ ولم تُهرَقْ دماءُ[١]

فقد يغدو الشّاعر على مجموعة من رفاقه النشاوى، وقد أخذت الراح منهم فعلها، حتى بلغت حُميّاها تدب في العقول، فسقطوا على الأرض متمايلين، فرآهم الشّاعر كالقتلى بلا دماء. وهذا يترجم نفسية الإنسان الجاهلي في محاولة تناسي زمن الحاضر، بهدف تغيير واقعه، ثم التفكير بحياة متخيلة يجد فيها طموحه وذاته.

وهذا الإدمان الذي تجاوز حدود المنطق، يكشف عن حياة فئة الأبناء من المجتمع الجاهليّ، وهذه الفئة كما رأينا في صورة زهير، خارجة عن الإلف الذي يسير عليه المجتمع الجاهليّ. ولعل هذا النوع من المجالس التي يكون فيها الشاربون صرعى الخمر يهدف الإنسان فيها إلى "نسيان الواقع، وتجاوز الزمان"[٢].

والصورة التالية تشكل نقيضاً لصورة زهير السابقة، فقد نرى الأبناء يأخذون دورهم في مجتمع القبيلة، فيكون لهم رأي وحضور، وقد تراهم كذلك في حياة اللهو يمرحون، يقول طرفة بن العبد:

وإن تبْغِني في حَلْقةِ القَوم تلْقَني وأن تَقْتَنِصْني في الحَوانِيتِ تَصْطَدِ
نَدَامَاي بِيضٌ كالنُّجُوم وَقَيْنةٌ تروحُ علينا بَيْنَ بُرْدٍ ومُجْسَد
رَحِيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رَفِيقةٌ بجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ المُتَجرِدِ
إذا نَحْنُ قُلْنا أسْمعينا انْبَرَت لنا على رِسْلِها مَطْروفَةً لم تشدَّدِ[٣]

إن طرفة الشّاعر، يمارس جانبين من الحياة: الأول، يتمثل في الحياة الرسمية، فهو في جدّه، إنسان يتصدر حلقة القوم، له مكانته الاجتماعية لعلو همته وسداد رأيه، والآخر، يتمثل في حياته الخاصة، تراه في حانات الخمر، يجلس إلى مشاهير

---

(١) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٣٥-١٣٦. الثُّبَة: الجماعة من الناس. واجدين: قادرين. حُميّاها: صدمتها في الرأس.

(٢) علي شلق- أبو نواس، ص ٨٤.

(٣) طرفة بن العبد- الديوان، (باريس)، ص ٢٤-٢٦. المُجْسَد: الثوب المصبوغ بالزعفران المشبع. الجساد: الزعفران. قطاب الجيب: مجتمعه حيث قطب. المتجرد: ما سترته الثياب من الجسد. المطروقة: الغائرة الطرف. لم تشدد: لم تجتهد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قومه يشربون الخمر، وأمامهم قينة بثيابها الزاهية، رحبة قطاب الجيب، بضة الجسم، رفيقة بجس الندامى. ينظر إليها الشاربون، فتأتيهم طائعة إذا طلبوا منها الغناء.

وهذه اللوحة الاجتماعية، تجسّد واقع الحياة بجانبيها الرسمي والشخصي، فحضور طرفة، ماثل في الزمان والمكان، فهو في معظم أوقاته، ميّال إلى حياة اللهو ، بعيدا عن تعقيدات المجتمع ومشكلاته.

وقد يعكس هذا المشهد الوصفي بعض عادات المجتمع الجاهلي في وصف مجالس الشراب، فالخمر "شديدة الصلة بالطعام، وقد تفننوا في وصفه، وكانت مجالسهم أنيقة تجمل بالزهور، وتعد فيها الخمر، ويختار لها الندمان، ويحضر لها أجمل السقاة والساقيات، ويطربهم فيها المغنون، والمغنيات، وتقدم فيها المأكولات، يتفنن الطهاة في إعدادها، فإذا ذهبت الراح بعقولهم، خلعوا العذار، وأتوا من الفعال ما لا يخطر على بال"(١).

ومن الجاهليّين أناس شاقهم التنقل في الأمصار والبلدان، فذكروا مجالس الشراب فيها، يقول عمرو بن كلثوم:

وَكَأْسٍ قد شَرِبْتُ بِبعْلَبَكْ ... وأُخْرَى في دِمشْقَ وقاصِرِيَنا
إذَا صَمَدتْ حُمَيَّاها أَرِيباً ... من الفِتْيَان خِلْتَ به جُنُونا
فما بَرِحت مَجَالَ الشَّرْب حَتّى ... تَغَالُوها وقَالُوا قد رَوِينا
وإنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا المَنَايَا ... مقدَّرةً لنا ومقدَّرِينا(٢)

ينظر الشّاعر إلى الحياة على أنها فانية، فيرى ضرورة التمتع بما لذّ له من وسائل العيش وطاب، فقد طوّف في أماكن كثيرة، فذهب إلى بعلبك، ودمشق وقاصرين، وجالس ندماء الشرب فيها.

وقد يكون التطواف في هذه الأماكن، ضرورة ملحة في حياة الإنسان الجاهليّ فيضرب في الأمصار تاجراً أو سائحاً، وهو في جميع الأحوال، يمتع نفسه، فيعيش حياة حافلة بالشرب واللهو.

---

(١) محمود السمرة- القاضي الجرجاني، ص ٤٧.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، إميل، ص ٦٦. صمدت: تصدت. حميّاها: سورتها. الأريب: العاقل المهذب. المجال: موضع المحاولة، تغالوها: تنافسوا فيها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحسان بن ثابت، يذكر أصدقاء الشرب من أولاد جفنه، فينادمهم عند قبر أبيهم في جلق، يقول:

لِلّه دَرُّ عِصَابةٍ نَادَمْتُهم يوماً بِجِلّقَ في الزَّمَانِ الأوَّلِ
أولادُ جَفْنةَ عند قَبْرِ أبيهُمُ قَبْرِ ابْنِ ماريةَ الكَرِيم المُفضِلِ
يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ بَرَدَى يُصفَّقُ بالرَّحيق السَّلسلِ[1]

يتحدث الشّاعر عن ذكريات سابقة طواها الزّمن، قضاها نديماً لفتيان من ملوك آل جفنة، بجلق الشام عند قبر أبيهم الحارث الأعرج ابن مارية، وكان هؤلاء الفتيان في نعمة عيش وسلطان، يقدمون أجود الخمور، وأخلصها لكل من ورد البريص زائراً آل جفنة أو ماراً بديارهم.

ويشير حسان بن ثابت إلى آل جفنة، بأنهم أهل عز وكرم، فيذكر بهذه الصفات مجدهم التليد، ثم يبين حضارتهم من خلال الدّلالات التاريخية لجلق ونهر بزدى الذي له امتداد حضاري عميق.

"وكان حسان مبدعاً في وصف الخمر، وبيان أثرها في الجسوم والنفوس، ذلك لأنه على ما يبدو كان من صفوة عشاقها ولأنه شهد من مجالسها الحافلة بأرض الشام ما خلدت في نفسه صورته، وما ظلت تتردد بين جنبه أصداؤه"[2]. "وتدرجت الخمر حتى أصبحت لوناً من ألوان التحدي الاجتماعي، وبخاصة بعد تحريمها، فلم يستطع الشعراء أن يفرقوا بين حكمة التحريم الديني، وبين قوامة السلطة الزمنية على هذا التحريم"[3].

ثم يعود الإنسان الجاهليّ إلى جعبة أيامه، فيفتش عن ماضٍ، يعدّه مِفْصلاً في حياته، ورمزاً لوجوده، يتمثل في مجالس الشراب، حيث الخلان والأصحاب، فهذا النابغة الجعدي يتذكر نداماه عند المنذر بن محرق وقد أقفرت الأرض منهم، ولم يترك لهم الزمان أثراً، يقول:

---

(١) حسّان بن ثابت- الديوان، ص ١٢٢-١٢٣ . مارية ذات القرطين: وهي أم بني جفنة بن عمرو بن مزيقيا وهي بنت ملك الروم. وابن مارية: الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني. البريص: موضع بالشام كان بلد آل جفنة.

(٢) محمد طاهر درويش- حسان بن ثابت، ص ٢٨٥.

(٣) صلاح عبد الصبور- قراءة جديدة لشعرنا القديم، ص ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَذكرتُ والذِّكْرَى تَهيج لذي الهَوى ومِنْ حَاجةِ المحزُونِ أن يتذكّرا
نَدَامايَ عند المُنْذِرِ بن محرِّقٍ أرى اليومَ منهُمْ ظَاهِر الأرضِ مُقْفِرا
كهُولاً وشُباناً كأنّ وُجُوهَهم دَنَانِيرُ مما شِيف في أرضِ قَيْصرا(١)

فالجعدي، لا يزال مشدوداً إلى دفء الماضي، إلى أصدقاء الشراب الذين بعثت ذكراهم في قلبه حزناً عميقاً، وهيجت وجدانه، وهذا الأثر الذي ينزرع في النفوس، يدل على متانة العلاقة القائمة بين أبناء المجتمع الجاهليّ، وعلى مجالس الودّ التي كانت تجمعهم.

والشّاعر يعود بمخيلته، فيتذكر أصدقاءه الشبان، وقد طواهم الزّمن، ولم يبق أحداً منهم، فيحزن لفراقهم، وهذه العلاقة الصادقة، تترجم لنا تماسك المجتمع الجاهليّ أمام عاديات الزّمن، وآية ذلك يتمثل في قول أبي زبيد الطائي وقد كان له نديم، فغاب عنه الطائي مدة، ثم عاد فأخبر بموته، فدلف إلى قبره قبل أن يذهب إلى منزله، يقول في ذلك:

يا هَاجِري إذ جِئْتُ زَائِرَهُ ما كَانَ من عَادَاتِك الهجْرُ
يا صَاحِبَ القَبْرِ السلامُ على مَنْ حال دُون لِقَائِهِ القبْرُ(٢)

وقف الشّاعر على قبر صديقه الذي لم يتعود على هجره أو النأي عنه، فأخذ يبكيه حين فرق الموت بينهما.

والإنسان الجاهليّ، ما كان ينظر إلى شرب الخمر، على أنه خروج على قواعد الأخلاق، أو مثلبة يعابُ عليها، فقد أوغل في شرب الخمر، وعدّ ذلك أمراً عادياً لا تعاقب عليه قيم المجتمع وعاداته، إنما العيب عنده، هو ما يخدش الحياء والشرف، فهذا السموأل بن عادياء، يجاهر بشرب الخمر منفرداً أو مع ندامى، في حين أن خلقه كريم مصون، يبتعد عن اقتراف الفاحشة مع المرأة، يقول:

وصَفْراءِ المعَاصِمِ قد دَعَتْنِي إلى وَصْلٍ فقُلْتُ لها أبَيْتُ
وَزِقٌ قد جَرَرْتُ إلى النَّدَامَى وزقٍ قد شَرِبْتُ وقد سَقَيْتُ(٣).

---

(١) النابغة الجعدي- شعره، ص ٦١.

(٢) أبو زبيد الطائي- شعره ص ٧٠.

(٣) السموأل بن عاديا- الديوان، ص ٨٥. صفراء المعاصم: كناية عن المرأة الغاوية في زينتها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد يرمي الشاعر إلى أن "للخمرة أدباً إذا خرجت عنه كانت تفاهة وحمقاً، وأدب الشراب هو قسم من كرامة النفس وحريتها، تصون ذاتها ولا تنتهك ولا تؤذي الآخرين"(١).

وكان لقرب الخمر من نفسية الإنسان الجاهليّ أثر في سلوكه، لأنّ فيها جلاء لهمومه، وأحزانه، وقد قاده ذلك، إلى المحافظة على أواني الخمر لكي تنسجم مع مكانتها وتحفظ قيمتها، ولأجل ذلك، فقد حظيت الخمر، بشيء من التقديس، فقدّم لها هذه الطقوس. يقول علقمة الفحل:

ظَلَّتْ تُرَقْرِقُ في النَّاجُودِ يَصْفِقُها ... وَلِيدُ أَعْجَمَ بالكَتَّانِ مَفْدُومُ
كأنَّ إبريقَهم ظَبْيٌ على شَرَفٍ ... مفدَّمٌ بسبا الكَتَّانِ مَلْثُومُ
أَبْيَضُ أبرَزَهُ للضحِّ راقِبُهُ ... مقلَّدٌ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مَفْغُومُ(٢)

فقد سلك الشّاعر طقوساً خاصة لحفظ الخمر في دنانها، فاشترط على الساقي، وهو غلام أعجمي، أن يضع على فمه خرقة وهو يصفق الخمر من إناء إلى آخر، لئلا يسقط من ريقه في الكأس شيء، ثم يشترط وضعها في إبريق أبيض مصنوع من الفضة، له عنق طويل كالظبي.

ومن طقوس الخمر التي اتبعها الإنسان الجاهليّ، أنه جعل الخمار يقف حارساً على الخمر لا يبرحها كأنه يحرس كنزاً ثميناً، فإذا ما هريقت الخمر من الدن، راح هذا الحارس يلهج بلسانه متمتماً بعبارات الصلاة والتسبيح والتعاويذ مباركا لها ومصليا عليها يدعو لها بالصون والحفظ، يقول الأعشى:

لها حارسٌ ما يبرحُ الدَّهْرَ بيتها ... إذا ذُبحت صلَّى عليها وَزَمْزما
ببابِلَ لم تُعصَرْ فجاءتْ سُلافةً ... تُخالِطُ قِنْديداً ومِسْكاً مُخَتما
يطُوفُ بها ساقٍ علينا مُتَوَّمٌ ... خَفيفٌ ذَفِيفٌ ما يزال مُفَدَّما
بكأسٍ وإبريقٍ كأنَّ شَرَابَهُ ... إذا صُبَّ في المِصحَاةِ خالَطَ بُقَّما(٣)

---

(١) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٢، ص ١٩٧.

(٢) علقمة الفحل- الديوان، ص ٧٠-٧١. ترقرق: تصفو وترق. مفدوم: على فمه الغدام: وهي خرقة تُجعل على فم الساقي لئلا يسقط من ريقه في الكأس شيء. ملثوم: جُعل له لثام. الضح: ما طلعت عليه الشمس. المفغوم: الطيّب الرائحة.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ٣٢٩. ذبحت: أي ثقب إناؤها فسالت منه كما يسيل دم الذبيح. زمزم العلوج: تراطنوا على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لساناً ولا شفة، صلى عليها: أثنى عليها وأبركها. بابل: مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد بثلاثة وتسعين كيلو متراً، وقد بلغت أوج عظمتها في عهد بختنصر سنة ٦٠٤ ق.م. والعرب ينسبون إليها الخمر والسحر، السلافة: ما تحلب وسال قبل العصر، وهو أجود الخمر. القنديد: عسل قصب السكر، وهو كذلك العنبر والكافور. متوم: قد وضع في أذنيه تومتين والتومة: اللؤلؤة. ذفيف: مسرع. المصحاة: قدح من فضة يشرب به. البقم: شجر ساقه أحمر يصبغ به.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد أبرز الشّاعر شخصية الساقي، فجعل له دوراً أساسياً في تقديم الخمر فمن صفاته، أنه يضع في أذنيه لؤلؤتين، يشد على أنفه وفمه خرقة بيضاء، يحمل كؤوس الخمر، يطوف بها بين الشاربين، "وبعض الجماعات تتطلب من الكهنة أن يمروا ببيوت الناس، ويفتحوا دنان الخمر، ويتذوقوا منها جرعة، ثم للناس بعد ذلك أن يشربوا من الدنان. وكانت الخمر لا تشرب، إلا إذا تليت عليها صلوات خاصة لتقديسها"[١]. ثم يذكر الأعشى مجلس الشراب وقد ازدان بأهله وبالأزهار متعددة الألوان، وآلات الطرب، يقول:

لنا جُلُسانٌ عِندَهَا وبَنَفْسَجٌ ... وَسِيسِنْبَرٌ والمَرْزَجُوشُ مُنَمْنَما
وآسٍ وخيريٌّ ومروٌ وسوسَنٌ ... إذا كان هِنْزَمْنٌ ورحتُ مُخشَّما
وشَاهسْفَرِمْ والياسَمِينُ ونَرْجِسٌ ... يصبِّحُنا في كلِّ دَجْنٍ تغيّما
وفتيانُ صِدقٍ لا ضَغَائِنَ بينهم ... وقد جَعَلُوني فَيْسَحَاهاً مكرَّما[٢]

"والخمر عند معظم الشعراء لون من ألوان الطرب الربيعي يهتف في حومة الطبيعة وفي إبان جمالها وشبابها، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوضح المشرق الباهر الذي يعم نفس الإنسان والكون"[٣].

ونتيجة لانسجام العلاقة الحسية بين الطلول والمرأة والخمر، هذا الثالوث الذي يجسد حركة الوجود الإنساني فإن بعض الباحثين جعل الخمر جانب المرأة في تشكل عنصر الحياة. فقد "تمثل الأطلال عالم الجدب والجفاف، أما الخمرة، فإنها تمثل عالم الرواء والاخضرار، ويتجلى هذا في صورة المرأة، وفي حين لا يمنح عالم الاطلال رواء فإن عالم الخمرة يمنحه، كما يجسد عالم الأطلال عالم الصمت وانعدام الاستجابة، أما الخمرة، فإنها تجسد عالم الحيوية والاستجابة"[٤].

"فالورد والرياحين من أسباب المتعة تساعد على إتمام النسيج المؤنس الذي

---

(١) محمد النويهي- نفسية أبي نواس، ص ٢٧.

(٢) الأعشى- ص ٣٢٩. الجلّسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش والآس والخيري ومرو وسوسن وشاهسفرم والياسمين والنرجس: كلها أنواع من الرياحين، وكلها أسماء فارسية معربة. مخشم: سكران شديد السكر. يوم دجن: غائم كثير المطر.

(٣) نعيم اليافي- تطور الصورة الفنية فيالشعر العربي الحديث، ص ٩١-٩٢.

(٤) كمال أبو ديب- جدلية الخفاء والتجلي، ص ١٧٣-١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطيف بالشرب"[١]. وكثرت في أبيات الأعشى السابقة الأسماء الفارسية، وهي غريبة على العربية، ويصف أبو هلال العسكري مثل هذه الأسماء "بأنها ليست سلسة اللفظ ولا جيدة السبك، ولا متلايمة النسج، لأن الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده وفيه دلالة الاستكراه والتكلف، وقال بعض الأوايل: الاستعانة بالغريب عجز والخروج عما بني عليه الكلام إسهاب"[٢].

واللوحة الفنية التالية في وصف مجالس الشراب التي أبدع الشّاعر الجاهليّ في رسمها، تعد من أجمل الشعر القصصي الذي صور هذه المجالس، يقول الأعشى:

أَرَحْنا نُبَاكِر جِدَّ الصَّبو ... حِ قَبْلَ النفوسِ وحَسَّادِها
فقُمنْا ولمّا يصِحْ ديكُنا ... إلى جَوْنَةٍ عند حدَّادِها
تنخَّلَها من بِكارِ القِطافِ ... أُزَيْرِقُ أَمِنُ إكْسَادِها
فقُلْنَا له هذِهِ هَاتِها ... بأدماءَ في حَبْلِ مقتادِها
فقال تَزِيدُونَنِي تِسْعةً ... وليْسَتْ بِعَدْلٍ لِأَنْدَادِها[٣]

يشير الشّاعر إلى مجلس الشراب الذي أعد له مع رفاقه، فقد جدوا في الإعداد لخمر الصبوح بعد أن استراحوا، فأسرعوا إلى صاحب الخمر، وهو فارسي، قبل أن يصيح الديك، معلناً انبلاج الصبح، فحاوروه على شرائها بأن لديهم استعداداً لدفع ناقة ضخمة، مقابل حصولهم على الخمر، لكن الخمّار وقد كشف عن رغبتهم، راهن عليهم بأن يعطوه تسعاً من الإبل، حتى يكون ثمنها معادلاً لثمن الخمر، وهذا إشارة واضحة إلى ندرة جودة الخمر المعتقة التي كانت تصنع في بلاد العرب، ويتاجر بها أهل الفرس واليهود.

"وبعض الأمم لا تحلل شرب الخمر في كل موسم جديد إلا بعد أن تقدم الثمار الأولى للكرم قرباناً إلى الآلهة، فكان الرومان مثلاً يضحون بالعصارة الأولى من

---

(١) علي شلق- أبو نواس، ص ٨٠.

(٢) العسكري، الصناعتين، انظر: ص ٤.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ١٠٥. أراح: صار مستريحاً. الجد: العجلة. جونة سوداء: يقصد خابية الخمر. حدادها: صاحبها الذي يحد الناس أي يذودهم عنها لنفاستها. تنخلها: تخيرها. أُزَيْرِق: هو الخمار جعله أزرق لأنه علج ليس عربياً.وتسميهم العرب كذلك لزرقة عيونهم. أدماء ناقة صادقة البياض سوداء الأشفار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخمر الجديدة للإله لبير ولا يجوز لأحد أن يشرب من الخمر الجديدة إلا بعد أن تؤدى هذه الشعيرة"[١].

ثم يتابع الأعشى هذا الأسلوب القصصي السردي الذي يعتمد الحوار عنصراً بارزاً بين ندمائه والخمار فيقول:

فقلتُ لِمِنْصَفِنَا أعطِهِ ... فلمَّا رأى حَضْرَ شُهَادِها
أضاءَ مِظَلَّتَهُ بالسِّرا ... جِ واللَّيْلُ غامِرٌ جُدَّادِهَا
دَرَاهِمُنَا كُلُّها جَيِّدٌ ... فلا تَحْبِسَنَّا بتَنْقَادِها
فقام فصَبَّ لنا قَهوَةً ... تُسكِّنُنا بَعْدَ إرعَادِها
كُمَيْتاً تكَشَّفُ عَنْ حُمْرَةٍ ... إذا صرَّحَتْ بَعْد إزبادِها[٢]

فلا يزال الأعشى وندماؤه يحاورون الخمّار، ويساومونه على ثمنها، حتى إذا قبل الخادم، راح يضيء خباءه ليحضر لهم الخمر، بعد أن أطال النظر في الدراهم ينقدها، فيصيح به الأعشى: دراهمنا كلها جيد، فلا تضيع علينا الوقت، ثم يعد الخمار إلى الدنان فيصب لهم خمرا حمراء ضاربة إلى السواد بعد أن يسكن زبدها.

ثم يستمر الشّاعر في هذا الأسلوب القصصي الحواري، فيصف الخمار وهو يجول عليهم بإبريق الخمر، وقد تخضّبت كفّه بلون الخمر، فظل الندامى يشربون حتى نفد ما لدى الخمار، فقاموا إلى ركابهم وإبلهم، وهم في نشوة، فتابعوا رحلتهم:

فَجَالَ عَلَيْنَا بإبريقِهِ ... مُخَضَّبُ كفٍّ بفِرْصَادِها
فباتَتْ رِكَابٌ بأكْوَارِها ... لدَيْنا وخَيْلٌ بألبادِها
لِقومٍ فكانوا هُمُ المُنْفِدِين ... شرابَهُمُ قَبْلَ إنفادِها
فَرُحنا تُنعِّمُنا نشوةٌ ... تجورُ بنا بعد إقصادِها[٣]

---

(١) محمد النويهي- نفسية أبي نواس، ص ٢٧.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ١٠٧. المنصف والناصف: الخادم والوصيف. الشهاد: الدراهم. مظلته: خباؤه. الجداد: الهدب الذي يبقى في أسفل النسيج. صرحت: ذهب زبدها.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ١٠٧. الفرصاد: التوت وهو أحمر. الكور: الرحل. الألباد: جمع لِبد وهو الصوف المتلبد الذي يجعل على ظهر الفرس تحت السرج حتى لا يؤذي ظهره.

انظر صورة مجالس الخمر عند: حسان بن ثابت- الديوان، ص ١٢٤، ١٢٨، ١٥١-١٥٢، ١٦٨، ٢٦٩-٢٧٠، ٣٣٥-٣٣٦. الأعشى- الديوان، ص ٥٣، ٢٥٥، ٣٨٣-٣٨٥. امرىء القيس- الديوان، ص ٣٤-٣٥، ١٧١، لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٦-٨. علقمة الفحل- الديوان، ص ٦٨-٦٩. النابغة الجعدي- شعره، ص ١٦٤. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٤١. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٧٥. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٣٧-٣٨. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٦٦. طفيل الغنوي- شعره، ص ١٩. عمرو بن شأس- شعره، ص ٤٩-٥٠. النمر بن تولب- شعره، ص ٦٣-٦٤. أربد بن قيس- أشعار العامريين الجاهليين، ص ١٨١. أبي ذؤيب الهذلي- ديوان الهذليين، ج١، ص ٧٣-٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نجد أن مجالس الشراب في المجتمع الجاهلي جاءت في معظمها مقرونة بالنديم "وإنما قيل لشارب الرجل (نديم) من الندامة، لأن معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه، وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه نادمه؛ لأنه فعل مثل ما فعله فهو نديم له"[١]. وإذا كان الشعراء الجاهليون تعرضوا للخمر في سياق قصائدهم يسوقونها مضمنة في أغراضهم الشعرية المتعددة، فإن الأعشى يكاد يفرد لها حديثاً في جل قصائده "كأنها لذته من الدنيا، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها في نفوس شاربيها، وكأنه يقدسها تقديساً فهي وثنه وصنمه، ولذلك لم يكد يسمع من قريش أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كف عن لقائه وانصرف[٢].

---

(١) ابن عبد ربه- العقد الفريد، ج٦، ص ٣٣٧.

(٢) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الإنسان والمعتقد

عقيدة التوحيد

كان للاتجاه الديني حضور في معتقد الإنسان الجاهليّ، تمثل في الإيمان بوجود الله، وتوحيده، وظهر من العرب فئة الموحدين "وهم من استبصر ببصيرته فاعترف بوجود الله وتوحيده، ولم يدرك دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، بل بقي على أصل فطرته، ونظر بعين بصيرته، فلم يغير ولم يبدل، وهم البقايا ممن كان على عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطوف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة، وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة وغير ذلك. وهؤلاء افترقوا فمنهم من بقي على أصل التوحيد، وما استفاض من أفراد الله تعالى في عبادته التي تضافرت على الإرسال به جميع الرسل، ومنهم من اتبع من بقيت شريعته ولم تنسخ ملته كعيسى بن مريم عليه السلام"[١].

"ولكن على الرغم من تشتت العرب السياسي في الظاهر، ربطت بينهم قبل الإسلام وحدة معينة في أفكار الديانة والعادات، وجعلت منهم أمة واحدة"[٢]. وبدت مظاهر هذا الاتجاه في الشعر الجاهليّ بذكر نعم الله وفضله على عباده. يقول عمرو بن كلثوم:

إنَّ لِلَّه عَلَينا نِعَماً ولأيْدِيْنا على النَّاسِ نِعَم
فَلَنَا الفَضْلُ عليهم بالذي صَنَع اللَّهُ فَمَنْ شاءَ رَغَم[٣]

---

(١) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج٢، ص١٩٦.

(٢) بروكلمان- تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ٤٢.

(٣) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ ما يسبغه الشّاعر وقومه من فضل ونعمة على الناس، ما هو إلا فضل مكتسب، وهبه الله لهم، فأنعموا به على غيرهم. وهذا السلوك ينم عن بداية الإحساس الديني عند الإنسان الجاهليّ، وما يترتب عليه من بناء فكري يرمي إلى الإيمان بقدرة الله، ومعرفة أنه هو المانح المعطي.

والإنسان الجاهليّ، أدرك عظمة الله من خلال إحساسه بالظواهر الطبيعية حوله، بعد أن أطال النظر فيها. يقول خداش بن زهير:

رأيتُ اللّهَ أكبرَ كُلِّ شيءٍ مُحَاولةً وأكْثَرهُم عَدِيدا
تَقُوهُ أيُّها الفِتْيانُ إنّي رأيْتُ اللّهَ قد غَلَبَ الجُدودا
وأبْرَحُ ما أدام اللّهِ قومي بحمدِ الله مُنْطِقا مُجِيدا[1]

فإحساس الشّاعر بعظمة الله نابع من بصيرة ثاقبة، فهو حين يرى الله أكبر شيء، إنما يقيس ذلك بالبرهان والتجربة، نتيجة فعل مدرك محسوس.

ودعوة الشّاعر الناس ليتقوا الله، مرحلة متقدمة من مراحل فكر الإنسان الجاهليّ بخوارق الطبيعة، فقد رأى من خلال التجربة والقياس، أن الخلق يفنون الواحد بعد الآخر، والله باق لا يزول، فهو أكبر من كل قوة في الوجود.

وهذا الإحساس قاده إلى الاعتقاد بالله، وإدراك سرّ عظمته، فطفق يدعو الناس إلى الاعتقاد به، وتقواه. ويرجع بعض العلماء النزعة الدينية إلى شعور الإنسان بعجزه وضعفه أمام ظواهر الكون الجبارة، وإحساسه بالضآلة أمام القوى الطبيعية الطاغية فظاهرة التدين عندهم إقرار بالضعف واحتماء بقوة الأعلى[2].

وطاعة الله تعالى من دلائل عظمته، فمن أطاع الله فقد ربح وغنم يقول أوس بن حجر:

أطَعْنا رَبَّنا وَعَصَاهُ قومٌ فَذُقْنَا طَعْمَ طَاعَتِنَا وَذَاقُوا[3]

فالشّاعر، يقارن بين من أطاع الله، فنال الأجر والثواب، وبين من عصاه، فذاق العذاب.

---

(١) خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين: ص ٢٧. أنطق فرسه: قاده.

(٢) عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا، ص ١٠٠.

(٣) أوس بن حجر- الديوان: ص ٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والناس في شرع الله تعالى متساوون، فقد خلقوا من نفس واحدة، وما داموا كذلك، فهم إخوان في دين الله، يقول عبيد بن الأبرص:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْما إن عَرضْتَ لهم والقَوْمُ ينفَعُهم عِلْمٌ إذَا عَلِمُوا
بأنَّكُمْ في كِتابِ اللَّهِ إخْوانُنا إذا تُقسِّمَتِ الأرحامُ والنَّسَمُ[1] .

فيدعو الشّاعر في معتقده إلى توحيد مشاعر الناس الدينية والاجتماعية، وضرب لذلك مثلاً في قبيلتي لخم وجذام، إذا علموا أنهم في كتاب الله إخوان. فقد كانت العرب "في بداية أمرها على ملة إبراهيم، بمعنى الإيمان بالإله الواحد الذي اعتقدت بوجوده، وحجت وعظمت من حرمته، وأنها حادت فيما بعد عن هذه العقيدة الموحدة إلى الشرك فاستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عبادة الأوثان"[2].

والذي لا يقبل مجالاً للشك "أن الميل إلى التوحيد قد أخذ يغزو العقلية العربية في أواخر العصر الجاهلي، أي في تلك الفترة التي سبقت ظهور الإسلام، مما كان في حقيقته إرهاصاً بظهور الدعوة الإسلامية وتمهيداً لتقبلها"[3].

وقوي اعتقاد الإنسان الجاهليّ بالله تعالى، حين راح ينظر إلى الكون، وما فيه من طبيعة متحركة أو ساكنة، يقول لبيد بن ربيعة:

للَّهِ نَافِلةُ الأجَلِّ الأفْضَلِ وَلَهُ العُلَى وأثيثُ كلِّ مؤثل
لا يستطِيعُ الناسُ مَحْوَ كِتَابِهِ أنَّى وليسَ قَضَاؤُهُ بِمُبَدَّل
سَوَّى فأغْلَقَ دُوْنَ غُرَّة عَرشِهِ سَبْعاً طِبَاقاً فَوْقَ فَرْعِ المَنْقَل
والأرْضَ تَحْتَهُمُ مِهَاداً راسِياً ثَبَتَتْ خوالِفُها بِصُمِّ الجنْدَلِ
والماءُ والنيرانُ مِنْ آياتِهِ فيهنَّ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ لَمْ يجْهَل
بَلْ كُلُّ سَعْيِكَ باطِلٌ إلا التُّقَى فإذا انقَضَى شَيءٌ كأنْ لم يُفْعَل[4]

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٢٠، النسم: نَفَس الروح والناس.

(٢) إبراهيم عبد الرحمن- الشعر الجاهلي، ص ٣٨.

(٣) إبراهيم عبد الرحمن- الشعر الجاهلي، ص ٣٩.

(٤) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٧١-٢٧٢. المؤثل: الدائم. المنقل: ظهر الجبل. الخوالف: الجبال الملس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر، يدلل على عظمة الله الذي خلق كل شيء منذ الأزل، فله ملك السموات والأرض، فقد سوّى كل شيء بأمره، ثم خلق سبع سموات طباقاً، وجعل الأرض مهادا والجبال رواسي لها، وخلق الماء والنار، وجعل ذلك كله موعظة وعبرة.

وحين يتأمل الإنسان الجاهليّ أشياء الطبيعة المتحركة، فيرى الطير والوحش، والشمس والقمر، فإنه يدرك تماما، أن ثمّة قوة تكمن وراء هذه المخلوقات، وهذه القوة تتمثل في الذات الإلهية، وابن الأسلت أدرك ذلك في قوله:

سَبِّحوا اللّه شَرْقَ كلِّ صَبَاحٍ ... طَلَعتْ شَمْسُهُ وكلِّ هِلالِ
عالِمُ السِّرِّ والبيانِ لَدَيْنَا ... لَيْس ما قال رَبُّنَا بِضَلال
وَلَهُ الطَّيْرُ تَسْتَرِيدُ وَتَأوِي ... في وُكُورٍ مِنْ آمِنَاتِ الجِبَال
وَلَهُ الوحشُ بالفلاة تراها ... في حِقافٍ وفي ظلالِ الرمال
وَلَهُ هَوَّدَتْ يَهُودُ وَدَانَتْ ... كلَّ دين إذا ذكرْتَ عِضَال
وَلَهُ شَمَّسَ النَّصَارَى وَقَامُوا ... كلَّ عيد لربِّهم واحتِفَال[1]

فهذه صورة أخرى تكشف عن تجليات الخالق عز وجل، استمدها الشّاعر من عناصر الطبيعة، ومن تواريخ الأمم السالفة. والشّاعر نظر إلى الكون، فأدرك سرّ طلوع الشمس والقمر، ورأى أن الله يعلم السرّ وما يخفى، وأدرك حركة الطير والحيوان وهي تأوي إلى أوكارها، وهذه كلها معجزات جعلته يفكر في مبدعها وخالقها.

والشّاعر لا يروم، فقد أطال الوقوف عند أهل الديانات السابقة، فأيقن أن اليهود تابت إلى الله بعد عصيان وتمرد، وأن النصارى عبدوا الله، وأقاموا له الطقوس والشعائر تقربا إليه، ودانت له الرهبان، ولعل ما رآه الشّاعر من عناصر الطبيعة، وحركة الكون البدائية وعجائب المخلوقات، كان كل ذلك آيات عززت الإيمان في قلب الشّاعر.

ولهذا، فقد نشأ في الجاهلية نفر من الحنفاء الذين لم يرضوا عن الحياة الدينية الوثنية فلم يجدوا اطمئناناً في اليهودية المنطوية على نفسها والمنافرة للطبيعة السمحة في الإنسانية، ولا وجدوا اطمئناناً في النصرانية التي كانت منقسمة مذاهب متعادية، من أجل ذلك، انصرف هؤلاء إلى حياة فطرية تأخذ

---

(١) ابن الأسلت- الديوان، ص ٨٥-٨٦. الشرق: طلوع الشمس. تستريد: تذهب وترجع. الحقاف: جمع حقف، وهو المعوج من الرمل. هوّدت: ثابت ورجعت. شمّس: تعبّد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عناصرها من الأخلاق الشخصية، وحب الخير للناس، فتركوا عبادة الأوثان وشرب الخمر، واعتزلوا المنازعات القبلية وزهدوا في منافسة معاصريهم على الدنيا، ثم ساح بعضهم في الأرض ترفعاً وتنسكاً[١].

ويرى ماكس مولر، أن الإنسان البدائي أحسّ بعظمة العالم وأدرك أن وراءه مجهولاً أعظم يتجلى في صورة الشمس، فعبدها، إذ هي في أبسط فكرة تنقل العالم من عدم الظلام، إلى واقع النور، فكأنها توجد العالم أو على الأقل تحييه[٢].

واستطاع الإنسان الجاهليّ أن يربط بين الواقع الفكري المجرب وبين الغيبيات التي شكلت له رموزاً سحرية، فرأى أن تقوى الله، خير تجارة رابحة، يقول لبيد بن ربيعة:

رَأيتُ التُّقى والحَمْدَ خَيْرَ تِجَارَةٍ رَباحاً إذا ما المَرْءُ أصْبَحَ ثاقِلا
وَهَلْ هُوَ إلاّ ما ابتَنَى في حَياتهِ إذا قَذَفُوا فَوْقَ الصَّرِيحِ الجَنَادِلا
وأثْنَوْا عَليهِ بالذي كانَ عِنْدَهُ وعَضَّ عليه العَائِدَاتُ الأنَامِلا[٣]

ينتقل الشّاعر من مرحلة التشبث بمفاتن الحياة إلى التفكير بالآخرة، فيعرض عن الدنيا، ويعمل لآخرته، ويرى أن خير زاد يتزود به الإنسان هو التقوى، فهو أحسن تجارة رابحة في دين الإنسان ودنياه.

ويبدو، أن الشّاعر يشير إلى الصحوة الدينية التي تستيقظ في ضمير الإنسان حين يشرف على الموت، فيكون حريصاً على أن يترك أثراً طيبا في النفس تلهج به الألسنة من بعده.

فقد "كان أكثر الجاهليين يسلكون في الحياة مسلكاً مؤمناً بالله وبقيمة العمل الصالح، من غير أن يكون لهم نظام مخصوص في العبادة لا فيما يتعلق بالحج"[٤]

ويظهر موقف الإنسان الجاهليّ من الحياة في صورتين: الأولى، أن يكون تقياً فيثني عليه الناس بعد موته، والأخرى: أن يكون مسيئاً، فيعض الناس أصابعهم ندماً عليه وتحسراً.

---

(١) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، انظر: ص ٨٣.

(٢) عبد المجيد عبد الرحيم- الانثروبولوجيا، علم الإنسان، ص ٩٦.

(٣) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٤٦-٢٤٧. رباحاً: ربحاً. ثاقلا: ميتاً.

(٤) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، انظر: ص ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإنسان الجاهليّ، كان على علم ومعرفة بالجنة والنار، ولذلك، راح يقيم على التقوى، تجنباً للنار، وطمعاً في الجنة، يقول النابغة الجعدي:

أُقِيمُ على التَّقْوىَ وأَرْضَى بِفِعلِهِ وكنتُ مِنَ النَّارِ المَخُوفَةِ أَوْجَرا[١]

فالخوف من النار، قد يكون العلة التي جعلت الشّاعر يبحث عن الوجه المقابل لها وهو الجنة، فكان ذلك سببا في التقوى كما يرى عبد المجيد عبد الرحيم حين يقول "وأما الأساس النفسي الذي دفع الناس إلى العبادة فهو دهشة الإنسان من عظمة الطبيعة وخوفه من المجهول"[٢].

فقد يتأتى تفوق المحدثين ممن اعتنقوا الديانات السماوية قبل الإسلام من تفوق ديانتهم على ديانة الأقدمين الوثنية"[٣] لذلك جاء اعتقادهم أقرب إلى الروح الإسلامية من عبادة الأوثان والأصنام.

ولعل ما يصيب الإنسان من نوائب الدهر، وابتلاء الأيام، قد أحدث لديه متغيرات فكرية، ورموزاً دينية، قادته إلى الاعتقاد بقوة الله، فكان ذلك سبباً من أسباب العقيدة يقول عديّ بن زيد:

لا أرَى حِصْناً يُنَجِّي أهلَهُ كلُّ حيٍّ لفَناءٍ ونَفَدْ
فَدَعِ البَاطِلَ واعْمِدْ لِلتُّقَى وتُقَى رَبِّكَ رَهْنٌ للرَّشَدْ
وقُلِ المَعْرُوفَ فِيْمَنْ قالَهُ وامنَعَنْ نَفْسَكَ من قيلِ الفَنَدْ[٤]

إن علاقة الشّاعر مع الحياة، تقوم على إذعانه المطلق لإرادتها المتمثلة بعملية الإفناء، فليس ثمّة كائن حي ينجو من الموت، ولو كان في حصون ممنعة. وما دام مصير الإنسان يؤول إلى الهلاك، فقد رأى الشّاعر أن تقوى الإنسان، وتركه الباطل، وتمسكه بالمعروف وتجنبه الكذب، وتحريه الصدق، هي من أهم المعايير التي يأمن بها شرور الحياة.

والإنسان الجاهليّ يرى في التزامه البر والتقوى سلوكاً اجتماعياً، يرمي إلى تهذيب النفس، فرغب أن يعمّم هذا السلوك لدى الآخرين، فهذا ابن الأسلت يوصي

(١) النابغة الجعدي- شعره: ص ٧٤، أوجر: خائف.

(٢) عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا، علم الإنسان، ص ٩٧.

(٣) كارلوني- تطور النقد الأدبي، ص ٢١.

(٤) عدي بن زيد- الديوان، ص ٤٣. الفند: الكذب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبناءه على التقوى والابتعاد عن الفحش، يقول:

يا بَنِيَّ الأيامَ لا تأْمَنوُها واحذَرُوا مَكْرَها ومَرَّ اللَّيَالِي
واعْلَمُوا أنَّ مُرَّها لِنَفَاد الـ خلْقِ ما كانَ مِنْ جَديدٍ وَبالِي
واجْمَعُوا أمْرَكُم عَلَى البِرِّ والتَّقـ وى وَتَرْكِ الخَنَا وأخْذِ الحَلال[1]

فالشّاعر، يوصي أبناءه بأن يتّعظوا مما يحدثه الدهر بالإنسان من فواجع ومحن، وألا يُغَرّوا بمفاتن الحياة، فهي خَدّاعة ماكرة، وعليهم أن يأخذوا منها العبر، فيلجأوا إلى عمل البر والتقوى، وكسب المال الحلال، وترك الفواحش والموبقات.

فالوازع الديني الذي يهدف إلى تعزيز إيمان الإنسان بالله تعالى بائن في اتجاه الشّاعر الديني.

ولعل تجارب الإنسان الجاهليّ في حياته، ورؤيته الفكرية لعناصر الكون والطبيعة من حوله، كان لهما كبير الأثر في إحداث انقلاب في فكر الإنسان الجاهليّ، واتجاهاته العقدية، انظر إلى زهير بن أبي سلمى، حين يرى، أن الله وحده هو الحق الذي لا حقّ سواه، يقول:

ألا ليتَ شِعري هل يرى النّاسُ ما أرَى مِنَ الأمْر أو يَبدو لهم ما بَداليا؟
بَدا لِيَ أن الله حَقٌّ فَزادَني إلى الحَقِّ تَقوَى اللهِ ما كانَ باديا
بدا لِيَ أنَّ الناسَ تفَنى نُفُوسُهُم وأموالُهُم ولا أرَى الدَّهرَ فانِيا
وأنّي متى أهبِطْ من الأرض تَلْعةً أجِدْ أثَراً قَبلِي جَديداً وعَافِيا
أرَانِي إذا ما بِتُّ على هَوىً وأنّي إذا أصْبَحْتُ أصبحتُ غَادِيا
إلى حُفرَةٍ أهْدَى إليها مُقِيمَةٍ يَحُثُّ إليها سائِقٌ مِن ورَائيا[2]

إن رؤية الشّاعر، تقضي بأنه يرى خلاف ما يراه غيره، فهو يقر بأن الله تعالى وحده هو الحق المطلق، وبدا له ذلك من خلال تجربته الحياتية المتمثلة في اعتقاده بفناء الإنسان، وما يملك من مال أو متاع.

---

(١) ابن الأسلت- الديوان، ص ٨٧.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٦٧-١٦٩. السائق: الأجل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشّاعر، ينظر أناساً أفناهم الدهر، عاشوا منذ قرون وأزمان، والإنسان محفوف بمكاره الحياة، يقضي حياته منشغلاً بالماديات الزائفة يشقى من أجلها، ثم يساق إلى أجله المحتوم، فيُودى حفرة يقيم فيها دهراً إلى أن يشاء الله تعالى.

ويشير الشاعر هنا إلى العدم والفناء، فكينونة الإنسان مادة تتحول إلى هيولى زائدة "وهيولى كل جسم هي الحامل لصورته ، فإذا أطلقت تتصور الهيولى بها، وبهما معا يتم الجسم، فالجسم مؤلف من الهيولى والصورة، ولا وجود لهيولى تخلو عن الصورة إلا في الوهم، وكذلك لا وجود لصورة تخلو من الهيولى إلا في الوهم"(١).

وقد يكون لأحداث الدهر، وفواجع الزمان وما حل بالإنسان من محن، وكوارث أثر بالغ في معرفة أسرار الحياة، والوصول إلى اعتقاد الإنسان الجاهليّ بالله الذي تمثلت قدرته بفعل الدهر، وعندها أيقن أن البقاء لله وحده.

والإنسان الجاهليّ، يعتقد أن الله إذا قدَّر شيئاً، لا بد فاعله، والإنسان لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا بمشيئة الله، يقول قيس بن الخطيم:

يُحِبُّ المرءُ أن يَلْقَى مُنَاهُ ويأبَى اللّهُ إلاَّ ما يشاءُ(٢)

ويرى ذو الإصبع العدوانيّ، عجز الإنسان أمام قدرة الله تعالى، فيقول:

أمْرٌ بِلَيْطِ السَّماءِ مُلْتَبِكُ وَالنَّاسُ في الأرْضِ فُرِّقُوا شِيَعَا
ذَلِكَ مِنْ رَيْبِهِمْ بِقُدْرَتِهِ مَا شَاءَ مِنْ غَيْرِ هَيْبَةٍ صَنَعَا
وَيَفْرُقُ الجَمْعَ بَعْدَ ثَرْوَتِهِ مَا شَاءَ مِنْ بَعْدِ فُرْقَةٍ جَمَعَا
كَمَا سَطَا بالأرَامِ وبالـ حِجْرِ وأزْكَى لِتُبَّعٍ تَبَعَا(٣)

فالشّاعر، يصور قدرة الله تعالى من خلال بعض الظواهر، والمشاهدات الطبيعية، والمحن التي مرت على الناس. ثم يكشف عن طائفة منهم، خرجت عن طورها، فارتابت بقدرة الله، فكان أن بين لهم الشّاعر قصص السالفين الذين خرجوا عن طاعة الله، فجعلهم شيعاً متفرقة، وضرب لهم الآرام والحِجْر وتُبَّعاً الذين

(١) عبد الأمير الأعسم- المصطلح الفلسفي عند العرب،انظر: ص ٢١٠.

(٢) قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٥٥.

(٣) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٥٦-٥٧، الليط: اللون. الملتبك: المختلط. الإرام وعاد والحِجْر وتبع، كل أولئك من السالفين الذين قصّ الله خبرهم في التنزيل. ثروة الشيء: كثرته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكرهم الله في القرآن الكريم، وكيف آلوا إلى الزوال بعد حضارة طويلة الأمد. ويقول أميّة بن أبي الصّلت في فناء الإنسان وخلود الله تعالى:

فَكُلُّ مُعَمَّرٍ لا بُدَّ يَوْماً وذِي دُنْيا يَصِيرُ إلى زَوالِ
ويَفْنَى بَعْدَ جِدَّتِهِ ويَبْلَى سِوى الباقِي المُقَدَّسِ ذِي الجَلالِ(١)

وراح الشّعراء، يتسابقون فيما بينهم، على استصدار الأحكام الشرعية التي تقضي بأن كل ذي نسم وروح، سيصيبه البلى، ويخترمه الموت، وإن طال مكثه في الحياة، وفي ذلك، تعميم على فناء المادة والروح، إذ لا بقاء إلا للواحد الأحد، تقول الخنساء:

لا تَبْعَدَنَّ فإنَّ الموتَ مُخترِمٌ كُلَّ الخَلائِقِ غَيْرَ الوَاحِدِ البَاقِي(٢)

وفناء المادة كان معروفاً في الفكر الوثني الجاهليّ، فهذا زهير بن أبي سلمى يقابل بين الضديات، بين الخلود والفناء، وبين الأحياء والجمادات. فيقول:

وما إنْ أرَى نَفْسِي تقيها كريهتي وما إنْ تقي نفسي كَرائِمُ مَالِيَا
ألا لا أرَى على الحَوادثِ بَاقِيا ولا خالداً إلاّ الجبالَ الرَّواسِيَا
وإلا السَّماءَ والبلادَ، ورَبَّنا وأيّامَنا مَعدودةً واللَّيَالِيَا(٣)

إن رؤية الشّاعر العقدية، تقضي بأن حوادث الأيام لا تُبقي كائناً على قيد الحياة، ويجعل الخلود للجبال الراسية والسماء، ثم يدرك أن الله تعالى خلق كل هذه المظاهر الكونية والأجرام الطبيعية، وإذا كانت في معتقد الشاعر خالدة، فإن خالقها أزلي لا يفنى.

واعتقاد الإنسان الجاهليّ بوحدانية الله، تتجلى في قول النابغة الجعدي:

الحمدُ لِلهِ لا شَرِيكَ له مَنْ لم يُقلْها فنَفْسَهُ ظَلَما
المولجِ اللَّيْلَ في النَّهَار وفي الليل نهاراً يُفرِّجُ الظُّلَما
الخَافِضِ الرَّافِعِ السَّماءَ على الـ أرضِ ولم يَبْنِ تَحْتها دِعَمَا(٤)

---

(١) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٤٤٨.

(٢) الخنساء- الديوان، ص ٣٤٥.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٧٠.

(٤) النابغة الجعدي- شعره، ص ١٣٢-١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر، يجعل عظمة الله متجلية في قدرته على خلق السماء دون ركائز أو دعائم، وعلى جعل الليل والنهار متعاقبين، لكي يدل بهذا كله إلى الاعتقاد بوحدانية الله، والشّاعر يلزم غيره بألا يجعل لله شريكاً، ومن يرد غير ذلك، فقد ظلم نفسه، وحرمها الأجر والثواب.

وقد وردت هذه الأبيات كذلك في شعر أمية بن أبي الصلت، ومهما يكن من أمر، فإن هذا الفكر العقدي لهذه الفئة من الشعراء كان يرمي إلى تعظيم الله عز وجل والإيمان بوحدانيته. ويقال عن النابغة الجعدي: إنه كان "ممن فكر في الجاهلية، وأنكر الخمر والسكر، وما يفعل بالعقل، وهجر الأزلام والأوثان، وقال في الجاهلية كلمته التي أولها الحمد لله لا شريك له"(١).

ومن يُقر بشرع الله وطاعته، عليه أن يتّقيه ولا يشرك به أحداً، فيؤمن بوحدانيته، ويعمل بأوامره ونواهيه، يقول الأعشى:

وإنَّ تُقَى الرَّحْمنِ لا شَيْءَ مِثْلَهُ ... فَصَبْراً إذا تَلْقَى السِّحاقَ الغَراثِيَا
وربَّكَ لا تُشْرِكْ بِهِ إنَّ شِرْكَهُ ... يَحُطُّ مِنَ الخَيْرَاتِ تِلْكَ البَوَاقِيَا
بَلِ اللّهَ فاعْبُدْ لا شَرِيكَ لِوَجْهِهِ ... يَكُنْ لكَ فِيما تَكْدَحُ اليَوْمَ رَاعِيَا
وإياكَ والميتَاتِ لا تَقْرَبَنَّها ... كَفَى بِكَلامِ اللهِ عَنْ ذَاكَ نَاهِيَا(٢)

فالشّاعر، يحث على تقوى الله، وعدم الإشراك به، واتباع ما نهى عنه، مثل أكل الميتة، ثم أمر بمواساة الجائع الذي أضناه الفقر والعوز، فالتقيد بما أمر الله به ونهى عنه يبعد عن كل معصية أو ذنب.

وأدرك الإنسان الجاهليّ سرّ عظمة الله في أنه يعلم الغيب وما تخفي الصدور، يقول لبيد بن ربيعة:

أرَى النَّاسَ لا يدْرُون ما قَدْرُ أمْرِهِمْ ... بلى كُلُّ ذي لُبٍّ إلى الله واسِلُ
ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلُ ... وكلُّ نَعِيمٍ لا مَحالةَ زائل
وكلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بينَهمْ ... دُوَيْهِيةٌ تصْفَرُّ مِنْها الأنَامِلُ
وكلُّ امرىءٍ يوماً سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ ... إذا كَشفت عِنْدَ الإلهِ المحَاصِلُ(٣)

(١) الأصفهاني- الأغاني، ج ٥، ص ٩.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٣٦٥. السّحاق: البعد. الغراث: جمع غرثان وهو الجائع.

(٣) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٥٦-٢٥٧، الواسل: الطالب. الدويهية: أراد بها الموت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالعاقل من الناس، هو من يتوسل إلى الله، ويتقرب إليه بالطاعة التامة، فكل نعيم في الدنيا زائل، سوى نعيم الله، فهو باق لا يزول. وما دام الإنسان هالكاً وميتاً، فليعمل عملاً، يقربه من الله ويقيه الشرور.

وحين نظر الشّاعر إلى الحياة فأدرك أن نعيمها زائل، والناس يودع بعضهم بعضاً، زهد في الدنيا وراح يعمل لآخرته، لأنّ عمل الإنسان في وجوه البرّ، هو الذي يبقى عند الله تعالى.

وعبثاً حاول الإنسان الجاهليّ أن يرى من حوله الثوابت في الأشياء، فالحياة دائبة في حركة متغيرة، ولا يعول عليها؛ لأنّها في تجدد مستمر، فالثوابت المطلقة يراها الشّاعر في الذات الإلهية، يقول عبيد بن الأبرص:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ ... وسائلُ اللهِ لا يَخِيبُ
باللّهِ يُدْرَكُ كُلُّ خَيْرٍ ... والقَوْلُ في بَعْضِهِ تَلْغِيبُ
واللهُ ليسَ لهُ شريكٌ ... علام ما أخْفَتِ القُلوب[1]

فإذا كان الإنسان قنط من رحمة العبد، فإنه لا يقنط من رحمة الله الواسعة، فالله لا يخيب من يطمع في نواله، وهو الذي يعلم سرائر الأنفس وما تخفي الصدور، وكل ما سواه باطل، ولا يجوز تجاوز حدوده وحرماته، بل يجب الإقرار بوحدانيته تعالى.

وقد وجد في المجتمع الجاهليّ، أناسٌ مُفرّغون من العقيدة، ليس لهم ربّ يعبدونه، فهذا الأسود بن يعفر، يجاهر بالتحلل الكامل من الدين والمعتقد، يقول:

وَكَائِنْ بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... من الفِتْيَان والعَرَبِ الكِرَامِ
أيوعدني ابن كَبْشَة أن سنحيا ... وكيف حياةُ أصْدَاءٍ وَهَامِ
أيَعْجَزُ أن يردَّ الموت عني ... وَيَنْشُرُني إذا بَلِيَتْ عِظَامِي
ألا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمَنِ عنِّي ... بأنِّي تَارِكٌ شَهْرَ الصِّيَام
فَقُل للّه يَمْنَعُني شَرَابِي ... وقل للّهِ يَمْنَعُني طَعَامِي
تَحَامَاك الحُتُوفُ وأفْلَتُوني ... أخُو المَلهُوفِ والبَطَلُ المُحَامِي[2]

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٥. تلغيب: ضعف.

(٢) الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٦٠-٦١. وانظر صورة المعتقد والتوحيد عند: عدي بن زيد- الديوان، ص ٤١، ٩١. النابغة الجعدي- شعره، ص ١٩٤، ٢٢٩-٢٣١. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٧٦. امرىء القيس- الديوان، ص ٢١٨. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر، يظهر تمرّده على الدين وعصيانه للمعتقد، والحوار الذي أداره مع ابن كبشة الذي حاول أن يقنعه باتباع نهج الحق يشير إلى إنكاره المطلق بوجود حياة بعد الموت، أو بالبعث والحساب. وفي الأبيات، تحدّ كبير للقدرة الإلهية وتجاوز وصل إلى درجة الإلحاد والكفر بقدرة الله، فكأنه ينكر على الله قدرته على أن يمنع الموت عن الإنسان، أو يمنع عنه شرابه، وفي ذلك خروج على المعتقد، وخروج على الإلف الاجتماعي.

"والممعن في البداوة من العرب، ضعيف الإيمان بدينه، دينه الذي يتبعه تقاليد قبيلته، وعرف جماعته، وما وجد عليه آباءه، وإنما كانوا يقدسون الأحجار والأشجار والينابيع، ويعبدون الأوثان والأصنام"(١).

الرسل

إن ديانة التوحيد التي آمن بها بعض الجاهليّين فاتخذها معتقداً له، قاده ذلك إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى، وهذه الديانة، حملت بعض الجاهليّين إلى الاعتقاد بالأنبياء والرسل. فهذا السموأل بن عادياء، يعتقد بنبوة داود وسليمان ويحيى ويوسف ويعقوب وموسى عليهم السلام، ويقرّ بنبوّتهم، يقول:

وأَتَتْنِي الأَنْبَاءُ عن مُلكِ داوُ ... دَ فقَرّتْ عَيْنِي بهِ ورَضِيتُ
وسُلَيْمانَ والحواريِّ يحيَى ... ومُنَسَّى يوسُفَ كأنِّي وَليت
وبَقَايا الأسْباطِ أسباطِ يَعـ ... قوبَ دارسِ التَّوْراةِ والتابوت
وانْفِلاقُ الأمْوَاجِ طَوْرَيْنِ عن ... موسى وبَعدُ الملك الطَّالُوت
ومُصَابُ الإفْرِيسِ حينَ عَصَى اللـ ... ـهَ وإذ صابَ حَيْنَهُ الجَالُوت(٢)

فالشّاعر يعتقد بهؤلاء الأنبياء، ويصدق نبوتهم، وما جاؤوا به من آيات ومعجزات، فأشار إلى ملك داود وأسباط بني إسرائيل، وانفلاق البحر لموسى حين نجاه الله من فرعون.

---

(١) محمد طاهر درويش- حسّان بن ثابت، ص ١١٧.

(٢) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٢. مُنَسَّى: من أسباط بني إسرائيل. الإفريس: الشيطان. انفلاق الأمواج: أي انفلاق البحر لموسى حين نجاه الله تعالى وقومه من فرعون.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واعتقاد الشّاعر بالمعجزات التي جاء بها بعض الأنبياء دليل على أن الإنسان الجاهلي، كان في حاجة إلى مثل هذه المعجزات، ليفكر فيها بعقله، فيؤمن بقوة الله التي ينجم عنها انقلاب فكري لدى مجتمع الجزيرة العربية في ذلك العصر.

وتشير الأبيات إلى أن بعض عرب الجاهليّة كان على علم ودراية ببعض الأنبياء وشيء من قصصهم وأخبارهم، وذكر الآلوسي عن بعض المفسرين، أن العرب "لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم، بل كانوا في فترة بين إسماعيل ومحمد عليهما السلام، وهي ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام ،كانت مختصة ببني إسرائيل"(١).

وهذا النابغة الجعدي، يتلقى رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي بشرت بالهدى، ودين الحق، وقد امتلأت نفسه بشرا ومحبة، حتى لكأنه لقي فيها حرزاً منيعاً لم يعهده من قبل، يقول:

أتيْتُ رَسُولَ اللّهِ إذْ جاءَ بالهُدَى ... وَيَتْلُو كِتَاباً كالمجَرَّةِ نَيِّرا

خَلِيليَّ قد لاَقَيْتُ ما لم تُلاقِيا ... وسَيَّرتُ في الأحْيَاءِ، ما لم تُسَيَّرا(٢)

واتباع النابغة الجعدي دين محمد الذي وجد فيه الهداية والنور يجعلنا نفترض أن الإنسان الجاهليّ، كان يترقب مجيء إنسان يهديه سواء السبيل، فيرشده إلى طريق الحق والصواب.

ولعل هذا الإحساس جاء نتيجة إلى تأثير "العقائد الدينية في بعض بلاد العرب، وظهر الحنفاء واستعدت الأذهان لتلقي رسالة إلهية جديدة وقبول الإسلام"(٣) وهذا يشير إلى أن "الأفكار الدينية قبل أن تكون قومية تكون إنسانية"(٤).

ولعل النابغة، يشير في خطابه إلى اعتناقه الدين الجديد، دين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد يختلف في ذلك عن خلاّنه الذين يدينون بما كان عليه أسلافهم. ولذلك، رأى من اعتنق دين محمد عليه السلام أنه دين الهداية والنور، ففيه عتق

---

(١) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٢) النابغة الجعدي- شعره، ص ٦١.

(٣) محمد طاهر درويش- حسان بن ثابت، ص ١١٧.

(٤) كلودبيشوا- الأدب المقارن، ص ١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من النار، يقول الأعشى:

أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نبيِّ الإلهِ حِينَ أوصى وَأَشْهَدا
إذا أنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلاَقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدا
نَدِمْتَ عَلَى أنْ لا تَكُونَ كَمِثْلِهِ وأنَّكَ لَمْ تُرصِدْ لِما كَانَ أَرْصَدَا[١]

فالشّاعر يقوم بحملة فكرية دينية، يحاول فيها، إقناع الناس بأن يدينوا بدين الإسلام الذي جاء به محمد مبشرا للعالمين.

وظهر نفر من شعراء الجاهليّة، أضمروا العداء والشرّ للدين الجديد الذي جاء به محمد عليه السلام، فهذا عامر بن الطّفيل يحارب بعثة الرسول محمد والذين ناصروه الدين، فيقول:

بُعِثَ الرَّسُولُ بما تَرَى فكَأَنّما عَمْداً أشُدُّ على المَقَانِبِ غَارَا
ولَقَدْ وَرَدْنَ بنا المدينَةَ شُزَّباً ولَقَدْ قَتَلْن بِجَوِّها الأنْصَارا[٢]

فالشّاعر لا يألو جهداً في الوقوف ضد مبعث النبي محمد رسولاً للبشرية كافة، وهو فوق ذلك، يحاول أن يردّ مَنْ ناصره في دينه، فقد جهّز جيشاً لمحاربة الأنصار الذين وقفوا إلى جانب محمد عليه السلام، وموقف ابن الطفيل ينم عن عداء ديني محموم ضدّ الأنبياء والرسل.

والنص السابق، يظهر إنكار الشّاعر بالرسول محمد ويجحد به، ولعلنا نميل إلى "أن البدوي بما يؤثر عنه من صعوبة الانقياد وضعف الشعور الديني، والتفاني في الحرية الشخصية، ليصعب عليه الانصياع إلى رجلٍ مثله يطلب منه الطاعة التامة، وهدم الكثير مما كان عليه من المعتقدات والعادات أجيالا"[٣].

ومن هنا نرى أن" النظم الدينية تؤثر أقوى الأثر على النظم الفنية ويكون هذا التأثير مباشراً في الحضارات البدائية حيث نرى أن كل ما هو اجتماعي ديني نتيجة لانعدام فكرة تقسيم العمل الاجتماعي"[٤].

(١) الأعشى- الديوان: ص ١٧٣. أجدك: أحقّ ما تقول.

(٢) عامر بن الطفيل- الديوان، ص٣٦٣-٣٦٤. المقانب: جمع مقنب، وهو الجماعة من الخيل بين الثلاثين إلى الأربعين. شزب: ضوامر.

(٣) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١١٣.

(٤) شارل لالو- مبادىء علم الجمال، ص ١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العبادات

عاش الإنسان الجاهليّ دهراً من الزمان يعاني من فراغ الروح، فتوجه إلى الظواهر الطبيعية يتخذها معتقدا له، يعتمد عليه في تصريف أموره الحياتية ويلجأ إليه في السّراء والضرّاء، فكان أن توجه إلى البيت الحرام، مكان عبادة، يؤدي فيه الشعائر الدينية، ومناسك الحج، تقرباً إلى الله تعالى، خاصة "أن العرب قبل ظهور الإسلام لم يكونوا مكلفين بشريعة من الشرائع، لا شريعة إبراهيم، ولا غيرها من شرائع الأنبياء"(١)، ولذلك، فقد حظي البيت الحرام بالقداسة الدينية، تقام فيه مختلف ألوان الطقوس والعبادات، فكان العرب "يطوفون بالبيت سبعاً، ويمسحون الحجر، ويسعون بين الصفا والمروة"(٢).

وبرزت أهمية البيت الحرام في معتقد الإنسان الجاهليّ "وكان الناس يحجون إلى مكة وإلى موضع البيت قبل إبراهيم حتى بوّأ له الله مكانه، بعد أن أوحى إليه بناءه"(٣).

ولأجل ذلك، راح شعراء الجاهليّة يعبرون في شعرهم عن علاقة الإنسان الجاهليّ بالبيت الحرام. يقول ابن الأسلت:

فَقُومُوا فَصَلُّوا لربِّكُم وتَمَسَّحُوا ... بأَرْكانِ هذا البيتِ بَيْنَ الأَخَاشِبِ
فَعِنْدَكُم مِنْهُ بَلاءٌ مُصَدَّق ... غَداة أبي يَكْسُومُ هَادِي الكَتَائِب
كَتِيبَتُهُ بالسَّهْلِ تُمْسِي ورَحْلُه ... على القَاذِفَاتِ في رؤوس المَنَاقِب
فَلَمَّا أتَاكُم نَصْرُ ذِي العَرْشِ رَدَّهُم ... جُنُودُ المليكِ بَيْنَ سَافٍ وَحَاصِب(٤)

فالشّاعر، يدعو قومه إلى أن يصلّوا لله، ويؤدوا ما عليهم من شعائر وعبادات للبيت الحرام؛ لأنّ قوة تمسكهم بأستار الكعبة، كانت سبباً في نجاتهم من بلاء أبرهة الحبشي، وجيشه الكثير الذي ملأ السهل والجبل فزال عنهم الخوف بنصر من الله ذي العرش، حتى ردّ جيش أبرهة على أعقابه.

---

(١) الآلوسي-، بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٢٨.

(٤) ابن الأسلت- الديوان، ص ٦٩، الأخاشب: الأخشبين، وهما جبلا مكة.أبويكسوم: أبرهة الحبشي. القاذفات: أعالي الجبال. المناقب: الطرق. السافي: الذي أصابه الغبار. الحاصب: الذي أصابته الحصباء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشّاعر كذلك، يقرن نصر قومه على أبرهة، بسبب قوة إيمانهم بالبيت الحرام، لما له من مكانة دينية في قلوبهم.

وكان الإنسان الجاهليّ، إذا عقد النية على فعل ما، فإنه يضع البيت الحرام حجة، وشاهداً على تنفيذ ذلك، لما له من مكانة دينية مقدسة، في نفوس العرب الجاهليّين، فكانوا يقسمون بالبيت الحرام، حجة على ما يفعلون، يقول الأعشى:

إنِّي لعمر الذي خَطَّتْ مَنَاسِمُهَا تَخْدِي وَسيقَ إلَيْهِ البَاقِرُ الغُيُلُ
لَئِنْ قَتَلْتُمْ عَمِيداً لَمْ يَكُنْ صَدَداً لنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَنَمْتَثِلُ[١]

إن قداسة البيت الحرام، تتمثل في ما يقدم له في مواسم الحج من شعائر وقرابين، فقوافل الحج تهوي إليه من كل ناحية، وتنحر عنده الذبائح، كل ذلك تقرباً إلى الله تعالى.

ولعل هذا القسم الذي يجعله الشّاعر محصوراً بالبيت الحرام، إشارة واضحة على قدسيته ومكانته الدينية، فليس من نافلة القول أن يقسم الإنسان الجاهليّ بالبيت العتيق، بل كانوا يرون القسم أنه من صلب شعائرهم الدينية.

وتقديراً لهذه القداسة، فقد جعل الله تعالى للعرب "البيت الحرام قياماً يدفع به بعضهم عن بعض، فلو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه عنده ما قتله"[٢] ولهذا، جاء تحريم القتل بسبب حرمة هذا البيت الذي اكتسب قدسيته الخاصة؛ لأنّه في قول الأعشى مجمع ديني لقريش والعرب:

لَعَمْرُ الَّذِي حَجَّتْ قُرَيْشٌ قَطِينَهُ لَقَدْ كِدْتَهُمْ كيْدَ امرىءٍ غَيْرِ مُسْنَدِ[٣]

وبلغ من قداسة الأماكن الدينية، أن الإنسان الجاهليّ كان يقسم بها فيبر بيمينه، فيأبى على نفسه أن يقرب دنايا الأمور، يقول أحيحة بن الجلاح:

إنّي والمِشْعَرَ الحَرَامَ وما حجَّتْ قُرَيْشٌ لَهُ وما نَحَرُوا
لا آخذُ الخُطَّةَ الدنيَّة ما دامَ يُرى مِن تَضَارُعَ حَجَرُ[٤]

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٩٩. المناسم: جمع منسم وهو طرف الخف. تخدي: تسرع في السير مع اضطراب. الغيل: الكثير. نمتثل: نختار الأمثل والأحسن.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ٢٢٧. القطين: دار الإقامة. المسند: الدعي.

(٤) أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٦٦. الخطة: الأمر. تضارع: جماء تسيل على قصر عاصم وبئر عروة وما وإلى ذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر، يقسم بالمشعر الحرام في المزدلفة، وبعض مواطن حج قريش التي يتقرب إليها بالنحر والذبح أنه لن يقرب دنية أو أمراً ذا خطيئة، ما دام يُرى حجر في جماء تضارع التي تسيل على قصر عاصم وبئر عروة.

والمشعر الحرام، وبعض مواطن حج قريش، كانت، من بين أهم دور العبادة يتقربون إليها عن طريق التعبد، وذبح القرابين.

وينقل محمود سليم الحوت، رأي سمث الذي يقول "بأن أقدم المذابح عند الساميين في الشمال، وعند العرب أنفسهم في بلاد العرب، كان، حجراً ضخماً من الحجارة، أو ركاماً تسفك عليه دماء العتيرة، وهذا السفك البسيط على هذا الركام أو ذاك الحجر، يقدس الذبح، ويجعل العتيرة قربانا شرعياً[١].

ولعل الطواف عند الذبح بالصنم، أوالحجر المؤلّه، هو أصل الطواف الذي كانت تقوم به قريش، والعرب قبل الإسلام حول الكعبة[٢].

ولم يملك الإنسان الجاهليّ في الحكم على أمر ما، إلا أن يقسم بدور العبادة في مكة، فهذا زهير بن أبي سلمى يمنح السيادة لرجلين من غطفان، قاما بالتدخل بين عبس وذبيان فحقنا دماءهم، وأجريا الصلح، وتحمّلا دفع الديات، فكان ذلك سببا في الإقرار لهما بالسيادة. يقول زهير:

فأَقْسَمتُ بالبَيْتِ الّذِي طَافَ حَولَهُ ... رِجالٌ بَنَوهُ من قُريشٍ، وجُرهُمِ
يَمِيناً لنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما ... على كُلِّ حالٍ مِن سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[٣]

فقد جاء قسم الشّاعر بالكعبة، تأكيداً على الهالة القدسية الممنوحة لها لأهميتها الدينية، وفي الأبيات، تكريم لقبيلة جرهم التي كان لها سبق تاريخي في بناء البيت الحرام.

والإنسان الجاهليّ، يستعين بالبيت الحرام في تحقيق آماله وأمنياته، فهذا أميّة بن أبي الصّلت، يرجو الله تعالى أن يبقيه من المؤمنين الصالحين الذين يدخل

---

(١) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٥٤.

(٢) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٥٧.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٤-١٥، جرهم: أمة قديمة كانوا أرباب البيت قبل قريش. السحيل: الخيط المفرد. والمبرم: المفتول: والمعنى: عل كل حال من شدة الأمر وسهولته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإيمان إلى قلوبهم وأحاسيسهم، فيستعين على ذلك بالبيت الحرام، يقول أمية:

يا رَبِّ لا تَجْعَلَنِّي كَافِراً أبَداً واجْعَلْ سَرِيرَةَ قَلْبِي الدَّهْرَ إيماناً
واخْلِطْ بِهِ بُنْيَتِي واخْلِطْ بِهِ بَشَرِي واللَّحْمَ والدَّمَ ما عُمِّرْتُ إنْسانا
إنِّي أَعُوذُ بِمَنْ حَجَّ الحَجِيجُ لهُ والرَّافِعونَ لدِينِ اللهِ أرْكانا
مسلِّمِينَ إليْهِ عِنْدَ حَجِّهِمُ لم يبتغوا بِثَوابِ اللّهِ أثْمانا[1]

ويتمثل البعد الديني في الفكر الجاهليّ ارتباطاً بأهمية المعتقد، وقداسة مكانته، فقد كان القسم بِمِنى والصّفا والمحرّم وكلها أماكن عبادة لها حظوة دينية كبيرة في معتقد الإنسان الجاهليّ.

الوثنية

إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء، وليست بشيء اختياري، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته، إن الصنم دين وهو رمز للقبيلة[2].

"ولعل خوف الجاهلي من المستقبل وانعكاس هذا الخوف على حاضره، جعله ينزع إلى الماضي، فكانت عبادة الأصنام الموروثة عن الأباء والأجداد، شكلاً من أشكال نزوع الجاهلي إلى ماضيه، والفرار إلى الماضي أمر ممكن ما دام الحاضر مشحوناً بالتوتر والخوف، وبذلك يمكن تفسير عبادة الأصنام على أنها اتجاه نحو الماضي والمستقبل معاً"[3].

"ولعل عبادة الأصنام والأوثان قديمة ترجع إلى عهد ولد إسماعيل عليه السلام فحينما ضاقت بهم مكة، وخرجوا إلى البلاد طلباً للرزق كانوا يأخذون معهم حجارة تعظيماً للحرم"[4].

---

(١) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥١٨. وانظر: الأعشى- الديوان، ، ص ١٥٩، طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٧٠.

(٢) جواد علي- المفصّل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ٦٥.

(٣) عبد العزيز شحادة- الزمن في الشعر الجاهلي، ص ٣٨.

(٤) ابن الكلبي- الأصنام، ص ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول المسعودي: إن عمرو بن لحي أول من عبد الأصنام، وكان عمرو هذا أول من ولي أمر البيت من خزاعة فغير دين إبراهيم وبدله، وبعث العرب على عبادة التماثيل حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة... ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها وانمحت الحنيفية منهم إلا لمعاً، قال في ذلك شحنة بن خلف الجرهمي:

يا عَمْرُو إنَّكَ قد أَحْدَثْتَ آلِهةً ... شَتَّى بِمَكَّةَ حولَ البَيْتِ أَنْصَابَا
وكانَ للبيتِ ربٌّ واحِدٌ أبدا ... فقد جَعَلْتَ له في النَّاسِ أَرْبَابا
لَتَعْرِفَنَّ بأنَّ اللَّهَ في مَهَلٍ ... سَيَصْطَفِي دُونَكُم لِلْبَيْتِ حُجَّابا[١]

وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم سموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل، هذيل بن مدركة، اتخذوا سواعاً، فكان لهم برهاط من أرض ينبع، وكانت سدنته بني لحيان، يعبده من يليه من مضر[٢].

وقد كان الجاهليّون يعظمون البيت بالدم، ويتقربون إلى أصنامهم بالذبائح، يرون تعظيم البيت أو الصنم، لا يكون إلا بالذبح، وأن الذبائح من تقوى القلوب، والذبح، هو الشعار الدال على الإخلاص في الدين عندهم، وعلامة التعظيم[٣].

وكانت لقريش، أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل عندهم، وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من الذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة وكان يقال لها هبل خزيمة[٤].

وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهليّة، هي عبادة كواكب في الأصل، وأن أسماء الأصنام والآلهة، وإن تعددت وكثرت، إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث

---

(١) المسعودي- مروج الذهب، ج ٢، ص ٥٦-٥٧. وانظر: ابن الكلبي- الأصنام، ص ١٣.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ١٩٦.

(٤) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سماوي هو: الشمس والقمر والزهرة، وهو رمز لعائلة صغيرة، تتألف من أب، هو القمر، ومن أم، هي الشمس، ومن ابن، هو الزهرة[١].

وكان عبدة الأصنام والأوثان، شديدي التعصب لها، يدافعون عنها لحمايتها. من ذلك، ما قاله عبد الله بن الزبعرى، يرد بها على قصيدة لأبي بكر الصديق قالها في غزوة عبيدة بن الحارث:

ومِنْ عَجَبِ الأيام والدَّهرُ كُلُّهُ ... له عَجَبٌ من سَابِقَاتٍ وحَادثِ
لِجَيْشٍ أتَانا ذي عُرامٍ يَقُوْدُهُ ... عُبَيدَةُ يُدْعَى في الهِيَاجِ ابنَ حارثِ
لِنَتْرُكَ أصْناماً بمكَّةَ عُكَّفا ... مَواريثَ مَوروثٍ كريمٍ لوارثِ
فأبلِغْ أبا بكرٍ لديكَ رِسَالةً ... فما أنتَ عَن أعراضِ فِهْرٍ بماكثِ
ولمَّا تَجِبْ يمينٌ غَليظةٌ ... تَجَدَّدُ حَرباً حَلْفَةَ غيرَ حانثِ[٢]

فالشّاعر شديد التعصب لدينه الوثني الذي يقوم على عبادة الأصنام، فقد ورثه كما يدعي عن آباء كرام، ولن يرضى عنه بديلاً، فلا الحروب ولا المتغيرات تثنيه عن دين الأباء والأجداد.

ويعجب الشّاعر، إذ يرى جيش المسلمين بقيادة عبيدة بن الحارث متوجهاً إليه وقومه ليتركوا أصناماً عكفوا على عبادتها دهراً طويلاً، ويعد الشّاعر هذا الإجراء سابقة، لا عهد للمجتمع الجاهليّ بها.

ويبدو أن الحملة التي قام بها أبو بكر الصديق ،لم تفلح عند الشّاعر، بدليل أن الشّاعر أخذ يصف جيش عبيدة في أثناء النزاع بالتراجع والكف عن الهجوم؛ لأنّ موقف الشّاعر وقومه، أكثر عددا، وأقوى مواجهة. فالشّاعر يستخدم منطق التهديد والقوة، وهو يطمع في أن ينال من جيش عبيدة بن الحارث.

ويعتقد "أن عبادة الأصنام والأوثان طرأت على الجاهليين من جيرانهم وأنها طرأت في زمن متأخر، يدلنا على ذلك قلة احتفال الجاهليين بتلك الأوثان والأصنام، التي لا نجد لها ذكراً إلا في مناسبات معينة"[٣].

---

(١) جواد علي- المفصل في تارخ العرب، ج ٦، ص ٥٠.

(٢) عبد الله بن الزبعرى- شعره، ص ٣١-٣٢.

(٣) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يستدل من هذا، أن الأصنام -فكرياً- كانت تتمثل بالسواد الأعظم من مجتمع الجزيرة العربية، فكان الشّاعر يرى أن أبا بكر قد أحدث حدثاً في الجزيرة لم تعهده العرب من قبل ،ولذلك كان قد واجه الأمر بكل صلابة ورفض، فقد كان أكثر عرب الجاهلية عبدة أصنام وأوثان "وكانوا في عبادتهم للأوثان يؤمنون بالله زاعمين أنها تشفع لهم عند الله"(١).

وحظيت الأصنام عند عرب الجزيرة بمكانة دينية مرموقة، فكان يعزى إليها النصر أو الخذلان، وراح الشّعراء يتباهون فيما بين قبائلهم، مظهرين مدى أثر هذه الأصنام على معتقديها، فمن ذلك،، ما يقوله عبيد بن الأبرص مستهزئاً ببني جديلة الذين خدعوا بصنمهم الذي لم يقدر على نصرهم، حتى استبدلوه بآخر ظناً منهم أن يجدوا فيه النصر. يقول عبيد بن الأبرص:

أُنْبِئْتُ أَنَّ بني جَدِيلَةَ أوعَبُوا ... نُفَراءَ مِنْ سَلْمَى لَنا وتَكَتَّبُوا
وَلَقَدْ جَرَى لَهُمُ فَلَمْ يَتَعَيَّفُوا ... تَيْسٌ قَعِيدٌ كالوَلِيَّةِ أَعْضَبُ
وأبو الفِراخِ على خَشاش هشَيمةٍ ... مُتَنَكِّبا إبط الشَّمائِلِ يَتْعَبُ
وَتَبَدَّلُوا الْيَعْبُوبَ بَعْدَ إلَهِهِمْ ... صَنَماً فقرُّوا يا جَدِيلَ، وأعْذبِوا(٢)

فالشّاعر يسخر من بني جديلة الذين كانوا يفخرون بصنمهم، ويبين لهم بطلان زعمهم، فقد خدعوا بصنمهم الذي لم يقدر على نصرهم. فقد خذلوا بهذا اللون من العبادات، ويبين الشّاعر لهم أن زجر الطير والعيافة أكثر قدرة على نصرة أتباعها من صنم بني جديلة، وفي ذلك تسفيه إلى هذا النمط من الديانة.

ويفهم من ذلك، أن بعض قبائل العرب، إذا أرادت أن تشن حرباً، أو تغزو غزوة كانت تتعيف بالطير، أو تتقرب لأصنامها التي تعبدها ،وتقدم لها القرابين لكونها آلهة لهم، تفرض عليهم كثيراً من الطقوس والعبادات يقدمونها لها.

---

(١) علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي، ج ١، ص ٨٣.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٢-٣. أوعبوا: نفروا. القعيد: الذي يأتي من الخلف الولية: البرذعة. الأعضب: المكسور أحد القرنين الخشاش: كل ما لا عظم له من الدواب. إبط الشمائل: جنبها. اليعبوب: صنم لجديلة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"والعيافة هي التكهن بالطير أو بغيرها من أنواع الحيوان إذا اتفق أو سئل عراف عن أمر إنسان فإنه يزجر أول طائر أو حيوان يمر به، أو يكتفي أحياناً بملاحظة طيران ذلك الطائر، أو مسير ذلك الحيوان"(١).

وكان لهذه الأصنام مكانة دينية كبيرة في قلب الإنسان الجاهليّ، فكان يقدم لها كل الشعائر الدينية، ويقوم بتنفيذ أوامرها ونواهيها، يقول النابغة الذّبياني:

حَيَّاكَ وَدٌّ فَإِنَّا لاَ يَحِلُّ لَنَا ... لَهْوُ النِّسَاءِ وإنَّ الدِّينَ قد عَزَما

مُشمِّرِينَ على خُوصٍ مُزَمَّمةٍ ... نَرْجُو الإلهَ وَنَرْجُو البِرَّ والطُّعَمَا

هَلاَّ سَأَلْتِ بني ذُبيَانَ مَا حَسَبِي ... إذا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَرَمَا(٢)

تتشكل علاقة الشّاعر بالمرأة المخاطبة من منطلق ديني يتمثل في تحريم الإله ودّ اللهو بالنساء، فقد منع الإله ودّ خيره عن بني ذبيان لأنّهم تجاوزوا حدود الدين وطغوا في الأرض فسادا، فعاقبهم الإله بأن سلّط عليهم الفقر والجوع.

"وقد كان الجاهليون يعظمون البيت بالدم، ويتقربون إلى أصنامهم بالذبائح يرون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلا بالذبح، وأن الذبائح من تقوى القلوب، والذبح هو الشعار الدال على الإخلاص في الدين عندهم وعلامة التعظيم"(٣).

والشّاعر الجاهليّ، يجعل تعديل السلوك وتصويب الأخلاق، معياراً لحصول الإنسان على رزقه. وربط ذلك بمعتقدات اجتماعية، تمثلت في أن الآلهة التي يعتنقها الجاهليّون تخبرهم أن الله تعالى يجعل رزق الناس رأفة ببعض الخلق وسائر الحيوان.

والإنسان الجاهليّ، يولي عبادة الأصنام أهمية بالغة، فيتقرب إليها بالنحر والذبح، يقول النابغة الجعدي:

قالتْ أُمامَةُ كم عُمِرتَ زَمانةً ... وذَبَحْتَ من عِتْرٍ على الأَوْثَان

ولقد شَهِدْتُ عُكاظَ قبل مَحلِّها ... فيها وكنتُ أُعَدُّ مِ الفِتْيَان

والمنْذِرَ بن محرّقٍ في مُلكهِ ... وشهدتُ يومَ هجائِنِ النُّعْمَان

---

(١) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ١٠٢.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٠٦. الإبل الخوص: الغائرة العيون. حسبي: فعلي. الأشمط: الأشيب. البرم: الذي لا سخاء عنده. ولا يدخل مع القوم في الأيسار من بخله.

(٣) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعُمِرْتُ حتى جاءَ أحمدُ بالهدى وقوارعٍ تُتْلَى من الفرْقان
ولبستُ م الإسلامِ ثوباً واسعاً من سيبِ لا حرمٍ ولا منَّان[١]

فالشّاعر عمّر طويلاً، حتى شهد الجاهليّة والإسلام شطراً وافياً من الزّمن، فقد شهد معظم ما أثر عن الجاهليّين، من أماكن عبادة، وديانات، وملوك، فأدرك الوثنية فتيًا قبل نزولها في عكاظ، وشهد ملك النعمان القيسي المنذر اللخمي، وبقي هكذا حتى جاء الرسول محمد صلى الله عله وسلم بدين الحق يتلو آيات بينات من القرآن الكريم فاتخذ الإسلام ديناً ومنهج حياة.

والنابغة الجعدي، شهد هذا التحول في الدين والمعتقد، فهو وثني في جاهليته يعبد الأصنام يقدم لها العتيرة في الأشهر الحرم لتقربه إلى الآلهة، ثم انتقل إلى عبادة الله، فآمن بالإسلام ديناً، حين رأى أن المعجزات التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أقوى مما كان الجاهليّون يدينون به.

وقد ورد أن الجاهليين " كانوا يقدمون لأصنامهم البقر أيضاً فقد هجا أبو خراش الهذلي رجلاً قميئاً تزوج امرأة جميلة مشبهة برأس بقرة قاربت أن يذهب بصرها فأسرع صاحبها يسوقها إلى مذبح العزى لينحرها ويقسمها على الحاضرين:

لقد أنكَحَت أَسْمَاء رأس بُقَيْرَةٍ من الأُدْمِ أَهْدَاها امرُؤٌ من بَنِي غُنْمِ
رَأَى مِذعاً في عَيْنِها إذ يَسُوقُها إلى غَبْغَبِ العُزَّى فَوسَّع في القَسْمِ

ويفهم من الأبيات أن عبدة الأصنام، كانوا يوزعون بعضاً من عتائرهم على الحاضرين، بعد أن ينضحوا الصنم بدمائها ولحومها ، كما كانوا يفعلون بالكعبة ولا يستبعد أن يكون أغلب هؤلاء الحاضرين من الفقراء الذين يترقبون القادمين ليحصلوا على شيء من لحم الذبائح"[٢].

وحين رأى بعض الجاهليّين أن في دين الله هداية وحقاً، ترك ما كان عليه من عبادة الأوثان والأصنام وعَبَدَ الله وحده، من ذلك ما جاء في شعر الأعشى، يقول:

---

(١) النابغة الجعدي- شعره، ص ٢٠٧، العتر: شاة تذبح لأصنامهم في رجب في الجاهلية. محلها فيها: نزولها في عكاظ. هجائن النعمان: نجائبه. القوارع من القرآن: آيات الوعد والوعيد. الرجل الحرم: المانع.

(٢) عبد الغني زيتوني- الوثنية في الشعر الجاهلي، ص ٣٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَإِيَّاكَ والمَيْتَاتِ لاَ تَأْكُلَنَّها ولاَ تأخُذَنْ سَهْماً جَدِيداً لِتَقْصِدا
وَذَا النُّصُبَ المَنْصُوبَ لا تَنْسُكَنَّهُ ولا تَعْبُدِ الأَوْثَانَ والله فاعْبُدا
وَصَلِّ عَلَى حينِ الْعشِيَّاتِ والضُّحَى ولا تَحْمَدِ الشيطان واللّهَ فاَحْمدَا[١]

إن إيمان الشّاعر بدين الله معتقداً، والالتزام بأركان هذا الدين، كشف حاجة الإنسان الجاهليّ بعامة إلى قوة تنظم له حياته الدينية والدنيوية، وهذا يجعلنا نعتقد أن الجاهليّ كان في ريب مما يعتقد.

فقد رأى الأعشى من خلال تمسّكه بالدين الجديد، عدم جدوى الوثنية وليست هي التي تنير له درب حياته نحو الرشاد، فتقربه إلى القوة التي كان يفكر فيها وهي قوة الله تعالى. ويكشف الشاعر عن بطلان بعض الطقوس والشعائر التي كان الجاهليون يمارسونها، فقد كانوا يأكلون الميتة ولهم طريقة في الذبح مختلفة، ويعبدون الأوثان، ويقدمون لها النسك، ويعبدون الشيطان.

"ومناسك الحج في الجاهلية كانت قريبة من مناسك الحج في الإسلام: الطواف واستلام الحجر، والصعود إلى عرفة، والإفاضة إلى عرفة، والتضحية والرجم، مع فارق أساسي مهم جداً هوأن جميع هذه المناسك في الإسلام طاعة لله وحده حقيقة ومجازاً"[٢].

وحظيت الأصنام والأنصاب مكانة كبيرة، اتخذها الإنسان الجاهليّ رمزاً دينياً يعقد عليه عهوده ومواثيقه، فهذا طرفة بن العبد، يقطع على نفسه عهداً بألا يعود فيهجو عمرو بن هند، يقول:

إنِّي وَجَدِّكَ ما هَجَوْتُك والـ أَنْصَابُ يُسْفَحُ بَيْنَهُنَّ دَمُ
وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِذاكَ إذ حُبِسَتْ وأُمِرَّ دُونَ عُبَيْدَةَ الوَذَمُ[٣]

فالأنصاب التي يقدم لها النسك، هي التي كانت سبباً في امتناع الشّاعر عن هجاء عمرو بن هند، وهذا يعني، تعظيم الإنسان الجاهليّ لمعتقداته، والالتزام

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ١٧٣. النصب: الأصنام. نسك: ذبح.

(٢) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٥.

(٣) طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٠٦. الوذم: السيور التي تشد بها فوهة الدلو. عبيدة: أخو طرفة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بتعاليم الآلهة. وكأن طرفة يقول: ما دامت النسك تقدم لهذه الأنصاب، فتذبح لها تقرباً للآلهة، فإن الإنسان لا يقدم على ارتكاب سلوك لا ترضاه الآلهة، وكان الجاهليّون حين يقدمون النسك للآلهة يرون "انتقال دم الضحية الحار إلى المعبود الذي يكتفي به، ولهذا نراهم يصبّون الدماء على رؤوس الأنصاب والأصنام ،تسكينا لغضب الإله، وطلباً لرضائه"(١).

فالأنصاب إذن، هي معتقد الإنسان الجاهليّ وثقته، ومصدر خيره، وشره ولذلك، فهو لا يتوانى عن الالتزام بقواعدها، والسير على هديها، طمعاً في النجاة والهداية.

فالعاطفة الدينية التي كانت تسيطر على النفوس في المجال العربي قبل ظهور الإسلام شبيهة بالعاطفة عند العبرانيين في مرحلة البداوة، وهي الاعتقاد بتعدد الأرواح الشريرة، وبذلك تكون عبادة الأنصاب والإيمان بالجن، والأغوال، كل هذا يشكل أساس الدين(٢).

أما اللات والعزى، فهي الأخرى معتقدات قديمة عاصرها الإنسان الجاهليّ، فيقسم بها، لتوصله إلى قوة أعظم متمثلة بالله تعالى، يقول أوس بن حجر:

وَبِاللاَّتِ والعُزَّى ومَن دانَ دينَها وباللهِ إنّ اللّهَ مِنْهُنّ أكبرُ
أُحَاذِرُ نَجَّ الخيلِ فَوْقَ سَرَاتِها وربّاً غَيُوراً وَجْهُهُ يتَمعّرُ(٣)

"وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل عندهم وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من الذهب، وكان أول من نصبه من خزيمة بن مدركة وكان يقال لها هبل خزيمة"(٤).

---

(١) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٥٥.

(٢) بلاشير- تاريخ الأدب العربي، انظر: ص ٥٢.

(٣) أوس بن حجر- الديوان. ص ٣٦. نجت الخيل فارسها: ألقته. يتمعر: يكبو ويتغير من الغضب.

(٤) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن تعظيم الأنصاب والأصنام، ما يقوله المتلمس الضبعي متوعداً عمرو بن هند الذي كان سبباً في طرده، يقول المتلمس:

أَطْرَدْتَني حَذَرَ الهِجَاءِ ولاَ واللاَّتِ والأنْصَابِ لا تِئلُ[١]

فالشّاعر يقسم باللات التي عظمتها قريش والعرب جميعاً في أنه سيهجو عمرو بن هند، ولن ينجو من هجائه:

وقد نصل إلى حقيقة، مؤداها أن الإنسان الجاهليّ، يمتلك استعداداً فطريا في تقبل أي دين جديد فيه قدرة تفوق قوى الطبيعة ولجأ الجاهليّون إلى عبادة الأوثان والأصنام، معتقدين أنها تقيهم من أمور كثيرة في حياتهم، فراحوا ينحرون لها الذبح، ويقيمون لها النسك والشعائر، ولذلك "كانت كثرة العرب في الجاهليّة وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبي عهد بالطّوطمية، إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلب، وثور، وثعلبة، وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان"[٢].

ويمكن القول بأن عبادة الأصنام، والأوثان في الشعر الجاهلي قليلة، فثمة إشارات مبثوثة هنا وهناك تبين هذه العبادات، ولعل سبب ذلك يعود إلى "ضياع الكثير من الشعر الجاهلي الوثني وغير الوثني، قبل عصر التدوين، وضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي، حيث كان العرب على أبواب يقظة عقلية روحية"[٣]. "فالذي يقرأ الشعر الجاهلي ويتتبع حياة العرب في جميع الروايات، لا يستطيع أن يرى هذه الأوثان إلا في المرة بعد المرة في قسم كانوا يقسمونه وفي بيت شعر أو بيتين، في أثناء حرب وفي عدد من الأسماء"[٤].

---

(١) المتلمس الضبعي- الديوان، ص ٤٢. تئل: تنجو. وانظر صورة الأوثان والأنصاب عند: النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٩-٢٠. الأعشى- الديوان، ص ٥٧. طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٩٣-١٩٤، المرقش الأكبر- شعره، المفضليات، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص ٨٩.

(٣) أحمد الحوفي- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٣٧٧.

(٤) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دين الحنيفية

كانت العرب في جاهليتها فرقاً: منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور، موقناً بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ومنهم من أقرّ بالخالق، وأقر بالبعث والإعادة، وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام، فحجوا إليها وقصدوها، ونحروا لها البدن ونسكوا لها النسائك، ومنهم من أقر بالخالق وكذّب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية[١]. وعن ديانة العرب في الجاهلية بصفة عامة، فيمكننا القول بأن "التأثير الأجنبي كان ملموساً خصوصاً، في تجسيد الأشياء المعبودة وإدخال التماثيل المحفورة الأصنام"[٢].

كان العرب من عدنان وقحطان، يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد تلقوها من ولده إسماعيل عليه السلام، وهي الحنفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يعتقدون أن الله تعالى، واحدٌ لا شريك له، ولا وزير، ولا معين، ولا ظهير[٣].

وقد ذكر دين الحنيفية نفر قليل من شعراء الجاهليّة، يقول أميّة بن أبي الصّلت:

الحمْدُ لّله مُمْسانا ومُصْبَحَنا ... بِالخَيْرِ صَبَّحَنا رَبِّي ومَسَّانا
ربِّ الحَنيفةِ لَمْ تَنْفَدْ خَزائِنُها ... مملوءَةٌ طَبَقَ الآفاقِ سُلطانا
ألاَ رَسُولَ لنا مِنَّا فَيُخْبِرَنا ... ما بُعْدُ غَايَتِنا مِنْ رأسِ مُجْرانا
وقَدْ عَجِبْتُ وما بِالموتِ مِنْ عَجَبٍ ... ما بالُ أحْيائِنا يَبْكونَ مَوْتانا[٤]

فالشّاعر يتأمل سرّ وجوده في الحياة، ويعده نعمة من الله تعالى على خلقه، فليس أفضل من أن ينعم الإنسان بنور العافية صباح مساء، ونفس الشّاعر تتشوق إلى ظهور نبي يخبر الناس عن الزّمن بين الحياة والموت.

---

(١) المسعودي- مروج الذهب، انظر: ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) دي لاسي أوليري- جزيرة العرب قبل البعثة، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٣) الآلوسي- بلوغ الأرب ج٢، ص ١٩٤.

(٤) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥١٦-٥١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشّاعر، يعتقد بفناء الحياة، ويعجب من الإنسان الذي يظن الخلود، وما دام الناس صائرين إلى الزوال، فليس من داع لأن يبكي الناس بعضهم بعضاً.

وينفي أتباع الحنفية أن يكون ثمّة دين عند الله يوم القيامة غيره، وكل دين سوى ذلك لا قيمة له. وهذا الإشارات التي ذهب إليها أمية بن أبي الصلت توحي بشكل أو بآخر إلى إلمامه بالحنيفية ومعرفته شيئاً من الكتب الدينية المقدسة "فكان أمية بن أبي الصلت قد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر، وشك في الأوثان، وكان محققاً والتمس الدين وطمع في النبوة؛ لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكونه. فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: هذا الذي كنت تستريث، وتقول فيه، فحسده عدو الله وقال: إن ما كنت أرجو أن أكونه، وهو الذي يقول: كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور"[١].

والحنيفية في المعتقد الديني، هدت أصحابها إلى اتباع سبل الخير والرشاد، ولولا فضل الحنيفية، لكان الناس يهوداً أو نصارى. يقول ابن الأسلت:

فَلَوْلا رَبُّنَا كُنَّا يَهُودا ... وما دينُ اليَهُودِ بذى شُكول
ولولا ربُّنا كنَّا نَصَارَى ... معَ الرُّهْبَان في جَبَل الجَليل
ولَكِنَّا خُلِقنَا إذ خُلقْنا ... حَنِيفاً دِينُنا عن كُلّ جِيل[٢]

وقد يكون الشّاعر، على بيِّنة واطلاع من حقيقة الديانتين اليهودية والنصرانية، فيقف إزاءهما موقفاً غير محمود، كأنه لا يرى فيهما ذلك البعد الروحي والعقدي، فيتعامل في إطارهما مع الحياة الدينية والدنيوية، كمثل ما يراه عند الأحناف.

ولعل الحنيفية تقود أتباعها إلى الإيمان بالله، وتهديهم إلى سبل الخير والرشاد، وقد يستدل من هذا أن الإنسان الجاهليّ بعامة، كان يسعى وراء الديانة التي يرى فيها منجاة، ويجد فيها طريقاً تقربه من الله تعالى.

"إن سلوك الحنفاء والحمس كان ردة فعل لنفرة هؤلاء الأفراد والجماعات من

---

(١) الأصفهاني- الأغاني، ج ٤، ص ١٢٢.

(٢) ابن الأسلت- الديوان، ص ٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلوك أقوامهم في الدين والمجتمع، وفي الصلات الشخصية"[١]، وظهرت طائفة دينية في المجتمع الجاهلي يقال لها الحمس، وأهلها متشددون في الدين وكانوا من قريش وغيرها، وكانوا يشترطون على كل من يتزوج من نسائهم أن يكون الأولاد على دينهم هم، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم"[٢].

وكانوا في الجاهلية يتحمسون في أديانهم، أي يتشددون، لا يستظلون أيام منى، ولا يدخلون البيوت من أبوابها، وقيل: سموا حمساً، لشدة بأسهم[٣]. وقد وردت (الحمس) في شعر ساعدة بن جؤية الهذلي، للدلالة بها على أن قومه لا يغزون لعزهم، وشدة بأسهم، يقول:

يَدْعَونَ حُمْساً ولم يَرْتَع لهم فَزَعٌ حَتَّى رأوهُم خِلَال السَّبْيِ والنَّعَمِ[٤]

ولم تكن الحنيفية وحدها ذات الأثر على العرب قبل الإسلام، فقد كانت هنالك اليهودية والنصرانية[٥]. وساد اعتناق الناس في العصر الجاهليّ الديانة النصرانية، واتخذ الشّعراء منها مواقف متعددة، فمنهم من نظر إليها على أنها دين شفاعة، فهذا الأعشى يخبرنا عن هوذة الحنفي، حين قدم على كسرى، اختار يوم فصح النصارى، يشفع به لبني تميم أسراهم، يقول:

فَفَكَّ عَنْ مِائَةٍ مِنهُمْ وِثاقَهُمُ فَأَصْبَحُوا كُلُّهُم مِنْ غُلِّهِ خُلِعَا
بِهِمْ تَقَرَّبَ يومَ الفِصْحِ ضَاحِيَةً يَرْجُو الإلهَ بما سَدَّى ومَا صَنَعَا
وَمَا أَرَادَ بِهَا نُعْمَى يُثَابُ بِهَا إنْ قالَ قائِلُها حقّاً بِهَا وَسَعَى[٦]

إن ما قام به هوذة الممدوح، من إقناع كسرى بفك إسار مائة من بني تميم، يرتبط بمناسبة دينية، تتمثل في عيد الفصح الذي يُعدّ من أكبر أعياد النصارى أهمية؛ لأنّهم يذكرون فيه قيامة المسيح من الموت.

---

(١) عمرو فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٤.

(٢) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٤.

(٣) ابن رشيق - العمدة، ج ٢، ص ١٩٧.

(٤) ساعدة بن جؤية- ديوان الهذليين، ج ١، ص ٢٠٢.

(٥) محمد عثمان علي- في أدب ما قبل الإسلام، ص ٥٤.

(٦) الأعشى- الديوان، ص ١٤٧. الوثاق والغلّ: الرباط والقيد. أسدى: قدّم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الأثر الاجتماعي، ينم عن سلوك ديني نهجه بعض ملوك النصارى، لكسب ميول المجتمع "فذيوع النصرانية في بلاد العرب، كان من شأنه نشر تعاليمها بين الأعراب"[١] وهذا يدل على أن النصرانية كان لها نصيبها من التأثير الخفي في الثقافة العقلية التي مثلها الشعر[٢].

ومصابيح الرهبان، تشكل في ثقافة الإنسان الجاهليّ الدينية رمزا من رموز الديانة النصرانية المقدسة، ففي أيام الفصح المجيد، تظهر أنوار المصابيح لمّاعة مشرقة، ولذلك راح الشّعراء يستعيرون هذه الصورة لتشبيه مضاء أسلحتهم. يقول أوس بن حجر:

عَلَيْهِ كَمِصْبَاحِ العَزِيزِ يَشُبُّهُ لِفِصْحٍ وَيَحْشُوه الذُّبَالَ المُفَتّلا[٣]

فقد جانس الشّاعر بين صورة سلاحه حين يكون له رونق ومضاء، وبين بعض مظاهر الطقوس الدينية المتمثلة في صورة المصباح الذي يشتعل نوراً وضياء، وهذه صورة منتزعة من البيئة الدينية للمجتمع الجاهليّ.

ويتجلى البعد الديني هنا، حين يجد الشّاعر في سلاحه الطمأنينة والأمن، كما يعتقد النصارى في دينهم الأمن، فيحميهم من الشرور والمخاطر.

وهذا امرؤ القيس، يستخدم التشبيه المقلوب، فيصور لمعان البرق بمصباح الراهب الذي امتلأ زيتاً ووقوداً، فازدهى بالنور، يقول:

أَحَارِ تَرَى بَرْقاً كأَنَّ وَمِيْضَهُ كَلَمعِ اليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سَنَاهُ أو مَصَابِيحُ راهِبٍ أهانَ السَّلِيطَ في الذُّبَالِ المُفَتَّلِ[٤]

فاقتران البرق مع مصباح الراهب، وما يرتبط به من طقوس دينية، يشير إلى انسجام العلاقة الدينية بين الأرض والسماء أي بين الإنسان وخالقه عز وجل.

والإنسان العربي مع كونه وثنياً كان يعيش عيشة دينية كاليهود والنصارى والصابئة فهو يحج ويعتمر ويعبد الأوثان كعبادة الصابئين للكواكب، لكن غرائزه

---

(١) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ٣٢.

(٢) بروكلمان- تاريخ الأدب العربي، ج١، ص ١٢٧.

(٣) أوس بن حجر- الديوان، ص ٨٤. يشبه: يوقده. الذبال: الفتائل.

(٤) امرؤ القيس- الديوان، ص ٢٤. الحبي: ما حبا من السحاب. السليط: الزيت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعية كانت تسوقه إلى دين الأباء القدماء فكان يخضع لسلطان الطبيعة أكثر من خضوعه لدين اليهود والنصارى، فهو يعبد الحجر والشجر، ويميل إلى نظريات اليهود والصابئة ويستهزىء بها تارة؛ لأنه دهري المزاج، والدين عنده أساطير الأولين، والبعث حديث خرافة[١].

ويشكل الصليب جزءا أساسياً في الديانة النصرانية، ويشير النابغة الذّبياني إلى ذلك، فيقول:

ظَلَّتْ أقَاطِيعُ أنْعَامٍ مُؤبَّلَةٍ لَدَى صَلِيبٍ عَلَى الزَّوْرَاءِ مَنْصُوبِ[٢]

ويصف شوقي ضيف العرب قبل الإسلام، بأنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقاً، فقد عرفوا الكنائس، والبيع، والرهبان، والأساقفة، والصوامع، ولكنهم ظلوا لا يتعلمون في هذا الدين الجديد، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم[٣].

أما رأي بعض شعراء الجاهليّة في الديانة النصرانية، فقد يبدو مغايرا عمّا رأينا في النصوص الشعرية السابقة، فهذا النابغة الجعدي، يتوجس خيفة من اعتناق دين النصارى أو اليهود، فيقول:

وما زِلْتُ أسْعَى بَيْنَ بابٍ ودَارَةٍ بِنَجْرَانَ حتَّى خِفتُ أن أتنَصَّرَا
لدَى مَلِكٍ من آلِ **جَفْنَةَ** خَالُه وَجدّاهُ من آلِ امرِىءِ القَيْسِ أزْهَرَا
يُدِيرُ عَلَيْنَا كأسَهُ وشِواءَهُ مَناصِفُهُ والحضرميَّ المُحَبَّرا[٤]

تبدو علاقة الشّاعر قوية بملوك **جفنة حين توجه إليهم مرتحلاً** ، فقد تنقل بين بيوت نجران وداراتها، فثم مجالس الشراب واللهو، ولكنه أحسّ في أثناء إقامته، بشيء من الندم، فهو يخشى المضيّ في هذا المرح واللهو، تراه قلقاً كأنه يعد التنصر مزلقاً دينياً يحاسب عليه.

---

(١) محمد عبد المعين خان- الأساطير والخرافات، انظر: ص ٢٩-٣٠.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص ٩٢. الإبل المؤبلة: التي تتخذ للقنية والنماء: لا تركب ولا تستعمل.الزوراء: الرصافة.

(٣) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ١٠٠-١٠١.

(٤) النابغة الجعدي- شعره، ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الندم الذي يستشعره النابغة قد ينجم عن إحساس النابغة نفسه بأن شعوره الديني يغاير مسلك النصرانية واليهودية، وقد عرف عن النابغة هذا الفكر العقدي فكان "يذكر دين إبراهيم والحنيفية، ويصوم ويستغفر، ويتوقع أشياء لعواقبها"[١] وقد يكون تخوفه من أن يدين بالنصرانية في أثناء تطوافه بين البلدان والأمصار من الأشياء التي كان يتوقاها.

ولعل مجالسة الملوك ومنادمتهم، تقود الإنسان إلى البحث عن مظاهر الترف فيتأثر بعاداتهم ودياناتهم، ويبدو أن الشّاعر خشي على نفسه أن يتأثر بهذا الدين فينقاد إلى أتباع النصرانية[٢].

الأسطورة

تشكل الأساطير علماً يُعدّ أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية، وترتبط كلمة أسطورة ببداية الناس، أو ببدائية البشر، قبل أن يمارسوا السحر كضرب من ضروب العلم أو المعرفة، والأساطير، فرع هام من الإنسانيات، يرتبط أساساً بعلم اللغة العام، وبالدراسات الأدبية والنفسية، ويرصد السعي الفكري الذي تحقق على مدى التاريخ من أجل تفسير الكون، وتعليل مشكلات الحياة وقضايا الإنسان[٣].

والأساطير الأولى، هي التعبير الأعمق عن معاناة الوجود، والوقوف من حتمياته وغيبياته موقفاً وجودياً وإنسانياً[٤].

والأسطورة تمثل أولى مراحل التفكير الفلسفي، وهذه المرحلة الفلسفية الأولى شأنها شأن المراحل الفلسفية الأخرى، تنشأ نتيجة التأمل في ظواهر الكون وعلاقة هذه المظاهر بحياة الإنسان على الأرض[٥].

---

(١) الأصبهاني- الأغاني، ج ٥، ص ٩.

(٢) انظر هذه الصورة عند :النابغة الذبياني- الديوان، ص ٩١-٩٢، ١٦٦. امرىء القيس- الديوان، ص ١٧، ٣١. عدي بن زيد- الديوان، ص ٣٨، ١١٨.

(٣) أحمد كمال زكي- الأساطير، انظر: ص ٤٤-٤٥.

(٤) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج٢، ص ٦٢

(٥) نبيلة إبراهيم- الأسطورة، ص ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك فإنها تمثل "ثقافة الأديان الوثنية، إذ هي تعبير عن تاريخ المجتمع ومخاوفه وآماله وتفسير للكون عن طريق الخيال"[١].

وتشكل الأساطير العربية القديمة مصدراً خصباً يكشف عن جانب خطير من جوانب الحياة العقلية في العصر الجاهليّ، ويدلنا إلى أي مدى كان الجاهليّون على معرفة بأساطير الأمم الأخرى التي كانوا يتصلون بها، كما تدلنا على أن العقلية الجاهليّة، لم تكن عقلية بدائية متخلفة على نحو ما يصورها رواة الأخبار[٢].

وإزاء هذه المعاني التي تشكلت في معتقدات الأمم القديمة، فقد كان للعرب نصيب منها، ومن الأساطير التي ذكرت عن العرب، أنهم كانوا إذا اشتدت بهم الأزمات، وأجدبت الأرض، يوقدون ناراً يجعلونها في أذناب البقر، سموها نار الاستمطار، يقول أميّة بن أبي الصّلت:

سَنَةٌ أزْمَةٌ تَخيَّلُ بالنّا ... سِ تَرَى للعِضَاهِ فيها صَرِيراً
إذْ يَسفُّونَ بالدَّقِيقِ وكَانُوا ... قَبْلُ لا يَأْكُلُونَ خُبْزاً فطيرا
ويسوقون باقر السَّهلِ للطو ... دِ مَهازِيلَ خَشْيَةَ أنْ تَبُورا
عاقِدينَ النِّيرانَ في شُكُرِ الأذْ ... نَابِ عَمْداً كَيْما تَهِيْجَ البُحُورا
فاشْتَوَتْ كلّها فَهَاجَ عَلَيْهِمْ ... ثُمَّ هَاجَتْ إلى صَبِيرٍ صَبِيرا
فرآها الإلهُ تُرْشَمُ بالقَطْ ... رِ وأمْسَى جَنابُهُمْ مَمْطُورا
فَسَقَاهَا نَشَاصُهُ وَاكِفَ الغَيـ ... ـثِ مُنَةً إذ رادَعُوهُ الكَبِيرا
سَلَعٌ مَا ومِثْلُهُ عُشَرٌ ما ... عائِلٌ ما وعالَتِ البَيْقُورا[٣]

فالشّاعر كأنه جعل هذه الأسطورة حقيقة واقعة بكل أساليبها، ودلالاتها اللغوية، وأحداثها المتحركة، إلى حد اعتقد العرب فيه، أن نار الاستمطار هذه التي لها طقوس خاصة جديرة بأن تتخذ لها شكلاً واقعياً، فيسقط المطر على الناس،

---

(١) عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا، ص ١٠٩.

(٢) إبراهيم عبد الرحمن- الشعر الجاهلي، ص ٦٢.

(٣) أمية بن أبي الصلت- ص ٣٩٦-٣٩٩. العضاه: كل شجر له شوك. سففت الدقيق: أخذته غير معجون، الفطير: العجين الذي لم يختمر. تبور: تهلك. الصبير: السحاب. الرشم: الأثر. النشاص: السحاب المرتفع. مُنَةً: إذا بلغ نهايته، السّلع والعشر: ضربان من الشجر. عال: ثقل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيصيبون منه طعامهم وشرابهم. ويلاحظ من هذه الأسطورة، ارتباط وثيق بين البقر وإله المطر في السماء، وعلاقة ذلك كله بالسلع والعشر، وما جاء، إلا دليلاً على انسجام علاقة الخصب بين الأرض والسماء.

وهذه النار، هي التي "كانوا يستمطرون بها في الجاهليّة الأولى، فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم صعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران وضجّوا بالدعاء والتضرّع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا"[١] وإنما يضرمون النيران في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار، وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات[٢].

ومن هنا، جاءت صورة الثور الوحشي في الشعر الجاهليّ مقرونة بالنار والمطر، فالثور دائماً يعاني البرد الحاصب، والمطر المنصب، والليل الموحش، وينتظر النّور، وغالباً ما تقرن صورة الثور بالنجم الثاقب، والشّهاب، اللامع والشّعرى الواضحة، والبرق الخاطف، والسيف الصقيل. وهذه الصور جميعاً، لها علاقة بإشعال النار[٣].

وكذلك الحال، فقد يكون تفكير العرب القدامى لاستمطار السماء بوساطة النار التي تعلق بأذناب البقر مشابها المعتقد الاسطوري الذي فكر به البابليون. ومن أساطير العرب، اعتقادهم برقى الحيّات، يقول أميّة بن أبي الصّلت:

والحَيَّةُ الحَتْفَةُ الرَّقْشاءُ أَخْرَجَها ... مِنْ جُحْرِها آمِنَاتُ اللهِ والقَسَمُ
إذا دَعا باسْمِها الإنْسانُ أو سَمِعَتْ ... ذاتَ الإلَهِ بدا في مَشْيِها رَزَمُ
إذا دُعِينَ بأسماء أجَبْنَ لَهَا ... لِنافِثٍ يَعْتَرِيهِ اللهُ والكَلِمُ[٤]

فالنص، يشير إلى كيفية خروج الحية من جحرها، وإلى عقابها. وجاء في الحيوان "إنما الحية مثل الضب والضبع، إذا سمع بالله والهدم والصوت خرج ينظر.

---

(١) الجاحظ- الحيوان، ج٤، ص ٤٦٦

(٢) الآلوسي-، بلوغ الأرب، ج٢، ص ٣٠١.

(٣) أنور أبو سويلم- مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، ص ١٣٩-١٤٠.

(٤) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٤٦١-٤٦٣، الرزم: عدم القدرة على النهوض هزالاً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحوّاء إذا دنا من الجحر، رفع صوته، وصفق بيديه، وأكثر من ذلك حتى يخرج الحية، كما يخرج الضبّ والضبع"[١].

وبعض أصحاب التفسير، يزعم أن الله عاقب الحية حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم وحواء، وخدعهما على لسانها بعشر خصال، منها شقّ اللسان[٢].

ومنهم، من زعم أن إخراج الحية من جحرها إلى الراقي، إنما كان للعزيمة والإقسام عليها، ولأنّها إذا فهمت ذلك، أجابت ولم تمتنع. وكان أميّة بن أبي الصّلت لا يعرف قولهم في أن العُمّار هم الذين يجيبون العزائم بإخراج الحيات من بيوتها[٣]. وتلعب الحية بصفة خاصة دوراً بارزاً في هذه الأساطير، وهي رمز على الشر، ولعل مرد هذا الرمز إلى الصلة الوثيقة التي كان يراها الجاهلي قائمة بين الجن والشر، وهي صلة نابعة من القوة الخارقة التي كان ينسبها إلى هذه المخلوقات الغريبة[٤].

ومن الأساطير المتعلقة بالرّقى، أن العرب كانت تعلق الحلي على السليم "اللديغ" تفاؤلاً بشفائه، يقول زيد الخيل:

وأيمُ يكون النَّعْلُ منها ضَجِيعَةً كَما عُلِّقَتْ فَوْقَ السَّلِيمِ الجَلاَجِلُ[٥]

والعرب تذكر الحيات بأسمائها وأجناسها فإذا قالوا: أيم، فإنما يريدون الذكر دون الأنثى[٦]. وكانوا يرون أن تعليق الحلي وخشخشة الخلاخل على السليم مما لا يعتق ولا يبرأ إلا به[٧].

---

(١) الجاحظ- الحيوان، ج٤،ص ١٨٨.

(٢) **المصدر نفسه** ، ج٤، ص ١٦٤.

(٣) **المصدر نفسه** ، ج ٤، ص ١٨٧.

(٤) إبراهيم عبد الرحمن- الشعر الجاهلي، انظر: ص ٦٣-٦٤.

(٥) زيد الخيل الطائي- الديوان، ص ٨١ الجلاجل: الجرس الصغير. وانظر في الرقى: النابغة الذبياني- الديوان، ص ٤٦-٤٧.

(٦) الجاحظ- الحيوان، ج ٤، ص ١٧٣.

(٧) **المصدر نفسه** ، ج٤، ص ٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقال إنه إنما يعلق عليه لأنّهم يرون إن نام يسري السم فيه فيهلك فشغلوه بالحلي والجلاجل وأصواتها عن النوم[١]. ومما ورد عن العرب أنه كان "يكنى عن اللديغ بالسليم، وعن الأعمى بالبصير، وعن المهلكة بالمفازة، وعن ملك الموت بأبي يحيى"[٢].

ومن أساطير العرب أن الديك كان نديما للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمار، ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك فخاس به، فبقي محبوساً، وإن نوحاً عليه السلام، حين بقي في اللجة أياماً بعث الغراب، فوقع على جيفة ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها فرشاها بذلك[٣]. وفي ذلك يقول أميّة بن أبي الصّلت:

بآيَةِ قامَ يَنطِقُ كلُّ شَيْءٍ ... وخانَ أمانَةَ الدِّيكِ الغُرابُ
وأُرسِلَتِ الحَمامَةُ بَعْدَ سَبْعٍ ... تَدِلُّ على المَهالِكِ لا تَهابُ
تَلمَّسُ هَلْ تَرى في الأرْضِ عَيْناً ... وغايَتُها مِنَ الماءِ العُبابُ
فجاءَتْ بَعْدَما رَكَضَتْ بِقِطْفٍ ... عَلَيهِ الثَّأْطُ والطِّينُ الكُبابُ
فَلَمّا فَرَّسُوا الآياتِ صَاغُوا ... لها طَوْقاً كما عُقِدَ السِّخابُ
إذا ماتَتْ تُورِّثُهُ بَنِيها ... وإنْ تُقْتَلْ فَليسَ لها اسْتِلابُ
كَذِي الأفْعى تَرَبَّبَها لَدَيْهِ ... وذِي الجِنِّيِّ أرْسَلَها تُسَابُ[٤]

وقال الجاحظ: أما العرب والأعراب والشّعراء، فقد أطبقوا على أن الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده، وهي التي استجعلت عليه الطوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية، ومنحها تلك الزينة، بدعاء نوح عليه السلام، حين رجعت إليه، ومعها من الكرم ما معها، وفي رجليها من الطين والحمأة

---

(١) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج٢، ص ٣٠٤.

(٢) الثعالبي- الكناية والتعريض، ص ٥٣.

(٣) الجاحظ- الحيوان، ج٢، ص ٣٢٠-٣٢١، خاس به: غدر به. استجعل: طلب الجعالة وهي الرشوة.

(٤) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٣٣٨-٣٤٠، الثأط: الطين الأسود المنتن. الكباب: الطين اللازب. فرسوا الآيات: تثبتوا منها.السخاب: القلادة. ذو الأفعى: لعله يريد به آدم عليه السلام. وانظر كذلك: أسطورة الحمامة، أشعار العامريين ص ٥٣١-٥٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما برجليها، فعوضت من ذلك الطين، خضاب الرجلين ومن حسن الدلالة والطاعة طوق العنق[١].

ويروى، أن الأفعى هي الحيّة التي كلم إبليس آدم من جوفها، وأن إبليس قد دخل جوف الحمار مرة، وذلك أن نوحاً لما دخل السفينة تمنّع الحمار بعسره ونكده، وكان إبليس قد أخذ بذنَبه[٢].

ورووا أن كعب الأحبار قال: مكتوب في التوراة أن حواء عند ذلك عوقبت بعشر خصال، وأن آدم لما أطاع حواء وعصى ربه، عوقب بعشر خصال، وأن الحية التي دخل إبليس فيها عوقبت أيضاً بعشر خصال[٣].

وتقول الأعراب: إن الحيّة أطول عمراً من النسر، وأن الناس لم يجدوا حية قط ماتت حتف أنفها، وإنما تموت بالأمر يعرض لها، وذلك لأمور: منها قولهم: إن فيها شياطين، وإن فيها من مسخ، وإن إبليس إنما وسوس إلى آدم وإلى حواء من جوفها[٤].

فالأساطير إذن في أصلها أداة للتفسير، كل الأساطير الكبرى كانت جماعية مصدرها هو المخيلة، إنها تعكس ذهنية مجتمعية مميزة، تفسرها أطر تاريخية لأن المخيلة منبع لكل من التاريخ والشعر"[٥] فالأسطورة إذن "ترتبط بالواقع وما فوق الواقع وتعبر عن رؤية صاحبها الحقيقية وتتخلق في رحم الخيال، ولها مضمونها ودلالتها وآثارها البارزة التي تخلفها في سلوك الإنسان وفي حياته"[٦]وبذلك يكون مفهوم الأسطورة مثل مفهوم الشعر، هو نوع من الحقيقة أو معادل للحقيقة ليس منافساً للحقيقة العلمية أو التاريخية، بل رافد لها"[٧].

وساد اعتقاد، تمثل في أن يهود خيبر، كانوا يزعمون، أن من دخل خيبر ونهق

---

(١) الجاحظ- الحيوان، ج٣، ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) **المصدر نفسه** ، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) **المصدر نفسه** ، ج ٤، ص ١٩٩.

(٤) **المصدر نفسه** ، ج٤، ص ١٥٧.

(٥) محمد عزيز الحبا بي- من الكائن إلى الشخص، ص ٧٤.

(٦) نعيم اليافي- تطور الصورة الفنية، ص ٣٠٦.

(٧) رينيه ويليك- نظرية الأدب، ص ١٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عشر مرات لم تضره الحمّى، وعدّ العرب ذلك ضربا من الخرافة، يقول عروة بن الورد:

وقَالُوا احْبُ وانهَقْ لا تضيرك خَيْبَرٌ وذلك من دينِ اليَهودِ وُلُوعُ
لَعَمْرِي لئِنْ عَشَّرْتُ من خَشْيَةِ الرَّدَى نهاقَ الحَمِيرِ إنَّني لَجزُوعُ
فَلاَ وألَتْ تلك النُّفُوسُ ولا أتَتْ على رَوْضَةِ الأجْدادِ وهي جَمِيعُ[1]

فالشّاعر، يرفض هذه الخرافة معتقداً وسلوكاً، ويعدّها من أباطيل اليهود، وهي من البدع الدخيلة على ثقافة الإنسان العربي في العصر الجاهليّ، والشّاعر يدعو بالويل والهلاك على كل من يعتقد بهذه الأباطيل التي يرفضها العقل والمنطق.

وليس من شك أن هذه العلاقة السحرية الأسطورية في العالم كانت تمنح البدائيين قوة في مواجهة عالمهم الطبيعي والاجتماعي، كما كانت تمنحهم ثقة غير محدودة بإمكان السيطرة على هذا العالم وتوجيهه إلى العمل على النحو الذي يحقق غاياتهم[2].

وهكذا، نجد أن "أساطير القدماء هي أحلامهم التي أخذت تعمر أخيلتهم حينما شرعوا ينتقلون في سلم التطور من الحياة البدائية الفجة إلى حياة التمدن والاستقرار، ثم التفكر في أسرار هذا الكون وتعديل القوى الخارقة التي تستتر وراء هذا العالم فتسبب الحياة والموت[3].

وأخذت هذه التعليلات تستقر في أذهان الناس، وأخذ الكبار يضعون للظواهر الطبيعية الأسماء ويلفقون لها القصص، ويقصونها على الصغار، ثم استحالت هذه الأسماء وتلك القصص آلة وقصصاً إلهية مع مرور الزمن وكثرة التكرار[4].

---

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ٩٥. خيبر: أرض كان يسكنها اليهود قرب المدينة، مشهورة بالحمس. فلا وألت: فلا نجت. الأجداد: بلد لبني مرة وأشجع وفزارة، والأجداد: جمع جُد وهو البئر.

(٢) عبد المنعم تليمة- مقدمة في نظرية الأدب، ص ٣٣-٣٤.

(٣) دريني خشبة- أساطير الحب والجمال، ج ١، ص ١٦.

(٤) دريني خشبة- أساطير الحب والجمال، ج ١، ص ١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجن

ومن معتقدات العرب "أنهم يرون الجن ويظاهرونهم ويخاطبونهم"(١). وتكاد الميثولوجيا العالمية، لا تخلو من هذا الاعتقاد الذي حافظ على بقائه منذ أن خشي الإنسان خوافي الطبيعة أو الأرواح المحتجبة عن عيوننا حتى يومنا هذا. ولكل أمة قديمة جن وشياطين تلعب دورا هاماً في حياتها لا يقل أحياناً كثيرة عن دور الآلهة وهي تختلف بالأسماء والأفعال بحسب عقلية الشعب وما ورثه من معتقدات ومؤثرات وقصص"(٢).

"ولعل من الطريف أن نشير إلى أن كلمة جن بلفظها ومعناها متشابهة، بل ومتماثلة في اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وزاد العرب فجعلوا كل عمل باهر يصدر عن الإنسان إنما مرده الحقيقي إلى الجن فاستعملوا كلمة عبقري نسبة إلى موضع تصوروه في البادية معمور بالجن"(٣).

وكان التفكير بالجن، أمراً سائداً في معتقد الإنسان الجاهليّ، وعلاقته به ترتبط بالزمان والمكان، فقد ذكره بعض شعراء الجاهليّة مقروناً بالمكان، يقول الأعشى:

وَبَلْدةٍ مِثْلِ ظهر التُّرْسِ مُوحِشَةٍ للجِنِّ بالليل في حَافَاتِهَا زَجَلُ
جاوزْتُها بِطَلِيحٍ جَسْرَهٍ سُرُحٍ في مِرفَقَيْها إذا استَعْرضْتَها فَتَلُ(٤)

فالشّاعر يصور اقتحامه تلك الصحراء الموحشة التي لا يسمع فيها صوت سوى الجن الذي يحوم في جنباتها، والأعشى هنا يمثل السلوك المضاد للواقع الذي يعيشه، يقول بشر بن أبي خازم الأسدي:

وَخَرْقٍ تَعْزِفُ الجِنَّانُ فيهِ فَيَافِيهِ يَطِيرُ بها السُّهامُ
ذَعَرْتُ ظِبَاءَهُ مُتَغوِّراتٍ إذا ادَّرَعَتْ لوامِعها الإكَامُ(٥)

(١) الألوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص٣٤٠.

(٢) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص٢٠٨.

(٣) محمود السمرة- القاضي الجرجاني، ص ١٣٥-١٣٦.

(٤) الأعشى- الديوان، ص ٩٥. الزجل: الأصوات المختلطة. طليح: ناقة أهزلها السفر. جسرة: ضخمة. سرح: سهلة السير. الفتل: تباعد مرفقي الناقة عن زورها.

(٥) بشر بن أبي خازم- الديوان: ص ٢٠٣-٢٠٤. السهام: لعاب الشمس. متغورات: قائلات نصف النهار. اللوامع: السراب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فليس من العبث أن يقتحم الشّاعر فلاة واسعة، تتقطع فيها الرياح وتتخرق لاتساعها، ولا يسمع فيها شيء سوى غريف الجن. "وكان العرب في خوف دائم من الجن، فلذلك كانوا إذا احتوتهم هوجل يستجيرون منها رهبة لا رغبة"(١).

ولا نكاد نقطع القول بأن رحلة الشّاعر هذه، كانت محض إرادته، أو إرضاء لفضوله وغروره، بل كانت إلزاماً من معاناته الحياتية، فهل بحث عن طعامه وشرابه، أم أنه يبحث عن شيء في معتقده الفكري،أم أنه يهرب من قهر الطبيعة؟

وكل من انفرد، وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس استوحش، ولا سيما مع قلة الأشغال والمذاكرين. والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة، وإذا استوحش الإنسان، تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب وتفرق ذهنه، وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل(٢).

"إن الوهم والخوف هما أساس تصور هذه الكائنات الغيبية -الجن- إذ كان العرب لا سيما البدو منهم يتصورون أن الجن يعارضونهم في البوادي الجرداء وبطون الأودية، فظهرت عندهم صفة التعوذ"(٣).

فالخوف والقلق إذن، هما اللذان يدفعان الإنسان في حالة جهله بالأسباب الحقيقية للسلوك إلى ابتداع هذه الأساليب الخرافية في التفسير(٤).

وهذا امرؤ القيس، يرى من الجن ما لا يراه أحد فيدعي أن الجن تلازمه وتروي شعره، يقول:

أَنَا الشَّاعِرُ المرْهُوبُ حَوْلي تَوابِعِي ... من الجِنِّ ترْوِى مَا أقُول وتَعْزِفُ
إذا قُلْتُ أبْيَاتاً جِيَاداً حَفِظْتُها ... وذَلِكَ أنِّي لِلقَوَافي مُثَقِّفُ(٥)

---

(١) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ٢٢٥.

(٢) الجاحظ- الحيوان، ج ٦، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٣) خليل أحمد خليل- مضمون الأسطورة، ص ٣٨.

(٤) محمد عماد الدين إسماعيل- المنهج العلمي وتفسير السلوك، ص ٩٢.

(٥) امرؤ القيس- الديوان، ص ٣٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد جانس الشّاعر بينه وبين الجن، من حيث القوة والغلبة، فالشّاعر مهيب الجانب لا يجرؤ أحد على مواجهته، فهو يستمد القوة من شعره الذي يترك أثراً بالغاً، تماما كالجن وما يبعثه من فزع وخوف ويجعل الأعشى للجن عزيفاً كرطانة الأحباش في المحراب، يقول:

أوَلَمْ ترَيْ حِجْراً وأنْـ ـتِ حَكِيمَةٌ وَلِمَا بِها
إنَّ الثَّعَالِبَ بالضُّحَى يَلْعَبْنَ في أبْوَابِهَا
والجِنُّ تَعْزِفُ حَوْلَهاَ كالحُبْشِ فِي مِحْرَابِها[١]

فالأعشى حين يذكر لغة الجن فيقابلها بلغة أهل الحبشة، فإن ذلك يدل على امتداد ثقافة الإنسان الجاهليّ خارج إطار الجزيرة العربية المكاني.

وقد سخّر الإنسان الجن بأمر من الله، وكانت هذه المعرفة، من بعض الروافد الثقافية التي وصل إليها الإنسان الجاهليّ، يقول النابغة الذّبياني:

إلاَّ سُلَيْمانَ إذْ قَالَ الإلهُ لهُ قُمْ في الْبَرِيَّةِ فَاحْدُدْها عن الفَنَدِ
وخَيِّسِ الجِنَّ إنِّي قَدْ أذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والْعَمَدِ[٢]

إن من ثقافة الشّاعر الدينية، معرفته بأن الله تعالى، سخّر الجن لسليمان عليه السلام، فبنت له بناء في تدمر الشام، كان ذلك بأمر من الله "فملكه على الجن فضلاً عن الإنس، وعلمه منطق الطير وسخر له الريح، فكانت الجن له خولا"[٣].

وكان الإنسان الجاهليّ يضرب الجن مثالاً للخبث والدهاء، ذلك لأن "العرب توهموا الجن دائماً في صورة الحيوان، مثل الحية والنعامة والقنفذ والأرنب"[٤] يقول زهير بن أبي سلمى، يصف رجالاً دهاة في القتال:

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبقَرِيَّةٌ جَدِيرونَ يَوماً أنْ يَنالُوا فيَسْتَعْلُوا[٥]

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٢٨٧. الحجر: مساكن ثمود في الشام إلى الجنوب من دومة الجندل.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٣. احددها: امنعها. الفَنَد: خطأ الرأي والصنيع. خيس: ذلّل. الصفاح: الحجارة العرض الرقاق.

(٣) الجاحظ- الحيوان، ج٤، ص ٨٦.

(٤) محمد عبد المعيد خان- الأساطير والخرافات، ص ٤٠.

(٥) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٣٥. يستعلوا: يظفروا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد جعل زهير فتيان قومه في الحرب كالجن يستعلون على أعدائهم، فوصفهم بالحذق والقوة والدهاء، وهي صفات تطلق على الجن إذا زاد في دهائه، يقول العباس بن مرداس يصف فرساناً حين ادّرعوا للحرب:

وَخَيْلٍ تَكَدَّسُ بالدَّارِعِيْنَ تُنْحَرُ في الرَّوْعِ أو تُعفَرُ
عليها فَوَارِسُ مَخْبُورَةٌ كَجِنٍّ مَسَاكِنُها عَبْقَرُ[١]

فالذي يبدو، أن شعراءالجاهليّة أكثروا من ذكر عبقر للدلالة به على موطن الجن، وجاء في لسان العرب، "أن "عبقر" قرية، يسكنها الجن فيما زعموا، ينسبون إليها كل عمل دقيق وعظيم"[٢]. وتزعم الأعراب: أن الله عزّ ذكره، حين أهلك الأمة التي كانت تسمى وبار، أن الجن سكنت في منازلها، وحمتها من كل من أرادها، وأنها أخصب بلاد الله، فإنْ دنا اليوم إنسان من تلك البلاد، متعمدا أو غالطاً حَثَوْا في وجهه التراب، فإن أبى الرجوع خبلوه وربما قتلوه[٣].

"إلا أن اعتقاد الجاهليين بالجن، لم يكن جزءاً من عقيدتهم الدينية بشكل محدد ومكتوب، والتي كانت خالية إلى حد كبير من التعقيد الذي لا تقدر على تطويره بيئة البادية"[٤].

ويقول الجاحظ إن الجني إذا كفر وظلم وتعدّى وأفسد قيل شيطان، وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد، وإن زاد فهو عفريت فإن زاد، فهو عبقري[٥].

---

(١) العباس بن مرداس- الديوان، ص ٦٣، مخبورة: مجربة. وانظر صورة الجن عند: عمرو بن شأس- شعره، ص ٤٣، حسان بن ثابت، الديوان، ص ٣١٢-٣١٣. الأعشى- الديوان، ص ١٦١، النابغة الذبياني- الديوان، ص ٩١، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢١٩. امرىء القيس- الديوان، ص ١٥٨، ١٦٠، ١٩٠. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٢٨. طرفة بن العبد- الديوان، ص١٣٤. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣١٧. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٤٣، ١٥٧.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (عبقر).

(٣) الجاحظ- الحيوان، انظر: ج ٦، ص ٢١٥.

(٤) إبراهيم بدران- دراسات في العقلية العربية، ص ٢٥.

(٥) الجاحظ- الحيوان، ج١، ص ٢٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان ومذاهبه

درج الإنسان الجاهليّ على مجموعة من العادات والتقاليد دهراً طويلاً، حتى صارت جزءاً من صفاته وأخلاقه، ثم تطورت هذه العادات فتحولت بحكم الزّمن معتقداً أو مذهباً يسيطر على شخصيته الفكرية، وما ينبثق عنه من سلوك مترجم.

وهذه العادات التي تأثرت بها طباع الإنسان الجاهليّ، كانت متعددة الأبعاد تناولت معظم جوانب حياة المجتمع في ذلك العصر، من ذلك مثلا، ما جاء على ألسنة الشّعراء في عاداتهم عند الموت، ولعل الأفوه الأودي، خير من تمثل الموت وما تبعه من عادات اجتماعية، يقول يرثي نفسه:

وَما خِلْتُ يُجْدِيني أُسَاتِي وَقَد بدت مَفَاصِلُ أَوْصَالِي وَقَدْ شَخَص البَصَرْ
وَجَاءَ نِسَاءُ الحَيِّ مِنْ غَيْرِ أَمَرةٍ زَفِيفاً كما زَفَّت إلى العَطَنِ البَقَر(١)

فأول ما يهوي الإنسان، إلى الموت ويشخص بصره، تجتمع نساء الحي من كل جانب إلى بيته إكباراً لهذا الحدث، ويعدون ذلك بمنزلة الإعلان الأولي عن وفاة إنسان ما في ذلك الحي، تمهيداً للقيام بإجراء مراسم أخرى. يقول الأفوه الأودي:

وَجَاءُوا بِمَاءٍ بَارِدٍ وبِغِسْلَةٍ فَيَا لَكَ مِنْ غُسْلٍ سَيَتْبَعُهُ عِبَرْ
فَنَائِحةٌ تَبْكِي ولِلنَّوْحِ دَرْسَةٌ وَأَمْرٌ لَهَا يَبْدُو وَأَمْرٌ لَها يُسَرّ
وَمِنْهُنَّ مَنْ قَد شَقَّقَ الخَمْشُ وجهَها مُسَلِّبة قَدْ مَسَّ أَحْشَاءَها العِبَر
فَزَمُّوا لَهُ أَثْوَابَهُ وَتفَجَّعُوا ورَنَّ مُرِنَّات وَثَار به النَّفَر(٢)

فالشّاعر يكشف بعض عادات العرب عند الموت، فإذا ما اخترم أحدا الموت فإنه يُعرى من ثيابه، ويغسل بماء بارد، والنساء في هيجان واضطراب يندبنه بالنواح، وتشقيق الثياب، وتخميش الوجوه حزناً، ثم يصور الأفوه الأودي، ما يتركه هذا الموت من عبر ودروس في النفوس. ثم يصور الشّاعر الإجراء الأخير عند الموت فيقول:

إلى حُفْرَةٍ يَأوي إليها بسَعْيِه فذلِكَ بَيْتُ الحَقِّ لا الصُّوفُ والشَّعَرْ
وَهَالُوا عليه التُّرْبَ رَطْباً وَيَابِساً ألا كُلُّ شَيءٍ ما سِوَى ذَاك يُجْتَبر

(١) الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٥.

(٢) الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَقَالَ الَّذينَ قد شَجَوْتُ وسَاءَهُم مَكانِي وما يُغْنِي التَّأمُّلُ والنَّظَر
قِفُوا سَاعةً فَاسْتَمْتِعُوا مِنْ أخِيكُمُ بِقُرْبٍ وَذِكْرٍ صَالِحٍ حِينَ يُذْكَرُ[١]

فالشّاعر يصور نفسه حين يرمى به إلى قبر يخلد فيه، ولم يكن معه حينذاك سوى عمله الذي سيحاسب عليه، ثم يهيلون عليه الترب رطباً ويابساً، فينظر إليه قومه وأصحابه ولا يستطيعون عمل شيء، فيقفون عاجزين أمام الموت، وهم مشغولون بالعبرة والتأمل، ينظرون إليه نظرة وداع أخير، ثم يعودون من حيث أتوا، ليس يغنيهم عنه سوى ما تركه من ذكرى طيبة، وأعمال صالحة، يذكرونه من خلالها.

وفي هذا السرد القصصي الذي صوره الشّاعر من خلال بعض عادات العرب الجاهليّين في الموت، فقد ينتزع من الأبيات السابقة مجموعة من القيم التي سادت المجتمع الجاهليّ، مستمدة من تجارب الحياة، فقد ظهر مبدأ التعاطف الاجتماعي وتمثل ذلك في إسراع نساء الحي إلى أهل الميت، ومشاركتهم في مصابهم بالندب والبكاء، وظهر كذلك، استنباط العبر من الموت، والإيمان بالقدر، ووجوب العمل الصالح، وقد أدى ذلك كله إلى إيمان الإنسان الجاهليّ بأن بيت الحق هو القبر، لا بيت الصوف والشعر.

وكان من عاداتهم الولاء التام للأصدقاء والمحافظة عليهم، يقول السموأل بن عادياء يعتذر إلى أحد أصدقائه:

إنْ كانَ ما بُلِّغْتَ عَنِّي.فَلاَمَنِي صَدِيقي وحُزْتُ مِن يدَيَّ الأنَامِلُ
وكَفَّنْتُ وَحْدِي مُنْذِراً فِي ثِيَابِهِ وصادفَ حَوْطاً من عَدوِّي قَاتِلُ[٢]

فالشّاعر يدعو على نفسه بالويل والهلاك، إذا ما بدرت منه خيانة لصديقه، وهو هنا، يتمنى أن يُرْزَأ بولديه منذر، وحوط، فيقوم بتكفين الأول بنفسه، وأن ينعى له بالآخر قتيلا، ودعوات الشّاعر هذه جاءت ليدرأ بها تهمة عن نفسه بلغها لصديقه أحد ولاة السوء، ولذلك دعا على نفسه بالهلاك، وهذا يعزز حرص الإنسان الجاهليّ على تحقيق الوحدة الاجتماعية، ثم الحفاظ على بنية المجتمع، وظهر ذلك من خلال توازن المعادلة الاجتماعية التي ساقها الشّاعر بينه وبين صديقه.

---

(١) الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٥.

(٢) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٩. حوط ومنذر: ابنا السموأل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزيارة القبور، ووضع أغصان الأشجار عليها مذهب آخر من مذاهب الإنسان الجاهليّ، يقول أبو دؤاد الإيادي:

أَذْكُرَنْ مَحْبِسَ اللَّبون وأرْجُو كلَّ يومٍ حَيَاةَ مَنْ في القُبُورِ
جَاعِلا قَبْرَهُ تُخُوماً وقد جَسـ ـرَّ العَذَارَى عليه وَافِي الشَّكِيرِ[١]

فقد جعل الشّاعر محبس اللبون الذي فقد فيه صديقاً عزيزاً عليه تخوماً تكسوها غصون الأشجار، حتى غدت معلما بارزاً، أو رمزاً من الرموز الجغرافية التي ترفد ثقافة الإنسان الجاهليّ.

وكان الاعتقاد السائد لدى عرب الجاهليّة اختفاء الطبقية الاجتماعية بين الناس عند الموت، إذ لا فرق بين غني وفقير لأنّهم متساوون في الموت. يقول طرفة بن العبد:

أَرَى قَبْر نحَّامٍ بَخِيلٍ بمالِهِ كقَبْرِ غويٍّ في البَطَالةِ مُفْسِدِ
ترىَ جُثْوَتَيْنِ من تُرابٍ عليهما صَفَائِحُ صُمٌّ من صَفِيحٍ مُنَضَّدِ[٢]

فالموت، يزيل الفوارق الاجتماعية، إذ تنتفي به مواقع الناس، واختلاف أحوالهم، فقبورهم واحدة يغطيها التراب والحجارة، لا يفترق أحدهما عن الآخر.

ولعل الشّاعر يقدم نصيحة للبخيل الغني الذي يمسك ماله فلا يجود به، ويبين له أن حرصه على هذا المال لا ينفعه، لأنّه سيظل وراءه حين يموت.

وكانت العرب تزعم في الجاهليّة أن المرأة المقلات التي لا يعيش لها ولد إذا توطأت رجلاً سيدا كريماً قتل غدرا سبع خطوات عاش ولدها، من ذلك ما يقوله بشر بن أبي خازم في قتل رجل من بني أسدٍ يُدعى ضياءً:

تظَلُّ مقَالِيتُ النِّساءِ يَطأْنهُ يَقُلْنَ ألا يُلْقَى عَلَى المرءِ مِئْزَرُ[٣]

ومن مذاهب العرب في الجاهليّة، اعتقادهم بالهامة والصَّدى، فكانوا يزعمون

---

(١) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣٢٠، الشكير: الغصون.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣٦. النحّام: البخيل. الغوي: المبذر لماله. الجثوة: التراب المجموع.

(٣) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٨٨. المقاليت: جمع مقلات وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن الصدى يبقى مع جثمان الإنسان حين يموت، والصدى "طائرٌ يخرج من هامة الميت إذا بلي، فينعى إليه ضعف وليِّه وعجزه عن طلب طائلته، وهذا كانت تقوله الجاهليّة"(١).

فكأن الصدى بهذه الحالة، هي التي تمثل صاحبها، فتعلم علمه وتكشف عما في نفسه، يقول طرفة بن العبد:

فَذَرْني أُرَوِّي هامَتِي في حَياتِها مَخَافَةَ شُرْبٍ في الحَياةِ مُصَرَّدِ
كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حَياتِهِ سَتَعْلَمُ إن مُتْنا صَدَى أيُّنا الصَّدِي(٢)

فالشّاعر يرغب أن ترتوي نفسه من متاع الحياة، لأنّ ما يبقى في النفس، فإن الصدى التي تلازم الإنسان بعد موته ستعلم هي الأخرى ما في نفس صاحبها، يقول الأسود بن يعفر:

نَفْعٌ قَلِيلٌ إذا نَادَى الصَّدَى أُصُلا وَحَانَ مِنه لِبَرْدِ الماءِ تَغْرِيدُ
وَوَدَّعُونِي فَقَالوا سَاعَةَ انْطَلَقُوا أَوْدَى فَأَوْدَى النَّدى والحزْمُ والجُودُ(٣)

فالشّاعر يساوره القلق والهم حين يوضع في القبر ويودعه أهله عشاء؛ لأنّه يخشى على صنيع أعماله وأفعاله أن تذهب أدراج الرياح فلم يعد أهله يعترفون بما قدم، وأن ما يبوح به صداه من ندى، وحزم، وجود، لا يلبي طموح الشّاعر، ولا يرضي فضوله.

والهامة التي يخرج صداها من القبر، تقترن بالموت، يقول أبو دؤاد الإيادي:

سُلِّطَ الدَّهرُ والمَنُونُ عَلَيْهِم فَلَهُم في صَدَى المَقَابِرِ هَامُ(٤)

فكان العرب يقولون "ليس من ميّت يموت، ولا قتيل يقتل، إلا ويخرج من رأسه هامة، فإن كان قتل ولم يؤخذ بثأره، نادت الهامة على قبره اسقوني فإني صديّة"(٥).

---

(١) الجاحظ- البيان والتبيين،ج١، ص ٢٨٤.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣٥. المصرد: الذي يقطع قبل الري. الصدى ها هنا: جثمان الرجل بعد موته.

(٣) الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢٥.

(٤) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣٣٩.

(٥) الألوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطائفة من العرب "تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان، فإذا مات أو قتل، لم يزل مطيفا به متصورا إليه في صورة طائر، يصرخ على قبره مستوحشاً، ويزعمون: أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم، وهي أبدا تتوحش وتصدح، وتوجد أبداً في الديار المعطلة والنواويس وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى".[١] يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

يَا عَمْرُوُ إلا تَدَعْ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبْك حَتَّى تَقُولَ الهَامَةُ اسْقُونِي[٢]

"وكان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة فتزقو، وتقول: اسقوني، اسقوني، وإذا أدرك بثأره طارق ذهبت. ويروى أنه إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة فرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة"[٣].

ويقترن الصدى والهامة بِبُعَديّ الزمان والمكان، فيعكسان معاناة الإنسان حين يضرب في الفيافي والآفاق باحثاً عن حاجاته، يقول حسّان بن ثابت:

والَّليْلَةُ الظَّلْمَاءُ أُدْلُجَها بالقَوْمِ في الدَّيْمُومَةِ القَفْرِ
يَدْعُو الصَّدَى فِيهَا أخَاهُ كَمَا يَدْعُو المُفجَّعُ صَاحِبَ القَبْرِ[٤]

فالشّاعر يمضي في تلك القفراء الواسعة، مقتحماً وحشة الليل، وأهوال الظلام لا يسمع فيه سوى صدى يناجي صدى آخر، كمن فجع بعزيز يناديه، وهو في القبر.

وهذا السكون المرعب الذي يتخلله أصوات الصدى، التي يتفطر لها القلب خوفاً، يبين مدى الوحشة التي يعانيها الإنسان الجاهليّ. فكان "إذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه، وانتقضت أخلاطه فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل"[٥]، يقول المثقب العبدي:

---

(١) المسعودي- مروج الذهب، ج٢، ص ١٥٤.

(٢) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٩٢.

(٣) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، انظر: ص ١٩٩.

(٤) حسان بن ثابت- الديوان، ص ١٨٨. الإدلاج: السير في آخر الليل. الديمومة: المفازة البعيدة الأرجاء.

(٥) الجاحظ- الحيوان، ج٦، ص ٢٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنّي وأقتَادِي عَلَى حَمْشَةِ الشَّوَى يَجُورُ صَرَارِيٌّ بها ويُقيمُها
أُمَضِّي بهَا الأهوَالَ في كلِّ قَفرَةٍ ينادي صَدَاها آخرَ اللّيلِ بُومُها[١]

فالشّاعر يمضي في تلك الصحراء، وقد وضع رحله على ناقة سريعة، يقطع بها الأهوال ومجاهيل الطرقات، ولا يسمع فيها، سوى أصداء البوم التي لا تزعق إلا بالويل والهلاك.

وبهذا الإصرار، والتحدي "استطاع الإنسان بثقافته العقلية والعملية أن يتغلب على الطبيعة ليمنح نفسه فرصة ثابتة لاستمرار الوجود"[٢] واستطاع الإنسان الجاهليّ بفعل تحدّيه الزّمن، وإرادته الصلبة أن يسيح بوجهه عن المخاوف وما تبعثه الصدى من هواجس الرعب، فيمضي حيث غايته المنشودة، غير مكترث بما يخبىء له الزمان من محن. يقول امرؤ القيس:

وَخَرْقٍ يَخَافُ الرَّكْبُ أن يُدْلجوا به شَدِيدٍ على الأسْفَارِ مُنْفَتِقِ الصُّوَى
مَهامِهِ مَوْمَاةٍ منَ الأرضِ مَجْهلِ تَدَاعَى على أعلامِه البُومُ والصَّدَى
ضَمِنْتُ بها للرَّكْبِ قَصْدَ سَبيلِهِمْ إذَا أدْلَجوا حتَّى ترجَّلَتِ الضُّحا[٣]

فالشّاعر يعيش تجربته الذاتية من خلال مجتمعه، فهو يذلل الصعاب لقومه الذين ضاقت بهم السبل، ففرقتهم مجاهل الطرقات، وأصداء البوم، وبعد المكان، ولذلك فقد يكون "البعد الداخلي للإنسان ليس بعدا مكانيا دائما وإنما هو بعد روحي يعبر عن عمق الحياة الباطنية للإنسان"[٤].

"والواقع أن الشّاعر الجاهليّ، لم يكن يصور مشاعره الفردية الخاصة في تلك الرؤيا، وإنما كان يعيش مشاعر الآخرين من خلال ذاته، أو مشاعره من خلال وعيه بمشاعر الآخرين"[٥].

---

(١) المثقب العبدي- الديوان، ص ٢٤٧-٢٤٩. الأقتاد: جمع القتد وهو خشب الرحل. الحمشة: الدقة. الشوى: اليدان والرجلان. يجور بها: يعدل أو يميل. الصراري: الملاّحون.

(٢) عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في النقد الشعري، ص ١٦٠.

(٣) امرؤ القيس- الديوان، ص ٣٣٢-٣٣٣. الخرق: المكان الذي تتخرق فيه الرياح. الصوى: الأعلام. المهامه: جمع مهمه، وهو البلد الذي لا يهتدى للسير فيه. الموماة: الصحراء الخالية. القصد: ترك الجور والميل. ترجلت: ارتفعت.

(٤) زكريا إبراهيم- مشكلة الإنسان، ص ٢٩.

(٥) عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في النقد الشعري، ص ١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول تميم بن مقبل:

وخَوْقَاءَ جَرْدَاءِ المَسَارِحِ هَوْجَلٍ بِهَا لاسْتِدَاءِ الشَّعْشَعَانَاتِ مَسْبَحُ
يبكي بِها البُومُ الصَّدَى مِثْلَمَا بَكَى مَثَاكِيلُ يَفْرِينَ المَدَارِعَ نُوَّحُ
قَطَعْتُ إذا لَمْ يَسْتَطِعْ قَسْوَةَ السُّرَى ولاَ السَّيْرَ رَاعِي الثَّلَّةِ المُتَصَبِّحُ(١)

ومن مذاهب العرب أخذهم بالتمائم والرقى، فيعدونها حرزاً يدفعون به عنهم شر البلاء، فاعتقدوا أنها تدفع عنهم الموت، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ(٢)

فالمنية قدر محتم، وأن أي أسلوب وأية تعويذة وذخيرة لا تعدل ولا تبدل من أمرها، أما التميمة وهي التي تربط الروح الشريرة وتدفع الأذى عن المصاب، فإنها لا تنفع كما يقول أبو ذؤيب، والتميمة هي رمز للقدرة الإنسانية ولما أوقي إليه الإنسان من أساليب الوقاية أمام طوارىء الوجود المهلكة(٣).

والتميمة يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات(٤) وهي التي ترد الروح الشريرة وتدفع الأذى عن المصاب فإنها لا تنفع كما يقول. واستخدمت التمائم لطرد شر الحاسدين، يقول الأعشى:

فَيْا رُبَّ نَاعِيَةٍ مِنْهُمُ تَشُدُّ اللِّفَاقَ عَلَيْهَا إِزَارَا
تَنُوطُ التَّمِيمَ وَتَأْبَى الغَبُو قَ مِنْ سِنَةِ النَّومِ إلا نَهَاراً(٥)

فهذه المرأة أخذت تعلق التمائم لتدفع بها عن نفسها حسد بعض الناس، للنعيم الذي تتمتع فيه. وتتكون التمائم من مواد غير حية كالخرز، أو من قطع

---

(١) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٥١-٥٢. الخوقاء: المفازة المنبسطة الواسعة الجوف. الهوجل: المفازة البعيدة التي ليست بها أعلام. الاستداء: مد الإبل بأيديها في سيرها. الشعشعانات: الناقة الجسيمة. المسبح: الإسراع في السير. المثاكيل: جمع مثكل وهي المرأة التي فقدت ولدها. الثلة: القطيع من الضأن. وانظر صورة الصدى والهامة عند: امرىء القيس- الديوان، ص ١١٩، ٢٥٥، ٢٨٦. الأعشى- الديوان، ص ٣٠٩. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٧٩.

(٢) أبو ذؤيب الهذلي- ديوان الهذليين، ج١، ص ٣.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، انظر: ج ٢، ص ١٨٤-١٨٥.

(٤) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج٣، ص ٩.

(٥) الأعشى- الديوان، ص ٨٥. اللفاق: ثوبان يلفق أحدهما بالآخر. الإزار: الملحفة. تنوط: تعلق. التميمة: عوذة تعلق مخافة العين والحسد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خشبية من شجر معين، كشجر اللوز، أو حافر الخيل، وهيكل السلحفاة أو من رؤوس أحد الحيوانات، أو أذناب لبعض الحيوانات، ويعتقد الأشخاص الذين يؤمنون بالرقى -التمائم- بأنها قادرة على منع وقوع الأذى بحاملها[١].

وساد اعتقاد العرب بالرقية فظنوا أنها تحميهم من عظائم الأمور، يقول خداش بن زهير:

عَدَوْتُمْ على مَوْلايَ تَهْتَضِمُونَه بِنَاحِيةٍ من جَانبِ العِيِّ تَرْتَعي
فإنْ يَكُ أوسٌ حَيَّةٌ مُسْتَمِيتَةٌ فَدَعْنِي وأَوْساً رُقْيَتَهُ مَعِي[٢]

وبشر بن أبي خازم يؤكد وجود البدع في المجتمع الجاهليّ، ولكنه لا يقنع بقدرتها على رفع الأذى عن الإنسان، من ذلك ما يقوله في رثاء أخ له:

أَوْدَى فَلا تَنْفَعُ الإِشاحَةُ مِنْ أَمْرٍ لِمَنْ قَدْ يُحاوِلُ البِدَعَا[٣]

ومن مذاهب العرب أن الإنسان إذا أصيب بداء الكلب قطر عليه من دمٍ كريم بريء، يقول المثقب العبدي:

باجِرِيِّ الدَّمِ مُرٌّ طَعْمُهُ يُبْرِىءُ الكَلْبَ إذَا عَضَّ وهَرّ[٤]

"والكلَب داء يصيب الناس والإبل، شبيه بالجنون، وكانت العرب في الجاهليّة إذا أصاب الرجل الكلب قطروا له دم رجل من بني ماء السماء، وهو عامر بن ثعلبة الأزدي، فيسقى فكان يشفى منه"[٥]، "والذي يعضه الكلْب الكلِبُ ينبح نباح الكلاب ويهر هريرها، وهكذا يصيب صاحب تلك العضة. وذلك أنه يعطش عنها أشدَّ العطش ويطلب الماء أشد الطلب، فإذا أتوه به هرب منه أشد الهرب"[٦].

---

(١) علي جباوي- الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ص ٣١٩.

(٢) خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٣٨، الرقية: أمر يفعلونه، يستعينون به على أحوالهم، يظنون أنه يمدهم بقوة خارقة، ويحميهم من المصائب والويلات.

(٣) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٢٦. أودى: هلك. الإشاحة: الحذر والخوف. البدع: جمع بدعة، وهي إنشاء أمر وابتداؤه على غير مثال. وانظر في البدعة والتميمة عند: المثقب العبدي- الديوان، ص ٢٥٣. امرىء القيس- الديوان، ص ١٢.

(٤) المثقب العبدي- الديوان، ص ٧٠.

(٥) ابن دريد- الاشتقاق، ص ٢٠.

(٦) الجاحظ- الحيوان، انظر: ج٢، ص ١٢-١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت العرب تأتي بالبعير الذي كان الرجل يركبه في الجاهلية، فإن مات شدّ عند قبره، وفقئت عيناه، وشدّ عقاله، وجعل خطامه في وليته، أو ترك بلا علف حتى يموت فكانوا يقولون: إن صاحبه إذا حشر يوم القيامة ركب عليه إلى المحشر، يقول الجميح بن الطماح الأسدي:

أَمْ مَنْ لِأَشْعَثَ لا يَنَامُ وَأَرْمَلٍ مِثْلُ البَلِيَّةِ سِمْلَةُ الهُدْمِ[١]

ومن مذاهب العرب كذلك، الرقم على الماء[٢]، والرجم بالغيب[٣]، والضرب بالكف[٤]، وتعرية الناقة إذا مات صاحبها[٥]، وكي السليم بالنار ليعافى المريض[٦].

---

(١) التبريزي- شرح اختيارات المفضل، ج ٣، ص ١٥١١.

(٢) أوس بن حجر- الديوان، ص ١١٦.

(٣) علقمة الفحل- الديوان، ص ٥٦،ابن الأسلت- الديوان، ص ٨٨.

(٤) الأعشى- الديوان، ص ١٨١.

(٥) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٣١.

(٦) النابغة الذبياني- الديوان، ص ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الحياة والموت

الإنسان والحياة

يعيش الإنسان متنقلاً في أرجاء الزمان والمكان، يشاهد في إطارهما جوانب مختلفة من الحياة، فتتشكل لديه مجموعة من الرؤى المدركة والغيبية، لا ينفك ينشيء مع الواقع الحياتي المرئي والمتخيل علاقة فكرية ومادية راح يسعى لاكتناه أسرارها، ليكشف عن مدى تعلقه وحبه لهذه الحياة.

وحبّ الحياة خليقة نادرة، وهي أعم شيء بين الناس، فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق إلى حبها، أو كأنه مأجور على عمله، أو كأنما يحب شيئاً غريباً عنه، فهو يحب الحياة لأنه حي لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة في نفسه إلا أن تحس وتحيا، وتستجد إحساساً وحياة[١].

كان الإنسان الجاهليّ كغيره يتمثل هذه الرؤى ويقيم علاقة مع الظواهر الكونية التي أحدثت في نفسه تصوراً معيناً لأسرار الحياة، ولذلك راح الشّعراء يعبر كلّ منهم عن مشاهداته، وأحاسيسه المرئية والمتخيلة ضمن رؤية فلسفية، يصور من خلالها الحياة في شتى مناحيها، ولئن كان المعنى الكلي والنهائي للامية العرب هو الجوع، ولمعلقة امرىء القيس هو القهر، ولمعلقة النابغة هو الخوف، ولمعلقة طرفة هو القلق، فإن المعنى الكلي والشمولي للشعر الجاهلي هو التعبير عن حالة اللاتكيف مع الحياة[٢]. فهذا أميّة بن أبي الصّلت، يرى الحياة تجري وفق ما يمليه قضاء الله تعالى وقدره، فيقول:

تَجْرِي الأُمورُ على وَفْقِ القَضاءِ وفي ... طَيِّ الحَوَادِثِ مَحْبوبٌ ومَكْروهُ
فرُبَّما سَرَّنِي مابِتُّ أَحْذَرُه ... ورُبَّما ساءَني مابِتُّ أرْجوهُ[٣]

---

(١) العقاد- ابن الرومي، انظر: ص ٢٣٤.

(٢) يوسف اليوسف- مقالات في الشعر الجاهلي، ص ٣٢٦.

(٣) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالإنسان في هذه الحياة مُسير، يحكمه قدر محتوم، لا يملك أن يخرج عن إطاره، وهو مرهون بقضاء مقدر، ليس فيه تغيير أو تبديل.

وأن ما تحدثه نواميس الطبيعة، من أحداث سارة أو محزنة في حياة الإنسان فهي كذلك، مقدرة، والإنسان إزاء أحداث الطبيعة، ملزم بما يناله منها شراً كان أو خيراً. فقد يُسَرّ بشيء يظنه شراً، ويستاء من شيء كان يرجو فيه نفعاً وفائدة.

وأخذ الشّاعر الجاهليّ على من لا يدرك سرّ الحياة فيظنها طعاماً وشراباً، يقول امرؤ القيس:

أرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَّرابِ
عَصافِيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ وأجْرَأ من مُجَلَّحَةِ الذِّئَابِ[1]

فقد يعجب الشّاعر من الناس الذين لا يعون سرّ وجودهم، فيُخدَعون بمغريات الحياة، متناسين أنهم ضعفاء أمام غيبيّات الأمور.

والشّاعر يسعى إلى أن يعرف الإنسان قيمة وجوده عنصراً بنائياً في الحياة، ثم يبين له مقدار حجمه وضعفه أمام قوة الزّمن، بصرف النظر عن إسراعه في صنع الشر. ويدرك الشّاعر تماماً، أن ثمّة سراً يكمن وراء وجود الإنسان على الحياة.

وتجري حياة الإنسان الجاهليّ في رأي بعض الشّعراء منسجمة مع الواقع المعاشي، دون أن يفكر باكتناه المستقبل وتمثله، يقول زهير بن أبي سلمى:

وأعلم علم اليوم والأمسِ قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي[2]

فالعلم بالأشياء، مرتبط بما طابق الواقع، والشّاعر عن طريق التجربة المعاشة قادر على استبصار الأمور المشاهدة المحسة، في حين أن ما يغيب عن المنطق والقياس، فهو في حكم الغيبيات أو الماورائيات. ويبدو أن الشّاعر يعيش يومه إذا أحس أن له حضوراً في الزّمن، وما سوى ذلك فهو من الأمور غير المدركة.

وهذا النمر بن تولب، يكشف عن طمع الإنسان في الحياة، وتشبثه بها، ثم يتساءل عن مصير الإنسان إذا دامت له الحياة، يقول:

يَودُّ الفَتَى بعد اعتِدَالٍ وصحَّةٍ ينُوءُ إذا رامَ القيام ويحملُ

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ٩٧.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَوَدُّ الفَتَى طُولَ السَّلاَمَةِ والغِنَى فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلاَمَةِ يَفْعَلُ[١]

يبحث الشاعر عن قضية وجودية، فهو يتساءل عما سيؤول إليه الإنسان إذا دامت له الحياة فأصاب مالاً وغنى، وقد يعكس ذلك نفسية الشّاعر فيتجسد طمعه الحقيقي في الدنيا، ويحرص على أن ينال منها طول السلامة والغنى لأنه يبحث عن أشياء غير مدركة ترتسم في مخزون اللاشعور العقلي.

وينظر عديّ بن زيد إلى فتيان قومه، فيعجب ممن يسعون إلى طلب الدنيا فيلهثون وراء متاع الحياة ونعيمها، غير مبالين بصروف الأيام يقول عديّ بن زيد:

لَمْ أَرَ كَالفِتْيَانِ في غَبَنِ الـ أَيَّامِ يَنْسونَ ما عَوَاقِبُها
يَرَوْنَ إخْوَانَهُم ومصرَعَهُم وكَيْفَ تَغْتَالُهُم مَخَالِبُها
ماذا نُرَجِّي النُّفُوس من طلبِ الـ غيرِ وحبُّ الحَياةِ كَاذِبُها
تَظُنُّ أن لن يُصِيبَها عَنَتُ الد دهر ورَيْبُ المنونِ كَارِبُها[٢]

فصورة الفتيان في منظور الشّاعر، تمثل جانباً من عبثية الإنسان الذي ينكر واقعه، فيعبث خارج إطار الزّمن، ثم يجنح به خياله إلى الوهم بدلا من الحقيقة والواقع، ظناً منه أنه سينجو من صروف الدهر.

ويصور الشّاعر هؤلاء الفتيان، وهم يرون إخوانهم صرعى الأيام، ولا يأخذون العبرة من ذلك، وكأن الشّاعر، يرمي إلى تجريد فئة الفتيان من التفكير بغلبة الدهر، وأنهم سيظفرون بنعيم الحياة دون أن يفكروا بعواقبها.

ولعل الشّاعر، يدرك حقيقة هذه الفئة التي تخرج عن طورها الاجتماعي وعن نواميس الكون والحياة فتتعامى عن الواقع، وتعيش حياتها غير مكترثة بما يفعله الدهر.

فصورة الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي، كانت تنطوي في نفسه على عناصر خفية، أحسها الشاعر إحساساً مهماً وقدر موقفه منها، وربما كان من أبرز هذه العناصر الخفية التي اصطدم بها مع ذلك حسه، التناقض واللاتناهي والفناء، وفي إطار هذا الإحساس، لم يكن الشاعر ليشعر بأي اطمئنان إزاء الحياة، فلم تكن هناك

---

(١) النمر بن تولب- شعره، ص ٨٧.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظرية واضحة تفسر له هذه العناصر الحيوية المختلفة، وتشيع في نفسه شيئاً من الراحة والطمأنينة كما حدث بعد ظهور الإسلام[١].

والشّاعر الجاهليّ، أقام علاقة جدلية مع الحياة، فأثار في نفس الإنسان تساؤلاً جعله يبحث عن ماهيّة وجوده، فأحسّ أنه يشكل الرمز الوجودي بين ثنائية الحياة والموت، يقول عبيد بن الأبرص:

فَكلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَخْلُوسُها وكُلُّ ذي أمَلٍ مَكْذُوب
وكَلُّ ذِي إبِلٍ مَوْرُوثُها وكُلُّ ذِي سَلَبٍ مَسْلُوبُ
وكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وغَائِبُ المَوْتِ لا يَثُوبُ[٢]

فقد جعل الشّاعر ماديات الحياة في نمو وتجدد، لأنّها سلع متبادلة بين أيدي الناس، وغيابها لا يعني موتها، فهي موروثة أو مكتسبة أو مخلوسة، على عكس الإنسان الذي ينعدم وجوده، أو تجدُّده إذا فني ومات.

وقد رأى بعض شعراء الجاهليّة الحياة حقاً ، يأخذ من كل مجال فيها بطرف، يقول طرفة بن العبد:

فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ حَاجَةِ الفَتَى وجَدِّكَ لَم أَحْفِلْ مَتَى قامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العاذِلاتِ بِشرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماءِ تُزبدِ
وكَرِّي إذا نادَى المُضَافُ مُحنَّباً كِسيدِ الغَضا نَبَّهْتَهُ المتَوَرِّدِ
وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدّجْنِ والدِّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرَافِ المُحَدد[٣]

يحاول الشّاعر أن يترجم فلسفة الإنسان الجاهليّ في الوجود، فهو يسعى دائباً نحو الحياة ينشد الخلود، وحين ينحصر معنى الحياة بتحقيق اللذات الدنيوية المكتسبة فإن ذلك يعني ترجمة الحياة إلى مبدأ الوجودية التي يبحث عنها.

وهكذا المثل الأعلى للحياة الجاهلية، فخر بالنجدة، وفخر بالكرم، وفخر

---

(١) حسين عطوان- مقدمة القصيدة الجاهلية، ص ٢١٩.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٣.

(٣) طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣٢-٣٤. قام عوّدي: أي متى متّ. الكرّ: العطف. الكميت: الحمراء. المضاف: الملجأ. مُحنّباً: يعني فرساً في يديه انحناء. الدجن: إلباس الغيم السماء. البهكنة: الحسنه. الطّراف: البيت من أدم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمجالسة علية القوم، وفي حانات الخمر، وتمتع بالشراب، حوله الندامى والقيان، وهذا كل شيء في الحياة[١].

فشرب الخمر، والكر في المعارك والغزوات، ومجالسة النساء، تمثل مقومات الوجود الإنساني في نظر الشاعر، وهي مقومات مادية يبذل الإنسان الجاهليّ ما وسعه من جهد لنيلها، "خاصة إذا عرفنا أن طرفة كان يؤثر الخفض والدعة"[٢].

وكانت لدى الإنسان الجاهليّ نظرة إلى الحياة حين أحسّ بطول عيشه فيها، فهذا ربيعة بن مقروم، يشكو الزمان الذي رماه بكلكله بعد أن أصاب من الحياة عيشاً هانئاً، فيقول:

وَلَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ المعِيشَةِ لينَها ... وأصَابَنِي مِنْهُ الزَّمَانُ بِكَلْكَلِ
وَلَقَدْ أتتْ مِائَةٌ عَلَيَّ أعدُّها ... حَوْلاً فَحْولاً إنَّ بَلاَها مُبْتَلِ
فإذَا الشَّبابُ كَمِبْذَلٍ أنْضَيْتُهُ ... والدَّهْرُ يَبْلِي كُلَّ حدَّة مِبْذَلِ[٣]

فقد يظن الشّاعر، وقد عاش مائة عام، أنه غدا جزءاً من الزّمن ستأتيه الأيام طائعة، ولكنه لم يكن يدري، أن الدهر غالب على أمره، فالدهر يفني الزمن ويبليه.

وقد ينتاب الشّاعر، إحساس يقضي بتشكيل جدلية مع الزّمن فيظن أنه يمثل القوة والقهر، كما تتجسد في الزّمن، ولكن أمله في ذلك يخيب، حين يرى أن قوته المتمثلة في شبابه وحيويته قد أضعفها الزّمن، وأفقدها عزيمتها، ولعل هذا الشعور بالضعف، ظهر عند النابغة الجعدي بعد طول حياة، يقول:

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإنِّي ... من الفِتْيَانِ في عامِ الخُتَانِ
مَضَتْ مِئَةٌ لعامٍ وُلِدْتُ فيهِ ... وعشرٌ بعدَ ذاكَ وحِجَّتَانِ
فَقَدْ أَبْقَى صُرُوفُ الدَّهْرِ منِّي ... كما أبقتْ من السَّيفِ اليَمَانِي
تَفَلَّلَ وَهْو مَأْثورٌ جُرازٌ ... إذا جُمِعتْ بقائِمَةِ اليَدانِ[٤]

(١) أحمد أمين- فجر الإسلام، ص ٧٨.

(٢) ابن عبد ربه- العقد الفريد، ج ٦، ص ٢٢٠.

(٣) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٣-٣٤. الكلكل: الصدر، واستعاره للهموم والمصائب. المبذل من الثياب: الثوب الخلق. أنضيت الثوب: أخلقته وأبليته.

(٤) النابغة الجعدي- شعره، ص ١٦٠-١٦٢، الختان: داء يأخذ الإبل في مناخرها وتموت فيه، وكان ذلك في أيام المنذر بن ماء السماء، فجعلوه تاريخاً لهم. مأثور: باق فيه أثره وهو فرنده ورونقه. الجراز: الماضي النافذ في الضريبة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد يجعل الشّاعر الأحداث والوقائع حجة يؤرخ بها أمراً أو حادثة. ويشير الشّاعر إلى يوم الختان، وهو يوم ولادته، ثم ينظر إلى نفسه وقد عاش مائة واثنتي عشرة سنة، يزعم فيها أنه لا يزال في عزّ ومنعة، ولكنه وجد نفسه أخيراً أنه محكوم لفعل الدهر الذي لا يقهر. وزهير بن أبي سلمى يشكو طول الحياة، يقول:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ ومَن يَعِشْ ثَمانِين حَوْلاً لا أبا لَكَ يَسْأَمِ[١]

يظهر الشّاعر جانباً من التمرد على الحياة، فهو يرفض واقعه بعد ثمانين عاماً من التجربة، فراح يبحث عن نمط آخر من الحياة، ينعدم فيه السأم والضجر، ولعل الشّاعر يبحث عن أسرار الحياة فلا يكاد يجد فيها ما يسر.

وعبيد بن الأبرص، يجعل نفسه نظيراً لبناة نعش والنجوم الأخرى بطول البقاء، فيقول:

فَنيتُ وأفْنَانِي الزَّمَانُ وأصبحَتْ لِدَاتي بنونَعْشٍ وزُهْرُ الفَرَاقدِ[٢]

فقد شهد الشّاعر موت كثير من أقرانه ولداته الذين أبقاهم الزّمن، وبقي هو حياً كأنه رأى نفسه وبنات نعش وغيرها من النجوم توائم في طول العهد والبقاء.

ولعل الشّاعر حين رأى أن الحياة طالت له، وأن جميع أهل زمانه قد ماتوا، فقد ظن أن وجوده، يشكل ظاهرة كونية في طول البقاء شأنه في ذلك شأن بنات نعش.

وتبدو الأنا الذاتية مسيطرة على معتقد الشّاعر الذي ظن نفسه ظاهرة تتميز في ديمومتها على غيرها من الخلق، وهذا الإحساس بالأنا يجعل الشّاعر يبحث عما وراء الحياة، ليدرك أسرارها، ومثل ذلك يقول النّمر بن تولب:

ألا يا لَيتَنِي حَجَرٌ بِوادٍ أقامَ ولَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْني
فإني قَدْ لَبِسْتُ العَيْشَ حتَّى مَلِلْتُ مِنَ الحَياةِ فقُلتُ قدني[٣]

يبحث الشّاعر عن معنى الحياة بعد أن طال عيشه فيها، وأصاب من خيرها ونعيمها. والشّاعر تمنى نفسه حجراً ملقى بوادٍ لا روح له، أو أنه لم يولد، وليس ثمّة سبب يكمن وراء ذلك، سوى أنه سئم الحياة، فمالت نفسه إلى التجدد والتغير، هروباً من الواقع وبحثاً عن المجهول.

(١) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٥.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٥١.

(٣) النّمر بن تولب- شعره، ص١١٨. قدني: القدن: الكفاية والحسب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإنسان الجاهليّ، حين يتمثل الحياة بجوانبها المتعددة، ويقضي فيها دهراً طويلاً، يدرك حينئذ أنه لا بد من توديع الحياة، وأن لا بقاء إلا لله وحده، يقول عبيد ابن الأبرص، وكان من المُعمَّرين:

مِئَتَيْ زمانٍ كَامِلٍ ونَصِيَّةٌ عِشْرِينَ عِشْتُ مُعَمَّراً مَحْمُودا
أدْرَكْتُ أوَّلَ مُلْكِ نَصْرٍ نَاشِئاً وبناءَ سِنْدادٍ وكانَ أبِيدا
وَطَلَبْتُ ذا القَرْنَيْنِ حتى فاتَنِي رَكضاً وكِدْتُ بأن أرى داوُدا
ما تُبْتَغى مِنْ بَعْدِ هذا عِيْشَةٌ إلاَّ الخُلودَ ولَنْ يُنالَ خُلودا
ولَيفْنَيَنْ هَذَا وذَاكَ كِلاهُما إلاَّ الإلهَ وَوَجْهَهُ المَعْبُودا(١)

يقيم الشّاعر حواراً مع الحياة، فيثبت أنه جزء منها، يساهم في بنائها، فقد عاش طويلاً، وأدرك ملوك الحيرة الأوائل، وذا القرنين، حتى كاد يدرك (داودا)، كل ذلك ليجعل نفسه مشاركاً في صنع الحياة، وأنه جزء من هذا الوجود.

ثم يعود الشّاعر، فيظن أن طول العيش، يكسب الإنسان الخلود، ثم لا يلبث أن يتراجع معتقداً بهلاك الإنسان، وأن لا خلود إلا للّه.

وقد نرى في الشعر الجاهليّ، شعراء نظروا إلى الحياة على أنها متاع فراحوا يعززون هذا المفهوم في النفوس؛ لأنّ الإنسان ، مادة فانية، يقول امرؤ القيس:

تَمتَّع مِنَ الدُّنْيَا فَإنَّكَ فَانٍ من النَّشَوَات والنِّسَاءِ الحِسانِ
مِن البيض كالآرام والأدْمِ كالدُّمَى حَواصِنُها والمبرقات الرَّوانِي(٢)

وثمّة من ينظر إلى حياة الإنسان، فيراها ثوباً مستعاراً يزهو به من يرتديه، ويتمتع به إلى حين، ثم يعيده إلى أهله، وكذلك حياة الإنسان، فهي وديعة ترد إلى بارئها بعد لهو ومتاع، يقول الأفوه الأودي:

إنما نِعْمَةُ قَومٍ مُتعَةٌ وَحَيَاةُ المَرْءِ ثَوْبٌ مُسْتَعارٌ(٣)

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٦١-٦٢. نصيّة: بقية.

(٢) امرؤ القيس- الديوان، ص ٨٧-٨٨. الآرام: اللاتي يضربن إلى السُمرة. الرواني: الدائمات النظر.

(٣) الأفوه الأودي- شعره، ص ١١. وانظر صورة الحياة عند: أبي زبيد الطائي- شعره، ص ٤٢-٤٣. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣٥. ذي الأصبع العدواني- الديوان، ص ٤٩. طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين الشباب والمشيب

"قال قيس بن عاصم: الشيب خطام المنية .وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: عجل عليك الشيب يا رسول الله! قال: شيبتني هود وأخواتها"[١]. وقال أبو عمرو بن العلاء: ما بكت العرب شيئا ما بكت الشباب، وما بلغت به ما يستحقه. وقال الأصمعي: أحسن أنماط الشعر المراثي والبكاء على الشباب[٢].

وإزاء هذا الإحساس، فقد نظر الإنسان الجاهليّ إلى الحياة، من خلال رؤيته نفسه شاباً وشيخاً يعيش بين متغيرات الزّمن الذي تكتنفه الحياة بشكل عام. ولذلك طفق الشّعراء، يصفون شبابهم الذي انقضى، وجاء الشيب يهدد حياتهم، يقول سلامة بن جندل:

أودَى الشبابُ، حَمِيْداً، ذُو التَّعاجِيبِ أوْدَى، وذلك شأوٌ غيرُ مطلوبِ
ولّى حَثِيثاً، وهذا الشَّيْبُ يَطلبُهُ لو كَان يُدرِكُهُ رَكْضُ اليعَاقيبِ
أوْدَى الشَّبابُ الَّذي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ فيه نَلَذُّ، ولا لَذَّاتِ للشَّيْبِ
يَومانِ: يومُ مَقامَاتٍ وأنديَةٍ ويومُ سَيْرٍ إلى الأعْداءِ تَأْويبِ[٣]

فالشّاعر يتأسى على عهد الشباب الذي هلك وانقضى، دون عودة، بعد أن كان حميدا، ولو كان يدرك بالسبق، لفعل الشّاعر ذلك، وأعاده إليه، لكن مطلبه بعيد المنال.

والشّاعر شديد التفجع على شبابه؛ لأنّ فيه تحقيق الأمجاد وإدراك مكارم الأمور، وهذا لا يتحقق إلا بفضل الشباب، لا بالشيب والهرم، وتنقاد نفسية الشّاعر إلى الحرص على السمو ورفعة الشأن.

إن واقع الشعر إذن "لا يمنحنا الحنين إلى مرحلة الشباب، بقدر ما يمنحنا الحنين إلى تعبير مرحلة الشباب عن ذاتها"[٤].

---

(١) ابن عبد ربه- العقد الفريد، انظر: ج ٣، ص ٤١.

(٢) ابن عبد ربه- العقد الفريد، ج ٣، ص ٤٦.

(٣) سلامة بن جندل- الديوان، ص ٩٠-٩٤. اليعاقب: جمع يعقوب وهو ذكر القبج وهو الحجل.

(٤) غاستون باشلار- جماليات المكان، ص ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإنسان الجاهليّ يعوّل كثيراً على زمن شبابه، ويعدّه رمزاً من مكونات وجوده وشخصيته، يقول عمرو بن قميئة:

يا لَهْفَ نَفْسِي على الشَّبَابِ ولَمْ أفْقِد به إذْ فَقَدْتُه أمَمَا
قَدْ كُنتُ في مَيْعةٍ أُسَرُّ بها أمْنَعُ ضَيْمِي وأهبِطُ العُصُمَا[١]

فقد يرثي الشّاعر طاقة جسدية كانت مختزنة في جسمه، وهو في ميعة صباه وشبابه يدفع بها ضيم الناس ويتجشّم الصعاب، ثم ما لبثت أن زالت وتلاشت.

وقد يستدل من ذلك، شدة حاجة الإنسان الجاهليّ إلى القوة الجسمانية لاستثمارها في تيارات الحياة المختلفة حفاظاً له وإثباتاً لوجوده.

ويندم الشّاعر الجاهليّ على شبابه الذي ولّى دون أن يحقق فيه طموحاته حتى إذا كبر وهرم، أصابه السقم، يقول السموأل بن عادياء:

لم يَقْضِ مِنْ حَاجةِ الصِّبا أرَبَا وقد شَاكَ الشَّبابُ إذ ذَهَبَا
وعاودَ القلبَ بعد صِحَّتِهِ سُقْمٌ فَلاقَى مِن الهَوَى تَعبَا[٢]

فالشّاعر يحزن في هذا الزمن على شبابه الذي انقضى، دون أن يشبع نفسه من ملذات الحياة "وإذا بحثنا عن زمن الإحساس بالعجز والكبر، فإننا سنجده الزمن الحاضر، ذلك أن الشاعر لا يتحدث عن الشيء إلا بعد أن يصبح عاجزاً كبيراً، ويمثل هذا الوقت حاضر الشاعر السيء الذي لا يرغب فيه ولا يريده أبداً"[٣]، ويقول عمرو بن شأس الأسدي:

فَوَانَدمِي على الشَّباب ووانَدمْ نَدِمتُ وبانَ اليومَ منِّي بغيرِ ذَمْ[٤]

وكان تحول شعر اللّمّة إلى البياض، أول ملمح يهدّد ظاهرة الشباب عند الإنسان، فيبدأ بالتفكير في مصيره وآخرته، يقول الأعشى:

فَإنْ تَكُ لِمَّتِي يا قَتْلُ أضْحَتْ كَأنَّ على مَفَارِقِهَا ثَغَامَا

---

(١) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٤٠. الأمم: القرب.

(٢) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٧٦. شاك الشباب: فاتك.

(٣) عبد العزيز شحادة- الزمن في الشعر الجاهلي، ص ١١١.

(٤) عمرو بن شأس- شعره، ص ٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَأَقْصَرَ باطِلي وَصَحَوْتُ حَتَّى كَأَنْ لَمْ أَجْرِ في دَدَنٍ غُلاَمَا
فَإِنَّ دَوَائِرَ الأَيَّامِ يُفْنِي تَتَابُعُ وَقْعِها الذَّكَرَ الحُساما[١]

فقد كان ظهور الشيب في لمته، ميقاتاً زمنياً جعله يعيد النظر في سلوكه ولعلنا ندرك من ذلك، أن الشّاعر عدل عن كل سلوك غير مستحب وعاد إلى القصد والاعتدال.

ويبدو أن طول عهد الشّاعر بالزّمن جعله يسير في طريق الحق من خلال التجربة الحياتية المكتسبة. ونتيجة لذلك، فقد "تبدو لنا الأقوال عن زوال الشباب ووطأة الشيخوخة مرتبطة بمفهوم عدم ثبات الأشياء"[٢].

ولعل انصراف الشّاعر عن لهوه وباطله، قد يكون ناجماً عن متغيرات محكومة بمتغيرات فسيولوجية وفيزيائية مرتبطة بفاعلية الزّمن فجاء هذا التغير نتيجة لانهدام الجسد وترهله، ولذلك فقد يخشى بأن يكون هذا التحول في الفكر والسلوك أمراً مصطنعاً محكوماً بإرادة الزّمن لا بإرادة الشّاعر نفسه.

وأورد دريد بن الصمّة صورة بديعة لنفسه حين يصير رأسه أبيض كالثغام، محدودب الظهر، يطوف به الولدان من مكان لآخر، يقول:

فَإِنْ يَكُ رَأْسِي كَالثَّغَامَةِ نَسْلُه يُطِيفُ بِيَ الوِلْدَانُ أَحْدَبَ كَالْقِرْدِ
رَهِينَةَ قَعْرِ البَيْتِ كُلَّ عَشِيَّةٍ كأنّي أُرَاوِي أنْ أُصَوَّبَ في مَهْدِ
فَمِنْ بَعْدِ فَضْلٍ في شَبَابٍ وَقُوَّةٍ وَرَأْسٍ أثيثٍ حَالِكِ اللّونِ مُسْوَدِّ[٣]

فقد نظر الشّاعر إلى نفسه، فرأى جسمه يهلك وقوته تخور، ففقد بهذا الضعف عنصر القوة الذي به تستمر حياته ثم أيقن أخيراً أن لا قيمة له، لأنّه لا يساهم في بناء الحياة.

والشاعر "لا يعنيه أن يدوم له الشباب، وإنما يعنيه أن تدوم له الدنيا القديمة وهي في جدة البواكير"[٤].

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٢٣١. الثّغام: نبت له نور أبيض. الددن: اللهو. الذكر: السيف الصارم.

(٢) بلاشير- تاريخ الأدب العربي، ص ٤٥٥.

(٣) دريد بن الصمّة- الديوان، ص ٥٤.

(٤) العقاد- ابن الرومي، ص ٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتغير شعر اللِّمّة إلى شيب أبيض قد أحدث في النفس قلقاً وهمّاً كبيرين عند ربيعة بن مقروم، يقول:

أما تَرى لِمَّتي لاحَ المَشِيبُ بها ... من بعْدِ أسْحَمَ داجٍ لونُه رَجِلِ
أعْقَبْتُهُ بَدلاً منه وَفَارَقَنِي ... لَلّه دَرُّ مَشِيب الرَّأس من بَدَلِ[١]

إنّ تبدل لون الشعر، بداية لتبدّل حياة الشّاعر وانقلاب أحوال الزمان. وتمنى بعض الشّعراء، أن يكون الشباب حليفاً له، لا يفارقه بعد أن أدرك أن الشباب إذا ولّى فلا خلف له. يقول كعب بن زهير:

بَانَ الشَّبَابُ وأمْسَى الشيْبُ قد أزِفَا ... لا أرَى لشَبَابٍ ذاهِبٍ خَلَفَا
عاد السوادُ بَيَاضاً في مَفَارِقِهِ ... لا مَرْحَباً هابِذَا اللَّوْنِ الذي رَدِفَا
في كلِّ يومٍ أرَى منه مُبَيِّنَةً ... تكادُ تُسْقِطُ منّي مُنَّةً أسَفَا
لَيْت الشَّبَابَ حَلِيفٌ لا يُزَايِلُنا ... بل لَيْتَهُ ارْتَدَّ منه بعضُ ما سَلَفا[٢]

يحاول الشّاعر عبثاً أن يرد ما فاته من شبابه الذي ولّى ولم يعقب له خلفاً، وهذه المحاولة البائسة، كانت ردّ فعل لما ظهر من انقلاب مفرق رأس الشّاعر إلى شيب أبيض أدى إلى انحلال في قوة الشّاعر وحيويته.

والذي يبدو أن صورة الشباب لم تكن في ذهن الشاعر "فترة من الزمن أو ظواهر من المتعة والعافية، وإنما يذكره وهو ينفذ إلى صميمه وباطنه ولبابه الذي لا يحسب بالأيام، ولا معول فيه إلا على جدة الشعور، وجلاء الدنيا في بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة"[٣].

ويقف الشّاعر إزاء ذلك ساخطاً على ما استجد له من أحداث، فتحول مفرق الرأس بداية لمرحلة تغير حياة الشّاعر، وإيذان في تحول مسار حياته.

وكان الشّعراء، يعدّون الشيب عيباً لمن أرسى بساحته، يقول عبيد بن الأبرص:

بانَ الشَّبابُ فَآلَى لا يُلِمُّ بِنا ... واحْتَلَّ بي مِن مَشِيبٍ أيَّ مِحْلالِ

---

(١) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٧، الأسحم: الأسود. شعر رجِل: بيِّن السبوطة.

(٢) كعب بن زهير- الديوان، ص ٧٠، هابذا: أي بهذا. المنّة: القوة.

(٣) العقاد- ابن الرومي، ص ٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشَّيْبُ شَيْنٌ لَمَن أرْسَى بِسَاحَتِهِ لِلّهِ دَرُّ سَوَادِ اللِّمَّةِ الخَالِي[١]

إن بداية صراع الإنسان مع الحياة، تكمن في ظهور الشيب الذي غدا مذمّة لصاحبه. ويعجب الشّاعر ممن لا تزال لمته سوداء للدلالة على الشباب والصبا.

والشيب لا يجد في نفوس الناس سوى الإنكار المطلق، فهو مبعث هم وحزن لصاحبه، وهو الضيف المكروه الذي تنفر منه الناس، يقول عديّ بن زيد:

نَزلَ المَشيْبُ بوَفْدِهِ لا مَرْحَباً ورأى الشَّبابُ مكانَهُ فَتَجنَّبا
ضَيْفٌ بَغِيضٌ لا أرَى لي عُصْرَةً منهُ هَرَبْتُ فلم أجِدْ لي مَهْرَبا
بُدِّلْتُ بالعَيْشِ اللَّذيذِ ونِعْمَةِ الـ عُمْرَينِ هَمّاً شَاهِداً ومُغيَّبا[٢]

فالشّاعر، يعلن عن انقلاب حياته وتبدل أحواله، فقد كان في نعمة عيش ورغد حياة وهو شاب، وغدا اليوم مهموماً تنتابه كآبة النفس لحلول ضيف بغيض ثقيل الظل يتمثل في الشيب الذي بات يشكل له هاجس القلق والخوف.

وكان لزاماً على الإنسان الجاهليّ أن يتعامل مع الشيب حقيقة واقعة، فيمضي في تصريف شؤون حياته بصورة طبيعية دون أن يكون الشيب عاملاً مثبطاً يقول النابغة الذّبياني:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ المشِيبَ عَلَى الصِّبا فَقُلْتُ ألمَّا تَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ
وقَدْ حالَ هَمٌّ دونَ ذلِكَ داخِلٌ دُخُولَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأصابِعُ[٣]

فعلى الرغم من أن الشيب يتمكن من الإنسان، إلا أن ذلك لا يمنع من تحقيق ما في النفس من رغبات، وهذا يعني، أن الإنسان يصرف النظر عما يحيط به من أحداث طلباً لإسعاد النفس. "ويتساءل الشاعر الجاهلي في كل مظهر من مظاهرالحياة عن مصيره سواء كان ذلك مرتبطاً بمشاهد الفرحة مثل ساعات اللهو والشرب ومن ذهاب الشباب وانتهاء أيام السرور ومن شيب يشمل الرأس"[٤]. والشيب لا يمنع الإنسان من التصابي، يقول أوس بن حجر:

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٠٤، آلى: حلف. أرسى: نزل.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ١١٣. العصرة: المنجاة والملجأ.

(٣) النابغة الذبياني- الديوان، ص ٤٤-٤٥، وزعك الشيب: نهاك. الشّغاف: غلاف القلب.

(٤) حسين عطوان- مقدمة القصيدة الجاهلية، انظر: ص ٢١٧-٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صَبَوْتَ وهَل تَصْبُو ورَأسُكَ أشْيَبُ وَفَاتَتْكَ بِالرَّهْنِ المُرَامِقِ زَيْنَبُ
وَغَيَّرَها عَنْ وَصْلِها الشَّيْبُ إنَّهُ شَفيعٌ إلى بِيضِ الخُدورِ مُدَرَّبُ(١)

فالشّاعر لا يزال -على الرغم من شيبه- ليّن النفس، يميل إلى بناء علاقة مع المرأة، فيتودد إليها وهي راغبة عنه. ولأجل ذلك راح يعبر عن استيائه من ظهور الشيب، فهو سبب في قطع الصلات الاجتماعية، فقد عده الشّاعر شفيعاً للنساء للتخلص من طلب الرجال، وهذا يدل على إعراض المرأة عن الرجل في شيبه. في حين يرى النمر بن تولب ظهور الشيب قيمة وزينا لصاحبه، وليس آفة. وإذا كان الشيب عيباً على الرجل ومنقصة، فإن ذلك مما تفكر به الجاهلات من النساء، يقول النمر بن تولب:

ألا إنَّ شَيْبَ الرَّأْسِ ليسَ بآفةٍ تُضيرُكَ إلاّ في النِّساء الجَوَاهِلَ(٢)

وقد يتودد الشّعراء عند بعض النساء اللواتي أنكرنهم بسبب ظهور الشيب طمعاً في إبقاء العلاقة، وحرصاً على المودة بين الرجل والمرأة، يقول لبيد بن ربيعة:

قَالَتْ غَداةَ انْتَجَيْنَا عند جارَتِها أنتَ الذي كنتَ لولا الشَّيْبُ والكِبَر
فقُلْتُ ليسَ بَيَاضُ الرأس مِنْ كِبَرٍ لو تَعْلمِينَ وعِنْدَ العالِمُ الخَبَر(٣)

والتحسر على الشباب، جزء من حياة الإنسان الجاهليّ، وعودته إليه ثانية باتت أمراً متعذراً، "ولهذا كان الشاعر الجاهلي وهو يتحدث عن الشيب كثير الإحالة إلى الماضي فترة الشباب"(٤). يقول الأسود بن يعفر:

هل لِشَبابٍ فاتَ من مَطْلَب أم ما بُكاءُ البَائسِ الأشْيَبِ
بُدِّلْتُ شَيْباً قَدْ عَلا لِمَّتي بعد شَبابٍ حَسَنٍ مُعْجِبِ
صَاحَبْتُه ثُمَّت فارَقْتُهُ ليتَ شَبَابِي ذاك لم يَذْهبِ(٥)

---

(١) أوس بن حجر- الديوان، ص ٥. المرامق: الذي بآخر رمق. وفلان يرامق عيشه إذا كان يداريه.

(٢) النّمر بن تولب- شعره، ص ٩٦.

(٣) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٦٢. انتجينا: من المناجاة.

(٤) عبد العزيز شحادة- الزمن في الشعر الجاهلي، ص ١١٦.

(٥) الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يندب الشّاعر زمنين متضاربين، وجد فيهما ثنائية البناء والهدم، وكلاهما يبعث على الحزن والتحسر، فمن شباب تلاشى وانقضى فخلف ندما وحسرة، ومن شيب حل متثاقلاً يبعث على الانهيار والدمار. والشّاعر بين هذه المتناقضات محكوم بحركةالزّمن الذي حمل عنصر الهدم الحياتي، فأحدث انقلابا متسارعاً في حياة الإنسان، جعله ينتقل بصورة مفاجئة من الأمل والعمل، إلى اليأس والقنوط.

ولأجل ذلك، راح الشّعراء يعبرون في أشعارهم عما أحدثه الدهر في نفوسهم من قلق واضطراب، مقارنين بين شباب ينظر إلى الحياة بأمل باسم. وشيب يقتل كل تجدد وطموح. وقد جعل الشعراء لانقلاب الزمان وتبدل الأحوال معادلاً موضوعياً تمثل في تخضيب شعر اللمة ردًا على فعل الزمن، يقول المرقّش الأكبر:

هل يَرْجِعَنْ لِي لمتّي إنْ خَضَبْتُهَا إلى عَهْدِها قَبلَ المَشِيبِ خِضَابُها
رَأَتْ أُقْحُوَانَ الشَّيْبِ فَوْقَ خَطِيطَةٍ إذَا مُطِرَتْ لم يَسْتَكِنَّ صُؤَابُها
فإن يُظْعِنِ الشَّيْبُ الشَّبابَ فَقَدْ تُرَى به لمّتي لم يُرْمَ عنها غُرَابُهَا[1]

يشكو الشّاعر تحول شبابه إلى الشيب والكبر، فصار أصلع الرأس، يعلو لمته شعر أبيض، ففقد بذلك حيويته، والشّاعر شديد الحزن لهذا الواقع الذي أحدث فيه هرما وشيخوخة فأفسد عليه شبابه.

ويحاول الشّاعر أن يعالج ذلك بالتحايل على الزّمن، فلجأ إلى طرح تساؤل يتمثل في تخضيب شيبه بلون أسود، ليشعر بتجدد شبابه. وكان يقال: "فلان يسود وجه النذير، إذا كان يخضب، إشارة إلى قوله تعالى: (وجاءكم النذير) أي الشيب"[2].

وعلى نحو ما سبق، فقد بدأت رحلة الإنسان الجاهليّ مع الشيخوخة على مراحل كان أولها ظهور الشيب الذي كان مبعث هم، ومصدر قلق، فقد وقف

---

(١) المفضل الضبّي- المفضليات: ص ٢٣٦، الصؤاب: بيض القمل، لم يستكن: لم يجد شعراً يأوي إليه. انظر في ظاهرة الشباب والشيب عند: عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٢، ١٠١، ١٣٣. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٣٨، ٧٥. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٢٣. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٧٣. كعب بن زهير- الديوان، ص ٤١-٤٢. النمر بن تولب- شعره، ص ٣٦-٣٧، ٥٥. النابغة الجعدي- شعره، ص ١٧٠-١٧٢. جبار بن سلمى-، أشعار العامريين، ص ٧٠. أبي كبير الهذلي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ٨٨-٩٠. ساعدة بن جؤية- ديوان الهذليين، ج ١، ص ١٩١.

(٢) الجرجاني- المنتخب من كنايات الأدباء، ص ١٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان الجاهليّ منه موقف المنكر الرافض؛ لأنّه يعرف أنه يشكل مفصلاً زمنيا في حياته يقوده إلى الهدم والفناء، فهذا أبو كبير الهذلي يعدّ تغير شعر الرأس من بواكير فقد الشباب، ودلائل أولية للهرم، يقول:

أزُهَيْرُ وَيْحَكِ، ما لِرأسِي كلَّما فَقَدَ الشَّبابَ أتَى بِلَونٍ مُنْكَرِ[١]

وكان بروز شعر الحاجبين دليلاً آخر على الشيخوخة، يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

أرَى شَعَرَاتٍ عَلَى حَاجِبَيَّ نَبَتْـ نَ جَمِيعاً تُوآماً تُوآمَا
ضَلَلْتُ أُهَاجِي بَهِنَّ الكِلاَ ب أحْسَبُهُنَّ صُوَاراً قِيَامَا
وَأحْسَبُ أنْفِي إذَا مَا مَشَـ يْتُ شَخْصاً أمَامِي رَآنِي فَقَامَا[٢]

فصورة الكبر، مستوحاة من واقع الشّاعر البيئي، فالشعر المتدلي على الحاجبين، حجب الرؤية عن العينين بصورة جعل الشّاعر يظن الكلاب بقراً، ويحسب أنفه شخصاً واقفاً أمامه.

ويكفي لخطوب الزمان وتوالي الأحداث التي ألمت بالإنسان الجاهليّ وما يعقب ذلك من معاناة في وسائل العيش المختلفة، أن تحدث تغيّراً في بنية الإنسان الجسدية وفي خلاياه. فهذا ربيعة بن مقروم تتابعت عليه خطوب، أحنت ظهره وأضعفت بصره، فيقول:

وإنّي حَنَى ظَهْري خُطُوبٌ تَتَابَعتْ فَمَشْيِي ضَعِيفٌ في الرِّجال دَبِيبُ
إذا قالَ صَحْبِي يا رَبِيعُ ألاَ تَرى أرى الشَّخْصَ كالشَّخْصَين وهو قريبُ[٣]

فهذه الأعراض الصحية التي أصابت جسد الشّاعر، وعطلت بعض أعضائه وحواسه، كانت نتيجة لحوادث الدهر، وإلى المحن التي تكالبت عليه، فأحدثت فيه هدماً صحياً حتى غدا في مشيه يدبّ على الأرض دبيباً فضعف بصره، وترهل جسده.

وهذا دريد بن الصّمة، لا يستطيع المشي إلا متكئاً على العصا، يتلمس بها

---

(١) أبو كبير الهذلي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ١٠١.

(٢) ذو الأصبع العدواني- الديوان، ص ٧٦-٧٧. الصوار: البقر.

(٣) ربيعة بن مقروم- شعره: ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجه الأرض، فينقاد إليها حين يمشي، فيتخذها هاديا له ومرشداً فجسّدها إنساناً يهديه سواء السبيل، فيقول:

أُقَدِّمُ العُودَ قُدَّامي فأَتْبَعُهُ وَقَدْ أرَانِي وَلاَ يَمْشي بيَ العُودُ[١]

وغدت ظاهرة الشيخوخة طبعاً اجتماعيا مألوفاً في الوسط الاجتماعي الجاهليّ فقد يواسي الناس بعضهم بعضاً في الملمات وأحداث الزمان، من ذلك ما جاء في قول الأسود بن يعفر:

قد كُنتُ أهدِي ولا أُهدَىَ فَعَلَّمنِي حُسْنُ المَقادةِ أنِّي أفْقِدُ البَصَرا
أمْشِي وأقْبَعُ جُنَّاباً ليَهْدِيَنِي إنَّ الجَنِيبةَ مِمَّا يَجْشَمُ الغَدرا[٢]

يكشف الشّاعر عن عادة إنسانية كريمة كانت متبعة في العصر الجاهليّ، تتمثل في أن ذلك المجتمع، كان يستعين برجل من أبناء الحي، يقوم على شؤون العجزة وذوي الحاجات الخاصة ممن حرمتهم الحياة نعمة البصر، فأحدثت فيهم عاهة مستديمة. وهذا يترجم مفهوم الرعاية الصحية في المجتمع الجاهلي.

والشّاعر يتمثل هذه الظاهرة واقعاً وحقيقة، فقد أكسبته مجانبته المقعدين وفاقدي البصر، دربة ومعرفة إلى حد يستطيع أن يتمثل دور رجل أعمى فيهتدي إلى سبيله دون مرشد أو هاد.

والشّاعر يرثي حاله التي آلت إلى ضعف، فأصابه الكبر والشيخوخة، وأصبح في حاجة إلى جُنّاب يقوده إلى سبيله بكل تجشم وإبطاء كما تقاد الدابة، وهذا الضعف الذي يبلغه الإنسان دليل على انقلاب الأحوال وتبدل حياة الإنسان من القوة إلى الهرم والضعف.

ومن مظاهر الشيخوخة ، نحول الجسم، وضعف وظائف الأعضاء، فالنَّمِر بن تولب يشكو هزال جسمه حتى أصبح لا يحمل بعضه بعضاً، فيقول:

أصْبَحْتُ لا يَحْمِلُ بَعْضي بَعْضَا أشكُو العُرُوقَ النَّابِيَات نَبْضَا
كما تَشَكَّى الأرْحَبيُّ الفَرْضا كأنما كانَ شَبابي فَرْضا[٣]

---

(١) دريد بن الصمّة- الديوان، ص ٦٢.

(٢) الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٣٧. الجناب: الرجل الذي يقوده كما تقاد الجنيبة. والجنيبة: الدابة تقاد. الجشم: المشي ببطء.

(٣) النمر بن تولب- شعره، ص ٧٠، الأرحبيّ: الفحل تنسب إليه النجائب. الفَرْض: حزام الرحل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر بذل كل ما لديه من طاقة بدنية، فناءً كاهله بذلك، وبلي جسمه، لتقادم عهد الزمان به، وبانت عروق أطرافه، فهو كالفحل الذي تحمل أعباء كثيرة، فنحل جسمه حتى بات يعجزه القليل منها.

وشكل الهرم للإنسان الجاهلي هماً وحزناً بالغين وشكواه من الهرم كانت تقض مضجعه، وتشكل له هاجساً مرعباً خاصة إذا اقترن الهرم بالقحط "فقد كانت العرب في الجاهلية إذا أقحطوا عمدوا إلى الشيخ الكبير فخنقوه وقالوا: يموت ونحن نراه خير من أن يموت هزالاً، وكانوا أيضاً إذا رحلوا من مكان إلى مكان وفيهم شيخ همّ تركوه حتى يموت مكانه"[١].

وسقوط مقاديم الأسنان، وتقوس الظهر، من بين مظاهر الشيخوخة في عرف الإنسان الجاهليّ. يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

هَزِئَتْ زُنَيْبَةُ أنْ رَأَتْ ثَرَمي وَأَنِ انْحَنى لِتَقادُمٍ ظَهْري
مِنْ بَعْدِ مَا عَهِدَتْ فَأَدْلَفَني يَوْمٌ يَجِيءُ ولَيْلَةٌ تَسْري[٢]

فهذه الصورة الإنسانية قد تكشف عن بعض عادات المجتمع الجاهليّ التي كانت تعد تساقط أسنان المرء وانحناء ظهره، وتقارب خطوه في أثناء السير عيوبا اجتماعية، قد تعرضه أحيانا إلى السخرية والاستهزاء.

فقد يكون هذا التقليد، بعضاً مما يعتقده المجتمع الجاهليّ، بضرورة بقاء طاقة الإنسان كامنة فيه، بصرف النظر عن كبر سنه.

وضعف الحواس التي يتعرض إليها الإنسان، وعجز بعض وظائف الأعضاء عن أداء مهماتها، عوامل تؤدي إلى احتراق الطاقة الكامنة التي تفضي إلى انهدام الجسم، وقد أبدع في تصوير ذلك عمرو بن قميئة فيقول:

كأنّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعينَ حِجَّة خَلَعتُ بها يَوماً عِذارَ لجَامي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مرَّةً وعَلَىَ العَصا أنوءُ ثَلاثاً بَعْدهُنَّ قِيَامي[٣]

---

(١) التبريزي- شرح اختيار المفضل، ج ١، ص ٣٦٤.

(٢) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٣٩. أدلفني: من دلف الشيخ إذا مشى وقارب الخطو من الوهن والضعف.

(٣) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٣٨. العذار من اللجام: ما سال على خدّ الفرس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه الحجج التسعون التي بلغها الشّاعر، كفيلة بأن تقعده عن أي طاقة، أو نشاط، فقد ألقى الشّاعر عندها عصا ترحاله، وعذار لجامه، وقعد مستسلماً لفاعلية الزّمن، وتقلب الأيام، حتى إذا قام، فإنه ينهض متثاقلاً، يستعين براحتيه وعصاه.

وفقدان البصر من مظاهر الكبر الذي يكون صاحبه رهين البيت، يقول عروة بن الورد:

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَدِبَّ عَلَى العَصا فَيَشْمِتَ أَعْدائِي وَيسْأَمني أهلي
رَهِينَةَ قَعْرِ البَيْتِ كلَّ عَشِيَّةٍ يُطِيفُ بِي الوِلْدانُ أَهْدَجُ كالرَّأْلِ[1]

فالشّاعر يسوءه ما آل إليه حاله من هرم، وهو يقدم وصفاً لواقع الإنسان الذي يرميه الدهر بعاهة، فيقف منه أهل زمانه موقفاً ضدياً يسلبونه حقوقه الإنسانية.

ويرسم الشّاعر عدائية واضحة بينه وبين أبناء مجتمعه الذين أخذوا يزدرونه ويشمتون به، فقد أخذ الولدان يطوفون به كفرخ النّعام لا يدري من أمره شيئاً، ولعل الشّاعر يفضل أن يكون رهين البيت تجنباً لإيذاء المجتمع.

وهذه الصورة تعبر عن بعض ممارسات المجتمع الجاهليّ ونظرته إزاء ما يسمى بحقوق الإنسان، وذلك يعني، أن قيمة الإنسان ترتبط بمقدار قوته أو ضعفه. في كل زمان ومكان وليس أقدر على تجسيد صورة الإنسان الهرم من قول ربيعة بن مقروم:

وَمَشَيْتُ باليَدِ قبلَ رِجْلي خَطْوُها رَسْفَ المُقيَّد تحت صُلْبٍ أَحْدبِ
فإذا رأيتُ الشَّخْصَ قلتُ ثلاثةٌ أو واحدٌ وإخالُه لم يَقربِ
وقَضَى بنيَّ الأمرَ لَمْ أَشْعُرْ بِه وإذا شَهِدْتُ أكونُ كالمتَغيّبِ[2]

فالشّاعر لا يخطو إلى الأمام، إلا بعد أن يتلمس الفضاء من حوله، فيقدم رجله بكل انتباه وحذر كأنه مقيد الرجلين يخشى الزلل، وسرّ ذلك، يكمن في أنه أعمى لا يبصر، فكان إذا رأى شخصاً ظنه ثلاثة أو حسبه شخصاً قادماً إليه.

ويمضي الشّاعر في تصوير هرمه حين فقد أبناءه الذين ماتوا دون أن يشعر

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ١١٤. الرأل: فرخ النعام.

(٢) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بذلك، وهذا دليل، على أن هرمه أفقده الذاكرة، فلم يعد يعي الأحداث التي تجري من حوله.

وصورة ذي الإصبع العدوانيّ الآتية، لا تقل أهمية عن الصورة السابقة في تجسيد شيخوخة الإنسان، يقول:

أَصْبَحْتُ شَيْخاً أَرَى الشَخْصَينِ أَرْبَعةً والشَّخْصَ شخصينِ لَمَّا مسَّنِي الكِبَرُ
لا أَسْمَعُ الصَّوْتَ حَتَّى أَسْتَدِيرَ لَهُ لَيْلاً وَإِنْ هُوَ نَاغَانِي بِهِ القَمَرُ
وكُنْتُ أَمْشِي عَلَى الرِّجْلَيْنِ مُعْتَدِلاً فصِرْتُ أَمْشي عَلَى ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ
إذَا أَقُومُ عَجَنْتُ الأَرْضَ مُتَّكِئاً عَلى البَرَاجِمِ حَتَّى يَذْهَبَ النَّفَرُ(١)

يقيم الشّاعر اقتراناً مزدوجاً في حاستي السمع والبصر، ثم يتلو ذلك ثنائية المشي والوقوف،ومحصلة هذه الثنائيات، تقضي بأن الشّاعر استوفى جميع وسائل العيش بما وهب من حواس وقدرة، حتى باتت عاجزة عن الاستمرار في وظائفها العضوية.

لقد أوشك الشّاعر على فقدان بصره، لأنّه يرى الشخص اثنين، والاثنين أربعة وهو لا يسمع إلا دبيب الصوت فيستدير له واهماً، فهو مقعد لا يقدر الوقوف، يستعين بظاهر كفّيه متكئاً على عصا يقيم بها بع أوده.

الدهر

"ليست هناك جماعة إنسانية عاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، دون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها والحال الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها"(٢).

---

(١) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٣٣-٣٤. المناغاة: المكالمة والمغازلة. البراجم: مفاصل الأصابع من ظاهر الكف. وانظر صورة الهرم والشيخوخة ومظاهرها عند: الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٦. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٦٦. الأعشى- الديوان، ص ٢٠٩. عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٤٠-٤١. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٠٣. بشامة بن الغدير- شعره، ص ٢١٩. النمر بن تولب- شعره، ص ٣٧. عمرو بن شأس- شعره، ص ٨٠. خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٤٤.

(٢) محمد عبد الله دراز- الدين، انظر: ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وارتبطت هذه الظواهر بالدهر الذي "ما توجعت العرب من شيء توجعها من الدهر، ولا شكت من أمر كما شكت منه، حتى أوشك حديثها عنه أن يكون صيحة وجع عميق أو أنة شكوى نازفة"[١].

وكلمة الدهر تعني فكرة الزمن وفكرة التهديدات المتعلقة بمرور الزمن وقد تعني كذلك كلمة القدر لمرادفتها الزمن، وقد تعني أيضاً كلمة الأيام التي قد توحي بفكرة عدم الثبات والمصير المجهول[٢]. والمعنى الذي نفهمه من الدهر في الشعر الجاهلي، هو الأبدية، مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم، ولهذا أضافوا إليه بعض الألفاظ التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر وريب الدهر، وعدواء الدهر[٣].

وتأتي كلمة الدهر للدلالة على "المعنى المعقول من إضافة الثبات إلى النفس في الزمان كله، أما الزمان فهو مقدار الحركة موسوم من جهة التقدم والتأخر... وقد يقال: إن الزمان صغير المقدار عن الوهم متصل بالأن الحقيقي من نسه"[٤].

كان للدهر حضور واسع في حياة الإنسان الجاهليّ، فأقام معه علاقة ضدية، ووقف منه متوجساً خائفاً، لأنّه وجد نفسه أمام شيء مجهول، فراح يحاوره ليكشف كنهه وأثره في حياة الإنسان ومصيره.

لقد جعل الشّاعر الجاهليّ نقطة البدء في تفكيره البكاء على الحياة، الشّاعر يروع بفكرة الحياة الذاهبة، إنه يصحو على الشعور المستمر بأن جانباً من العمر قد ولّى، والشّاعر يقف ويستوقف لكي يعالج هذا الشعور، لكي يصور لنفسه أنه حي يملك عقله زمام الماضي ويعيد تخيله وتمثله[٥].

وقد صور الشّعراء الجاهليّون الدهر، وعبروا عن معاناتهم منه، وصبرهم على نوائبه. "ولقد كان الشّعراء العرب يدأبون على مقارعة الدهر والتعرض له"[٦].

---

(١) وهب رومية- الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص ٢٣٧.

(٢) بلاشير- تاريخ الأدب العربي، ص ٤٥٣.

(٣) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ١٥١.

(٤) عبد الأمير الأعسم- المصطلح الفلسفي عند العرب، ص ٢٩٧.

(٥) مصطفى ناصف- دراسة الأدب العربي، ص ٢٣٧.

(٦) إيليّا الحاوي: في النقد والأدب، ج٢، ص ١٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الأسود بن يعفر:

ألا هَلْ لِهذا الدَّهْرِ من مُتعلَّلٍ سِوى النَّاسِ مَهْما شَاءَ بالنَّاسِ يَفْعلِ
فَما زَالَ مَدْلولاً عليَّ مُسلَّطاً بِبُؤسي وَيَغْشَاني بِنَابٍ وَكَلْكَلِ[١]

فالشّاعر ينكر على الدهر فعله بالناس وإلحاق الأذى بهم، وهو يتمنى أن يجد للدهر بديلاً يصرف به أموره ويتعلل به، والشّاعر يعلن استياءه التام من الدهر، لأنّه يقضي على بهجة الإنسان بفعل ما يحدثه من موت ودمار. والدهر لا يعقب سوى التفرق بين الخلان والأصحاب، يقول عنترة:

لا شَكَّ للمرءِ أنَّ الدَّهرَ ذو خَلَفٍ فيه تَفَرُّق ذو إلْفٍ ومألوفُ[٢]

فقد يرى الشاعر في الموت "طارئاً من طوارىء الغدر الذي تنكل فيها الحياة بأبنائها، فالموت عدو مختلس يغتال الحي في غفلة من أهله السعيدين به"[٣].

والشّاعر الجاهليّ يحذر الناس من الأيام، تفادياً لأخطارها، لأنّ جانبها غير مأمون العواقب، يقول ابن الأسلت:

يا بَنِيَّ الأيامَ لا تأْمَنُوها واحذَرُوا مَكْرَها ومَرَّ اللّيالي
واعلَمُوا أنَّ مُرَّها لِنَفَادِ الـ خَلْقِ ما كان مِنْ جديدٍ وَبالي[٤]

يحذر الشاعر أبناءه من غدر الأيام والليالي، فليس فيها سوى تدمير كل جديد وقديم، والتحذير يرمي إلى أن يتجنب الإنسان أمراً فيه عاقبة وخيمة، وهذا يتطلب من الإنسان سلوكاً مضاداً لكي يأمن عاقبته، والشّاعر لم يحذر أبناءه من عاقبة إلا ويدع مقابلها أمراً مستحباً يرغبهم فيه ليأمنوا غوائل الأيام.

والإنسان الجاهليّ، لا يملك إلا أن يستسلم لمصائر الدهر. يقول أبو دؤاد الإيادي:

سُلِّطَ الدَّهرُ والمنونُ عَلَيْهم سوفَ حَقًّا تُبْلِيهِمُ الأيَّامُ[٥]

---

(١) الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٥٦-٥٧.

(٢) عنترة بن شداد- الديوان، ص ٢٧١.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ٣، ص ١٥٩.

(٤) ابن الأسلت- الديوان، ص ٨٧.

(٥) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا يزال الشّاعر محزون القلب بالذين أفناهم الدهر فأفجعه بهم، ويعتقد أنه صدى أرواحهم تحوم حول قبورهم، فيعلل نفسه بهذا الاعتقاد السائد ليخفف مصابه وحزنه.

ويتوحد الإنسان "أمام قدره، وأمام الأرزاء التي تحل به، وأن توسله وتعطفه، لا يعدلان أمراً من واقعه، الإنسان متروك، وليس ثمة من يحفل به حين يفدحه الخطب"(١).

"ونظر الشّاعر الجاهليّ أحياناً إلى الموت وهو يرثي أحباءه من قتلى الأيام نظرات فيها إيماءات فلسفية، أو عدم اكتراث، وذلك في محاولة منه للتخفيف من وقع المصاب، فتراه يقنع نفسه بأن الموت حقيقة واقعة، وبأنه غاية كل حي، ولا سبيل لتخطيه، فلا بد إذن من الصبر على الخطب مهما كان جللاً"(٢).

ولقد آمن الشّاعر الجاهليّ بأن الموت حق، وأن كل إنسان لا بدّ وارده، وليست العبرة هنا بمعرفة الموت وإنما بالإيمان بأحقيته(٣). ولهذا راح الشّاعر الجاهليّ ينكر على من يستعين بالزجر والعيافة ليدرأ بها حوادث الأيام، يقول علقمة الفحل:

وَمَنْ تَعرَّضَ لِلغِرْبانِ يَزْجُرُها ... على سَلاَمتِهِ لا بُدَّ مَشؤُومُ
وكلُّ بَيتٍ وإن طالَت إقامَتُه ... على دَعائِمِهِ لا بُدَّ مَهْدُومُ(٤)

إن فلسفة الشّاعر، تقضي بأن لجوء الإنسان إلى التطير هرباً من أحداث الدهر ونوائبه، أمر يبعث عل إنكار الواقع الذي قد يؤدي إلى إنكار الموت، ومبدأ الشّاعر، ينبني على أن كل فعل يقوم به الإنسان، فإن الدهر يتولى أمر تدميره وهدمه.

والشّاعر الجاهليّ كان شديد الوعي بتقلبات الدهر ومدى فعله بالإنسان، يقول المرقّش الأصغر:

كَمْ مِنْ أخِي ثَرْوَةٍ رأيْتُه ... حلّ عَلَى مالِهُ دهرٌ غشومُ
ومِنْ عَزيزِ الحِمى ذي مَنعَةٍ ... أَضْحَى وقد أثْرَتْ فيه الكُلوم

(١) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ٢، ص ١٨٣.

(٢) منذر الجبوري- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، ص ١٥٠.

(٣) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٧.

(٤) علقمة الفحل- الديوان، ص ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بَيْنَا أَخُو نِعْمَةٍ إِذْ ذهبْت وحوَّلت شقوةٌ إلى نَعِيم
وبَيْنَا ظَاعِنٌ ذو شُقَّةٍ إذ حَلَّ رَحْلاً وإذ خفَّ المُقِيم[١]

إن ما يصيب الإنسان من نعمٍ ومحن، فإنه يعزى إلى الدهر، فثمّة أناس كثيرون كانوا في نعمة من العيش، فأصابهم الدهر بكلكله وغير حياتهم إلى شقاء، والدهر هو الذي يصنع الخير والشر. فالحركات والسكنات لم تكن إلا بفعله.

وكان العرب في جاهليتهم "يضيفون النوازل إلى الدهر، والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر فيجعلون الدهر الذي يفعله، فيذمونه ويسبونه"[٢].

وتأتي صورة الدهر قدراً لا مفر منه في قول أبي ذؤيب الهذلي:

أمِنَ المنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليس بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ
أَوْدَى بَنِيَّ وأَعْقَبُونِي غُصَّةً بعد الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
سَبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لِهَواهُم فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٣]

يتأمل أبو ذؤيب أحوال الكائنات، فيرى الموت قدراً لا مفر منه ثم يقص قصة الثور الوحشي وقصة الإنسان البطل وقصة حمار الوحش، ولعل هذا التعدد يعود إلي عظم مصيبة أبي ذؤيب في بنيه[٤].

ويشعر أبو ذؤيب "أنه عاجز عن الفعل إزاء ما غدر به في موت أبنائه، وأنه موتور لا قبل له بالإباءة بثأره، إلا أن ذلك لا يعدم المعاناة في نفسه وشعور الضيم والقهر يعانيه[٥].

وينظر أبو ذؤيب إلى الموت عبر اكتناه صور تجليه، لا في الإنسان فقط، بل في مملكة الحيوان وصراعاته من أجل البقاء وإنهاء هذه الصراعات بالموت[٦]. وأبو

---

(١) المرقش الأصغر- شعره،ص ٥٤٠-٥٤١.

(٢) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ١٤٩.

(٣) أبو ذؤيب الهذلي- ديوان الهذليين، ج ١، ص ١-٢، هوي: أي هواي، وأعنقوا: وأسرعوا.

(٤) وهب رومية- الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص ٢٨٣.

(٥) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ٢، ص ١٨٣.

(٦) كمال أبو ديب، في الشعرية، انظر: ص ١١١-١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذؤيب وسجراؤه من شعراء هذيل، كانوا مستسلمين لمصيرهم يصرحون أن الموت حق، وأن الخلود محال، فالفناء لاحق بالإنسان والحيوان وكل ذي نسم[١] ولما كانت الأحداث كلها منسوبة إلى الدهر والمنية بعضها فكأنها من مسببات الدهر وأفعاله، وإذا كان كذلك، فالدهر إذن يجب أن يكف عن فعله لا غيره[٢].

وكان لحمار الوحش حضور في الدهر الذي يشكوه الإنسان الجاهلي، يقول أبو خراش الهذلي:

أَرَى الدَّهْرَ لا يَبْقَى على حَدَثَانِهِ أَقَبُّ تَبَارِيه جَدَائِدُ حُولُ
يُطِلُّ على البَرْزِ اليَفَاعِ كَأَنَّهُ مِن الغارِ والخَوْفِ المُجِمِّ وَبِيلُ[٣]

فالشاعر يقص بهذا البيت وما بعده، قصة الحمار الوحشي وجدائده ويتتبعه على البرز اليفاع، ويعكف عليه، وهو يندفع بجدائده إلى الماء، ثم مقابلة الصياد له، لتكون نهايته على يديه، وليكون أروع ختام يختتم به حياة الكائنات وكل شيء مهما يكن إلى فناء[٤].

ويقف الإنسان عاجزاً أمام نوائب الدهر، فيظهر استسلامه؛ لأنّه لا يستطيع مقاومته، يقول عمرو بن قميئة:

رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهرِ مِنْ حَيثُ لا أرى فَكَيْفَ بِمَنْ يُرمَى وَلَيْس بِرَامِ
فَلَوْ أنَّها نبْلٌ إذاً لاتَّقَيْتُها ولَكِنَّنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ[٥]

يجد الشّاعر نفسه مخلوقاً غير مرغوب فيه من الدهر الذي يرفض هذه الثنائية في الوجود الذي يشكل الإنسان طرفاً أساسياً فيه.

فالشّاعر في هذا الإطار الثنائي، يبدي مواجهة جادة للدهر الذي رماه بكوارثه، ويقف حائراً إزاء هذا النمط من الرمي الذي جاء به الدهر، ولو كان

(١) نصرت عبد الرحمن- الواقع والأسطورة، ص ٤٩.

(٢) التبريزي- شرح اختيارات المفصل، ج ٣، ص ١٦٨٣.

(٣) أبو خراش الهذلي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ١١٧-١١٨. أقب: حمار خميص البطن، جدائد: جمع جدود وهي التي لا لبن لها. البرز: ما يبرز للضم. والضم الشمس. الوبيل: العصا الغليظة الشديدة.

(٤) أحمد كمال زكي- شعر الهذليين، ص ٢٠٨.

(٥) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٣٨-٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرمي سهاماً لكان الشّاعر تصدى لها بكل قوة، ولكنها سهام الدهر التي يقف الإنسان عاجزاً أمامها.

فقد يحاول "الإنسان في كل زمان ومكان أن يقهر الزمان، ويصرع الشر، ويسحق الموت، ولكنه لم يلبث أن تحقق من أن صراعه اليائس ضد هذا الثالوث المارد الجبار، إن هو إلا جهد ضائع لا بد من أن يبوء بالفشل والخيبة والدمار"(١).

والإنسان الجاهليّ يعيش حياته تحت وطأة الزّمن الذي يلم بالصالحين من العباد، يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

أطافَ بِنا رَيْبُ الزَّمَانِ فَدَاسَنَا ... لَهُ طَائِفٌ بِالصَّالِحين بَصِيرُ(٢)

والإنسان الجاهليّ قد يصبر نفسه على نوائب الدهر، فيستسلم لفعله، خيراً كان أو شراً، يقول عديّ بن زيد:

إنْ يُصِبْنِي بَعْضُ الأذاةِ فلا و ... انٍ ضَعِيفٌ ولاَ أكَبُّ عَثُورُ
غيرَ أنَّ الأيَّامَ يَغْدُرْنَ بالمر ... ءِ وفيها المَيْسورُ والمَعْسورُ
فاصْبِرِ النَّفْسَ للخُطُوبِ فإنَّ ... الدَّهْرَ يَدْجُو حِيْنا وحينا يُنِيرُ(٣)

فالشّاعر يحمل الدهر مسؤولية الأذى الذي لحقه منه، وبما أن الإنسان معرّض إلى خطوب الدهر في كل حين، فمن الخير أن يعود النفس على فعل الدهر في السراء والضراء، وعلى الإنسان أن يتجلد أمام نوائب الدهر وغيره، فإذا مسه ضر فلا بد أن يلحقه نفع بعد ذلك، فالأيام دول.

والإنسان الجاهليّ كان شديد الحاجة إلى من يعينه على نوائب الدهر، فهذا امرؤ القيس يقدم صورة حياتية باهتة، يشكو فيها الدهر الذي تركه قلقا مهموم البال فيقول:

مَنْ هُنَا لي مِنْ صَدِيقٍ فَلْيَعُدْ ... لِيَعُدْني إنَّنِي اليومَ كَمِدْ
مِنْ خُطُوبٍ تَرَكَتْنِي قَلِقاً ... قَلَقَ المِحْورِ بالكبِّ المَسَدْ
بَيَّتَتْنِي بِهمُومٍ شُرُّعٍ ... خَلَسَتْ نَوْمِي وأخذَتْنِي السُّهُدْ(٤)

---

(١) زكريا إبراهيم- مشكلة الإنسان، ص ١٤١.

(٢) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٣٥.

(٣) عدي بن زيد- الديوان، ص ٩٠. رجل أكب: لا يزال يعثر.

(٤) امرؤ القيس- الديوان، ص ٢١٦. قلق المحور: أي العود الذي يعترض في فلك البكرة، وطرفاه في الخدين. الكبّ: الصوت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد أحاطت الشّاعر خطوب كثيرة صنعها الزّمن، فضيّق عليه حياته وجعله في حالة قلق دائم، وهذه الخطوب سلبته هدوء النفس، وتركته مسهد الجفن، فراح يبحث عن صديق يواسيه ويشاركه همومه.

ويبدو أن الدهر يدع الإنسان وحيداً يجابه معترك الحياة، وهو لذلك في حاجة إلى بني جنسه لمجابهة أخطار الزمان وتحدياته، وبفعل الدهر تنقلب حياة الإنسان فتتبدل نفسه، يقول النّمر بن تولب:

وكُنتُ صَفِيَّ النَّفْسِ لا شيءَ دُونَهُ ... فقد صِرْتُ مِنْ أقْصَى حُبَيبي أنْهَل

تَدَارَكَ ما بَعْدَ الشَّبابِ وقَبلَهُ ... حَوادِثُ أيَّامٍ تمرُّ وأغْفل

دَعَانِي العَذَارَى عَمَّهُنَّ وخِلْتَني ... لي اسْمٌ فلا أُدْعَى به وهو أوَّل[1]

فقد تبدلت نفس الشّاعر وتغيرت بتغير الزمان، وانقلاب الأحوال، فتضاءلت عزيمته، وفترت همته، إلى أن اعتراه الكبر، وذهب رونق شبابه فصارت العذارى ينادينه بالعم دون اسمه للدلالة على هرمه وذهاب عطائه.

فقد ينسب الشاعر كل فعل ألم به إلى قوة خفية عبر عنها بالدهر وبالزمان، وذلك لما يتصوره من مرور الأيام والسنين، وبلاء الإنسان فيه[2]وأن من بين حتميات القد ر، تلك التي يخشى بها على الإنسان كالعاهة والداء والهرم والتغيير[3].

والشّاعر شديد الندم؛ لأنّ الدهر قلب له ظهر المجن، وأنكر عليه فاعليته في الزّمن حين تقدمت به السن، وغدا شيخاً هرماً. وهذا تميم بن مقبل يتساءل عن الدهر، محاولاً أن يكشف كنهه، يقول:

ومَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا ... أمُوتُ وأُخْرَى أبتَغِي العَيْشَ أكْدَحُ

وكِلْتاهُما قَدْ خُطَّ لي في صَحِيفَتِي ... فَلَلْعَيْشُ أشْهَى لي وللْمَوتُ أرْوَحُ[4]

فكل ما يتعرض له الشّاعر من أحداث، إنما هو قدر خط له في صحيفته، وقد. قسم الشّاعر الدهر شقين: حياة كدح وشقاء، وأخرى موت وفناء.

---

(١) النّمر بن تولب- شعره، ص ٨٦-٨٨.

(٢) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب. انظر: ج ٦، ص ١٥٩.

(٣) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، انظر: ج ٢، ص ٣٧.

(٤) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٤-٢٥. أروح: من الراحة ضد التعب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبما أن ذلك قدر مكتوب له، فهو يميل إلى بقاء الإنسان حيا على قيد الحياة، رغم الكد والكدح، في حين، أن الموت مكروه عند النفس الإنسانية إلا أنه مفضل لدى بعض الناس.

فالدهر "مسؤول في نظر أهل الجاهلية عن قوارع الزمان وحوادثه التي تنزل بالإنسان إنه هو المبيد وهو المهلك، وهو المفقر، فهو إذن بالنسبة إلى الجاهلية رأس كل بلاء"[١]. بسبب معرفة بعض الناس أن حظ الإنسان من الدهر يتمثل في الزمن الذي يقضيه حياً، ثم يؤول إلى الفناء والموت "فالتارتان: إحداهما موت والأخرى درب كدح من أجل البقاء، وكلا الطرفين مأساوي، فالكدح صورة من صور الموت، ومن المدهش أن الشاعر لا ينمي رؤياه في إطار الثنائية الضدية المطلقة: الحياة/ الموت معتبراً الدهر ذا وجهين: أحدهما السعادة، والآخر الشقاء، بل في إطار ثنائية مأساوية، كلا وجهيها شقاء وموت"[٢].

والدهر عند حاتم الطائي هو الزّمن السرمد الذي لا ينفد، والإنسان يتحرك بين أشطره، ثم يصير إلى الهلاك، يقول حاتم:

هلِ الدَّهْرُ إلاّ اليَوْمَ أو أمسِ أو غَد ... كذاكَ الزَّمَان بَيْنَنا يَتَرَدَّدُ
يَردُّ عَلَيْنا لَيْلَة بَعْد يَوْمِها ... فَلا نحنُ ما نَبْقَى ولا الدَّهْر يَنْفَدُ[٣]

وثنائية الوجود التي أقامها الشّاعر الجاهليّ مع الدهر، تنتهي بغلبة الدهر على الإنسان الذي يقر أنه طعام لريب المنون. يقول أبو دؤاد الإيادي:

إنما النَّاسُ فَاعْلَمنَّ طَعَامٌ ... خَبَلٌ خابِلٌ لِرَيْبِ المنُونِ
عَطَف الدَّهرُ بالغداء وبالمو ... تِ عَلَيْهِم يَدورُ كالمجْنُونِ
كلُّ من يَنْزِلُ السُّهُولَةَ فالحَزْ ... نَ إلى غَايةٍ وأهلُ الحُصُونِ[٤]

فالإنسان يمثل عنصر الانهيار والانعدام أمام فاعلية الزّمن الذي يدور على الناس بالفناء والموت، حتى لو كانوا في حصون ممنعة.

---

(١) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٢، ص ١٤٩.

(٢) كمال أبو ديب- الرؤى المقنعة، ص ٦٦.

(٣) حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٤.

(٤) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى السّليك بن السّلكة الدهر يتحرك ضمن محورين، هما المواجهة المباشرة أو الخداع والمراوغة، يقول:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ لونانِ لونُه وَطَوْرانِ بَثْرٌ مَرَّةً وكَذوبُ[١]

والدهر يوقع نكباته على الإنسان، المرة تلو الأخرى، يقول عديّ بن زيد:

فَوَّقَ الدَّهْرُ إلينا نَبْلَهُ عَلَلاً يَقْصِدُنا بَعْدَ نَهَلْ
فَهْوَ يَرْمِينا نُبْصِرُهُ فِعْلَ رَامٍ رامَ صَيْداً فَخَتَلْ
رُزِقَ الصَّيْدَ وَلاقَى غِرة فَرَمَى مُسْتَمْكِناً ثُمَّ قَتَلْ
فَلِذَاكَ الدَّهْرُ مَأْمورٌ بِنا فَهْوَ لاَ يَغْفَلُ إنْ شَيءٌ غَفَلْ[٢]

فصورة الدهر تتمثل في صياد يروم صيداً فيصطاده المرة تلو الأخرى خلسة على حين غرّة.

وقد يكون افتراضنا صحيحاً إذا قلنا بأن كل ذي قوة يقتنص ما هو أضعف منه عن طريق التخفي، فأيّما شيء يصاد، فإنه يكون خفية، بمعنى أن القنيص يؤخذ على حين غرة دون أن يرى القانص.

ويصور الشاعر الإنسان، رهينة للدهر يتضمن جبرية مطلقة، ثم يصور الدهر صياداً للأحياء، وهي صورة تشكل عمود كثير من الرثاء الذي يستخدم قصص الحيوان[٣].

وكذلك حال الدهر في رأي الشّاعر، فإنه يوقع نكباته تتـرى على الإنسان فتراه يتربص له كما يتربص الصائد لفريسته، وهذا يعني أن الدهر ينفذ أوامر قوة أعلى تتمثل قطعاً بقوة السماء.

ومعرفة الإنسان الجاهليّ تقلبات الدهر، وما ينجم عنها من متغيرات، هي في حكم الزّمن نتاجات لتجارب حياتيه، كان الإنسان أحد معاييرها، يقول الأفوه الأودي:

فَصُروفُ الدَّهْرِ في أَطباقِهِ خِلْعَةٌ فيها ارْتِفَاعٌ وانْحِدَارُ

(١) السّليك بن السلكة- شعره، ص ٤٥.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ٩٩. العلل: الشرب الثاني. النّهل: أول الشرب.

(٣) مصطفى جياووك- الحياة والموت، انظر: ص ٣٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بَيْنَما النَّاسُ عَلَى عَلْيَائِها إذ هَوَوْا في هُوَّةٍ مِنْها فَغَارُوا[١]

فقد صور الشّاعر صروف الدهر كالخلعة تقلباً وتغيراً، وترى الإنسان لا يستقر على حال، فقد يكون في العلياء، ثم سرعان ما يأخذ بالانحدار.

والإنسان الجاهليّ، خدع بالبريق الزائف الذي زيّنه له الدهر، حتى غدا منه حذرا لكثرة نوائبه وفواجعه، يقول عديّ بن زيد:

قَدْ أرانا وأهْلَنا بِحَفِيرٍ نَحْسَبُ الدَّهْرَ والسِّنينَ شُهُورا
فَأَمِنَّا وغَرَّنا ذاكَ حتَّى راعَنَا الدَّهْرُ قَدْ أتانا مُغِيرا[٢]

فبعض الناس يطمئن للدهر، فيغّر بما يغدقه عليه من نعم، حتى يكاد يشعر أن عمره الذي قضاه، ليس سوى شهور قليلة، ثم سرعان ما ينقلب الدهر فيبدل سعادته شقاء، ويهدد حياته بالفناء والموت بعد أمن وسرور. وهكذا شأن الدهر، فإنه يبلي الإنسان ويهلكه، بعد أن يظهر له جانباً مضيئاً فيطمع فيه.

ويعبر الشاعر عن "شكوى مرة من الزمن وتقلباته، وهذا طبيعي في مجتمع رعوي تقوم الحياة فيه على ما تعطيه السماء من أمطار[٣] والمرء بداهة لا يستطيع أن يستظل من عوادي الحياة[٤] يصف الدهر بالخيانة والغدر والعدوان والخداع[٥].

واتخذ الإنسان الجاهليّ الدهر سلاحاً للشامتين، فغدا ظهيرا لأناس، وعدوا لآخرين، من ذلك ما يقوله ذو الإصبع العدوانيّ محاولاً أن يهدد أعداءه الشامتين بالدهر:

إذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ كَلَاكِلَهُ أنَاخَ بآخرِينا
فَقُلْ للشَّامِتِينَ بِنَا أفِيقُوا سَيَلقَى الشَّامِتُون كَما لَقِينَا
كَذاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِجَالٌ تَكِرُّ صُرُوفُهُ حِيْناً فَحِينَا

---

(١) الأفوه الأودي- شعره، ص ١١.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ٦٤.

(٣) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٢٨٤.

(٤) مصطفى ناصف- دراسة الأدب العربي، ص ٣٠٣.

(٥) مصطفى جياووك- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمَنْ يُغْرَرْ بِرَيْبِ الدَّهْرِ يوماً يَجِدْ رَيْبَ الزَّمانِ لَهُ خَؤُونَا[١]

يفرز النص شريحة اجتماعية، تتمثل بفئة الشامتين الذين يفرحون لمصائب الآخرين، متناسين أن الدهر دول وسجال، فما يصيب قوماً إلا وينتقل إلى آخرين، فليس من إنسان يفوته ريب المنون، ومن يُعتقد أنه ناجٍ من براثن الدهر فهو الجاهل بصروفه ونوائبه.

وقد يتراءى للمرء أن "الزمان مستضعف أمام الإنسان بدلاً من أن يكون الإنسان هو المستضعف أمام هول الزمن"[٢] والإنسان يستطيع أن يدفع عن نفسه كل شيء إلا الزمان، إن كان قد بقي بعده شيء غير الموت. فالزمان هو المرجع الأخير في تعريف جوهره؛ لأنه المفصلة التي يتعاطاها في وجوده، والإنسان كائن يتلجلج بين الزمان والموت، وكل ما سوى ذلك يقصيه عن حقيقته البشرية[٣].

ويعجب عديّ بن زيد ساخراً من جهل الشامتين الذين يزعمون أنهم مبرأون من نوائب الدهر، يقول:

أيها الشَّامِتُ المُغَيِّرُ بالدَّهـ ـرِ أأنْتَ المبَرَّأُ المَوْفورُ؟
أمْ لَدَيكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأيـ ـامِ بَلْ أنْتَ جَاهِلٌ مَغْرورُ
مَنْ رَأَيْتَ المَنُونَ خَلَّدْن أمْ مَنْ ذا عليهِ مِنْ أنْ يُضَامَ خَفِيرُ[٤]

فالشّاعر يتحدى الشامتين الذين يعيّرون من حلت بهم مصائب الدهر، فيظنون أنهم بريئون من ذلك، جهالة منهم وغرورا، والشّاعر يستخف بهذه الفئة التي يراها تفتقر إلى المنطق والفكر، فتدّعي بما لا تعلم.

والدهر في رأي الإنسان الجاهليّ، هو القوة التي تحدث عنصر التدمير يقول امرؤ القيس:

وَقَدْ طَوَّفْتُ في الآفاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإيابِ
أبَعْدَ الحَارِثِ المَلِكِ بنِ عَمْرٍو وبَعْدَ الخَيْرِ حُجْرٍ ذِي القبابِ

(١) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٨٣.

(٢) أمين الريحاني- مدار الكلمة، ص ٤١.

(٣) لطفي عبد البديع- التركيب اللغوي للأدب، ص ١٣٩.

(٤) عدي بن زيد- الديوان، ص ٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أُرجِّي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لينا ولَمْ تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضَابِ
وأعْلَمُ أنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سأَنْشَبُ في شَبَا ظُفُرٍ وَنَابِ
كَما لاَقى أبِي حُجْرٌ وجَدِّي ولا أنْسَى قَتِيلاً بالكُلابِ(١)

فعلاقة الشّاعر بالدهر، تقوم على تهيئة النفس لمواجهة الموت، وهذا يعني أن مقاومة الإنسان لفعل الدهر لا حضور لها. والشّاعر هنا، يقر حقيقة الموت معتقداً به من خلال أحداث الزمان.

والشّاعر بعد أن أدرك مصير آبائه وأجداده، فإنه لم يعد يطلب من الدنيا سوى القبول بأبسط وسائل العيش المتمثل ببقائه سالماً من حوادث الدهر، وهذه نظرة فلسفية ترتبط بفكر إنساني، يعتقد بأن جميع المخلوقات محكومة بالدهر ونوائبه. تقول الخنساء:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى بِرَيْبِ الدَّهْرِ مَرْجُومُ وكُلُّ بَيْتٍ طَوِيلِ السَّمْكِ مَهْدُومُ
لا سُوْقَةٌ مِنْهُمُ يَبْقَى ولا مَلِكٌ مِمَّنْ تُمَلِّكُهُ الأحْرارُ والرُّومُ(٢)

فالناس في رأي الخنساء، أحراراً وسوقة، متساوون أمام فواجع الدهر ونوائبه، وهذا يعني، أن كل ما يلده الدهر من أحياء وغير أحياء راجع إليه لا محالة، فالدهر هو الذي يبني ثم يعود إلى الهدم.

وحاول الإنسان الجاهليّ أن يتشبث بكل قوة ليدفع بها عنه نوائب الدهر وصروفه، يقول الأعشى:

وأهْلُ غُمْدَانَ جَمَّعُوا لِلدَّهْرِ مَا يَجْمَعِ الخِيَارُ
فَصَبَّحَتْهُمْ مِنَ الدَّوَاهِي جائِحَةٌ عَقْبُها الدَّمَارُ(٣)

فالإنسان مهما حاول أن يجمع كل الأسباب التي تحول دون وقوع المصائب فلن يفلح في ذلك، لأنّ الدواهي ستنزل بالإنسان شاء أم أبى.

---

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ٩٩-١٠٠. القباب: الأبنية .أراد بالقتيل عمّه شرحبيل بن عمرو.

(٢) الخنساء- الديوان. ص ١٢٣. الأحرار: الفرس.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ٣١٧. غُمدان: أشهر قصور اليمن وعمائرها القديمة. الخيار: الذهب، والمال مطلقا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن تقبل هذه الدواهي والتجلد لها يختلف من شخص لآخر، فهذا دريد ابن الصمة يصور أحسن ما قيل في الصبر على نوائب الدهر:

تَقُولُ ألا تَبْكِي أخاكَ وَقَدْ أرى ... مَكانَ البُكا، لكنْ بُنِيتُ على الصَّبْرِ
فَقُلتُ أعَبْدَ اللهِ أبْكِي أمِ الَّذِي ... لهُ الجَدَثُ الأعْلَى قَتِيلَ أبي بكْرِ
وَعَبْدُ يَغوثَ تَحْجُل الطَّيرُ حوْلَهُ ... وَعَزَّ المُصَابُ جِئْو قَبْرٍ على قَبْرِ
أبَى القَتْلُ إلاَّ آلَ صِمَّة إنَّهمْ ... أبَوا غَيْرَهُ والقَدْرُ يَجْرِي إلى القَدْرِ
فَإنَّا لَلَحْمُ السيف غَيرَ نَكِيرَةٍ ... ونَلْحَمُهُ حينا ولَيسَ بِذي نُكْرِ
بِذَاكَ قَسَمْنا الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ قِسْمَةً ... فَما يَنْقَضِي إلاَّ وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ[١]

ويتجسد تسيب الزمن في الإحساس بالكآبة الذي توحي به الخرائب والقبور[٢] وهكذا تتشكل القصيدة في إطار رؤية الزمن والموت من حركة فناء تجسد فاعلية الزمن التدميرية وانهيار الوجود الإنساني الجماعي وتفتت العالم، ومن حركة مضادة تؤسس الصلابة والمناعة والقوة في وجه هذا الزمن المدمر[٣].

فالنوائب التي ألمت بالشّاعر فأفنت إخوته أعزّ ما لديه، قد أكسبته الصبر والتجلد، حتى غدا أمامها عاجزاً عن البكاء لشدة هولها وما أحدثته من فواجع.

ولعل كثرة المحن، هي التي منحتهم شدة البأس والقوة، فقادهم ذلك إلى أنهم قسموا الدهر شطرين مع أعدائهم، بصرف النظر عن النتائج سلباً كانت أو إيجاباً. فالدهر مقسوماً شطرين ،يعني احتواءه على سلسة من الأحداث الزمنية المتعاقبة التي ما إن تحل بأناس فتفنيهم إلا وتعد آخرين، وهذا يشيرإلى "أن الزمان أقصر من الدهر، إذ يقع على الزمان القصير، أما الدهر فالزمان الدائم، أي الزمان الذي لا ينتهي بنهاية"[٤]. وممن تجلدوا لنوائب الدهر عمرو بن معد يكرب، يقول:

كَمْ مِنْ أخٍ ليَ صالحٍ ... بوَّأْتُه بَيَدَيَّ لَحْدا
ما إنْ جَزِعتُ ولاَ هَلعْـ ... ـتُ ولا يردُّ بُكايَ زَنْدا

---

(١) دريد بن الصمّة- الديوان، ص ٦٣-٦٤. ألحمه: أطعمه اللحم.

(٢) كلود بيشوا- الأدب المقارن، ص ١٤٢.

(٣) كمال أبو ديب- الرؤى المقنعة، ص ٤٨٧.

(٤) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ١٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذَهَبَ الَّذينَ أحبُّهمْ وَبقِيتُ مِثلَ السَّيفِ فَرْدا[١]

إن كثرة النوائب التي أحدثها الدهر فألمت بالشّاعر، أكسبته صبراً وجلدا، فقد فجع بإخوانه، وتولى تكفينهم بنفسه، فكأنه غدا أمام تحدي الزّمن والمجتمع معا، وتجلد الشّاعر لهذه الأحداث التي كانت بمنزلة اختبار وابتلاء، فقد ألبسه الزّمن ثوب الصبر، وبقي فريداً كالسيف مضاءً أمام نوازل الدهر، بعد موت خلانه وأحبائه، فأخذ يتجلد أمام قوارع الأيام وحده بعد أن أحدث فيه موت أحبائه العزلة والانفراد ، لكن طموحه كان يسعى به إلى أن يتبوأ مكان الصدارة في قومه.

وإزاء هذا النمط من الحياة، فقد يتناهى إلى الشّاعر إحساس بالعزلة التي ينفذها الزّمن ضد الوجود الإنساني، يقول النابغة الجعدي:

سَماَ لكَ همٌّ وَلَمْ تَطْرَبِ وَبِتَّ بِبَثٍ وَلَمْ تَنْصَبِ
وَقَالَتْ سُلَيمَى أرَى رأسَهُ كناصِيَةِ الفَرَسِ الأشهَبِ
وَذَلِكَ مِنْ وَقَعَاتِ المنون فَفِيئي إليكِ ولاَ تَعْجَبِي
أتَيْنَ عَلَى إخوَتي سبْعَةً وَعُدْنَ عَلَى رَبْعِيَ الأقْرَبِ
وسَادةِ رَهْطِيَ حَتَّى بَقِيـ ـتُ فَرْداً كَصِيصِيَةِ الأعْضَبِ[٢]

فقد ينعى الشاعر على نفسه لما حل به من نكبات الدهر وفواجع الزمن، فقد تركه الدهر وحيداً يشكو مصابه العظيم إخوته وسادات رهطه، ونظرة الشاعر إلى الدهر قد تؤدي "إلى التشاؤم وإلى القنوط والتوجع، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان، ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية يبكون أيامهم ويتوجعون؛ لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع، إنه عالم الشيخوخة أو عالم الموت، أو عالم الفقر"[٣].

والصبر على نوائب الدهر، من الصفات الإنسانية الحميدة، وكان المجتمع الجاهليّ يعد ذلك من المكارم التي يتصف بها الإنسان، يقول لبيد بن ربيعة:

إنِّي أُقاسِي خُطوباً ما يقومُ بِهَا إلاَّ الكِرامُ عَلَى أمْثالِها الصُّبُرُ

---

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦٥-٦٦.

(٢) النابغة الجعدي- شعره، ص ١٢-١٣. البث: الحزن. الصيصية: القرن، وجمعه: صياصي. الأعضب: المكسور القرن.

(٣) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، انظر: ص ١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِنْ فَقْدِ مَوْلىً تَصُورُ الحي جَفْنَتَهُ أو رُزْءُ مالٍ ورزءُ المالِ يُجْتَبَرُ
وَلاَ أقولُ إذا ما أزْمَةٌ أزَمَتْ يا وَيْحَ نَفْسِي ممّا أحْدَثَ القدر(١)

فالخطوب التي يعاني الشّاعر ويلاتها، لا يحتملها إلا من خَبِرَ فواجع الدهر ونكباته، وعاشها واقعاً وتجربة.

"وعندما تشتد على الإنسان صروف الدهر، وتتوالى عليه ألوان القسوة، يجد في حديث الغربة شفيعاً للمناجاة، وفي دلالات الحنين وسيلة لزوال الكرب"(٢).

وقد رزىء الشّاعر بأبناء عمومته الكرام النجباء، فَحُقّ له أن يتفجع عليهم، وأن الرزء بالإنسان أشدّ إيلاما من الرزء بالمال والمتاع، وفوق هذا فالشّاعر متجلد كلما عضته نائبة أو حلت به جائحة.

والدهر يضرب به المثل في إحداث عنصر التغيير في أوجه الحياة المختلفة، فلا يكاد يدع شيئا مجتمعاً إلا ويحدث فيه انقساما وفرقة، يقول الأعشى:

قَدْ يَتْرُكُ الدَّهْرُ في خَلْقَاءَ راسِيَةٍ وَهْياً ويُنْزِلُ مِنْهَا الأعْصَمَ الصَّدَعا
وَكَانَ شَيْءٌ إلَى شَيْءٍ فَفَرَّقَهُ دَهْرٌ يَعُودُ عَلَى تَشْتِيتِ ما جَمَعَا(٣)

فقد نظر الشّاعر إلى أشياء الطبيعة، ومخلوقات الكون أحياء وجمادات فرأى أن ما من شيء فيها، إلا أصابه صدع أو خطب مما أحدثه الدهر، فالصخور الراسية والوعول التي تعتصم في أعالي الجبال لا تسلم من غوائل الدهر.

---

(١) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٦٣-٦٤. تصور: تجمع وتعطفهم عليها. رزء مال: إعطاء مال يعود بعد ذهابه.

(٢) نوري القيسي- محاولات في دراسة اجتماع الأدب، ص ٨٣.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ١٣٧. خلقاء: صخرة صلبة ملساء. وانظر صورة الدهر ونوائبه عند: عدي ابن زيد- الديوان، ص ٣٩-٤٠، ٥٦، ٨٢-٨٣، ٩٠، ١٥٠، ١٥٤، ١٨٠، ١٨٤. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣٥-٣٦، ١٧٣، ١٠٨-١٠٩، ٢٧٢-٢٧٦. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٥٩-٦٠، ٢٤١، ٢٧٢، ٣٠١-٣٠٢. الخنساء- الديوان، ص ١٨٦-١٨٩، ٢٢٣-٢٢٥، ٢٧٣-٢٧٥، ٣١٨. حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٠، ٣٣. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٥٥-٥٦، ٦٩-٧٠. عنترة- الديوان، ص ٢٥٢. عروة بن الورد- الديوان، ص ٥٠، ١٣١. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤٢، ١١١-١١٢. امرىء القيس- الديوان، ص ١٢٦. عمرو بن قميئة- الديوان، ص٣٩. الأعشى- الديوان، ص ١٧١. بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١١. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٢٥-٢٦. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦٣-٦٤، ١٣٢. أمية بن أبي الصّلت- الديوان، ص٤٢٧. مصرف بن الأعلم- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٧٩. ساعدة بن جؤية- ديوان الهذليين، ج ١، ص ١٨٣-١٨٤، ٢٤٠-٢٤١، أبي ذؤيب الهذلي- ديوان الهذليين، ج ١، ص ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجاهلي كان يعمد إلى الحسيات المادية يقرن بها المعاناة النفسية كي يمنحها وجوداً فعلياً نافذاً[١] فالزمن هو قوة الموت الجارفة التي لا مهرب منها، والتي تنال الإنسان مهما بلغت مناعة الحصون التي يضربها حول نفسه في مواجهة الموت[٢].

الميسر

كان الميسر من مفاخر العرب، لأنهم كانوا يفعلونه أيام الشدة، وعدم اللبن وأيام الشتاء[٣].

وكانوا أكثر ما يجتمعون على الميسر بالليل، ويوقدون ناراً لذلك، ثم يؤخذ ثوب شديد البياض، فيلف على يد رجل يسمونه "الحُرضة"، ويسمى ذلك الثوب "المِجْوَل" وإنما يجعل ذلك الثوب على يده ليغشى بصره فلا يعرف قدح زيد دون عمرو، هذا بعد أن يلف كفّه بقطعة من جراب؛ لئلا يجد مسّ قدح يكون له مع صاحبه محاباة، فإذا أخذ القداح لم ينظر إليها، وبعضهم يقول يجعلها في الربابة، وهي خريطة، ويجلس خلفه آخر ويسمى الرقيب ويسمى أيضاً رابيء الضرباء، يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبي لهم فيما يخرج من القداح، فيخبرهم به، ويعتمدون على قوله فيه، ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به، ثم يفيض بالقداح فإذا نشز منها قدح استله الحرضة من غير أن ينظر إليه، ثم تأوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه إلى صاحبه فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز، فإن شاء بعد ذلك أمسك. وإن شاء أعاد السهم على خطار آخر وهو السبق يراهن عليه[٤].

وعلاقة الإنسان الجاهليّ بالميسر والقداح متعددة الأبعاد والجوانب، يقول الأعشى في علقمة بن علاثة:

إنِّي رَأَيْتُ الحَرْبَ إنْ شَمَّرَتْ ... دارَتْ بِكَ الحربُ مَعَ الدَّائِرِ
حَوْلي ذَوُو الآكَالِ مِنْ وَائِلٍ ... كَاللَّيْلِ مِنْ بَادٍ ومِنْ حَاضِرِ

(١) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ٢، ص ١٨٦.

(٢) كمال أبو ديب- الرؤى المقنعة، ص ٤٨٦.

(٣) الآلوسي: بلوغ الأرب في، ج٢، ص ٥٤.

(٤) الآلوسي: بلوغ الأرب في، ج٣، ص ٦١-٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المُطْعِمُو اللَّحْمَ إذا ما شَتَوْا والجَاعِلوُ القُوتَ عَلَى الياسِرِ
مِنْ كُلِّ كَوْماءَ سَحُوفٍ إذا جَفَّتْ مِنَ اللَّحْمِ مُدى الجَازِرِ[١]

يصف الشّاعر حال الناس والأقوام في أثناء الحرب، فهو يسخر من قوم علقمة بن علاثة، فهم ضعفاء في الحروب، يعجزون عن تحمل نتائجها، ثم يفخر بقومه الذين إذا اشتدت بهم الخطوب، وضاقت علهم الأرزاق، فهم يقومون باختيار ناقة ضخمة تراكم الشحم على سنامها، فيذبحونها ويقامرون عليها.

وكانت العرب في أيام الشدة والقحط، تنتقي الإبل السمينة، فتجعلها بأيدي لاعب القداح، يضربون قداحهم حتى تفوز، يقول طرفة بن العبد:

إنِّي مِنَ الْقَومِ الَّذينَ إذا أزِمَ الشِّتاءُ وَدُوخِلَتْ حُجَرُهْ
رَفَعوا المَنِيحَ وَكانَ رِزْقُهُمُ في المُنْقِياتِ يُقِيمُهُ يَسَرُهْ
شَرْطاً قَوِيماً لَيْسَ يِحْبِسُهُ لمّا تَتابَعَ وِجْهَةً عَسَرُهْ[٢]

فقد جعل العرب في جاهليتهم نحر الأبل الضخمة شرطاً لضرب قداحهم، فيصبون المنيح، وهو القدح المتعالم بالفوز، حتى يأكلوا ما رزقوا من سهام الجزور فلا يبقى ذو عسرة أو جائع بينهم.

وكانت الجزر التي تذبح يستفيد منها جميع فئات المجتمع، أغنياء، وفقراء، وهي لكثرتها فإنها تعمل على إزالة الطبقية الاجتماعية، لأنّ كل واحد له نصيب منها، "وكان الجاهليون الأغنياء يلعبون الميسر على إبل لهم، وفي الشتاء خاصة، ثم يفرقون لحومها على الناس، ولا يأكل اللاعبون منها شيئاً، سواء الرابحون منهم والخاسرون"[٣] وفي ذلك كان مدعاة للفخر عندهم، يقول طرفة بن العبد:

وَهُمُ أيْسَارُ لُقْمانَ إذا أغْلتِ الشَّتْوَةُ أبْداءَ الجُزُرْ
لا يُلِحُّونَ عَلَى غَارِمِهِمْ وعَلَى الأيْسَارِ تَيْسيرُ العَسِرْ[٤]

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ١٨١. الياسر: الذي يلعب به الميسر. الكوماء: الناقة الضخمة. ناقة سحوف: كثيرة الشحم.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٢٥. المنيح: قدح متعالم بالفوز، فهو يمتنح ويستعار. المنقيات: سمان الإبل. اليسر: الضارب بالقداح.

(٣) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٨.

(٤) طرفة بن العبد- الديوان، ص ٧٢. لقمان: وهو لقمان بن عاد، وأيساره من العمالقة، أبداؤها: أشرف أعضائها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقوم الشّاعر، كرام، ينحرون الجزر إذا اشتدت بهم المحن، وأيسارهم كثيرة كأيسار لقمان، يجودون بها على ذوي العسرة، ويعطون نصيباً منها للفقراء يجعلونه دينا عليهم حتى ييسروا، وكانت هذه العادات من مفاخر العرب في الجاهليّة، يقول زهير بن أبي سلمى:

قد كنتُ أعْهَدُهُم وخيلَهُمُ يَلْقَونَ قُدْماً عَورةَ الأعداءِ
أيسارُ صدق، ما عَلِمْتُهُمُ عِندَ الشِّتاءِ وقِلَّةِ الأنْوَاءِ[١]

فالشّاعر يفخر بأبناء قومه وهم يجودون بما لديهم من أيسار، فيقدمون لحوم الجزار طعاما لهم في أوقات الشدة والجدب "فكانوا لا يضربون على الميسر بالقداح إلا في الشتاء عند جدب البلاد وتعذر الأقوات، وكلب الزمان ليتعيشوا بذلك الفقير والضرير[٢].

وقد وصلت ظاهرة المقامرة على نحر الجزر بين عرب الجاهليّة إلى درجة المراهنة بين المقامرين أنفسهم، فوسمت بالعبثية الاقتصادية، أو هدر الأموال، يقول لبيد بن ربيعة:

وَجَزُورِ أيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِها بِمَغَالِقٍ مُتشَابِهٍ أجْسَامُها
أدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أو مُطْفِلٍ بُذِلَتْ لِجيرَانِ الجَمِيعِ لِحَامُها
فالضَّيْفُ والجارُ الجَنِيبُ كأنَّما هَبَطا تَبَالَةَ مُخْصِباً أهضَامُها
تأوِي إلى الأطْنَابِ كلُّ رَذِيَّةٍ مِثْلُ البَلِيَّةِ قالِصٌ أهْدَامُها[٣]

فالمقامرون، يتسابقون على نحر المغالق من الأبل، ويراهن بعضهم بعضا عليها سواء كانت عاقراً لسمنها، أو مطفلاً لقيمتها، يقدمونها للضيفان، أقرباء كانوا أو غرباء، فتأوي اليهم الفقراء والمساكين والأرامل من النساء، فيأخذون نصيبهم من لحمها.

ولعل هذا الإسراف، في نحر الجزر والتسابق عليه بين أبناء المجتمع الجاهليّ يرمي إلى هدفين: الأول، تحقيق التآلف الاجتماعي عن طريق تعميم هذه العادة

(١) زهير بن أبي سلمى- الديوان، ص ٢٠٤. القدم: الإقدام والجرأة.

(٢) محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ١٤٣.

(٣) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣١٨-٣١٩، الأيسار: المضاربون بالقداح. المغالق: القداح لأنه يغلق بها الرهن. الجنيب: الغريب. الأهضام: بطون الأودية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المستحبة، والآخر، تحقيق البعد الإنساني الذي يكمن في مساعدة الفقراء والمحتاجين حين تشتد بهم الأزمات، ولذلك راح أغنياء المجتمع الجاهليّ ينحرون الجزر بصورة متعمدة ومقصودة لتحقيق مثل هذه القيم الإنسانية.

وكان العرب إذا ضربوا بالقداح لم يفحشوا ولم يسفهوا لأنهم لا يريدون بيسرهم نفع أنفسهم، إنما يطعمونه الناس، يقول المرقش الأكبر:

إذا يسروا لم يورث اليسر بينهم فواحش ينعى ذكرها بالمصايف

فضرب القداح، إنما يكون في الشتاء، ويعير من عُير بسوء فعله في الصيف إذا أخصب الناس[١].

والضرب بالميسر والقداح، قد يعود على أبناء المجتمع بالفائدة، فتتحقق فيهم السيادة والزعامة، يقول تميم بن مقبل:

يَاعيْنِ بَكِّي حُنَيْفاً رَأْسَ حَيِّهِمُ الكَاسِرِينَ القَنَا في عَوْرَة الدُّبُرِ
والضَّارِبِينَ بأَيْدِيهِمْ إذا نَهدَتْ مَثْنَى القِدَاحِ وحُبَّتَ فَوْزَةُ الخَطَرِ
فِتْيَانُ صِدَقٍ وأَيْسَارٌ إذا افتَرشُوا أَقْدامَهُمْ بَيْنَ مَلْحُوفٍ ومُنعَفِرِ
شُمُّ العَرَانِينِ تُنْسِيهِمْ مَعَاطِفَهُمْ ضَرْبُ القِدَاحِ وتأْرِيبٌ عَلَى العَسِرِ
لاَ يَفْرَحُونَ إذا مَا فَازَ فَائِزُهُمْ ولاَ تُرَدُّ عَلَيْهِمْ أُرْبَةُ اليَسَرِ
هُمُ الخَضَارِمُ والأَيْسَارُ إنْ نُدِبُوا فَلاَ تُجِيلُ قِدَاحاً رَاحَتَا بَشَرِ[٢]

فالشّاعر يفخر بقومه أنهم يضربون القداح في الميسر، فيفوز قدحهم من أول مرة، فهم ذوو حظوة وبأس، كرماء، لا يمنعون الطعام عن أضيافهم، فهم أغنياء موسرون، يتميزون بعلو الهمة وشرف النفس، فقد اعتادوا على الفوز، وهم إذا قعدوا للضرب في القداح فإنها تنسيهم معاطفهم لسرورهم بها.

واستعار الشّاعر الجاهليّ عظم الريم الذي يفضل من الجزور ولا فائدة فيه، لتوظيفه في غرض الهجاء. يقول أوس بن حجر:

وكنْتُم كَعظْمِ الرِّيم لِم يَدْرِ جازِرٌ على أيِّ بَدْأيْ مَقْسِمِ اللَّحْمِ يُوضَعُ[٣]

---

(١) التبريزي- شرح اختيارات المفضل ج ٢، ص ١٠٣٦-١٠٣٧.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٨٢-٨٥، شم العرانين: كناية عن الرفعة، التأريب: الإتمام. الأربة: الإحكام والتشدد. الخضارم: الكرام.

(٣) أوس بن حجر- الديوان، ص ٦٠. الريم: عظم يبقى بعدما يقسم لحم الجزور والميسر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر، يسفه هذه الفئة، ويقلل من مكانتها الاجتماعية؛ لأنّها تشكل عالة على سائر المجتمع، فهي فئة منبوذة، أريد لها أن تبقى في عزلة اجتماعية.

واتخذ الإنسان الجاهليّ الميسر للمقامرة به على المنية، ظناً منه أن فوزه بالأقداح يمنحه البقاء والخلود، يقول النابغة الذّبياني:

وَنَحْنُ نُرجِّي الخُلْدَ إنْ فَازَ قِدْحُنا ونَرْهَبُ قِدْحَ الدَّهرِ إن جَاء قَامِرَا[١]

فقد تراءى للشاعر، أن طول البقاء مرهون بفوز الأقداح، وهذا التصور أبطله السموأل بن عادياء في قوله:

إنَّ امْرَأً أمِنَ الحَوادِثَ جَاهِلٌ يَرجُو الخُلودَ كَضَارِبٍ بِقِدَاحِ[٢]

فالضرب بالأقداح في رأي الشّاعر قد يحقق الفوز أو عدمه، وكذلك فإن المرء يصل به الجهل إن كان يظن أنه سيبرأ من الحوادث، وينجو من غوائل الدهر. فقد يكون المرء ذا حظوة في حياته فينجو من نوائب الدهر، وقد يكون غير ذلك.

ومن جيد ما وصفت به القداح، قول عمرو بن قميئة:

بوِّدك ما قَومِي على أن تَرْكتِهم سُلَيْمَى إذا هَبَّتْ شِمالٌ وريحُها
إذا النَّجْمُ أَمْسَى مَغْرِبَ الشَّمْسِ دائباً ولم يَكُ برقٌ في السَّماءِ يُلِيحُها
وغابَ شُعاعُ الشَّمسِ في غَيْر جُلْبَةٍ ولا غَمْرةٍ إلاَّ وَشِيْكاً مُصُوحُها
وَهاجَ عَمَاءٌ مُقْشَعِرٌّ كأنَّهُ نَقِيلَةُ نَعْلٍ بانَ مِنْها سَرِيحُها
إذَا أعْدَمَ المَحْلوب عَادَتْ عليهم قُدُورٌ كَثِيرٌ في القِصَاعِ قَدِيحُها
يثوبُ إليها كُلُّ ضَيْفٍ وجَانِبٍ كما رَدَّ دَهْداةُ القِلاَصِ نَضِيحُها
بِأيدِيهِمُ مَقْرُومَةٌ وَمَغَالِقٌ لَها كَوْكَبٌ فَخْمٌ شَدِيدٌ وُضُوحُها[٣]

---

(١) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٣١.

(٢) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٦.

(٣) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٣٣-٣٤. الودّ: الصنم. العماء: السحاب المرتفع الكثيف. النقيلة: رقعة النعل والخف. السريح: السير يخصف بها القديح: المرق. الجانب: الغريب. وهداة القلاص: صغار الإبل النضيح: الحوض. المنيح: قدح. المغالق: من نعوت قداح الميسر التي يكون لها الفوز. المقرومة: الموسومة بالعلامات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر يقسم بالصنم ودّ، أن قدور قومه، مليئة بالمرق واللحم إذا أزفت الناس مجاعة، أوبخلت السماء بنوئها، وهذه القدور يجتمع إليها الضيفان والغرباء من الناس، فينال كل واحد منهم القداح والمغاليق مملوءة بالأرزاق والأطعمة يعودون بها إلى عيالهم وذويهم.

وقد يكون لهذه الأرزاق التي تقسم بين الناس عند اشتداد الأزمات والمحن ارتباط ببعض العادات الاجتماعية، في توزيع المعاش توخيا لتحقيق العدالة الاجتماعية، أو ما يسمى في أيامنا هذه بالضمان الاجتماعي ويعدّ ذلك منقبة من مناقب المجتمع الجاهليّ[١].

العيافة

كانت علاقة الإنسان الجاهليّ مع الطير والوحش، علاقة وثيقة الصلة، بها يوم سعده وبها يوم شؤمه، يعتمد عليها في حله وترحاله، فكان زجر الطير أو الوحش هما المحرك والدافع الذي لا يتوجه الإنسان الجاهليّ إلا معتمداً عليهما في كثير من شؤون حياته.

"وكانت العرب تزجر الطير والوحش، فمن قال بالقول الأول احتج بأن الوحش يطير بها وزجرت مع الطير ، ومن قال بالقول الثاني قال: إنما كان الأصل في الطير ثم صار في الوحش"[٢].

والزجر "هو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب منهم"[٣]، فقد كان العرب "يزجرون الطير والوحش ويثيرونها، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمن سمّوه سانحاً، وما تياسَرَ منها سموه بارحاً، وما استقبلهم منها فهو الناطح، وما جاءهم من خلفهم فهو القعيد، فمن العرب من يتشاءم بالبارح، لأنّه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه ويتحرك

---

(١) وانظر صورة الميسر والقداح عند: تميم بن مقبل- الديوان، ص ١٣٤-١٣٥، ١٧٤-١٧٦. الأفوه الأودي- الديوان، ص ٢٠. طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٤٦ زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٤١-٤٢ الأعشى- الديون، ص ٦٣. النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٠٧. عنترة- الديوان، ص ٢١١.

(٢) ابن رشيق - العمدة، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٣) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج٣، ص ٣٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك"[١]. يقول عمرو بن قميئة:

أرى جَارَتِي خَفَّتْ وخَفَّ نَصِيحُها ... وَحِبَّ بها لولا النَّوىَ وطَموحُها

فَبِيْني على نَجْمٍ شَخِيسٍ نُحُوسُه ... وَأَشْأَمُ طَيْرِ الزَّاجِرين سَنِيحُها[٢]

فالشّاعر يجعل رحيل محبوبته الذي يحدث التشاؤم والاضطراب والقلق معادلاً لسوانح الطير وما تتركه من شؤم في النفوس.

وقد وظف الشّاعر الجاهليّ مفهوم الكهانة، وزجر الطير في الحياة العامة، وما ينبثق عنها من سلم أو حرب، ومن خير أو شر، يقول تميم بن مقبل:

زَجَرْنَا بَنِي كَعْبٍ فأمَّا خِيَارُهُمْ ... فَصَدُّوا وللْمَعْرُوفُ في النَّاسِ أعْرَفُ

وأمَّا أُنَاسٌ فاسْتَعارُوا بَعِيرَنا ... فَقِيدَ لهُمْ بَادٍ بهِ العُرُّ أخْشَفُ

لهُ خَدُّ مَيْمُونٍ، وأشأمُ سَاحِقٌ ... فأيَّهُما مَا شِئْتُمُ فَتَعيَّفُوا[٣]

يقدم الشّاعر وقومه نصحاً لبني كعب الذين ناصبوهم الشر والعداء ليكفوا عن شرهم، فكان خيارهم، قد صدّوا عن الشر ومالوا إلى المعروف، وأما شرارهم فقد ركبوا مركباً وعراً فاختاروا الشرّ، وذكر البعير الأجرب، إشارة إلى اختلاط الأمور وفسادها، وقد جعل الشّاعر للبعير الأجرب، صفتي اليمن والشؤم فأي الصفتين يختارها بنو كعب تكون هي الحكم بينهم.

قصورة الزجر والعيافة في فكر الإنسان البدائي "اعتقاد سائد ليس الغرض منه سوى محاولات من التشبث يائسة يعلقها الإنسان على موجودات البيئة نتيجة لممارسات ليس لها من أمرها شيء سوى أنها معتقد خرافي قائم على الوهم"[٤].

ومن مذاهب العرب، التشاؤم بالغراب فقد "كانوا يضربون الغراب مثلا في الشؤم، فقالوا: فلان أشأم من غراب البين، وإنما لزمه هذا الاسم؛ لأنّ الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة أي طلب الكلأ في موضعه وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتقحم

---

(١) ابن القيم الجوزية- مفتاح دار السعادة، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٣١.

(٣) تميم بن مقبل- الديوان، ص ١٩٠-١٩١.

(٤) عاطف كنعان- الصورة الفنية في شعر الهذليين، ص ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتشاءموا به وتطيّروا منه، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين[١].

وليس في الأرض بارح، ولا نطيح، ولا قعيد، ولا أعضب، ولا شيء مما يتشاءمون به، إلا والغراب عندهم أنكد منه، ويرون أن صياحه أكثر أخباراً، وأن الزجر فيه أعم[٢]. يقول عنترة بن شداد:

ظعَنَ الذينَ فِراقَهم أتوَقَّعُ ... وجرى بِبَيْنِهِمُ الغُرابُ الأبْقَعُ
حَرِقُ الجَناحِ كأنَّ لِحْيَيْ رَأسِهِ ... جَلمَانُ بالأخْبار هَشٌ مُولَعُ
فَزَجَرْتُه ألاَّ يفرِّخ عُشَّهُ ... أبداً وَيُصْبِحَ واحِداً يَتَفَجَّعُ
إنَّ الذينَ نَعبْتَ لي بِفراقِهِمْ ... قَدْ أسْهَروا ليْلي التَّمام فأوْجَعُوا[٣]

فقد كان تنعاب الغراب في ديار محبوبة الشّاعر إيذاناً بالفراق، وأن الرحيل الذي توقعه الشّاعر قد تحول إلى واقع محتوم، وبلغ من شدة تشاؤمه بالغراب، أن جعل منقاره كالمقص يقطع ما بين شقّيه، ثم جعل الغراب مولعاً بهذا الفعل، للدلالة بذلك كله على معنى رمزي، يتمثل بقطع الصلة بين أهل المودة.

ورحيل المحبوبة التي نعب الغراب بديارها، قد ترك الشّاعر في سهر طويل وفي وجع دائم، حتى أنه أخذ يتطير على الغراب ودعا عليه بألا يفرخ عشه وأن يبقى وحيداً يتوجع "فالغراب أكثر من جميع ما يُتطيّر به في باب الشؤم. ألا تراهم كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئاً، ذكروا الغراب معه"[٤]. وصورة الغراب أحدثت تشاؤماً في نفس النابغة الذّبياني إذ يقول:

زَعَمَ الْبوَارِحُ أنَّ رِحْلَتنَا غَدٌ ... وَبِذَاكَ تَنْعَابُ الغُرَابِ الأسْوَدِ
لا مَرْحباً بِغَدٍ ولا أهلاً به ... إنْ كانَ تَفْرِيقُ الأحِبَّةِ في غَدِ[٥]

فقد تهيأ للشاعر من خلال زجره الطير، أن رحيل المحبوبة سيكون في يوم غدٍ. وهو يوم شؤم ونحس، وقد أحدث ذلك ثورة في نفس الشّاعر، وأن ما أحدثه الغراب

---

(١) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج٣، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٣) عنترة- الديوان، ص ٢٦٢-٢٦٣. حرق الجناح: يتناثر ريشه. زجرته: أي تطيرت عليه.

(٤) الجاحظ- الحيوان، ج ٣، ص ٤٤٣.

(٥) النابغة الذبياني- الديوان، ص ٢٩-٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في رؤية الإنسان الجاهليّ، من تفريق بين الناس، وتدمير العلاقات الإنسانية، إنما يعود ذلك إلى شدة تشاؤم الإنسان الجاهليّ بالغراب وعدم صفاء أرواح الأحياء من نوازع الشر.

ومن العرب، أناس رفضوا الاعتقاد بالزجر، وآمنوا بالله وحده وجعلوه خير من يرشدهم إلى طريق الخير، ويطرد عنهم هاجس التشاؤم، يقول ربيعة بن مقروم:

أَصْبَحَ رَبِّي في الأَمْرِ يُرْشِدُني إذا نَوَيْتُ المَسِيرَ والطَّلَبا
لا سَانِحٌ من سَوانحِ الطَّيرْ يُثْنِيني ولا ناعِبٌ إذا نعَبَا[1]

فلم يعد لزجر الطير أي حضور في معتقد الشاعر، وأن هذه الأباطيل لم تعد تثنيه عن فعله، فهو يصرف أموره معتمداً على الله الآمر الناهي، وهذا يعني أن الإنسان الجاهلي بعامةً، غدا يتمثل قدرة الله تعالى في تسيير الأمور، فأدرك عندها بُطلان ما ذهب إليه بعض العرب في الاعتقاد بالزجر والعيافة.

فالرجل السليم لا يتطير، ولا يتشاءم؛ لأنه ينتظر من الدنيا ولا يحس النفرة بينه وبينها، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها[2].

وقد لا ننكر أن "نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها، بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك، إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا من غيرها، إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين، والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات، وأكبادها، وعظامها، وأهل الزجر في الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصى، والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلها، موجودة في عالم الإنسان، لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها"[3].

فالطَّرْقُ بالحصى، من مذاهب المجتمع الجاهليّ "والطرق له صورة مخصوصة فإن الكاهن إذا سئل عن حادثة، أخرج حُصيّات قد أعدها عنده، فيطرق بعضها

---

(١) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ١٧.

(٢) العقاد- ابن الرومي، ص ١٧١.

(٣) ابن خلدون- المقدمة، ص ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ببعض فيلوح له حينئذ ما يعلم به جواب السؤال"[١] وورد هذا المذهب في قول طرفة بن العبد:

لَعَمْرُكَ ما تَدري الطَّوارِقُ بِالحَصَى ولا زَاجِراتُ الطَّيرِ ما اللَّهُ فاعِلُ[٢]

فالشّاعر يؤكد هذا المذهب في الفكر الجاهليّ، في حين، أنه يشير إلى أن عمل الكهان الذين يضربون بالحصى ويزجرون الطير، هو عمل باطل لمجافاته الواقع والحقيقة، كأن لا وجود له أمام فعل الخالق عز وجل، والشّاعر يجرد هذه الفئة التي تحاول الوصول إلى معرفة هذه المغيبات من أي إدراك أو قدرة.

وشارك لبيد الشّاعر طرفة بن العبد فيما ذهب إليه بأسلوب من التحدي في بيان عجز قوة الإنسان، أمام قدرة الله تعالى. يقول لبيد بن ربيعة:

لَعَمْرُكَ ما تَدْرِي الضَّوَارِبُ بالحَصَى ولا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ ما اللَّه صَانِعُ

سَلُوهُنَّ إنْ كَذَّبْتُمُونِي مَتَى الفَتى يَذُوْقُ المَنَايا أوْ مَتَى الغَيْثُ وَاقِعُ[٣]

يكشف الشّاعر فشل الإنسان في قدرته على قراءة أو كشف ما وراء الطبيعة أو إدراك شيء من مغيبات الأمور ويتحدى أهل هذا المذهب ويثبت إخفاقهم في معرفة الآجال والمنايا، أو تحديد زمن الأنواء والغيث، فينكر عليهم هذا الزعم ويعده من البدع الباطلة.

وفي هذا المنحى، جاء عن المسعودي قوله في الكهانة: إنّ "طائفة من حكماء اليونان والروم، كانوا يدعون العلوم من الغيوب، فادّعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة، وعلى ما تريد أن يكون منها، لأنّ صور الأشياء عندهم في النفس الكلية، وصنف منهم ادّعى أن الأرواح المنفردة وهي الجن تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم كانت قد صفت، حتى صارت لتلك الأرواح من الجنّ متفقة"[٤].

وقد يدل ذلك على أن علم الكهانة كان "في العرب أيام الجاهليّة شائعاً بينهم

---

(١) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٣٢٣.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٨٦.

(٣) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ١٧٢.

(٤) المسعودي- مروج الذهب، ج٢، ص ١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعليهم مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم"[١]. والكهانة "هي ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجني السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذهان الكاهن"[٢].

واستخدم مفهوم الكهانة، وما يرمي اليه من أبعاد في حياة الإنسان الجاهليّ فقد ورد المفهوم في مجال الحرب. يقول قيس بن الخطيم:

أتَتْ عُصَبٌ مِ الكاهِنَيْنِ ومالكٍ وَثَعْلَبَةَ الأثْرِينَ رَهْطِ ابْنِ غَالبِ
رِجالٌ متى يُدْعَوْا إلى الموت يُرْقِلوا إليه كَأرْقَالِ الجِمَالِ المَصَاعِبِ
إذا فَزِعوا مَدُّوا إلى الليْلِ صَارِخاً كَمَوْجِ الأتيِّ المُزْبِدِ المُتراكِبِ[٣]

يصور الشاعر رجال قومه من الكاهنين وقد هبوا عصابات للنجدة والإغاثة فجاءوا إلى ساح الوغى مسرعين كالجمال المصاعب التي لم تذلل، يهدرون بأصواتهم كالسيل المزبد، وكان حضور الكهنة إلى القتال مبعثاً لجلب النصر في اعتقاد الشّاعر.

وثمّة شعراء، تحدّوا الكهنة في توقعهم مدارك الغيب، وأبطلوا ادعاءاتهم في ذلك، فهذا تأبّط شراً، يفخر بنيله من خثعم حين أغار عليهم، يقول:

ألا أبْلِغْ بَنِي فَهْمِ بنِ عَمروٍ على طُول التَّنَائي والمقالَهْ
مقالَ الكاهِنِ الجاميِّ لمَّا رأى أثري وَقَدْ ألْهَبْتُ مالَه
أرَى قَدَميَّ وَقْعُهُما حَثِيثٌ كَتَحْليلِ الظَّليم دَعا رِئالَه
أرَى بِهِمَا عَذَاباً كلَّ يومٍ لِخَثْعَم أو بُجَيْلَةَ أو ثمالَه[٤]

فالشّاعر يبطل ما كانت ادعته خثعم من أن الكاهن الجاميّ قادر على اللحاق به والقبض عليه. والشّاعر هنا، شديد الفخر بأنه لا يزال يرمي خثعماً بالعذاب والشر. وفي ذلك تكذيب لمزاعم الكهنة، واستهتار بهذا اللون من المعتقد، وأحيحة

---

(١) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج٣، ص ٢٦٩.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٣) قيس بن الخطيم- الديوان، ص ٨٣-٨٤، الأثرين: الأثر. الرجل الذي يستأثر على أصحابه. المصعب: الذي لم يمسّه حبْل ولم يذل.

(٤) تأبط شراً- شعره، ص ١٢٩. حثيث: سريع. تحليل: عدو

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بن الجلاّح يراهن على قدرة الكهنة، فيقول:

فهل من كَاهنٍ أو ذي إله إذا مَا حَانَ مِنْ رَبٍّ أفُول
يُراهِنُني فَيُرْهِنُني بَنِيه وَأُرْهِنُهُ بَنِيَّ بما أقُول
وَمَا يَدْرِي الفَقيرُ مَتَى غِنَاه وما يَدْرِي الغَنِيُّ متى يُعِيل
وَمَا تَدْرِي وإنْ ألقَحْتَ شَوْلاً أتلْقَحُ بعدَ ذلكَ أم تَحِيل
وَمَا تَدْرِي وإنْ أجْمَعْتَ أمراً بأيِّ الأرضِ يُدْرِككَ المقيل[١]

فالشّاعر، يكذّب بالحس والواقع مزاعم الكهنة الذين يدعون وقوع الأشياء فيخبرون بها أو يبطلونها قبل وقوعها، وأي تحدّ أقوى من هذا التحدي الذي ينفي الشّاعر فيه عن الكهنة معرفتهم بتحديد الغني والفقير، أوالموت والمصير، وليست هذه سوى مزاعم ادعى أهلها أنهم يعرفون غيبيات الأمور ولكنهم عاجزون عن ذلك.

فالنفس الإنسانية "ذات روحانية موجودة بالقوة إلى الفعل بالبدن وأحواله، وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة"[٢].

"وكان الكاهن في الجاهلية شخصاً على جانب كبير من الذكاء والإحاطة بمعارف زمنه فاكتسب بذلك وجاهة عند قومه، وأصبح موضع ثقتهم، يستشيرونه في أمورهم، ويسألونه أن يخبرهم بالمستقبل أو أن يحكم بينهم فيما يختلفون فيه"[٣].

"وذهب العرب إلى الاعتقاد بالغول، فزعموا، أن الغول، يتغول لهم في الخلوات ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور، فيخاطبونها وربما ضيّفوها، وذلك أنها كانت تتراءى في الليالي، وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، فإذا صبح بها، شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام، وأن الغول كانت تتغول له، وأنه ضربها بسيفه، وذلك قبل ظهور الإسلام، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم"[٤].

---

(١) أحيحة بن الجلاّح- الديوان، ص ٧٤-٧٥، يعيل: يفتقر.

(٢) ابن خلدون- المقدمة، ص ٧٥.

(٣) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ١٠١.

(٤) المسعودي- مروج الذهب، انظر: ج٢، ص ١٥٥-١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا النوع من الاعتقاد تحول إلى حكايات خرافية وهي "مجموعة من الكيانات الأرضية الخارقة كالغول والجن والسعلاة"[١] وكان للجاهليين كما كان لجميع الشعوب الفطرية وغير الفطرية أيضاً خرافات يعتقدونها ديناً وتقليداً"[٢] فالظروف الموضوعية التي تتحكم في حياة الإنسان العربي قد جعلته يلجأ إلى الخرافة عند كل أزمة نفسية أو ذهنية أو اجتماعية تصيبه"[٣].

وقد ورد ذكر الغول في الشعر الجاهلي على شكل قصص وحكايات مروية، من ذلك ما جاء في قول تأبّط شراً:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ ... بما لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ
وإنِّي قَدْ لقِيتُ الغُول تَهْوِي ... بسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحانِ
فقلتُ لها كِلانا نِضْوُ أيْنٍ ... أخو سَفَرٍ فَخَلِّي لي مَكَانِي
فشدَّتْ شدَّةً نَحْوِي فأُهْوِي ... لها كفِّي بِمَصْقُولٍ يمَاني
فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعاً لليدَيْنِ وَلِلْجِرانِ
فقالَتْ عُدْ فقلتُ لهَا رُوَيْداً ... مَكَانكِ إنَّنِي ثبتُ الجِنانِ
فلم أَنْفَكَّ مُتَّكِئاً عليها ... لأَنظُرَ مُصْبِحاً ماذا أتاني
إذا عَيْنَانِ في رَأْسٍ قَبِيحٍ ... كَرَأْسِ الهِرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَسَاقَا مُخْدِجٍ وَشَوَاةُ كَلْبٍ ... وَثَوْبٌ من عَبَاءٍ أو شِنَانِ[٤]

يقص الشاعر حكاية لقائه غولاً تهوي في صحراء واسعة، فطلب إليها أن تصدّ عن مكانه فرفضت ذلك، وهوت إليه بشرّها المستطير، فرماها في مذبحها بسيفٍ يماني، فخرّت صريعة، حتى إذا جاء الصباح، نظر إليها، فرأى لها عينين قبيحتين، ورأساً كرأس الكلب، وساقين كساقي الناقة يكسوها جلد كالعباءة أو كقربةٍ خلق.

---

(١) أحمد كمال زكي- الأساطير، ص ٦٢.

(٢) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٦.

(٣) إبراهيم بدران- دراسات في العقلية العربية ص ٧٤.

(٤) تأبط شراً- شعره، ص ١٧٢-١٧٦. سهب: صحراء. صحصحان: أرض مستوية. الجران: مقدم العنق. المخدج: الناقة جاءت بولد ناقص. شواة: جلدة الرأس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإزاء هذا التصور فقد تكون هذه "الحكاية الخرافية بنية مركبة بحيث لا يمكن تفسيرها بطريقة موحدة، فهي تستمد تصوراتها من مراحل حضارية مختلفة أشد الاختلاف ومن مجالات حياة متميزة غاية في التميز[١] وعلى ذلك، فالحكايات الخرافية تعد جزءاً أساسياً من تراث ديني قديم"[٢].

وزعمت طائفة من الناس، أن الغول اسم لكل شيء يعرض للسِّفار، ويتمثل في ضروب من الصور، ذكراً كان أو أنثى، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى[٣].

ويعود تأبط شراً ثانية فيجري حواراً آخر مع الغول، فيدعي أنها كانت له جارة فطلب مضاجعتها، وفي ذلك يقول:

فأصْبَحْتُ والغُولُ لي جارَةٌ ... فيا جارَتَا أنتِ ما أهْوَلا
وطالبتُها بُضْعَها فَالْتَوتْ ... بِوَجْهٍ تَهوَّلَ فاسْتَغْوَلا
فَقُلت لها يا انْظُرِي كي ترى ... فَوَلَّت فَكُنْتُ لها أغْوَلا
فَطارَ بِقِحْفِ ابنةِ الجنِّ ذو ... سَفاسِقَ قد أخْلَق المِحْمَلا
فَمَن سَالَ أيْنَ لَوَتْ جَارَتي ... فإنَّ لها باللِّوى مَنْزِلا
فَجَلَّلْتُهَا مُرْهفاً صَارِماً ... أبَّانَ المرافِق والمفْصلا[٤]

يصور الشّاعر مشاق الرحلة ووحشة الصحراء التي كانت موطناً للغيلان والسّعالى، ثم يصور قصته مع الغول وتغلبه عليها، وامتناعها حين راودها عن نفسها، وكل ذلك، كان إبرازاً لجرأة الإنسان الجاهليّ، وقدرة تحمّله المشاق والصعوبات غير آبه بالزمن الذي يرميه بسهام الحزن والبلاء.

فهذه القصص الخرافية التي يطلعنا عليها الشعر الجاهلي، تهدف إلى بيان إبراز قدرة الإنسان في مواجهة الملمات، ذلك لأن الحكاية الخرافية لا تعتمد الحدث أساساً لها، وإنما تعتمد البطل، وهي تختار من الأحداث ما يلقي الضوء على

---

(١) فردريش- الحكاية الخرافية، ص ٧٢.

(٢) فردريش- الحكاية الخرافية، ص ١٣٣.

(٣) المسعودي- مروج الذهب، ج٢، ص ١٥٦.

(٤) تأبّط شراً- شعره، ص ١٢٣-١٢٥، التوت: امتنعت. قحف: عظم فوق الدماغ. سفاسق السيف: طرائقه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصيته ويؤثر في حركته[١] وأية خرافة غالباً ما نجد فيها كيف يهزم البطل المارد أو الغول فيفسد السحر[٢].

الموت

نظر الإنسان الجاهليّ إلى الموت، على أنه مفصل زمني، يشكل نهاية الحياة، والهروب منه، أمر محال، فمهما عاش الإنسان وامتلك المال والجاه، فهو إلى الموت صائر، ولذلك، تساءل بعض شعراء الجاهليّة عن أولئك أصحاب التيجان والسلطان، الذين هلكوا، فلم تطل بهم مملكاتهم، يقول أبو دؤاد الإيادي:

أيْنَ ذُو التَّاجِ والسَّرِيرِ قُبَاذٌ خَبَنَتْهُ فَبَاد إحْدَى الخُبُونِ
ولَقَدْ عَاشَ آمِناً للدَّواهي ذا عِتَادٍ وَجَوْهَرٍ مَخْزُون
صَرَعَتْهُ الأيَّامُ من بَعْدِ مُلْكٍ ونعيمٍ وجوهرٍ مكنونِ[٣]

ينظر الشّاعر إلى الملك قباذ، صاحب العرش والتاج الذي عاش دهره آمنا مطمئناً، بعيداً عن شر الدواهي، له خزائن مليئة بالمال والذهب، ولكن الموت اخترمه في نهاية الأمر، فلم يمنعه ملكه الكثير وكنوزه الدفينة شر الموت.

ومهما يكن من أمر، فالإنسان الجاهليّ يعتقد بفناء الحياة، وعدم خلود الإنسان فيها، مهما أوتي له من الممالك والحكومات، يقول الأعشى:

فَمَا أنتَ إنْ دَامَتْ عَلَيْكَ بِخالدٍ كما لَمْ يُخلَّدْ قَبْلُ سَاسَا وَمَورَقُ
وَكِسْرَى شَهِنْشَاهُ الَّذي سَارَ مُلْكُهُ لَهُ ما اشْتَهَى راحٌ عتيقٌ وَزَنْبَقُ
ولاَ عادِيَا لَمْ يَمْنَعِ المَوْتَ مَالُهُ وَحِصْنٌ بتَيْماءَ اليَهُوديِّ أبلقُ[٤]

إنّ رموز القيادة التي بناها السلف، والحضارة التي شيدوها، فطال أمدها، كانت مؤشرا واضحاً على قدرة الإنسان، ونضاله في إثبات وجوده، فكانوا يرون

---

(١) أحمد كمال زكي- الأساطير، ص ١٦٣.

(٢) أحمد كمال زكي- الأساطير، ص ٢٣٤.

(٣) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص، ٣٤٧ .انظر : عديّ بن زيد- الديوان، ص٦٤-٦٥، ٨٧-٩٠، ١٢٤-١٢٥، تميم بن مقبل- الديوان، ص٦١-٦٢.

(٤) الأعشى- الديوان، ص ٢٥٣. ساسان: ملك الفرس. مورق: ملك الروم. انظر الصورة ذاتها لدى: عديّ بن زيد- الديوان، ص١٢٦، ١٧٠، أبي زبيد الطائي- شعره، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذه الحضارة مجداً لهم، وظاهرة تدل على إبداع إنسان ذلك العصر، فوجدوا أنفسهم مشاركين في تعمير الكون حتى صاروا يتعللون بهذه الحضارة، فظنوا أنهم ينالون بها الخلود والبقاء.

وما اجتمع لدى ساسان ومورق، وغيرهم من ملوك الفرس والروم من حصون مشيدة ونعيم دائم، إلا أن ذلك لم يدفع عنهم بلاء الموت، ويعود الشّاعر إلى بيان أن مصير الإنسان محتوم بالموت، مهما دافعت عنه أملاكه.

ورأى بعض شعراء الجاهليّة، أن خلود الإنسان في الحياة، لا يتمثل في ما يكسب من مال، أو جاه، بقدر ما يتركز على الأثر الذي يتركه وراءه من عمل نافع، يقول زهير بن أبي سلمى:

حِيَاضُ المنايا ليسَ عَنها مُزَحزَحُ ... فمُنتَظِرٌ ظِمْئاً كآخرَ واردِ
فَلَوْ كانَ حيٌّ ناجِياً لوَجَدْتَهُ ... مِنَ الموتِ في أحراسِهِ رَبَّ ماردِ
أوِ الحَضْرُ لم يمنَع منَ الموتِ ربَّهُ ... وقد كان ذا مالٍ طَريفٍ وتالِدِ
ألم تَرَ أنّ النّاسَ تخلُدُ بَعدَهُم ... أحاديثُهُم والمرءُ ليسَ بخالدِ[1]

يتوقع الشّاعر، أن الإنسان إذا كُتبت له النجاة من الموت، سيبني الحصون، ويشيد العمران، وهذا يعني سعي الإنسان الجاهليّ وراء امتداده الحضاري ، دون التفكير بالفناء والموت، ولعل هذه النظرة توحي بتفاؤل إنسان ذلك العصر في الحياة، من حيث أنه عنصر رئيس فيها.

وإذا كان خلود الإنسان مرتبطا بالحضارة التي شيدها، فإن صاحب مدينة الحضر ذات الأبراج والقصور، خالد بخلودها، وعبثاً يحاول الإنسان أن يهرب من الموت، فهو حوض يرده الناس تباعاً، صاغرين، مرغمين، فالظمآن الذي ينتظر ورود الماء شبيه بمن ورد واستسقى؛ لأنّه مقبل على فعل حقيقي مدرك، يقود إلى تشابه في المصائر والنتائج، وكذا حال الحياة، فمن لا يزال حياً شبيه بمن ذاق طعم الدنية؛ لأنّه مقبل على تجرعها. فالموت، منهل ينتظر وراده، يأتون إليه ويرحلون عنه ، مودعين. فالخلود الذي ينشده الإنسان، مرتبط بعمله الذي يخلد به.

---

(١) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٣٦، الظمء: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورود. مارد: حصن مشهور. الحضر: اسم مدينة قديمة بإزاء تكريت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتفكير بالموت، أحدث للإنسان الجاهليّ قلقاً نفسياً، أخذ يعيش في وجدانه، يقول ابن مقبل:

ما أطيبَ العيشَ لَوْ أنَّ الفتى حَجَرٌ تنْبو الحوادِثُ عنهُ وهو مَلْمومُ
لا يُحرِزُ المرءَ أنصارٌ ورابِيةٌ تأبَى الهوانَ إذا عُدَّ الجَرَاثِيمُ
لا تمنَعُ المرْءَ أحجاءُ البلادِ، ولا تُبنى لهُ في السَّمَواتِ السَّلاليمُ[١]

يصف الشّاعر مغريات الحياة التي شكلت في نفسه نزعة الطمع فيها والرغبة في البقاء والخلود كخلود الحجر، ثم يقطع الشّاعر هذا التمني، فيقرّ أن الإنسان إذا مسه الموت فلن يجد شيئاً يحميه منه، فلا الروابي العالية التي يلوذ بها، ولا الأنساب والأنصار قادرة على دفع الموت.

ومهما طوّف الإنسان في أرجاء البلاد، فلا مفر له ولا مهرب، ولن يستطيع الإنسان أن يعرج إلى السماء فراراً من الموت. "والشاعر هنا يرى الحياة من جانبها التشاؤمي، ولا يكاد يرى وجهاً: مشرقاً لها، ما دام الموت مرسوما بين عينيه"[٢].

وهذا أميّة بن أبي الصّلت، يعبر عن عدم استجابة الموت لتلبية رغبات نفسه في البقاء. يقول:

ما رَغْبَةُ النفسِ في الحياةِ وإنْ عاشتْ طَويلاً فالموتُ لاحِقُها
يقودُها قَائِدٌ إليه ويحـ ـدوها حَثيثا إليه سائِقُها
يُوشكُ مَنْ فرَّ منْ منيَّتِه في بَعْضِ غِرَّاتِهِ يُوافِقُها
منْ لم يَمُتْ عِبْطَةً يمُت هَرِماً ألموتُ كأسٌ والمرءُ ذائقُها[٣]

تتمثل النفس الإنسانية في صورة طريد يلاحقه الموت، فالموت قريب من كل نفس ينقاد إليها مُسرعا، فليس ثمّة قوة قادرة على إيقافه أودفعه، والنفس الإنسانية، تعيش في صراع مع الموت، وترفضه واقعاً محتوماً؛ لأنّ مغريات الحياة

---

(١) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٧٣. الحجر الملوم: المجموع بعضه إلى بعض وهو الصلب المستدير، والحجارة مما يوصف بالخلود والبقاء. لا يحرز المرء: أي لا يحفظه ولا ينجيه من الموت. أحجاء البلاد: نواحيها وأطرافها.

(٢) عاطف كنعان- الصورة الفنية في شعر الهذليين، ص ٨٦.

(٣) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٤٢٠-٤٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تفرض على النفس أن تتشبث بها، فترفض الجانب المضاد للحياة، المتمثل بالموت مصيراً.

ويعود الشّاعر إلى التعامل مع الحياة واقعاً، فيجد نفسه منقاداً إلى أن يشرب كأس الردى الذي يشربه الإنسان شاباً كان أو هرماً. "وقد اعتبر العرب القدامى الموت مظهراً طبيعياً كما رأوه، وهو فناء الجسد والنفس معاً[١] والموت قضية تتصل ببقاء الإنسان من جهة، وبفنائه وتلاشيه من جهة أخرى"[٢].

والموت، كما يراه طرفة بن العبد، حقيقة واقعة، يختار كرام الناس، يقول:

أرى الموتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويصْطَفِي عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتشدِّدِ
أرى المالَ كَنْزاً ناقِصاً كلَّ ليلةٍ وما تَنْقُصُ الأيّامُ والدّهرُ ينفَدِ
لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفَتى لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنياهُ باليدِ[٣]

يقدم الشّاعر صورة من التلاشي للإنسان الذي بشكل مادة فانية كالمال الذي ينفد شيئاً فشيئاً، وكذلك، فإن الإنسان يتقدم زمنيا إلى الوراء، فكلما عاش دهراً نقص ذلك من عمره الزّمني، في حين، أن الدهر باق، لا يزول.

وهذه المادة الوراثية، الممثلة بالإنسان، تشكل أمام الموت الهدم والانعدام ضمن حركة زمنية، متفاوتة طولاً وقصراً.

ونظر الشّاعر إلى الإنسان بعامة، فرآه حرّ الحركة، يعيش متجولاً في الزمان والمكان، إلى حدّ لا تجاوز فيه. ثم ينجذب إلى الموت في زمن مقدر، تماما كالإنسان الذي يربط شيئاً ما في طرف حبل فيدعه زمناً من الانطلاق، ثم يجذبه إليه ويشده نحوه. ومن هنا نجد "طرفة بن العبد وجودي الإحساس بالذات، وبالنظرة إلى الحياة يرى عمر الإنسان قصيراً مهما طال به الأجل، نافداً كالكنز الذي ينقص كل يوم بالإنفاق"[٤].

وهذه الرؤية التي ينظر الإنسان الجاهليّ إلى الموت من خلالها، تقضي

(١) ثريا ملحس- القيم الروحية في الشعر العربي، ص ١٥٣.

(٢) عبد العزيزي شحادة- الزمن في الشعر الجاهلي، ص ١١٩.

(٣) طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣١-٣٢.

(٤) أحمد الربيعي- الرمزية في مقدمة القصيدة، ص ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باعتقاده بالموت. ويترجم هذا الاعتقاد، أبو زبيد الطائي، حين ينظر إلى الإنسان ميتاً في كفن، يقول:

إذا جُعِل المرءُ الذي كان حَازِما يُحَلُّ بهِ حَلَّ الحُوارِ ويُحمَلُ
فليسَ له في العَيْشِ خَيرٌ يُرِيدهُ وتَكفِينهُ مَيْتاً أعَفُّ وأجمَلُ
أتانِي رَسُولُ الموتِ يامَرْحَباً بهِ ويا حبَّذا هو مُرسَلاً حين يُرْسَلُ[١]

يصور الشّاعر تراجع حياة الإنسان إلى الضعف والانهيار بعد عزم وقوة، ثم يرى أن الموت خير للإنسان، حين يصل إلى زمن يكون فيه عاجزاً.

وفلسفة الشّاعر تجاه الموت، تقضي باعتقاده فيه حقيقة وواقعاً، فهو يرحب بالموت رسولاً محبوباً في كل حين؛ لأنّ إيمان الشّاعر بالموت، غدا قدرا محتماً، لا شك فيه.

وقد شكل الموت في نفس الجاهلي هاجس الخوف والشعور بالعزلة حين يترك وحيداً في القبر، كالبعير بين حجارة غليظة، يقول أبو خراش الهذلي مخاطباً أخاه عروة:

لعَلَّكَ نَافِعي يا عُرْوَ يوماً إذا جَاوَرْت من تَحْتِ القُبُورِ
إذا رَاحُوا سِوَايَ وأَسْلَمُونِي لخَشْنَاءِ الحِجَارة كالبَعِيرِ[٢]

يهدف الشاعر إلى بيان منزلة الإنسان مخلوقاً يتميز عن سائر المخلوقات، فيغدو المكان المملوء حجارة خشناء منسجماً مع الإنسان الذي كرمه الله تعالى مع سائر الخلق ولم يعد البعير موازياً إلى فلسفة الخلق الذي بعث الإنسان بها محوراً للعبادة والديانة.

ولعل الشاعر يواجه المنية مستسلماً لها، متحسراً على مجتمع الإنسان الذي به يعمر الكون، وقد يبدو أن "أكثر ما يخشاه الشاعر من الموت وحدته، إذ بعد فراق الأهل والأصحاب يتركونه وحيداً في العراء، فيتمنى الجاهلي أن يقهر الزمن والموت والتغيير وأن يشارك الأشياء صفاتها وخصائصها"[٣].

---

(١) أبو زبيد الطائي- شعره، ص ١٣٢.

(٢) أبو خراش الهذلي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ١٣٦.

(٣) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والموت في معتقد الإنسان الجاهليّ، لا يفرق بين صحيح وسقيم، فكم إنسان بات قويّ الجسم، سليم البدن، فغدا في حفير قبرتلفه ريطة بيضاء. يقول عديّ بن زيد :

كمْ تَرَى اليَوْمَ مِنْ صَحِيحٍ يُمَشِّي وغَدا حَشْوَ رِبطَةٍ مَقْبُوراً
وصَرِيعٍ مُضَرَّجٍ بِدماءٍ أجْزَرَتهُ قَنا الحُروبِ النُّسورا[١]

يصور الشّاعر تعدد أسباب الموت، واختلاف أشكاله، فمن الناس، من يموت دون علة، أو مرض لانتهاء أجله، ومنهم من يموت صريعاً مضرّجاً بدمائه. ويكشف الشّاعر من البيتين، بعض عادات العرب الجاهليّين في دفن الموتى، فقد يتعذر دفن الميت إذا قتل في غزو أو حرب، فإنه غالباً ما يُترَك نهباً للسباع، وجوارح الطير.

وإذا كان الإنسان الجاهليّ، نظر إلى الموت من خلال رؤيته الذاتية فترك في نفسه معاناة شخصية، فقد وجدت طائفة من الشّعراء، نظروا إلى الموت، على أنه هم جماعي، فصار الشّعراء، يوجهون خطاباتهم الشعرية إلى أصحابهم، يصورون فيها حالات الموت وأشكاله.

"ونظر الشاعر الجاهلي أحياناً إلى الموت، وهو يرثي أحباءه من قتلى الأيام نظرات فيها إيحاءات فلسفية أو عدم اكتراث، وذلك في محاولة منه للتخفيف من وقع المصاب، فتراه يقنع نفسه بأن الموت حقيقة واقعة، وبأنه غاية كل حي، ولا سبيل لتخطيه، فلا بد إذ ن من الصبر على الخطب مهما كان جللاً"[٢].

وكان الإنسان الجاهليّ يعلل نفسه بمن سبقه إلى الموت من كرام الناس. فهذا تأبط شرا، يرثي الشنفرى، فيقول:

وأجمَلُ موتِ المرءِ إن كانَ مَيِّتاً ولا بُدَّ يوماً مَوْتُهُ وهو صابرُ
وخفَّضَ جأشي أنّ كلَّ ابنِ حُرَّةٍ إلى حيثُ صِرتُ لا محالةَ صائِرُ
وأنّ سَوَامَ الموتِ تجرِي خِلالَنا روائِحُ من أحداثِهِ وَبوَاكِرُ[٣]

---

(١) عدي بن زيد- الديوان، ص ٦٦. الريطة: الكفن. وانظر هذه الصورة عند: أوس بن حجر- الديوان، ص ١٤ عبيد بن الأبرص- الديوان، ص٣٤.

(٢) منذر الجبوري- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، ص ١٥٠.

(٣) تأبط شرًا- شعره، ص ٨٦..خفض جأشي: قلل حزني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هاجس الموت، كان يخيف الشّاعر، فيثير فيه هما، وقلقاً كبيرين، ولكنه حين رأى أحرار الناس يموتون، اطمأنت نفسه، وهدأ روعه، فأخذ يعزي نفسه بهم، ورأى أن جميع فئات المجتمع تتساوى عند الموت، فتتوحد عنده جميع العناصر الحية بتعدد أشكالها، وألوانها، وفئاتها، وأفضل موت يراه الشّاعر، هو أن يموت الإنسان، رابط الجأش عند الملمات والمصائب.

وفلسفة الشاعر تتمثل في أنه لم يكن ثمة "تمييز محدود بين الأحياء والأموات، فكان استمرار حياة الموتى وعلاقتهم بالناس أمراً مسلماً به، لأن الموت جزء من الحقيقة التي لا شك فيها، حقيقة ألم الإنسان أو توقعه أو سخطه"[١].

ووجدت طائفة من المجتمع الجاهليّ، تغفل عن التفكير بالموت، ظناً منها أنها ستنال الخلود في الحياة، ووقف بعض الشّعراء إزاءها محذرين، يصفونها بالضلال والجهل، يقول عديّ بن زيد:

أيُّها النَّائِمُ المغَفلُ أبْصِرْ ... أنْ تَكُونَ المضلَّلَ المَغْرُورَا
ودَعِ النفسَ عن هَوَاها حِفاظاً ... أنْ تَكُونَ المُبادَرَ المبْدُورا
أيْنَ آباؤُنا ونَحنُ نُرجِّي ... بَعْدَ آبائِنا الخُلودَ غُرورا
والمنايا مَعَ الغُدُوِّ رَواحٌ ... كُلَّ يَومٍ نَرى لَهُنَّ عَقِيرا[٢]

يعاتب الشّاعر فئة من أبناء المجتمع الجاهليّ، تعيش حياتها في ضلال، غافلة عن ذكر الموت، لا يهمها دين، ولا آخرة، بعيدة عن طريق الهداية، فهي سادرة في غيها وجهلها.

ويحاول إقناع هذه الفئة بأن تتراجع عن غرورها الذي أكسبها ضلالا، ظنت به أنها ستخلد في الحياة، متناسية ما لقي آباؤها قبلها من موت وهلاك.

ومهما حاول الإنسان أن يحذر الموت، أو ينجو منه، فإن حتفه سيكون فيما يخشاه ويحذره، يقول الشنفرى:

يا صاحِبَيَّ هل الحِذارُ مُسلِّمِي ... أو هل لِحَتْفِ مَنِيَّةٍ من مَصْرِف
إنِّي لأعْلَمُ أنّ حَتْفِي في التي ... أخشَى لدى الشّرْبِ القَلِيلِ المُنْزِفِ[٣]

(١) هنري فرانكفورت- ما قبل الفلسفة، ص ٢٤.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ٦٦.

(٣) الشنفرى- شعره، ص ٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن تساؤل الشّاعر، يقوده إلى نفي ما يفكر به من أن حذره الموت، سيكفل له النجاة والسلامة، فالموت، طريق سيسلكه الناس جميعاً.

وصرف الإنسان الجاهليّ نظره عن الموت؛ لأنّه عدّه شيئاً ماثلا في واقع الحياة، فراح يجري حوارا مع أبناء جنسه، يتعرف موقفهم من الموت، في إطار رؤية الإنسان الجاهليّ أحيانا إلى مُغيِّبات الأمور. يقول عنترة.

بَكَرَتْ تُخوِّفُني الحُتُوفَ كأنَّني أصبَحْتُ عن غَرَضِ الحُتوفِ بمَعْزِلِ
فأجَبْتُها إنَّ المَنِيَّةَ مَنْهَلٌ لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بِكأسِ المنهَلِ
فَاقْنَيْ حَياءَكِ لا أبا لكِ واعْلَمِي أنِّي امْرُؤٌ سأمُوتُ إنْ لمْ أُقْتَلِ[1]

إن ثنائية الحوار الذي أجراه الشّاعر مع المرأة، ينم عن اعتقاد بعض الناس أن الموت يتمثل بقوة كبيرة، يحسن بالمرء أن يبتعد عنه، أو التصدي له إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

والمرأة في النص السابق هي العاذلة، تحاول أن تثني عنترة عما عزم عليه من اقتحامه الحروب، ظناً منها، أن كل من اقتحم أهوال الحروب، لا بد أنه سيموت، والشّاعر، لا يأخذ برأي المرأة؛ لأنّه يعتقد، أن الإنسان مهما امتلك من قوة ومقاومة، فلن يفلت من الموت، فالموت، مورد لكل الأحياء، فهو القاسم المشترك الذي يوحد الأحياء، ويجمعهم على مصير واحد لا مثنوية فيه.

وهذا يقودنا إلى إيمان "الشاعر الجاهلي بأن الموت حق، وأن كل إنسان لا بد وارده، وليست العبرة هنا بمعرفة الموت، وإنما بالإيمان بأحقيته"[2].

وعنترة يعدُّ لوم المرأة العاذلة خروجاً على المعتقد، وتجاوزاً على القوى المتمثلة بأزلية الدهر، فلا تلوميني أيتها المرأة، فالإنسان، لا محالة هالك، فهو إن لم يمت موتا طبيعياً، فإنه يقتل قتلاً.ولعل" أكثر صور الموت شيوعا في الشعر الجاهليّ، تتخيله، في صورة الماء، وما يتعلق به، فهو، كأس تشرب، أو حوض، مشرع للواردين، أو غمرة تخاض، أو سحابة تمطر"[3].

---

(١) عنترة بن شداد- الديوان، ص ٢٥١-٢٥٢. فاقني حياءك: أي التزمي الحياء، وارجعي عن لومي. وأصل الاقتناء: اكتساب المال واتخاذه.

(٢) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٧.

(٣) مصطفى جياووك: الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص ٣٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونظر الإنسان الجاهليّ إلى الحياة، يلفه الحزن والأسى على ضياع العلاقات الاجتماعية التي يدمرها الموت، فالناس يفارق بعضهم بعضاً، وأن كل زوج في الحياة خليطا مفارقة في رأي عروة بن الورد الذي يقول:

ألم تَعْلَمِي يا أُمَّ حَسَّانَ أنَّنا خَلِيطاً زِيالٍ ليس عن ذاك مَقْصَرُ
وأنَ المنايا ثَغرُ كلِّ ثَنِيَّةٍ فهل ذاك عمَّا يَبْتَغِي القَوْمُ مُحْصِرُ[١]

يقر الشاعر بالموت معتقداً، فقد جعل الشّاعر المنايا ثغراً لكل ثنية، وهل أن ما يبتغيه الإنسان يحول المنايا عن كل ثغر.

وقد يستدل من ثقافة الإنسان الجاهليّ اعتقاده بالأجل المحتوم، فموت الإنسان يرتبط بأجل محدد "واعتقد بعض الجاهليّين أن الموت أجل مثبت، وأمر معين محتم، وهو لا يأتي إلا في حينه. فإذا جاء الأجل كان حذر الإنسان وجبنه غير دافع عنه المنية إذا حلت به"[٢] يقول عبيد بن الأبرص:

يا عَمْرُو ما راحَ من قَوْمٍ ولا ابْتَكَرُوا إلاّ ولِلْمَوتِ في آثارهمْ حَادِي
يا عمرُو ما طَلَعَتْ شَمْسٌ ولا غَرَبَتْ إلاّ تَقَرَّبُ آجالٌ لِميعادِ
هلْ نحنُ إلاّ كأرواحٍ تمُرُّ بِها تحْتَ التُّرابِ وأجْسَادٍ كأجْسَادِ[٣]

إن حركة الناس دائبة داخل عنصر الزّمن، فما من قوم حلوا أو ظعنوا، إلا كان الموت حاديهم، وفي آثارهم يمشي. وما طلوع الشمس وغروبها سوى تراكمات زمنية تقرب آجال الناس. ومعادلة الحياة، تقضي بأن كل ما فوق الأرض والتراب من أرواح وأجساد له ما يقابله تحت التراب حتى غدا الخلق متساوين في الموت. الذي "كان لغزاً محيراً في نظر الإنسان القديم الذي يتوق إلى البقاء ويؤدي الطقوس من أجله"[٤].

وما دام الإنسان مرهونا بأجل محتم، فليمت حراً دون أن يصيبه عار، أو يحل به ضيم. يقول المتلمس الضبعي:

---

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ٧٧. خليطا زيال: خليطا مفارقة، أي يفارق بعضنا بعضاً. الثغر: موضع المخافة. مُحصر: حابس، أو مانع.

(٢) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ١٥٠.

(٣) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤٨. وانظر: أوس بن حجر- الديوان، ص ٧٢-٧٤. النابغة الجعدي- شعره، ص ٣٠.

(٤) محمود الحسن- الظعينة في الشعر الجاهلي، ص ١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعاذِلُ إنَّ المرءَ رَهْنُ مصيبَةٍ صَرِيعٌ لِعَافِي الطَّيْرِ أو سوفَ يُرْمَسُ
فلا تَقْبَلَنْ ضَيْما مَخَافةَ مِيتَةٍ ومُوتَنْ بها حُرّاً وجلدُك أمْلَسُ
فما النَّاسُ إلاّ ما رَأَوْا وتَحدَّثوا وما العَجْزُ إلاَّ أن يُضَامُوا فَيَجْلِسُوا(١)

فالإنسان إلى الموت آيل، فهو إما أن يموت موتاً طبيعياً فيدفن في قبر، أو أن يقتل في معترك فيُترك طعاما للوحش والطير.

وما دام مصير الإنسان كذلك، فليحرص أن يموت وهو خال من كل عيب، وأصالة المرء تبين وتظهر فيما يراه الناس من أفعال يتحدثون بها، وما العاجز سوى من يقبل الضيم ويقعد عن المكرمات.

ويبدو أن المصائب التي تعرض للإنسان الجاهليّ، كانت تأخذ منه كل تفكيره وأحاسيسه، حتى إذا ما كانت هذه المصائب تكلفه حياته، راح يفكر بالموت أجلاً محدداً.

ولأجل ذلك، راح الشّعراء الجاهليّون يعتقدون بالموت قدراً محتماً، "ويحتمل أن إثبات القدر، كان نتيجة تفكيرهم في الموت بالدرجة الأولى، فما نلاحظ في ألفاظ الموت عندهم، أن كثيراً منها، هو إشارة إلى الشيء الواجب، كالحتم والمنية، والحمام، أو إلى الوقت المحدد، كالأجل واليوم"(٢).

يقول عبيد بن الأبرص حين استنشده المنذر قبل أن يقتله:

واللّهِ إنْ مِتُّ ما ضَرَّني وإنْ عِشْتُ ما عشتُ في واحِدهْ
فأبلِغْ بنِيَّ وأعمامَهُم بأنّ المنايا هيَ الوارِدَه
لها مُدَّةٌ فَنُفُوسُ العِبَادِ إليَها وإنْ كَرِهَتْ قَاصِدَهْ
فَلا تَجْزَعُوا لِحِمَامٍ رَنَا فَلِلْمَوْتِ ما تَلِدُ الوَالِدَهْ
فَوَاللّهِ وإنْ عِشتُ ما سَرّني وإنْ متُّ ما كَانَتِ العائِدَهْ(٣)

(١) المتلمس الضبعي- الديوان، ص ١١٠-١١٢. العافي: هو كل طالب رزق. وعاف الطير: ما يعترى منه. يُرمس: يدفن وجلدك أملس: أي لم يصبك عار.

(٢) مصطفى جياووك- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص ٨٩.

(٣) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٦٢، وانظر حتمية الموت عند: قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٥٧ أبي دؤاد الإيادي- شعره، ص ٢٩٤ طرفة بن العبد- الديوان، ص ٤٤، زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٧. تأبط شراً- شعره، ص ٩٩-١٠٠، أبي قلابة الهذلي- ديوان الهذليين، ج٢، ص ٣٩ المرقش الأكبر- المفضليات، ص ٢٣٨-٢٣٩، عبد الله بن جعده- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٧٦ النمر بن تولب- شعره، ص ١٠١، بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر، يقر أن الموت لم يضره، لأنّ الإنسان ما ولد إلا ليفنى، فثمّة أسباب تُهيّئ للإنسان، تكون علة موته.

وحكمة الشّاعر في موته، تجلت في أمرين: الأول، يكمن، في أنه بين للمنذر أن موته على يده، كان بسبب دنوّ أجله، وما هو، إلا آلة منفذة لهذا الحكم، وفي ذلك إبطال لجبروت المنذر، وعجزه عن إلحاق الضرر بالآخرين إلا بأمر الله، والآخر، يكمن، في أن الشّاعر، وهو يعلم أبناءه وأعمامه أن الموت حق، يريد أن يحقن دماءهم لئلا يقعوا في حرب مع المنذر. فالموت، في إطار حقن الدماء، فيه انبعاث وحياة، وحفاظ على أرواح الناس.

وإذا كان قول الشاعر: وأن متّ ما كانت العائدة، يرمي إلى اعتقاده بأن الإنسان إذا مات فلن يحيى من جديد، فإن الأمر يذهب بنا إلى القول بأن الجاهليين كانوا "يرون أن الموت نهاية، وأنهم غير مبعوثين، وأن البعث بعد الموت شيء غير معقول"(١).

ويعبر الشّاعر الجاهليّ عن اعتقاده بالقدر، فيصور حال الإنسان، وهو في مراحل عيشه، إلى أن يداهمه الموت. يقول كعب بن زهير:

أعْلَمُ أنّي مَتَى ما يَأْتِني قَدَري ... فَلَيْسَ يَحْبِسُهُ شُحٌّ ولا شَفَقُ
بَيْنَا الفَتى مُعجَبٌ بالعَيْش مُغتَبِطٌ ... إذَا الفَتَى لِلْمنَايا مُسْلَمٌ غَلِقُ
والمَرْءُ والمَالُ يَنْمِي ثم يُذْهِبُهُ ... مرُّ الدُّهُورِ ويُفْنيهِ فَيَنْسَحِقُ
كالغُصْن بَيْنَا تَرَاهُ ناعِماً هَدِباً ... إذْ هَاجَ وانْحَتَّ عَنْ أفْنَانهِ الوَرَقُ
كَذلِكَ المرءُ إنْ يُنْسَأ له أجَلٌ ... يُركَبْ به طَبَقٌ مِنْ بَعدِهِ طَبَقٌ(٢)

فالشّاعر، يتمثل الموت قوة عظيمة تداهم الإنسان، وهو مطمئن في عيشه، فيلقاه مستسلماً. ونظرة الشّاعر إلى الحياة، تنبثق من فلسفة إنسان زاهد فيها، فلا معنى للمال، ورغد العيش، بحضور الموت، ويظهر عجب الشّاعر، حين يرى الإنسان منعماً، ذا حيوية وعطاء، ثم سرعان ما يذوي هامداً، فيؤول إلى الهدم والتلاشي.

---

(١) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، ص ١٢٣.

(٢) كعب بن زهير- الديوان، ص ٢٢٨. الشفق: ها هنا الخوف. غلق: استحق. يُنسأ: يؤخر. وانظر الصورة عند: كعب بن زهير- الديوان، ص ٢٢٩ عنترة بن شداد- الديوان، ص ٢٦٤-٢٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأطال الإنسان الجاهليّ الوقوف عند نفسه، متأملاً، مفكراً، بمرحلة ما بعد الموت، فشكل ذلك لديه هاجساً عميقاً من الحيرة مقرونة بالمصير المجهول، ولعل ذلك، يرتبط بالفكر الوجودي الذي يسعى الإنسان الجاهليّ إلى معرفته من خلال رؤيته إلى الحياة.

وعلى الرغم من هذه الوجودية التي يبحث عنها الشاعر، فأبياته تشير إلى الاعتقاد بأن "الموت أجل مثبت، وأمر معين محتم، وهو لا يأتي إلا في حينه فإذا جاء الأجل، كان حذر الإنسان وحينه غير دافع عنه المنية إذا حلت به"[١] وقد يكون لهذا المعتقد حضور في فكر بعض الجاهليين.

ورسم بعض شعراء الجاهليّة صورة للحياة والموت، بشكل ينسجم مع فلسفته إزاءهما، يقول الشنفرى:

لا تقبُرُوني إنَّ قَبْري مُحَرَّمٌ عليكُم ولكِن أبْشِري أمَّ عَامِرِ
إذا احْتَمَلُوا رأسِي وفي الرَّأس أكثري وغُودِرَ عِنْدَ المُلْتَقى ثَمَّ سَائِرِي
هُنالِكَ لا أرجُو حَيَاةً تَسُرُّني سَجِيسَ الليالي مُبْسَلاً بالجَرَائِرِ[٢]

فالشّاعر، لا يزال يتأبى على قومه، منبتًّا عنهم حيّاً وميتاً، وفضّل أن تُرمى جثته للسباع والطير؛ لأنّها آنس إليه من قومه الذين خذلوه حياً، فشمتوا به. فقد حرّم دفنه على قومه حين يموت. والشّاعر، على وعي، بأن الناس سيطيلون النظر إلى رأسة، لا إلى سائر جسده، ينظرون إلى الرأس المدبر، الذي ضرب بكل عادات قومه، فخرج عليهم ينشد حرية القول والفعل.

وقد يبدو أن إعراض الشاعر عن دفن جثته بعد الموت يدل على عبثية الوعي الوجودي الذي رآه الشاعر فعلاً وممارسة من خلال حياته التي قضاها بين أهله وقومه محروماً من عدالة المجتمع، ولذلك، فقد رفض وجوده في المكان ممثلاً بالقبر، لأنه يشكل جزءاً من المكان الذي يعيش فيه قومه، فقد رفض الشنفرى المكان كراهية

---

(١) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٥، ص ١٥٠.

(٢) الشنفرى- شعره، الطرائف الأدبية. ص ٣٦. سجيس الليالي: امتدادها. مُبْسَلاً: مسلماً. الجرائر: جمع جريرة وهي الجناية. وانظر الصورة نفسها عند: عروة بن الورد- الديوان، ص ٩٨، أبي ذؤيب الهذلي- ديوان الهذليين، ج ١، ص ١١٥-١١٦. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤٠-٤١، ٥٧ تأبط شراً- شعره، ص ١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقومه، وإذا كان كره الحياة، فإن ذلك بسبب قومه، وهو حين لا يرجو حياة بعد الموت، يشير إلى عدم إيمانه بالبعث والنشور، وهذا كله انعكاس لظلم المجتمع وقهره الذي شكل للشاعر فلسفة الرفض الوجودي حياً كان أو ميتاً، فهو يرفض الزمان والمكان، والمجتمع الإنساني بصفة خاصة.

"والشّاعر كأنه نبّه بهذا الكلام على أنه ممن يُقتل ويُترك بالعراء، لا يرثي له شقيق، ولا يرثيه نسيب ولا رفيق، فيأتيه عوافي السباع والطير. فخاطب أصحابه وقال: لا تدفنوني إن دفني محرّم عليكم، يريهم استغناءه عنهم حياً وميتاً، ورفعة نفسه عن الاستنامة إليهم والاعتماد عليهم، وذهابه عنهم فعل المجانب لهم البعيد منهم[١]".

وعلى الرغم من اعتقاد الشّاعر الجاهليّ بالموت الذي يشكل نهاية الحياة، فقد كان كثير التوجس مما بعد الموت، ولعل "أكثر ما يخشاه الشّاعر من الموت وحدته، إذ بعد فراق الأهل والأصحاب يتركونه وحيداً في العراء"[٢].

ولذلك، كان الإنسان الجاهليّ يحاول الفرار من الموت هروباً من عاديات الزمان. يقول تأبط شرا:

فَزَحْزَحْتُ عنهم أو تَجِئْني مَنِيَّتي ... بِغَبْراءَ أو عَرْفاءَ تَفْرِي الدَّفائِنَا
كأنّي أرَاها الموتَ لا درَّ دَرُّها ... إذا أمكَنَتْ أنْيابَها والبَرَاثِنا
وقَالتْ لأُخْرىَ خَلْفَها وبَنَاتِها ... حَتُوفٌ تَنفَّى مُخَّ مَنْ كانَ واهِنَا
فأدبَرْتُ لا يَنْجو نَجَائِي نِقْنِقٌ ... يُبادِرُ فَرْخَيهِ شمَالاً وَداجِنَا[٣]

فالشّاعر، كثير الحرص على أن ينجو من مطارديه، فيفر من الموت. وقلق الشّاعر، يكمن في إبقائه قتيلاً في صحراء تتقاذفه براثن الضباع. وهذه الهواجس أخذت تعيش في إحساس الإنسان الجاهليّ الذي شغل تفكيره بالموت، ولعل "مثل هذه الأفكار، يكثر ورودها في رثاء النفس وتمازجها، كما هو واضح مخاوف الإنسانية الخالدة من الموت، ومما يأتي بعده، ومثال ذلك الخوف من الدفن

---

(١) المرزوقي- شرح ديوان الحماسة، ج ٢، ص ٤٨٨.

(٢) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٦.

(٣) تأبط شراً- شعره، ص ١٤٧. العرفاء: الضبع. النقنق: الظليم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الوحدة والظلام ومن السباع والذئاب والضباع التي تعبث بقبر الميت وجثمانه"[١].

وظهرت طائفة من شعراء الجاهليّة، اطمأنت إلى مغريات الحياة، فشاقهم أن تمسكوا بها، طمعا في الخلود، وهرباً من الموت الذي يمثل النهاية الحتمية للوجود الإنساني، لذلك، راح الشّعراء يتبادلون الوصايا وهم أحياء، يعبرون فيها عن تشبثهم في الحياة. من ذلك، ما أوصى به المتلمس الضبعي صديقيه، فيقول:

خليليَّ إمَّا مِتُّ يَوْماً وزُحزِحَتْ ... مَنَايَاكُما فيما يُزَحزِحُه الدَّهْرُ
فَمُرَّا عَلَى قَبْرِي فَقُوَما فَسلِّما ... وقُولا: سَقَاكَ الغَيْثُ والقَطْرُ يا قَبْرُ
كأنَّ الَّذِي غَيَّبْتَ لَمْ تلْهُ ساعَةً ... مِنَ الدَّهْرِ، والدُّنيا لها وَرَقٌ نَضْرُ
ولم تَسْقِهِ منها بَعَذْبٍ مُمَتَّعٍ ... بَرُودٌ، حَمَتْهُ القومَ رجراجَةٌ بكرُ
ولَمْ يَصْطَبِحْ في يَوْمِ حَرٍّ وقِرَّةٍ ... حُمَيَّا فَدبَّتْ في مَفاصِلِه الخَمْرُ[٢]

فالشّاعر، يفترض أنه سيموت قبل صديقيه، فراح يطلب منهما أن يُمرّا على قبره، ويدعوا له بالسقيا والخير، تعويضاً له عما فاته من تحقيق الآمال، وهو على قيد الحياة.

والشّاعر، يظهر طمعه في أن ينال قسطاً وافراً من الحياة، فقد يبدو حرمانه منها واضحاً، فلا نساء، ولا خمر، كأنه وجّه حياته نحو غايات بعيدة عن عبثية الحياة، من لهو بالنساء وشرب خمر.

والأبيات تكشف عن نفسية الشّاعر القلقة، فهو يخشى أن يصرعه الدهر، فيفوته نعيم الدنيا، كأن الموت غدا المفصل الزّمني الذي يشكل هاجس القلق للإنسان الذي حاول "في كل زمان ومكان أن يقهر الزمان ويصرع الشر، ويسحق الموت، ولكنه لم يلبث أن تحقق من أن صراعه اليائس ضد هذا الثالوث المارد الجبار، إن هو إلا جهد ضائع لا بد أن يبوء بالفشل والخيبة والدمار"[٣].

---

(١) مصطفى جياووك- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص ١٧٣.

(٢) المتلمس الضبعي- الديوان، ص ٢٥٦-٢٥٧. الرجراجة: المرأة التي يترجرج كفلها. الحميا: دبيب الشراب.

(٣) زكريا إبراهيم- مشكلة الإنسان، ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والموت حين يفتك بالإنسان، فإن سرّ العلاقة الوجودية بين الناس تصاب بالإعدام، ففي الموت، إفناء للعلاقات الإنسانية، وتدمير للوجود، يقول عبيد بن الأبرص:

كَمْ مِنْ فَتَى مثلِ غصْنِ البانِ في كرَمٍ مَحْضِ الضريبَةِ صلْتِ الخَدِّ وَضَّاحِ
فَارَقْتُهُ غَيْرَ قَالٍ لي ولَسْتُ لَهُ بالقَالِي أَصْبَحَ في مَلْحُودَةٍ نَاحِي
هلْ نَحْنُ إلاَّ كأَجْسَادٍ، تَمُرُّ بها تَحْتَ التُّرابِ وأرواحٍ كأَرْواحِ[1]

فالشّاعر، يبحث عن سر وجوده، فلا يكاد يدرك شيئا من ذلك، سوى أنه خلق مع أناس، كانوا على قدر من مكارم الصفات يرتبط بعضهم بعضاً بحزمة من القيم الإنسانية والاجتماعية، فعاشوا معاً على المحبة، وتفرقوا عليها، ثم يتساءل الشّاعر عن عنصر الحياة الذي يتمثل في الجسد والروح، فيقر أن الإنسان سيؤول إلى الفناء فتتحلل عناصره مع جزئيات التراب. فكأن معتقد الشّاعر قاده إلى ماهية الإنسان حياً وميتاً.

البعث والحساب

في الشعر الجاهليّ ملامح عقدية متفرقة، تشير إلى الاعتقاد بالقيامة، والبعث والحساب. وثمّة طائفة يسيرة من شعراء الجاهليّة أشاروا إلى هذه الرؤية العقدية. يقول السموأل بن عادياء:

أليَ الفَضْلُ أم علي إذا حُو سِبْتُ أنّي على الحِسَابِ مُقِيتُ
وأتاني اليقِينُ أنّي إذا متُّ وإنْ رَمّ أعْظُمِي مَبْعُوت
هَلْ أقولَنَّ إذْ تَدارَكَ ذَنْبِي وتذكَّى عَلَيَّ إنِّي نُهِيْت؟
أبِفَضْلٍ مِنَ المَلِيكِ ونُعْمَى أمْ بِذَنْبٍ قَدَّمتُهُ فَجزِيتُ؟[2]

يصور الشّاعر نفسه، وقد بعث من القبر، بعد أن فني جسمه، وبليت عظامه، فيأتيه الحساب يوم النشر بما قدم من خير أو شر، فيثاب عليه، أو يعاقب، فإذا أصاب جزاء أو ثواباً، كان بفضل ذنب تداركه وابتعد عنه، وإذا كان اقترف ذنباً ففضل الله كبير، ورحمته واسعة. والبعث في معتقد النابغة الجعدي، شهادة لا

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤١. الضريبة: الطبيعة.

(٢) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨١-٨٢، مقيت: مقتدر. رمّ: بلي، مبعوت: لغة في مبعوث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينكرها أحد، فيقول:

ثُمَّتَ لا بُدَّ أن سيجمَعُكم واللهِ، جَهْراً شَهادةً قَسَما
فائتمِرُوا الآنَ ما بَدَا لكُمُ واعتَصِمُوا إنْ وَجَدْتُمُ عِصما
في هذهِ الأرضِ والسَّماءِ ولا عِصمةَ منه إلاّ لِمَنْ رَحِما(١)

فالشّاعر، يوضح نزعته الدينية المتمثلة في دعوة الناس جميعاً إلى أن يعتصموا بحبل الله، وعدم الخروج على طاعته، وأن الله تعالى سيجمع الناس للحساب جهرا وعلانية. فالفطِن في هذه الأرض، هو من منع نفسه عن الذنوب، لينال الأجر والثواب. وأميّة بن أبي الصّلت، خير من يصوّر البعث والقيامة، فيقول:

والنَّاسُ راثَ عليْهِمْ أمرُ ساعتِهِمْ فكُلُّهمْ قَائِلٌ للدِّين أيَّانا
أيَّام يلقى نَصاراهُمُ مَسِيحُهُمُ والكَائنِينَ لَهُ وُدّاً وقُرْبانا
لا تَخْلِطَنَّ خَبِيثاتٍ بطيِّبةٍ واخْلَعْ ثِيابَكَ مِنْها وانْجُ عُريانا
كُلُّ امرىءٍ سَوفَ يُجزَى قرْضَهُ حَسَنا أو سَيِّئاً ومَدِيناً كالَّذي دانا(٢)

فالشّاعر، يكشف عن الاتجاه الديني الذي يعتنقه النصارى وهم يتساءلون عن يوم القيامة، يوم يلتقي المسيح أتباعه الذين قدموا له القرابين، ليقودهم إلى الخير والنجاة. والشّاعر، يقدم النصح للإنسان بعامة، فينهاه أن يخلط أعمال الخير بالشر لأنّ كل إنسان سيُجَازى بما عمل خيراً كان أو شراً.

ولعل الأبيات السابقة، تشير إلى وجود أثر من آثار ثقافة أمية الدينية، فإذا فهمنا قوله "أمر ساعتهم بمعنى نهايتهم، وجدنا هذا المعنى في بعض المواضع من الإنجيل. فالناس ينتظرون تلك الساعة التي يعود فيها ابن الإنسان، وهو السيد المسيح إلى الأرض، وقد أبطأت عليهم، فراحوا يتساءلون عنها. وهذه الساعة هي موعد التقاء النصارى بمسيحهم عليه السلام"(٣).

---

(١) النابغة الجعدي- شعره، ص ١٣٤. ائتمروا: أجمعوا آراءكم. العِصمة: المنعة.

(٢) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥١٩-٥٢٠، راث أبطأ ساف الشيء: شمه.

(٣) أمية بن أبي الصلت- الديوان، انظر: ص ١٨٢-١٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون من الأهمية إذا قلنا بأن معرفة أمية بن أبي الصلت بشؤون الدين والدنيا يعود إلى أنه كان "يتجر إلى الشام، فتلقاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى، فقرأ الكتب، وكان قد علم أن نبياً يبعث من العرب، وكان يقول أشعاراً على آراء أهل الديانة، يصف فيها السموات والأرض، والشمس والقمر والملائكة وذكر الأنبياء والبعث والنشور والجنة والنار"(١).

وحاتم الطائي، يعتقد بالبعث والحساب، فيؤمن أن كل إنسان مرهون بعمله يقول:

وإنِّي وَإنْ طالَ الثَّواءُ لميِّتٌ ... ويَعْطِمُني ماويَّ بَيْتٌ مُسَقَّفُ
وإنِّي لمجْزِيٌّ بما أنا كاسِبٌ ... وكلُّ امرىءٍ رَهْنٌ بما هو مُتْلِفُ(٢)

فالإنسان لا شك ميت وإن طال ثواؤه في الدنيا وسيحاسب بما قدمت يداه.

ويوم الحساب في معتقد زهير بن أبي سلمى، محفوظ في كتاب مدّخر إلى أجل مسمى. يقول:

فَلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكُم ... ليَخْفَى ومهما يُكْتمِ اللّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ في كتابٍ، فَيُدَّخَرْ ... ليومِ الحِسَابِ أو يُعجَّلْ فيُنْقَمِ(٣)

فالشّاعر، يهدف إلى توجيه أنظار الناس إلى الإيمان بالله تعالى، وأن كل ما يخفيه الإنسان من قول أو فعل في قلبه، فإن الله يعلمه، فيعجل له جزاءه، أو يتركه إلى يوم الحساب.

ومقابل فئة من يعتقد بالبعث والحساب، فقد وجد نفر من الجاهليّين أنكروا البعث. فهذا سراقة بن عوف بن الأحوص، يلوم لبيد بن ربيعة حين قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أصيب عامر بن الطّفيل بداء فمات فيه، فرجع لبيد إلى قومه يذكر لهم البعث والجنة والنار، يقول سراقة:

لَعمْرُ لبيدٍ إنَّهُ لَابْنُ أُمِّهِ ... ولكِنْ أبوه مَسَّهُ قِدَمُ العَهدِ
دَفَعْناكَ في أرْضِ الحِجَازِ كأنَّما ... دَفَعْنَاكَ فَحْلاً فوقَهُ قَزَعُ اللِّبْدِ

(١) المسعودي- مروج الذهب، ج ١، ص ٧٠.

(٢) حاتم الطائي- الديوان، ص ٧١. يعطمني: يهلكني.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَعَالَجْتَ حُمَّاهُ وَدَاءَ ضُلُوعِهِ وترنيقَ عَيْشٍ مَسَّهُ طَرَفُ الجَهْدِ
وَجِئْتَ بِدِينِ الصَّابِئِينَ تَشُوبُهُ بألواح نَجْدٍ بُعْدَ عَهْدِك مِنْ عَهْدِ
وإنَّ لَنَا داراً -زَعَمْتَ- وَمَرْجِعاً وَثُمَّ إيَابُ القارِظِينَ وذي البُرْدِ[١]

فالشّاعر، يحرص على أن يرد لبيد الشّاعر إلى عهود سابقة، فيعتنق دين آبائه، دون أن يحدث في ذلك شيئاً جديداً. واللوم بائن في لغة الخطاب الشعري، وتخوف الشّاعر من لبيد، يكمن في أنه سيؤثر على معتقد الناس، لأنّه جاء بدين جديد قد يحدث فيه ثورة فكرية في معتقد ذلك المجتمع. وتبدو قسوة الشّاعر على لبيد لأنه غير مسار المهمة الصحية التي أرسل من أجلها، ففاجأ الناس بانقلاب عقدي فكري، تمثل باعتناق دين محمد الذي ردّه إلى دين الصابئين، ثم قال إن لنا ادينا ومعتقدا لا يحق الرجوع عنه أو تجاوزه.

وهذا، يترجم عقلية الجاهليّين البسيطة التي "لم يكن بوسعها أن تؤمن بحياة أخرى، وخيالهم لم يتسع إلى تصور نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد بمواد الأرض وصيرورته هيولى جديدة"[٢].

---

(١) سراقة بن عوف- أشعار العامريين الجاهليين: ص ٧٩. القزع: بقايا الشعر. اللبد: ما يجعل على ظهر الفرس. القارظون: جمع قارظ. والقرظ: شجر يدبغ به.

(٢) محمود سليم الحوت- في طرق الميثولوجيا، ص ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

القيم الإنسانية

في مفهوم القيمة

طرق الشعر الجاهليّ مجموعة من القيم الاجتماعية، انبثقت عن رؤية المجتمع الجاهليّ وفلسفته في الحياة، وتعددت هذه القيم بتعدد الرؤى الاجتماعية وألوان الحياة، فالقيم الإنسانية "هي في جوهرها جزء أصيل من كيان الإنسان، وهي وثيقة الصلة بالجانب الروحي فيه"، لأنها تصدر عن طبع كامن في السلوك البشري[١]. فقد نجد مجموعة القيم مرتكزة بشكل واضح، على طول التجارب الإنسانية، وهذه التجارب، منطلقة من طبع الإنسان، وأخلاقه، يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

كُلُّ امرىءٍ صَائِرٌ يَوماً لِشِيمَتِهِ ... وإنْ تَخَلَّقَ أَخْلاقاً إلى حِينِ
إنّي لعَمْرُك ما بَابِي بذِي غَلَقٍ ... عن الصَّدِيقِ ولا خَيْرِي بِمَمْنُونِ[٢]

يكشف الشّاعر عن مكنونات سرائر الإنسان التي ستظهر بالطبع والبديهة ومهما حاول الإنسان أن يخفيها، فإن طبعه غالب على تطبعه، ويضع الشّاعر للناس، مدخلاً حياتياً لعلهم يتخذونه قدوة، ويبين لهم منهج حياته الذي ينطلق من سجيته، فمن طبعه، أنه لا يؤذي الناس بل يعاملهم بالخير والمعروف، وأنه يحترم صديقه فلا يغلق دونه باباً أو خيراً.

وكذلك يجب على الإنسان أن يكون واضح النهج والمسار، يأتي الأمور من مداخلها الصحيحة، لا يماري في الحقيقة، ولا يناهز الباطل، يقول قيس بن الخطيم:

فَمَا المالُ والأخلاَقُ إلا مُعَارَةٌ ... فما اسْطَعْتَ من مَعْرُوفِها فَتَزَوَّدِ
متَى ما تَقُدْ بالبَاطِلِ الحقَّ يأبَهُ ... وإن قُدْتَ بالحقِّ الرَّوَاسِي تَنْقَدِ

(١) محمد قطب- دراسات في النفس الإنسانية، انظر: ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) ذو الاصبع العدواني- الديوان، ص ٩٤. الممنون: المقطوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متى ما أَتَيْتَ الأَمْرَ من غَيْرِ بابه ضَلِلْتَ وان تَدْخُل من البَاب تَهْتَدِ[١]

فالدنيا زائلة بكل ما فيها من مال ومتاع، والكيس الفطن، من تزود بالمعروف وتسلح بالحق، وواجه الأمور بما هي فيه من واقع وصواب[٢].

وقد حث المجتمع الجاهليّ، على التعامل الحسن الذي يقوم على المودة الخالصة لأنّ الإنسان لا يذكر إلا بما يتصف به من مناقب حميدة، يقول زهير بن أبي سلمى:

تَرَاهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهلِلاً كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذي أَنْتَ سَائِلُهُ
لَعِشْنَا ذَوِي أيدٍ ثَلاثٍ وإنَّمَا الـ حَيَاةُ قَلِيلٌ والصَّفَاءُ التَّبَاذُلُ[٣]

تتوق نفس الشّاعر، إلى الإنسان ذي الطبع الذي يتهلل بشرا فينظر إلى الناس، نظرة بذل ومودة، دون أن يساوره أي سوء، وكأن الشّاعر ينطلق من مبدأ فلنعمل يداً بيد، وليكن شعارنا العيش معا في وئام.

وقد جعل الشاعر الصفاء والبذل معيارين أساسيين لتوثيق الصلات الاجتماعية بين الناس، وهذا الجود الذي يبذله الشاعر، هو جزء من العدل الذي يعد فضيلة، ذلك لأن "فضائل الناس على ما اتفق عليه أهل الألباب إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة فإذا وصف الشاعر إنساناً بالجود الذي هو أحد أقسام العدل وحده فيفرق فيه فلا يسمى مخطئاً لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله"[٤]، وانظر إلى كريم أخلاق حاتم الطائي حين يقول:

وأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الكَرِيم ادِّخَارَهُ وأَصْفَحُ عن شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّما[٥]

فالشّاعر بحكمته ورجاحة عقله، وحسن معاملته، قادر على أن يستوعب متناقضات قومه، فلا يكاد يخلو قومه من مذمة أو نقص، فشتم الكريم واللئيم،

---

(١) قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٣٠.

(٢) انظر مثل هذه الصور في السجايا والطباع عند: قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٥١-١٥٢. النمر بن تولب- شعره، ص ٥٦-٥٧. حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٦. أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٤٣٦. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٦٧.

(٤) قدامة بن جعفر- نقد الشعر، انظر: ص ٦٥-٦٦.

(٥) حاتم الطائي- الديوان، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغني، والفقير، ويأتي دور الشّاعر، ليمحو هذه العيوب، ويظهر أبناء قومه على أنهم الصفوة المختارة من بين طبقات المجتمع الجاهليّ.

ومهما بلغ قومه من سلبيات ومساوىء، فهو واحد منهم، لذلك هو كريم التعامل، حين يصفح زلات الكرام، وعيوب الأشرار، وربما لا يكون ذلك الفضل، تكريماً لهم، بقدر ما يكون دفاعاً عن شرف القبيلة.

والإنسان لم يترك وراءه بعد موته، سوى عمله الذي يرتفع به أو يذل، يقول عمرو بن قميئة:

وَما عَيْشُ الفَتَى في النَّاسِ إلا كما أَشْعَلْتَ في رِيحٍ شِهَابا
فيَسْطَعُ تَارةً حَسَناً سنَاهُ ذَكِيُّ اللَّوْنِ ثم يَصِيرُ هَابا[1]

فالإنسان يحظى بالمكانة والحفاوة، كلما كان قادراً على أن يترك وراءه عمل الخير؛ لأنّ الإنسان، إما أن يسطع نجمه، بفعل أعماله الحسنة، أو يخبو دلالة على سوء أعماله[2].

ومن قيم الإنسان الجاهلي الإيثار، وفداء الآخرين بالنفس، يقول الحارث بن حلزة:

أَهْلِي فِدَاءُ بَنِي شَبِيم كُلِّهِمْ وبَنِي الحَرَامِ وجَمْعِ آلِ مُطيّعِ
والعَامِرِينَ شَبَابِها وكُهُولِها وبَنِي المَسَيَّبِ يوم دَعْوَةِ لَعْلَعِ[3]

فالشّاعر يفدي أبناء هذه القبائل شباباً وكهولاً بأهله، إذ ليس عبثاً أن يقدم على هذا العمل، إلا بوجود وازع قد دفعه إلى اتخاذ هذا القرار. والذي يبدو أن الشّاعر وقومه قد دعوا هذه القبائل، للوقوف معهم ضد أعدائهم في موقعة لعلع فلبوا النداء، وقد حفظ الشّاعر لهم ذلك، فآثرهم على قومه في كل شيء.

ومن صور الإيثار التي كانت تعد قيمة يفخر بها الشّاعر الجاهليّ، ما قاله حاتم الطائي:

---

(١) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٧٧.

(٢) انظر هذه القيمة عند: الحادرة- الديوان، ص ٧١-٧٢. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٧. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٤٥. حاتم الطائي- الديوان، ص ٥١، ٨١، ٩٠-٩١.

(٣) الحارث بن حلزة- الديوان، ص ١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإني لأَقْرِي الضَّيْفَ قَبْلَ سُؤَالِهِ وأَطْعَنُ قِدْما والأَسِنَّةُ تَرْعُفُ
وإنِّي لأُخْزَى أن تُرَى بيَ بِطْنَةٌ وجارَاتُ بَيْتِي طَاوِياتٌ ونُحَّفُ
وإنِّي لأُعْطِي سَائِلِي ولربَّما أُكَلِّفُ ما لا أَسْتَطِيع فَأكلَفُ[١]

فقد نرى الطائي، يقدم كل ما يقدر عليه من فعل الخير إلى الآخرين، فهو يفاجىء الضيف بإكرامه، والقيام على خدمته، قبل أن يقبل عليه، ثم يرى عيباً كبيراً عليه، أن يأكل ونساء جيرانه خاويات البطون جائعات. ويبادر أي سائل بتقديم العطاء له قبل أن يسأله.

ويحاول حاتم هنا أن يحقق مبدأ المساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات، وبذلك فإنه يترجم مفهوم الشاعر المثالي الذي يرى أن "الطبيعة الإنسانية تكاد تكون متقاربة بين الأفراد، والفروق التي بينهم فروق عرضية أكثر منها جوهرية بل إنه يرى الإنسان الكبير في الصغير، والأمير في الحقير[٢].

ويسعى الشاعر إلى تحقيق سعادة الناس جميعاً عن طريق العلاقات الشخصية القائمة بين الأفراد لاكتساب قيمة الخير "فالخير الشخصي أحسن أخلاقياً من خير هو جزء من المصالح المكونة له، ومن ثم يكون الخير الاجتماعي أحسن أخلاقياً من الخير الشخصي، ويكون خير الإنسانية أحسن من خير أية جماعة أضيق"[٣].

وقد مر بنا القول بأن حاتم الطائي كان يعاني الفقر أحياناً، لكن شرف أصله، وكريم فعاله، ونفسه السمحة، تأبى إلا أن يستحوذ على هذه القيم التي يعدها جزءاً من شخصيته الإنسانية[٤].

وكان بين أوساط المجتمع الجاهليّ أناس، أكسبتهم تجاربهم الحياتية قيماً إنسانية سامية تشكلت في إطارها الزّمني إلى أسس وقوانين تنتظم بها المجتمعات، وكانت هذه التجارب خبرات مكتسبة، يقدمها الآباء لأبنائهم، على شكل وصايا لعلها تنفعهم في معترك الحياة، من ذلك ما قاله عمرو بن معد يكرب:

---

(١) حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٠-٧١.

(٢) أحمد أمين- النقد الأدبي، ص ١٠٧.

(٣) رالف بارتن بيري- آفاق القيمة، ص ١٤٩.

(٤) وانظر هذه القيمة كذلك عند: حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٢، ٨٦، تابط شراً- الديوان، ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَد نِلْتَ مَجْداً فحَاذِرْ أن تُدنِّسَهُ ... أبٌ كريمٌ وجَدٌّ غَيْرُ مُؤْتَشِبِ
أَمرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَل ما أُمِرْتَ به ... فقد تَرَكْتُكَ ذا مَالٍ وذَا نَشَبِ
واترُكْ خَلائِقَ قَوْمٍ لاخِلاقَ لهم ... واعْمِدْ لأَخْلاقِ أَهْلِ الفَضْلِ والأَدَبِ
وإنْ دُعِيتَ لِغَدْرٍ أو أُمِرْتَ به ... فاهْرُبْ بنَفْسِكَ عنه أبدَ الهَرَبِ[١]

فقد ورث الشّاعر عن آبائه مالاً ثابتا، تمثل في فعل الخير، فقد أوصاه بأن يكون من أهل الفضل والأدب، وهذه صفات جديرة بأن تصنع للمجتمع أمجاده التي تشكل له ثوابت بنائه.

إن فلسفة الشاعر الإنسانية تقضي ببناء مجتمع يعمل أفراده على غرس القيم الاجتماعية الفضلى فيما بينهم، وقد رأينا الشاعر يحافظ على ابنه بوصفه واحداً من أبناء المجتمع الإنساني يخضع لهذه القيم ، ومن هنا، نرى أن "الا لتئام الاجتماعي يعود في جلّه إلى ضرورة دفاع المجتمع عن نفسه"[٢].

وكان بعض الشّعراء، يفخر بقومه، لما يتصفون به من فضل، يقول النابغة الذّبياني:

للّهِ عيْناً مَنْ رَأى أَهْلَ قُبَّةٍ ... أضَرَّ لِمَنْ عَادَى وأَكْثَرَ نَافِعا
وأَعْظَمَ أَحْلاماً وأكْثَرَ سَيِّداً ... وأَفْضَلَ مَشْفُوعاً إليه وشَافِعا
غَدَاةَ غَدَوا منهم ملُوكٌ وسُوقَةٌ ... يُوَصّونَ بالأَفْضَالِ أَبْيَضَ بَارِعا
متَى تَلْقَهم لا تَلْقَ للبَيْتِ عَوْرَةً ... ولا الضَّيْفَ مَمْنُوعاً ولا الجَارَ ضَائِعا[٣]

فالشّاعر، لا يريد أن يتمثل الأمجاد التي ورثها عن حسبه الرفيع، لأنّه مارسها قولاً وعملاً، فعبر عنها شعراً يريد به أن يبني مجتمعا يأخذ أبناؤه بفعل الخير، وكسب الفضائل. وقد يعقد الشّاعر، مقارنة بين رؤية أبيه إلى الحياة من خلال أبعاد اجتماعية متعددة، ورؤية الآخرين الذين لا يتجاوز الواحد منهم معرفة نفسه، بسبب الانغلاق الاجتماعي، الذي أفقده الخبرة الحياتية.

---

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٤٧. المؤشب: المختلط. النشب: المال الثابت، الخلاق: النصيب، أبد الهرب: شديده.

(٢) هنري برجسون- منبعا الأخلاق والدين، ص ٣٩.

(٣) النابغة الذبياني- الديوان. ص ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأهل قبة رهط الشّاعر، قوم ذوو فضل وحلم لمن يعاملهم بالحسنى، فهم سادة وملوك وعوام، لا يقدمون إلا فضائل الأعمال وأحسنها نفعاً، ولا يعرفون سوى إكرام الضيف واحترام الجار. ويمكن القول بأن "الإسراع إلى إجابة المستغيث، وحماية اللاجيء، وإكرام النازل، والدفاع عن الجار، والمبالغة في الإسراف إلى حد الإتلاف، وضرب الخمر، من الأمور التي كان يتباهى بها الجاهليون"(١). ويقدم ذو الإصبع العدوانيّ صورة أخرى لذوي الفضل والكرم، يبين دورهم في تماسك المجتمع عن طريق الحث على ضرورة التآخي بين أبناء المجتمع، يقول:

أَخِ الكرامَ إنِ اسْتَطَعْـ ـتَ إلى إخائهم سَبيلا
واشْرَبْ بكأْسِهم وإن شَرِبُوا به السُمَّ الثَّمِيلا
إنَّ الكِرَامَ إذا تُوا خِيهم وَجَدْتَ لهم فُضُولا(٢)

فقد يعد الشاعر دعوته إلى المؤاخاة فضيلة اجتماعية، ترمي إلى ضمان الحقوق عن طريق التكافل الاجتماعي، ولعل ذلك كان من المبادىء الاجتماعية التي تنزع إليها نفسية الإنسان الجاهلي فقد كان "تنافس القبائل في السيادة والعزة والطموح جعل الفرد منهم محباً للزهو ميالاً إلى المباهاة وحب الظهور، فشاع لديه إكبار الجميل وصنع المعروف ومد يد العون والمساعدة للمحتاجين"(٣).

فالشّاعر ذو تجربة بأهل الفضل، وهو يطلب من الإنسان بعامة أن يواخيهم، وأن يحذو حذوهم؛ لأنّ من يتقرب إليهم، يجد منهم الفضل والخير لا ينكثون عهداً ولا يغدرون(٤).

ومن القيم التي درج عليها الإنسان الجاهليّ، ما تمثل في الحلم والأناة، وقد يكون للحياة بأشكالها المختلفة كبير الأثر في إبراز هذه القيمة لدى إنسان ذلك

---

(١) علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي، ج ١، ص ٧٨.

(٢) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٧٢.

(٣) علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي، ج ١، ص ٧٨.

(٤) انظر صور الفضل والمعروف عند: عمرو بن شأس- شعره، ص ٤١. عنترة- الديوان، ص ٢٤٩-٢٥٠، ٣٠٨، ٢٨٨. حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٠. امرىء القيس- الديوان، ص ١٩٧. زهيربن أبي سلمى- شعره، ص ٢٢٠-٢٢١. أبي زبيد الطائي- شعره، ص ٧٨-٧٩. أبي دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣١٠. عدي بن زيد- الديوان، ص ٣٤، ١٠٤، ١٠٨-١٠٩، ١٢٠. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٦٦. المثقب العبدي- الديوان، ص ٢٥٧. العباس بن مرداس- الديوان، ص ٤٩، ١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصر، يقول الأعشى:

وإنّي لترّاكُ الضّغينَةِ قد أرى ... قَذَاها مِنَ المَوْلَى فلا اسْتَثيرُها
وَقُوّر إذا ما الجَهْلُ أعْجَبَ أهْلَهُ ... ومِنْ خَيْرِ أخْلاقِ الرِّجالِ وُقُورُها
وقَدْ يَئِسَ الأعْداءُ أن يَسْتَفِزَّني ... قِيَامُ الأُسودِ وَثْبُها وزَئِيرُها[1]

تعكس الأبيات واقع المجتمع الجاهليّ الذي كان الأعداء يحاولون إيقاع الفتنة بين أبناء القبيلة الواحدة، فالأعشى يتغاضى عن الأحقاد التي تصدر من قريب، أو صديق، حتى لا يطمع الكاشحون ويلتزم الرزانة والحلم في مواجهة الجهل وأصحابه؛ ليفوت الفرصة على أعدائه الذين يحاولون إثارته. فالأعشى، ليس ممن يستثار ويستفز، بل هو يزن الأمور وعواقبها بميزان الحلم والأناة.

وانظر إلى الصورة التالية التي يتمثلها زهير بن أبي سلمى، يبين فيها حلم قومه ورشادهم الذي أكسبهم مجداً وشرفاً، يقول:

وإنْ جِئْتَهُمْ ألْفَيْتَ حولَ بُيوتِهم ... مَجَالِس قد يَشْفَى بأحْلامِهَا الجَهْلُ
وإن قَامَ فيهم حَامِلٌ قال قَاعِد ... رَشَدْتَ فلا غُرْمٌ عليك ولا خَذْلُ
سعَى بعدهُم قومٌ لكي يُدْرِكُوهُمُ ... فلم يفْعَلُوا ولم يُلِيمُوا ولم يألُوا
فَمَا يكُ من خَيْرٍ أتَوْهُ فإنَّمَا ... توارَثَهُ آباءُ آبائِهم قَبْلُ
وهلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُه ... وتُغْرَسُ إلاّ في مَنَابِتِها النَّخْلُ[2]

يصف الشّاعر عراقة قومه، وما اكتسبوا من حلوم توارثوها عن الأباء والأجداد، فتاريخ هذه القبيلة مفعم بالأصالة. وآية ذلك، أن الشّاعر، وهو يصف مجالس قومه، يذكر كيفية الحديث، والآراء التي تدور فيها، وكيف يحترم الواحد منهم رأي الآخر، لا يسفّه بعضهم رأي بعض. فجميع الآراء تحترم وتقدر، حتى إذا استمع الجاهل إلى مثل هذه الحلقات، فإنه يصبح راشداً حليماً.

وثمّة أقوام حاولوا السير على نهج قوم الشاعر، فترسموا خطاهم ليدركوا المجد والشرف، أو لينالوا منزلتهم فما قدروا على ذلك لأنّ مثل هذه المنازل لا

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٤٠٩.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٤٣-٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبلغها إلا ذووها، فالنخل، لا ينبت إلا في منابته الأصيلة، والقناة لا تنبت إلا قناة، وكذلك الحال فإن الإنسان ومنبته كريماً كان أو وضيعاً.

وأشار بعض الشّعراء الجاهليّين، إلى صفة الجهل، وعدوها طبعاً غالباً على الناس في حين، أن الحلم نادر فيهم، يقول علقمة الفحل:

والجَهْلُ ذو عَرَضٍ لا يُسْتَرَادُ له ... والحِلْمُ أَوْنَةَ في النَّاس مَعدومُ
ومُطْعَمُ الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُه ... أنَّى توجَّهَ والمحْرُومُ مَحْرُوم[١]

فكأن الشّاعر يقر من خلال تجربته الحياتية، أن الجهل أول ما يعرض للإنسان، وهو فعل يسبق الحلم، وقد يكون ذلك، مرتبطاً بنوازع الشر لدى الإنسان تعبيراً عن النفس الشريرة المتجذرة في الخَلْق. وقد يكون ذلك، مرتبطاً بطبيعة المجتمع الجاهليّ الذي يسود أبناءه الجهل ويقل فيهم الحلم. وقول عمرو بن كلثوم:

ألاَ لا يَجْهَلَنْ أَحدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَل فوقَ جَهْلِ الجَاهِلينا[٢]

أكبر دليل على السفه والطيش والحمق، وقد أخذت تطلق على العصر السابق للإسلام، وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنفي من موبقات[٣].

وقد نرى بعض شعراء الجاهليّة يتمحل الحلم، تقديراً لأواصر القربى، وحفاظاً على العلاقات الإنسانية والروابط الاجتماعية، يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

ولا تَرَى فِيَّ غَيْرَ الصَّبْرِ مَنْقَصَةً ... وما سِواهُ فإنَّ اللّهَ يكْفِيني
لولا أَوَاصِرُ قُرْبَى لستُ تحفَظُها ... ورَهْبَةُ اللّه في مَوْلَى يُعَادِيني
إذا بَرَيْتُك بَرْيا لا انْجِبارَ له ... إنّي رأَيْتُكَ لا تَنْفَكُّ تَبْرِيني[٤]

فالشّاعر لا يرى في نفسه منقصة سوى تحليه بالصبر، وقد يفتعل هذه الصفة لأمرين: الأول، لتبرير شعوره بالضعف من خلال إثبات صفة الكمال له؛ لأنّ الحلم غاية صعبة المنال. والآخر، لأنّه تكلف الحلم مخافة الله وحفاظاً على صلة

(١) علقمة الفحل- الديوان، ص ٦٦. يستراد: يرتاد. الغنم: الرزق.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٧٨.

(٣) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، انظر: ص ٣٩، وانظر: أحمد أمين- فجر الإسلام، ص ٧٠.

(٤) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٩٠-٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرابة مع مولاه الذي يكنّ له العداوة والحقد. وقد يستدل من النص أن الشّاعر، غير صبور فهو لا يأخذه أي حلم بأعدائه إذا أضمروا له الشر والأذى. وقد يدرك كذلك، أن أفضل درجات الحلم، تكمن فيمن يكظم الغيظ، ويصبر على ذوي الظلم، وخير مثال لذلك، ما يقوله السموأل بن عادياء:

إنَّ حِلْمِي إذا تَغَيَّبَ عَنِّي فاعْلَمِي أنَّنِي كَبِيرا رُزِيتُ
ضَيِّقُ الصَّدْرِ بالأَمَانَةِ لا يُفْجِعُ فَقْرِي أَمَانَتِي ما بَقِيتُ
رُبَّ شَتْمٍ سَمِعْتَهُ فَتَصا مَمْتُ وغَيٍّ تَرَكْتُه فَكَفِيتُ[١]

فالحلم سيد الأخلاق، ولا يكاد امرؤ، يشك فيما بلغه السموأل، من تمثلٍ لقيمة الحلم حتى بلغت عنده درجة الإسراف.

وتأكيد الشّاعر، على أنه سيبلى برزء عظيم إذا غاب عنه حلمه، دليل على قدرة الإنسان في حكم السيطرة على النفس، فالشاعر ضيق الصدر بالأمانة غير صبور على تحملها ما لم يؤدها إلى أهلها، يتجاوز إساءات الآخرين ويجعل ذلك دبر أذنه ليس ذلك عن ضعف، بقدر ما يكون عن حكمة في التصرف[٢].

ومن قيم الإنسان الجاهليّ الوفاء بالعهود والأمانات، وتنبثق هذه القيم من تجانس العلاقة بين الناس التي قد ترتبط أحياناً بالمواثيق على صعيد الفرد، أو الجماعة، من ذلك مثلاً، قول حاتم الطائي، يخاطب الحارث بن عمرو حيث أطلق أسرى رهط حاتم، يقول:

أبلغ الحَارِثَ بنَ عَمْرٍو بأنِّي حَافِظُ الودِّ مُرصِدٌ للصَّوَابِ
ومُجِيبٌ دُعَاءَهُ إنْ دَعَانِي عَجِلا واحِدا وذا أَصْحَابِ[٣]

إن ارتباط قيمة الوفاء بالعهود والمحافظة عليها لها أثر كبير في تشكيل النظام الاجتماعي، وتحديد طبيعته، والحوار بين الشّاعر، والحارث بن عمرو أدى

---

(١) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨١.

(٢) انظر صور الحلم عند: قيس بن زهير- شعره، ص ٣٣. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٥٩-٦٠، ٢٦٢. الأعشى- الديوان، ص ٣٧٣. عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٢٩. أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٧٧-٧٨، ٨٣. طرفة بن العبد- الديوان، ص ٤٢. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٠١.

(٣) حاتم الطائي- الديوان، ص ٢٧. مرصد: مكافىء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى تحديد العلاقة من جهة، وإلى نشر الوعي الاجتماعي الذي يقوم على تقدير الإنسان واحترام حقوقه من جهة أخرى. فالاستجابة التي حصل عليها حاتم الطائي بفك أسرى رهطه، تجعل منه إنساناً ينضم إلى لواء الحارث ويحفظ ودّه.

والإنسان الجاهليّ، حريص بطبعه، على إتمام العهود، وصدق نوايا أصحابها وهو يفضل هذا الجانب الإنساني؛ لأنّ مخاطر الحياة، تجعله أكثر ميلاً إلى الشعور بالأمان والاطمئنان، يقول المثقب العبدي:

لا تَقُولَنَّ إذا ما لم تُرِدْ ... أن تُتِمَّ الوَعْدَ في شَيءٍ نَعَم
حَسَنٌ قَولُ نَعَمْ مِنْ بعدِ لا ... وقَبِيحٌ قَولُ لا بَعْدَ نَعم
إنَّ لا بَعْدَ نَعَمْ فَاحِشَةٌ ... فَبِلَا فابْدَأْ إذا خِفْتَ النَّدَم
فإذا قُلْت نَعَم فاصْبِرْلَها ... بِنَجَاحِ الوَعْدِ إنَّ الخُلْفَ ذَم[١]

إن مبدأ التزام الإنسان بالاتجاه الإيجابي، يشكل أثراً من آثار القيم الإنسانية، فتحقيق الإنسان للوعد، مشروط بتقبله سلوكاً، وممارسته أداء، وكأن الشّاعر يلزم الإنسان بعامة، ألا يطلق الأحكام قبل اتخاذه مجموعة من الإجراءات التي قد تتفق وميوله في تحقيق هذا السلوك و ذاك.

فاتخاذ الإنسان قراراً ما، قبل محاكمته، أو دراسته، أمر يبعث على إحداث القلق في العلاقات الإنسانية. فالشّاعر ينهى الإنسان عن اتباع السلوكات المتناقضة، كأن يتخذ حكما قاطعاً في شيء ثم يعود إليه بعد قليل، فينقضه. والشّاعر يرغب المواقف الثابتة ويكره أن يكون الإنسان متردداً، وخلف الوعد عنده، مذموم مشنوء[٢].

ومن العهود التي درج عليها الإنسان الجاهليّ، الصدق والوفاء، وحفظ الأسرار، يقول عمرو بن شأس:

ألاَ أيُّها المرءُ الذي ليسَ مُنْصِتاً ... ولا قَائِلاً إن قالَ حقّاً ولا عَدْلا
إذا قُلْت فاعْلَم ما تَقُول ولا تَكُنْ ... كحَاطِبِ ليلٍ يَجْمَعُ الدِّقَّ والجَزْلا[٣]

---

(١) المثقب العبدي- الديوان، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) وانظر في ذلك: الأعشى- الديوان، ص ٢١٥-٢١٧. أوس بن حجر- الديوان، ص ١١٥.

(٣) عمرو بن شأس- شعره، ص ٣٨-٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبحث الشّاعر عن قيمة الصدق في الإنسان، ثم يتساءل عن صحوة الضمير الإنساني قولاً وعملاً في فئة من الناس لا تحسن الإنصات، ولا تتحرى الحقيقة فتسلك سلوكاً، لا يجانب الحق والعدل، ثم يصف هذه الفئة التي لا تعي ما تقول كالحاطب الذي يجمع الشجر من أصولها مع الأعشاب دون أن يفرق بينهما لجهله بما يجمع. وفي ذلك كشف عن محدودية معرفة بعض أبناء المجتمع الجاهلي والقصور عن إدراك الأمور والوعي بها. وهذا حاتم الطائي، يتمثل قيمة الوفاء للآخرين، يقول:

اللهُ يَعْلَمُ أنّي ذو مُحَافَظَةٍ ... ما لم يَخُنّي خَلِيل يَبْتَغِي بَدَلا
فإنْ تَبَدَّل أَلْفَانِي أَخَا ثِقَةٍ ... عَفّ الخَلِيقَة لا نِكْساً ولا وَكِلا[1]

فالشّاعر يبقى على عهده وفياً لصديقه، ما لم يُرد صديقه غير ذلك، فيقابله بالخيانة، ولكنه إن عدل عن رأيه، ومالت نفسه إلى الوفاء، فإنه يجده جديراً بالثقة لا يغدر. وانظر إلى قيمة الأمانة ومكانتها عند الناس، يقول قيس بن الخطيم:

يا عَمْرُو إن تَسْدِ الأَمَانَةَ بَيْنَنَا ... فأنَا الذي إنْ خُنْتَها يَرْعَاها
يا عمْرُو ليْسَ أخو الأَمَانةِ بالذي ... ما رابَهُ من خُطَّةٍ أَفْشَاها
يا عَمْرُو إنَّ أَخَا الأَمَانَةِ كاتِمٌ ... لو يسْتَطِيعُ بجِلْده أَخْفَاها[2]

يعبر الشّاعر، عن قلقه المرتبط بندرة الناس الذين يرعون الأمانة ويحافظون عليها، وهو يعقد عهداً مع صديقه عمرو، بلزوم المحافظة على الأمانة، فليس من الخلق، أن يفشي مدّعي الأمانة سراً إذا تزعزعت الثقة بين الأصدقاء، فأخو الأمانة، هو من يكتم السرّ، لأنّ في ذلك حفظاً لوحدة المجتمع، وحماية لهم من الفساد. وتحولت قيمة الوفاء مبدأ إنسانياً سامياً، يسعى إليه الإنسان الجاهلي، حتى لو كلفه ذلك المال والولد. فهذا السموأل بن عادياء يفخر بوفائه لامرىء القيس الكندي في أدراع أودعها، فقد رضي بقتل ابنه ولم يخن أمانته، يقول:

وفَيْتُ بأَدْرُعِ الكِنْديِّ إنّي ... إذا ما خَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وقَالُوا إنَّهُ كَنْزٌ رَغِيبٌ ... فلا واللّه أَغْدِرُ ما مَشَيْتُ[3]

---

(١) حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٤. الوكل: المبلد.

(٢) قيس بن الخطيم- الديوان، ص ٢١٥.

(٣) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٠. وانظر القصة كاملة عند: العباسي- معاهد التنصيص، ج ١، ص ٣٨٨-٣٨٩، الأصفهاني- الأغاني، ج ٢٢، ص ١١٨-١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر يعرض حادثة، مؤداها أن قوماً حاولوا إقناعه بألاّ يرد أدرع الكندي على أنها كنز ثمين مطموع فيه، والشّاعر غير قنوع برأيهم، فيرد الأمانة إلى أهلها لأنّ الغدر ليس من شيمه. فقد قطع الشّاعر على نفسه عهداً بألا يخون أمانة أحد[١].

وكانت قيمة العفة والخلق الكريم تعكس صفات الإنسان الجاهليّ الذي يحرص على سمعته، حياً كان أو ميتاً، يقول النّمر بن تولب:

ولا أَخُونُ ابْنَ عمّي في حَلِيلَتِهِ ... ولا البَعِيدَ نَوَى عنّي ولا جَارِي
حتّى يُقَالَ إذا وُرِّيتُ في جَدَثِي ... لقد مَضَى نَمِرٌ عارٍ من العار[٢]

ينفي الشّاعر عن نفسه صفة الغدر بابن عمه، فلا يخونه في زوجته، أو لا يطعنه في شرفه، ولا يقتصر هذا على ابن العم، بل يتجاوز ذلك، إلى البعيد عنه في قرابة الدم والجوار.

والشّاعر يجمع معظم الشرائح الاجتماعية، فيرى أنه ملزم بصون أعراضهم، وهدف الشّاعر من وراء ذلك، أن يترك أثراً شريفاً وراءه ويكون خالياً من أي عيب أو عار. وهذا المبدأ الذي تشكل في أخلاق الشّاعر، ناتج عن التزامه بالقيم الشريفة، وحرصه على عرضه، فحافظ على أعراض الناس لهذا الغرض.ثم يصور أوس بن حجر عفته يقول:

وليسَ بِطَارِق الجَارَاتِ مني ... ذُبَابٌ لا يُنِيمُ ولا يَنَامُ
ولسْتُ بأَطْلَسِ الثَّوْبَيْنِ يُصْبِي ... حَلِيلَتَهُ إذا هَجَعَ النِّيَامُ[٣]

فالشّاعر يصور نفسه بأنه نقيّ الثوب، طاهر الإزار، لا يريد بحليلة جاره سوءاً ولا فاحشة. وهو لعفته تراه يدفع عنه الرجال والنساء، خشية أن يظهر به سوء خلق أو سلوك.

---

(١) وانظر هذه الصورة عند: قي بن الخطيم- الديوان، ص ١٦٢-١٦٤، امريء القيس- الديوان، ص ٩٠، طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٠٣، الأعشى- الديوان، ص ٣٦٧، أوس بن حجر- الديوان، ص ٢٧، عدي بن زيد- الديوان، ص ١٤٥.

(٢) النمر بن تولب- شعره، ص ٦٦.

(٣) أوس بن حجر- الديوان، ص ١١٥. الذباب: يعني السوء والفاحشة. الطلسة: كدرة في غبرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمّة صورة أخرى، تظهر غيرة الإنسان الجاهليّ على صون أخلاقه، يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

أبَى فلا أقْرَبُ الخِبَاءَ إذا ما ربُّه بَعْدَ هَدْأةٍ هَجَعَا
ولا أرُومُ الفَتَاةَ رُؤْيَتَها إن نَامَ عَنْها الحَلِيلُ أو شَسَعا[١]

يسلك الشّاعر سبل العفة والخلق الكريم، فهو لعفته، يرفض أن يقترب من خباء بيت صاحبه بعد هجوع الناس إلى النوم، ولم تحدثه نفسه، فيقصد بيت امرأة، ابتعد عنها زوجها، وفي ذلك صون للمجتمع من اختلاط الأنساب. ولعل عروة بن الورد يصور أفضل القيم في مجال العفة، وتمثل في قوله:

وإنْ جَارَتِي ألْوَتْ رِيَاحُ بَيْتِها تَغَافَلْتُ حتَّى يَسْتُرَ البَيْتَ جَانِبُه[٢]

فقد يبدي الشّاعر تظاهراً بالفعل، فيتجاهل متغافلاً بيت حليلة جاره، إذا ما ألوته الرياح، فلا ينظر ما في داخله، حتى تستتر أركان البيت. وهذه الصورة الحسية تعكس واقع الحياة الاجتماعية في العصر الجاهليّ، هذا الواقع الذي يعبر فيه الشّعراء عن سلوكات في غاية العفة والطهارة[٣].

وقد صور بعض شعراء الجاهليّة مظاهر الحياة الاجتماعية، وكانت عزة النفس من بين الظواهر التي برزت في الحياة الجاهليّة، وتفاوت الشّعراء الجاهليّون في تصويرها، وقد أبدع الشنفرى في تمثلها حين يقول:

وإنْ مُدَّتِ الأيْدِي إلى الزَّادِ لم أكُنْ بأعْجَلِهم إذ أجْشَعُ القَومِ أعْجَلُ
وما ذَاكَ إلا بَسْطَةٌ عن تَفَضُّلٍ عليهم وكان الأفْضَلَ المتَفَضِّلُ
وأغْدُو خَمِيصَ البَطْنِ لا يسْتَفِزُّنِي إلى الزَّادِ حِرْصٌ أو فُؤادٌ مُوَكَّلُ[٤]

---

(١) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٥٩.

(٢) عروة بن الورد- الديوان، ص ٣٠.

(٣) الشنفرى- الديوان، ص ٥٩-٦١.

(٤) انظر هذه الصورة عند: حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٩. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٨٨، ابن الأسلت- الديوان، ص ٧٨، طفيل الغنوي- شعره، ص ٣٠-٣١. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦٣. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٥٧-٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن عزة النفس التي يتميز بها الشنفرى، تقضي بتحقيق مجموعة من القيم الإنسانية التي تترجم سلوك ذلك المجتمع وتهدف إلى تنظيم شؤونه، فالشّاعر يدعو الإنسان، إلى الابتعاد عن الأنانية، والمواقف التي تكون مثاراً للجشع والطمع ويحث الشاعر على أن تكون مواقف الإنسان خارجة عن الإطار الشخصي، لتصب في محور الجماعة.

والشنفرى لا يقحم نفسه عند اجتماع الناس إلى الولائم؛ لأنّه يعد التزاحم على الزاد منقصة ومذمة، ويكون ذلك، صفة خاصة بالإنسان الشره، الذي يريد شبعاً لبطنه. "فأشد القوم حرصاً على الطعام لشدّة نهمه أشدّ عجلاً إلى مدّ اليد إلى الزاد" [١]، وكأن الشّاعر يريد أن يحول هذا السلوك الذي يتعامل به الجشعون من الناس، إلى أن يتعلم الواحد منهم آداب المائدة، وأن يشعر بأحوال الناس الجياع وأن يتولد لديهم الإحساس بالقناعة، والابتعاد عن الطمع والتزام هذا السلوك طلباً للفضل والرفعة، والصورة التالية تمثل نمطاً آخر من عزة النفس، يقول قيس بن الخطيم:

فَلَا يُعْطَى الحَرِيصُ غِنىً لِحِرْصٍ وقد يَنْمِي لِذي العَجْزِ الثَّرَاءُ
غَنِيُّ النَّفْسِ ما اسْتَغْنَى غَنِيٌّ وفَقْرُ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ شَقَاءُ[٢]

فقد يفتقر كل من يحرص على اقتناء الأموال ويسعى لكسبها، ويكون الغنى من نصيب العاجز الكسول. ويقرن الشّاعر هذا الغنى المادي، بالغنى المعنوي، موازناً بين غنى النفس وغنى المادة، والإنسان يخلو من الغنى، فتجنح نفسه إلى الشر، لكن النفس الأبية مهما افتقرت، فإنها لا تخلو من العزة[٣].

ومن القيم التي فخر بها الإنسان الجاهليّ، الأنفة وكراهية الضيم، يقول الربيع بن زياد:

كُنْ مِثْلَ مَوْلَاكَ إذا قالَ المَلِيكُ له حُذَيْفَةَ الخَيرُ قولاً غَيْرَ تَعْزِيرِ
الحَرْبُ أحْلَى إذا ماخِفْتَ نَائِرَةً مِنَ المُقَامِ على ذُلٍّ وَتَصْغِيرِ[٤]

---

(١) الزمخشري- بلوغ الأرب في شرح لامية العرب، ص ٨٠.

(٢) قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٥٧-١٥٨.

(٣) انظر في قيمة عزة النفس عند: حاتم الطائي- الديوان، ص ٨. أبي زبيد الطائي- شعره، ٢٧-٢٨. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٠٥. عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٦٣.

(٤) الربيع بن زياد- شعره، ص ٣٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحاول الشّاعر أن يوقد الحماس في قلب صاحبه، لمواجهة عدوه بالحرب، بدلاً من أن يقيم على الضيم والذل، وضرب له مثالاً بمولاه، حين واجه حرباً مع الملك حذيفة الخير، تلك الحرب التي كانت لهولها يغص الماء شاربها، وهذا إشارة إلى أنفة الإنسان الجاهليّ وكراهيته الضيم والخسف، ومن الشّعراء من فضل الموت على حياة الذل، يقول ربيعة بن مقروم:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِن تَخَشُّعِ ذي الحِجَى لِذِي مِنَّةٍ يَزْوَرُّ لِلُّؤْمِ جَانِبُهُ
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ نَزْحَةٌ وَغَضَاضَةٌ إذا ما انْزَوَى أنْفُ اللَّئِيمِ وحاجِبُه[1]

فالنفس الإنسانية التي تعيش حرة كريمة، خير لها أن تموت، من أن يلحق بها ضيم اللئام الذين يمنّون بفضلهم.

والشّاعر، يصور المجتمع، بما فيه من طبقية بين الناس، فإنك ترى الرجل الغني لئيماً جانبه، يقطب جبينه أمام فئات المجتمع، لجشعه واستعلائه وترى الفقير المعدم الذي ترفض نفسه كل ذي منة فتفضل الموت أنفة منها وكبرياء.

وما أثر عن العرب في عزة النفس قول الجرجاني في كناياته: لما تواترت النكبات على قيس بن زهير خرج هو وصاحب له من بني أسد يقال له رافع بن المعتصم يسيحان وعليهما المسوح يتقوتان بما تنبته الأرض، إلى أن دفع في ليلة قرّة إلى أخبية العرب فوجدوا رائحة القتار وهما جائعان فسعيا يريدانه فلما قاربا أو كادا أدركت قيساً شهامة النفس وعزة الأنفة فرجع وهو يقول:

أَعَشَيْتُ في الأَرْضِ حَتَّى كَادَ يَطْرُدُنِي إلى الصَّغَارِ شُجَاعُ النَّفْسِ بالعَنَفِ

ثم قال: إن كان في ترك الأغذية التلف فإن في النزاهة الخلف، فانفتل عن صاحبه، وقال: دونك وما تريد فإن لي لبثا على هذه الأجارع أرقب داهية القرون الماضية، فمضى ورجع من الغد، فوجده قد لجأ إلى شجرة الوادي، فنال من ثمرها شيئاً ثم مات[2].

وعبر الشّعراء عن سماحة أخلاقهم ورفضهم الذل ومحاربة أهله، يقول عنترة العبسي:

---

(١) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٨.

(٢) الجرجاني- المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ص ١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَثْنِي عَليَّ بِما عَلِمْتِ فإنَّني سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إذا لَمْ أُظْلَمِ
فَإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ(١)

يصف الشّاعر نفسه، بأنه لين الجانب سهل المعاشرة، ما لم ينله ظلم، أو ذل وإذا لحقه ظلم، فإنه يذيق أهل الظلم الشدة والبأس ويجرعهم المر والعلقم. ولعل الشّاعر يرمي في هذه الأبيات، إلى ضرورة احترام الذات، وعدم التجاوز على حقوق الآخرين، وفي ذلك إشارة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس، وضرورة وجوب الدفاع عن النفس.

ورأى بعض شعراء الجاهليّة الذل يمارس على طبقة العبيد المستضعفين يقول السّليك بن السلكة:

أَشَابَ الرَّأْسُ أنِّي كُلَّ يَوْمٍ أَرَى لي خَالةً وَسْطَ الرِّحَالِ
يَشُقُّ عليَّ أَنْ يَلْقَيْنَ ضَيْماً ويَعْجَزُ عن تَخَلُّصِهِنَّ مَالِي(٢)

يعبر الشّاعر عمّا يعتريه من حزن وأسى، حين يرى خالته تنتقل من رحل إلى آخر، كالسلعة في أسواق البيع والشراء. ويعز عليه ما تلاقيه من ضيم وهوان، وهو عاجز عن أن يخلصها بالمال، مقابل إطلاق حريتها.

وهذا النمط من الشعر، يصور قيمة الإنسان الذليل في المجتمع الجاهليّ وألوان الإهانة التي كانت تمارس على هذا النوع من المستضعفين. والشّاعر يستخدم أسلوب التشوير، ضد الظلم الذي يلاقيه الأذلاء والعبيد.

وقد أبدع المتلمس في إعطاء صورة واضحة، لقيمة رفض الذل والهوان، يقول:

إنَّ الهَوَانَ حِمَارُ القَوْمِ يَعْرِفُه والحُرُّ يُنْكِرُه والرَّسْلَةُ الأُجُدُ
كُونُوا كَبَكْرٍ كَمَا قَدْ كَانَ أَوَّلُكُمْ ولا تَكُونُوا كَعَبْدِ القَيْسِ إذْ قَعَدُوا
ولنْ يُقِيمَ على خَسْفٍ يُسَامُ به إلا الأَذَلَّانِ عَيْرُ الأَهْلِ والوَتِدُ
هذا عَلى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وذَا يَشُجُّ فما يَرْثِي لَهُ أَحَدُ(٣)

---

(١) عنترة- الديوان، ص ٢٠٥.

(٢) السليك بن السّلكة- شعره، ص ٦٢. يشق: يعز.

(٣) المتلمس- الديوان، ص ٢٠٣-٢١١. الأجد: الموثقة الخلق، الرسلة: السهلة، يسام الذل: يفرض عليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدعو الشّاعر قومه إلى التمرد ويحضهم على عصيان عمرو بن هند، وترك طاعته. وضرب لهم بكر بن وائل مثلاً إذ سامهم كليبُ خسفاً فقتلوه، وكان سيداً فيهم، وحذرهم ألا يكونوا كعبد القيس حين غزاهم عمرو بن هند، فأصاب منهم ولم يدفعوا ظلمه عن أنفسهم وأموالهم[١] فأعطوه كل ما لديهم، من سلاح وقوة، فباتوا لا يملكون شيئاً يدفعون به عنهم شرا، حتى أصبحوا كالكلب الذي يتقيأ ما في بطنه ثم يرجع فيأكله.

ويضرب الشّاعر أروع مثل للذل والضيم، يتمثل في حمار البيت الذي يفرض عليه صاحبه الحبس، فيسام به الذل والخسف مربوطاً بقطعة من حبل، وفي الوتد الذي يُدق بحجر في الأرض، لا يرق لحاله أحد.

ولعل الشّاعر يرمي من خلال هذه الأبيات إلى أن الهوان، أو الذل، لا يرضى به كرام الناس وأحرارهم[٢].

ومن القيم الفردية التي فخر بها الإنسان الجاهليّ، قيمة الوعظ والإرشاد، يقول العباس بن مرداس:

أراكَ امْرَأً في ظُلْمِ قَوْمِكَ جَاحِداً ... ومالَك في ظُلْمِ العَشِيرَةِ مِنْ رَشَدِ
فإلاَّ تَدَعْ ظُلْمَ العَشِيرَةِ طَائِعاً ... تلاقِ امْرَأً من بَعْضِ قَوْمِكَ ذا حِقْدِ
أَلَمْ تَرَ عَادا كَيْفَ فَرَّقَ جَمْعَهَا ... قَبِيلٌ وَقِدْمَا جَارَ عَنْ مَنْهَجِ القَصْدِ[٣]

فالشّاعر ينصح رجلاً من قومه كان يعيث ظلماً وفساداً، دون أن تأخذه فيهم شفقة ويقف الشّاعر موقف المرشد الذي ينصحه، فيكفه عن ظلم قومه، وإلا فإنه سيواجه حرباً ومقاومة منهم.

ويضرب له مثالاً بقبيل الذي حاد عن جادة الحق والصواب، فظلم قبيلة عاد وفرق جمعها، وحين أحست عاد هلاكها، أصروا على أن يجمعوا أهل الرشاد فيهم فيرأبوا صدع القبيلة، ويردوا الأمور إلى نصابها[٤].

---

(١) المتلمس- الديوان، ص ٢٠٣-٢١١. انظر: ص ٢٠٤.

(٢) انظر في تصوير قيمة رفض الذل عند: المتلمس- الديوان، ص ٢١٢-٢١٣. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٢١-٢٢، ٤٥. الربيع بن زياد- شعره، ص ٣٩٩. خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٢٩. عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٧٨-٧٩.

(٣) العباس بن مرداس- الديوان، ص ١١٧. قبيل: تصغير قبل وهو رجل من عاد.

(٤) انظر في قيمة النصح والإرشاد عند: الأعشى- الديوان، ص ٢٥٧. النابغة الذبياني- الديوان، ص ٨٠-٨١. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويأتي الشنفرى ليجمع في موقف واحد معظم ألوان القيم الإنسانية التي تعود على صاحبها بالمجد والفخر، فيقول:

وَلَسْتُ بِمِهْيافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ مُجَدَّعَةً سُقْبَانُها وَهْيَ بُهَّلُ
ولا خُبَأٍ أَكْهَي مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ يُطَالِعُها في شَأْنِه كَيْفَ يَفْعَلُ
ولا خَرِقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فُؤَادَهُ يظَلُّ به المُكَّاءُ يَعْلُو ويَسْفَلُ
ولا خَالِفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ يَرُوحُ وَيَغْدُو دَاهِناً يَتَكَحَّلُ[1]

ينفي الشّاعر عن نفسه، أن يكون كالراعي الأحمق، الذي يرعى إبله، ولا يطعمها ما يقيم أودها، وأود أولادها فتعود المرعى جائعة، لا لبن فيها. وليس هو جباناً سيء الخلق، كسولاً ملازماً زوجته يستشيرها الرأي والنصيحة لأنه لا رأي له، وليس هو من الرجال ذوي القلوب الضعيفة، وليس من أولئك الذين يقضون وقتهم في التزين ومغازلة النساء.

ويريد الشّاعر بهمته العالية أن يردّ هذه المعاني، فهو يجمع الطعام من جميع مصادره ويطعم أهله، حتى يشبعوا، وهو لا يلازم زوجه لأنه مستقل بشخصيته، فله رأيه الذي يوصله إلى تحقيق آماله وله قلب شجاع ثابت، لا يخاف، وهو بالإضافة إلى ذلك رجل خشن لا تهمه زينة الحياة أو مباهجها.

الكـــرم

احتل الكرم مكانة كبيرة في أوساط المجتمع الجاهليّ، وقد عدوه القيمة التي يعتز بها الإنسان الجاهليّ، ويتيه بها على من سواه. ولم تكن صفة الكرم عادة دخيلة على المجتمع العربي في العصر الجاهليّ، بل كانت جزءاً من طبعه وسجاياه، وكأنه جبل على هذه الصفة، حتى باتت من مكونات شخصيته.

وتحدث الجاهليّون في شعرهم، فوصفوا الكرم بجميع أشكاله وما يتعلق به، فذكروا قدور الطبخ، والجفنات، والإبل العتاق التي تذبح للضيفان، وأدوات النحر، وأيام الجدب، والنار التي توقد، ليهتدي بها المسافرون، وذكروا أهل الفقر والضعفاء، والأرامل، وغير ذلك.

---

(١) الشنفرى- الديوان (إميل)، ص ٦١. المهياف: الذي يبعد بإبله طالباً المرعى على غير علم فيعطش، مجدعة: سيئة الغذاء. السقب: ولد الناقة الذكر، بهل: لا صرار عليها. الجبأ: الجبان، الأكهى: الكدر الأخلاق، مرب: مقيم، الهيق: الظليم. الداري: المقيم في داره.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أحدث الكرم بألوانه المتعددة، حماساً لدى الشّعراء، حتى أصبح ميداناً خصباً يتسابقون فيه، يقول حاتم الطائي:

وإنَّ كِلابَي قَدْ أُهِرَّتْ وَعُوِّدَتْ قَليلٌ عَلَى مَنْ يَعْتَرِيني هَرِيرُها
وما تَشْتَكِي قِدْرِي إذا النَّاسُ أَمْحَلَتْ أوُثْفها طَوْراً وَطَوْراً أُمِيرُها
ولَيْسَ على نَارِي حِجَابٌ يَكُنُّها لِمُستَوْبِصٍ لَيلاً ولكن أنيرها[١]

والإنسان الجاهليّ، يعجب بكرمه، إذا قدّم إبله قرى للضيفان، يقول علقمة الفحل:

وأَخِي مُحَافَظَةٍ طَلِيقٍ وَجْهُهُ هَشٍّ جَرَرْتُ له الشِّواءَ بِمِسْعَرِ
مِن بَازِلٍ ضُرِبَتْ بأَبْيَضَ بَاتِرٍ بِيَدي أَغَرَّ يَجُرُّ فَضْلَ المِئْزَرِ[٢]

يصف الشّاعر أخاه مستبشر الوجه، طلق اليدين، كريم النفس، لا ينثني عن إكرام ضيفه، تراه مسروراً، إذا قدم ناقته شواء لضيفه، ثم ينتقل الشّاعر إلى مرحلة الكرم الفعلي، فهو يعد سيفاً لسيد في قومه يضرب به عنق ناقة ضخمة كريمة، يستعجل ذبحها لإطعام الضيفان.

والصورة التالية يقدمها زهير بن أبي سلمى، يصف فيها كرم هرم بن سنان بعيداً عن ولائم الطعام، يقول:

أَغَرُّ أَبْيَضُ فَيَّاضٍ يُفَكِّكُ عن أَيْدِي العُنَاةِ وعن أَعْنَاقِها الرِّبَقَا[٣]

فقد خرج الكرم عن صورته المألوفة في إكرام الضيف في الطعام والشراب، ليدخل إلى فكّ مشكلات الناس وحل قضاياهم. فهذا الممدوح يفك إسار المظلومين المغلولة أعناقهم بالحديد. فالكرم الذي قدّمه هرم بن سنان لم يكن كرماً طبيعيا محسا، بل رمز معنوي يسمو أحياناً على الكرم المحسوس.

وقدم الشّعراء الجاهليّون صوراً أخرى للكرم لم تتوقف عند قرى الضيف بل تجاوزت ذلك إلى تقاسم المال والمتاع، يقول النّمر بن تولب:

لَعَمْرُ أَبِيك ما لَحْمِي بِرَبٍّ ولا لَبَنِي عَلَيَّ وَلاَسِلاَئِي

---

(١) حاتم الطائي- الديوان، ص ٦٣.

(٢) علقمة الفحل- الديوان، ص ١٠٧. الهش: الجواد. المسعر: عود النار.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٧٤، العناة: الأسرى، الربقة: الحبل الطويل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا رَحْلِي بِمَخْزُونٍ عليه إذا جَارِي اسْتَعَارَ ولا رِدائي
ولا أُسْقَى ولا يُسْقَى شَرِيبي وأَمْنَعُه إذا أَوْرَدْت مَائِي
يُعِلُّ وبَعْضُ ما أُسْقَى نِهَالٌ وأَشْرَبُه على إبِلي الظِّماءِ(١)

فالشّاعر، يجود بكل ما لديه من طعام وشراب ومتاع، وهو لا يتوانى عن تقديم رحله وروائه إلى جاره، إذا أبدى رغبة في استعارته، وهو يؤثر واردي الماء على نفسه فيسقيهم، وينهلون هم وإبلهم منه مثل ما يسقى هو ويستسقي.

وهذا النوع من الإيثار الذي يتصف به الشّاعر، لا شك أنه يسجل سابقة في الكرم الذي يتميز به الإنسان الجاهليّ(٢).

وكان الجاهليّون يشعلون النار في بيوتهم، ليهتدي بها المسافرون ليلاً أو طالبو الحاجات، وكانت تسمى نار القرى أو نار الضيافة، وهي نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل، وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر(٣)، وقد شاقهم هذا السلوك كثيراً؛ لأنه يعبر عن كرمهم، وجودهم، وقد صور مثل هذه القصص الإنسانية التي تجمع الكرم والألفة والمودة، المثقب العبدي في قوله:

وَسَارٍ تَعَنَّاهُ المبِيْتُ فَلَمْ يَدَعْ له طَامِسُ الظَّلْمَاءِ واللَّيْلُ مَذْهَبَا
رَفَعْتُ له بالكَفِّ ناراً تَشُبُّها شآمِيَّةٌ نَكْبَاءُ أو عَاصِفٌ صَبَا
فَلَمَّا أَتَانِي والسَّمَاءُ تَبُلُّهُ فَلَقَّيْتُهُ أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبا
وقُمْتُ إلى البَرْكِ الهَوَاجِدِ فاتَّقَتْ بكَوْمَاءَ لم يَذْهَبْ بها النَّيُّ مَذْهَبا
فَرَحَّبْتُ أَعْلَى الجَنْبِ منها بِطَعْنَةٍ دَعَت مُسْتَكِنَّ الجَوْفِ حَتَّى تَصَبَّبَا
تَسَامَى بَنَاتُ الغَلْيِ في حَجَرَاتِها تَسَامِي عِتَاقِ الخَيْلِ وَرْدا وَأَشْهَبَا(٤)

(١) النمر بن تولب- شعره، ص ٣٣. الربي: التي يربيها الناس في البيوت لألبانها، السلاء: السمن، النهال: أول السقي.

(٢) انظر هذه الصورة عند: طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٠٥-١٠٦، ٢٧٤-٢٧٥. زيد الخيل- الديوان، ص ٧٤-٧٥. زهير بن أبي سلمى- الديوان، ص ٥٥-٥٨. حاتم الطائي- الديوان، ص ٤٨-٤٩. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٨٦. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٣٨. عروة بن الورد- الديوان، ص ٩٠.

(٣) الآلوسي- بلوغ الأرب، انظر: ج ٢، ص ١٦١.

(٤) المثقب العبدي- الديوان، ص ١١٧-١٢٣. تعناه: جشمه وأتعبه. نكباء: لا تأتي مستقيمة، وهي ريح تحبس القطر، كوماء: عظيمة السنام. رحبت: وسعت> مستكن الجوف: الدم، بنات الغلي: قطع اللحم، حجراتها: نواحيها، يريد القدر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتمثل هذه الصورة، في نمط من أنماط الحياة التي يعاني مرارتها الإنسان الجاهليّ، والشّاعر يحكي قصة رجل ارتحل من بيته ضارباً في الصحراء، يندب حظه قد غشيه الليل، فأعياه المبيت، ثم رأى ناراً فخالها كوكباً حتى أصبح من أمرها بين المصدق والمكذب.

وتبرز في هذا السرد القصصي شخصية رجل كريم تتمثل في الشّاعر نفسه، ليسهم في بناء الحياة الإنسانية، ومساعدة المحتاجين، ويبرز دوره فيها ليشكل عنصراً من عناصر نماء هذا المجتمع.

فالإجراءات التي اتخذها الشّاعر، من مثل قيامه برفع النار من على مرتفع ليراها هذا السائر ليلاً وترحيبه بقدومه مظهراً له البشاشة والسرور، ونحره ناقة عظيمة الشأن إكراماً له، تغلي قطع لحمها بكل نواحي القدر، كل هذه الصور، تبرز أصالة الإنسان الجاهليّ واعتزازه بقيمة الكرم، التي تسمو على جميع القيم، وجاء ذكر الشعراء "الجفنة والقدر مرتبطاً بالكلام على الضيافة غالباً، لأن الجفنةترمز عند الشعراء إلى الضيافة والجود"[١].

وإذا حاولنا أن نعيد النظر بالطباع التي يسلكها الإنسان الجاهليّ وهو يتحدث عن الكرم، فإننا نرى أن هذه الصفة تنمّ عن طبع وسجية فيه، لا يريد من ورائها الفضل. وكان كرام العرب الجاهليّين يتفاخرون بهذه الصفة، ويعدونها من أهم مناقب الإنسان التي تدل على حسبه وكرم أصله[٢].

وليس أدل على صورة الكرم الآتية التي يكون فيها حاتم الطائي عبداً لضيفه، يقول:

إذا ما صَنَعْتِ الزّادَ فالتَمِسي لهُ ... أَكِيلاً فإنّي لَسْتُ آكلهُ وَحْدِي
أَخَا طَارقٍ أو جَارَ بَيْتٍ فإنّنِي ... أَخَافُ مذمّاتِ الأَحَاديثِ من بَعْدي
وإنّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دَامَ ثَاوِياً ... وما فِيَّ إلا تِلْكَ من شِيْمَةِ العَبْدِ[٣]

---

(١) محمد شعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص ٧٥.

(٢) انظر في مثل هذه الصورة عند: السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٩١. عوف بن الأحوص- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٤٩.

(٣) حاتم الطائي- الديوان، ص ٤٣-٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يريد الشّاعر أن يعم الخير جميع الناس، ولا يستأثره لنفسه، فإذا ما أعد طعاماً، فإنه لا يحلو له هذا الطعام إلا بعد أن ينادي طارق ليل أو جار منزل، وبذلك يجد الشّاعر طعماً للحياة؛ لأنه أدرك فاعلية وجوده. وكأن الشّاعر يدرك عدم جدوى الحياة إذا كان للإنسان حضور بارز دون أن يقدم فيها النفع والفائدة لبني جنسه.

وكان الشاعر يقول: "إني أتكلّف من خدمة الضيف ما يتكلفه العبيد، لا أستنكف ولا أنف، وليس لي من أخلاق العبيد وطبائعهم إلا تلك الخدمة أو تلك الخليقة"[١]، ويدل ذلك على أن الجود كان راسخاً لدى العرب... وأنهم لا ينفقون أموالهم على أنفسهم، وإنما على الآخرين[٢].

وبهذا التعامل، فإن الحياة تأخذ مسارها الاجتماعي الصحيح، ونظرة الشّاعر للرزق، لا تعود كونه وسيلة لتدبير شؤون الحياة، وآية ذلك، أن الشّاعر حريص على أن يكرم ضيفه، ويقدم طعامه للناس وكان ذلك واضحاً من خلال صنعه الطعام، وإصراره على ألا يأكله وحده حتى يلتمس له أكيلا يشاركه فيه[٣].

وثمّة صورة أخرى أظهرت النموذج المثال للكرم، لما فيه من تجدد، يتضح من خلال إبراز صورة الضيف، وتفضيله على أفراد الأسرة يقول عامر بن الطّفيل:

إنَّا لَنَعْجِلُ بالعَبِيطِ لِضَيْفِنَا قَبْلَ العِيَالِ ونَطْلُبُ الأَوْتَارَا
ونَعُدُّ أيَّاماً لنا ومآثِرا قِدْما نَبُذُّ البَدْوَ والأَمْصَارا[٤]

يعدد الشاعر مآثر قومه في الكرم الذي فاق الناس جميعاً من بدو وحضر، فقوم الشاعر لا ينحرون لضيوفهم إلا الذبائح السخية الكريمة، فقد بذوا في كرمهم البداة والأمصار.

ومكانة الضيف مصونة في المجتمع الجاهليّ، ورزقه محفوظ، وكان واجباً على الإنسان الجاهليّ، استقباله في أي وقت من أيام السنة، بالبشر والحفاوة، يقول

---

(١) المرزوقي- شرح ديوان الحماسة، ج ٤، ص ١٦٧٠.

(٢) محمد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص ٤٣.

(٣) انظر مثل هذه الصورة عند: ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٤٢. الأعشى- الديوان، ص ٤٠٧. القند الزماني- شعره، ص ٩-١٠.

(٤) عامر بن الطفيل- الديوان،ص ٣٦٥. العبيط: اللحم الطري غير النضيج.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السموأل بن عادياء:

فَلا أَدْفَعُ الضَّيْفَ عَنْ رِزْقِه لَدَيَّ إذا قِيلَ لم يُرْزَقِ
وفي البَيْتِ ضَخْمَاءُ مَمْلوءَةٌ وجَفْنٌ على هَمِعٍ مُدْهَقِ[١]

فالشّاعر يعطي الضيف المحتاج، ولا يرده خائباً إذا نزل به، فلديه ما يقيم أود الضيفان الذين يحلون عنده، ففي بيته القدور والجفان، مليئة بالطعام والشراب، ومما ورد عن السموأل بن عادياء أن العرب كانت "تنزل به فيضيفها، وتمتار من حصنه، ويقيم هناك سوقاً"[٢].وفي ذلك إشارة إلى حالة الرخاء التي يعيشها الشّاعر. وهذه الخنساء تصور شدة كرم أخيها صخر إذا ما حل به ضيف، تقول:

إذا ما الضَّيْفُ حلَّ إلى ذَرَاهُ تَلقَّاهُ بِوَجْهٍ غَيْرِ بَسْرِ
وفَرَّجَ بالنَّدَى الأَبْوَابَ عَنْهُ ولا يكْتَنُّ دُونَهُم بِسِتْرِ[٣]

فالخنساء تصور أخاها صخراً بأن وجهه يتهلل بشراً في وجه الضيف إذا طرق بيته، فلا يستقبله، وهو كالح الوجه، ولا يستتر دونه، بل يفتح له بيته، ويعطيه من نداه وكرمه.

وكان العرب يقيمون منازل خاصة، لاستقبال الفقراء والمحتاجين يقول الحادرة:

ونُقِيمُ في دَارِ الحِفَاظِ بُيُوتَنَا زَمَناً ويَظْعَنُ غَيْرُنَا لِلأَمْرَعِ[٤]

فالعرب "يسمون منزلهم دار الحفاظ، لأنهم كانوا يقيمون فيه لقرى الأضياف، وإعطاء الفقير وصلة المسكين وابن السبيل"[٥].

---

(١) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٨. الهمع: الزق الذي يرشح ماء، مدهق: مملوء.

(٢) العباسي- معاهد التنصيص، ج ١، ص ٢٨٨.

(٣) الخنساء- الديوان،ص ١٨٨. غير بسر: غير كالح، مرج: فتح. لم يكتن: لم يستتر.

(٤) الحادرة- الديوان، ص ٥٣.

(٥) العسكري- ديوان المعاني، ج ٢، ص ١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا النّمر بن تولب، يقدم لحوم إبله وألبانها، رخيصة لضيفه، يقول:

هل تَذْكُرِين جُزيتِ أَحْسَنَ صَالِحٍ أَيّامَنَا بِمَلِيحَةٍ فَهَرَارِها
أَزْمَانَ لم تَأْخُذْ إليَّ سِلَاحَها إبلي بِجُلَّتِها ولا أَبْكَارِها
أَبْتَزُّها أَلْبَانَها ولُحُومَها فَأُهِينَ ذاكَ لِضَيْفِها وَلِجَارِها[١]

فالشّاعر إذا ما حل به ضيف، أو أصدقاء، في ليلة شديدة، يعزّ فيها الكرم والجود، فإنه يذبح لهم الأبكار من الإبل والأمهات، ويهين لحومها وألبانها فدى لهم[٢].

وقد ارتبطت قيمة الكرم، بوصف مشاهد قاسية، يواجه فيها الإنسان عنتا في المعاش، وجوعا في سني الجدب والقحط، وأيام الشتاء الباردة يقول زهير بن أبي سلمى:

إذا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ ونَالَ كِرَامُ المالِ في الجَحْرَةِ الأَكْلُ
رأَيْتُ ذَوِي الحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِم قَطِيْناً بها حتَّى إذا نَبَتَ البَقْلُ[٣]

وقد نرى أن صورة الكرم والنجدة في الشعر مقرونة أحياناً بتحدي بواعث الموت والهلاك ومعبرة عن صورة البهجة بالتبديد أحياناً أخرى[٤]، وكذلك فإن حياة "البادية في الشتاء، أقسى من الحياة منها في الصيف على قساوة الحياة في الصيف، من أجل ذلك، يمدحون الكرم في الشتاء ويتمدحون به"[٥].

وإذا كان قوم زهير، ينحرون إبلهم في أيام الشدة والجوع دون أن يمهلوها، فيروا ما فيها من لبن يسد قوتهم، فهذا الأعشى، يمهل إبله في أيام الضيق ليرى ما فيها من لبن يسد حاجة القوم، يقول:

---

(١) النمر بن تولب- شعره، ص ٦٢. الجلة: الكبار، أبتزها: أجردها.

(٢) انظر هذه الصورة عند: حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٣، ٥٢، ٩١. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٧٤. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٩١. عروة بن الورد- الديوان، ص ٧٥، ١٠١. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٤.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٤١. السنة الشهباء: البيضاء من الجدب. الجحرة: السنة الشديدة. القطين: أهل الرجل وحشمه. والقطين أيضاً: الساكن في الدار.

(٤) مصطفى ناصف- دراسة الأدب العربي، انظر: ص ٢٩٢-٢٩٤.

(٥) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا الشَّوْلَ راحَتْ ثم لم تَفْدِ لَحْمَها بألْبانِها ذَاقَ السِّنَانَ عَقِيرُها[١]

فالتباين بين صورتي الكرم السابقتين، يتمثل في أن قوم زهير ينحرون كرام إبلهم في أيام الشدة دون أن يمهلوها، لكن قوم الأعشى، كانوا يمهلون إبلهم، حتى تعود من مراعيها لكي تفدي لحمها بألبانها، حتى إذا لم تفعل ذلك، كانت تذبح، وتقدم قرى للأضياف. وهذا التباين، يجعلنا نقدر لقوم زهير استباقهم إلى الكرم دون غيرهم.

ولم يغفل شعراء الجاهليّة عن ذكر كرام الناس من أبناء المجتمع الجاهليّ الذين سادت القبائل بجودهم، يقول بشر بن أبي خازم:

إذا ما المَكْرُمَاتُ رُفِعْنَ يَوْماً وقَصَّرَ مُبْتَغُوها عن مَدَاها
وضاقَتْ أَذْرُعُ المُثْرِينَ عَنْهَا سَمَا أَوْسٌ إليها فاحْتَوَاها
نَمَوهُ في فُرُوعِ المَجْدِ حتَّى تَأَزَّرَ بالمَكَارِمِ وارْتَدَاها
غِيَاثُ المُرْمِلِينَ إذا أَنَاخُوا به في اللَّيْلَةِ الغَالِي قِرَاها[٢]

يصور الشّاعر أحوال الناس، حين يصابون بأزمة الفقر والجوع، فيعجز كرامهم وأغنياؤهم عن معالجة الأزمات، فيكون أوس بن حارثة الطائي، خير من يحتوي هذه الآزمات والشدائد بكرمه، يغيث به الناس الذين نفد زادهم، فهو أهل للفضل والمجد، يتخذ المكارم مئزرا له ورداء في ظروف الرخاء والشدة.

ونعى بعض شعراء الجاهليّة ذوي الفضل الذين أغاثوا الناس وهم في أشد حالات الفقر والجوع، وكأنّ الكرم زال بزوالهم عن الدنيا، يقول الأفوه الأودي:

فِينَا لِثَعْلَبَةَ بنِ عَوْفٍ جَفْنَةٌ يَأْوِي إليها في الشِّتَاءِ الجُوَّعُ
ومَذَانِبُ ما تُسْتَعَارُ وجَفْنَةٌ سَوْدَاءُ عِنْد نَشِيجِها ما تُرْفَعُ
ما كَانَ يَشْتُو والأَرَامِلُ حَوْلَهُ يَرْوِي بآنيةِ الصَّرِيفِ ويُشْبِعُ
في كُلِّ يَوْمٍ أَنْتَ تَفْقِدُ مِنْهُم طَرَفا وأيُّ مَخِيلَةٍ لا تُقْلِعُ
لم يَبْقَ بَعْدَهُمْ لِعَيْنِي نَاظِرٍ ما تَسْتَنِيمُ له العُيونُ وتَهْجَعُ

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٤٠٧. الشول: الإبل التي جفت ألبانها.

(٢) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٢٢٢-٢٢٣. المرملون: القوم الذين نفد زادهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا المَلامَةُ مِنْ رِجَالٍ قد بُلُوا فهُمُو هُمُو وأَخُو المَلامَةِ يَجْزَعُ[١]

يذكر الشّاعر رجالات قومه بني أود، الذين لهم جفنات مليئة طعاماً وشراباً يأوي إليها الجوعى، في أيام اللزبات، ثم يصور هذه الجفنات الضخمة، وهي تغلي في مراجلها، يستدير حولها الأرامل، والفقراء، فيأكلون منها بآنية من فضة حتى يشبعوا.

والشّاعر، شديد القهر على هذه الفئة من كرام قومه الذين يسقط الواحد منهم تلو الآخر، ولم يبق منهم، من تطمئن إليه الأفئدة، وتقر به العيون، سوى بعض الرجال الذين لا تعول عليهم الأمور.

والشّاعر وهو ينعى هذه الفئة من كرام قومه، كان يتمنى وجود رجال كرام يأخذون لواء الفضل والكرم عن أسلافهم، حفاظاً على أمجاد القبيلة وأصالتها[٢].

إغاثة الملهوف

تعد إغاثة الملهوف، امتداداً للقيم الإنسانية التي يتميز بها المجتمع الجاهليّ فكان من أهم القضايا التي عرضها الشّعراء، تقديم المساعدة للمحتاجين والضعفاء وتحديد موقف الإنسان بعامة، من الفقراء والأيتام، يقول ضمرة بن ضمرة:

وطَارِقِ لَيْلٍ كُنْتَ حَمَّ مَبِيتِهِ إذا قَلَّ في الحَيِّ الجَمِيعِ الرَّوافِدُ
وقُلْتَ له أَهْلاً وسَهْلاً ومَرْحَبا وأَكْرَمْتَهُ حَتَّى غَدَا وهوَ حَامِدُ[٣]

يبرز الشّاعر مدى مساهمته في المحافظة على مكانة قومه من خلال مجموعة من الزائرين، طرقوا بابه ليلاً، طلباً للمبيت، واستقباله إياهم وترحيبه بهم في وقت يكاد يتعذر فيه استقبال أي وافد في ساعات الليل المتأخرة.

وإقدام الشّاعر على هذا العمل، يهدف إلى حماية القبيلة من أيّ عورة أو منقصة فيساء الظن بها بين القبائل.

---

(١) الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٩. النشيج: صوت الغليان. الصريف: الفضة الخالصة. المخيلة: السحاب.

(٢) انظر هذه الصورة عند: الخنساء- الديوان، ص ١٨١-١٨٥. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٤٦-٤٧. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٤٢-٤٣. عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٧٨.

(٣) ضمرة بن ضمرة- شعره، ص ١١٦-١١٧. حمّ مبيته: قصد مبيته. الرافد: المعونة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حض بعض شعراء الجاهليّة، على تلبية حاجة السائل، يقول عديّ بن زيد:

ولا تُلحِ إلا مَنْ ألَام ولا تَلُمْ وبالبَذْلِ مِنْ شَكْوَى صدِيقكَ فامدُدِ
عَسَى سَائِلٌ في حَاجَةٍ إنْ مَنَعْتَهُ من اليَوْمِ سُؤلاً أن يَسُؤْنَ في غدِ[١]

فالشّاعر يحث على أن يمد الإنسان صديقه بما يطلب، ثم ينهى عن شتم السائل، فلا يفعلن ذلك إلاّ لأنه في معاناة ألزمته على فعل هذا السلوك وهدف الشّاعر من تلبية الناس حاجات بعضهم، يرمي إلى بقاء العلاقات الإنسانية قائمة بين أبناء المجتمع، وأن سبيل المحافظة عليها، يكمن في أن يبادل الناس بعضهم بعضاً، الحاجات المادية والمعنوية التي من شأنها أن تعمل على تماسك المجتمع وتقوية دعائمه.

وقد نظر الإنسان الجاهليّ إلى حالات الفقر، نظرة إنسانية، تمثلت في تقديم المعونة والمساعدة إلى فئة الضعفاء والمحتاجين، يقول ربيعة بن مقروم:

وأَشْعَثَ قد جَفَا عَنْهُ المَوالِي لَقًى كالجِلْسِ لَيْسَ به زِمَاع
ضَرِيرٍ قد هَنَأْنَاهُ فَأَمْسَى عليه في مَعِيشَتِهِ اتِّسَاعُ[٢]

يصور الشّاعر حالة إنسان محتاج، جفا عنه ناصروه من أبناء عمومته فأهملوه، ولم يهتموا به، كأنه كساء ملقى على الأرض لا قيمة له. ثم يبرز الشّاعر قومه من خلال هذه الصورة الإنسانية، ليثبت دورهم في الأخذ بيد هذه الفئة الضعيفة التي ضيق عليها الزمان، فألحق بها أضراراً معاشية متعددة الجوانب[٣]. وكان للجاهليين "مثل عليا في حياتهم، يتمنى كل منهم أن يترسمها ويحققها، وتراها مبثوثة في ثنايا أغراضهم الشعرية، ولكن كان الواحد منهم يجمعها في وصاياه التي ينصح أولاده باتباعها، ليكون كل منهم نموذجاً للمثل الأعلى للعرب"[٤]

---

(١) عدي بن زيد- الديوان، ص ١٠٧.

(٢) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٢٣. الأشعث: المحتاج. اللقى: الشيء المطروح. الجلس: الكساء. الزماع: العزم على الأمر.

(٣) انظر هذه الصورة عند: طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣٧-٣٨. النمر بن تولب- شعره، ص ٧. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٤٧. ابن الأسلت- الديوان، ص ٧٧. السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٧٥.

(٤) علي الجندي- ملحق تاريخ الأدب الجاهلي، ص ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا ابن الأسلت يصور حال اليتامى، فيوصي أبناءه للقيام على شؤونهم، يقول:

واتَّقُوا اللّه في ضِعَافِ اليَتَامَى رُبَّما يُسْتَحَلُّ غَيْرُ الحَلَالِ
واعلَمُوا أَنَّ لليَتِيم وليا عالما يَهْتَدِي بغَيْرِ السُّؤَالِ
ثُم مالَ اليَتِيم لا تَأْكُلُوه إنَّ مالَ اليَتِيم يَرْعَاهُ وَالِي[1]

إن خطاب الشّاعر الذي يوجهه إلى أبنائه، يقضي بتنبيههم على ضرورة الأخذ بتقوى الله، ومخافته، حين يعاملون اليتامى الذين لا حول لهم ولا قوة، وعليهم أن يدركوا، بأن ثمّة ولياً وناصراً لهذه الفئة المستضعفة، التي لا تعطى حقوقها إلا من أناس يتقون الله، ثم ينهى قومه عن أكل مال اليتيم، لأن له والياً يرعاه ويحميه.

وقد عني بعض الشّعراء، بالأرامل من النساء اللواتي جار عليهن الزمن، فأورثهن العوز والفاقة، يقول الأعشى:

وأَرْمَلَةٍ تَسْعَى بشُعْثٍ كَأَنَّها وإياهُمُ رَبْدَاءُ حَثَّتْ رِئَالَها
هَنَأْنَا ولم نَمْنُنْ عليها فَأَصْبَحَتْ رَخِيَّةَ بَالٍ قد أَزَحْنَا هُزَالَها[2]

يشيد الشّاعر بصفات قومه الذين يرعون حقوق المستضعفين، فيعطونهم ما يقيم أودهم، ويسعف حاجتهم، وصورة المرأة الأرملة مع أطفالها المغبرة وجوههم تمثل شريحة من واقع المجتمع الجاهليّ الذي يعاني الفقر. ووجود فئة محسنة من المجتمع، تساعد الضعفاء، فتزيل عنها همومها وأحزانها، دلالة على وجود ما يسمى بالعدالة الاجتماعية في البيئة الجاهليّة ولعل النماذج الشعرية السابقة تؤكد مثل هذا التضامن الاجتماعي.

والإنسان الجاهليّ يغيث المكروب، لضر أصابه، فيخفف كربه، ويدفع عنه الظلم، يقول عمرو بن معد يكرب:

أَلَمْ تَرَنِي إذا ضَمَّنِي البَلَدُ القَفْرُ سَمِعْتُ نِدَاءً يصْدَعُ القَلْبَ يا عَمْرُو
أَغِثْنَا فإنَّا عُصْبَةٌ مَذْحِجِيَّةٌ نُنَاطُ على وَفرٍ ولَيْسَ لَنَا وَفْرُ
تَكَلَّفْنا يا عَمْرُو ما لَيْسَ عِنْدَنَا هَوَازِنُ فانْظُر ما الذي فَعَل الدَّهْرُ

(١) ابن الأسلت- الديوان، ص ٨٦.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٣٧٩. ربداء: نعامة. رئالها: صغارها. هنأناها: أطعمناها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأَقْحَمْتُ مُهْرِي حينَ صَادَفْتُ غِرَّةً على الطَّفِّ حتَّى قِيل قد عُقِرَ المُهْرُ
فَأَنْجَيْتُ أَسْرَى مَذْحِجٍ من هَوَازِنٍ ولم يُنْجِهِم إلاّ السَّكِينَةُ والصَّبْرُ
ونادَوْا جَمِيعاً حُلَّ عَنَّا وَثَاقَنَا أَخَا البَطْشِ إنَّ الأَمْرَ يُحْدِثُه الأَمْرُ[1]

فالبلد القفر التي يذكرها الشّاعر في هذه الأبيات، تشير إلى حالة التشرد الذي يعيشه الإنسان الجاهليّ، يتعرض فيها إلى النهب والسلب، أو إيداعه أسيرا تحت التهديد، حتى يفدي نفسه بالمال أوالمتاع.

وعمرو الشّاعر، يسرع إلى نجدة من يستغيث به، بعد أن عرفهم أنهم من مذحج، فوقعوا تحت تهديد هوازن التي كلفتهم ما لا يطيقونه من مال، وهم ليسوا قادرين على ذلك. وما كان من الشّاعر، إلا أن أقحم جواده على دخول حمى هوازن، انتصاراً لهذه العصبة التي استغاثت به، فاستطاع أن يفك أسرهم، وينجيهم من مكروبهم الذي وقعوا فيه.

وهذا عنترة، يصف مكروباً استغاث به، فخلصه مما هو فيه من كرب وشدة، يقول:

وَمَكْرُوبٍ كَشَفْتُ الكَرْبَ عَنْهُ بطَعْنَةِ فَيْصَلٍ لمَّا دَعَانِي
دَعَانِي دَعْوةً والخَيْلُ تَرْدِي فما أَدْرِي أَبِاسْمِي أَمْ كَنَانِي
فَلَمْ أُمْسِك بسَمْعِي إذْ دَعَانِي ولَكِنْ قَدْ أَبَانَ له لِسَانِي
فَكَانَ إجَابَتِي إيَّاهُ أَنِّي عَطَفْتُ عليه خَوَّارَ العِنَانِ[2]

يصف الشّاعر نفسه بعلوّ الهمة وسرعة النخوة، ومضاء العزيمة، لا ينثني عن تلبية النداء، وحين يبلغ الأمر بالشّاعر، أنه لم يدر عن المكروب هل ناداه باسمه أم دعاه بكنيته، فإن ذلك يعني شدة بأس الشّاعر، وعلو همته، في نصرة من دعاه حتى لكأن الشّاعر على غير علم بدعوة المكروب، ولكن الحمية التي تأججت في قلبه لمؤازرة المكروب قد أنسته المستغيث. فلبى الدعوة بلسانه وفعله حين عطف على العدو بسيفه الصقيل، وفرسه الجريء.

ونلاحظ أن إغاثة الملهوف قيمة من قيم الشجاعة يتمثلها الإنسان الجاهلي في

---

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١٠٤-١٠٥. الطف: ساحل البحر، وسفح الجبل.

(٢) عنترة- الديوان، ص ٢٩٤-٢٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حالات البطولة والحرب، ذلك لأن "البطل ليس شجاعاً فحسب، ولكنه كذلك نبيل، لا يستخدم شجاعته في سفك الدماء والسرقة والنهب، ولكن في إغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف ودفع الظلم عن المظلوم، وكلها قيم إنسانية، لأنها خاصة بعالم الإنسان"[١].

وقد يستدل من خلال هذه الأحداث، أن الجاهليّين كانوا يسرعون إلى نجدة المستغيث وكان الواحد منهم رهن الإشارة لا ينتظر حتى يتبين الأمر، بل كان سريع التأثر طمعاً في محاربة الظلم[٢].

صون الأعراض

اتخذ المجتمع الجاهليّ قيمة الدفاع عن الأعراض هدفاً سامياً، وكان أن عمل على صونها، وتحمل الرزايا في سبيلها، وقد عُبر عن ذلك في أشعارهم، يقول الأفوه الأودي:

نُقَاتِلُ أَقْواماً فَنَسْبَى نِسَاءَهُم ... ولَمْ يَرَ ذُو عِزٍّ لِنُسْوَتِنَا حَجْلا
نَظَلُّ غَيَارَى عِنْدَ كُلِّ سَتِيرَةٍ ... نُقَلِّبُ جِيدا واضِحاً وشَوًى عَبْلا[٣]

يصف الشّاعر مدى حرصه على النساء، وحماية الأعراض، فقوم الشّاعر يحاربون أعداءهم ويسبون نساءهم، وعرض الشّاعر وافر غير مكلوم، فلم يكشف له ستر ولا عورة.

وكان لدى الإنسان الجاهليّ اهتمام كبير بضيفه، يقيم عنده أياماً وعرضه مصون، يقول عروة بن الورد:

قَعِيدَكَ عَمْرَ اللّه هل تَعْلَمِينَنِي ... كَرِيماً إذا اسْوَدَّ الأَنَامِلُ أَزْهَرا
صَبُورًا على رُزْءِ المَوَالِي وحَافِظاً ... لِعِرْضِي حتَّى يُؤْكَلَ النَّبْتُ أَخْضَرَا[٤]

---

(١) محمد قطب- دراسات في النفس الإنسانية، ص ٢٥١.

(٢) انظر هذه الصورة عند: طرفة بن العبد- الديوان، ص ١١٠-١١١. سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٢٥-١٢٩. السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٧٨.

(٣) الأفوه الأودي- الديوان، ص ٢٢-٢٣.

(٤) عروة بن الورد- الديوان، ص ٦٤-٦٥. قعيدك: قسم. اسودت أناملهم: من الوقد وشدة السنة، أزهر: أبيض.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعبر الشّاعر عن سلوك الإنسان الجاهليّ وقت الضيق والشدة، فيتمثل في تعلقه الكبير بالكرم، والمحافظة على العرض، ويبدو أن هذه القيم، من أهم مبادىء الإنسان الجاهليّ، فالشّاعر، لم يزل يقري الضيف في سنة جدباء، حتى ينبت النبات، ويعم الخير الأرض بعد يبسها.

وتشتد المحافظة على صون الأعراض، وحفظها في قول النابغة الذّبياني:

وَحَلَّتْ بُيُوتِي في يَفَاعٍ مُمَنَّعٍ ... تَخَالُ به رَاعِي الحَمُولَةِ طَائِرَا
تَزِلُّ الوُعُولُ العُصْمُ عن قَذَفَاتِه ... وَتُضْحِي ذُرَاهُ بالسَّحَابِ كَوَافِرَا
حِذَارًا على أَنْ لا تُنَالَ مَقَادَتِي ... ولا نِسْوَتِي حَتَّى يَمُتْنَ حَرَائِرَا(١)

يحاول الشّاعر أن يبني مجداً يتمثل في مقادته وعرضه، لأن الشّاعر يراهما من أهم مقومات وجوده، ولذلك راح يشيد بنياناً على مرتفع من الأرض، يخاله الناظر إليه معلقاً في الفضاء، فلا يستطيع أحد أن يقترب منه، حتى الوعول المعتصمة في ذرا الجبال لا تقدر الوصول إلى نواحيه.

وليس شرطاً على أن يكون بنيان الشّاعر واقعاً مشاهداً، كما وصف، ولكنه قرن علوّ مكانة منزله شاهقاً ومرتفعاً، بعلو همته التي جعل الغلبة والقيادة وصون الأعراض أهم سماتها وخصائصها.

وهذا عنترة شديد المحافظة على نساء قومه، ليس فيه نظرة، تبعث على الريبة أو الشك، يقول:

أَغْشَى فَتَاةَ الحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِها ... وإذا غَزَا في الجَيْشِ لا أَغْشَاها
وأَغُضُّ طَرْفِي ما بَدَتْ لي جَارَتِي ... حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاها
إنِّي امْرؤٌ سَمْحُ الخَلِيقَةِ مَاجِدٌ ... لا أَتْبَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاها(٢)

تتركز علاقة الشّاعر، مع فتيات الحي، موطن الرجل وحليلته، ثم يأتي الزوج متحركاً بين زمن اللاحضور الفعلي وهو غائب عن الحي فتتقيد بذلك حركة الشّاعر فيتلاشى حضوره بين هذه المحددات الزمانية والمكانية.

وإذا أخذنا بفعل الشرط الذي أشار إليه الشّاعر، فإننا نذهب إلى أن فتاة

(١) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٣٣-١٣٤. يفاع: مرتفع. قذفاته: نواحيه. كوافر: متغطية. مقادته: غلبته.

(٢) عنترة- الديوان، ص٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحي، واقعاً، تكاد تنعدم، فهي في السر غائبة، وفي الحضور مقيدة، وهذا يبرر حرص الشّاعر، ومحافظته على نساء الحي، ويعزز الحدث التالي مذهب الشّاعر، حين أخذ على عاتقه أن يغض طرفه عن جارته كلما بدت له حتى تدخل خباءها.

وقد جعل بعض الشّعراء، كل ما يرتديه الإنسان، غاية في الجمال، إذا كان عرضه سالما من الأذى، يقول السموأل:

إذا المَرْءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عِرْضُه فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَديهِ جَمِيلُ[1]

فقد جعل الشّاعر جمال الثياب، ولا جمال فيها، مشروطاً بصون الأعراض. ورؤية الشّاعر للجمال، لا تكون في ما يرتديه الإنسان من ثياب زاهية، ورياش فاخر بقدر ما تكون في مدى محافظة الإنسان على عرضه، وعدم تعريض شرفه للدنس والفحش[2].

وقد جعل الشّعراء أموالهم، رخيصة يلتمسون بها حسن الثناء، فداء لأعراضهم، يقول زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يَلْتَمِسْ حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِه يَصُنْ عِرْضَهُ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءَ مُوبِقِ
وَمَنْ لا يَصُنْ قَبْلَ النَّوَافِذِ عِرْضَه فَيُحْرِزَه يُعْرَرْ به ويُخَرَّقِ[3]

يقابل الشّاعر بين صورتين: صورة من يحفظ عرضه فيجعله حرزاً يبعده عن كل قبيح ومذمة، فينال بذلك المدح والثناء، وصورة من لا يصون عرضه، فيقدح به ويذم، وهذا يعني أن الإنسان إذا أراد أن يكسب الثناء، عليه أن يبذل ماله رخيصاً.

والصورة التالية، تبين أن سداد الرأي في صون الأعراض، يكمن في بذل المال وتسخيره، وقاية له وحماية، دون الاهتمام بما يروجه اللائمون الذين يتحررون من المحافظة على هذه القيمة، يقول ربيعة بن مقروم:

تَقُولُ أَهْلَكْتَ مَالا لو قَنِعْتَ به أَغْنَاكَ عن طُولِ تِرْحَالٍ وعن عَمل
وما المَلاَمَةُ في شَيءٍ وَقِيتُ به عِرْضي وباعَدَنِي من شَائِنِ النَّحْلِ[4]

(١) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٩٠.

(٢) انظر هذه الصورة عند: لقيط الإيادي- الديوان، ص ٤٥-٤٦. أوس بن حجر- الديوان، ص ١٢١. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣٧.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٦٢. النافذة: الطعنة الماضية. يعرر به: يصيبه العر وهو الجرب.

(٤) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلوم الشّاعر المرأة التي ادعت أنه أهلك ماله في أشياء لو جعلها دبر أذنه لكان ماله يكفيه طول حياته، ويغنيه عن الترحال في طلبه، ويحاول الشّاعر أن يقنع هذه المرأة بأنها لو أصابت الرأي، وعرفت الهدف الذي أنفق هذا المال لأجله، لكانت قد استغنت عن عذله ولومه، وأي لوم هذا الذي تدعيه هذه المرأة والشّاعر يسخر أمواله وينفقها لأن فيها صوناً لعرضه من كل عيب أو منقصة.(١).

الخير والشر

نظر الإنسان الجاهليّ إلى الحياة خيرها وشرّها، نظرة تنسجم مع رؤيته لها ومع ما أملته عليه من واقع خضع فيه إلى معيار التكيف في إطار الممارسة العملية. والإنسان الجاهليّ يقيس الحياة بواقع التجربة الذاتية التي عاشها، فهو يعي عنصر الخير أو الشر في الإنسان وعياً تاماً، ولأجل ذلك، راح الشّعراء الجاهليّون يصورون هذه الحياة كما تمثلوها، يقول أميّة بن أبي الصّلت:

لا تَخْلِطَنَّ خَبِيثَاتٍ بطيِّبَةٍ واخْلَعْ ثِيَابَكَ مِنْها وانْجُ عُرْيَانَا
كل امرئٍ سَوْفَ يُجْزَى قَرْضَهُ حَسَناً أو سَيِّئاً ومَدِيناً كالذي دَانَا(٢)

ينهى الشّاعر الإنسان بعامة إلى تطهير النفس من النوازع الشريرة، وفي ذلك منجاة له، لأن كل إنسان مدين لأعماله خيراً كانت أو شراً، وليس ألذ على قلب المرء من أن يعيش في نعيم، مطمئن البال، هادئ الأحوال، وهذا الحكم ينم عن تجربة حقيقية، عاشها الشّاعر بخيرها وشرها، فوجد نعيم الحياة لا يطيب إلا لمن يكون عمله في وجوه الخير.

ولذلك تجد الإنسان في أي زمان ومكان يجنح إلى الخير ويمقت الشر، وهذا يقود إلى إدراك العلاقات الإنسانية التي تقوم على هذين العنصرين المتضادين، ثم العمل على مجانبة أصحاب الشر، والتقرب إلى صاحب الخير وهذا ما عبّر عنه عديّ بن زيد في قوله:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَل وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي
فإنْ كَانَ ذا شَرٍّ فَجَانِبْهُ سُرْعَةً وإنْ كَانَ ذا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِي

(١) انظر هذه الصورة عند: المثقب العبدي- الديوان، ص ٢٢٤-٢٢٦. ٢٣٣. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٢) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص٥٢٠-٥٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا ما رَأَيْتَ الشَّرَّ يَبْعَثُ أَهْلَه وقَامَ جُنَاةُ الشَرِّ للشَرِّ فَاقْعُدِ[١]

يرسم الشّاعر للإنسان، نظاماً اجتماعياً، يجعله دستوراً له في الحياة، أو سياسة يسوس بها الآخرين. ويحافظ الشّاعر على النسيج الاجتماعي في كل أمة ولا يُعنى بالفرد مستقلاً عن الجماعة، بل ينطلق من الفرد، ليصل من خلاله إلى تشكيل البناء الاجتماعي، وهذه غاية تسمو بها النفس الإنسانية التي تقود إلى توثيق الروابط الاجتماعية. فالشّاعر ينظر من زاوية إنسان جعلته دروب الحياة حكيم زمانه عن طريق التجربة والبرهان.

والنصوص السابقة، تمثل نظرة الإنسان الجاهليّ إلى عنصري الخير والشر، وتحدد إطاراً نظرياً ينبثق من فلسفة ذلك المجتمع الذي يكشف أن ميول الإنسان نحو الخير تولد بالفطرة والغريزة، ذلك لأن "وراء تجربة الشر صراعاً دائماً مع الخير، والشاعر لا يعبر عن يقين الشر، أو يقين الخير، بل عن تصارعهما"[٢].

وهذا الإطار النظري الذي يصب في عمق القانون الاجتماعي لدى الإنسان الجاهليّ، أخضع إلى سلوك ممارس، استطاع الشّاعر أن يحدد مساره الاجتماعي في ضوء هذا السلوك. ولهذا، راح الشّعراء يحددون في شعرهم ممارسات الإنسان الفعلية لعنصري الخير والشر وموقف الإنسان إزاء كل منهما، يقول الأسود بن يعفر:

إنِ امرُؤٌ مَوْلاهُ أَدْنَى دَارِهِ فيما أَلَمَّ وشَرُّهُ لكَ بَادِي
إن قُلْتَ خَيْراً قَالَ شَرّاً غَيرَهُ أو قُلْتَ شَرّاً مَدَّهُ بِمِدَادِ
فَلَئِنْ أَقَمْتَ لأَظْعَنَنْ لِبَلْدَةٍ ولَئِنْ ظَعَنْتَ لأَرْسِيَنْ أَوْتَادِي
كان التَفَرُّقُ بَيْنَنَا مِنْ مِئْرَةٍ فاذْهَبْ إليكَ فَقَدْ شَفَيْتَ فُؤَادِي[٣]

يرثي الشّاعر حال زمن انقلبت فيه الموازين الاجتماعية، فتغيرت القيم، وتبدلت الأعراف فانعدم الخير، وتأصل الشر في النفوس، ويحاول الشّاعر أن يدرأ عن نفسه شر جاره الذي أظهر له العداوة في الحل والترحال، ثم يقيم الشّاعر حواراً

---

(١) عدي بن زيد- الديوان، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ١، ص ٩١.

(٣) الأسود بن يعفر- الديوان، ص٣٢. المئرة: العداوة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائماً على أسلوب احترام الذات، وعدم تجاوز الحقوق، لأن العداء بينهما يحول دون تحقيق المودة.

وصورة الإنسان الشرير السابقة تؤثر سلباً على سلوك الناس، فتنفر المجتمعات عن بعضها، على عكس ما تتركه الصورة المقابلة لها، وهي صورة الإنسان الذي يفعل الخير، وقد نرى الشّاعر آثر البعد عن مولاه الذي يدنو منه منزلاً، ليدفع به عن نفسه أذى متوقعاً، فقد كان الشّاعر في غاية الرضا والسرور حين أيقن أن التفرق بينهما صائر لا محالة. يقول المرقّش الأصغر يوازن بين عنصرين من الناس بلونين من السلوك :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِما

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ يَجْذِمُ كَفَّهُ ... وَيَجْشَمُ من لَوْمِ الصَّدِيقِ المَجَاشِمَا[1]

فالمحمود من الناس، هو الذي يبقى في ذاكرة الآخرين وهو الذي يفعل الخير، أما صاحب الغواية والشر فهو المذموم بعينه، والإنسان الذي يكره أن يعيبه صديق هو من جشم نفسه ما تكره تجنباً للوم صديق أو أن يؤخذ عنه تصور لا يألفه الإنسان لصديقه.

ومن خلال هذه الموازنة بين عنصري الخير والشر المتمثلين في الإنسان بعامة تتجلى صور تعبير الشّاعر الجاهليّ عمّا يرتسم في نفسه من كراهية الظلم بجميع أشكاله يقول قيس بن الخطيم:

وَبَعْضُ خَلَائِقِ الأَقْوَامِ دَاءٌ ... كَدَاءِ الكَشْحِ لَيْسَ له شِفَاءُ[2]

فالشّاعر يعي أن من بين الأقوام عناصر بشرية يشكلون داء الأمة ووباءها، فلا يكاد مجتمع، يخلو من مثل هذه الفئة التي تفت من عضد القبيلة، وتؤثر في بنيانها، فالداء العضال يبلي الجسم إذا دب في أوصاله، وكذلك حال الأقوام فإنها تندثر وتفشل بخلائق أبنائها الذين يمزقون جسدها. وإذا كان بعض أبناء المجتمع الجاهليّ، يتجنب مواطن الظلم لأنه سلوك إنساني غير مستحب، فإننا نرى بعض شعراء الجاهليّة يواجه الظلم بالقوة الصارمة، فهذا عنترة العبسي يتمثل هو بنفسه تصوير هذه الظاهرة، يقول:

(١) المرقش الأصغر- شعره، ص٥٣٧.

(٢) قيس بن الخطيم- الديوان، ص١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَثْنِي عَلَيَّ بما عَلِمْتِ فإنَّنِي سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إذا لَمْ أُظْلَم
فَإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ مُرٌّ مَذَاقَتُه كَطَعْمِ العَلْقَمِ[١]

فالشّاعر يعبر عن ودّه للناس جميعاً، ولين جانبه لهم ما دام يعيش في صفاء دون أن يكدر حياته شيء. وإذا ما أصابه ضيم، فإن قسوته لهم بالغة وشديدة، وليس معنى ذلك، أن عنترة لا يغفر زلة غيره، إنما يريد أن يقف الإنسان عند حدوده ولا يتجاوزها، وفي هذه النظرة تحقيق لمبدأ إنساني يقوم على احترام الآخرين من خلال احترام الذات، وهذا يقود إلى تشكيل النظم الاجتماعية التي تعتمد الاعتراف بالحق والواجب، معياراً أساسياً لها في تنظيم المجتمعات الإنسانية[٢].

ومن الشّعراء من كانوا يتركون الظالم يتمادى في غيه ويحتكمون الزّمن وسيلة للنيل منه، فهذا يزيد بن الصعق الكلابي، بلغه أن ملكاً من ملوك غسان أخذ ابنته وهو غائب عنها فلما قدم أخبر بذلك فوفد إليه، ثم قال له:

يا أَيُّهَا المَلِكُ المَقِيتُ أَمَا تَرَى لَيْلاً وصُبْحاً كَيْفَ يَخْتَلِفَان
هل تَسْتَطِيعُ الشَّمْسَ أن تَأتِي بها لَيْلاً وهل لَك بالمَلِيك يَدَانِ
واعْلَمْ وأَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَك زَائِلٌ واعْلَم بأَنَّ كَمَا تَدِين تُدَانُ[٣]

يبين الشّاعر للملك الغساني، أن الحياة لا تبقى على وتيرة واحدة، فلا بد من انقلاب الزّمن، وتبدل الأحوال، وآية ذلك، اختلاف الليل والنهار، وطلوع الشمس وغروبها.

وهذه الظواهر الطبيعية لا تدوم على حال ثابتة، وما دام الإنسان يشكل ظاهرة خلقية، فهو في تغير مستمر، وكذلك الحال فلا تظن أن ملكك دائم فهو زائل لا محالة، وعندئذ فإنك تعامل كما عاملت. وهذا اللون من الخطاب الشعري، أشبه بالرسائل التحذيرية للظالم حتى يرتد عن غيه وضلاله.

---

(١) عنترة العبسي- الديوان، ص٢٠٥.

(٢) يزيد بن الصعق- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٦١.

(٣) وانظر هذه الصورة عند: حاتم الطائي- الديوان، ص ٣٥. العباس بن مرداس- الديوان، ص ١٠٨-١٠٩. قيس بن زهير- شعره، ص ٤٨، خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وبعد أن اكتشف الإنسان فكرة الخيروالشر لم يسترح من القلق، والأحكام بالخير والشر يجب أن تجسد إلى معايير اجتماعية لتكتسب صفة الثبات ويستطيع الفرد ممارستها وهو مطمئن إلى نتائجها، أما إذا مضى الإنسان في تحكيم عقله الفردي في الخير والشر، فإنه قمين أن يقطع في التناقض لأن الأشياء لا تبدو له دائماً في صورة واحدة"(١).

ويشكل الظلم في صورته القاتمة عند طرفة بن العبد أدواء يصعب الشفاء منها، يقول:

والظُّلْمُ فَرَّقَ بَيْنَ حَيَّيْ وَائِلٍ بَكْرٌ تُسَاقِيها المَنَايَا تَغْلِبِ
والإِثْمُ دَاءٌ لَيْسَ يَرْجَى بُرْؤُه والبِرُّ بُرْءٌ ليس فيه مَعْطَبُ(٢)

فالشّاعر لا يعطي وصفاً مجرداً للظلم على أنه صورة قبيحة تتشكل في نفس الإنسان بقدر ما يكشف عن أثره السيء في سلوك الناس، وما ينجم عنه من عواقب وخيمة فليس ثمّة شيء يفرق بين القبائل، أو الناس بعامة، أكثر من الظلم.

وما أحدثه الظلم من تفريق بين قبيلتي بكر ووائل، دليل على نواتج الشر الذي يستشري بين الناس فهو سمّ قاتل يسري في جميع أوصال الجسم، وهو داء لا براء منه(٣). وقد تعددت مواقف الشّعراء الجاهليّين من ظاهرة الضعف والأحقاد فهذا ذو الإصبع العدوانيّ يحرض ابنه على إهانة أصحاب اللؤم والضغينة، فيقول:

أهِنِ اللِّئَامَ ولا تَكُنْ لإخائِهم جَمَلاً ذَلُولا
وَدَعِ الذي يَعِدُ العَشِيـ ـرَةَ أَنْ يَسِيل ولَنْ يَسِيلا(٤)

يقر الشّاعر بوجوب اتخاذ الإنسان، موقفاً جاداً مع لئام الناس، يقوم على إهانتهم وعدم التهاون معهم، أو إظهار لين الجانب لهم؛ لأنهم فئة تعمل ضد الصالح العام للمجتمع الذي تعيش فيه. وعلى الإنسان، أن يترك مدّعي الكرم والجود، وهم قاصرون عنه.

---

(١) شكري عياد- البطل في الأدب والأساطير، انظر: ص ١٤٠-١٤١.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) وانظر هذه الصورة عند: الأعشى- الديوان، ص ١١٥، عروة بن الورد- الديوان، ص ١٠٤. قيس بن زهير- شعره، ص ٢٩.

(٤) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٧٢-٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورؤية الشّاعر، تتجه إلى إيجاد مجتمع إنساني بعيد عن الحقد والضغينة والمزاعم الكاذبة، والشّاعر يصرّ على نبذ هذه الفئة من الناس، والابتعاد عنها وعدم التعامل معها.

والزاوية التي ينظر إليها الشّاعر في كيفية تعامله مع هذا النوع من الناس تقوم على إجراءات سلوكية، لا تتجاوز حدود التعامل الظاهري، في حين، أننا نرى شاعراً آخر، يحدد علاقاته مع ذوي الحقد مستخدماً السيف والقتل، يقول عمرو بن معد يكرب:

فَلَمَّا هَبَطْنَا بَطْنَ رَنْيَةَ بالقَنَا ... أَرَنَّ سَحَابٌ رَعْدُهُ مُتَجَاوِبُ
وَسُلَّتْ سُيُوفُ الهِنْدِ مِنَّا كَأَنَّها ... مَخَارِيقُ نَالَتْها أَكُفٌّ لَوَاعِبُ
بها نَتَشَافَى الغِلَّ في ذَاتِ بَيْنِنَا ... وتَزْهُو بأَيْدِينا سُيُوفٌ قَوَاضِبُ(١)

إن ما تجهز به المعارك الدائرة في المجتمع الجاهليّ، من كثافة المتقاتلين وغزارة الأسلحة، هي وليدة الضغائن الدفينة في قلوب الناس. فالسحاب رمز لضخامة الجيش، والمخاريق رمز للسيوف في أيدي المقاتلين، وهي جميعها أدوات قتال يشفي بها كل طرف غليله من عدوّه، ويبدو أن الشّاعر أراد أن يظهر كفاءة المقاتلين من قومه ومهارتهم في فنون القتال.

ويشكل الغدر مظهر شر في الحياة الجاهليّة فغدا جزءاً من صفات الإنسان الجاهليّ. فهذا قيس بن زهير يحذر أخاه مالكاً، ألا يأمن جانب فزارة، لأنها تتصف بالغدر والخديعة، يقول:

أَمَالِكُ لا تَأْمَن فَزَارَةَ واخْشَهَا ... فإنَّكَ إنْ تَأْمَن فَزَارَةَ هَالِك
أَمَالِكُ أَنْ تَحْسَبْ مَقَامَكَ فِيهِمُ ... صَوَاباً فَقَدْ أَخْطَأْتَ في الرَّأْيِ مَالِكُ(٢)

إن ابتعاد مالك عن فزارة بسبب إضمارها الشر والخديعة، هو مطلب جاء به الشّاعر لكي يبعد مالكاً عن مخالطتهم أو التعامل معهم، وإذا ظن مالك أنه مقرب من فزارة فقد أخطأ التقدير وهذا إشارة إلى النهج الاجتماعي الذي يلجأ إليه الإنسان الجاهليّ في توعية أبناء مجتمعه، في أن يكونوا حذرين من ذوي الغدر والخداع.

---

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٤٣-٤٤. أرن: صوّت.

(٢) قيس بن زهير- شعره، ص٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك فقد نرى عنصري "الخير والشر يتقاطبان، يكاد لا يبعث أحدهما إلا بموت الآخر، فهما أبداً في مد وجزر يدويان في النفس ويحركان إعصارها ويبقيانها في حالة يمتزج فيها النور بالظلمة"(١).

وقد وقف الشّاعر الجاهليّ إزاء هذه المثالب الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع الجاهليّ موقف المستنكر المبغض، يقول المثقب العبدي:

لا تَرَانِي رَاتِعاً في مَجْلِسٍ في لُحُومِ النَّاسِ كالسَّبْعِ الضَّرِمِ
إنَّ شَرَّ النَّاسِ من يَكْشِرُ لي حين يَلْقَانِي وإنْ غِبْتُ شَتَم(٢)

يحاول الشّاعر أن يكشف عن بعض العيوب الاجتماعية التي يمارسها أشرار المجتمع الجاهليّ، فشر الناس، هو من يلقاك متجهماً عابساً يكيل لك الشتائم في السر والعلانية، وهذه الفئة من الأشرار، تستطيب هذا المناخ الاجتماعي الذي لا تعيش بغيره، ولكن الحكمة البالغة تكمن في كياسة الشّاعر ورجاحة عقله في درء المفاسد عنه، فهو يبتعد عن المجالس التي تؤكل فيها لحوم الناس وتُنهش أعراضها لجهالة أو نميمة، والإنسان الحليم عند الشّاعر، هو من يسمع بذيء القول فيصم أذنيه عنه، ويكتم الغيظ حتى لا يشفي صدور الكائدين(٣).

الثـــأر

أدت الحروب والنزاعات بين القبائل العربية في المجتمع الجاهليّ، إلى ظهور مبدأ الأخذ بالثأر الذي عدّه الجاهليّون قيمة لا تنفصل عن مكارمهم وشيمهم وسقوط القتلى في الوقائع ترك أثراً بالغاً في نفوس الأحياء، فراحوا يثأرون لهم ويطالبون أعداءهم بدمائهم.

ويعد بعض الدارسين أن الثأر "أخطر ظاهرة اجتماعية نشأت بسبب

---

(١) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ١، ص ٩١.

(٢) المثقب العبدي- الديوان، ص٢٢٩-٢٣٢. الضرم: الجائع.

(٣) انظر هذه المثالب عند: بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٨٩، عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦٩، ٩٨-٩٩. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٧، النابغة الذبياني- الديوان، ص ٤٩-٥١. قيس بن الخطيم- الديوان، ص ٢١١. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٥٥. عوف بن الأحوص- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٤٨. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٣٢٩. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصبية القبلية"[١]، "وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر"[٢].

وإذا افترضنا أن العرب، كانوا مولعين بشرب الخمر، فإن إدراك الثأر قد شغلهم عنها حتى يأخذوا به، فهذا دريد بن الصمة، يقطع عاتقاً على نفسه بألا يذوق الخمر، حتى يثأر لنفسه من أسماء بن زنباع يقول:

شُلَّتْ يَمِيني ولا أَشْرَب مُعَتَّقَةً إذا أَخْطَأَ المَوْتُ أَسْمَاءَ بْنَ زِنْبَاعِ[٣]

وكان الإنسان الجاهليّ إذا أخذ بالثأر، فإنه يعمد إلى نشر ذلك بين الناس يقول دريد بن الصمة وقد أخذ بثأر أخيه عبد الله الذي قتل يوم الذنائب:

يَا رَاكِباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ أَبَا غَالِبٍ أَنْ قَدْ ثَأَرْنَا بِغَالِبِ
قَتَلْنَا بِعَبْدِ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُؤَابَ بْنَ أَسْمَاءَ بْنِ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ[٤]

فقد يبرز من الأبيات، سلوك اجتماعي، يتمثل في أن الإنسان الجاهليّ إذا تحقق له الأخذ بالثأر، فإنه يعمل إلى إشاعة الخبر بين قومه لكسب بعدين اثنين، الأول: معنوي تطمئن به القبيلة على أنها حصلت على حقها، والثاني: مادي للحفاظ على أبناء القبيلة، ولذلك حرص الشّاعر أن يبلغ المسافرين، ليقوموا هم أنفسهم بإبلاغ رجال قومه، أنه قد قتل ذؤاب بن أسماء بن زيد خير لداة عبد الله.

والعرب كانت تميل إلى تحقيق نوع من التوازن الاجتماعي في قضايا الثأر منعاً لتفاقم الأمور، وخروجها عن الإلف والعادة، "لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء مصبوغة بالدم، لا تكاد ترى سلماً دائماً، ولا يكاد يمرّ يوم دون غارة شنعاء أو قتال رهيب"[٥]، "وكان أقدس واجب على الجماعة نحو الفرد مطالبتها بدمه إذا قتل، فهي التي كانت تثأر له وتسارع لنجدته إذا استغاث وتدفع عنه الدية إذا قتل شخصاً غريباً"[٦].

---

(١) عفيف عبد الرحمن- الشعر وأيام العرب، ص ٤٤.

(٢) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٦١.

(٣) دريد بن الصمة- الديوان، ص٩٠.

(٤) **المصدر نفسه**، ص٢٧.

(٥) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، ص ٣٩.

(٦) عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا، ص ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الإعلان عن حالات الثأر يحدث تحولاً في حياة الإنسان، قد يغير مجرى حياته إلى الجد بدلاً من حياة اللهو والمجون. وحادثة قتل حجر أبي امرئ القيس خير دليل على ذلك، فمقولة امرئ القيس حين أبلغ بمقتل أبيه على يد بني أسد "اليوم خمر، وغداً أمر، فلا صحو اليوم ولا شرب غداً" ليست إلا إشارة إلى انقلاب حياته الاجتماعية والإعلان عن بدء حياته والسياسية بين القبائل العربية، فما كان منه إلا أن جهز جيشاً للظفر من بني أسد قتلة أبيه، يقول:

قُولَا لِدُودَانَ عَبِيدِ العَصَا ... ما غَرَّكُمْ بالأَسَدِ البَاسِلِ
قَد قَرَّتِ العَيْنَانِ مِنْ مَالِكٍ ... ومِنْ بَنِي عَمْرٍو ومِنْ كَاهِلِ
ومِنْ بَنِي غَنْمِ بنِ دُودَانَ إذْ ... نَقْذِفُ أَعْلَاهُم عَلَى السَّافِلِ
حَلَّتْ لي الخَمْرُ وكُنْتُ امْرَأً ... عن شُرْبِها في شُغُلٍ شَاغِلِ
فاليَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقَبٍ ... إثْماً من اللّهِ ولا وَاغِلِ[1]

فامرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه أدرك تماماً أن الحياة لم تعد خمراً ومتعة، بل هي جدّ وواقع فشعر عندئذ بثقل المسؤولية، ومتطلبات الملك والممالك، فهب من فوره إلى بني أسد الذين كانوا أذلاء لأبيه، يثأر منهم، وها هو ذا يعلن للناس انتصاره عليهم وظفره، بهم، فقد قتل من بني مالك وعمر وتميم وكاهل وأمعن فيهم قتلاً. والشّاعر بعد أن قام بهذه المهمة، وحقق ما كان يصبو إليه، أجاز لنفسه شرب الخمر، فصارت حلالاً له يشربها في كل حين.

وامرؤ القيس حين بلغه أمر قتل أبيه قال: "ضيعني صغيراً وحملني ثقل الثأر كبيراً، ثم قال قولته المشهورة اليوم خمر... ثم شرب سبعاً، ثم لما صحا حلف أن لا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره، فذلك قوله: حلت لي الخمر، وهذا معنى ما زالت العرب تطرقه"[2]، ويستدل من الأبيات أن تحريم الخمر كان أمراً معروفاً في قيم الجاهلية وعاداتها، فحين أباح امرؤ القيس لنفسه شرب الخمر، ظن أنه لا يكسب حراماً عند الله في ذلك.

ويقدم الشنفرى صورة مماثلة لصورة امرىء القيس، يقول الشنفرى يرثي

---

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ١١٩-١٢٢. عبيد العصا: أي يعطون على الضرب والهوان المستحقب: المكتسب. الواغل: الذي يأتي شراب القوم من غير أن يدعى إليه.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٢٦، وانظر كذلك: ابن قتيبة- الشعر والشعراء، ج ١، ص ١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاله تأبّط شراً الشّاعر ويثأر له:

وَوَرَاءَ الثَّأْرِ منّي ابْنُ أُخْتٍ مَصِعٌ عُقْدَتُه ما تُحَلُّ
تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وتَرَى الذِّئْبَ لها يَسْتَهِلّ
وعِتَاقُ الطَّيْرِ تَهْفُو بِطَانًا تَتَخَطَّاهُم فَمَا تَسْتَقِل
حَلَّتِ الخَمْرُ وكَانَتْ حَرَامًا وَبِلأْيٍ ما أَلَمَّتْ تَحِلُّ[1]

إن صورة الثأر من قتلة تأبّط شراً شكلت هاجساً في حياة الشّاعر، فلم يهدأ به حال، حتى يأخذ بالدم، فقدم صورة عملية لقتلى هذيل الذين ثأر منهم، فقد ترك جثث قتلاهم نهباً للضباع والسباع التي فرحت بهذا الصيد الوفير، وطعاماً لجوارح الطير التي لا تكاد تطير، لامتلاء بطونها من قتلى هذيل. وينتهي الشّاعر إلى حياته الخاصة، فيحل لنفسه شرب الخمر الذي تشوّق إليها بعد أن شفيت نفسه بما نال من الأعداء فحقق بذلك طموحاً ومجداً.

وقد لوحظ من نصوص سابقة أن الجاهليّ كان يفرغ إلى حياته الخاصة، كشرب الخمر مثلاً بعد أن ينتهي من إنجاز مهماته الرسمية التي يلتزم بها مع مجتمع القبيلة. وقد "كانت العرب تحرم الخمر على أنفسهم في مدة طلبهم لأنها مشغلة لهم عن كريم الأخلاق والإقبال على الشهرة"[2].

وظهرت هذه الممارسات عند الأخذ بالثأر، فقد سار العرب "على عادتهم في تحريم الخمر وما يجري مجراها في ولوع النفس به والميل إليه إذا قتل لهم قتيل، حتى يدركوا ثأره، أو حزبهم أمر عظيم يحتاجون فيه إلى مناهضة ومزاولة، وربما كانوا يحرمون على أنفسهم تنظيف البدن والأخذ من الشعر وما شاكله، وذلك على حسب ميل الطباع وإيثار فطم النفس عن الشيء الذي لا مترك له عندها. والقصد في جميعه حبس النفس عن المطلوب وتذكيرها بالمفقود لئلا تتناساه أو تتشاغل عنه"[3].

وكان العرب في جاهليتهم، يرون في قتيلهم مكانة خاصة، فلا يرضون عنه بديلا فيضطرون إلى قتل عدد كبير من أعدائهم لتكتمل دائرة التكافؤ والتوازن،

---

(١) الشنفرى- الديوان، (إميل)، ص ٨٥-٨٨. المصع: شديد المقاتلة. يستهل: يفرح.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٢٤.

(٣) المرزوقي- شرح ديوان الحماسة، ج٢، ص ٨٣٨. وانظر: بلاشير- تاريخ الأدب العربي، ص ٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول العباس بن مرداس:

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّي ابْنَ جِذْلٍ وَرَهْطَهُ فَكَيْفَ طَلَبْنَاكُم بِكُرْزٍ وَمَالِكِ
غَدَاةَ فَجَعْنَاكُمْ بِحِصْنٍ وَبِابْنِهِ وَبِابْنِ الْمُعَلَّى عَاصِمٍ وَالْمُعَارِكِ
ثَمَانِيَةً مِنْهُم ثَأَرْنَاهُمْ بِهِ جَمِيعاً وَمَا كَانُوا بَوَاءً بِمَالِكِ(١)

يرد الشّاعر على جذل ورهطه الذين قتلوا مالك بن الشريد، ويخبرهم أنه فجعهم بثمانية من رجال قومه وهم لا يعدلون مالكاً، وكان الشّاعر غير راضٍ أن يشفي نفسه بثمانية قتلى من أعدائه، بل يريد أكثر من ذلك.

وكان الثأر يشكل همّاً كبيراً لصاحبه وقلقاً مستديماً لا ينتهي إلا بالنيل من الأعداء، يقول عمرو بن معد يكرب في الثأر بأخيه عبد الله وقد قتله بنو مازن:

أَرِقْتُ وَأَمْسَيْتُ لا أَرْقُدُ وَسَاوَرَنِي الموجِعُ الأَسْوَدُ
وبِتُّ لِذِكْرَى بَنِي مَازِنٍ كَأَنِّي مُرْتَفِقٌ أَرْمَدُ
أَأَغْزُو رِجَالَ بَنِي مَازِنٍ بِبَطْنِ تَبَالَةَ أَمْ أَرْقُدُ
وأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ فَضْفَاضَةً كَأَنَّ مَطَاوِيها مِبْرَدُ(٢)

"فقد نجد في حالات الرثاء أن العربي يخضع لعاطفة العرض مدفوعاً من عشيرته والتأسلية الدينية، فغريزة الوفاء بحق الدم وحدها تعيده إلى حياته الطبيعية، وهذا يفسر التناقض عند البدوي الذي قد يحترس في الغزو احتراساً قد يصل إلى حد الجبن وتراه يظهر عند الأخذ بالثأر جرأة بعيدة عن التصور"(٣).

فالشّاعر مضطرب النفس، قلق الخاطر لا يستقيم له أمر، إلا أن ينال من أعدائه بني مازن يثأر لأخيه عبد الله، ولذلك صور نفسه المتكئ على مرفق يده فتشغله هموم وطموحات(٤).

---

(١) العباس بن مرداس- الديوان، ص١٣٠. البواء: الكفء.

(٢) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص٦٨. المرتفق: المتكيء على مرفق مطاوي الدرع: غضونها إذا ضمت.

(٣) بلاشير- تاريخ الأدب العربي ص ٤٦.

(٤) انظر صورة الثأر عند: لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٢٥-٢٢٩. امرىء القيس- الديوان، ص ١٢٨. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٤٧، ٨٠، ٩١. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٣٤٥. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦٧. خالد بن جعفر- أشعار العامريين، ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حسن الجوار

طرق الشعر الجاهليّ جانباً هاماً من حياة الإنسان الجاهليّ الاجتماعية، يتمثل في حياة الجوار التي يمارسها أي مجتمع في إطاري الزمان والمكان. وقد عدّ شعراء الجاهليّة هذا الجانب قيمة إنسانية مستمدة من سلوك المجتمع العربي في العصر الجاهليّ، ولذلك اتخذ مفهوم الجوار، أبعاداً إنسانية متعددة تتضمن مجموعة من الاتجاهات، من مثل: الوفاء للجار وحمايته، وحفظ حقوقه، وغير ذلك من هذه القيم فهذا قيس بن زهير يحاور بني بدر، ويعرض عليهم رغبته في مجاورتهم يقول:

أَسِيرُ إلى بَنِي بَدْرٍ بِأَمْرٍ ... هُمُ فِيه عَلَيْنَا بالخَيَارِ
فَإِنْ قَبِلُوا الجِوَارَ فَخَيْرُ قَوْمٍ ... وإنْ كَرِهُوا الجِوَارَ فَغَيْرُ عَارِ
أَتَيْنَا الحَارِثَ الخَيْرَ بنَ كَعْبٍ ... بِنَجْرَانَ وأَيُّ لَجأً بِجَارِ
فَجَاوَرْنَا الذينَ إذا أَتَاهُمْ ... غَرِيبٌ حَلَّ في سَعَةِ القَرَارِ
فَيَأْمَنُ فيهم ويَكُونُ مِنْهُم ... بِمَنْزِلَةِ الشِّعَارِ مِنَ الدِّثَارِ
وإنْ نُفْرِدْ بِحَرْبِ بَنِي أَبِينا ... بلا جَارٍ فإنَّ اللَّهَ جَارِي[1]

يكشف الشّاعر عن قيمة الصلات الاجتماعية بين الناس، عن طريق رغبة قومه في مجاورة بني بدر، أبناء عمومته، ويخيرهم في ذلك، فإن قبلوا جواره فنعم القوم هم، وإن كرهوا ذلك، فليس عاراً عليهم، فثمّ نجران، حيث الحارث بن كعب ورهطه الذين إذا حل بهم غريب، فإنه يصبح آمناً بينهم كأنه منهم، يحفظونه ويخلطونه بعيالهم.

والشّاعر لا يزال في مأمن من أبناء عمومته ما دامت علاقته بهم وثيقة، وإذا كانت العلاقة محمومة، فقد يكتفي بالله جاراً، وهذه إشارة إلى استعداد الشّاعر بأن يستغني عن أقاربه، ليعيش وحيداً. ومن الطبيعي، أن يتشكل مفهوم الجوار إيجابياً في نفسية الشّاعر؛ لأنه يخاطب قومه الذين مهما قسوا عليه، فإنه يبقى قريباً منهم.

وإذا كان مفهوم الجوار في موقف قيس بن زهير السابق، اتخذ بعداً اجتماعياً إيجابياً، يتمثل في شعور قومه بالارتياح، حين عرض عليهم الجوار، فإن

---

(١) قيس بن زهير- شعره، ص ٤٢. الشّعار: ظاهر اللباس، والدثار: بطانته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتلمس الضبعي في الأبيات التالية، يقدم لنا صورة مخالفة، لها بُعد سياسي، في حياته أدى إلى عزوف الناس عن مجاورته، يقول:

يا حَارِ إنّي لِمنْ قَوْمٍ أُولي حَسَبٍ ... لا يَجْهَلُون إذا طَاشَ الضَّغَابِيسُ
آليْتُ حَبَّ العِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمُهُ ... والحَبُّ يَأْكُلُه في القَرْيَةِ السُّوسُ
لَمْ تَدْرِبِصْرَى بما آليْتُ مِنْ قَسَمٍ ... ولا دِمَشْق إذَا دِيسَ الكَدَادِيسُ
عَيَّرْتُمُونِي بلا ذَنْبٍ جِوَارَكُم ... هذا نَصِيبٌ من الجِيْرَانِ مَحْسُوسُ(١)

فالشّاعر أمام لونين من الصراع: اجتماعي وآخر سياسي، فالاجتماعي يتمثل في تحديد موقفه من الحارث بن التوأم اليشكري الذي وشى به للملك عمرو بن هند، فشكك في انتمائه، والسياسي يقضي بإبعاد عمرو بن هند له.

وتحوّل الشّاعر إلى دمشق، كما يشير البيت الثاني يعني تفضيله أهل الشام على عمرو بن هند الذي بخل على الشّاعر أن يطعمه حب العراق، فذهب إلى الشام ومدنها التي يكون القمح فيها أكداساً يأكله السوس لوفرته. ورغبة الشّاعر عن العراق إلى الشام، يعود إلى الحارث اليشكري الذي أثار حفيظته، حين أحس أن قومه أخذوا يعيرونه في جواره لهم، ولهذا كان الشّاعر قد اتخذ الشام منصرفاً. والذي يبدو، أن الشّاعر، كان يتملكه إحساس الشعور بالغربة، وأنه جار غير مرضي عنه، فقد غدا الناس منقبضين منه، ولا ذنب له في ذلك.

ولقد كانت علاقة الألفة بين الجيران مطلباً لإنسان ذلك العصر، وصولاً للعيش في إطارمجتمع تسوده علاقات المودة والاحترام، فهذا ابن الأسلت يعبر عن وفائه لمن يرغب في مجاورته، يقول:

مَنْ يَصْلِ نَارِي بلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ ... يَصْلَ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَّارِ
أنا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنِّي مُجَاهَرَةً ... كيْ لا أُلَامَ على نَهْيٍ وَإِنْذَارِ
فإنْ عَصَيْتُم مَقَالِي اليَوْمَ فاعْتَرِفُوا ... أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْياً ظَاهِرَ العَارِ(٢)

---

(١) المتلمس- الديوان، ص ٩٥-٩٩. الضغابيس: الضعاف، واحدهم ضغبوس. آليت: أقسمت. القرية: يعني الشام.

(٢) ابن الأسلت- الديوان، ص ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن التعبير عن مودة الجار وتقديره، يكمنان في مدى ما يلازم ذلك من بعد عن الأذى، فمن كانت هذه صفاته، كان يصلى بنار كريم لا يغدر بجار، ولا يخون ذمة. وهذا الشرط الذي وضعه الشّاعر، يشكل مبدأ اجتماعياً ينطلق به في تعامله مع الناس، فقد رسم من خلال هذا المبدأ سياسة التعامل مع الجيران، فيعلن عن ذلك صراحة، ليسلم من اللوم فيما بعد، فإن أخلوا بهذا الشرط، وخانوا الذمة، فإن الشّاعر سيلحق بهم خزياً وعاراً.

ومن الشّعراء من وجد في إلف الجيران صورة تعبر عن مدى الانسجام الإنساني القائم بين مجتمع القبيلة، يقول عبيد بن الأبرص:

أَيَّامَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ سُوقَةٍ ... لِمُعَصَّبٍ وَلِبَائِسٍ وَلِعَانِي
وَلَنِعْمَ أَيْسَارُ الجَزُورِ إذَا زَهَتْ ... رِيحُ الشِّتَاءِ وَمَأْلَفُ الجِيرَانِ[1]

فقد ترى الفقير، والبائس، والمهموم، يعانون ضيقاً في الحياة المعاشية وإذا ما هبت الرياح العاتية إيذاناً منها بقدوم الشتاء، حيث المجاعة والفقر، كان قوم الشّاعر ينحرون الإبل، ويوزعونها على الطبقات المعدومة، فيحل الوئام ويألف الجيران بعضهم بعضاً.

وتبلغ الروابط الإنسانية بين المجتمع الجاهليّ حظاً وافراً من التقدير الناتج من عمق الشعور، ونبل السلوك، وهذا بالطبع، يقود إلى فهم واع للتعبير عن حق الجار، وعدم الإخلال بالمحافظة عليه، يقول أوس بن حجر:

وَلَوْ كَانَ جَارٌ مِنْكُمَ في عَشِيرَتِي ... إذاً لَرَأَوْا لِلْجَارِ حَقاً وَمَحْرَما
ولَوْ كَانَ حَوْلِي من تَمِيمٍ عِصَابَةٌ ... لَمَا كَانَ مَالِي فِيكُمْ مُتَقَسَّمَا
أَلا تَتَّقُونَ اللَّهَ إذ تَعْلِفُونَها ... رَضِيخَ النَّوَى والعُضَّ حَوْلاً مُجَرَّما[2]

يقيم الشّاعر علاقة ضدية بين نمطين من الناس، في النظر إلى احترام حقوق الجار، ورعاية حرمته، فينكر على ذلك القوم الذين لم يراعوا حق الشّاعر حين جاورهم، فيجردهم من القيم الإنسانية، ومن تقوى الله التي اتخذها معياراً لإنصاف الجار، ثم يعود فيقر لقومه أنهم يرعون حق الجار وحرمته. وفي هذا إشارة

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٣١.

(٢) أوس بن حجر- الديوان، ص ١١٢. الرضيخ: المدقوق. العض: العلف. المجرم: التام الكامل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى اختلاف مبادىء الناس في أنماط التعامل. وذلك بصرف النظر عن أن العرب "أشاروا بحماية الجار؛ لأنه استجارهم وأعطوه عهداً أن ينصروه"(١).

والذي يبدو، أن الشّاعر، لجأ إلى مبدأ القوة لحماية حقه، حين يئس من افتراض وجود مبدأ احترام الجوار لدى الآخرين، وسياسة الشّاعر نحو هذا السلوك، تكشف عن مبدأ التشريع للمجتمع الجاهليّ الذي يقضي بضرورة احترام الجوار بصورة عامة.

ولقد صور الشّاعر الجاهليّ، نمطاً آخر من حالات الجوار، يتمثل في ظلم الجار، وما يترتب عليه من نتائج في المجتمع، يقول أبو دؤاد الإيادي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي جَاوَرْتُ كَعْباً وكَانَ جِوَارُ بَعْضِ النَّاسِ غَيَّا
فَأَبْلُونِي بَلِيَّتَكُمْ لَعَلِّي أُصَالِحْكُمْ وأَسْتَدْرِجْ نَوَيَّا(٢)

يكشف الشّاعر عن ظلم أحاق به حين جاور كعباً وقومه، وهو جوار يقوم على الضلالة والغي. وعلى الرغم من شكوى الشّاعر وتجربته المريرة معهم، إلا أنه يعود فيعرض عليهم استعداده للعدول عن رأيه، وإصرار الشّاعر في البقاء عندهم، يفسر ظاهرة لجوء الإنسان إلى الآخرين، على رغم ما يواجهه من ظلم فيهم. ويعني ذلك، أن ظروف الحاجة الاجتماعية، هي التي شكلت هذا التحول في مفهوم الإنسان الجاهليّ. والإنسان حين يحوطه ظلم الآخرين، عليه أن يغادر البيئة والمكان، ولا بد أن ظروفاً ما، هي التي ألزمت الشّاعر أن يبقى عند كعب وقومه، وبصرف النظر عن هذا الأمر فإننا نترجم هذا السلوك بأنه ينم عن بعد نظر الإنسان الجاهليّ، وحسن تدبيره.

وقد نرى مرونة الإنسان الجاهليّ في تكييف واقعه الحياتي مع أبناء قومه في قول لبيد بن ربيعة:

وإنَّ هَوَانَ الجَارِ لِلْجَارِ مُؤْلِمٌ وفَاقِرَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا الفَوَاقِرِ(٣)

وإذا كانت صورة الجوار السابقة مبنية على الإحساس بالظلم، وعدم إقامة أي

---

(١) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٦٩.

(٢) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣٥٠.

(٣) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزن للإنسان، فالصورة التالية تظهر قيمة الجار على أن له حقاً يجب رعايته، يقول المثقب العبدي:

أُكْرِمُ الجَارَ وأَرْعَى حَقَّهُ ... إنَّ عِرْفَانَ الفَتَى الحَقَّ كَرَمْ
أَنَا بَيْتِي مِنْ مَعَدٍّ في الذُّرَى ... وَلِيَ الهَامَةُ والفَرْعُ الأَشَمّ[١]

إن كرم الصفات منوط بمدى ما يبلغه الإنسان من معرفة بحقوق الجار ورعايته، ولعل إكرام الجار في المجتمع الجاهليّ، يشكل عرفاً اجتماعياً محصوراً بفئة اجتماعية، كان الشرف والسيادة من أهم مقوماتها. وهذه الصفات جعلت الشّاعر يفخر بما صنعه تجاه جاره لأن ذلك خلق يمارسه أبناء القبيلة كافة.

وكان الإنسان الجاهليّ، حريصاً على جاره، يحفظه من كل ضيم، يقول زيد الخيل:

إذْ قَالَ أَوْسٌ أَمَا مِنْ طيٍّ رَجُلٍ ... يَحْمِي الذِّمَارَ وَبِيْضُ القَوْمِ تَأْتَلِق
والجَارُ يَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ خَاذِلَهُ ... إنْ نَابَ دَهْرٌ لِعَظْمِ الجَارِ مُعْتَرِقُ[٢]

إن حماية ذمار القبيلة وإعلاء رايتها، محصوران في أبناء طيّ، فمن أمجاد هذه القبيلة أنها تحفظ الجار ولا تخذله مهما ألمت به الخطوب، وتقلبت عليه الأحوال. فقد كان من بين مفاخر العرب "المروءة التي تضم مناقبهم من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء"[٣].

وجاءت قيمةالوفاء للجار في سياق المديح فهذا الأعشى يمدح شريح بن حصن، ويذكره بأن أباه حصناً كان أوفى عهداً للجار، يقول:

شُرَيْحٌ لا تَتْرُكَنِّي بَعْدَمَا عَلِقَتْ ... حِبَالَكَ اليَوْمَ بَعْدَ القِدِّ أَظْفَارِي
قَدْ طُفْتُ ما بَيْنَ بانِقْيَا إلى عَدَنٍ ... وَطَالَ في العُجْمِ تِرْحَالِي وتَسْيَارِي
فَكَانَ أَوْفَاهُمُ عَهْداً وأَمْنَعَهُمْ ... جَاراً أَبُوكَ بِعُرْفٍ غَيْرِ إنْكَارِ
كالغَيْثِ ما اسْتَمْطَرُوهُ جَادَ وَابِلُهُ ... وعِنْدَ ذِمَّتِهِ المُسْتَأْسِدُ الضَّارِي[٤]

(١) المثقب العبدي- الديوان، ص ٢٢٩.

(٢) زيد الخيل- الديوان، ص ٧٨. اعترق العظم: أكل ما عليه من لحم.

(٣) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٦٧.

(٤) الأعشى- الديوان، ص ٢١٥. القدّ: السير من الجلد غير المدبوغ. العرف: ما استقر في النفوس وقبلته الطباع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسعى الشّاعر إلى أن يبقي حبال الوصل مربوطة مع شريح الذي جاءت محافظته على الجار إرثاً مكتسباً عن أبيه حصين، أوفى الناس عهداً لجاره. فهو خير ذائد يدفع الشر عن الناس.

والشّاعر، وقد طوف بين بلاد العرب والعجم، غير أنه لم يجد إنساناً ينتصر لجاره أكثر من حصن، وهو بهذا الإطراء، يريد أن يلزم شريحاً الممدوح بوجوب الدفاع عنه وحمايته، وإذا كانت الأبيات تشير إلى أن هدف الأعشى هو تحقيق المكاسب الشخصية من خلال غرض المدح، فإن ما يهمنا هو الكشف عن قيمة وفاء الإنسان الجاهلي لجاره وغيرته في حمايته، والدفاع عنه.

وقد نلمس في النص السابق، أن الأعشى يريد أن يحتمي بالممدوح، وظهر ذلك من خلال تشبثه به. وإذا كان مبدأ المحافظة على الجار في نظر الأعشى مرهوناً بمكانة الإنسان وسلطانه، فإن ذلك يدل على عدم استقرار الحياة الاجتماعية، وأن الإنسان غير آمن على نفسه إلا باللجوء إلى قوة اجتماعية، أو سلطان سياسي.

وإذا حاولنا الاطلاع على نظرة الشعر الجاهليّ إلى علاقات الجوار بين الناس، فإننا قد لا نثق بموقف الأعشى في هذا الإطار حين يتخذ الممدوح حامياً له وملجأ. ولعل ما يبرر ذلك، الصورة الإنسانية التالية التي تبرز قيمة المعاملة الحسنة للجار، والحفاظ على حقوقه، من خلال المجتمع، أو من خلال الفرد، يقول النابغة الذّبياني:

لا يُبْعِدِ اللّهُ جِيْرَاناً تَرَكْتُهُمُ ... مِثْلَ المَصَابِيحِ تَجْلُو لَيْلَةَ الظُّلَمِ
لا يَبْرَمُونَ إذا ما الأُفْقُ جَلَّلَهُ ... صِرُّ الشِّتَاءِ من الإمْحَالِ كالأَدَمِ
هُمُ المُلوكُ وأَبْنَاءُ المُلُوكِ لَهُمْ ... فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ في الآلاءِ والنِّعَمِ(١)

إن رؤية الشّاعر الاجتماعية التي تفضي إلى هذا اللون من علاقات الجوار المتميزة تنبري عن الحياة الفعلية، التي مارسها الشّاعر، واقعاً معاشا مع هؤلاء القوم. فهم لشهرتهم وكرمهم، كالمصابيح التي تضيء دجى الليل غير هيابين بما تنبىء به الليالي من شدة أو جدب، فهم ذوو فضل على الناس جميعاً، في الرخاء والشدة.

---

(١) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٢٧. البرم: الذي لا يدخل مع الأيسار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كانت معاملة الجوار في المجتمع الجاهليّ قائمة على احترام الحقوق في جميع أحوالها، فقد "كانت الصلة بين الجار والمجير تختلف تبعاً للظروف ظروف الجار وظروف المجير، فأحياناً تكون الإجارة مؤقتة ... وكانت أحياناً أخرى دائمة بل وراثية"[١]، فكان الإنسان يلجأ إلى قوم نتيجة فقر، ثم يرحل عنه، وقد أخذ ماله وافراً يقول زهير بن أبي سلمى:

وَجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً إليْكُم ... أَجَاءَتْهُ المَخَافَةُ والرَّجَاءُ
فَجَاوَرَ مُكْرَماً حَتَّى إذَا مَا ... دَعَاهُ الصَّيْفُ وانْقَطَعَ الشِّتَاءُ
ضَمِنْتُمْ مالَهُ وَغَدَا جَمِيعًا ... عليكُم نَقْصُهُ ولَهُ النَّمَاءُ[٢]

إن احتماء هذا الإنسان بكرام القوم، جاء هرباً من أذى الخوف، وتهديد الفقر، فكانت الحروب، وجدب الأرض سبباً في تشرد هؤلاء إلى أقوام آخرين، فكانوا يلجأون إلى هؤلاء ينمون أموالهم وهم في حيهم ثم يعودون إلى ديارهم.

وقد حظي الجار مكانة لائقة في الموروث التراثي، فقد كان من بين القيم الهامة التي يحرص عليها الإنسان الجاهليّ، وهذا تقليد اجتماعي، عده ذلك الإنسان الجاهليّ من مقومات تاريخه ووجوده، يقول الأعشى:

إنَّ الأَعَزَّ أَبَانا كَانَ قَالَ لَنَا ... أُوصِيكُمُ بثَلاثٍ إنَّنِي تَلِفُ
الضَّيْفَ أوصِيكُمُ بالضَّيْفِ إنَّ لَهُ ... حَقًّا عَلَيَّ فَأُعْطِيهِ وَأَعْتَرِفُ
والجَارَ أُوصِيكُمُ بالجَارِ إنَّ لَهُ ... يَوماً منَ الدَّهْرِ يثْنِيه فَيَنْصَرِفُ
وقَاتِلُوا القَوْمَ إنَّ القَتْلَ مَكْرُمَةٌ ... إذا تَلَوَّى بكَفِّ المِعْصَمِ العُرُفُ[٣]

ينقل الشّاعر عن آبائه، منهج حياة، يتمثل في وضع دستور يرسم السياسة العامة داخل المجتمع وخارجه، فالوصايا الثلاث التي صرح بها هذا السيد، قبل أن يفارق الدنيا، هي إكرام الضيف واحترام حقوق الجار، والشجاعة في القتال، وهذه المبادىء كانت من أهم مقومات وجود الإنسان الجاهليّ لأنها تساعد في بناء المجتمع.

---

(١) عفيف عبد الرحمن- الشعر وأيام العرب، ص ٣٥.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٤٠. أجاءته: صيرته.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ٣٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت حماية الجار من أهم مبادىء الإنسان الجاهليّ فهو يراها غاية في تحديد سلوكه الاجتماعي مع الآخرين، وهو سلوك تحتمه ظروف الحياة التي لا يستطيع الإنسان أن يعيش فيها بمعزل عن غيره. وقد ورد هذا السلوك في قول طفيل الغنوي:

مُجَاوَرَةُ عَبْدِ المَدَانِ ومَنْ يَكُنْ ... مُجَاوِرُهُم بالقَهْرِ لا يُتَطَلَّعُ
أُنَاسٌ إذا ما أَنْكَرَ الكَلْبُ أَهْلَهُ ... حَمَوْا جَارَهُم مِنْ كُلِّ شَنْعَاءَ مُضْلِعُ
وإنْ شُلَّتِ الأَحْيَاءُ باتَ ثَوِيُّهُمْ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ آمِنًا لم يُفَزَّعِ[1]

يشيد الشّاعر بعبد المدان، هؤلاء القوم الذين يعيش كل من جاورهم بعز، دون أن يجرؤ أحد على إيذائه، أو الاقتراب منه. وتتبلور أصالة عبد المدان حين يبكون جارهم وهو في مأمن من أمره، لا يفزعه شيء، حتى إذا اضطربت أمورهم، وتغيرت أحوالهم، إلى حد لا يكاد يعرف الواحد منهم الآخر فإنهم سيظلون يدافعون عن الجار، ويسعون لحمايته.

"وكانت إجارة المستجير تكفي للمحاربة في سبيل إيوائه أو الخفر بذمته، وكان يتفق أن يستجير القاتل بأبي المقتول وهما لا يتعارفان فإذا أبلغ الأب الخبر هدر دم ابنه، لذمة عنده لا تخفر، وشرف لا يهان"[2].

ولعل هذه الأبيات، تصور مدى ما يبلغه الإنسان الجاهليّ من التزامه بالقيم والأخلاق. وإزاء هذا الواقع، فقد يُظن أن المجتمع الجاهليّ، كان مجتمعاً متماسكاً، يحافظ على وحدة القبيلة، ويتجاوز ذلك إلى وحدة القوم والوطن[3].

---

(١) طفيل الغنوي- شعره، ص ٢٨. إذا ما أنكر الكلب أهله: أي إذا تلبسوا في السلاح وتقنعوا، ولم يعرف بعضهم بعضاً.

(٢) زكي المحاسني- شعر الحرب في أدب العرب، ص ٣٤.

(٣) انظر صورة الجار عند: الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٦-١٧. قيس بن زهير- شعره، ص ٥٢. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٥٢-٢٥٣. أبي دؤاد الإيادي- الديوان، ص ٢٩٢. معاوية بن مالك- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٥٥-٥٦. خالد بن جعفر- المصدر نفسه، ص ٦٦. السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٨٠. الأعشى- الديوان، ص ١٤٣. بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٨٥. عدي بن وداع- قصائد نادرة، ص١٤٣-١٤٤. حاتم الطائي- الديوان، ص ٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نبل المحتد

لا يكاد الفخر بالقبيلة والتغني بأمجادها، يفترقان كثيراً عن اعتزاز الشّاعر بحسبه ونسبه يتيه بهما على العالمين، لأن رؤية الإنسان الاجتماعية، أينما حل في الزمان والمكان تركز على الإرث العرقي الذي يكتسبه الإنسان عن آبائه وأجداده، فينبري يفخر به ذاكراً فضل هذا الموروث الذي ترك له كل مجد ورفعة. وكان أبناء القبيلة في العصر الجاهلي هم الذين يربط بينهم الدم والنسب وهم عمادها وقوامها"[١]، "وكان العرب ال جاهليون يهتمو اهتماماً عظيماً بأنسابهم، ويقولون إن ذلك راجع لحاجاتهم إلى التناصر بالعصبية، فكانوا يحفظون أنسابهم ويروونها أبناءهم ويحافظون عليها جهدهم"[٢]. يقول أوس بن حجر:

وَرِثْنَا المَجْدَ عَنْ آباءِ صِدْقٍ ... أَسَأْنا في دِيَارِهُمْ الصَّنِيعَا
إذَا الحَسَبُ الرَّفِيعُ تَوَاكَلَتْهُ ... بُنَاةُ السُّوءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيعَا[٣]

فالمجد موروث مكتسب عن آباء ذوي أصول صادقة عريقة، لها جذور بعيدة في أصالة النسب وصفائه، ثم جاءت أجيال من الآباء والأبناء، فعاثوا فساداً وسوءاً، حتى قوضوا هذا البنيان الذي شيده الأجداد، وأيما حسب رفيع، له امتداد في عمق التاريخ، فإنه سرعان ما يضيع ويتهدم، إذا قامت عليه فئة عابثة، ليس همها سوى الإساءة لأنها تتنصل من كل مسؤولية.

وإذا كان أوس بن حجر يشير في الأبيات السابقة إلى دور السفهاء في ضياع أمجاد الأمة والإساءة إلى أحسابها، فثمّة شعراء كانوا أشاروا إلى حرص مجتمع الأبناء على أحسابهم وأنسابهم، يقول عمرو بن كلثوم:

إنْ تَسْأَلِي تَغْلِباً وَإِخْوَتَهُم ... يُنْبُوكِ أَنِّي مِنْ خَيْرِهِم نَسَبا
أَنْمِي إلى الصَّيْدِ من رَبِيعَةَ والـ ... أَخْيَارِ مِنْهُم إن حُصِّلُوا نَسَبا[٤]

---

(١) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، انظر: ص ٦٧.

(٢) علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي، ج ١، ص٣٠.

(٣) أوس بن حجر- الديوان، ص ٥٦.

(٤) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٢٣. أنمي إليه: أرفع إليه نسبي. الأصيد: هو كل ذي حول من ذوي السلطان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن محافظة مثل هؤلاء الأبناء على أمجاد أمتهم يتمثل في درجة اعتزازهم بأنسابهم ورفع مكانة الأخيار ذوي السلطان منهم. ومن الشّعراء من تغنى بحسبه وأهله لأنه حسب صافٍ من كلّ عيب، أو فاحشة يقول الحادرة:

فِيئي إلَيْكِ فإنّني رَجُلٌ لم يُخْزِني حَسَبِي ولا أَصْلِي
أَدَعُ الفَوَاحِشَ أَنْ أُسَبَّ بها وَشَرِيكَهَا فَكِلَيْهِمَا أَقْلِي
وَوَجَدْتُ آبائِي لهُم خُلُقٌ عَفُّ الشَّمَائِل غَيْرُ ذِي دَخْلِ(١)

إن ما تتميز به قبيلة الشّاعر من رفعة في الحسب والنسب، جعلت أبناءها فخورين بهذا المجد المكتسب، الذي ترك لهم إرثا يقوم على تمثل القيم الإنسانية التي تتخذ من العفاف والبعد عن الفواحش مبادىء أساسية لها. وهذه الصفات، تجعل الشّاعر معتداً بحسبه، فخوراً به، ولذلك فقد جاء أسلوب الخطاب الشعري متسماً بالغلظة والخشونة، من منطلق أن الشّاعر، قد بلغ به، مجد القبيلة طموحاً حماسياً من الكبرياء الذي تأجج في نفس الشّاعر(٢).

ويعز على الإنسان الجاهليّ أن تكون أصوله العرقية، صافية النسب، يقول السموأل:

صَفَوْنَا فَلَمْ نَكْدُرْ وأَخْلَصَ سِرُّنَا إناثٌ أَطَابَتْ حَمْلَنَا وَفُحُولُ
فَنَحْنُ كَمَاءِ المُزْنِ ما فِي نِصَابِنَا كَهَامٌ ولا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ(٣)

فنحن قوم ذوو أنساب خالصة لا يشوبها كدر، انحدرنا من أصول شريفة، لأمهات طاب حملهن، من أباء بلغوا غاية المجد والشرف. والشّاعر حين يقيم تجانساً بين صفاء نسبه وماء المطر، فإنه يريد إظهار أصالة قومه، وطهارة عرقه الذي ينتمي إليه.

وإذا كان بعض الشّعراء الجاهليّين، يفخر بأصالة قومه، وشرف حسبه على أنه إرث مكتسب من أصول سابقة، لها عراقة متميزة، فإن بعض الشّعراء كذلك،

---

(١) الحادرة- الديوان، ص ٨٢-٨٣. فيئي إليك: تباعدي عني. الدخل: العيب.

(٢) انظر هذه الصورة عند: بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٢٢٢-٢٢٣. سلامة بن جندل- الديوان، ص ١١٦-١١٨.

(٣) السموأل- الديوان، ص ٩١. سرنا: أصلنا الطيب. النصاب: الأصل. الكهام: الكليل الحد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبالغون في هذا الإطراء، فيفصلون القول في أحسابهم وأنسابهم، فيردون أساسه إلى عمومتهم وخؤولتهم الذين كانوا دعائم هذا البنيان الإنساني المتكامل، يقول لبيد بن ربيعة:

فَعَمِّي ابْنُ الحَيا وأبو شُرَيْحٍ ... وعَمِّي خَالِدٌ حَزْمٌ وَجُودُ
وَجَدِّي فَارِسُ الرَّعْشَاءِ مِنْهُم ... رَئِيسٌ لا أَسَرُّ ولا سَنِيدُ
وَجَدْتُ أَبِي رَبِيعاً لِلْيَتَامَى ... وَلِلأَضْيَافِ إذ حُبَّ الفَئِيدُ
وخَالِي خديمٌ وأَبُو زُهَيْرٍ ... وَزِنْبَاعٌ وَمَوْلاهُم أَسِيد
وقَيْسٌ رَهْطُ آلِ أَبِي أُسَيْمٍ ... فَإِنْ قَايَسْتَ فَانْظُرْ ما تُفِيدُ
أولئِكَ أُسْرَتِي فَاجْمَعْ إِلَيْهِم ... فما في شُعْبَتَيْكَ لهم نَدِيدُ[1]

إن الخصائص القبلية التي تتصف بها قبيلة الشّاعر، تنسجم مع مجموعة المعايير التي وضعت شروطاً خاصة بالقبيلة، ليحق لها الافتخار بحسبها. فالعناصر البشرية التي تعيش في مجتمع الأسرة والقبيلة، تمثل بُعداً زمنياً، ينبثق عنه صفات تسهم في تشكل مجد القبيلة وأصالتها. فالفروسية، والحياء، والجود، والرياسة، من مقومات الفخر بالأنساب، ولا يكاد الشّاعر في هذه الأبيات، يترك سلوكاً إنسانياً رفيع المستوى دون أن يسنده إلى رجالات قومه، وهذا في ظني غاية الفخر بالأمجاد والأحساب[2].

وقد كان الشّعراء يعتزون بأرومتهم التي أكسبتهم مجداً، فراحوا يفاخرون غيرهم بهذه الأصول التي أورثتهم الشموخ والكرم. يقول عمرو بن شأس:

المُطْعِمُونَ إذا النُّجُومُ خَوَتْ ... وأَحَاطَ بالمتَوَحِّدِ المَحْلُ
نَدَعُ الدَّنِيَّةَ أَنْ تَحُلَّ بِنَا ... ونَشُدُّ حِينَ تَعَاوَرَ النَّبْلُ
أَمْثَالُهُم مِنْ خَيْرِ قَوْمِهِمُ ... حَسَباً وَكُلُّ أَرُومِهِمْ مِثْلُ
لَسْنَا نَمُوتُ عَلَى مَضَاجِعِنَا ... يا لَيْلَ (بل) أَدْوَاؤُنا القَتْلُ[3]

---

(١) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٣٨-٤٠. الحيا: الغيث. الأسر: الذي به عيب. السنيد: المدخل في القوم. الفئيد: الخبز المليل، قايست: فاخرت.

(٢) انظر الصورة عند: تميم بن مقبل- الديوان، ص ٣-٤.

(٣) عمرو بن شأس- شعره، ص ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصور الشّاعر معاناة الإنسان الجاهليّ، وما ينشأ عن ذلك من عيوب اقتصادية واجتماعية، تهدد استقرار الإنسان والمجتمع، ثم يأتي موقف الشّاعر، فيفخر بكرم قومه ومكانتهم الاجتماعية والعسكرية، فهم يطردون عن الناس شر الفقر، ويحمونهم من بغي الظالمين، فهم قوم لا يحبون الموت إلا في ساح الوغى[١].

ووجدت في المجتمع الجاهليّ ظاهرة الطعن في نسب الرجل، ومعايرته بأصله، وهذا الموقف أثار حفيظة بعض الشّعراء فراحوا يدافعون عن نسبهم، يقول المتلمس الضبعي:

يُعَيِّرُني أُمِّي رِجَالٌ لا أَرَى ... أَخَا كَرَمٍ إلا بِأَنْ يَتَكَرَّمَا
وَمَنْ كَان ذا عِرْضٍ كَرِيمٍ فَلَمْ يَصُنْ ... له حَسَباً كَان اللَّئِيمَ المُذَمَّمَا
أَحَارِثَ إنَّا لو تُشَاطُ دِمَاؤُنا ... تَزَيَّلْنَ حَتَّى لا يَمَسَّ دَمٌ دَمَا
أَمُنْتَقِلاً مِنْ آلِ بُهْثَةَ خِلْتَنِي ... ألاَ إِنَّنِي مِنْهُم وإنْ كُنْتُ أَيْنَمَا
ألا إِنَّنِي مِنْهُم وَعِرْضِيَ عِرْضُهُم ... كَذِي الأَنْفِ يَحْمِي أَنْفَهُ أن يُكَشَّمَا[٢]

فالذين يعيبون على الشّاعر نسبه، يريدون أن يخرجوه من إطار الانتماء إلى القبيلة عن طريق الطعن في نسبه إلى أمه، والشّاعر إزاء ذلك، شديد الولاء إلى أخواله، فالإنسان الذي لم يحفظ عرضه، ولم يصنه، كان الذميم بعينه.

والشّاعر يكاد يبطل مزاعم الحارث اليشكري الذي أخبر عمرو بن هند حين سأله عن نسب المتلمس، فقال: أوانا يزعم أنه من بني يشكر، وأوانا يزعم أنه من بني ضبيعة، فقال عمرو بن هند ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين[٣]. وحجة الشّاعر في ذلك، أنه لا يعرض من ينتسب إليهم للهلاك، ولا يهدر دماءهم فهو حريص على أن يحقن دماء قومه، سواء كانوا من أبناء عمومته أو خؤولته، فهو منهم، ومن واجبه أن يحافظ عليهم وعلى أعراضهم، وهدف الشّاعر في هذا النص، هو تغيير واقع السلوك الذي يمارسه مجتمع تحكمه القبيلة فيضع فواصل اجتماعية لإنسان ينتمي بحكم المصاهرة والنسب إلى قبيلتين.

---

(١) انظر هذه الصورة عند: ضمرة بن ضمرة- شعره، ص١١٦. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ١٣٢.

(٢) المتلمس- الديوان، ص ١٤-٢١. تشاط: تخلط. تزيلن: تفرقن. أينما: أي حيث كنت. الكشم: قطع الأنف باستئصال.

(٣) انظر الديوان، ص ١٢-١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثقة الشّاعر بنفسه جعلته إنساناً يقود مبدأ التغيير الاجتماعي في زمانه، وصولاً إلى تغيير نظرة المجتمع الجاهليّ إلى الإنسان الذي ينحدر من أعراق متباعدة في الدم والقربى[١].

(١) انظر هذه الصورة عند: عروة بن الورد- الديوان، ص ٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

الإنسان والقبيلة

في النظام السياسي للمجتمع الجاهلي

السيادة والنفوذ

كانت بنية المجتمع الجاهليّ سياسياً، تقوم على فئة محصورة تتولى مقاليد الرياسة في القبيلة، وهذه الفئة كانت مرجعاً لتصريف أمور القبيلة وأحوالها، سواء أكان ذلك داخل إطارها المجتمعي أم خارجه، ومن الطبيعي، أن ينتظم المجتمع الجاهليّ، تحت سلطان واحد لتسيير الأمور، ويبدو أن سيد القبيلة وحده الذي كانت إليه ترجع الأمور، يقول أوس بن حجر:

دَعِ العَجُوزَيْنِ لا تَسْمَع لِقِيلِهِمَا واعَمْدْ إلى سَيِّدٍ في الحَيِّ جَحْجَاحِ
كانَ الشَّبَابُ يُلَهِّينَا وَيُعْجِبُنَا فما وَهَبْنَا ولا بِعْنَا بِأَرْيَاحِ[1]

فهذه الثقة التي يتمتع بها سيد الحي، في كل مناحي الحياة، تجعل منه رمزاً قيادياً للمجتمع الجاهليّ، وآية ذلك، أن الشّاعر يطلب من إنسان ذلك العصر ألا يأخذ برأي الأبوين إذا هرما وعليه أن يقصد سيد القوم: "الممتاز برجاحة عقله، وكرم خلقه، وعظم ثروته، وقوة عصبيته، يعيش نافذ الكلمة، محترم الرأي في السلم والحرب، يفرد له من الغنائم سهام خاصة كالمرباع والصفايا والنشيطة والفضول"[2]، لأنه خير من يصرف الأمور بكل حكمة، وتلاحظ أن الشّاعر نادم على شطر كبير من حياته، فخرج عن جادة الحق والصواب، وانتهج طريقاً وعرة، دونما مرشد أو ناصح يبين له طريق الرشاد والنجاح، وهو في ذلك، يحمل أبويه مسؤولية هذا الخروج الذي قاده إلى فشل اقتصادي واجتماعي.

---

(١) أوس بن حجر- الديوان، ص ١٤. الجحجاح: السيد الكريم.

(٢) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن الشّاعر عاد إلى وعيه الحياتي، بعد زمن قضاه لاهيا عابثاً بكل أنماط الحياة دون رقيب من الأهل، لذلك، فهو يرفض ما يقوله الأبوان، فإن في قولهما ما يقود إلى التهلكة، وتجربة الشّاعر مثال حي على فشل الآباء والأمهات أحياناً في ضبط سلوكات الأبناء.

وإزاء هذا الواقع الحياتي في المجتمع الجاهليّ، كان لا بد من وجود ضوابط إنسانية تتمثل في الحاكم أو السيد، لتسيير أمور حياة المجتمع. وكان الشّاعر الجاهليّ شديد الفخر إذا انحدر من أسرة لها السيادة، وإذا كان أوس بن حجر في الأبيات السابقة صرف نظره عن أبويه إلى سيد قومه الذي رأى فيه نموذجاً اجتماعياً، فهذا بشامة بن الغدير، شديد الفخر بأبيه وجده اللذين كانت تقدم لهما الطاعة والولاء يقول:

وَجَدْتُ أَبِي فيهم وَجَدِّي كِلاهُما ... يُطَاعُ وَيُؤْتَى أَمْرُه وهو مُحْتَبِي
فَلَمْ أَتَعَمَّلْ لِلسِّيَادَةِ فيهِمُ ... ولكن أَتَتْنِي طَائِعاً غَيْرَ مُتْعَبِ[1]

فالنظام القبلي السياسي، الذي كان سائداً في المجتمع الجاهليّ، يقضي بأن يتوارث الآباء والأجداد رياسة القبيلة، حتى غدت هذه السياسة عرفاً عاماً، أو تقليداً من تقاليد المجتمع، والشّاعر حين يرى أباه وجده في بداية وعيه على الحياة، تقدم لهما الطاعة، فقد يدرك أنه سيتولى رياسة القبيلة دون أن يتعب في نيلها، بل تأتيه منقادة طائعة.

وقد يكون من الطبيعي أن يتوارث أبناء القبيلة الواحدة السيادة والزعامة يقول الأفوه الأودي:

إنّا بَنُو أَوْدَ الذي بِلِوَائِه ... مُنِعَتْ رِئَامُ وَقَدْ غَزَاها الأَجْدَعُ[2]

فقد كان النظام السياسي الداخلي للقبيلة يسمح بأن يرث الابن مكان أبيه شيخ القبيلة[3].

---

(١) بشامة بن الغدير- شعره، ص ٢١٩.

(٢) الأفوه الأودي- الديوان، ص ١٩. الأجدع: من ملوك حمير.

(٣) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، انظر: ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير الشّاعر إلى أود، جد قبيلته الذي دانت له الملوك والبلاد، ورغم انقضاء رجال القبيلة واحدا تلو الآخر فإنه هو الذي بقي فيهم على قيد الحياة سيداً، فقد ورث السيادة عن أبيه وجده[١].

وكانت بعض القبائل العربية تخرج على سياسة ملكها وترفض أن تأتمر بأمره يقول يزيد بن الصعق:

وإنَّ اللّهَ ذَاقَ حُلُومَ قَيْسٍ فَلَمَّا ذَاقَ خِفَّتَها قَلَاها
رَآها لا تُطِيعُ لها أَمِيراً فَخَلّاها تَرَدَّدُ في خَلَاها[٢]

فقد يبدو أن قوم الشّاعر ملّكوا سيّدهم وتوجوه، فلما خالفهم في بعض الأمر، وثبوا عليه، وكان سبب ذلك قلة رهطه، ويرى الشاعر أن الله تعالى خبير بحلوم قيس فعقولهم هوجاء طائشة، لا يحكمهم سيد أو أمير إلا ويتخلى عنهم نتيجة أفعالهم.

إن أبناء قيس خرجوا -في رأي الشاعر- عن النظام السياسي والاقتصادي لقبيلتهم، فقد عصوا سادتهم، وهذا يعني خروجهم عن السنن المألوف الذي اختطته القبائل العربية في العصر الجاهلي لأبنائها، فخالفوا نظامها السياسي والاجتماعي فمن المعروف أن "أفراد القبيلة يتعاونون ويتساندون في الحفاظ على شرف القبيلة وحماها، وهم متساوون فيما بينهم... ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس قبيلتهم، فوطنيتهم كانت وطنية قبلية لا وطنية شعبية"[٣]. وقد نشأت نفسية الإنسان الجاهليّ على التطلع إلى المعالي، وكان ذلك مرتبطاً مع علو همته، يقول خداش بن زهير:

ولَن أَكُونَ كَمَن أَلْقَى رِحَالَتَهُ على الحِمَارِ وَخَلَّى صَهْوَةَ الفَرَسِ[٤]

إن نفس الشّاعر ترفض الذل وتتأبى على من يحاول النيل من قدرها. والشّاعر بعيد النظر، فهو يتطلع إلى معالي الأمور ويرفض ما هو دون ذلك، فليس

(١) انظر هذه الصورة عند: معاوية بن مالك- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٥٥. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٢٣.

(٢) يزيد بن الصعق- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٦٣.

(٣) علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي، ج ١، ص ٧١.

(٤) خداش بن زهير- المصدر نفسه، ص ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو كمن يكتفي بإلقاء رحله على الحمار ويستغني عن الفرس وذلك يعني أن نفسية الشّاعر ترنو إلى العلا والفخار.

والصورة التالية تعطينا موقفاً إنسانياً في غاية السمو، وهي صورة، تنم عن علاقة مهمة بين الحاكم والمحكوم، نتيجة التفكير الواعي، والبصيرة الثاقبة بالأمور، يقول عمرو بن براقة الهمداني:

إذَا جَرَّ مَوْلَانَا عَلَيْنَا جَرِيرَةً صَبَرْنَا لها إنَّا كِرَامٌ دَعَائِم
وَنَنْصُرُ مَوْلَانا ونَعْلَمُ أنَّهُ كما النَّاسُ مَجْرُومٌ عليه وَجَارِم(١)

فالشّاعر وقومه، يواجهون التجاوزات التي يوقعها عليهم سيدهم، بكل رضى وقبول فإن أخطأ أو ألحق بهم الجرائر، فهم ناصروه ولا يخذلونه، ولعل قبيلة الشّاعر، تبرر لحاكمها وقوعه بالزلل، إذا رزأها بأمر أو بداهية؛ لأن الإنسان في عرفهم بين ظالم ومظلوم، وهكذا الناس جميعاً فقد يفرض عليهم واقع الحياة، أن يكونوا ظالمين، كما كانوا مظلومين، وهذا يكشف عن قيمة اجتماعية تتمثل في تحقيق مبدأ التسامح لأن الناس جميعاً من نسيج اجتماعي واحد متوحد، والثقة المطلقة الناتجة عن التعصب الأعمى.

وكانت نظرة القبائل الجاهليّة، تفضي في علاقاتها السياسية والاجتماعية إلى أن تتولى هي نفسها دفة القيادة والزعامة فتكون حاكمة لا محكومة، فمن شيم الجاهليّ الأنفة والسيادة. والأفوه الأودي، يصور قومه حكاماً لا ينقادون إلى أحد، يقول:

نَقُودُ ونَأْبَى أنْ نُقَادَ ولا نَرَى لِقَومٍ عَلَيْنَا في مَكَارِمِهم فَضْلا(٢)

لقد اتسمت قبيلة الشّاعر بكل أنواع القيادة والنفوذ، فهم لفضلهم ومكانتهم، لم يروا في زمانهم أحداً له عليهم يد أو فضل يشكرونه. فهم أصحاب حمية لا يضيعون لأحد ثأراً أو جناية.

وقد بالغ الشّعراء الجاهليّون في منزلة قبائلهم، فجعلوا منها سيادة متجددة وسلطاناً يأمر وينهى، معتمدين في ذلك على قوة العصبية "فكلما كان عدد أهل

---

(١) عمرو بن براقة- قصائد نادرة، ص ١٥٩.

(٢) الأفوه الأودي- الديوان، ص ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصبية أكثر كانت قيمتهم أعلى، وكان نفوذهم أوسع وكان استيلاؤهم على الرئاسة أهون وتغلبهم على خصومهم أيسر"[١]، يقول السموأل:

وَنُنْكِر إن شِئْنَا على النَّاسِ قَوْلَهم ... ولا يُنْكِرُونَ القَوْل حينَ نَقُول
إذا سَيِّدٌ مِنَّا خَلا قَام سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لما قَالَ الكِرَامُ فَعُول[٢]

إن سلطان القبيلة بادٍ من خلال ما تتمتع به قبيلة الشّاعر من سلطة تنفيذية، تمارسها على الناس عامة، فسياسة الغلبة غدت نمطاً حياتياً، تفرضه القبائل المتنفذة على القبائل الأخرى، قوية كانت أو ضعيفة، فسلطة القهر والإذلال من مقومات العصبية القبلية والسيادة عند عرب الجاهلية[٣].

وكان للعرب الجاهليّين مناطق نفوذ، يأخذونها بالغلبة والسلطان، وفرضت بعض القبائل العربية نفوذاً واسعاً في الجزيرة، فبسطت سلطانها على مساحات واسعة من الأرض ذات الكلأ والماء، فغدت هذه القبائل، تصول وتجول، بفعل القوة، يقول ذو الإصبع العدوانيّ:

لهُمْ كانَتْ أعَالِي الأَرْ ... ضِ فالسِّرانِ فالعَرْضِ
لهم كَانَ جِمَامُ الما ... ءِ لا المزْجى ولا البَرْضِ
فكانَ النَّاسُ إذْ هَمُّوا ... بيُسرٍ خاشِعٍ مُغضِي
تَنَادَوْا ثُمَّ سَارُوا بـ ... رَئيسٍ لَهُمُ مُرْضِي
فَمَنْ سَاجَلَهُم حَرْباً ... فَفِي الخَيْبَةِ والخَفْضِ[٤]

فالنفوذ الواسع الذي حققته قبيلة الشّاعر، كان بفضل حكمة رئيسهم، وبكثرة عدد أفراد القبيلة، وأن طبيعة بسط السيادة على رقعة واسعة من الأرض، يتطلب مجتمعاً يكثر فيه الرجال والفرسان، وإن تنوع أنماط الحياة، وتعدد أشكالها، يستدعي القبائل إلى التركيز على مصادر المياه، وكانت هذه القبيلة تقيم في المكان وترحل عنه حتى إذا ما اعترضتهم قبيلة فإنها تبلى بالخيبة والفشل.

(١) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٤٦.

(٢) السموأل- الديوان، ص ٩١.

(٣) انظر الصورة نفسها عند: عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٨٣. أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥٠٧.

(٤) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٥٠-٥١، النهض: القوة، المزجى: القليل والبرض: القليل، أيضاً. ساجلهم: من المساجلة، وهي المفاخرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الشعر الذي نذكره هو من صميم شعر الأيام الذي عبرعنه شعراء الجاهلية يفاخرون القبائل بالانتصارات والغزو، وهذا الشعر يغلب فيه "عكوف الشاعر على قبيلته أو دولته الصغرى محتفياً بها معجباً بمآثرها"[١]، وكان يصور "الفضائل الجاهلية المتصلة بالسيادة والجد وشرف النسب وسعة السلطان"[٢].

وهذا اللون من الحياة السياسية، التي سادت البيئة العربية، في المجتمع الجاهليّ تركت ميداناً خصباً عند الشّعراء، يذكر كل منهم مآثر قومه وسلطان أمته فيفاخر بها القبائل، ولقد توج هذا الاتجاه عمرو بن كلثوم في قوله:

وَنَشْرَبُ إنْ وَرَدْنَا الماءَ صَفْوا ... ويَشْرَبُ غَيْرُنا كَدَرا وَطِينا
إذا ما المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً ... أَبَيْنا أن نُقِرَّ الذُّلَّ فِينا
لنا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عليها ... ونَبْطِشُ حين نَبْطِشُ قَادِرِينا
بُغَاةً ظَالِمِينَ وما ظُلِمْنا ... ولَكنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينا
مَلأْنا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنّا ... ونَحْنُ البَحْرُ نَملأُه سَفِينا
إذا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا وَلِيدٌ ... تَخِرُّ له الجَبَابِرُ سَاجِدِينا[٣]

فقد اجتمعت ألوان الحكم والسيادة في قومه، فهم القادة والزعماء، يشربون الماء العذب، ويشرب غيرهم كدره، أباة يرفضون الذل، لهم الدنيا ومن عليها، بغاة ظالمون جيوشهم كثيرة تملأ البر والبحر، تخر الجبابرة لهم ساجدين.

وهذه القوة التي تتمثل في قبيلة الشّاعر، تترجم طبيعة الحكومات السائدة في قلب الجزيرة، والشّاعر كما تلاحظ تحدث بصيغة الجمع، فجعل كل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مُلكا لقبيلته، وهذا اللون من الحكم يشير إلى أن العرب في جاهليتهم كانوا يلجأون في كثير من الأحيان إلى استخدام أسلوب القوة والسلطة غير مبالين بالجور أو الظلم بهدف استمرارية الاستيلاء على مقاليد الحكم.

---

(١) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، ص ٤٨

(٢) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، ص ٤٧.

(٣) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٩٠-٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد نرى أن الرئاسة والنفوذ السياسي اللذين أشار إليهما عمرو بن كلثوم لا يتحققان في المجتمع الجاهلي إلا "بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية، فالعصبية ضرورية لتثبيت الاستقرار في حياة القبيلة، لأن قوتها في بطن من القبيلة يجعل القبيلة تسلم أمر قيادتها إلى تلك العصبية، وبالتالي فإن نظام القبيلة السياسي يبقى مستقراً"(١).

الفرد في مجتمع القبيلة

يشكل الإنسان الفرد في المجتمع الجاهليّ، عنصراً أساسياً في بنيان القبيلة ودعامة قوية في لحمتها البشرية، والإنسان في هذا المجتمع له حضور بارز تعتد به القبيلة، لأنه الذائد عن حماها، والحامي لأعراضها، والمدافع عن كيانها ووجودها، ولهذه الصفات وغيرها، نرى المجتمع الجاهليّ بعامة يحرص على تثمين أبنائه وتقديرهم، ونقول: إن الإنسان الفرد يستمد قوته من القبيلة التي هي الأخرى تزهو بما يكون لديها من رجال أوفياء.

وتبرز قيمة الفرد في المجتمع الجاهليّ من خلال مآثره بنفسه وبقومه، تراه ذا أنفة تارة، ومعتداً بنفسه تارة أخرى، وهو يترجم واقعه الحياتي، وما تنم عنه صفاته وسلوكاته.

ومن بين الصفات السلوكية للإنسان الجاهليّ الإفصاح عن بعض جوانب شخصيته وتكوينه الذاتي يقول النابغة الذّبياني:

يُنْبِيكَ ذُو عِرْضِهم عنّي وعالِمُهُمْ ... ولَيْسَ جَاهِلُ أمرٍ مِثْلَ مَنْ عَلِما
إنّي أُتَمِّمُ أَيْسَارِي وأَمْنَحُهُم ... مَثْنَى الأَيَادِي وأَكْسُو الجَفْنَةَ الأُدُما
وأَقْطَعُ الخَرْق بالخَرْقَاءِ قد جَعَلَتْ ... بَعْدَ الكَلَال تَشَكَّى الأَيْنَ والسَّأَما(٢)

يتوجه الشّاعر في خطابه إلى أسلوب الحجة والإقناع، محاولة منه في تبصير الناس، بعظيم صفاته، ولإثبات هذه المآثر، فهو يجعل كرام الناس خير من يشهد له على ذلك، وهو حريص على أن يحظى بهذا الاعتراف من علماء القوم وكبارهم، لأن الجاهل من الناس لا يعرف أن يزن الأمور بمقياسها الصحيح.

---

(١) عفيف عبد الرحمن- الشعر وأيام العرب، ص ٣٩.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص١٠٧-١٠٨. الأدم: اللحم والمرق. الأين: التعب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشّاعر هنا يبادئ المخاطب بحتمية التصديق عما يتصف به، ثم يثبت ذلك في رحلة تالية، فيخبر عن كرم صفاته من حيث موقفه من الناس في توزيع الأيسار واقتحامه هاجرة الصحراء على ناقة أضجرها الكلال والتعب.

والشّاعر الجاهليّ، حين يفخر بنفسه، معبراً عن بعض سلوكه، فهو يذكر غير صفة من صفاته الشخصية، وإذا كان النابغة في أبياته السابقة، ينعت نفسه بصفتي الكرم، وتحمل الأسفار، ومشاق الرحلة، فإننا نرى ذا الإصبع العدوانيّ يركز على إكرام الضيف والشجاعة في الطعن، يقول:

أُكْرِمُ الضَّيْفَ والنَّزِيلَ وإنْ بِتـ ـتُ خَمِيصاً يَضُمُّ بَعْضِي بَعْضِي
أَطْعَنُ الفَارِسَ المُدَجَّجَ بالرُّمْـ ـحِ فأُلقِيه لِلْيَدَيْنِ وأَمْضِي[1]

إن بعد القيم الإنسانية يتجلى في ضمير الشّاعر، حيث يقدم كل ما يملك إكراماً لضيفه ويظل هو خميص البطن يتلوى جوعاً، وقد بلغ من شجاعته، أنه يطعن الفارس المدجج بسلاحه فيلقيه على الأرض طريحاً.

وإذا كانت القيم الإنسانية في المجتمع الجاهليّ، قد قادت الشّاعر إلى أن يوغل في إكرام الآخرين، وحرمان نفسه فإننا نتساءل عن طبيعة هذه القيم التي تجعل الشّاعر يطعن قرنه، فيلقيه أرضاً مضرجاً بدمائه.

وقد يكون هذا السلوك منبثقاً من دافع التملك الكامن في طبع الإنسان، وهو"دافع اجتماعي يكتسبه الإنسان تحت تأثير العوامل الحضارية والاجتماعية التي ينشأ فيها، وهو ليس غريزة فطرية، ويبدو أن التملك ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لإشباع بعض الدوافع الأخرى مثل دافع الأمن والسيطرة والشهرة"[2].

ومن مواطن تجلي الأنا الشخصية عند الإنسان الجاهليّ أنه جعل فضله كبيراً على كثير من الطبقات الاجتماعية، ومناحي الحياة الأخرى، ظناً منه أن الأرض تعمر به، وتزهو الحياة، يقول أحيحة بن الجلاح:

لِتَبْكِني قَيْنَةٌ وَمِزْهَرُها ولِتَبْكِني قَهْوَةٌ وَشَارِبُها

---

(١) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص٥٣. الخميص: الجائع.

(٢) محمد عثمان نجاتي- علم النفس في حياتنا اليومية، ص ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولِتَبْكِني نَاقَةٌ إذا رَحَلَتْ وَغَابَ في سَرْدَحٍ مَنَاكِبُها
ولِتَبْكِني عُصْبَةٌ إذا اجْتَمَعتْ لم يَعْلَمِ النَّاسُ ما عَوَاقِبُها(١)

لقد بلغ الشّاعر حداً كبيراً من الفخر بالنفس، فتجاوز المألوف ومنح نفسه قيمة تفوق أقرانه؛ لأنه مثل نفسه بالبؤرة المركزية التي تدور حولها حركة الحياة بمحاورها الثلاثة: الإنسان، الحيوان، والطبيعة. فالقينة والقهوة والناقة والعصبة كلها رموز حياتية، تتشكل في حدود الزمان والمكان، أدوات يستثمرها الشّاعر عبر امتداد زمني للرسهام في بناء الكون والطبيعة.

وصيغة الأمر التي استخدمها الشّاعر، تجعل هذه الرموز الكونية تستجيب ملزمة؛ لأن له حضوراً متكاملاً في بناء الحياة من خلالها. وتتجلى أنفة الإنسان الجاهليّ إزاء أي مؤثر حياتي يحاول النيل من كبريائه، يقول خداش بن زهير:

فَلا تَحْسَبِي أَنِّي تَبدَّلْتُ ذِلّةً ولا فَضَّنِي في الكُورِ بَعْدَكِ صَائِغ(٢)

فلا يكاد الشّاعر يأبه بالمتغيرات التي يصنعها الإنسان، فالمرأة المخاطبة، والصائغ، كلاهما يشكل أداة هدم، تقود إلى إذلال الشّاعر والحد من أنفته، وكسر شوكته في حين أنه ينفي أن يكون لهذه المواقف السلبية أي أثر يحط من شأنه، فهو صعب المراس والترويض.

ويحاول الإنسان الجاهليّ التصدي للزمن، فلا يملك إلا أن يستذكر ماضيه الذي كان قوياً فيه، ومن الذين عبروا عن ذلك، ذو الإصبع العدوانيّ في قوله:

إنْ تَزْعُمَا أَنَّنِي كَبِرْتُ فلم أُلْفَ ثَقِيلاً نِكْساً ولا وَرِعاً
أَجْعَلُ مَالِي دُونَ الدُّنَا غَرَضاً وما وهى مِن الأُمُورِ فَانْصَدَعا
إمَّا تَرَيْ شِكَّتِي رُمَيْحَ أَبِي سَعـ ـدٍ فقد أَحْمِلُ السِّلاَحَ مَعَا
السَّيْفُ والقَوْسُ والكِنَانَةُ قد أَكْمَلْتُ فيها مَعَابِلاً صُنُعَا
والمُهْرُ صَافِي الأَدِيمِ أَضْبَعَهُ يَطِيرُ عَنْهُ عَفَاؤُه قَزَعا(٣)

---

(١) أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص٦٢-٦٣. المزهر: العود. السردح: الأرض المستوية.

(٢) خداش بن زهير، أشعار العامريين الجاهليين، ص٣٨.

(٣) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص٦٠-٦١. المعابل: النصال. الصنيع: المجرب المجلو. أضبعه: أضربه. العفاء: ما كثر من الوبر والريش. القزع: الخفة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستذكر الشّاعر زمنه الذي قضاه فارساً كريماً شجاعاً، وأصبح اليوم لا يقوى على ممارسة هذه المهارات، وهو حريص على أن لا ينعت بالجبن والضعف نتيجة هذا الهرم، بل يسعى إلى رفض واقعه الذي يظهر عجزه، فيتجاوز هذا الواقع ويتعامى عنه ليربط بين أمسه ويومه فيثبت أنه لا يزال في أوج قوته ونشاطه.

والشّاعر يحتكم لقاعدة مؤداها أن كل أمر دنيوي ظهرت عليه أمارات الوهن والضعف، فإنه لا شك ينصدع ويزول، ولعل هذه الفكرة التي راودت الشّاعر جعلت أمله يتجدد، حين وازان بين مآثره التي انقضت لهرمه وكبره، وبين ما يملك من مال، يكون أكثر ديمومة في نظر الحياة الاجتماعية في ذلك الزّمن.

ولعل الشاعر يعدّ صفاته الشخصية في إطار "التغير الاجتماعي من السمات التي لازمت الإنسانية منذ نشأتها، لدرجة أصبح التغير معها إحدى السنن اللازمة لبقاء الجنس البشري الدالة على تفاعل أنماط الحياة لتحقق لدينا أنماطا وقيماً اجتماعية جديدة يشعر في ظلها الأفراد أن حياتهم متجددة"(١).

وإذا كان الجاهليّ قد عبّر عن الأنا الشخصية، مفتخراً بنفسه عن طريق ذكر صفات الكرم والفروسية بوصفها ميداناً يتسابقون فيه، فإن بعضهم، قد عبر عن الفخر بنفسه عن طريق الشعر، لأن فئة الشّعراء تتجه إلى الفخر بالكرم والفروسية. ولعل عبيد بن الأبرص له سابقة من بين شعراء الجاهليّة، في توجيه الأنا الشّاعرية إلى محور الإبداع الشعري، يقول:

سَلِ الشُّعَراء هل سَبَحُوا كَسَبْحِي ... بُحورَ الشِّعْر أو غَاصُوا مَغَاصِي
لِسَانِي بالنَّثِير وبالقَوَافِي ... وبالأَسْجَاع أَمْهَرُ في الغِيَاصِ
مِنَ الحُوتِ الذي في لُجِّ بَحْرٍ ... يُجِيدُ السَّبْحَ في لُجَجِ المَغَاصِ
إذا ما باصَ لاحَ بصَفْحَتَيه ... وبِيضٌ في المَكرّ وفي المَحَاصِ(٢)

إن هيمنة الشّاعر على شعراء عصره، تعود إلى قدرته على قول الإبداع الفني الشعري وسيطرته على مفردات اللغة، وهو بهذه الأبيات، يتحدى الشّعراء في محاولتهم تقليده، وهو واثق من أنه وحده الذي يكون قادراً على صياغة القوافي

(١) فادية الجولاني- التغير الاجتماعي، انظر: ص ٨-٩.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص٧٦-٧٧. الأسجاع: الكلام المزدوج على غير وزن. الغياص: الغوص. باص: أسرع. الوبيص: البريق. المحاص: الرجوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاسجاع، وقد ظهرت براعته في ذلك، من خلال النسيج اللغوي الذي امتد عبر زمن القصيدة.

ولقد نتساءل عن سبب إقحام الشّاعر نفسه، ليشكل صورة تنسجم مع الحوت فكلاهما بارع في حرفته، هذا في قول الشعر والأسجاع، وذاك يجيد السباحة وبمهر فيها، فالبراعة في الأداء، هي العامل المشترك بين الشّاعر والحوت.

وعلى أثر هذا التصور الذي انتزعه الشاعر من الطبيعة ممزوجاً بروح الواقع الاجتماعي، فقد يمنح الإنسان البدائي، القدرة على "أن يحصل على قدر كبير من المعلومات المؤكدة عن الأشياء المادية وسلوك الإنسان والحيوان ونظام المناخ"(١)، ولو عدنا إلى أسباب تشكل العقلية الجاهلية في هذه الصورة لوجدنا أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية واضحاً في هذا التشكل فالتضاد الجغرافي الحاد، ولد أيضاً تضادا نفسيا حاداً جعل من البدوي إنساناً متميزاً"(٢).

وصفات الجاهليّ الشخصية كان لها حضور كبير في تاريخ الإنسان العربي، يقول تأبّط شراً:

لا شَيءَ أَسْرَعُ منّي ليسَ ذا عُذَرِ ... وذا جَنَاحٍ بِجَنْبِ الرِّيدِ خَفَّاقِ
حَتَّى نَجَوْتُ ولما يَنْزِعُوا سَلَبِي ... بوَالِهٍ من قَبِيضِ الشَّدِّ غَيْدَاقِ
حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ. شَهَّادِ أَنْدِيَةٍ ... قَوَّالِ مُحْكَمَةٍ جَوَّابِ آفَاقِ
فَذَاكَ هَمِّي وغَزْوِي أَسْتَغِيثُ به ... إذا استَغَثْتُ بِضَافِي الرَّأْسِ نَفَّاقِ(٣)

تتجلى الأنا الشّاعرية، مع الأحداث التي تتنامى، ضمن تسلسل زمني، يبدأ بالتوتر الذي ينم عن قلق الحياة واضطرابها، وينتهي بحمل لواء القيادة والرياسة. والشّاعر إزاء هذا الواقع المضطرب، يعبر عن رضاه لما يلقى من عنت يقوده في النهاية إلى الرضا والقبول.

فالسرعة والنجاة والسلب، أحداث تنبئ عن مظاهر الحياة القلقة التي يعيشها الإنسان، وليس أدل على ذلك من تجربة الشّاعر نفسه، فليس أسرع منه

(١) عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا، ص ٩٤.

(٢) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٣٠.

(٣) تأبط شراً- شعره، ص١٠٦-١٠٨. العذر: ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس. الريد: حرف الجبل. الشد القبيض: الجري السريع. غزوي: مقصدي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سوى الفرس والطائر، ولكن الإنسان الجاهليّ، أخذ يقاسم الطبيعة حياتها التي تتسم بالقسوة والمكابدة، فالشّاعر يتأهب للغزو الذي يتطلب منه سرعة فائقة ليدرك هدفه، ثم تنحدر الأحداث إلى أن يرتقي الشّاعر مكاناً عالياً في قومه، فيكون قائد غزوات، شهاد أندية، قوال حق، جواب آفاق.

والإنسان الجاهليّ حين يقضي حياته مشغولاً بين مد وانقباض وصولاً لتحقيق الغايات فإن ذلك يدل على إعجاب الشّاعر بنفسه وفخره بها. لأن الشاعر "لا يستطيع أن يرفض المشاركة في التاريخ بوصفه مصيره وطريقه المرسوم"[١] لذلك رأيناً تأثر الشاعر "بالحياة الخارجة السائدة في بيئته القائمة في مجتمعه"[٢].

وإذا كان تأبّط شرّاً في الأبيات السابقة، قد جانس في سرعته بينه وبين بعض أشياء الطبيعة تلبية لمطالب الحياة، فهذا الشنفرى يقول:

لا تَحْسَبِيني مِثْلَ مَنْ هو قَاعِدٌ على عُنْةٍ أو وَاثِقٍ بكَسَادِ
إذا انْفَلَتَتْ مِنّي جَوَادٌ كَرِيمَةٌ وثَبْتُ فَلَمْ أُخْطِئْ عِنَانَ جَوَادِي[٣]

إن الذات الإنسانية تنبثق من خلال رفض الشّاعر للواقع الاجتماعي السائد فهو ينفي بصورة تامة أن يكون من هذا النوع الإنساني الذي يقبل بما هو رديء في محيطه، دون القيام بإصلاحه أو تقويمه.

فالشنفرى لا يساوي نفسه بهذه الفئة من الناس الذين يقبلون التثاقل واللامبالاة فهو شديد التأثر، سريع الاستفزاز لقيمه التي يحارب من أجلها، وهو حين يعلي من ذاته، ينطلق من قيمة عدم الصبر على الهوان والضياع والسرعة في تلبية الأمور، والثأر للكرامة الإنسانية.

وهذا الوثب السريع الذي يتصف به ممتطياً صهوة جواده، ينطلق من مفهوم الشّاعر لتعزيز القيم الإنسانية، وتقدير النفس التي ترتقي إلى مكارم الأخلاق وعلوّ الهمّة.

ولما كانت طبيعة الحياة الجاهليّة تتسم بمتغيرات متعددة، فقد كان لزاماً على

---

(١) نيكولاس برديائيف- العزلة والمجتمع، ص ١٨٠.

(٢) عز الدين إسماعيل- الأدب وفنونه، ص ٤٣.

(٣) الشنفرى- شعره، ص٣٤-٣٥. العنثة: العجوز.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان الجاهليّ بعامة، أن يقابل هذه المتغيرات بكل ما يفرض ذلك من صلابة وتحدّ، وقد بات من المعلوم أن الشجاعة هي وحدها التي تعلي من قدر الجاهليّ حين يمارسها ضد أعدائه، انظر إلى دريد بن الصمة وهو يقول:

قد عَلِمَ القَوْمُ أَنّي مِنْ سَرَاتِهِمُ ... إذا تَقَلَّصَ في البَطْنِ المَذَاكِيرُ
أَوْعَدْتُمَ إبِلي كَلاَّ سَيَمْنَعُها ... بَنُو غُزَيَّةَ لا مِيلٌ ولا عُوُرُ
قَومٌ إذا اختَلَفَ الهَيْجَاءُ واخْتَلَفَتْ ... صُبرٌ إذا عَرَّدَ العُزْلُ العَوَاوِير
كأَنَّ وِلْدَانَهُم لما اخْتَلَطْنَ بهم ... تَحْتَ العَجَاجَةِ بالأَيْدِي العَصَافِير
إذا طَرَدْنَا كَسَوْنَا الخَيْلَ أَنْضِيَةً ... وإن طُرِدْنَا كأَنَّا خَلْفَنَا زُور[1]

يبدو جلياً أن الشّاعر، رأى ذاته من خلال ما قدم من نصر، كان له كبير الأثر في قومه الذين عدّوه من خيار زعمائهم، فهو الذي أعاد للقبيلة هيبتها وقوتها بين القبائل، حتى لكأنه أخضع لتجربة عسكرية، لأن فوزه بالرياسة، كان مرهوناً بمقدار ذلك التحدي الذي أظهره في المعركة تلك التي لهولها تدخل مذاكير الرجل في بطنه.

ثم يخرج الشّاعر بصورة قتالية متميزة، حين يصف الخيل ينضوها التعب والإرهاق وهي في حالة النصر، وإذا طردوا من المعركة، فإنهم يتركون وراءهم قتلى كثيرين.

والشاعر يحقق بذلك نموذج البطل الذي يعد "عالم التغير الاجتماعي المأمول القائم على تطور الإنسان من الداخل"[2]، "وكان البطل هو نموذج الإنسان الذي يخرج من عالمه الصغير، عالم الأم إلى عالم القبيلة الممتد في الماضي والمستقبل"[3].

وتأتي مقارعة الخصوم، وتسجيل ألوان القتل، صورة أخرى من صور الفخر بالذات عند الإنسان الجاهليّ، ولعل مثل هذه الصورة التي تبرز سيرته الذاتية، ولكأن هذه الصورة، غدت سجلاً إعلامياً وثائقياً في تاريخ الإنسان الجاهليّ، وخير

---

(١) دريد بن الصمة- الديوان، ص٧٦-٧٧. الأميل: الذي لا رمح معه. عرد: هرب. النغو: الدابة التي أهزلتها الأسفار.

(٢) عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، ص ١٣١.

(٣) شكري عياد- البطل في الأدب والأساطير، ص ١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من عبر عن ذلك ضمرة بن ضمرة في قوله:

وَقِرْنٍ تَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجِلُ حَوْلَهُ عليه نَجِيعٌ من دَمِ الجَوْفِ جَاسِدُ
حَشَاهُ السِّنَانُ ثُمَّ خَرَّ لأَنْفِهِ كما قَطَّرَ الكَعْبَ المؤَرَّبَ نَاهِدُ(١)

إن صورة البطل الصريع تترجم قيمة الإنسان في العصر الجاهليّ، وحين يكون الإنسان طعاماً للطير تحجل حوله، فإن ذلك يعني، عبثية الإنسان في القيم الاجتماعية. وعلى الرغم من طبيعة الموقف الذي يفيض حزناً من جراء مسيل الدماء، إلا أننا لا نكاد نلمس، لحظة زمنية تتجسد فيها الشعور الإنساني، فيعطف الإنسان على بني جنسه حتى لو كان عدواً له، فمنظر الدماء وما يبعث من وجع في النفس، يتلاشى أمام غرور الأنا التي تسعى إلى انتزاع النصر كيفما كانت وسيلته ونتائجه.

ولقد بلغ الأمر بالإنسان الجاهليّ أن يرى له حضوراً متكاملاً حين يقارع خصمه ويطعنه طعنة نجلاء، وقد صور ذلك عبيد بن الأبرص في قوله:

وَقَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ الكَمِيَّ بِصَدْرِهِ مُشَلْشِلَةٌ فَوقَ النِّطَاقِ نَفُوحُ
دَفُوعٌ لأَطْرَافِ الأَنَامِلِ ثَرَّةٌ لها بَعْدَ إِنْزَافِ العَبِيطِ نَسِيحُ
إذا جَاءَ سِرْبٌ مِنْ نِسَاءٍ يَعُدْنَهُ تَبَادَرْنَ شَتَّى كُلُّهُنَّ تَنُوحُ(٢)

نرى الإنسان يشكل أداة قتل لنفسه وللآخرين، فالشّاعر ترك نظيره مضرجاً بدمائه، والنساء حوله تبكينه، فالنفس الأمارة بال هي التي بعثت الألم في قلوب النساء اللواتي كن ينحن على خصم الشّاعر(٣).

ولم يقتصر فخر الشّاعر الجاهليّ بنفسه من جانب القوة في مجابهة الأعداء والخصوم، وفي إجادته الطعن والضرب، بل تجاوز هذا الفخر، حتى وصل إلى

---

(١) ضمرة بن ضمرة- شعره، ص١١٦. النجيع: الشديد الحمرة. الجاسد: اللازق. قطره: رماه على ناحيته. الكعب: عظم يلعب. المؤرب من الكعاب: الحاد الأطراف. الناهد: الصبي المرتفع.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص٣٢-٣٣. المشلشلة: الطعنة التي تنثر الدم. ثرة: غزيرة الدم. العبيط: الدم الطري. النسيح: الدفع.

(٣) انظر هذه الصورة عند: امرىء القيس- الديوان، ص ١١٨، بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٢٧-٢٨، طرفة بن العبد- الديوان، ص ٣٨-٣٩. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤٩-٥٠. عوف ابن الأحوص- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اقتحامه الأهوال دون خوف أو فزع، يقول عمرو بن قميئة:

وَهَاجِرَةٍ كأُوَارِ الجَحِيـ ـمِ قَطَعْتُ إذا الجُنْدُبُ الجَوْنُ قَالا
ولَيْلٍ تَعَسَّفْتُ دَيْجُورَهُ يَخَافُ به المُدْلِجُونَ الخَبَالا[1]

يكاد الشّاعر يجزم بأن الإنسان هو وحده الذي يتجلد أمام الأهوال والمصاعب دون غيره من الكائنات الحية، فالصورة التي التقطها الشّاعر من البيئة، تمثل قدرة الإنسان على المغامرة.

وظهرت صورة، اختار لها الشّاعر نمطين من الزّمن، الهاجرة والليل المدلهم، وكلا الزّمنين، يعيش فيهما أحياء، كان الشاعر، قد شكل عنصراً مجابهاً.

فالزمن الذي اختاره الشاعر ينذر بقدوم الليل "فيحيل الأشياء إلى أطياف وأشباح يزيل حقيقتها[2].

وفي الوقت الذي تأوي فيه الجنادب إلى مكان القيلولة، فينقطع نتيجة الحرّ اللافح، كان الشّاعر يقطع هذا المكان في ذلك الوقت الحرج، وهو فوق ذلك، يقطع الليل المظلم دون هداية أو دليل، يجتاز عتمة الليل الذي ألحق المس والجنون لكثير من المسافرين، فالمكان والزمان هنا، لم يعد كل منهما يشكل خطراً على ذات الشّاعر، ولو خشي الشّاعر ذلك لما أقدم على هذا الفعل الذي لا يجرؤ عليه إلا أمثاله.

فالشّاعر إذن، صاحب هم كبير، هذا الهم هو الذي ألزمه ليفعل ذلك، ومن هنا يأتي إبراز دور الشّاعر في اللجوء إلى هذه الظروف.

الالتزام والخلع في مجتمع القبيلة

تتفاوت الرؤى الإنسانية لدى شعراء الجاهليّة بتفاوت الشّعراء أنفسهم من حيث درجة انتماء الشاعر لقبيلته، ودوره في تشكل النسيج الاجتماعي الذي يحافظ عليه ويعمل على تقوية دعائمه. فقد يختلف الشّاعر عن غيره بمدى قدرته على الانخراط في مجتمع القبيلة، وهذا يترتب عليه معرفة ما تدخر القبيلة لإنسانها الشّاعر من معاني التقدير وتنمية الجهود.

---

(١) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٥٩، الإدلاج: سير الليل كله.

(٢) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ٤، ص ١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد "كان الشعر عند الجاهليين في خدمة المجتمع الصغير الذي يسمى القبيلة، وإلى هذه الصلة الاجتماعية، يرجع ذلك الفرح العظيم بالشاعر حين ينبغ افي قبيلته"(١). "فكانت العلاقة بين الفرد والقبيلة علاقة حميمة لأن ملكية الفرد فيها اعتمدت اعتمادا شديداً على الملكية العامة"(٢).

وإزاء هذا، راح الشّعراء الجاهليّون يبثون في شعرهم رموزاً إنسانية متعددة الاتجاهات الاجتماعية كان لها كبير الأثر في درجة انتماء الشّاعر، وتعزيز هذا اللون من الشعر في بنية المجتمع، ويقول عنترة مصوراً نفسه بين قبيلته:

نادَيْتُ عَبْساً فاستَجَابُوا بالقَنَا وبكُلِّ أَبْيَضَ صَارِمٍ لم يَنْجَلِ
إنِّي أمرُؤٌ من خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شَطْرِي وأَحْمِي سَائِرِي بالمُنْصَلِ(٣)

إن استجابة قبيلة عبس نداء عنترة يعبر عن المكانة الاجتماعية التي يتصف بها وهي استجابة جاءت اعترافاً بفضل عنترة وتوليه زمام القيادة في قومه، فهم يذعنون لكل شيء يأمر به، وعلى هذا الأساس فقد جعل الشّاعر نفسه مفضلاً عن كل عبس قيادة ومنصباً فهو يحمي قومه بحسن تدبيره تارة، وباستخدام السيف تارة أخرى.

وقد عرفنا من سيرة عنترة أن تجربته مع قومه قد "تفجرت وفاضت من عصيانه الاجتماعي وتمنعه على المصير الذي فرض عليه"(٤)، ولكنه في هذه الأبيات يرمز إلى عالم القبيلة من أجل عبلة، وعنترة الفارس الذي يحمل قضيته الخاصة ويقتل من أجلها"(٥).

وهذا المستوى الذي بلغه عنترة في قومه، يفوق ما جاء به غيره من الشّعراء في زمانه ونجد مثالاً لذلك في قول عامر بن الطّفيل:

إنَّنِي والذي يَحُجُّ لهُ النَّا سُ قَلِيلٌ في عَامِرٍ أَمْثَالِي

---

(١) إحسان عباس- فن الشعر، ص ١٧.

(٢) هاشم ياغي- معاناة ومعايير من جمال، ص ٥.

(٣) عنترة العبسي- الديوان، ص٢٤٨. المنصب: الحسب والأصل. المنصل: السيف.

(٤) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ١، ص ٨٩.

(٥) خالد الكركي- الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، ص ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يَوْمَ لا مَال لِلْمُحَارِب في الحَرْ ب سِوَى نَصْلٍ أَسْمَر عَسَّالِ[١]

فقد برر ندرة أمثاله في قومه بما يتصف به من قوة في أثناء القتال والحرب، فعدّة المحارب، تُثمن بما يملك من أسلحة تكفل له النصر، كالفرس الأجرد، والنصل الأسمر، والدرع الملساء.

ولعلنا من خلال النصين السابقين نجد أن بعض شعراء الجاهليّة، يستخدم أسلوب الفخر بذاته، ويجسد معاني البطولة في المعارك، لكي يرى نفسه مميزاً عن سائر أفراد قبيلته، فعنترة العبسي وعامر بن الطّفيل، يحاول كلاهما أن يجد نفسه نادراً في مجتمعه وأسرته.

"فالإنسان كائن تاريخي، وهو يسعى إلى تحقيق ذاته في التاريخ، ومصيره من أجل ذلك تاريخي، وحياته وأفعاله الخلاقة محصورة داخل إطار التاريخ، وهو مضطر داخل هذا الإطار إلى أن يمنح خياله المبدع صورة موضوعية"[٢].

وفي هذا الأسلوب المباشر، محاولة من الشّاعر، لجعل قوة الجماعة تنبثق من قوة الفرد، حتى لكأن القبيلة هي عنترة وابن الطفيل فقد نرى المجتمع مجسداً في ذات الفرد، وهذه الصورة الإنسانية تختلف في نوعها لدى شعراء كثيرين في المجتمع الجاهليّ؛ لأن منطلقهم كان بلسان حال مجتمعهم فأسقطوا (الأنا) وركزوا على الـ (نحن)، ومن ذلك قول النابغة الجعدي:

وإنَّا أُنَاسٌ لا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا إذا ما التَقَيْنَا أنْ تَحِيدَ وتَنْفِرا
وتُنْكِرُ يومَ الرَّوْعِ ألْوانَ خَيْلِنَا من الطعْنِ حتى تَحْسِبَ الجَوْنَ أَشْقَرا
وما عُلِمَتْ من عُصْبَةٍ عَرَبِيَّةٍ كَمِيلادِنا منَّا أعَزَّ وأكْبَرا
بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنا وجُدودَنا وإنَّا لَنَرْجُو فَوقَ ذلك مَظْهرا[٣]

إن مجتمع القبيلة، تشتد لحمته بتعاضد أبنائه الذين يقفون صفاً واحداً أمام أية قوة تحاول إضعاف شوكتها، فالتزام الشّاعر القبلي، يظهر بشكل واضح من خلال المجابهة الفعلية للأحداث. وهؤلاء الأبناء لشدة بأسهم فقد غرسوا الشجاعة في

---

(١) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٣٧٩- ٣٨٠. الرمح العسال: إذا كان كثير الاهتزاز للدونته.

(٢) نيكولاس برديائيف- العزلة والمجتمع، ص ١٨٠.

(٣) النابغة الجعدي- الديوان، ص ٥٠-٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خيولهم، حتى صارت الحرب عندها عادة، وآية ذلك تغير لون الخيل قبل المعركة وبعدها، ونظرة الشّاعر هنا، تركز على القوم، وتعلي من دور البطل المجتمع.

"وتبدو في الشعر الجاهلي الروح الجماعية بوضوح، فالشاعر في أغلب الأحيان يتحدث عن قبيلته في الفخر والهجاء والوعيد والإنذار، الكلام بصيغة الجمع، مما يؤكد أن الشاعر لسان القبيلة المعبر عن أحوالها وترجمان أحاسيسها"(١).

وما دامت روح الجماعة متأصلة في معتقد الشّاعر، فإن ذلك يثبت شدة التزام الإنسان بقبيلته، ويلحظ كذلك أن الشّاعر شديد التعصب لعروبته فالمبدأ القومي الذي انطلق منه تمثل في العصبية التي ينتمي إليها والتي بوساطتها بلغ هو وقومه سنام المجد والرفعة(٢).

وقد وجد في المجتمع الجاهليّ شعراء يعلون من دور الفارس البطل الذي يرد للأمة أمجادها، وقد اتضح ذلك في قول الخنساء:

ألَا لَا أرَى في النَّاسِ مثْلَ مُعَاوِيَة إذا طَرَقَتْ إحدى اللَّيَالِي بدَاهِية
ألاَ لا أرى كفَارِسِ الجَوْنِ فارِساً إذا ما عَلَتْهُ جُرْأَةٌ وغَلَانِية(٣)

يأتي الالتزام بمجتمع القبيلة من قبل الشّاعر نفسه، جرياً على عادة الشّعراء في بيان مدى انتمائهم لمجتمعهم، لكن التزام الإنسان بقبيلته جاء هنا على لسان الخنساء التي تحكي هي بنفسها قصة أخيها معاوية، بما بذل من شجاعة وبلاء في سبيل الدفاع عن قبيلته.

والخنساء حقيقة، تعرض دور البطل الذي تمثل بشخص معاوية، فهي التي ترجمت حضوره في مجتمع قبيلته، ووصفته إنساناً شديد الولاء، ولعل دور البطل المنتمي في نص الخنساء، يختلف عن الدور الذي قاده الشّعراء بأنفسهم، فأولئك كانوا قد رسموا قصتهم بأنفسهم، في حين أن الخنساء، هي التي تعرض دور البطل، فشكلت قصته من خلال مشاعرها النفسية تجاه معاوية.

---

(١) علي الجندي- ملحق تاريخ الأدب الجاهلي، ص ٥٧.

(٢) انظر صورة الالتزام بالقبيلة عند: عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٨٦-٨٧. أوس بن حجر- الديوان، ص ١٠٧. عوف بن الأحوص- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٥١. النابغة الذبياني- شعره، ص ٦٧.

(٣) الخنساء- الديوان، ص ٥٨-٦١. الغلانية: من الغلو وهو الغضب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان بعض شعراء الجاهليّة جعل نفسه جديراً بتحمل مسؤوليات قومه، يقول الأعشى:

بُنَيَّةَ إنَّ القَوْمَ كانَ جَرِيرُهُم بِرَأْسِي لَو لَم يَجْعَلُوه مُعَلَّقَا
إذا اعْتَفَرتْ أَقْدَامُهُمْ عِنْدَ مَعْرَكٍ ثَبَتْنَ به يَوْماً فَإنْ كانَ مَزْلَقا(١)

يحاول الأعشى أن يوزع مهمات المسؤولية على غيره ويتمنى ألا يتحمل وحده وزر القبيلة، ويؤكد الشّاعر ضرورة أن يتقاسم ما يترتب على القبيلة مع أبناء قومه الذين وصفهم بأنهم كرام يتجلدون أمام الشدائد، فهم أقدر على مجابهة الأعداء.

ويشير الأعشى إلى أنه زعيم القبيلة بلا منازع، وإن كان في ظاهر الأبيات تعفف عن تحمل المسؤولية، محاولاً جعل القيادة والرياسة بأيدي فتيان قومه الذين وصفهم بالثبات أمام المحن، وهذه الصورة التي تومي إلى حب القيادة والزعامة تختلف في جوهرها عن صورة تميم بن مقبل التالية الذي يرى فتيان القبيلة متساوين مع الكهولة، يقول:

وشُبَّانُنا مِثْلُ الكُهُولِ وكَهْلُنا إذا شَابَ قِنْعَاسٌ منَ القَوْمِ أَجْلَحُ
تَحَاكَمُ أَفْنَاءُ العَشِيرَةِ عِنْدَه كَثِيراً فيُعْطِيها الجَزِيلَ ويَجْزَحُ(٢)

إن عراقة أبناء هذه القبيلة متصلة بشيوخها وكهولها الذين يتصفون بإصلاح ذات البين. يتحاكم الناس عندهم، فيعطونهم كل حقوقهم، وفي مثل هذا الوصف الذي ينعت به هؤلاء الشباب، إنما يعبر عن مكانة القبيلة واعتزازها بأبنائها فجعل فئة الشباب كالكهول، فلا طيش ولا هوج، فالتصرف الغالب عليهم هو تصرف الحكماء.

وتتسع دائرة الانتماء عند الإنسان الجاهليّ، فتشمل الوطن الذي ينافح عنه أبناؤه، ومن ذلك قول أوس بن حجر:

وإنْ مُقْرَمٌ منَّا ذرا حَدَّ نَابِه تَخَمَّطَ فينا نَابُ آخر مُقْرَمِ

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٥٨-٦١. الجرير: ما يضم حبل الخطام إلى رأس البعير.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص٥٥. القنعاس: الجمل العظيم الطويل السنام. الأجلح: الذي انحسر الشعر عن مقدم رأسه. أفناء العشيرة: أخلاطها. يجزح: يقطع من ماله قطعة ويعطيه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَنَا مَرْجَمٌ نَنْفِي به عن بلادِنَا وكُلُّ تَمِيم يَرْجُمُون بمَرْجَمِ
أُسَيِّدُ أبْنَاءٌ لَهُ قد تتابَعُوا نُجُومُ سَمَاءٍ مِنَ تَمِيمٍ بمَعْلَمِ(١)

إن نظرة الشّاعر للقبيلة تمحورت في بعدي الزمان والمكان، فهو من جهة يربط الحاضر بالماضي حين يفخر بسادة قومه، فقبيلته لها عمق متجذر في السيادة والشّاعر ليس وحده الذي يدافع عن أبناء قومه بقدر ما يكون أبناء تميم كافة هم الذين يقدمون واجب الانتماء القومي فكلما وقع منهم سيّد ينجب سيّد آخر، فالولادة التاريخية لأبناء تميم هي ولادة زمنية متنامية، يشكل فيها إنسان تميم حضوراً متكاملاً في صنع الأحداث التي تقود إلى المجد المؤثل.

ويتسرب إحساس الشاعر للوطن ممثلاً بالقبيلة "فارتباط مفهوم الوطن بالقبيلة لدى الشاعر الجاهلي جعله يذوب بكل كيانه في هذا الوطن"(٢)، وهذا يدل على أن المشاركة الوجدانية "مظهر من مظاهر الانتماء للجماعة والشعور بالطمأنينة فيها، ولهذا فهي تؤدي إلى إشباع حاجة هامة من الحاجات النفسية وهي حاجة الانتماء للجماعة"(٣).

ولا يكاد أوس الشّاعر ينفرد وقبيلته بصنع الأمجاد، فقد كان شعراء أخرون قد تغنوا بما وصلت إليه قبائلهم من مستوى رفيع، في معظم مناحي الحياة، يقول السموأل بن عادياء:

سَلِي إن جَهِلْتِ النَّاسَ عنَّا وعنْهُمُ فلَيْسَ سَواءً عَالِمٌ وجَهُولُ
فإنَّ بَنِي الرَّيَّانِ قطْبٌ لِقَوْمِهِمْ تَدُورُ رَحَاهُم حَوْلَهُم وتَجُولُ(٤)

إن بيئة الشّاعر الاجتماعية تضطره إلى أن يفرز بني الرَّيّان عن سائر مجتمع القبيلة؛ لأنهم هم وحدهم القادرون على تسيير أمور القبيلة التي لا تستقيم إلا بهم. وهذا الفرز الاجتماعي الذي يقف الشّاعر وراءه مقصود لذاته، فالثنائية الضدية التي تشكلت بين العلم والجهل هي نفسها المحور الأساسي الذي يسقطه الشّاعر على أن يكون فيها بنو الريان قطب الرحى، فخطاب الشّاعر، لا

---

(١) أوس بن حجر- الديوان، ص١٢٢. الرجم: مكان الرجم وهو الدفاع اوالمنافحة. المعلم: المشهور.

(٢) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٤٥.

(٣) فوزي عفيفي- السلوك الاجتماعي، ص ٣٥.

(٤) السموأل بن عاديا- الديوان، ص٩٢. القطب: الحديد الذي في الطبق الأسفل من الرحى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يريد من ورائه الكشف عن المعنى الظاهر لهذه الثنائيات بقدر ما يريد أن يبين قيمة بني الريان في منظومة الشّاعر القومية أو القبلية.

وإذا كان السموأل في النص السابق ينطلق من خطاب تتسم صيغة الأمر فيه بالتوسل لإثبات ما يتميز به قومه من قيمة ومكانة، فقد وجد من بين شعراء الجاهليّة من ينطلق في هذا الاتجاه بأسلوب تقريري محقق، وظهر ذلك في قول ابن الأسلت:

مَلَكْنَا النَّاسَ قد عَلِمَتْ مَعَدٌّ فلم تُغْلَب ولم تُسْبَقْ بِوِتْرِ
هَمَمْنَا بالإقَامَةِ ثم سِرْنَا بسَيْرِ حُذَيْفَةَ الخَيْرِ ابنِ بَدْرِ[1]

فحكم الناس بعضهم بعضاً من سنن المجتمعات الإنسانية في كل زمان ومكان ويفخر الشّاعر بالنفوذ الذي بسطته قبيلته على الناس، دون أن تغلب أو تقهر.

وقد كانت معدّ إذا ما امتلكت بلاداً تمكث قليلاً ثم ترحل عنها ضمن دائرة التوسع في بسط النفوذ الذي يقوم إنسان قبيلة معدّ بترجمته إلى واقع في الامتداد السياسي والنفوذ العسكري، وفيما يبدو أن قبيلة معدّ كانت تستخدم أسلوباً إعلامياً في حياتها العسكرية، يعتمد على القمع بهدف كسب قيمة الغلبة على القبائل الأخرى.

وإلى جانب هذه الفئة المنتمية من أبناء القبيلة التي لاقت كل تقدير فقد ظهرت فئة مناوئة لسياسة القبيلة فقدت مكانتها الاجتماعية حتى أصبحت لا تشكل شيئاً في نظر القبيلة يقول تميم بن مقبل:

وأَهْوَنَ مَفْقُودٍ وأَيْسَرُ هَالِكٍ على الحَيِّ مَنْ لا يَبْلُغُ الحَيَّ نَائِلُه[2]

فقيمة الإنسان الجاهليّ في نظر الشّاعر، مرهونة بما يقدم للقبيلة، وما يترتب عليه من واجبات إزاء أفرادها فلا حضور له إلا إذا ترجم انتماءه إلى عطاء تشعر به القبيلة حينئذ إنساناً بانياً، وفي خلاف ذلك، لا يكون الإنسان ذا قيمة، أو شأن في مجتمعه. ومعنى هذا أن الإنسان المنتج هو الذي يحظى بالقيمة والتقدير إذا حرص على تماسك أبناء قبيلته ومنحهم العناية والاهتمام، فتباعد أبناء القبيلة يعني انهداماً لبنيانها، وإضعاف شوكتها، وتعريضها لأشد المخاطر. ومن أشد الشّعراء

---

(١) ابن الأسلت- الديوان، ص٧٦.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرصاً على تماسك القبيلة، قول قيس بن الخطيم:

تَقولُ ابنَةُ العَمْرِيِّ آخِرَ لَيْلِها عَلامَ مُنِعْتَ النَّوْمَ ليلَكَ ساهِر
فقُلْتُ لها قَوْمِي أَخافُ عَليهِمُ تَباغِيَهُمْ لا يُبْهِكُمْ ما أُحاذِرُ
فلا أَعْرِفَنْكُم بَعْدَ عِزٍّ وثَرْوَةٍ يُقالُ ألا تِلْكَ النَّبِيتُ عَساكِر
فلا تَجْعَلُوا حَرْباتِكُمْ في نُحُورِكُمْ كما شَدَّ أَلْواحَ الرِّتاجِ المَسامِر(١)

فعلاقة أبناء القبيلة، تشكل محوراً أساسياً في كيانها ووحدتها، والشّاعر تتلظى كبده بدافع الغيرة على قومه، فهو يخاف أن يبغي بعضهم بعضاً، أو يفسد أمرهم، ويصبحوا جموعاً شتى متفرقة، وفي الوقت نفسه، فهو ينهاهم عن الوقوع في المصادمات، ويدعوهم إلى الوحدة والتماسك. وأرَقُ الشّاعر على قومه يأخذ منحيين الأول يتمثل في السيادة على قومه، والآخر أنه شديد الانتماء والحرص فيعز عليه أن يتفرق قومه وتذهب ريحهم.

"ولئن كانت الروح الجماعية هي السائدة في الشعر الجاهلي، فلقد كان للنواحي الشخصية نصيب فيه فكان هناك فخر شخصي وحديث عن المشاعر والإحساسات والعواطف الخاصة بنفسية الشاعر وشخصيته المستقلة"(٢)، فقد كان الشاعر الجاهلي يمتلك دافع الغيرة على قومه، ورأب الصدع بينهم، يقول معاوية بن مالك :

رأَبْتُ الصَّدْعَ من كَعْبٍ فَأَوْدَى وكان الصَّدْعُ لا يَعِدُ ارْتِئَابَا
فأَمْسَى كَعْبُها كَعْباً وكَانَتْ مِنَ الشَّنآنِ قد دُعِيَتْ كَعابا(٣)

يفخر الشّاعر بحكمته وبقدرته على رأب الصدع بين بطون كعب، بما كان بينهم من فتق وفساد، ولم يكن يريد من وراء ذلك سوى أن يكون لقومه قدوة فيشكل من نفسه مصلحاً اجتماعياً يرسم سياسة قومه فيحذون حذوه وصولاً إلى تحقيق مبدأ التماسك الاجتماعي بين القبائل والبطون(٤).

---

(١) قيس بن الخطيم- الديوان، ص٢٠٨-٢٠٩. يبهكم: يفسد أمركم. الرتاج: الباب.

(٢) علي الجندي- ملحق تاريخ الأدب الجاهلي، ص ٥٧.

(٣) معاوية بن مالك- أشعار العامريين الجاهليين، ص٥٣-٥٤. الصدع: الفتق والفساد. أودى: هلك.

(٤) انظر هذه الصورة عند: لقيط بن يعمر- الديوان، ص ٤٣-٤٤، مصرف بن الأعلم- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٨٠. الأعشى- الديوان، ص ٣٦٧. عمرو بن شأس- شعره، ص ٣١-٣٣. طفيل الغنوي- شعره، ص ٣٢. عدي بن وداع- قصائد نادرة، ص١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تباينت درجات الولاء والانتماء إلى مجتمع القبيلة لدى الشّعراء الجاهليّين، فمنهم من عبر عن ذلك عن طريق حل مشكلات القبيلة من الداخل، ورأب الصدع فيها، واستخدام لغة العقل، فنجح في لم شتاتها عن طريق الفعل والعمل، كما لوحظ في النصوص السابقة، ومنهم من عبر عن حبه لقبيلته عن طريق اللغة الشعرية فيبث فيها شوقه إليهم كما في قول عمرو بن شأس:

أَلِكْني إلى قَوْمِي السَّلامَ رِسَالةً بآيةِ ما كَانُوا ضِعَافاً ولا عُزّلا[1]

فهذا اللون من الانتماء يعكس عنصر الشوق إلى المكان، حيث القوم والأهل، والشوق يبلغ حده في البعد.

ومنهم من استخدم لغة العقل في التعبير عن مظاهر الشوق فذكر مآثر أبناء القبيلة وهم يدافعون عن ذمارها. يقول تميم بن مقبل:

لَقَدْ كانَ فينا مَنْ يَحُوطُ ذِمَارَنا ويُحْذِي الكَمِيَّ الزَاعِبِيَّ المُؤَمَّرا
ويَنْفَعُنَا يَومُ البَلاءِ بَلَاؤُه إذا اسْتَلْحَم الأَمْرُ الدَّثُور المُغَمَّرا[2]

إن الصورة الجماعية التي يعبر عنها الشّاعر تحمل معنى انصهار الأبناء مع مجتمع القبيلة، فكل فرد فيها، يحاول أن يدافع عنها. والشّاعر يفخر بهذه الفئة من الأبناء الذين يعود بلاؤهم لصالح القبيلة.

واختيار الشّاعر بعض فتيان قومه، ممن يتصفون بالغيرة في الدفاع عن القبيلة ثم تعميم ذلك حتى يشمل جميع أبنائها فإن ذلك يعني أن الأمجاد التي حققتها القبيلة، كانت بفضل هؤلاء الأبناء، وصيغة المفرد التي ذكرها الشّاعر، وتحوله إلى صيغة الجمع، دليل على أن أبناء القبيلة كانوا يشكلون قوة متكاملة، لا يعود الفضل لواحد منهم دون الآخر، فالدفاع عن القبيلة ليس من مسؤولية الشّاعر وحده بل مسؤولية الجميع، ولعل هذا التوحد في المواقف القومية، يصل إلى نتيجة مؤداها أن مصير المجتمع العربي في العصر الجاهليّ، كان موزعاً على أبنائه، يتخذ كل فرد منه قسطاً.

---

(١) عمرو بن شأس- شعره، ص٧٢.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص١٣٨. يحوط: يحفظ. يحذي: يطعن. الزاعبي من الرماح: الذي إذا هز تدافع كله. اسلتحم الخطب: نشب فيه. الدثور: الرجل الخامل. المغمر: الرجل الذي لم يجرب الأمور.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووجدت طائفة من الشّعراء، كان همها إذكاء روح الحميّة عند رجال القبيلة، حفاظاً على ذمارها يقول حاتم الطائي:

أَبْلِغْ بَنِي ثُعَلٍ عنّي مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسَالةِ لا مَحكاً ولا بُطُلا
أُغْزُوا بَنِي ثُعَلٍ فالغَزْوُ حظُّكُمُ عُدُّوا الرَّوَابِي ولا تَبْكوا لمن نَكلا
وَيْها فِداؤُكُم أمّي وما وَلَدَتْ حامُوا على مَجْدِكُم واكفوا مَنِ اتَّكلا(١)

إن ظاهر الخطاب الشعري يكشف تخاذل أبناء قومه تجاه القبيلة، وتعرضها إلى غزو يهدد أمنها، والشّاعر إزاء ذلك كله، يعاني أزمة البعد عن قومه، لإن صيغة التمني هي في غالب الأمر، إفصاح عن معاناة البعد عن قومه، ويعزز ذلك قوله: أبلغ بني ثعل عني مغلغلة، فالشّاعر إذن شديد الغيرة على ما أصاب قومه من ضعف لذلك فهو يقف حائراً بين أمرين متضادين، يتمثل الأول في عدم قدرته على تحقيق رغبته في الدفاع عن قومه لبعده المكاني عنهم، والثاني في دعوته قومه بني ثعل للغزو.

ويتجلى التصاق الشّاعر بقومه حين فداهم بنفسه وبمن ولدت أمه، هؤلاء الذين إذا ما أصاب القوم شرّ وأذى، تراهم يفدون أنفسهم وأرواحهم رخيصة، فهم الذائدون عن أمجاد الوطن والأمة.

وفي الوقت الذي كان حاتم الطائي قد أفصح في النص السابق عن صورة الإنسان المتخاذل الذي لا يأبه بالقبيلة وأبنائها، فهذا عبيد بن الأبرص يأتي بصورة مغايرة قوامها الانتماء الشديد للقبيلة، يقول:

ونَحْنُ قَتَلْنا الأَجْدَلَينِ ومَالِكاً أعزَّهُما فَقْداً عَلَيْكَ وهَالِكا
ونَحْنُ جَعَلْنَا الرُّمْحَ قِرْنا لنَحْرِهِ فقَطَّرَهُ كأنَّما كانَ وَارِكا
ونَحْنُ قَتَلْنَا جَنْدَلاً في جُمُوعِهِ ونحْنُ قَتَلْنَا شَيْخَهُ قَبْلَ ذَلِكا(٢)

تتشكل صورة الإنسان المنتمي لقبيلته، وسط ألوان القتل المدمرة التي أحدثتها السيوف. وقد خرج القتل عن الإلف الإنساني، حتى وصل درجة كبيرة من

---

(١) حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٤. المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد. المحك: المنازعة. الروابي: أراد بها الشرف. نكل: تراجع عن الشيء جنبا.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص٩٣-٩٤. الأجدلان: رجلان من كندة. قطره: صرعه. الوارك: المتكيء على وركه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التهوّر، وإذا كان من السهولة بمكان، أن يقتل هذا العدد الذي أشار إليه الشّاعر، فقد يكون من المبالغة أن يقتل ملوك وأشراف وسادة بهذه البساطة التي صورها الشّاعر.

إن طبيعة الاجتماع الإنساني ضرورة حياتية ملحة للمجتمعات البشرية بغض النظر عن المتغيرات الطارئة في الزمان والمكان، والتصاق الإنسان بمجتمعه من ضروريات وجوده، فالحياة السياسية والاجتماعية والمعاشية، كفيلة بأن تلزم الإنسان للعيش ملتصقاً بمجتمع القبيلة.

وكشف الشعر الجاهلي عن حياة التمرد في ذلك المجتمع ، تمثل في "الثورة على النظام القبلي الاقتصادي والاجتماعي كله هو ثورة الصعاليك من الشعراء"(١).

والإنسان الجاهليّ، شأنه شأن أي إنسان ينخرط في سلك الجماعة ثم ينبت عنها لسبب أو لآخر، وقد وجدت فئة من بين المجتمع الجاهليّ تحدث ثورة اجتماعية تقف وراءها دوافع متعددة، وليس أدل على ذلك، من قول الشنفرى مخاطباً قومه:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ ... فإنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُم لأَمْيَلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ واللَّيْلُ مُقْمِرٌ ... وَشُدَّتْ لِطَيَّاتٍ مَطَايَا وأَرْحُلُ
ولي دُونَكُم أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْئَلُ
هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِرِّ ذَائِعٌ ... لَدَيهِمْ ولا الجَانِي بما جَرَّ يُخْذَلُ
وكُلٌّ أَبِيٌّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنَّنِي ... إذا عَرَضَتْ أولَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ(٢)

أن يفارق الإنسان أهله في مجتمع جاهلي يكون الفرد فيه بأمس الحاجة إلى من يحتمي به، شيء يبعث على الاستغراب والاستهجان. وبلوغ الشّاعر غايته في مفارقة أهله، أمر فيه تساؤل كبير، وصيغة الأمر التي استخدمها الشّاعر تؤذن بالتشتت الذي يبعث على التفسخ القبلي، والانبتات عن المجتمع، وفي ذلك انهيار قبلي كان الإنسان الجاهليّ أشدّ من يحرص على قوته وتماسكه.

---

(١) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، ص ٤٩.

(٢) الشنفرى- الديوان، (إميل)، ص٥٨-٥٩. إقامة الصدور: التهيؤ للرحيل. الطيات: الحاجات. العملس: السريع. زهلول: خفيف. جيئل: من أسماء الضبع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس من السهولة بمكان أن يجرؤ الشنفرى، فيعلن لقومه أنه أكثر ميلاً ورغبة إلى قوم دون أهله لو لم يكن هناك حجة مقنعة، ومما يبعث على الغرابة بمكان، أن الشنفرى يهجر قومه فيختار مجتمع الغاب ممثلاً بالذئاب والضباع والوحوش المفترسة التي فضلها على بني جنسه فاستبدل حيواناً تميزت غريزته بالعدوانية بقوم عقلاء، والشّاعر حين فضل التعامل مع حيوان الغاب على مجتمع قومه، فإن ذلك يعني أن مجتمع الغاب يتسم بالعدل والإنصاف أكثر من مجتمع الإنسان في نظر الشّاعر، وقد يكون هذا صحيحاً لأن تجربة الشّاعر مع قومه مثال واقعي لذلك.

ونظرة الشنفرى حيال قومه تمثل صراعاً أيديولوجياً تبنته طبقة اجتماعية دعوا بالثوريين الذين إذا ما نظرنا إليهم "وجدناهم ينسحبون من البناء الاجتماعي الكائن ويتحولون إلى جماعات جديدة بأيديولوجيات جديدة"[١]، وهذه "الحركات الفلسفية والشعرية.. تهدف في معظمها إلى تحرير الفرد من طغيان المجتمع عليه، والعودة به إلى أحضان حريته الأولى عندما لم تكن نفسه تعاني الكبت والحرمان ولم تكن تنطوي على ذاتها"[٢].

ونجد الشنفرى، يمثل صورة من يحفظ السرّ والود، وهذا الأمر لم يكن متيسراً له من خلال تجربته الإنسانية مع بني جنسه، فرأى أن الحيوان أصدق تعاملاً، وأحفظ سراً، وأكثر ودّاً.

وإذا كانت ظروف الحياة في المجتمع الإنساني تتطلب التضامن الاجتماعي، كفاً للأذى ودفاعاً عن النفس، وطلباً للحماية، فقد يكون لزاماً على الشنفرى أن يكون واحداً من أولئك الذين ينظرون باهتمام إلى تحقيق هذه الآمال، فقد "يدل تاريخ العلوم ونظرية التنمية الاجتماعية وتطبيقاتها والوضع الحديث للصراع الأيديولوجي دلالة مقنعة على أنه يستحيل حل قضية الإنسان بالتجرد عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان والذي بقوانينه تتشكل طريقة نشاطه الحياتي"[٣]. لكننا نجد الشنفرى، يحذو حذواً مغايراً تماماً للإلف الذي يسير عليه أبناء مجتمعه، فالإنسان في مبدأ الشنفرى، خارج عن إطار المجتمع الذي يرغبه، ويعني ذلك أن

---

(١) السيد علي شتا- نظرية الاغتراب، ص ١١٥-١١٦.

(٢) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ١، ص ٩٤.

(٣) لودميلا- الإنسان، ص ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان لا حضور له في الدائرة الودية التي يألفها الشّاعر، وما يثبت ذلك قوله أيضاً:

وإنّي كَفَانِي فَقْد مَنْ لَيْسَ جَازِياً بِحُسْنَى ولا في قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ
ثَلاثَةُ أَصْحَابٍ: فُؤادٌ مُشَيَّعٌ وأَبْيَضُ إِصْليتٌ وصَفْرَاءُ عَيْطَلُ[1]

فتجربة الشّاعر المريرة مع أهله، أفقدته الثقة بالعنصر الإنساني، وجعلته ينكفىء على، فيعيش مع ذاته وسيفه ورمحه، تقديراً منه بأن هؤلاء الأصحاب الثلاثة هي التي يُتعلل بها، وتغنيه عن أهله الذين لم يجد فيهم جزاء لمعروف.

وظاهرة التحول الاجتماعي التي مارسها الشنفرى مع قومه، برزت عند غيره من الشعراء الجاهليّين، لكن إلى أناس مثلهم، لا إلى مجتمع الشنفرى الذي تمثل في الحيوان الآبد، يقول الأفوه الأودي:

كَيْفَ الرَّشَادُ إذا ما كُنْتَ في نَفَرٍ لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلاَلٌ وأَقْيَادُ
أَعْطَوْا غَوَاتَهُمْ جَهْلاً مَقَادَتَهُمْ فَكُلُّهُمْ في حِبَالِ الغَيِّ مُنْقَادُ
حانَ الرَّحِيلُ إلى قَوْمٍ وإن بَعُدُوا فيهم صَلاَحٌ لِمُرْتَادٍ وإرْشَادُ
فَسَوْفَ أَجْعَلُ بُعْدَ الأَرْضِ دُونَكُمُ وإنْ دَنَتْ رَحِمٌ مِنْكُمْ ومِيْلاَدُ[2]

يجد الشّاعر أن وقت الرحيل عن قومه، إلى قوم آخرين، يتصفون بالصلاح والرشاد، قد حان واقترب، واتخاذ الشّاعر هذا القرار بمفارقة أهله، نابع من بصره بالأمور، وخبرته بشؤون قومه.

فهو يبحث بين قومه عن حقوق الإنسان، ليعيش المجتمع متكافلاً متضامناً، لا يكاد يجد شيئاً منها، "فالعدل لا يرقى إلى مستوى القيمة المطلوبة إلا إن كان الظلم هو السائد، والمساواة لا ترقى إلى مستوى القيمة المطلوبة إلا إن كان التفاوت الاجتماعي الجائر هو السيد، والحرية لا ترقى إلى مستوى القيمة المطلوبة إلا إن كان الاستبداد هو الجاثم"[3]، ولو نظرنا إلى طبيعة المجتمع الجاهلي الذي انبت عنه

---

(١) الشنفرى- الديوان، (إميل)، ص٦٠. التعلل: التلهي. المشيع: الشجاع. الإصليت: السيف المجرد من غمده. الصفراء: القوس. العيطل: الطويلة.

(٢) الأفوه الأودي- شعره، ص ١٠.

(٣) فهمي جدعان- نظرية التراث، ص ٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض أبنائه أو خلعوا، فإننا قد نجد شيئاً مما يعانيه هؤلاء المخلوعون عن مجتمعاتهم.

فالشّاعر يزن المجتمع، بما يتمثل فيه من معطيات إنسانية تتسم بالخير والصلاح، وليس سهلاً على الشّاعر، أن ينسلخ عن قومه لو لم يجد فيهم كل ضلال وغواية وخاصة أن الإنسان بعامة، يلتحم مع مجتمع القبيلة بصرف النظر عن المتغيرات المستجدة زماناً ومكاناً، ولكن شاعرنا قد وصل به عجب التساؤل في أن تسند مقاليد الأمور إلى جهال القوم وأوباشهم، فمشكلة الشّاعر إذن، ليست مقتصرة على رفضها جهال القوم فحسب، بل القبيلة التي تقبل هذه الفئة المارقة مسؤولة عن أمور القبيلة(١).

وإذا كان الشنفرى في نصوص سابقة، صرف نظره عن إنسان قومه على أنه صانع شر، فاتخذ الطبيعة الحية والجامدة، كالحيوان وأدوات القتال، أصدقاء له، يتعلل بهم، فقد وجد شعراء كانوا قد عاشوا حياة عزلة وانسلاخ عن مجتمعاتهم التي وجدوا فيها كل ظلم وتسلط، يقول المتلمس الضبعي:

وما كُنْتُ إلاّ مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ ... بكَفٍّ له أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْذَمَا
فلمَّا اسْتَعَادَ الكَفَّ بالكَفِّ لم يَجِدْ ... له دَرَكاً في أن تَبَيَّنَا فَأَحْجَما
يَدَاهُ أَصَابَتْ هَذِه حَتْفَ هَذِهِ ... فَلَمْ نَجِدِ الأُخْرَى عَليها مُقَدَّما
وقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أنْ أَكُونَ لِعَقْبِهِم ... زَنِيماً فَمَا أُجْرِرْتُ أن أَتَكَلَّمَا
لأُورِثَ بَعْدِي سُنَّةً يُقْتَدَى بها ... وأَجْلُو عن ذي شُبْهَةٍ أن أتوَهَّما(٢)

يصور الشّاعر مجتمع قومه الذي تسوده نوازع كبيرة من التفكك الأسري والضياع اللذين أفضيا إلى تشتت أبناء القبيلة، والشّاعر معتقد بأن القبيلة نفسها هي التي نشرت سموم العداوة بين أبنائها، فقطع بعضهم بعضاً، إلى حد أصبحوا فيه شبيهين بالإنسان الذي تشل يده أختها الأخرى فتعطلها عن القيام بأي نشاط.

---

(١) وانظر صورة الغواية عند:عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١٥٣. المتلمس الضبعي- الديوان، ص ١٩٤-١٩٧.

(٢) المتلمس الضبعي- الديوان، ص ٣٢-٣٩. استقاد: من القود وهو القصاص. الدرك: اللحاق. الزنيم: المعلق في القوم ليس منهم. الإجرار: أن يشق طرف لسان الفصيل لئلا يرضع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الإجراء الاجتماعي الذي أحدثته القبيلة بين أفرادها كان قد أثار نوازع الشّاعر النفسية فبات في وجدانه انفعال يتسم بالتحسر لما أصاب القبيلة من تباعد يقود إلى تحجيمها وإضعاف شوكتها بين القبائل الأخرى. والشّاعر معني بقومه فهو يرشدهم إلى كل خير، فيهتدي به من سيأتي بعده ليكون بذلك سنة تقتدي بها من بعده الأجيال.

وهذا السلوك يفسر لنا ظاهرة اجتماعية سلبية، مؤداها أن القبيلة كثيراً ما كانت سبباً في إقصاء أبنائها، وهذا مؤشر واضح لنهج القبيلة التي أحدثت تفسخاً في الروابط الاجتماعية نجم عنه خروج الفرد من مجتمع القبيلة.

"فالوضع الاجتماعي للشاعر الجاهلي جعل لشعره هذا الطابع الجماعي، ووجه الأنظار إلى ما ينطوي عليه من مضمون"[١]، وبهذا "فإن الأدب العربي الجاهلي يعتبر من الأمثلة الواضحة للآداب التي تعكس آثار البيئة"[٢].

وساور الإنسان الجاهليّ شعور بظلم القبيلة فتجلد أمام ذلك وتبنى هذا الشعور عمرو بن قميئة، فيقول:

أُقَارِضُ أَقْوَاماً فأُوفِي قُرُوضَهُم ... وعَفٌّ إذا أَرْدَى النُّفُوسَ شَحِيحُها
على أَنَّ قَوْمِي أَشْقَذُونِي فَأَصْبَحَتْ ... دِيَارِي بأَرْضٍ غَيْرِ دَانٍ نُبُوحُها
تَنَفَّذَ مِنْهُم نَافِذَاتٌ فَسُؤْنَنِي ... وأَضْمَر أَضْغَاناً عَليَّ كُشُوحُها
فَقُلْتُ فِرَاقُ الدَّارِ أَجْمَلُ بَيْنَنَا ... وقد يَنْتَئِي عَنْ دَارِ سَوْءٍ نَزِيحُها[٣]

فالشّاعر يطرح قضية قومه الذين أساءوا معاملته، فأظهروا له العداوة، وحقدوا عليه، وهو مع ذلك يحسن إليهم بحكم النسب والعرق، ولكنه في نهاية الأمر يرتحل عنهم مفارقاً ديارهم إلى ديار الغربة. فرأى عداوة القبيلة له مسوّغاً لرحيله بعد أن أخضع قومه لتجربة اجتماعية قائمة على العلاقات الإنسانية.

وهو يستهجن معاملة قومه له، وقد كان عفيفاً فيهم يتحمل تبعاتهم ومع ذلك فقد رحل عنهم وهو يعرف أن مردّه إليهم. فانقطاع الشاعر عن مجتمع، ناتج عن

---

(١) محمد عبد السلام كفافي- في الأدب المقارن، ص ٥١.

(٢) محمد عبد السلام كفافي- في الأدب المقارن، ص ٤٧.

(٣) عمرو بن قميئة- الديوان، ص٣١-٣٢. أشقذه: عاداه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معاداته وحرمانه "فإذا لم يستطع الإنسان إشباع حاجاته، فإن حالة توازن الكائن الحي تختل ويحدث نوع من التوتر قد يكون جسمياً وقد يكون نفسياً فيلجأ الكائن الحي إلى القيام بأنواع مختلفة من النشاط يرمي بها إلى استعادة حالة التوازن المفقودة والتخلص من حالة التوتر"[١]، وهذا الاختلال في العلاقات الاجتماعية مرده فقدان التواصل الذي يعد أحد العوامل الجوهرية للتحديد الاجتماعي لسلوكية الإنسان، فالتواصل شرط هام لتكوين وعي الفرد ووعيه الذاتي وهو يدخل ضمن الباعثية التحفيزية[٢].

وقد شكلت مقاطعة القبيلة بعض أبنائها دافعاً عندهم، لإيجاد مبرر لهم في الهجر والصد وهم غير راضين عن ذلك، يقول في العباس بن مرداس:

أَرَانِي كُلَّمَا قَارَبْتُ قَوْمِي ... نَأَوْا عَنِّي وَقَطْعُهُم شَدِيدُ
سَئِمْتُ عِتَابَهُم فَصَفَحْتُ عَنْهم ... وَقُلْتُ لَعَلَّ حِلْمَهُم يَعُودُ
متى أَبْعَد فَشَرُّهُم قَرِيبٌ ... وإنْ أَقْرَبْ فَوُدُّهُمْ بَعِيدُ
أَقُولُ لَهُم وقَدْ لَهَجُوا بِشَتْمِي ... تَرَفَّوا يا بَنِي عَوْفٍ وَزِيدُوا
فَمَا شَتْمِي بِنَافِعِ حَيَّ عَوْفٍ ... ولا مِثْلِي بِضَائِرِهِ الوَعِيدُ
أَتَجْعَلُنِي سَرَاةُ بَنِي سَلِيمٍ ... كَكَلْبٍ لا يَهِرُّ ولَا يَصِيدُ[٣]

يشكل الشّاعر مع قومه ثنائية ضدية في طبيعة العلاقات الإنسانية ويظهر دوره الإيجابي تجاه قومه، وإن كانوا قد أساءوا إليه، وهذا البعد الإنساني الذي ينطلق منه الشّاعر يدل على الرؤية الاجتماعية العامة التي تتخذ القيمة الإنسانية شعاراً لها، فمحاولات الشّاعر جادة في وصال قومه، لكنهم يحيطونه بالشر والسباب في القرب والبعد، وهو مع ذلك كله يصفح عنهم الزلة أملاً بعودة حلمهم إليهم. فيترفعون بعد ذلك عن كل ؛ لأنهم مهما حاولوا إلحاق الأذى به فإن ذلك لن يضيره، ويدلل الشّاعر على انحطاط قومه وعدم ترفعهم عن الدنايا حين يحاولون أن يجعلوه إنساناً لا قيمة له فيريدونه كالكلب العاجز عن الصيد أو النباح فتنعدم الفائدة منه.

---

(١) أحمد نوفل- الحرب النفسية، ج ١، ص ١٩.

(٢) سلوى سامي- الإبداع والتوتر النفسي، انظر: ص ٦٨.

(٣) العباس بن مرداس- الديوان، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا الإبداع في التعبير عند الشاعر ناجم عن حالة "اللاتطابق مع الواقع - الذي- هو جوهر انطلاق الإبداع، وهذا اللاتطابق ليس إلا التطلع إلى الحرية التي يتسع أفقها مع كل تقدم اجتماعي"(١)، وهذا الإبداع يعود في معظمة للمجتمع الذي لديه "قدرة خفية قوية على تشكيل عقلية الفرد، ونفسية تشبه السحر في نفاذها في شخصيته وإمكانيتها في تحويره"(٢).

ومن الشّعراء من ينحو في شعره منحى اجتماعياً آخر، يقوم على مبدأ المقارنة بين القبائل في معاملة أبنائها، فهذا المسيّب بن علس يقارن حاله مع قومه يقول:

وَقَدْ كَانَ سَامَةُ في قَوْمِهِ ... له مأْكَلٌ وله مَشْرَبُ
فَسَامُوه خَسْفاً فَلَمْ يَرْضَهُ ... وفي الأَرْضِ عن خَسْفِهِم مَذْهَبُ(٣)

فالشّاعر يتحدث عمّا آل إليه سامة في قومه من حال بعد طيب عيش فالتغير الاجتماعي، في طبيعة العلاقة بين سامة وقومه أدى إلى تغير في حياته، فحلّ الخسف و المعاملة محل رغد العيش وطمأنينته. وهكذا فقد تختلف الأقوام بعضها عن بعض، فثمّة أقوام يفخرون بأبنائهم ولا يفرطون بهم، لأنهم بناة الأوطان، وحماة الديار، وآخرون يبثون في نفوس أبنائهم الذعر والكراهية، فتزول بذلك عوامل الولاء للقبيلة، والانتماء لها، فيعيش أبناؤها حالة التشرد والضياع.

ويستدل من الأبيات السابقة أن الإنسان الجاهليّ كان ينشد قومه الأمن والحماية حين يُخلع عن مجتمع القبيلة لأمر أو لآخر فيلوذ إلى مجتمع يجد فيه نفسه عندهم ذا بأس وقوة، وقد ورد ذلك في قول معاوية بن مالك:

تُفَاخِرُنِي بِكَثْرَتِها قُرَيْط ... فَيَا لَكَ وَالِدِ الحَجَلِ الصَّقُورُ
بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخاً ... وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُور
ضِعَافُ الأُسْدِ أَكْثَرُها زَئِيراً ... وأَصْرَمُها اللَّوَاتِي لا تَزِير
فإنْ أَكُ في عِدَادِكُمْ قَلِيلاً ... فإنِّي في عَدُوِّكُمْ كَثِير(٤)

---

(١) مجاهد عبد المنعم مجاهد- علم الجمال، ص ٨١-٨٢.

(٢) أحمد نوفل- الحرب النفسية، ج ١، ص ٢٤.

(٣) المسيب بن علس - الديوان، ص ٩٥-٩٦. سامة: هو سامة بن لؤي بن غالب القرشي.

(٤) معاوية بن مالك- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٥٦-٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعيب الشّاعر بني قريط على كثرة رجالها، ثم يقرن هذه الصورة بالطيور الضعيفة لأنها أكثر فراخاً، وبالأسود الضعيفة لأنها أكثر زئيراً، والكثرة الضعيفة تفضي إلى نهايات ضعيفة.

ويربط الشّاعر أهمية الحدث بمقدار الأثر الفاعل والقوة المنتجة لا بمقدار الكثرة، وضرب لذلك مثلاً حياً فاتّخذ الصقر وهو مقلّ في فراخه دليلاً على عمق الأثر الذي تحدثه قوته، وكذا الحال فالأسود التي لا تكثر من زئيرها هي الأسود القوية.

ولعل الشّاعر يريد أن يدلل على قيمته، لا عن طريق قومه، بل عن طريق أعدائهم، فقوم الشّاعر مسلوبو الإرادة فالشّاعر يرى نفسه قوياً في نظر أعدائه لا في نظر قومه فاقدي الهمة، فالفضل كما يقولون ما شهدت به الأعداء.

علاقات القبائل

حاول بعض شعراء الجاهليّة أن يصور طبيعة السياسة الاجتماعية التي سادت القبائل العربية في العصر الجاهليّ، وما ترتب عليها من علاقات، وبعض هذه العلاقات كان يصور الاتجاه الإيجابي في تحديد العلاقة بين القبائل، والآخر يمثل اتجاهاً سلبياً، والشّاعر الجاهليّ في إطار النظام القبلي الذي ساد ذلك المجتمع جدير بترجمة هذا السلوك الاجتماعي الذي يعبر عن رؤيته هو لهذا النمط من العلاقات في إطار الفلسفة الحياتية التي يتبناها شاعر ذلك العصر.

وراح الشّعراء يصورون العلاقات الاجتماعية بين القبائل من زاوية الممارسة الفعلية لذلك الواقع، ومن الطبيعي، أن تتفاوت هذه العلاقات بتأثير مباشر، من المتغيرات الاجتماعية، وإيجاد التوازن الاجتماعي القائم على تحقيق مبدأ المساواة بين طبقات المجتمع، يقول عبيد بن الأبرص:

لا يَنْفَعُ اللّبُّ عَنْ تَعَلُّمٍ إلا السَّجِيَّاتُ والقُلُوبُ
فَقَد يَعُودَنَ حَبِيباً شَانِىءً ويَرْجِعَنْ شَانِئاً حَبِيبُ
سَاعِدْ بأَرْضٍ إذا كُنْتَ بها ولا تَقُلْ إنَّنِي غَرِيبُ
قد يُوَصلُ النَّازِحُ النَّائِي وقَد يُقْطَعُ ذو السُّهْمَةِ القَرِيبُ(١)

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص١٤-١٥. السهمة: القرابة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالإنسان في رأي الشّاعر، هو وحده الذي يحدث المتغيرات الإيجابية والسلبية في بيئة المجتمع، وهو وحده المسؤول عن الاستقرار أو الفوضى الاجتماعية، وذلك مرتبط بنظرته الفلسفية للحياة، والشّاعر هنا، يلزم الإنسان في أي زمان ومكان أن يكون عنصر خير، يحث على ضرورة التواصل الاجتماعي.

وغربة الإنسان، تنتفي في نظر الشّاعر؛ لأنه هو الذي يعمّر الأرض ويزرع فيها بذور الخير أو عنصر الشر، كل ذلك لا يتأتى، إلا لمن كان الحلم سجيته، أو طبعاً خالصاً فيه فليس كل ذي حلم مكتسب يقود الناس إلى البناء والصلاح، فثمّة فرق بين الطبع والتطبع.

وقد اعتمدت بعض القبائل العربية، سياسة معتدلة في علاقاتها مع القبائل الأخرى، فنزعت إلى مبدأ المصالحة القائمة على التفاهم، ونبذ الخصومة يقول أوس بن حجر:

غَنِيٌّ تَآوَى بِأَوْلَادِهَا لِتُهْلِكَ جِذْمَ تَمِيمِ بنِ مُرّ
فَإِنْ تَصِلُونَا نُوَاصِلْكُمُ وإِنْ تَصْرِمُونَا فَإِنّا صُبُر
لَقَدْ عَلِمَتْ أَسَدٌ أَنَّنَا لهم نُصْرٌ ولَنِعْمَ النُّصُر(١)

فغنيّ قبيلة تتباهى بكثرة رجالها، فتنطلق من العصبية القبلية وتحاول أن تهلك أهل تميم قبيلة الشّاعر، والشّاعر حريص على أن يحفظ قبيلته من الهلاك، ويعزّ عليه أن يقحمها في حرب مع قبيلة غني التي تعتز بترامي صفوف أبنائها. وقبيلة الشّاعر متفسخة البطون والأفخاذ، ولهذا الضعف، لجأ الشّاعر إلى عقد مصالحة وحسن جوار مع قبيلة غني، وهذا إجراء ينم عن تجربة الشّاعر وحسن تدبيره.

وكان السلوك الإنساني الذي يتنافى مع العقل والمنطق، موطن استهجان يثير حفيظة القبائل العربية، حتى أصبح مثلبة تعاب عليه القبيلة، يقول دريد بن الصمة:

يا آل سُفْيَان مابَالي وبالكُم أَنْتُم كَثِيرٌ وفي الأَحْلَامِ عُصْفُورُ
إذا غَلَبْتُم صَدِيقاً تَبْطِشُونَ به كما تَهدَّمُ في الماءِ الجَمَاهِيرُ

---

(١) أوس بن حجر- الديوان، ص٢٩. تآوى: تتجمع. الجذم: الأصل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هَلاَّ نَهَيْتُم أَخَاكُم عَنْ سَفَاهَتِهِ إذ تَشْرَبُونَ وغَاوِي الخَمْرِ مَزْجُورُ[١]

فالصورة الاجتماعية في الأبيات السابقة، تنطلق من بعد إنساني، يتخذ شكلاً ثنائياً في مفهوم القيم الإنسانية عند المجتمع الجاهليّ، فآل سفيان، قوم يتصفون بالبطش، وإن شرّهم ينال الصديق والعدو على حدّ سواء.

وقد كانت بعض القبائل العربية تنظر للقبائل الأخرى نظرة استهزاء فتضعف مكانتها أمام القبائل الأخرى، وتشعر بالإهانة والعزلة، يقول أوس بن حجر:

فَيَا رَاكِباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ بَنِي كَاهِلٍ شَاهَ الوُجُوهُ لِكَاهِلِ
مَبَاشِيمُ عن لَحْمِ العَوَارِضِ بالضُّحَى وبالصَّيْفِ كَسَّاحُونَ تُرْبَ المَنَاهِلِ[٢]

يتمثل هدف الشّاعر في إبلاغ المسافرين عن مثالب بني كاهل الذين لضعفهم لا يستاقون إلا آخر الناس، ولبخلهم لا يذبحون إلا العليل من الماشية التي لا ينتفع بها، وإرادة الشّاعر تهدف إلى التقليل من شأن هذا القوم عن طريق المسافرين الذين كانوا يتنقلون في أرجاء الجزيرة فقد كانوا بمنزلة وسائل الإعلام.

وقد حاولت بعض القبائل العربية طمس الفتن والخصومات بين المجتمع الجاهليّ وحذرت كل من يعمل علي إحيائها من جديد يقول المسيّب بن علس:

لَعَمْرِي لئِنْ جَدَّتْ عَدَاوَةُ بَيْنَنَا لَيَنْتَحِيَنْ منِّي على الوَخْمِ مَيْسَمُ
فَأُقْسِمُ أَنْ لو التَقَيْنَا وأَنْتُمُ لَكَانَ لَكُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمُ
أَلا تَتَّقُونَ اللَّهَ يا آلَ عَامِرٍ وهَلْ يَتَّقِي اللَّهَ الأَبَلُّ المُصَمَّمُ[٣]

إن لجوء الإنسان إلى استخدام صيغة القسم في معالجة العيوب الاجتماعية، يترجم واقعاً اجتماعياً كان الشرّ مستشرياً فيه، وهدف الشّاعر لا يقتصر فقط على دفع البلاء عن قومه، بقدر ما يشي بأسلوب الوعيد والتهديد لآل عامر هؤلاء الذين لا يرجعون عن بغيهم ولا يتقون الله.

---

(١) دريد بن الصمة- الديوان، ص٧٤-٧٥. الجماهير: الرمال الكثيرة المتراكمة.

(٢) أوس بن حجر- الديوان، ص١٠٩. شاه الوجوه: قبحت الوجوه. العوارض: الإبل تنحر من علة.

(٣) المسيب بن علس- شعره، ص١٣٤-١٣٥. ينتحي: يعتمد. الوخم: الثقيل. الإبل: الذي يمضي على أمره. المصمم: إذا أصمه الله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعهد الشّاعر على نفسه أنه سيسم كل واحد من آل عامر تسوّل له نفسه بإشعال نار الفتنة. ويُعلم من ظاهر الأمر، أن الشّاعر يعبر عن رغبته في أن يسود البلاد، حياة التفاهم والاستقرار.

وقد خاطبت القبائل بعضها بعضاً، في درء الفتن لإبعاد شبح الحرب الذي كان نهاية محتمة لمثل هذه الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية، يقول ابن الأسلت:

أُعِيذُكُمُ بالله من شَرِّ صُنْعِكُمْ ... وشَرِّ تَبَاغِيكُم ودَسِّ العَقَارِبِ
مَتَى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَمِيمَةً ... هي الغُول للأَقْصَيْنِ أو للأَقَارِبِ
تقطِّع أَرْحَاماً وتُهْلِكُ أُمَّةً ... وتَبْرِي السَّدِيفَ من سَنَامٍ وغَارِبِ[1]

فالشّاعر يخاطب قريشاً لتكف عما هي سادرة فيه، من اصطناع الشر والعدوان ودسّ الفتن والسموم بين القبائل، ويحاول إقناعهم بألاّ يحرموا حلالاً فيرتكبوا به آثاماً، مقدماً لهم النصح بالابتعاد عن نار الحرب التي إن وقعت فقد تهلك العالمين أقارب وأباعد فلا تبقي منهم ولا تذر.

وحقيقة الشّاعر وقومه أنهم يحاولون اتقاء شر هذه الأوبئة، لأنهم يدركون تماماً أبعاد هذه الفتن، وما تجر من ويلات وحروب قد تشكل وبالاً ودماراً للأمة، وهذا يعبر عن مدى رؤية الشّاعر الإنسانية، ومدى محافظته على المجتمع البشري[2].

وقد ينجم عن طبيعة العلاقات الاجتماعية متغير في نمط الحياة المعاشية والاقتصادية فيترك أثراً على موارد الرزق ويعرض قوماً دون آخرين، إلى الحرمان من مواطن الكلأ والماء، فهذا بشر بن أبي خازم يقول:

أَلا أَبْلِغْ بَنِي سَعْدٍ رَسُولاً ... ومَوْلاَهُمْ فَقَدْ حُلِبَتْ صُرَامُ
نَسُومُكُمُ الرَّشَادَ ونَحْنُ قَوْمٌ ... لِتَارِكِ وُدِّنا في الحَرْبِ ذَامُ
فإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنْكُمْ ... ولَمْ يَكُ بَيْنَنَا فِيها ذِمَامُ

---

(١) ابن الأسلت- الديوان، ص ٦٥-٦٦. الغول: الهلاك. تبرى: تقطع. السديف: لحم السنام. الغارب: أعلى الظهر.

(٢) انظر هذه الصورة عند: زهير بن أبي سلمى- الديوان، ص ١٥٩-١٦٠، الحارث بن حلزة- الديوان، ص ١٠-١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنَّ الجِزْعَ جِزْعَ عُرَيْتِنَاتٍ وبُرْقَةَ عَيْهَلٍ منْكُمْ حَرَامُ[١]

استطاع الشّاعر الكشف عن مودة بني سعد ونواياهم تجاه قبيلته، وبعد أن أدرك الشر غايته، فقد لجأ إلى مخاطبة بني سعد بأسلوب بين المدّ والجزر، فعرض عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، حتى إذا خالفوا عهد الحفاظ قامت قبيلة الشّاعر بإعلان الحرب عليهم، فيمنعونهم أماكن الرعي والماء.

وقد يظن أن هذا النوع من الحروب بين القبائل العربية، لم تأخذ بعدها العسكري المعروف، بقدر ما تكون حرباً اقتصادية، تستطيع القبيلة القوية أن تمنع عدوتها الكلأ والماء، أو أن تفرض عليها حصاراً اقتصادياً، فتفقد بذلك كل أشكال قوتها.

وهذا التفاوت الإقليمي بين المجتمع الجاهلي الذي ينبري عن نزاعات وحروب قد تكون له مسوغاته، ولكن من غير المسوغ أن يكون هناك تفاوت بين القبائل الجاهلية حينما يكونون على مبدأ عقدي واحد، فقد كان "الجاهليون يرفعون بعضهم على بعض حتى في القيام بمناسك الحج وهي من أمور الدين، كان بنو قريش وبنو كنانة يرون أنفسهم فوق غيرهم، فكانوا لا يقفون بعرفة بل يقفون بالمزدلفة ترفعاً عن أن يقفوا في موقف واحد مع سائر العرب"[٢].

مآثر القبيلة

اتصف الإنسان الجاهليّ على صعيد قومي، بالتغني بأمجاد قبيلته، فكان منطلقه في ذلك قومياً لا فردياً. فالذي يهمه هو روح الجماعة، يتحدث بلسانها في كل منحى من مناحي الحياة، سواء أكان ذلك متعلقاً بالفروسية، أم الكرم أم صون الأعراض.

وكانت هذه المآثر مناخاً خصباً لقرائح الشّعراء الجاهليّين الذين أجادوا وصفها وعبروا عن غير لون فيها، يقول قيس بن الخطيم:

وَرِثْنَا المَجْدَ قد عَلِمَتْ مَعَدٌّ فَلم نَخْلَب ولم نُسْبَقْ بوِتْرِ

---

(١) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٢٠٧. الصرام: آخر اللبن. نسوم: نريد. عياب الود: يعني القلوب.

(٢) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متَى تَلْقَوا رِجَالَ الأَوْسِ تَلْقَوا لِبَاسَ أَسَاوِدٍ وجُلُودِ نُمْرِ[١]

فالشّاعر ينشر رسالة إعلامية مؤداها أن قومه اكتسبوا المجد بالوراثة، وهذا المجد جعلهم رجالاً أشاوس كالأسود، لا يفلت من بين أيديهم عدو يسعون للثأر منه فهم في الحرب نمور وأسادٌ يلبسون لمن يعاديهم جلود الأراقم والنمور.

والمجد الذي يتغنى به شعراء الجاهليّة، يذكرون فيه صفات القوم من استبسال في الحروب، أو بذل الأموال فداء لفرسانهم، وصوناً لأعراضهم، يقول ربيعة بن مقروم الضبي:

وَقَومِي فَإِنْ أَنْتَ كَذَّبْتَنِي بقَوْلِي فاسْأَل بقَوْمِي عَلِيمَا
يُهينُون في الحَقِّ أموالَهُمْ إذا اللَّزَبَاتُ التَحَيْنَ المُسِيمَا
بَنُو الحَرْبِ يَوْماً إذا اسْتَلأَمُوا حَسِبْتُهُم في الحَديدِ القُرُوما[٢]

يباهي الشّاعر أنداده بمناقب قومه، فهم ينفقون أموالهم إذا اشتدت بهم اللزبات وأيام القحط، فتراهم أشداء في الحروب إذا لبسوا لها واستعدوا. وهذه الصفات التي تتميز بها قبيلة الشّاعر، تنبني على أمجاد اكتسبتها من الموروث الإنساني في المجتمع الجاهليّ.

وإزاء علاقة الفرد بالقبيلة فقد نجده "يتأرجح دوماً بين قطبين: فرديته تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت الحقوق الدائمة (للأنا) تجاه الواجبات الجماعية، وتعلق من ناحية أخرى بجماعته بصورة عميقة وعفوية قد تصل إلى حد التضحية بالنفس"[٣].

فقد تحولت الأنا الشاعرية من مفهوم الذات إلى مفهوم القوم أو الجماعة، فالنظام القبلي السائد في المجتمع الجاهلي يخلق هذا البعد الجمعي حين ينصهر الفرد في مجتمع القبيلة، لأن الإنسان "في حاجة إلى قبيلة تحميه وترعاه كغيره من الأفراد، فهي حكومته التي تضمن له العدالة الداخلية والحماية الخارجية، وهي دولته الصغيرة العزيزة"[٤].

(١) قيس بن الخطيم- الديوان، ص١٨٣.

(٢) ربيعة بن مقروم- شعره، ص٤٢-٤٣. التحين: قشرن. المسيم: صاحب الإبل والغنم. الحريم: ما يجب عليهم منعه.

(٣) بلاشير- تاريخ الأدب العربي، ص ٤٠.

(٤) أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي، ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشّعراء من كان يتغنى بالمجد الذي كانت عليه قبيلته منذ عهد طويل ونجد ذلك عند الأعشى في قوله:

أَبَا مِسْمَعٍ إنّي امْرُؤٌ من قَبِيلَةٍ بَنَى لِيَ مَجْداً مَوْتُها وحَيَاتُها
فَلَسْنَا لِبَاغِي المُهْمَلَاتِ بِقِرْفَةٍ إذا مَا طَحَا باللَّيْلِ مُنْتَشِرَاتُها(١)

يحدد الأعشى البعد الزماني للمجد الذي ورثته القبيلة عن الآباء والأجداد أمواتاً وأحياء، وامتداد الأصالة عبر زمن تاريخي طويل يكسب القبيلة هيبة ومهابة، وقوم الشّاعر يتعففون عن كل دنيء من الصفات، فهم لا يطمعون في نوال شيء اختلاساً كما يفعل الضعفاء.

وقد وجد الشّعراء الجاهليّون في أمجاد قبائلهم ميداناً خصباً للتباهي بهم، فراح كل شاعر يتغنى بأمجاد قبيلته التي يجتمع فيها كل محمود من الخصال التي تعلو بها القبيلة على غيرها، ولعل خير من صوّر القبيلة على أكمل وجه أميّة بن أبي الصّلت في قوله:

قَوْمِي ثَقِيفٌ إنْ سألْتَ وأُسْرَتِي وبِهِمْ أُدَافِعُ رُكْنَ مَنْ عَادَانِي
قَوْمٌ إذَا نَزَلَ الغَرِيبُ بِدارِهِم رَدُّوه رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانِ(٢)

يجعل الشّاعر قبيلته ثقيفاً سلاحاً بشرياً يتسلح بها وقت الحروب والشدائد، فالكثافة البشرية في المجتمع الجاهليّ كان لها شأن كبير عند القبائل الأخرى، وهذه القبيلة لها من الصفات الحميدة ما يجعلها في مقدمة القبائل، فهي تحمل الضيفان الغرباء، إذا نزلوا بلادهم خيلاً وقيانا وإبلاً دون أن يظهروا تذمراً.

وهذه الصورة الحميدة للمجتمع الجاهليّ، تشكل رمزاً إنسانياً يتمثل في تخليد حضارة المجتمع الذي تنطوي تحته هذه القبائل، فهذه الصفات التي يجود بها الإنسان الجاهليّ هي في حقيقة الأمر ترجمة للموروث الحضاري سواء أكانت مكتسبة، أم وليدة حياة فرضتها التجارب الحياتية، إلا أن فيها رموزاً قيمة تعبر عن ثقافة ذلك المجتمع(٣).

---

(١) الأعشى- الديوان، ص١٢١.

(٢) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥٠٠، ركن الرجل: قومه وعشيرته. وركن الإنسان: قوته وشدته.

(٣) وانظر هذه الصورة عند: الأعشى- الديوان، ص ٣٨١-٣٨٣. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ١٥٥. الحارث بن حلزة- الديوان، ص ٥١-٥٣، ٨٤-٨٦. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٩٩-١٠٠، الأفوه الأودي- شعره، ص ٢٠، عمرو بن شأس- شعره، ص ٣٩-٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وجدت في المجتمع الجاهليّ ظاهرة تدعو إلى إبراز دور القبائل في تسفيه ما يدّعيه بعض الشّعراء، حين يذكر صفات قومه ومحاسنهم، وهذا السلوك الاجتماعي، يشكل لوناً سياسياً، يهدف إلى تشكيك القبيلة بقيمها وبأفرادها، فهذا لبيد بن ربيعة يفتخر بقبيلته بني عامر، بصرف النظر عن رأي الأعداء فيها يقول:

بَنُو عَامِرٍ مِنْ خَيْرِ حَيٍّ عَلِمْتُهم ... ولو نَطَقَ الأَعْداءُ زُوْراً وبَاطِلا
لهم مَجْلِسٌ لا يَحْضُرُونَ عنِ النَّدى ... ولا يَزْدَهِيهم جَهْلُ مَنْ كَانَ جَاهِلاً
كِرامٌ إذا نَابَ التُّجَارُ أَلِذَّةً ... مَخَارِيقُ لا يَرْجُونَ للخَمْرِ وَاغلا[1]

إن ما يرمي إليه الشّاعر من إظهار مناقب قومه من عدل وحلم وكرم كان يصل في معظم أحيانه حدّ المبالغة، والشاعر يحاول أن يدحض مزاعم أعداء قومه فيثبت لهم أن قومه من خيار القبائل، لهم الفضل في الكرم وعلو المنزلة "فكان لكل قبيلة ناد تجتمع فيه تبحث أمورها وما يتصل بها من مصاعب أو حروب أو أحلاف"[2]. ويصور طفيل الغنوي قبيلته بأنها عزيزة الجانب، ويبين طمع القبائل الأخرى فيها يقول:

فَأَقْلَعَتِ الأَيَّامُ عَنَّا ذُؤَابَةً ... بِمَوْقِعِنَا في مَحْرَبٍ بَعْدَ مَحْرَبِ
ولَمْ يَجِدِ الأَقْوَامُ فِينَا مَسَبَّةً ... إذا استُدْبِرَت أيَّامُنَا بالتَّعقُّبِ[3]

يصف الشّاعر حال قومه وقد علت منزلتهم، رغم محاولة الأعداء إضعاف شوكتهم، أو النيل منهم. ولعل قبائل العرب كانت ترصد الواحدة منها الأخرى، لتكشف فيها عيباً أو ضعفاً تستطيع من خلاله، النفاذ إلى القبيلة وإلغاء حضورها بين الطبقات الاجتماعية في وقت كانت القبائل العربية حريصة على الاستمرار في عظمتها التي تعد من علامات وجودها.

---

(١) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص٢٤٩-٢٥٠. حصر عن الندى: ضاق صدره به. يزدهيهم: يستخفهم ألذة: يأخذون لذتهم. الواغل: الطفيلي.

(٢) محمد عثمان علي- في أدب ما قبل الإسلام، ص ٤٦.

(٣) طفيل الغنوي- شعره، ص١٦. استدبرت: أي نظر في أدبارها. التعقب: التدبر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في النظام العسكري في المجتمع الجاهلي

الإنسان والحرب

تشكل الحرب امتداداً واسعاً في حياة الإنسان الجاهلي، فقد يكون منها طعامه وشرابه، أو رياسته، وسيادته، أو توسيع حماه وتخومه، وكان للشعراء الجاهليين مواقف مختلفة في الحرب، فمنهم من عدها من مفاخر العرب وأمجادهم ومنهم من عدها نار فتنة، تشتت الشمل، وتنمي الضغائن والأحقاد، وتورث المحن والكوارث "ومن أبلغ ما حذر به الحرب قول بعض العجم: دافع بالحرب ما أمكن، فإن النفقة في كل شيء من الأموال إلا الحرب فإن النفقة فيها من الأرواح"[١]، ولو كان الجاهلي يعايش بيئة غير الصحراء، وواقعاً اجتماعياً يخالف واقع التنازع والغزو، لما قدر لنا أن نشهد المعاني والمواضع التي ترددت فيه"[٢]، يقول قيس بن زهير:

لحَا اللهُ قَوماً أرَّثُوا الحَرْبَ بَيْنَنَا سَقُونَا بِهَا مُرّاً من الشُّرْبِ آجِنا[٣]

يعبر الشّاعر عن سخطه على بني ذبيان الذين أذكوا نار الفتنة والحرب فجرعوهم بها الويلات والمحن. وكان الإنسان الجاهليّ يكره من يشعل الحرب وأوارها، يقول عبيد بن الأبرص:

وإنّي لأُطْفِي الحَرْبَ بَعْدَ شُبُوبِها وقد أُوقِدَتْ للغَيِّ في كُلِّ مَوْقِدِ
فأَوْقَدْتُها للظَّالِمِ المُصْطَلِي بها إذا لَمْ يَزَعْهُ رَأْيُهُ عن تَرَدُّدِ[٤]

يعزم الشّاعر على إطفاء نار الحرب بعد اشتعالها، ويجعلها موقداً لمن أثارها فيحرقه بنارها إذا لم يثنه رأيه، ويردعه ضميره عن ذلك. وجعل بعض شعراء الجاهليّة موقفه إزاء الحرب مرهوناً بالظروف، فهو لا ينثني، يخوض غمارها، يقول زيد الخيل:

رأَتْنِي كأَشْلاءِ اللِّجَامِ ولَنْ تَرَى أخَا الحَرْبِ إلا سَاهِمَ الوَجْهِ أَغْبَرا
أَخَا الحَرْبِ إن عَضَّتْ بهِ الحَرْبُ عَضَّها وأن شَمَّرت عَنْ سَاقِها الحَرْبُ شَمَّرا[٥]

---

(١) العسكري- ديوان المعاني، ج ٢، ص ٦٦..

(٢) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ١، ص ٧٨.

(٣) قيس بن زهير- شعره، ص ٣٧. أرثوا: أشعلوا.

(٤) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٥٥. وزع: زجر.

(٥) زيد الخيل- الديوان، ص ٦٠-٦١، ساهم: ضامر، شمرت: لقحت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يوضح الشّاعر سرعة تلبيته نداء الحرب، إذا غمزت له قناتها، فإنه لا يفر منها جبنا، وإذا لقحت واشتد أوارها، فإنه يبلو فيها بلاء حسناً يحمي ذمار أهله. والشّاعر بطل حروب فهو يأخذ على تلك المرأة التي وجدته شيخاً قد تقادم عهده وأفنى فروسية النصر ادعاءها أنه ليس قادراً على مواجهة الحرب، ظناً منها أن صاحب الحرب، هو من كان أدهم الوجه عريض الوساد.

وهذا الأعشى يحاول إقناع بني عباد ومالك ابني ضبيعة في فض الخلاف، فيجنبهم الوقوع في الحرب يقول:

فَيَا أَخَوَيْنَا مِنْ عِبَادٍ ومَالِكٍ ... أَلَمْ تَعْلَمَا أَنْ كُلُّ مَنْ فَوْقَها لَها
وتَسْتَيْقِنُوا أَنَّا أَخُوكُم وأَنَّنَا ... إذا سَنَحَتْ شَهْبَاءُ تَخْشَوْنَ فَالَها
نُقِيمُ لها سُوقَ الجِلادِ ونَغْتَلِي ... بأَسْيَافِنَا حَتَّى نُوَجِّهَ خَالَها
أَفِي كُلِّ عَامٍ بَيْضَةٌ تَفْقَؤُونَها ... فَتُؤْذَى وتَبْقَى بَيْضَةٌ لا أَخَالَها[1]

فالأعشى يذكر ابني ضبيعة مظهراً لهما الود والنصح، بأن الحياة فانية، وكل ما فوقها من الخلق صائر إليها، فلا تكونا سبباً في إحياء ما بيننا من إحن وضغائن فتقودوننا إلى حرب ونحن لها كارهون. ولدى الشّاعر إحساس بأن ابني ضبيعة لن ينثنيا عن دخول الحرب، ففي كل عام يقتلون قتيلاً ويحدثون حدثا، وإذا كشفوا عن الحرب فإننا سنهب إليها بسيوفنا غير هيابين، فنجالدهم حتى نهزمهم لأنهم هم الذين حملوا لواء هذا العدوان.

وقد يبلغ الإنسان الجاهليّ درجة عالية من الوعي، بحيث يكون تقديره للأمور نافعاً، ليس فيه شر، بل فيه حرص تام على عدم إثارة نار الشغب والفوضى الاجتماعية فتقود إلى حرب بين القبائل، يخسر المتحاربان أفضل فرسانهم، وأغلى أموالهم. وقد كان عنترة الشّاعر واحداً من هؤلاء الذين نفوا، أن يكون لهم دور في إيقاد الحرب يقول عنترة:

إنْ تَكُ حَرْبُكُمْ أَمْسَتْ عَوَانَا ... فإنِّي لم أَكُنْ مِمَّنْ جَنَاها
ولَكِنْ وُلْدُ سَوْدَةَ أَرَّثُوها ... وشَبُّوا نَارَهَا لِمَنِ اصْطَلَاها
فإنِّي لَسْتُ خَاذِلَكُمْ ولَكِنْ ... سَأَسْعَى الآنَ إذْ بَلَغَتْ إنَاهَا[2]

(١) الأعشى- الديوان، ص ٣٤٣. الشهباء: الكتيبة. نغتلي: نسرع.

(٢) عنترة- الديوان، ص ٢٨٩-٢٩٠. العوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة. إناها: منتهاها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينفي الشّاعر أن يكون له دور في إشعال الحرب بين قومه، ويسند التهمة إلى أولاد سودة أم حذيفة أبناء بدر الذين أوقدوا نار الحرب، وبيّن لقومه، أنه لم يخذلهم وسيسعى إلى نصرهم وعونهم.

"والغالب على أسلوب القتال عند الجاهليين، الكر والفر، وذلك بأن يهاجم المحاربون عدوهم ثم يراجعون بسرعة وكأنهم قد فروا خوفاً منه، ثم يعودون فيكرون عليه، يصنعون مكاناً يكون مركز ثقلهم، والملجأ لهم، ليلتجئون إليه، ثم ينطلقون منه للكر على العدو"(١).

ويرى الشّعراء أثر الحرب في تفرق الجماعة، وتشتت الشمل وتدمير العلاقات الاجتماعية بين الناس، يقول قيس بن زهير:

يَوَدُّ سِنَانٌ لو نُحَارِبُ قَوْمَنَا ... وفِي الحَرْبِ تَفْرِيقُ الجَمَاعةِ والأَزْلِ
فَيا ابْنَيْ بَغِيضٍ رَاجِعا السِّلْمَ تَسْلَما ... ولا تَشْمُتَا الأَعْداءَ يَفْتَرِقِ الشَّمْلِ(٢)

يكشف النعمان عن شخصية أناس تتمثل فيهم صفات التعطش للدماء وإذكاء نار الفتنة بين الأقوام والجماعات، وإثارة القلاقل بين أبنائها، فيجني أهلها بعد ذلك الخصومات والفتن المستمرة، وذلك يضعف شوكة القبيلة، ويطمع الأعداء فيها. ثم يعود الشّاعر فينصح عبساً وذبيان المتقاتلين أن يجنحوا للسلم حقناً للدماء، وتفويت الفرصة على الذين أثاروا الحرب.

وقد تفرض الحرب نفسها على الإنسان، فتأكله بأضراسها دون لين أو هوادة فتوقعه في شراكها فيضطر للتصدي لها، والصبر عى نوائبها، يقول حاتم الطائي:

وغَمْرَةِ مَوْتٍ لَيْسَ فيها هَوَادَةٌ ... يكُونُ صُدورَ المشْرَفِيّ جُسُورُها
صَبَرْنَا لها في نَهْكِها ومُصَابِها ... بأَسْيَافِنَا حتى يَبُوخَ سَعِيرُها(٣)

يصور الشّاعر شجاعة قومه في مواجهة أعدائهم، في تلك الموقعة التي امتلأت ساحاتها بسيوف المتقاتلين، حتى صارت جسراً تحت أقدامهم، والشّاعر يقف إزاء هذه الحرب متجلدا لها، صابرا على نوائبها. وإزاء هذا التصدي لأهوال

---

(١) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب، ج ٥، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) قيس بن زهير- شعره، ص ٤٦. الأزل: التشتت.

(٣) حاتم الطائي- الديوان، ص ٦٤. غمرة الموت: أراد بها الحرب. يبوخ: ينطفىء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القتال والمعارك فقد يكون "شعر الحماسة من أصدق الأشعار وأقواها وأشدها أثراً في النفوس، وذلك لأن الشعراء أنفسهم كانوا فرساناً يخوضون غمرات القتال فيعبرون عن واقع مشهود وتجارب نفسية صادقة، وإن لم يكن بعضها يخلو من المبالغة ومجاوزة الواقع"[١]. وقد جعل بعض شعراء الجاهليّة أنفسهم وقوداً للحرب إذا سعّرت نارها، وحمي وطيسها، يقول عمرو بن كلثوم:

لَقَدْ عَلِمَتْ عُلْيَا رَبِيعَةَ أَنَّنا ذُرَاهَا وأَنَّا حِيْنَ تُنْسَبُ جِيدُها
وما انْفَكَّ مِنَّا مُنْذُ كُنَّا عِمَارَةً إذا الحَرْبُ شَالَتْ لاقِحاً مَنْ يَقُودُها
إنْ تَسْأَلِي تُنْبي بأَنَّا خِيَارُها وأَنَّا الذُّرَى مِنْهَا وأَنَّا وَقُودُها[٢]

يريد الشّاعر أن يصف قومه بأنهم أعلى نسباً من ربيعة كلها، وأنهم أفضل زمانهم؛ لأنهم دائماً في مقدمة العلا وذروته، فهم يد واحدة على من يعاديهم فإذا لقحت الحرب واستفحل شرها فهم وقودها[٣].

وقد شكلت بعض رسائل الشّعراء الخاصة في الحرب، وسائل إعلام متميزة لها أثرها في توجيه دفتها، وتصويب مسارها، وتحديد نتائجها، نصراً أو هزيمة. فقد يأخذ قادة الجيوش بإعادة النظر في خططهم الحربية، بالشكل الذي قد يضمن لهم تحقيق النصر.

وكانت رسالة لقيط بن يعمر الإيادي، من أكثر الرسائل الشعرية التي قيلت في غرض النذير، أو ما يسمى اليوم بوسائل الإعلام العسكري أو السياسي، وقد بعث رسالة إلى قبيلة إياد بن نزار، وكانت تنزل سنداد، وهو نهر بين الحيرة والأبلة وكان عليه قصر تجمع العرب إليه، وإياد لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك، وكانوا لقاحاً فكان من قوتهم، أنهم تحفظوا على امرأة كسرى أنوشروان، فأخذوها وأموالاً لها كثيرة، فجهز إليهم كسرى الجنود مرتين كل ذلك تهزمهم إياد ثم أنهم ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة فوجه إليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً، وكان لقيط

---

(١) يحيى الجبوري- الشعر الجاهلي، ص ٢٩٤.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٣٥.

(٣) انظر صورة الحرب عند: طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٢٧-١٢٨. عروة بن الورد- الديوان، ص ٩٩-١٠٠. عدي بن زيد- الديوان، ص ٣٩، ٤٧. أبي دؤاد الإيادي- الديوان، ص ٣٠١. حاجز بن عوف- قصائد نادرة، ص ١٤٩. تابط شراً- شعره، ص ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإيادي ينزل الحيرة، فبلغ الخبر لقيطاً فكتب إلى إياد وهم بالجزيرة، فيقول:

سَلَامٌ في الصَّحِيفَةِ من لَقِيطٍ ... إلى مَنْ بالجَزِيرَةِ مِنْ إيادِ
بأَنَّ اللَّيْثَ كِسْرَى قَدْ أَتَاكُم ... فلا يَشْغَلْكُم سَوْقُ النَّقَادِ
أتَاكُمْ مِنْهُمُ سِتُّونَ أَلْفاً ... يَزُجُّونَ الكَتَائِبَ كالجَرَادِ
على حَنَقٍ أَتَيْنَكُم فَهَذا ... أوانُ هَلاكِكُم كَهَلاكِ عَادِ[1]

فالشّاعر يبعث إلى إياد صحيفة ينذرهم فيها بألا ينشغلوا بالبيع والشراء وعليهم أن يعدوا العدة لمواجهة كسرى أنو شروان الذي أتاهم بستين ألف محارب يزحفون إلى إياد كالجراد المبثوث على الأرض، مدججين بالأسلحة والدروع، وقلوبهم مليئة حقداً وضغينة، هدفهم إبادة إياد كما بادت عاد من قبل. ثم ينهي لقيط رسالة النذير إلى قبيلة إياد في الجزيرة العربية، فيقول:

هذَا كِتَابِي إليْكُم والنَّذِيرُ لَكُم ... لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُم وَمَنْ سَمِعَا
لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بلاَ دَخَلٍ ... فاسْتَيْقِظُوا أَنَّ خَيْرَ العِلْمِ ما نَفَعَا[2]

فالشّاعر وضع رسالته بين أيدي إياد، وقدم لهم رأيه دون أن يكون له غاية أو مأرب وهي رسالة بمنزلة النصح الموجه لقبيلة إياد، حتى يأخذوا حذرهم من جيش كسرى، وعليهم أن يسمعوا الرأي الذي فيه النفع والفائدة، ويقول صاحب الديوان فلما بلغ إياداً كتاب لقيط استعدوا لمحاربة الجنود التي بعث بها كسرى، فالتقوا. قال فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى رجعت الخيل من الفريقين جميعاً، ثم أنهم اختلفوا فيما بينهم، وتفرقت جماعتهم، فلحقت طائفة بالشام، وأقام الباقون بالجزيرة[3].

ومن أخبار الوقائع والحروب التي كان لوسائل الإعلام عن طريق الخطاب الشعري أثر في كشفها والإعلان عنها قول الخنساء:

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّي سُلَيْماً وعَامِراً ... ومَنْ كَانَ مِنْ حَيَّيْ هَوَازِنَ شَاهِدا
بأَنَّ بَنِي ذُبْيَانَ قَدْ عَرَفُوا لَكُمْ ... إذا ما تَلاَقَيْتُمْ بأَنْ لا تَعَاوُدا
فَلاَ تَقْرَبُنَّ الأَرْضَ إلا مُسَافِراً ... يخَافُ خَمِيساً مَطْلعَ الشَّمْسِ حَارِدَا[4]

---

(١) لقيط الإيادي- الديوان، ص ٢٨-٢٩.

(٢) **المصدر نفسه** ، ص ٥٠-٥١.

(٣) **المصدر نفسه** ، انظر: ص ٥٠-٥١.

(٤) الخنساء- الديوان، ص ٧٣-٧٤. الحارد: القاصد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحاول الخنساء تحريض بني سليم وعامراً على بني ذبيان وقد استخدمت أسلوبا أثرت فيه على مشاعر قومها لتذكي حماسهم في مواجهة أعدائهم بني ذبيان، الذين ينعتون قوم الشّاعرة بالهزيمة في كل معركة يتقاتلون فيها. ومن شيم العرب أنهم يأنفون الضيم والهزيمة.

وقد وجدت في الحياة الجاهليّة وسائل إعلام أخرى، تعين على معرفة قدوم الأعداء يقول المسيّب بن علس في قصة اليمامة:

لقد نَظَرتْ عَنْزٌ إلى الجَزْعِ نَظْرَةً إلى مِثْلِ مَوْجِ المُفْعَمِ المُتَلاطِمِ
رَأَتْ فَوْقَ رَأْسِ الكَلْبِ شَخْصًا بِكَفِّه على البُعْدِ كِنْفٌ أو خَصِيفَةَ لاحِمِ
فَكَذَّبَها سُكَّانُ جَوٍّ فَصُبِّحُوا بِتِسْعِينَ أَلْفاً كالأُسُودِ الضَّراغِمِ
وما كَذَبَتْ عَنْزٌ ولَكِن تَبَيَّنَتْ كما أَبْصَرَتْنا بِنْتَ قَيْسِ بنِ عَاصِمِ(١)

يشير المسيّب إلى حملة حسان بن عمرو ملك اليمن إلى اليمامة، وقضائه على جديس، ويحكي قصة اليمامة التي نظرت إلى أعلى جبل الكلب في الجزيرة، فرأت أفواجاً متلاطمة كأنها أمواج بحر، فأخبرت أهلها بقدوم العدو، وكان موقف قومها منها أنهم كذبوها حتى إذا جاء الصباح وإذا بهم يواجهون تسعين ألفاً من جيوش العدو.

وكما كان للإنسان الجاهليّ مواقفه الخاصة الإعلان عن حالات الحرب، فقد كان له كذلك آراء فيها، وقد تعددت آراء الجاهليّين في الحرب، يقول أوس بن حجر:

إذَا الحَرْبُ حَلَّتْ ساحَةَ القَوْمِ أَخْرَجَتْ عُيُوبَ رِجَالٍ يُعْجِبُونَك في الأَمْنِ
ولِلْحَرْبِ أَقْوَامٌ يُحَامُونَ دُونَها وكَمْ قَدْ تَرَى من ذي رُواءٍ ولا يُغْنِي(٢)

يسخر الشّاعر من الرجال الذين إن حلت بهم الحرب فإنهم يتركون ساحاتها ويولون الأدبار، وليسوا بقادرين على الثبات فيها، فالحرب لها رجال يختصون

---

(١) المسيب بن علس- شعره، ص ١٣٨. الجزع: منعطف الوادي. الكنف: وعاء تكون فيه أداة الراعي. الخصفة: الجلة التي تعمل من الخوص للتمر. انظر هذه الصورة عند: عنترة- الديوان، ص ٣١٠. عدي بن زيد- الديوان، ص ٣٧، ١٦٤. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٢٣. سلامة بن جندل- الديوان ص ١٤٨-١٤٩. النابغة الذبياني- الديوان، ص ٩٤. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٨١.

(٢) أوس بن حجر- الديوان، ص ١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بخوض غمارها، يبلون فيها بلاء حسناً. وكثير من الحروب والوقائع تفرز رجالاً جميلة مناظرهم لكنهم جبناء، لا يقدرون على نصرة أنفسهم.

والحرب في نظر زهير بن أبي سلمى، هي التي يذوق مرارتها من جرب هولها، يقول:

وما الحَرْبُ إلاَّ ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمْ ... وما هُوَ عَنْهَا بالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَمِيمَةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ
فَتَعْرُكْكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِها ... وتَلْقَح كِشَافاً ثمّ تَحْمِلْ فَتُتْئِمِ[1]

فالشّاعر يشبه من خاض غمار الحروب، وجرب ساحاتها بمن يذوق طعاماً بذل جهداً في صنعه، فيطيب له ويلذ، والذي لم يجرب الحرب، فإنه يظنها شيئاً ليس ذا قيمة ولا يهتم لها. وزهير يحاور أحلافه في عملية الصلح، ويحذرهم من تكرار الحرب فتدور عليهم دائرتها إن لم يقبلوا الصلح، فتطحنهم كما تطحن الرحى الحب تحتها. والحرب عند بعض القبائل شفاء لمن يشعل نارها بقطع رأسه، يقول بشر بن أبي خازم:

سَائِلْ تَمِيماً في الحُرُوبِ وعَامِراً ... وهَلِ المُجَرِّبُ مِثْلُ مَنْ لَمْ يَعْلَمِ
كُنَّا إذَا نَعَرُوا لِحَرْبٍ نَعْرَةً ... نَشْفِي صُدَاعَهُمُ بِرَأْسٍ مِصْدَمِ[2]

فقد يجعل الشّاعر تميماً وعامراً في غياب عن ساحة الحرب، كأن هاتين القبيلتين، لم تعلما عن طبيعة الحروب. والشّاعر فخور بما تفعله قبيلته إذا صاحوا للحرب، فتقطع رؤوسهم، وفي ذلك شفاء لهم وخلاص[3].

مشاهد من الحرب

انتزع الشّعراء من ساحات الوغى مجموعة من المشاهد وقد تغنوا كثيراً بهذه الصور يقول الأفوه الأودي:

---

(١) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٨-١٩. المرجم: المظنون. الثفال: جلدة تكون تحت الرحى.

(٢) بشر بن أبي خازم- الديوان،ص ١٨٠. نعروا: صاحوا. المصدم: الشديد.

(٣) وانظر هذه الصورة عند: عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٧٢، عوف بن الأحوص- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٤٩. مالك بن خالد- ديوان الهذليين، ج٣، ص ١٦. طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٢٣-١٢٤. قيس بن الخطيم الديوان، ص ١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَرَوْضَةُ السُّلاَّنِ منَّا مَشْهَدٌ والخيلُ شَاحِبَةٌ وقد عَظُم البثى
تَحْمِي الجَمَاجِمَ والأَنْفَ سُيُوفُنَا وَرِمَاحُنَا بالطَّعْنِ تَنْتَظِمُ الكُلَى[١]

يصور الشّاعر مشهد المعركة في روضة السلان، والخيل شاحبة ألوانها والفرسان يحملون السيوف التي تحمي أكفهم ورؤوسهم، ويصوبون رماحهم إلى كلى أعدائهم، والشّاعر يصف المعركة بأنها موقد الرجال.

ويصف عمرو بن قميئة، كتيبة الحرب التي جهزها قومه لدخول المعركة فيقول:

وَمَلْمُومَةٍ لا يَخْرُقُ الطَّرْفُ عَرْضَها لها كَوْكَبٌ فَخْمٌ شَدِيدٌ وُضُوحُها
تَسِيرُ وتُزْجِي السُّمَّ تَحْتَ نُحُورِها كَرِيهٌ إلى مَنْ فَاجَأَتْهُ صَبُوحُها
فَثُرْنا عَلَيْهِم ثَوْرَةً ثَعْلَبِيَّةً وأَسْيَافُنَا يَجْرِي عَلَيْهِم نُضُوحُها[٢]

يصف الشّاعر كثرة عدد أفراد الكتيبة التي أعدها قومه للحرب يتوسطها مركز القيادة الذي يشكل بؤرتها الأساسية، فساروا إليهم، على خيل شرسة، دربت على اقتحام المعارك، تحمل للأعداء تحت نحورها سما زعافاً يضربون أعداءهم بالسيوف والرماح وينتزعونها كلما عادوا إليهم بين الكر والفر.

وقد نجد "أن ظروف الحياة القاسية تفرض على البدوي أن يجيد الحرب ويتقن أساليب القتال وأن تكون الفروسية هي المثل الأعلى والهدف الرفيع الذي يسعى إليه كل مدرك لواقعه"[٣].

ويصور ضمرة بن ضمرة، شدة بلائه في مواجهة الحرب إذا زاغ الجبناء عن ملاقاتها يقول:

وَمُشْعَلَةٍ كالطَّيْرِ نَهْنَهْتُ وِرْدَها إذا ما الجَبَانُ يَدَّعِي وَهْوَ عَائِد
عَلَيْهَا الكُمَاةُ والحَدِيدُ فَمِنْهُم مَصِيدٌ لأَطْرَافِ العَوَالِي وَصَائِد
أُذِيقُ الصَّدِيقَ رَأْفَتِي وإحَاطَتِي وقد يَشْتَكِي مِنِّي العُدَاةُ الأَبَاعِدُ[٤]

---

(١) الأفوه الأودي- شعره، ص ٦.

(٢) عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٣٤-٣٥. الملمومة: المجتمعة. كوكب الشيء: معظمه.

(٣) نوري القيسي- الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ١٧١.

(٤) ضمرة بن ضمرة- شعره، ص ٢١٦. المشعلة: الكتيبة تشعل الحرب. نهنهت: كففت. يدعي: ينتسب. العائد: المنحرف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر تصدى بجسارته إلى كتيبة حرب، كانت لكثرتها كقطعان الطير يتقدم هذه الكتيبة، فرسان ذوو بأس وشدة، يلبسون الحديد والدروع، ماهرون في استخدام الرماح وألوان القتال، ويبين الشّاعر دوره في التصدي لهذه الحرب، وكفها عن قومه إذا ما واجه صديقاً له وسط المعركة، فإنه يحوطه بعطفه وشفقته في حين أنه كان مع أعدائه شرساً لا يلين له جانب.

ويستخدم عامر بن الطّفيل، صورة أخرى لواقع الحرب، وقد فاجأ أعداءه بخيل ضامرة بطونها، عالية قوائمها، فأمعن فيهم قتلاً وسبى نساءهم يقول:

وَعَبْدُ القَيْسِ بالمَرْدَاءِ لاقَتْ صَبَاحاً مِثْلَ ما لَقِيَتْ ثَمُودُ
صَبَحْنَاهُمْ بِكُلِّ أَقَبَّ نَهْدٍ ومُطَّرِدٍ لَهُ يَقِدُ الحَدِيدُ
لَقِيْنَا جَمْعَهُم صُبْحاً فَكَانُوا كَمِثْلِ الضَّأْنِ عَادَاهُنَّ سِيْدُ(١)

يصف الشّاعر هزيمة عبد القيس في موقعة المرداء، وما أصابهم فيها من قتل، فبادوا كما بادت ثمود من قبلهم، فصبحهم الشّاعر وقومه بخيول ضامرة البطون تعلوها أسنة الرماح فانهزموا كالضأن التي أحدث الذئب فيها ذعراً ورعباً.

ولعل أفضل صورة من مشاهد الحرب تلك التي جاء بها النابغة الذّبياني فيقول:

إذا ما غَزَا بالجَيْشِ أبْصَرْتَ فَوْقَهُم عَصَائِبَ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إذا ما الْتَقَى الجَمْعَانِ أَوَّلَ غَالِبِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ القَوْمِ زُورًا عُيُونُها جُلُوسَ الشُّيُوخِ في مُسُوكِ أَرَانِبِ(٢)

فقد برع النابغة الذّبياني في تصوير هذه الحرب التي يغطي سماءها عصائب الطير، يهدي بعضها بعضاً لتأكل لحوم القتلى في هذا الموقع الذي كثرت فيه النسور دليلاً على كثرة القتلى.

"وطول مشاهدة العرب للمعارك، أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها، وهل كانت المعارك في حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت، لقد رخص كل شيء لديهم من حطام الدنيا ولم

(١) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٨١-١٨٤.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص ٥٧-٥٩. جوانح: مائلة في أحد شقيها للوقوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل، وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب"[١].

وقد أبدع النابغة في جمال التصوير، حين جعل النسور كالشيوخ المرتدية فراء جلود الأرانب، ترقب القوم على صهوات خيولهم التي تعودت الطعن والقتال يضربون هامات الرجال بسيوفهم[٢].

استخدام أنواع السلاح

كانت الخيل، والسيوف، والرماح، والدرع، والقوس، من أكثر الأسلحة استخداماً في بيئات الحرب، فقد تغنى بها الشّعراء الجاهليّون وحرصوا على اقتنائها، لأن فيها عزهم ومجدهم، وبغيابها فهم أذلاء مهانون.

وجاء في ديوان المعاني أن الأغر النهشلي وقع بينه وبين قومه شر فأرسل ابنه وقال يا بني كن يداً لأصحابك على قتالهم وإياك والسيف فإنه ظل الموت، واتق الرمح فإنه رشأ المنية ولا تقرب السهام، فإنها رسل تعصي وتطيع، قال قبم أقاتل؟ قال: بما قال الشاعر:

جَلامِيدُ أَمْلاءُ الأَكُفِّ كأَنَّها رُؤوسُ رِجالٍ حُلِّقَت في المَوَاسِمِ

فعليك بها فألصقها بالأعقاب والسوق[٣].

وقد عبر الشّعراء عن قيمة هذه الأسلحة، وعدّوها رمزاً في حياتهم العسكرية، لأنها تكفل لهم العيش باطمئنان واستقرار، فكانت خير زاد يتزود به المحارب، لذلك، راح الشّعراء يتحدثون عن كيفية إعدادهم للحرب، "وحق للعرب وهم في باديتهم محصورون أيام الجاهلية أن يحتفوا بأوصاف سلاحهم وذكر حروبهم وعدتها، لأنها كانت تملأ حياتهم في ليلهم ونهارهم"[٤]. يقول عمرو بن معد يكرب:

---

(١) زكي المحاسني- شعر الحرب في أدب العرب، ص ٤٠.

(٢) وانظر صورة الحرب عند: أوس بن حجر- الديوان، ص ٥٨-٦٠. تابط شراً- شعره، ص ٧٧، ١٤٥-١٤٦. بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٠-١١. الربيع بن زياد- شعره، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٣) العسكري- ديوان المعاني، ج ٢. ص ٥٤.

(٤) زكي المحاسني- شعر الحرب في أدب العرب، ص ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ فَضْفَاضَةً دِلَاصاً تَثَنَّى على الرَّاهِشِ
وأَجْرَدَ مُطَّرِداً كالرِّشَاء وسَيْفَ سَلَامَةَ ذِي فَائِشِ
وذَاتَ عِذَارٍ لها أَزْمَلٌ بَرَتْها رُمَاةُ بَنِي وَابِشِ
وكُلَّ نَحِيضٍ فَتِيقِ الغِرَارِ عَزُوفٍ على ظُفْرِ الرَّائِشِ
وأَجْرَدَ سَاطٍ كَشَاةِ الأَرَا نِ رِيعَ فَعَنَّ عَلَى النَّاجِشِ
تمتَّعْتُ ذَاك وكنْتُ امْرَأً أَصُدُّ عنِ الخُلُقِ الفَاحِشِ(١)

فقد أعد الشّاعر للحرب أدواتها، فالدرع بيضاء لامعة، تعكس بريقها، لتشكل عروقاً دقيقة لجودة صنعها، والرمح الطويل ممدود كالحبل، والقوس دقيقة الصنع يسمع لها رنين وقت الرمي، والسهم المرقق حاد الشفرتين يحدث صوتاً إذا مر على ظفر من يريشه، وفرس قصير الشعر، لأصالته، تراه حذراً متأهباً كثور يخاف صائده.

والشّاعر يعبر عن مدى تمتعه بهذه الأدوات ليذب بها عن أخلاق قومه، ويدفع عنهم شر البلاء. وأفضل مال يقتنيه الإنسان الجاهليّ أيام الحرب، هو ما يملك من أدوات القتال، يقول عامر بن الطّفيل:

يَوْمَ لا مَالَ لِلْمُحَارِب في الحَرْ بِ سِوَى نَصْلٍ أَسْمَرٍ عسّالِ
ولِجامٍ في رَأْسِ أَجْرَدَ كالجِذْ عِ طُوَالٍ وأَبْيَضٍ قَصَّالِ
ودِلاصٍ كالنَّهْيِ ذَاتِ فُضُولٍ ذَاكَ في حَلْبَةِ الحَوَادِثِ مَالِي(٢)

فالشّاعر، يعدّ السلاح، أسمى غاية، وأعزّ مال يقتنيه في أيام ضيقه وبؤسه حين يتعرض لغزو، أو يدخل ساحة حرب. وهذا يعني، أن الإنسان إذا شعر بخوف يهدد حياته، فإنه يرفض المال والبنين، ويحرص على الشيء الذي به يحمي روحه، ويحقق آماله.

"والسلاح عند العربي رمز تنطوي تحته كثير من المعاني: فرفعه فوق الرأس من أسمى آيات الاحترام، وتحطيمه يعني الضعة والذلة، وتسليمه يعني الخضوع

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١١٩-١٢١. فضفاضة: يريد الدرع. الدلاص: الدرع الملساء. الرواهش: قصب وعروق في باطن الذراع. الأجرد: الرمح. مطرد: مستقيم. الأزمل: الصوت. النحيض: السهم المرقق. الغرار: الحد. ساط: بعيد الخطو. الإران: النشاط. الناجش: الصائد.

(٢) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمسكنة، وما كان العربي يتمنى شيئاً سوى رمح مدبب وسيف صقيل، وفرس جرداء، ودرع سامقة فهي عدته في الحياة، وعماده الذي يعتمد عليه، وسببه إلى العزة والسيادة"[١].

والإنسان الجاهليّ وهو يحرص على اقتناء هذه الأسلحة، إنما يبحث عن أمنه واطمئنانه، فيحقق بذلك وجوده وبقاءه، وهذا يقودنا إلى القناعة، بأن الإنسان بعامة يولي اهتماما بالغاً إلى سر بقائه، أكثر من السعي وراء طعامه وشرابه، وحين نتعرف طبيعة حياة الإنسان الجاهليّ، بما فيها من مخاطر وشقاء، فإننا نقدر لهذا الإنسان قيمة اهتمامه باقتناء السلاح، واعتزازه بأدوات الحرب. ومن صفات الإنسان الجاهليّ أنه لا يقبل المساومة على شراء سلاحه، يقول أحيحة بن الجلاح:

أَلَا يَا قَيْسُ لا تسْمِنْ دِرْعِي فما مِثْلِي يُسَاوِمُ بالدُّرُوعِ[٢]

يعبر أحيحة عن مدى حبه لدرعه الذي يعز عليه أن يساومه فيه قيس بن زهير؛ لأن لهذه الدرع رمزا تاريخياً في ذاكرة أحيحة.

وذكر شعراء الجاهليّة مكانة الرماح والخيول في تحقيق النصر والدفاع عن الحمى والمحارم، يقول الحادرة:

ألا هَلْ أَتَى ذُبْيَانَ أنَّ رِمَاحَنَا بِكُشْيَةَ عَالَتْها الجِرَاحَةُ والحَدُّ
بِمَحْبَسِنَا يَوْمَ الكُفَافَةِ خَيْلَنَا لِنَمْنَعَ سَبْيَ العيّ إذ كُرِهَ الرَّدُّ
إلى اللَّيْلِ حتَّى أُشْرِقَت بنُفُوسِها وَزَيَّنَ مَظْلُومٌ دَوَابِرَها وَرْدُ[٣]

يشيد الشّاعر بأن قومه وجهوا الأعداء وهم على ظهور خيلهم، والرماح بأيديهم كأنها أرشية آبار لطولها، يصدون بها أعداءهم فلا يعترضها عارض، ولا يشق عليها سبيل، كل ذلك لحماية القبيلة واحتراساً لأي سبي ينجم عن رد الأعداء.

وتصف الخنساء شجاعة قومها حين يجزون نواصي فرسان أعدائهم في فتقول:

وَخَيْلٍ تَكَدَّسُ بالدَّارِعِينَ وَتَحْتَ العَجَاجَةِ يَجْمِزْنَ جَمْزَا

---

(١) نوري القيسي- الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ١٦٨.

(٢) أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٦٧.

(٣) الحادرة- الديوان، ص ٧٢-٧٥. عالتها: شقت عليها. أشرقت: أغصت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَزَزْنَا نَوَاصِيَ فُرْسَانِها وكَانُوا يظُنُّونَ أَنْ لَنْ تُجَزَّا
ونَلْبَسُ في الحَرْبِ نَسْجَ الحَديدِ ونَلْبَسُ في الأَمْنِ خَزًّا وَقَزًّا(١)

تسخر الشّاعرة من الأعداء الذين ظنوا أنهم لن يصابوا بأذى في ساحات الوغى، وهذا يدل على أن أعداءها لم يجربوا الحرب، ولم يكن لهم خبرات سابقة فيها. وتشير الخنساء، إلى طبيعة الحياة التي يحياها قومها، فهم في حالات الحرب، يلبسون الحديد والدروع، استعداداً لمواجهة القتال، ويلبسون في حياة السلم الحرير والديباج.

وقد أبدع الشّعراء الجاهليّون في وصف الخيل وقد يبس العرق على متونها بعد أن عادت من الحرب، يقول طفيل الغنوي:

وَكُمْتاً مُدَمَّاةً كأَنَّ مُتُونَها جَرَى فَوْقَها واسْتَشْعَرَتْ لَوْنَ مُذْهَبِ
كَأَنَّ يَبِيسَ المَاءِ فَوْقَ مُتُونِها أَشَارِيرُ مِلْحٍ في مَباءَةِ مُجْرِبِ(٢)

يصف الشّاعر الخيل حال عودتها من الغزو، تراها ضامرة البطون، يعلو متونها عرق تكلس حتى صار لونه مذهباً فغدا على ظهورها خطوطا موشاة. فالشّاعر، يثمن قيمة الفرس، ومكانتها في الحروب، وأهميتها تكمن في القدرة على مواجهة الأعداء أو التخلص منهم ففي سرعتها وجرأتها النصر أو السلامة.

وكانت الخيل تشكل جانباً مهما في حياة الإنسان الجاهليّ، فهي حرز منيع له، وهي سلاحه الذي يجلب له القنص والصيد، والذي ينجيه من أعدائه، يقول خالد بن جعفر:

ولا حِرْزَ إلاّ كُلُّ أَبْيَضَ صَارِمٍ وكُلُّ رُدَيْنِيٍّ وَجَرْدَاءَ ضَامِرِ
وأَجْرَدَ كالسِّرْحَانِ خَاطَ بِضَبْعِهِ مُحَرَّمِ أَنْساءٍ مُفِجِّ الدَّوَابِرِ(٣)

فأفضل ذخر يقتنيه الإنسان الجاهليّ في ذلك العصر، هو السلاح بأنواعه بما في ذلك الفرس الكريمة. وهذه أشياء تقيه شر الهلاك، وتحقق له أهدافاً كثيرة.

---

(١) الخنساء- الديوان، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) طفيل الغنوي- شعره، ص ٨. المدماة: التي تضرب إلى الحمرة. الإشرارة: نطع أو خصفة يطرح عليها الأقط. المباءة: مراتع الإبل.

(٣) خالد بن جعفر- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٦٥-٦٦. الحرز: الذخر. خاط: انساب في سيره. ضبعه: عدوه الشديد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فقد يرمز الحسام الماضي إلى العمل النافذ الذي يخترق جدران الزمان والمكان يظل في خدمة الإنسان، يحميه وينفعه ويرفعه"(١).

وليس من الغرابة إذا قلنا بأن الخيل كانت عند الإنسان الجاهليّ، بمنزلة أفراد أسرته، وقد عبر عن ذلك، خداش بن زهير حين حل به ضيف، فأكرمه، وجعل ابنه بجيرا وفرسه درهما أنيسين له، يقول:

وأَقْفَيْتُه دُوْنَ العِيَالِ لِجَافَنَا وبَاتَ أَنِيسَيْهِ بُجَيْرٌ ودِرْهَمُ(٢)

وأبو دؤاد الإيادي هو الذي عشق قلبه الخيل وهو صبي، فهي ذخر له في كل رهان يهجم بها على عدوه ويرتحل عليها من مكان إلى آخر، يقول:

عَلِقَ الخَيْلَ حُبُّ قَلْبي وَلِيداً وإذَا شَابَ عِنْدِيَ الإكْثَارُ
جُنَّةً لي في كُلِّ يَوْمٍ رِهَانٍ جُمِّعَتْ في رِهَانِها الأَعْشَارُ
وانْجِرَارِي بِهِنَّ نَحْوَ عَدُوِّي وارْتِحَالِي البِلَادَ والتَّسْيَارُ(٣)

الأيام والوقائع

للعرب أيام نالوا بها شهرة عظيمة في حياتهم، يذكرون وقائعهم فيها ويتغنون بها؛ لأنها أيام عز ونصر لهم، فهي مآثر الآباء والأجداد، فقد "قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كنا نتناشد الشعر، ونتحدث بأخبار جاهليتنا، وقال بعضهم: وددت

---

(١) أسعد علي- الإنسان والتاريخ، ص ٩٠.

(٢) خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٤٥. القفية: الشيء الذي يكرم به الضيف.

(٣) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٣١٧. وانظر صورة الإعداد للحرب والآلات التي تستخدم فيها عند: عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٢٣. عمرو بن شأس- شعره، ص ٤٠. عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٢٩، ٧٣-٧٤. أوس بن حجر- الديوان، ص ٨٣. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٢٨-١٢٩. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٥١، ٥٢-٥٥. زيد الخيل- الديوان، ص ٨٤. سلامة بن جندل- الديوان، ص ١١٢. الخنساء- الديوان، ص ٢٣٦-٢٣٧. عنترة- الديوان، ص ٢٢٧. ابن الأسلت- الديوان، ص ٧٩-٨٠. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٨١-٨٢. أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص ٢٩٦. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٤٦-٤٧. الأفوه الأودي- شعره، ص ٢١-٢٢.
تأبط شراً- شعره، ص ٩٨-٩٩. أبو خداش الهذلي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ١٢٤، ٣٩. صخر الغي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ٦٠، ٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا في الجاهلية"[١]، وكان لكل يوم من أيام العرب "شعراؤه وشهوده وقتلاه وجرحاه، يبعثون في أهليهم وأعقابهم تجديد الوتر وأخذ الثأر"[٢]، يقول عامر بن الطّفيل:

إنْ تَسْأَلِي الخَيْلَ عَنَّا في مَوَاقِفِها ... يَوْمَ المُشَقَّرِ والأَبْطَالُ في زَعَجِ
تُخْبِرْكِ أَنِّي أُعِيدُ الكَرَّ بَيْنَهُمُ ... إذا القَنَا حُطِمَتْ في يَوْمِ مُعْتَلَجِ[٣]

وهذا بشر بن أبي خازم، يصور ما وقع ببني عامر يوم النسار من قتل وذل وتهجير يقول:

فَلَمَّا رأَوْنَا بالنِّسَارِ كأَنَّنا ... نَشَاصُ الثُّرَيَّا هَيَّجَتْها جَنُوبُها
فَكَانُوا كَذَاتِ القِدْرِ لم تَدْرِ إذْ غَلَتْ ... أَتُنْزِلُها مَذْمُومةً أَمْ تُذِيبُها[٤]

يصور بشر أعداء بني عامر، حين رأوا جيش قبيلة أسد، الذي كان لكثافته كالسحب المثقلة بالمطر، فأصابهم الرعب والذعر، إلى حد لم يستطيعوا أن يحددوا اتجاههم، هل يعودون من حيث أتوا فيهزمون، أم يستمرون في الحرب، فيقضى عليهم ويقتلون وتسبى نساؤهم، فكانوا أشبه بمن وضعت طعاماً تحت قدر لا تدري أهي أفسدته أم أنضجته.

ويكشف الشّعراء، أن أيام العرب التي كانت كلها حروب، لم تفرق بين سيد كريم سديد الرأي، وبين عبد من عامة الناس، يقول ابن الأسلت في حرب داحس والغبراء:

أَلَمْ تَعْلَمُوا ما كَانَ في حَرْبِ دَاحِسٍ ... فَتَعْتَبِرُوا أَوْ كَانَ فِي حَرْبِ حَاطِبِ
وكَمْ قَدْ أَصَابَتْ مِنْ شَرِيفٍ مُسَوَّدٍ ... طَوِيلِ العِمَادِ ضَيْفُهُ غَيْرُ خَائِبِ[٥]

فالشّاعر يقنع أبناء قبيلته، بتجنب الحروب والوقائع بينهم، مهما عظمت الأسباب، فيتخذون حرب داحس والغبراء عبرة وموعظة لهم، لأن الحرب إذا وقعت، فإنها تهلك الناس، ولا تفرق بين وضيع ورفيع.

---

(١) ابن عبد ربه- العقد الفريد، ج٥، ص ١٣٢.

(٢) زكي المحاسني- شعر الحرب في أدب العرب، ص ٣٨.

(٣) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٢٥٠-٢٥١. يوم معتلج: يوم ازدحام.

(٤) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٦-١٩. نشاص الثريا: ما ارتفع من السحاب بنونها.

(٥) ابن الأسلت- الديوان، ص ٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشّاعر الجاهليّ حين يعيد ذاكرته إلى الوراء، فيذكر أيام العرب، ووقائعهم، إنما يريد بذلك ، تخليد هذه الانتصارات، والإشادة ببطولات أبناء القبيلة، ويزهو بها على القبائل الأخرى؛ لأن معيار البطولة، وتحقيق الذات كانا ينحصران في كسب المعركة، فمن أبرز دلائل الفخر في شعر الأيام "نشوة النصر وما تحدثه من خيلاء وزهو في نفس الشاعر، وإحساس بالعزة والقوة والمكانة الرفيعة التي تحتلها قبيلته بين القبائل"[١]، يقول عمرو بن معد يكرب مذكرا بيوم صعدة:

وَنَحْنُ هَزَمْنَا جَيْشَ صَعْدَةَ بالقَنَا ... ونَحْنُ هَزَمْنَا الجَيْشَ يَوْمَ بَوَارِ
جَوَافِلَ حَتَّى ظَلَّ جُنْدٌ كَأَنَّهُ ... مِنَ النَّقْعِ شَيْخٌ عَاصِبٌ بِخِمارِ[٢]

يصف الشّاعر وقعة يوم صعدة حين هزموا أعداءهم في جبل جُند، فصار غبار المعركة فيه كالشيخ المعتم بخمار أسود.

ويوم أُحد، من أيام العرب المشهورة التي كان فيها قتال بين الإيمان والكفر، وقد تغنى بهذه الوقعة، عبد الله بن الزبعرى، حين عبر عن شدة فرحه، بقتل بعض شهداء معركة أحد، يقول:

قَتَلْنَا ابْنَ جَحْشٍ فَاغْتَبَطْنَا بِقَتْلِهِ ... وحَمْزَةَ في فُرْسَانِهِ وابنَ قَوْقَلِ
وأَفْلَتَنَا منهم رِجَالٌ فأَسْرَعُوا ... فَلَيْتَهُمُ عَاجُوا ولم نَتَعَجَّلِ
أَقَامُوا لنَا حَتَّى تَعَضَّ سُيُوفُنَا ... سَرَاتَهُمُ وكُلُّنا غَيْرُ عُزَّلِ[٣]

فالشّاعر يعبر عن غبطته بقتل المسلمين في يوم أحد من مثل: عبد الله بن جحش حليف بني أمية، وحمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وابن قوقل الأعرج بن مالك بن ثعلبة، وكانوا جميعاً، من شهداء أحد. ويتمنى الشّاعر، أن لو استمر القتال حتى يجهزوا بسيوفهم، على سراة أعدائهم وشرفائهم.

وهذا ضمرة بن ضمرة يحرم على نفسه الخمر، حين قتلت بنو تميم طيئاً في يوم الفجار أشد مما قتلت به بني عامر يوم النسار، حتى يكون له يوم يكافىء يوم الفجار فأغار على تميم، في يوم يقال له ذات الشغوف، يقول:

---

(١) عفيف عبد الرحمن- الشعرو أيام العرب، ص ٢٣٦.

(٢) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١٠٨. بوار: ملك من ملوك اليمن.

(٣) عبد الله بن الزبعرى- شعره، ص ٤٣-٤٤. عاجوا: أقاموا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآن سَاغَ ليَ الشَّرَابُ ولَمْ أَكُنْ آتِي الفِجَارَ ولا أشُدُّ تَكَلُّمِي
وأَبأْتُ يَوْماً بالنَّسارِ بِمِثْلِه وأَخَذْتُ يَوْماً في حَدِيثِ المَوْسِمِ
والخَيْلُ من خَلَل الغُبَار خَوَارِجٌ كالتَّمْرِ يُنْثَرُ مِنْ جِرَابِ الجُرَّمِ(١)

فالزّمن الذي أشار إليه الشّاعر، مقرون بالعهد الذي اقتطعه على نفسه، فقد ساغ له الشراب بعد أن حرّمه حتى يثأر من بني تميم، فبادل أعداءه المنتصرين، يوم النسار، بيوم ذات الشغوف، الذي انتصر عليهم، إلى حد كانت فيه الخيل لهول المعركة تتساقط كأنها حبات تمر تسقط من فم الجراب.

وقد تركت أيام العرب وما فيها من حروب دامية أثراً بالغ الحزن في قلوب الشّعراء؛ لأنهم فقدوا بها أعز رجالهم، وفرسانهم من السادة والأشراف، وهذا عنترة يعبر عن شدة حزنه على مالك بن زهير العبسي ويندم على حرب داحس والغبراء، يقول:

للّهِ عَيْناً مَنْ رَأَى مِثْلَ مَالِكٍ عَقِيرَةَ قَوْمٍ أَنْ جَرَى فَرَسَانِ
فَلَيْتَهُما لم يَجْرِيا نِصْفَ غَلْوَةٍ ولَيْتَهُما لم يُرْسَلَا لِرِهَانِ
ولَيْتَهُما مَاتَا جَمِيعاً بِبَلْدَةٍ وأَخْطَاهُمَا قَيْسٌ فَلا يُرَيَانِ
لقد جَلَبَا حَيْناً وحَرْباً عَظِيمَةً تُبِيدُ سَرَاةَ القَوْمِ من غَطَفَانِ
وكَانَ فَتَى الهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارَهَا ويَضْرِبُ عِنْدَ الكَرْبِ كُلَّ بَنَانِ(٢)

يعبر الشّاعر عن حزنه على مالك الذي ذهب ضحية فرسين، وكأن الشّاعر يوبخ هذه الأقوام الذين يقتل ساداتها وزعماؤها، لسبب يبعث ذكره الخزي والعار. ولحنق الشّاعر على هذه المناسبة التي تخلو من القيم الإنسانية، ولشدة حزنه على مالك بن زهير، تمنى أن هذين الفرسين قد ماتا ولم يرهما قيس فيأتي بهما فرسي رهان، حتى يكونا سبباً في إشعال الفتنة بين قبيلتي عبس وذبيان، فيذهب سادة غطفان ضحية لهذه الحرب، التي لا هدف لها، ومنهم مالك بن زهير، الذي كان أخا الحرب يقوم بها ويديرها، فيحمي ذمار قومه ويدفع عنهم الكرب والبلاء.

وهذا السموأل، يتغنى بالأيام والوقائع التي شهدها قومه، فحققوا فيها انتصارات واسعة على أعدائهم، يقول:

(١) ضمرة بن ضمرة- شعره، ص ١٢٠.

(٢) عنترة- الديوان، ص ٣١١-٣١٢. الغلوة: المراهنة في السباق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنَا لها غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وحُجُولُ
وأَسْيَافُنَا في كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعين فُلولُ
مُعَوَّدَةٌ ألاَّ تُسَلَّ نِصَالُها فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ[١]

إن لقوم الشّاعر أياما مشهورة في أعدائهم، فهي لجمال وقعها، وبهجة انتصارها، كالفرس المحجلة، يكسبها التحجيل رونقاً وجمالاً وأن سيوفهم لكثرة وقائعهم وغزواتهم، في شرق البلاد وغربها مثلمة فقد عودت على ألا تجرد من أغمادها، حتى تستباح دماء قوم من الأقوام فتغزوهم[٢].

الشجاعة

تغنى شعراء الجاهلية، بشجاعة الأبطال وفروسيتهم، وقدرتهم على مواجهة الصعاب. فصوروا إنسان ذلك العصر، بالخشونة والتمرد على الواقع، الذي يعيشه وربما الخروج على القواعد المألوفة أحياناً، وكانت حياة الجاهلي مليئة بالمعاناة، يعتمد على ذاته في كثير من الأحيان لانتزاع حاجاته المادية بخاصة، وكان يتطلب من الجاهلي إظهار القدرة على ذلك، فكانت الشجاعة المتمثلة في "الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة وقتل الأقران، والسير في المهامه الموحشة، والقفار"[٣] من أهم ما يميز الجاهلي عن غيره في مواجهة ألوان الحياة المختلفة. وقد أورد الشّعراء، أمثلة متعددة في ضوء رؤيتهم لجوانب الفروسية والشجاعة، يقول عمرو بن شأس:

نَفَيْنَا سَلِيما عن تِهامَةَ بالقَنَا وبالجُرْدِ يَمْعَلْنَ السَّخَاخَ بنا مَعْلا
بُكلِّ فتىً رَخْوِ النِّجَادِ سَمَيْدَعٍ وأَشْيَبَ لَمْ يُخْلَقْ جَباناً ولا وَغْلا
إذا ما فَرَغْنَا مِنْ قِراعِ كَتِيبَةٍ صَرَفْنا إلى أُخْرى يَكونُ لَهُم شُغْلا[٤]

(١) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٩٢. الحجل: الخلخال. الفلول: الكسور في حد السيف. القبيل: الجماعة من آباء شتى.

(٢) انظر أيام العرب عند: عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١١٢-١١٣. المثقب العبدي- الديوان، ص ٧٤-٨١، عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٦، ابن الأسلت- الديوان، ص ٩٢، عبد الله الزبعرى- شعره، ص ٣٠، ٤١-٤٣. المعطل الهذلي- ديوان الهذليين، ج٣، ص ٤٩-٥٠.

(٣) قدامة بن جعفر- نقد الشعر، ص ٦٧.

(٤) عمرو بن شأس- شعره، ص ٤٠. يمعلن: يسرعن. السخاخ: الأرض اللينة. السميدع: السيّد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن تهامة المكان، تشكل محور النزاع الذي تعتصم فيه قبيلة الشّاعر وقبيلة سليم، ويفخر الشّاعر بشجاعة فرسان قومه مستخدمين جيادا ضامرة البطون، غليظة القوائم، يمتطي صهواتها فرسان سادة في أقوامهم، لهم جولات في الحرب، وصولات، ماهرون في فنون القتال، يجيدون استخدام الرماح والسيوف، حتى إذا ما فرغوا من مقارعة كتيبة من أعدائهم وغلبوها، انصرفوا إلى كتيبة أخرى، يصرعون رجالها، ويستولون على غنائمها.

والصورة التالية تكشف صفات المحارب وقد بدا ذلك في قول عنترة، يصف عبلة، وهي تتعجب من منظره مرتدياً لباس الحرب حتى كادت تنكره، يقول:

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ من فَتىً مُتَبَذِّلٍ ... عَارِي الأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كالمُنْصَلِ
شَعْثِ المَفارِقِ مُنْهِجٍ سِرْبَالُهُ ... لَمْ يَدَّهِنْ حَوْلاً وَلَمْ يَتَرَجَّلِ
لَا يَكْتَسِي إلاَّ الحديدَ إذا اكْتَسى ... وكَذاكَ كُلُّ مُغاوِرٍ مُسْتَبْسِلِ
قَدْ طَالَ ما لَبِسَ الحَدِيدَ فإنَّما ... صَدَأُ الحديدِ بِجِلْدِهِ لَمْ يُغْسَلِ(١)

فقد رسم عنترة أجمل صورة للمحارب، جعلها متمثلة بشخصه، حين نظرت إليه عبلة رأت رجلاً شاحب الوجه، متغير الشكل، قليل اللحم، ظاهراً عصب كفه متلبد الشعر، رثّ الثياب، تنفذ منه رائحة الحرب. فصورة عبلة تمثل نور الحياة الجديد، الذي يراه عنترة ماثلاً في تحقيق النصر.

وهذا شكل من أشكال الحرب يدل على أن صاحبه، له مراس في الفروسية، وعنترة مع هذا الشحوب والتغير، فهو كثير الغارات، شجاع يرمي نفسه في المهالك، بكسو جسمه الحديد والدروع، حتى صار جسمه لا يفرز إلا رائحة الحديد إشارة إلى أنه أخو الحرب والغزوات.

ثم يعهد الشّاعر لعبلة، ألا تسرع الحكم فيه فتظلمه وتقطع حبال وصلها، وطلب إليها أن تطيل التأمل فيه، حين تنظر إليه، لعلها تستعيد ذاكرتها فيه فتتثبت من التعرف إليه ولا تعود تنكره.

ومن شعراء الجاهليّة مَنْ صور فتيان قومه وقد تجسدت فيهم صفات الأسود قوة، والسيوف مضاء، يلاقون الموت بصدورهم، غير هيابين من مواجهة الصعاب،

(١) عنترة- الديوان، ص ٢٥٣-٢٥٤. المتبذل: المتصرف في الحروب والأسفار: العاري: القليل اللحم. الأشاجع: عصب ظاهر الكف. المنهج: البالي: يترجل: يتمشط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول سلامة بن جندل:

وَفِتْيانِ صِدْقٍ قد بَنَيْتُ عَلَيْهِمُ ... خِبَاءً بِمَوْماةِ الفَلاةِ يَجُولُ
كَمَا جَالَ مُهْرٌ في الرِّباطِ يَشُوقُهُ ... على الشَّرفِ الأَقصى المَحَلِّ خُيُولُ
تَلاَقَتْ بَنُو كَعْبٍ وأَفْنَاءُ مَالكٍ ... بأَمْرٍ كصَدْرِ السَّيفِ وَهْوَ جليلُ
تَرَى كُلَّ مَشْبُوحِ الذِّراعَيْنِ ضَيْغَمٍ ... يَخُبُّ بهِ عَارٍ شَواهُ عَسُولُ
أَغَرَّ مِنَ الفِتْيَانِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى ... كَما اهتَزَّ عَضْبٌ باليَمينِ صَقيلُ(١)

يصور الشّاعر الصعاب التي واجهها مع فتيان قومه حين ارتحلوا إلى الصحراء، في رحلة شاقة لملاقاة عدوهم، فقد خيموا في فلاة واسعة لا ماء فيها ولا أنيس، فنصبوا خباء تتصارع فيه أمواج الرياح العاتية من كل جانب، كما يضطرب مُهرٌ في قيده، تهيجه خيول تجري على الشرف البعيد، فيأخذ يضرب الأرض بسنابكه ليلحق بها.

وتتنامى هذه الأجواء المضطربة، حتى تشكل من بينها صورة لقبيلتي كعب ومالك، فتتفاقم الأحداث بينهما، لتنبىء عن أمر جلل، ترى كل فارس منهم قوي العزيمة، عضباً كالسيف المصقول، ينقض على الأعداء، يجول به فرس يضطرم في عدوه فيخفق برأسه إيذاناً بالشر والأذى.

وقد تلا هذا اللون من الشجاعة والفروسية التي يتميز بها الإنسان الجاهليّ، غارات كان ينظمها مجموعة من الفرسان، ليقفوا على مواطن تجمع العدو واستشعار حالات القوة والضعف فيهم، حتى يتخذوا التدابير اللازمة، والخطط العسكرية التي يسيطرون بها على العدو.

وهذه الغارات أكسبت أصحابها خبرة قتالية، وتجربة في رسم السياسات، والخطط الحربية الناجحة. فكان المتحاربون يغيرون على أعدائهم على حين غِرّة فيكسبون بذلك المعركة، يقول عمرو بن كلثوم:

أَلا هَلْ أَتَى بِنْتَ الثُّوَيْرِ مَغَارُنَا ... على حَيِّ كَلْبٍ والضُّحَى لَمْ تَرَحَّلِ
صَبَحْنَاهُمْ مِنَّا فَوَارِسَ نَجْدَةٍ ... وَشَهْبَاءَ تَرْدِي بالسِّهَامِ المُثَمَّلِ
تَرَكْنَاهُمُ صَرْعَى لَدَى كُلِّ مَزْحَفٍ ... تَجُرُّهُمُ عُرْجُ الضِّبَاعِ بِمَحْفَلِ(٢)

(١) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٩١-١٩٢ . مشبوح: معرض. شواه: قوائمه.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٥٦. المغار: الإغارة. ترحل: ترتفع. تردي: ترمي. المحفل: المجلس. المثمل: السيف القديم العهد بالصقال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصف الشّاعر الغارة التي فاجأ بها أعداءه في حيّ كلب في أثناء الصباح وشمس الضحى لمّا ترحل بعد، بفرسان أصحاب نخوة ونجدة، تساندهم نسوة تجهز على كل من تبقى من الأعداء، فتركوا صرعى مجدّلين في كل مكان تجرهم الضباع الشرسة إلى أوكارها.

"ولم تكن ممارسة الحرب مقصورة في العرب على أمرائهم وأغنيائهم وغطاريفهم، وإنما كانت كذلك من حظ نفر غير هؤلاء السادة، لقد كانت شغل الصعاليك ومرام الأغربة السود من العدائين، ودأب اللصوص السارين وشراد الليل، فصعاليك العرب كانوا يساوون بفروسيتهم وخوارق بطولاتهم شجاعة السراة المغاوير"(١).

فهذا الشنفرى مع مجموعة من الصعاليك، يصور غارته على قبيلة خثعم التي اعترضت طريقهم حين قاتلوا بجيلة واستاقوا إبلهم، وكان مع الشنفرى بعض صعاليك العرب، منهم تأبّط شراً، والمسيّب وعامر بن الأخنس، وعمرو بن براق، يقول الشنفرى:

خَرَجْنَا فَلَمْ نَعْهَدْ وَقَلَّتْ وَصَاتُنا ... ثَمَانِيَةٌ مَا بَعْدَها مُتَعَتَّبُ
نَمُرُّ بِرَهْوِ الماءِ صَفْحاً وَقَدْ طَوَتْ ... ثَمَائِلُنَا والزَّادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ
ثَلاثاً على الأَقْدامِ حتَّى سَمَا بِنَا ... على العَوْصِ شَعْشاعٌ مِنَ القَوْمِ مِحْرَبُ
فَثَارُوا إلَيْنا في السَّوَادِ فَهَجْهَجُوا ... وَصَوَّتَ فِينَا بالصَّباحِ المثوِّبُ
فَشَنَّ عَلَيْهِمْ هِزَّةَ السَّيْفِ ثَابِتٌ ... وَصَمَّمَ فيهم بالحُسَامِ المُسَيَّبُ
وَظَلْتُ بِفتْيَانٍ مَعي أتقيهِمُ ... بِهِنَّ قليلاً سَاعَةً ثُمَّ خَيَّبُوا(٢)

يصف الشّاعر الغارة التي قام بها وصحبه، إلى بجيلة، وكان عددهم ثمانية فرسان فمروا بمستنقع ماء، حتى كاد ينفد الزاد منهم، فباتوا ليلتهم وسار منهم ثلاثة فرسان ليلاً يستطلعون العدو، حتى بدا لهم محارب طويل القامة من عوص بجيلة، فصاحوا بهم، وثاروا، فشن عليهم تأبّط شراً بسيفه، وفتك بهم المسيّب بن علس، في حين شغل الشنفرى يصارع مجموعة من فتيان الأعداء يتقيهم بأسلحته.

(١) زكي المحاسني- شعر الحرب في أدب العرب، ص ٤١.

(٢) الشنفرى- شعره، ص ٣٢. الرهو: مستنقع الماء. الثميلة: ما يكون فيه الطعام والشراب في الجوف، الشعشاع: الطويل الحسن. المحرب: صاحب الحرب. هجموا: صاحوا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشعر الفروسية لا يقل أهمية عن شعر الطلل، فكانت هذه الصورة "من المقدمات في قصائد الشعراء الفرسان، لارتباطها بحياتهم العملية من ناحية، ولأنها تتيح لهم المجال لإظهار فروسيتهم، والإعلان عنها وإبرازها في أقوى أوضاعها أمام ضعف الأنوثة الفطري"[١]، من ذلك ما جاء في قول النابغة الذّبياني يصور الغارة التي قادها هو بنفسه، على خيل أعياها التعب، وأنهكها الجوع، ويصور فيها مشاق الرحلة، فيقول:

وَغَارَةٍ ذَاتِ أَظْفَارٍ مُلَمْلَمَةٍ ... شَعْوَاءَ تَعْتَسِفُ الصَّحْرَاءَ والأَكَمَا
خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ ... تَحْتَ العَجَاجِ وَخَيلٌ تَعْلِكُ اللُّجُما
قُودٌ بَرَاهَا قِيادُ الشُّعْبِ فانْهَدَمَتْ ... تَدْمَى دَوابِرُها مَحذُوَّةً خَدَمَا
أَقْدَمْتُها وَنَواصِي الخَيْلِ شَاحِبَةٌ ... جَرْدَاءَ عِجْلِزَةً أَرْمِي بِهَا قُدُمَا[٢]

فليس من العبثية، أن يضرب الشّاعر في عمق الصحراء، يتقدم فرساناً ويقود خيلاً، دون أن يكون له هدف من تلك الحملة، فالغارة مدججة فرسانها بالسلاح تبحث عن الأعداء الذين انتشروا عبر رقعة واسعة في عمق الصحراء على الرغم من أن الخيول كانت تعض على اللجم من ألم الجوع، ومع ذلك، فقد أقدم الشّاعر على هذه الغارة، مدمية حوافرها، شاحبة ألوانها.

ويبدو أن رحلة الشّاعر، كانت طويلة وشاقة، ويظن أنه لم يخطط لتحقيق هدفه بدليل أن غارته كانت تعتسف الصحراء، وتسير على غير هدى من أمرها، فضلاً عن أنه استخدم الناقة الضخمة، ليواصل المسير، بديلاً عن الخيل التي أنهكها السفر وأدماها. وحضور الناقة، قد يشكل تحولاً في قلب الشّاعر، فيجد أن دربه إلى العدو لا تزال طويلة والهدف لا يزال صعباً مناله، فيعدل عن الرحلة[٣].

---

(١) يوسف خليف- دراسات في الشعر الجاهلي، ص ١٦٢-١٦٣.

(٢) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١١١-١١٢. أظفار: سلاح. شعواء: متفرقة. تعتسف: تسير على غير هدى. قود: طوال. الشعب: الطوال. الخدم. السيور للنعال. عجلزة: ناقة صلبة.

(٣) انظر في حالات الفروسية عند: عروة بن الورد- الديوان، ص ٦٨-٦٩. النابغة الذبياني- الديوان، ص ٨٨-٨٩. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٢٥-٢٢٦، ٢٨٠-٢٨١،حاجز بن عوف- قصائد نادرة، ص ١٤٨. لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٢٨٨-٢٨٩. عنترة العبسي- الديوان، ص ٢٧٥-٢٧٦. المرقش الأكبر- المفضليات، ص ٢٣٩-٢٤٠. تابط شراً- شعره، ص ١٣٣-١٣٤. الخنساء- الديوان، ص ٩٧-١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي خضم المعارك والحروب التي حمل لواءها الشّعراء، فألهبوها بأشعارهم الحماسية، واغدقوا عليها أشعاراً تحكي الواقع، وتعكس أحداثه البطولية فقد كان للشعراء دور بارز في التعبير عن شدة بأسهم وبلائهم في الوقائع والحروب التي دارت رحاها يقول عنترة:

لَمّا رَأَيْتُ القَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ ... يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّماحُ كَأَنَّها ... أَشْطانُ بِئرٍ في لَبانِ الأَدْهَمِ
مَا زِلتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ ... وَلَبانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ
فَازوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبانِهِ ... وَشَكا إِليَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي ما المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... أَو كَانَ يَدْرِي ما جَوابُ تَكَلُّمِي(١)

يعكس الشّاعر صورة أعدائه، وقد جبنوا عن مواجهته، حين نظر إليهم وهم يتذمرون، يستحث بعضهم بعضاً خوفاً وفرقاً، حتى أنهم تظاهروا بالشجاعة، وأصبحوا يدعون عنتر لمنازعتهم، فما كان من عنترة، إلا أن اقتحم حصونهم بصدر فرسه الشجاع ورماهم برماح طويلة حتى خرج الفرس من المعركة متسربلاً بدماء الأعداء، يحمحم بصوت خفي، معبراً عن عدم رضاه عما هو فيه من أحداث دامية، ولو استطاع الحديث، لكان صارح الشّاعر، وشكا إليه حاله، لكن تبرمه وازوراره، كفى الشّاعر دراية بحاله.

ومن يدري، فلعل عنترة نفسه قد سئم الحرب، وكره أدواتها وعدّتها، فحل ذكرها، فأسقط هذا الضجر على جواده، فإعراض الجواد ترجمة لما في نفس عنترة، فقد عافت نفسه الحرب وكره جسمه لبس الدروع، فهو يريد أن يتحلل من هذا الجانب الحياتي الملازم له، للبحث عن جانب آخر من الحياة، وقد تكون شجاعته تعويضاً له عما فقد من جانب حياته الاجتماعية التي يسعى إلى تحقيقها من خلال استبساله بالحروب وانتصاراته في حياض المنايا.

وهذا عامر بن الطّفيل يلوم قومه الذين أنكروا عليه شجاعته، في الحروب، فقال يذكرهم بالوقائع التي جعلها شاهداً على حسن بلائه، وفتكه بأعدائه:

بَنِي عَامِرٍ غُضُّوا المَلامَ إِلَيْكُمُ ... وهَاتُوا فَعُدُّوا اليَوْمَ عَنِّي مَشَاهِدِي

(١) عنترة- الديوان، ص ٢١٦-٢١٨. الأشطان: الحبال، اللبان: الصدر، ازور: أعرض. التحمحم: الصوت الخفي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا تَكْفُرُوا في النَّائباتِ بَلاءَنَا إذا عَضَّكُمْ خَطْبٌ بإحدَى الشَّدائِدِ
سَلُوا تَخْبَرُوا عَنَّا غَداةَ أُقَيْصِرٍ وأيَّامَ جِسْمَى أوْ ضَوارِسَ حَاشِدِ
تَرَكْتُ صَرِيْعاً بالعَرَاءِ مُجَدَّلاً ضُبَيْعَةَ إذْ نَجَّى شُتَيْرَ بنَ خَالِدِ
طِمِرٌّ وَزَيْدُ الخَيْلِ قَدْ نَالَ طَعْنَةً إذِ المَرْءُ زَيْدٌ جَائِرٌ غَيْرُ قَاصِدِ
فَذَلِكَ ما أعْدَدْتُ في كُلِّ مَأْقِطٍ كَرِيْهٍ وعَامٍ للعَشِيْرَةِ آئِدِ(١)

يدعو الشّاعر قومه أن يكفوا عن لومه، ويقرّوا بالوقائع التي شهدها وانتصر فيها على أعدائه، وألا ينكروا عليه بلاءه فيها. فكان إذا أصيب قومه بضر، أو لحقهم أذى، فإن الشّاعر يكون سبباً في دفع البلاء عنهم. ثم يواجههم بقوله: عليكم أن تسألوا القبائل التي شهدت غزواتنا وحروبنا في أماكن متعددة، لتقر بحقيقة انتصاراتي التي تركت فيها الأعداء من ضبيعة صرعى مجدلين على الأرض، ومن كتبت له النجاة، فقد أصيب بطعنة منا، فهذا أيها القوم بلائي في مضيق كل حرب، وما أعددت لها نفسي إلا لأقوم بأعباء العشيرة التي تثقل كاهلي فأدافع عنها وأحقق لها مجداً مؤثلاً.

وإذا كان قوم عامر بن الطّفيل يعدون الموت في الحروب عاراً يحط من منزلتهم، فهذا السموأل بن عادياء، يزعم أن الموت فداء للقبيلة، وفخر كبير لها، وأن قومه لا يرون في القتل سبّة لهم، كما تراه قبائل أخرى ليس في تاريخها مجد، أو عبرة، يقول السموأل:

وإنَّا لَقَوْمٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً إذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوتِ آجالَنا لَنَا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سيِّدٌ حَتْفَ أنفِهِ ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلى حَدِّ الظُّباتِ نُفوسُنا ولَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ(٢)

فيوازن الشّاعر بين قبيلته التي تعشق الموت طلباً للمجد، وقبيلتي عامر وسلول اللتين كرهتا الحروب حرصاً على الحياة، وحب الدنيا. وينفي الشّاعر عن

---

(١) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٢٧٤-٢٧٩. الضوارس: ما ضرسهم من الحرب. مأقط: مضيق الحرب. آئل: مثقل.

(٢) السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادة قومه، أن مات واحد منهم، وهو في فراشه، بل يموت في قلب المعركة، على عكس ما يفعل سادة الأقوام الأخرون فهم يرون اللذة على حدّ السيوف وبين الظبات والعوالي. ولعل هذه الصفات هي من أعز مفاخر العرب "فالشجاعة وقاية والجبن مقتلة، واعتبر من ذلك أن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً"(١).

ويصف سلامة بن جندل جماعات الخيل وهي ذاهبة للغزو والقتال، وعلى متونهن الفرسان الشجعان يقول:

كَأَنَّ المَذاكيْ حينَ جَدَّ جَميعُنَا رَعيلٌ وُعُولٍ خَلْفُهُنَّ وُعولُ
عَلَيْهِنَّ أَوْلَادُ المُقاعِسِ قُرَّحاً عَنَاجيجُ في حُوٍّ لهُنَّ صَهيلُ
كأَنَّ على فُرْسَانِها نَضْخَ عَنْدَمٍ نَجيعٌ وَمِسكٌ بالنُّحُورِ يَسيلُ(٢)

يصف الشّاعر خيول قومه في أوقات الجد، قطعاناً كأسراب الوعول في الصحراء، يعلو متونهن فرسان طوال القامة، ضخام الأجسام، ترى في وجوههم نضرة وحيوية، يقحمون خيولهم غمار الموت.

وجعل بعض الشّعراء قومه، يختصون منذ زمن بعيد، بقتل الملوك وأسرهم، "وكان العرب في أيامهم يحرصون على أسر كبار القوم لما في ذلك من هزيمة معنوية لخصومهم وفخر لهم، ولما في ذلك من كسب مادي يحققونه بالفدية التي يأخذونها"(٣). يقول بشامة بن الغدير:

قَوْمِي بَنُو الحَرْبِ العَوَانِ بِجَمْعِهم والمَشْرَفِيَّةُ والقَنَا إشْعَالُها
مِنْ عَهْدِ عادٍ كانَ مَعْرُوفاً لنا أَسْرُ المُلُوكِ وَقَتْلُها وَقِتَالُها(٤)

فقوم الشّاعر لا يقاتلون إذا حاربوا مرة واحدة، إنما هم أبناء الحرب العوان يقاتلون في كل حين، بسيوف المشرفية والقنا السمر، وتشهد لهم قبيلة مرة التي سقوها القنا أولاً وثانياً. فمنذ عهد عاد، وهم يعرفون بقتل الملوك وأسرهم. ويذكر

(١) ابن عبد ربه- العقد الفريد، ج ١، ص ١٠٠.

(٢) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٩٣-١٩٤. المذاكي: القَرح المسانّ. رعيل: جماعات. العناجيج: الطوال. حو: مفردها حواء وهي الفرس بين الدهمة والخضرة. النجيع: الدم. العندم: دم الأخوين.

(٣) عفيف عبد الرحمن- الشعر وأيام العرب، ص ٢٤٤.

(٤) بشامة بن الغدير- شعره، ص ٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشّعراء سير بعض الفرسان الذين أبلوا في المعارك بلاء حسنا، فحققوا لأقوامهم المجد والنصر، فذكرهم الشّعراء رثاء ومدحاً. تقول الخرنق أخت طرفة الشاعر تذكر مناقب زوجها بشر بن عمرو بن مرثد الذي قتلته بنو أسد يوم قلاب:

لَقَدْ عَلِمَتْ جَدِيلَةُ أَنَّ بِشْراً غَدَاةَ مُرَبِّعٍ مُرُّ التُّقَاضِي
غَدَاةَ أَتَاهُمُ بالخَيْلِ شُعْثاً يَدقُّ نُسُورَها حدُّ القِضَاضِ
فَغادَرَ مَعْقِلاً وأَخاهُ حِصْناً عَفِيرَ الوَجْه لَيْسَ بِذي انْتِهَاضِ[1]

تصف الشّاعرة، بشر بن مرثد، حين قام بحملة عسكرية على بني أسد، وقد أتاهم بخيل غبر، دق بواطن حوافرها الحصى الصغار، فغادر بشر وقومه ساح الوغى، وقد تركوا معقلاً وأخاه حصناً، سادات بني أسد، قتلى معفرة وجوههم بالرغام والدماء.

وبشر بن مرثد، الذي شكل صورة البطل في النص السابق، وجعل معقلاً وأخاه حصنا، عفيري الوجه، ميّتين، سيكون هو الآخر، مجندلاً في ساح الوغى، يقول زيد الخيل:

وَسَائِلْ بَنِي نَبْهَانَ عَنَّا وَعِنْدَهُم بَلاءٌ كَحَدِّ السَّيْفِ إِذْ قَطَعَ اليَدا
وَبِشْرَ بنَ عَمْرو قَدْ تَرَكْنَا مُجَنْدَلا يَنُوءُ بِخَطَّارٍ هُنَاكَ وَمَعْبَدا[2]

يذكر الشّاعر، حسن بلائه، حين انتصر لبني نبهان على فزارة، تلك الموقعة التي قتل فيها بشر بن عمرو، بعد أن سدّد له زيد قوساً مليئة بالحقد، فأردته مضرجاً بدمائه، يصارع الموت.

وكان الشعراء الذين خاضوا غمار الحروب والمعارك "وصفوا أسلحتهم وذكروا ألوانها، فالسيف أبيض كالملح، والرمح أسمر، وكذلك الترس، والسهم أزرق وكذلك النصل..."[3]، ولعل هذه الألوان التي امتزجت بدماء الأعداء هي ألوان الفرح الزاهي الذي كان الإنسان الجاهلي يفخر به، فيجد فيه ذاته مجسدة بين ثنائية الحياة والموت.

---

(١) الخرنق- الديوان، ص ٣٦-٣٧. بذي انتهاض: أي ميت لا حراك به.

(٢) زيد الخيل- شعره، ص ٤٦-٤٧.

(٣) يحيى الجبوري- الشعر الجاهلي، ص ٢٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعروة بن الورد، هذا الفارس الذي يقحم نفسه في جميع الأهوال والوقائع ولا يخاف الزّمن، يقول:

إِذَا قِيلَ يا ابن الوردِ أَقْدِمْ إلى الوغى أَجَبْتُ فلاقاني كَمِيٌّ مُقارِعُ
بِكَفِّي مِنَ المَأْثُور كالمِلْحِ لَوْنُهُ حَدِيثٌ بإِخْلَاصِ الذُّكُورَةِ قَاطِعُ
فَلَا أَنَا مِمَّا جَرَّتِ الحَرْبُ مُشْتَكٍ وَلا أَنا مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ جَازِعُ
وَلَا بَصَرِي عِنْدَ الهِيَاجِ بِطَامِحٍ كَأَنِّي بَعِيرٌ فَارَقَ الشَّوْلَ نَازِعُ(١)

يقول الشاعر عن نفسه: فأنا ألبي دعوة الداعي إلى الحرب، ألاقي عدوي وهو مدجج بالسلاح فاضربه بسيفي المأثور، فأتركه طعما للضباع التي تسعى إلى الجيف وهي تعرج إليها عرجاً في قاع لم يكن يعرف أنه سيموت فيه ويكون نهبا لأنياب السباع والوحوش.

وينفي الشّاعر عن نفسه أن يكون كمن يشتكي من الحرب، أو يتذمر منها، فهو لا يخاف تقلبات الدهر ولا حوادثه، بل يقتحم الأهوال أيا كانت نتائجها، وليس هو ممن يبحث عن مهرب، أو مكان يفر منه شوقاً إلى أهله ووطنه كما يفعل البعير، حين يترك قطيعه ثم يعود فيحن إليه.

وقد أجاد عمرو بن كلثوم في تصويره الجيوش المتقاتلة، حين جعل جيش قومه، وجيش عدوه كأنهم جيش واحد، بعد أن تقابلا يقول:

كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ مخاريق بأَيْدي لاعِبينَا
كَأَنَّ ثِيابَنَا مِنَّا ومِنْهُمْ خُضِبْنَ بأُرْجُوانٍ أو طُلينَا(٢)

---

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ٩٧-٩٨. الكمي: المدجج بالسلاح. السيف المأثور: في متنه أثر. الملح: الشحم الأبيض. أخلص ذكورته: صقل حده.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٧٥-٧٦. وانظر صورة الفروسية والبلاء في الحروب عند: عمرو بن شأس- شعره، ص ٢٧-٢٩. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٥-١٧، ٣١-٣٢، ٣٦-٣٧، ٦١-٦٢، ٦٤، ١٠٩-١١١. بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٦٤، ٩١-٩٣، ٢٢٣-٢٢٤. عنترة- الديوان، ص٢٩، ٢٤٨-٢٤٩، ٢٧٨-٢٧٩، ٢٩٥-٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٦-٣٠٧، عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٨-٩، عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٨٣. ابن الأسلت- الديوان، ص ٧٠، ٧٨. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٠٩. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٥٧-٥٨، ١٢٣-١٢٤، ١٢٥. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٩-١٢. أوس بن حجر- الديوان، ص ٦-٧، ٥٢، ٥٨، ٥٩. الأعشى- الديوان، ص ٣١٩. دريد بن الصمة- الديوان، ص ١٠٢-١٠٣. طفيل الغنوي- شعره، ص ٢٠-٢١. زيد الخيل- الديوان، ص ٤٣-٤٥، ٥٠-٥١، ٩٩-١٠٠. عبد مناف بن ربع الهذلي- ديوان الهذليين، ج٣، ص ٤٩-٥٠. ضمرة بن ضمرة- شعره، ص ١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن صورة السيوف بأيدي المتقاتلين متشابكة معاً، ولسرعة حركتها في أيديهم كأنها مخراق بأيدي الصبيان، يقذفون بها جيئة وذهاباً، حتى غدت ثياب عسكر الجيشين المتحاربين مخضبة بالدماء لكثرة أعداد القتلى وحين تغدو السيوف كالمخاريق فإن ذلك يدل على شدة مهارة الفرسان في استخدامها وبراعتهم في فنون القتال.

نتائج الحرب

خلفت الحرب التي كانت تدور رحاها بين القبائل الجاهلية نتائج متعددة في النفوس، ووقف الشّعراء إزاءها مواقف شتى، فوصفوا أحداثها الجسيمة، وويلاتها المفجعة التي جرت المحن والأحقاد، يقول طفيل الغنوي:

فَذُوقُوا كَمَا ذُقْنَا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ ... مِنَ الغَيْظِ في أَجْوَافِنَا والتَّحَوُّبِ
أَبَأْنَا بِقَتْلَانَا مِنَ القَوْمِ مِثْلَهُمْ ... وَمَا لَا يُعَدُّ مِنْ أَسِيرٍ مُكَلَّبِ
بِضَرْبٍ يُزِيلُ الهَامَ عَنْ سَكِنَاتِها ... وَيَنْقَعُ مِنْ هَامِ الرِّجَالِ بِمَشْرَبِ(١)

يعبر الشّاعر عن رد فعل قبيلته في حربها مع طيّء قرب المحجر، وما ألحقته برجالها من قتل وأسر، فأحدثوا الوجع والألم في قلوب طيّء فأخذوا يضربونهم بسيوف حرى متعطشة فارتوت بدمائهم.

وكان القتل والفقر اللذان نجما عن الوقائع والحروب، أصبحا الآن من الأمور الطبيعية التي اعتاد عليها الإنسان الجاهليّ يقول عمرو بن كلثوم:

مَعَاذَ الإلهِ أَنْ تَنوحَ نِسَاؤُنا ... على هَالِكٍ أَو أَنْ نَضِجَّ مِنَ القَتْلِ
فَما أَبْقَتِ الأَيَّامُ مِلْمالِ عِنْدَنا ... سِوَى جِذْمِ أَذوادٍ مُحَذَّفَةِ النَّسْلِ
ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ فَأَثْمانُ خَيْلِنا ... وَأَقْوَاتُنا وما نَسوقُ إلى القَتْلِ(٢)

يصور الشّاعر أحداث الحرب ونتائجها التي ذهبت بالمال، فلم تُبق شيئاً من المال سوى بقايا إبل، قطع الضرّ نسلها، وساء حالها ضعفاً وهزالاً، وقتلت الرجال الذين كانوا يحمون ذمار القبيلة.

---

(١) طفيل الغنوي- شعره، ص ١٤. التحوب: التوجع. أبأنا: حملنا. المكلب: المكبل.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٥٤-٥٥. الجذم: الأصل. مخلافة: مقطوعة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتجسد صبر القبيلة وتجلدها على الملمات ووقائع الدهر، في أن نساء القوم لم ينحن على ميت يقتل في الحرب فقد تعودن الثكل. والقبيلة لم تعد تتذمر من القتل، فرجالها لا يزالون مستعدين لملاقاة الفرسان في المعارك، وأموال القبيلة وزعت في ثلاثة مسارات: مسار لشراء الخيل؛ لأنهم فرسان ليسوا في غنى عن الحرب. وثان، خصص لأرزاقهم بما في ذلك ضيفانهم، وثالث، مخصص للديات، وما يترتب على ذلك من نفقات وهذا يدل على كياسة وحسن تدبير تصريف الأمور ومواجهة غوائل الأيام.

ومن المحن والويلات التي تركتها الحروب ما أصاب آل عبس، قوم عنترة من هزائم يقول عامر بن الطّفيل:

يَا رُبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ضَخْمِ الدَّسِيْعَةِ رَأْسِ حَيٍّ جَحْفَلِ
وَتَرَكْتُ نِسْوَتَهُ لَهُنَّ تَفَجُّعٌ يَنْدُبْنَهُ أُصُلاً بِنَوحٍ مُعْوِلِ
وَنَجا بِعَنْتَرة الأَغَرُّ مِنَ الرَّدَى يَهْوِي على عَجَلٍ هُوِيَّ الأَجْدَلِ
وَتَرَكْتُ عَبْلَةَ في السَّوَاءِ لِفِتْيَةٍ بَاتُوا على كُتُفِ الخُيُولِ الجُوَّلِ(١)

يشيد الشّاعر بانتصارات قومه على قادة عبس وفرسانها الذين سقطوا مجدلين في المعارك، وتركوا نساءهم معولات يندبنهم متفجعات عليهم. ويسخر الشّاعر بعنترة حين فر من المعركة خشية الردى، يهوي على فرسه؛ ليغيب عن أعين الناظرين. وفرار عنترة من المعركة، وتركه عبلة وبعض نساء القبيلة سبايا حرب، فذلك يعني تخاذل عنترة، وتخليه عن قيمة الشجاعة وحماية الأعراض. وهذا الإعلام العسكري الذي يستخدمه ابن الطفيل يريد به إضعاف شوكة عنترة بين قومه وبيان فشله في حماية القبيلة.

وكانت الحرب تطحن كل ما يكتنفها من أحداث، فتقتل الناس، وتبقي الديار بلاقع، يقول الفند الزِّمَّاني:

لَقِيَتْ تَغْلِبُ كِهِقْلَةِ عادٍ إذْ أتَاهُم هَوْلُ العَذابِ صَباحا
قَدْ تركْنا نِسَاءَهُم مُعْوِلاتٍ مُعْلِناتٍ معَ البُكَاءِ نَواحا
وَتَرَكْنَا أُصَيْبِياتٍ صِغاراً وَذَرارِيّ يحْتَسُون القَراحا

---

(١) عامر بن الطفيل- الديوان ص ٢٦١-٢٦٥. الأجدل: الصقر، السواء: الوسط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَتَركنا دِيارَ تَغْلِبَ قَفْراً وَكَسَرْنا مِنَ الغُوَاةِ الجَنَاحا[١]

يذكر الشّاعر ويلات الحروب التي أصابت قبيلة تغلب فقد لقيت دماراً أحاق بها، حتى تمنت أن تعيد أيام نصرها في حرب البسوس، فقتل ساداتها، وفر رجالها من المعركة، تاركين وراءهم أطفالاً صغاراً وصبايا ونساء معولات باكيات، وديارا خربة قفراء، لكثرة ما لحقها من دمار وهلاك.

وجعل الشّعراء نصر أقوامهم أمجاداً جلبت لهم العز على امتداد الزمان والمكان، فهذا سلامة بن جندل يفخر بالانتصارات التي حققتها قبيلته، فيقول:

فَعِزَّتُنا لَيْسَتْ بِشِعْبٍ بِحَرَّةٍ ولكنَّها بَحْرٌ بصَحْراءَ فَيْهَقِ
وَمَجْدُ مَعَدٍّ كانَ فَوْقَ عَلايَةٍ سَبَقْنا به إذ يَرْتَقُونَ وَنَرْتَقِي
إذا الهُنْدُوانِيَّاتُ كُنَّ عُصِيَّنا بها نَتَآيا كُلَّ شَأْنٍ وَمَفْرِقِ
نُجَلِّي مِصَاعاً بالسُّيُوفِ وُجُوهَنَا إذَا اعْتَفَرَتْ أَقْدَامُنا عِنْدَ مأْزِقِ[٢]

يجعل الشّاعر عزة قومه تنتشر عبر مكان واسع، ليس محصوراً في شعب ضيق. وأن تميماً نهضت بمجد معدّ، ورفعوا شأنه، وسبقوا به القبائل كلها، فكأنها تاهت به على العالمين.

والذي يساعد على بقاء هذا الشرف عاليا، هو ما حققته هذه القبيلة من انتصارات على أعدائهم يجادلونهم بالسيوف، ويضربونهم في مفارق رؤوسهم، ويصور الشّاعر فرسان قومه إذا اعتفرت أقدامهم بالدماء والغبار، فإن وجوههم بيضاء يزيدها لمعان السيوف إشراقاً.

وكان الفرار من الحرب عادة يأنفها العرب، ويعدون ذلك خزياً وعاراً يمنيه الإنسان لقبيلته، فهذا عمرو بن معد يكرب يبرر فراره من بني عبس لما لقيه من فتك وبسالة فيقول:

أَجَاعِلَةٌ أُمُّ الثُّوَيرِ خَزَايَةً عَلَيَّ فَرَارِي إذ لَقِيتُ بَنِي عَبْسِ
لَقِيتُ أَبا شَأْسٍ وَشَأْساً وَمَالِكا وَقَيْساً فَجَاشَتْ مِنْ لِقَائِهِم نَفْسِي

---

(١) الفند الزماني- شعره، ص ٧-٩.

(٢) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٨٠-١٨٣. الحرة: الأرض ذات الحجارة السود. فيهق: واسعة. نتآيا: نتعمد. الشأن: شعب الرأس. المصاع: المجالدة بالسيوف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَقُونا فَضَمُّوا جَانِبَيْنَا بِصَادِقٍ من الطَّعْنِ مِثْلِ النَّارِ في الحَطَبِ اليَبْسِ
ولما دَخَلْنا تَحْتَ فَيءِ رِمَاحِهم خَبَطْتُ بِكَفَّيَّ أَطْلُبُ الأَرْضَ باللَّمْسِ
وَلَيْسَ يُعَابُ المَرْءُ من جُبْنِ يَوْمِهِ إذا عُرِفَتْ منه الشَّجَاعَةُ بالأَمْسِ(١)

فزوج الشّاعر تعيّره بفراره من زهير بن جذيمة العبسي، وأولاد شأس ومالك وقيس الذين جعلتهم سيوف من كان في المعركة كالنار في الهشيم، فكانت رماحهم لكثرتها تظلل سماء المعركة، وهذا المنظر أدخل الروع في قلب الشّاعر، حتى صار يضرب كفا بكف، خوفاً وهلعاً يطلب الفرار. وقد يلتمس الشّاعر لنفسه عذراً يبرر فيه هزيمته، يتمثل في أن المرء لا يعاب إذا أخفق ذات يوم في مهمة، وقد عرف عنه بالأمس الشجاعة والبأس. ويعيب عمرو بن كلثوم على حجر بن أبي شمر الغساني بسبب هزيمته من المعركة، وتركه أخاه وابن عمه قتيلين فيها يقول:

هَلاَّ عَطَفْتَ على أُخَيِّكَ إذ دَعَا بالثُّكْلِ وَيْلَ أَبِيكَ يا ابْنَ أبي شَمِرْ
غَادَرْتَهُ مِزَعَ الرِّماحِ وأَسْهَلَتْ لَك وَرْدَةٌ كالسِّيدِ طَامِيَةُ الحَضْرْ
فَذُقِ الذي جَشَّمْتَ نَفْسَك فاحْتَسِبْ مِنْها أَخَاكَ وعَامِرَ بْنَ أَبِي حُجُرْ(٢)

فالشّاعر يوبخ حجراً، لأنه فرّ من المعركة، ولم يكن في قلبه أي عطف على أخيه الذي استنجد به ودعاه للدفاع عنه، فغادره والرماح قد خرقت جسمه، ومزقته. والشّاعر غير نادم على الجرح الذي أحدثه في قلب حجر، لأنه هو الذي جشم نفسه هذه المهالك، فعليه أن يكون حكيماً في تصريف الأمور، ويتخذ هذه الموقعة التي أنقذت أخاه وابن عمه عبرة له. والأبيات تشير كذلك، إلى حنان الأبوة، وما يشعر به الابن من حسرة الأب حين يفقد ولده.

وكانت المعارك الضارية، تلزم أحياناً كثيرة أشجع الفرسان، بالفرار منها فيتركون وراءهم النساء، وهن أغلى عرض الإنسان وشرفه. يقول في ذلك عامر بن الطّفيل يعير قيساً بقلة وفائه وعدم محافظته على ما يجب حمايته وحفظه:

وأَفْلَتَنَا علَى الحَوْمَانِ قَيْسٌ وأَسْلَمَ عِرْسَهُ ثُم اسْتَقَامَا
ولَو أسى حَلِيلَتَهُ للاقَى هُنَالِكَ من أَسِنَّتِنَا حِمَامَا(٣)

---

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١١٤-١١٥. جاشت: ارتاعت.

(٢) عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٣٩. الوردة: مؤنث الورد وهو من الخيول. طامية: شديدة.

(٣) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٣٤-١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصور الشّاعر عدوه قيساً بأنه رجل فاقد الهمة لأنه ترك زوجه وفر هارباً من المعركة. ولو حاول الدفاع عنها لخرقت جسمه الأسنة والرماح[١].

السبي والأسر

كان من أهم ما يحرص عليه الإنسان الجاهليّ في حروبه وغزواته، حماية الأعراض، فكان يرسم الخطط التي تكفل حفظها، لأن من أهم تقاليد الإنسان الجاهليّ، حماية الذمار، يقول بشر بن أبي خازم:

إذا ما الحَرْبُ أَبْدَتْ نَاجِذَيْهَا ... غَداةَ الرَّوْعِ والْتَقَتِ الجُمُوعُ
بِنَا عِنْدَ الحَفِيظَةِ كيْفَ نَحْمِي ... إذا ما شَفَّها الأَمْرُ الفَظِيعُ
عَقَائِلَنَا وَنَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا ... بِكُلِّ مُهَنَّدٍ صَافٍ صَنِيعُ[٢]

فإن قوم الشّاعر يفكرون بالتخطيط لحماية محارمهم، ونسائهم الكريمات، ومن يلوذ بهم من ذوي القربى، أو ممن يكون في جوارهم يوم أن تكشف الحرب عن نابها. وهذا يعكس القيم التي يتصف بها الإنسان الجاهليّ، وكل ذلك ينطلق من مجموعة المبادىء التي تربى عليها إنسان ذلك العصر ونشأ في كنفها، ونجد أن السلاح وحده لا شيء غيره هو الأداة التي تستخدم لحماية الذمار.

واستخدم الشّعراء في أيام الحروب والغزوات وسائل إعلامية بهدف طمأنة الجيش من أن محارم القبيلة مصونة محفوظة حتى لا يبقى ذهن المقاتل مشغولاً بهموم النساء والأعراض، يقول عروة بن الورد:

أَبْلِغْ لَدَيْكَ عَامراً إنْ لَقِيتَها ... فَقَدْ بَلَغَتْ دارُ الحِفَاظِ قَرَارَهَا
رَحَلنا منَ الأَجْبَالِ أَجْبَالِ طَيِّءٍ ... نَسُوقُ النِّساءَ عُوذَها وَعِشَارَهَا[٣]

---

(١) انظر نتائج الحروب عند: طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٠٤. دريد بن الصمة- الديوان، ص ١٠٣. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ١٤-١٥. الأعشى- الديوان، ص ١٨١. بشامة بن الغدير- شعره، ص ٢٢٠. خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٣٥-٣٦. قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٤٢-١٤٤. مالك بن خالد- ديوان الهذليين، ج٣، ص٨. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٤٢. عنترة- الديوان، ص ٢٠٧، ٣٠٢-٣٠٣. قيس بن زهير- شعره، ص ٢٩. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦٤-٦٥. السموأل- الديوان، ص ٧٦. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص١٠٨. عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٦١. تابط شراً- شعره، ص ١١٤.

(٢) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٣٤. الناجذ: أقصى الأضراس. بنا: أي سائل بنا. الصنيع: السيف.

(٣) عروة بن الورد- الديوان، ص ٨٦-٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر يبلغ عامراً رسالة مؤداها أن القوم رحلوا عن جبال طيء حيث يقيمون، وقد اصطحبوا النساء الحوامل، والمرضعات، وقد علمن أن لا رجوع إلى الديار إلا بعد أن تستقر الأحوال وتضع الحرب أوزارها. وكان هذا الإجراء يرمي إلى صون الأعراض من أي أذى.

والحديث عن أهمية الأعراض وصونها في منظور القيم العربية، يقودنا إلى ملاحظة موقف الإنسان الجاهليّ من النساء السبايا، والوقوف على أشكال التعامل يقول طفيل الغنوي:

بَنِي جَعْفَرٍ لا تَكْفُرُوا حُسْنَ سَعْيِنَا ... وأَثْنُوا بِحُسْنِ القولِ في كُلِّ مَحْفِلِ
ولا تكْفُروا في النَّائِبَاتِ بَلاءَنَا ... إذَا مَسَّكُمْ مِنْها العَدُوُّ بِكَلْكَلِ
رَدَدْنَا السَّبايا منْ نُفَيْلٍ وَجَعْفَرٍ ... وهُنَّ حَبَالى منْ مُخِفٍّ وَمُثْقِلِ(١)

يطلب الشّاعر من بني جعفر أن يثنوا على قومه في مجالسهم ولا يجحدوا عليهم أفعالهم، لأنهم نصروهم في الملمات والنوائب، وكان ذلك، أنهم ردوا سبايا قبيلتي نفيل وجعفر، مخفّات، وحبالى مثقلات، فحفظوهن من كل ضرّ و. وهذا يعني أن مبدأ المحافظة على الأعراض اتخذ شكلاً من أشكال القيم الإنسانية في المجتمع الجاهليّ.

وإذا كان النص السابق يشير إلى المحافظة على سبايا الحرب، وصونهن من كل أذى ومكروه، فيعكس ذلك صورة إيجابية يكبر بها الإنسان الجاهليّ للمحافظة على منظومة القيم الخلقية، فإننا نجد نصوصاً شعرية تعكس صورة سلبية تغاير مفهوم القيم، يقول عامر بن الطّفيل:

وَلَمْ أَرَ قَوْماً يَرْفَعُونَ لِوَاءَهُمْ ... لِغَايتِنَا في المَجْدِ مِمَّنْ تَكَلَّمَا
وَنَحْنُ صَبَحْنَا حَيَّ أَسْمَاءَ بالقَنَا ... وَنَحْنُ تَرَكْنَا حَيَّ مُرَّةَ مَأْتَما
بَقَرْنا الحَبَالَى من شَنُوءَةَ بَعْدَما ... خَبَطْنَ بِفَيْفِ الرِّيح نَهْداً وخَثْعَما
ونَحْنُ صَبَحْنَا حَيَّ نَجْرَانَ غَارَة ... تُبِيلُ حَبَالاهَا مَخَافَتَنَا دَمَا(٢)

---

(١) طفيل الغنوي- شعره، ص ٣٧-٣٨. الكلكل: الصدر.

(٢) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٢٢٠-٢٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينفي الشّاعر، أن يكون قد رأى في زمانه قوماً يحملون لواء المجد مثل ما حمله قومه، فقد بلغوا غاية في المجد والشرف، فهم الذين داهموا بني فزارة ومرة ابن عوف بالقنا والرماح، فتركوا بيوتهم، مآتم حزن وغم، وكانوا لشدة بأسهم، قد بقروا بطون النساء الحوامل، من قبائل شنوءة، ونهد، وخثعم، وأخرجوا ما فيها من أجنة، وهم الذين فاجأوا نجران بغارة، كانت النسوة لشدة هولها قد بلن دماً، خوفاً ورعباً.

ولو حاولنا البحث في النص السابق عن مجموعة القيم بين الأطراف المتنازعة، خاصة في مجال حماية الأعراض، والمحافظة على النساء، فإننا لا نكاد نجد إلا النادر منها فكان همّ كل قبيلة أن تقضي على الأخرى رجالاً ونساءً. فالمبدأ إذن هو طمس الحضور الإنساني لتحقيق السيادة وبسط النفوذ.

وقد تفيدنا بعض النصوص الشعرية المتعلقة بالسبي والأسر، أن الحرب، تنزع من القلوب كل ما يتعلق بالعطف والقيم الإنسانية. انظر إلى قول عمرو بن معد يكرب في معاملة قومه لنساء العدو السبايا:

فَلَمْ نَقْتُل شِرَارهُم ولكنْ قَتَلنا الصَّالِحين ذَوِي السِّلاحِ
قَتَلْنا مُطْعِمَ الأَضْيَافِ منهم وأَصْحَابَ الكَرِيهةِ والصَّبَاحِ
فَأَثْكَلْنا الحَلِيلَةَ من بَنِيها وَخلَّيْنا الخَرِيدَةَ لِلنِّكاحِ[1]

يقدم الشّاعر صورة بشعة لويلات الحروب، ونتائجها، فيلحق المهزومين ذل ما بعده ذل، وعار مستديم، وهذه الصورة، تتمثل، في أن قوم الشّاعر يقتلون من عدوهم فرسانهم الشجعان، أصحاب الكر والفر في الغزوات، ويقتلون كرامهم وساداتهم المطعمي الطعام أصحاب القرى والأضياف، ثم يثكلون الأمهات فيقتلون الشباب، ويأخذون الأبكار من الفتيات، للمتعة واللهو.

ولعل هذه الصورة تمثل أكثر ألوان الذل الذي يلحق بالقبيلة لا تجبر الأيام كسره، وفي ظني أن هذا اللون من القتل والدمار، يمثل تجسيداً كاملاً للجرائم البشرية، وثلماً في أخلاق الإنسان الجاهلي الذي يدعي النخوة والإباء؛ لأن الحرب، يلزم أن تأخذ بعداً إنسانياً يتمثل في المحافظة على الأسرى والسبايا، خاصة وأن

---

(١) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوم تبادل الأسرى، كان عرفاً من الأعراف العسكرية القديمة اتخذته البشرية إرثاً تاريخياً لها[١].

ويأتي الأسر، مرحلة أخيرة في الحروب، شأنه شأن سبي النساء والغنائم، فقد راح الشّعراء يصفون حالات الأسر ومعاملة الأسرى، وطرق التعامل بين القبائل بشأن فك قيدهم، أو الفداء بهم.

وفي الشعر الجاهليّ، إشارات واضحة إلى ذلك وكانت القبائل ينهى بعضها بعضاً عن الانجراف إلى الحرب، تجنباً لسفك الدماء، وحفاظاً على الأرواح، يقول الفند الزِّمَّاني:

وَنَهَيْنَا عن حَرْبِنَا تَغْلِبَ العَشْـ ـوَ فما عافَتِ البَلاءَ المُتاحا
فَقَتَلْنا بِوَارِدَاتٍ رِجَالاً إِذْ بَدَا كَاتِمُ الضَّمِيرِ فَبَاحَا[٢]

يدعو الشّاعر بني تغلب أن تكف عن الحرب، ويعبر عن رغبة قبيلته في حقن الدماء، والجنوح إلى السلم، ولكن رفضها قد جرّها إلى حرب تجرع ويلاتها القتلى والأسرى.

ومن يطلع على الشعر الجاهليّ، فقد يلاحظ أن الحروب كانت تركز على أن تنال من زعماء القبائل، وذوي المكارم منهم، يقول عامر بن الطّفيل:

وَيَوْمَ الشِّعْبِ لاَقَيْنَا لَقِيْطًا كَسَوْنَا رأْسَهُ عَضْباً حُسَامَا
أَسَرْنَا حَاجِبًا فَثَوى أَسِيراً وَلَمْ نَتْرُكْ لأُسْرَتِهِ سَوَامَا[٣]

يشير الشّاعر، إلى يوم شعب جبلة، حيث قتل فيه لقيط بن زرارة، وأسر أخوه حاجب، فتركوا قومهم يسومون بلا راعٍ يسوس أحوالهم، ويثبت كيانهم، وفي ذلك إذلال للقبيلة، وتشتت لوحدتها. وقد يكون لهذا دلالة سياسية ترمي إلى إخضاع القبائل تحت هزائم الحروب، لتسود القبائل المنتصرة، وتبسط نفوذها على

---

(١) انظر معاملات السبايا عند: بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٩. النابغة الذبياني- الديوان، ص ٩٢. ابن الأسلت- الديوان، ص ٩١. الفند الزماني- شعره، ص ١٣. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٩٦-٩٧. ١٢٨-١٣٤.

(٢) الفند الزِّمَّاني- شعره، ص ٧.

(٣) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٣٨-١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رقعة واسعة من الممتلكات وما يثبت ذلك أن الحروب بين القبائل المتناحرة، لم تكن تقبل المهادنة في أحيان كثيرة، ولعل شدة القتل الذي أشار إليه الشّاعر حين كسا رؤوس أعدائه بنصال سيوف عصية.

وفي الشعر الجاهليّ ما يشير إلى أحوال أسرى الحرب، وكيفية معاملتهم، يقول لبيد بن ربيعة:

وعانٍ فَكَكْتُ الكَبْلَ عَنْهُ وسُدْفَةٍ ... سَرَيْتُ وأَصْحَابِي هَدَيْتُ بِكَوْكَبِ
سَرَيْتُ بهم حتَّى تَغَيَّبَ نَجْمُهم ... وَقَال النَّعُوسُ: نَوَّرَ الصُّبْحُ فَاذْهَبِ
فَلَمْ أُسْدِ ما أَرْعَى وَتَبْلٍ رَدَدْتُهُ ... وَأَنْجَحْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِنْ خَيْرِ مَطْلَبِ(١)

ينطلق الشّاعر من مبدأ عقدي، يتمثل في أنه يستعين بالله تعالى لإنجاز أي عمل يقوم به، وهذا المبدأ، يشكل له نواة الاعتقاد بوحدانية الله، فهو يقدم على العمل الصالح من الأمور، يعتق الأسير، لوجه الله، فيفك قيده، ويسير بأصحابه ليلاً يهتدي بنجوم السماء ليهديهم إلى حيث يريدون، حتى إذا تنفس الصبح، طلب إليه النعوس أن يعود إلى حيث كان.

ومن الأسرى من كانوا يطلبون فك إسارهم، فيستنجدون بأهل الشفاعة، يبعثون الرسائل إليهم وهم في سجونهم، يضمنونها شكواهم، و أحوالهم. من ذلك ما جاء في رسالة عديّ بن زيد إلى أهله يطلب فيها أن يشفعوا له عند النعمان بفك قيده، يقول:

يَا أَبَا مُسْهِرٍ فَأَبْلِغْ رَسُولاً ... إِخْوَتي إنْ أَتَيْتَ صَحْنَ العِراقِ
أَبْلِغَا عامِراً وأَبْلِغْ أَخَاهُ ... أَنَّني مُوثَقٌ شَدِيدٌ وِثَاقِي
في حَديدِ القِسْطاس يَرْقُبُني الحَا ... رِسُ والمَرْءُ كُلَّ شَيْءٍ يُلاَقِي
فاركَبُوا في الحَرامِ فُكّوا أخاكُمْ ... إنَّ عِيراً قَدْ جُهِّزَتْ لانْطِلاقِ(٢)

يبلغ الشّاعر إخوته رسالة، بوساطة أبي مسهر الذي يبدو أنه حاجب، يرجوهم، أن يسرعوا إلى نجدة أخيهم الذي مضى عليه دهر طويل، وقد شد وثاقه

---

(١) لبيد بن ربيعة- الديوان، ص ٩. العاني: الأسير. الكبل: الغل. السدفة: الظلمة. لم أسد: لم أهمله.

(٢) عدي بن زيد- الديوان، ص ١٥١. القسطاس: القبان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقيداً بسلاسل الحديد. يرثي لهم بؤس حاله، فيشكو غربة الدار والوطن، وآلام الأسر وهمومه.

ويطلب إلى إخوته أن يأتوا النعمان في الشهر الحرام الذي له حرمته الدينية فيمنع فيه القصاص ويحرم فيه القتل، ويسمح فيه بالشفاعة، وعدي حين يشكو حاله، فهو يخشى على نفسه، من أن يوقع النعمان به عقوبة قد تصل إلى الموت.

فقد كان يسود الجزيرة في أثناء الحروب سلم تنزيهاً للأشهر الحرم "فكان ذلك مما يساعد على وقف الحرب، وكسر حدة العداوة بين الجاهليين مرتين في كل عام"(١)، "وكانت العرب تحرم أربعة أشهر من السنة، كما كان بأيديهم من إرث إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكانت توالى عليهم ثلاثة أشهر: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، فيطول عليهم أن لا يغزوا ولا يحاربوا، وكان لهم نسأة من بني كنانة تؤخر المحرم عاماً وترده عاماً"(٢).

وهذا ابن الأسلت، يأسر مخلداً، ثم يعفو عنه، محتسبا ذلك عملاً صالحاً ينتفع به عند الله تعالى، يقول:

أَسَرْتُ مُخَلَّداً فَعَفَوْتُ عنهُ ... وَعِنْدَ اللَّهِ صَالِحُ ما أَتَيْتُ
مُزَيْنَةُ عِنْدَهُ وَيَهُودُ قَوْرَى ... وَقَوْمِي كُلُّ ذَلِكُمَ كَفَيْتُ(٣)

ويبدو أن عفو الشّاعر، لم يقتصر على مخلد وحده وإنما امتد إلى مزينة، ويهود قورى فكفاهم جميعاً عمله الصالح، والسياسة التي نهجها الإنسان الجاهليّ في فك قيد الأسرى وإطلاق سراحهم يعمل على نشر الطمأنينة والأمن بين الناس، إضافة إلى نشر المحبة والمودة، وإلى إيجاد مجتمع متكافل تجمعه عوامل الألفة.

ولم يكن الإنسان الجاهليّ يخشى أن يكون الأسير زعيم قبيلة أو شاعراً، فهذا زيد الخيل، يخاطب الحطيئة وكعب بن زهير، بعد أن أسرهما زيد، ثم حبسهما ثم أطلقهما بعد فداية منهما، يقول:

أَقُولُ لِعَبْدي جَرْوَلٍ إِذْ أَسَرْتُهُ ... أَبِشْني وَلا يَغْرُرْكَ أَنَّكَ شَاعِرُ

---

(١) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٨٥.

(٢) ابن سلام الجمحي- طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٧٣-٧٤.

(٣) ابن الأسلت- الديوان، ص ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَنا الفارِسُ الحَامِي الحَقِيقَةَ والَّذي لَهُ المَكْرُمَاتُ واللُّهَى والمآثِرُ[١]

فزيد الخيل لا يرى أسر شاعر من قبيلة أخرى، يشكل عليه خطراً فيخشى هجاءه، أو سطوة لسانه فيما بعد، فهو عالي الهمة، لا يهاب أحداً، لأنه سيد قومه حامي ذمارهم يسوسهم بحسن تدبيره، وسابق مكرماته.

وأخذ الشّعراء على بعض زعماء القبائل ممن لهم أسرى حرب عند أعدائهم، ولم يفدوهم بالمال، وعدّوا ذلك عاراً عليهم، يقول شريح بن الأحوص يعيّر لقيط بن زرارة، سيد بني تميم في امتناعه عن فدية أخيه معبد الذي أسره بنو عامر يوم رحرحان الثاني:

لَقِيطُ وأَنْتَ امرؤٌ ماجِدٌ ولكنَّ حِلْمَكَ لا يَهْتَدي
وَلَمَّا أَمِنْتَ وَسَاغَ الشَّرَا بُ واحْتَلَّ بينَكَ في ثَهْمَدِ
رَفَعْتَ بِرِجْلَيْكَ فَوْقَ الفِرَا شِ تُهدِي القَصائِدَ في مَعْبَدِ
وَأَسْلَمْتَهُ عِنْدَ جِدِّ القِتال وَتَبْخَلُ بالمالِ أَنْ تَفْتَدي[٢]

إن أسلوب الاستهزاء بائن في الأبيات، فالشّاعر يسخر من لقيط الذي يعد نفسه زعيم بني تميم، ولكن حلمه لم يهده إلى طريق الخير، فيفتدي يوم جدّ الوغى أخاه معبداً الذي أسرته بنو عامر، فقد أخذ يقول شعراً وهو مستلق على فراشه آمناً في بيته، وهذا السلوك، في رأي الشّاعر، يعبر عن أنانية صاحبه، وتنصله عن تحمل المسؤولية فهو ليس جديراً بأن تسند إليه الرياسة والزعامة في قومه.

وفي الشعر الجاهليّ، إشارات إلى السياسة التي كان العرب يستخدمونها إزاء الأسير حين يكون سيداً في قومه، فكان إطلاق الأسير من عامة الناس أيسر حالاً من إطلاق الأسير إذا كان زعيماً في قومه، يقول سلامة بن جندل:

وَأُمُّ بَجِيرٍ في تَمارُسِ بَيْنَنَا مَتَى تَأْتِها الأَنباءُ تَخْمِشْ وَتَحْلِقِ
تَرَكْنَا بَجِيراً حَيْثُ أَزْحَفَ جَدُّهُ وفينا فِراسٌ عَانِياً غَيْرَ مُطْلَقِ
وَلَوْلا سَوادُ اللَّيلِ ما آبَ عامِرٌ إلى جَعْفَرٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يُخَرَّقِ[٣]

---

(١) زيد الخيل- الديوان، ص ٥٤-٥٥. اللهى: واحدها اللهو: أي هو سيد قومه، له الأمر في أموالهم.

(٢) شريح بن الأحوص- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٧١

(٣) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٧٧-١٧٨. التمارس: المقاتلة في الحرب. أزحف جده: أي: أعيا حظه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشير الشّاعر إلى تفاوت الطبقات الاجتماعية في الظروف الحربية، فالزعيم الأسير الذي لا يفتديه قومه، فإنه يلقى حياة البؤس والشقاء أما الأسير الذي يكون من عامة الناس، ولا يفتديه قومه بالمال الكثير، لهوان شأنه، فإن سراحه يطلق من غير مقابل.

ولعل هذا التفريق بين مستوى النمطين من الأسرى، يصل بنا إلى معرفة السياسة التي كان المجتمع الجاهليّ يعتمدها بشأن الأسرى، وهذه السياسة تتركز على زعيم القوم بصفة أساسية؛ لأنه هو الذي يرسم سياسة دولته، ويحدد مسارها هذا فضلاً عن المردود الاقتصادي والمكانة الاجتماعية التي تحصل عليها القبيلة، حين يكون معظم أسراها من زعماء القوم وساداتهم.

ونجد أن أبيات النص تشير إلى أن ما أحدثته الحروب، تكاد تنحصر في زعماء صعصعة الذين منهم عامر، فالمعركة أدت إلى مقتل بحير بن عبد الله بن سلمة القشيري الذي قتل في يوم المروت وإلى وقوع أخيه فراس أسيراً.

ويصور الشّاعر، مظهراً اجتماعياً، يتمثل في أن المرأة إذا بلغها نبأ قتل ابنها فإنها تقوم بحلق شعرها، وتخميش وجهها بأظافرها، وكانت النساء، يفعلن ذلك في المآتم، ثم ينبىء الشّاعر عن هول المعركة، حين يشير إلى عامر بن صعصعة سالماً لأن ظلام الليل هو الذي شفع له ذنبه.

وقد تعرض المجتمع العربي في العصر الجاهليّ إلى أسلوب الرهائن، أحد أنماط السياسة التي اتبعتها الفرس آنذاك، فكان كسرى قد طلب من قبيلة بكر بن وائل أن يسلموا حلقة النعمان، ويقدموا مائة غلام يكونون رهناً بما يحدث سفهاؤهم في السواد، وخيّرهم كسرى بين ذلك، وبين الجلاء عن أرضهم، أو القتال، فاختاروا القتال، وتزعمهم في هذا اليوم، حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي الذي عرف من ذلك اليوم بمقطع الوضن، والوضين: الحزام، سمي بذلك لأنه قطع وضن الإبل التي تحمل النساء حتى لا يفر المقاتلة، وحتى يعرف الواحد منهم أنه إن هرب لم تستطع امرأته أن تفر معه[1] وعلى أثر ذلك، يقول الأعشى مهدداً كسرى:

مَنْ مُبْلِغٌ كِسْرَى إذا مَا جَاءَه ... عَنِّي مَآلِكَ مُخْمِشَاتٍ شُرَّدَا

أَلَيْتُ لا نُعْطيه من أبنائنا ... رُهناً فَيُفسِدُهُمْ كَمَنْ قَدْ أَفْسَدَا

(١) الأعشى- الديوان، انظر، ص ٢٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حَتَّى يُفيدَك مِنْ بَنيه رَهينةً نَعْشٌ وَيرْهَنَكَ السِّماكُ الفَرْقَدا[1]

يشن الأعشى هجوماً إعلامياً على كسرى، عن طريق خطابه الشعري الذي انتشر في أوساط بلاد العرب، وبلاد فارس، وهذا الخطاب ينم عن رفض قبيلة بكر تسليم كسرى مائة من أبنائها رهائن، مقابل حصول كسرى على حلقة النعمان، لأنهم سيقتلون كما قتل إخوانهم من قبلهم، ولكي يؤكد الشّاعر احتمالة ذلك فقد ربط شرط الرهائن بحصوله على رهائن من بنات نعش لاستحالة تحقيق هذا الغرض.

وقد كانت بعض القبائل في المجتمع العربي، تنظم وفوداً إلى الملوك، تطلب منهم فك قيود الأسرى، من ذلك ما قاله الأعشى:

فَخَلَّصَهُ الَّذي وافَاهُ مِنَّا وَكُنَّا الوَفْدَ إذْ حُبِسَ الوُفُودُ
فَلَمْ نَطْلُبْ لَهُ شُكْراً ولَكِنْ نُوَلِّي حَمْدَ ذلِكَ مَنْ يُرِيدُ[2]

يريد الأعشى أن يبين موقفه الإنساني، إزاء الأسرى، فقد نسب لنفسه المروءة وحسن الفعل في فك الأسير الذي أمضى وقتاً طويلاً في قيده حتى أضناه الوجع والهم، وفي الوقت الذي ترد فيه وفود الناس الآخرين فلا تقبل لهم شفاعة بأسير أو سجين، فإننا نفد على الملوك، فيشفعون لأسرانا ونخلصهم من هموم الأسر.

وقد يكون للغة الحوار التي يعنيها الشّعراء، يستشفعون بها لدى الحكام والملوك، لفك قيد الأسرى، وجه حضاري، ينبثق عن دستور حياتي يسمح بحرية التعبير، وسياسة المواجهة. وبغير ذلك لن يكون الأعشى أو غيره قادراً على مواجهة الحاكم ومحاورته في أمور تتعلق بمشكلات الإنسان، وبشؤونه الحياتية.

وهذه اللغة الحوارية، جعلت الشّعراء قادرين على التعبير عن مواجدهم، وما هم فيه من شكوى، و حال. وإلا فكيف يجرؤ عديّ بن زيد العبادي على مخاطبة النعمان يطلب الشفاعة منه، فيقول:

أَلا مَنْ مُبْلِغُ النُّعْمانَ عَنِّي وَقَدْ تُهْدَى النَّصِيحَةُ بالمَغيبِ
أَحَظّي كانَ سِلْسِلَةً وقَيْدا وغُلّاً والبَيانُ لَدَى الطَّبيبِ

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٢٦٥-٢٦٧.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٣٦٣. وافاه: أدركه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمَا لي نَاصِرٌ إلاَّ نِسَاءٌ أَرامِلُ قَدْ هَلَكْنَ مِنَ النَّحِيبِ
يُحَدِّرْنَ الدُّموعَ على عَديٍّ كَشَنٍّ خانَهُ خَرَزُ الرَّبِيبِ
يُحاذِرْنَ الوُشاةَ على عَديٍّ وما قَرَفُوا عليه منَ الذُّنوبِ(١)

يبحث الشّاعر عن إنسان تتوافر فيه شروط الأمانة، فيبلغ النعمان نصيحة من الشّاعر، ترمي إلى فك أسره. وقد ساءه وأحزنه، أن يزج في السجن مكبلاً بالسلاسل والقيود الحديدية، والذين وشوا به مقربون مكرمون عند النعمان.

ويشكو الشّاعر حاله، فقد طال حبسه، فأثر ذلك على أحوال بيته المعاشية والاقتصادية، وما ترك وراءه سوى أرامل يذرفن دموعاً غزيرة حزناً عليه يخشين الوشاة أن يعودوا، فيلفقوا على عدي الأقاويل فيقسو عليه قلب النعمان ويتركه أمداً طويلاً في السجن.

"وكان الشاعر الجاهلي يتذكر أهله وموطنهم أيام بعده عنهم، ولا تهدأ له نفس إلا بلقائهم، فكيف حاله حين يكون أسيراً؟ إن غربة الأسر تكون هنا عاملاً لغربة البعد عن الأهل والوطن، إن غربته هذه ستؤجج نار الغربة الأولى، فهو يذكر أهله ويتصور حزنهم عليه"(٢).

وترمي الأبيات إلى بعض العيوب الاجتماعية، فقد ترتكب حماقات، تؤدي إلى الإخلال بالمجتمع، وتفكك أفراده، في حال غياب أولي الأمر، نتيجة وشاية من عدو، أو تقول من حاسد، فينشأ عن ذلك خلل في نظام المجتمع.

وكان للشعر الموجه إلى الملوك، الذي ترقى ألفاظه، إلى سمو المعنى، وإلى القيم الإنسانية، دور كبير في فك إسار الرهائن المكبلين بالسلاسل الحديدية. وقد نجح الشّعراء في هذا النوع من الإعلام الموجّه، وخير مثال على ذلك، ما قاله دريد بن الصمة، يخير بني الديان في رد الحقوق والأسرى عن طريق المال، أو ما عهد عنهم من فضل ونعم على أوس يقول دريد بن الصمة:

بَني الدَّيَّانِ رُدُّوا مالَ جَارِي وأَسْرَى في كُبولِهُم الثِّقَالِ
وَرُدُّوا السَّبْيَ إنْ شِئْتُمْ بِمَنٍّ وإنْ شِئْتُمْ مُفَادَاةً بمَالِ

---

(١) عدي بن زيد- الديوان، ص ٤٠. الشن: القربة الخلق الصغيرة. الربيب: المصلح.

(٢) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٧٥-١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَأَنْتُمْ أَهْلُ عَائِدةٍ وَفَضْلٍ وَأَيْدٍ في مَوَاهِبِكُمْ طِوَالِ
مَتَى ما تَمْنَعوا شَيْئاً فَلَيْسَتْ حَبَائِلُ أَخْذِهِ غَيْرَ السُؤَالِ
وجارَتُكُمْ بَني الدَيَّان بَسْلٌ وَجَارُكُمُ يُعَدُّ مَعَ العِيالِ(١)

فهذا الخطاب الذي يتميز بدهاء سياسي، وبصيرة ثاقبة ومرونة في الحوار الهادف، يفضي في نهاية الأمر إلى الحصول على مطالبه التي أفصح عنها في البداية، وهي رد حال جاره، والأسرى المقيدين، والسبايا، وأن الشّاعر سيعترف بجميل بني الديان، وبمعروفهم الذي يسجل لهم في تاريخ المجتمع الجاهليّ.

ويستخدم بعض الشّعراء أسلوب الوعيد والتهديد لمن يأسر قوماً، أو يسبي نساء. من ذلك ما قاله زهير بن أبي سلمى، يتوعد الحارث بن ورقاء بالهجاء، إذا لم يفك أسر عبده يسار:

أُرُدْ يَسَاراً ولا تَعنُفْ عليهِ وَلا تَمَعكْ بِعِرْضِكَ إنَّ الغَادِرَ المَعِكُ
وَلَا تكُونَنْ كأقْوامٍ عَلِمْتُهمُ يَلْوُون ما عِنْدَهُم حتَّى إذَا نُهِكُوا
لَئِنْ حَلَلْتَ بِجَوٍّ في بَني أَسَدٍ في دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
لَيأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَذَعٌ باقٍ كَما دَنَّسَ القُبطِيَّةَ الوَدَكُ(٢)

ينصح الشّاعر، الحارث بن ورقاء، أن يرد عبده يساراً، دون أن يتعمد أسلوب المماطلة؛ لأن المماطلة تلحق أذى كبيرا في عرضه. وقد نهاه عن أن يدخل نفسه في شيء لا يرضاه، فأينما يحل في أرض، فإنه لن يكون بعيدا من هجاء زهير الذي يملأ الآفاق ويجري على أفواه الرواة، ويبقى طويلاً مع الدهر، فيكون إنساناً ملوثاً كما يلوث الثوب القبطي الأبيض بالدسم، فأنت يا حارث لن تفلت مني حتى لو باعدت بك الأمصار والأيام، وأصبحت في أمن تعيش في حماية عمرو بن هند.

ومن الغرابة أن يكون شاعر مثل زيد الخيل، يقع أسيراً في بني أسد رهط امرىء القيس، ويطالبهم برد الأسرى، والأولاد، والنساء، يقول زيد الخيل في ذلك:

بَنِي أَسَدٍ رُدُّوا عَلَيْنَا نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنا واسْتَمتعوا بالأَبَاعِرِ

---

(١) دريد بن الصمة- الديوان، ص ٩٧.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٨٨-٨٩. المعك: المطل. يلوون: يمطلون. نُهكوا: شتموا. فدك: اسم أرض. القبطية: ثياب بيض.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالمال إنَّ المالَ أهْوَنُ هَالِكٍ إذا طَرَقَتْ إحْدَى اللَّيَالي الغَوَابِرِ
ولا تَجْعَلوُها سُنَّةً يَقْتَدي بِها بَنُو أَسَدٍ واعْفُوا بأَيْدٍ قَوَادِرِ(١)

يحرص الشّاعر على أن يحتفظ برجال القبيلة كلهم، من غير أن يفرط بواحد منهم، وهذا مبدأ، يقوم على تقوية دعائم القبيلة، وعلى وحدتها الاجتماعية. والشّاعر، يعرض على بني أسد قبولهم المال فداء للأسرى، والسبايا؛ لأنه رأى أن أهون شر على القبيلة، هو أن تقدم أموالها فداء لأبنائها وحفاظاً على عرضها وكرامتها، فكونوا أنتم بني أسد خير من يقدم المعروف دون أن تندموا على فعله، ولا تتخذوا الأسر والسبي سنة خاطئة لكم يقتدي بها بنو أسد فيقعوا في المهالك.

ولعل أفضل ما قدّم للملوك من مدح في سبيل فك الأسرى، جاء في شعر علقمة الفحل، حين رحل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، يمدحه ويطلب منه فك أسر أخيه شأس، يقول:

وَفي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِن نَداكَ ذَنُوبُ
وَما مِثْلُهُ في النَّاس إلا قَبِيلُهُ مُساوٍ ولا دانٍ لذَاكَ قَرِيبُ
فلا تَحْرِمَنِّي نائلاً عن جَنابَةٍ فإنِّي امْرُؤٌ وَسْطَ القِبابِ غَرِيبُ(٢)

فالشّاعر يخاطب الحارث بأن لك في كل مكان وموطن فضلاً ومعروفاً، وما من أحد أفلت من نعمك، وليكن لأخي شأس دلو من بين الدّلاء التي طالت الناس جميعاً ولم يكن ملك في الدنيا يدنو مما أنت فيه من كرم وفضل وشرف، فإني جئت إليك من بلاد بعيدة، قطعت الفيافي والقفار، وتركت الأهل والوطن، فها أنذا غريب في ديارك، أطلب إليك فك إسار شأس. وتذكر الروايات أن الحارث حين سبى علقمة يقول فحق لشأس من نداك ذنوب. قال له: اختر بين الحباء الجزل وبين أسارى بني تميم(٣).

---

(١) زيد الخيل- الديوان، ص ٦٤-٦٥.

(٢) علقمة الفحل- الديوان، ص ٤٨.

(٣) وانظر الأسر والسبي عند: علقمة الفحل- الديوان، ص ١٠٣. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٩٠-٩١، ٢٦٨-٢٦٩. عدي بن زيد- الديوان، ص ٥٢. سلامة بن جندل- الديوان، ٢٠٤. المسيب بن علس- الديوان، ص ١٤٣. الأعشى- الديوان، ص ١٤٥-١٤٧. عامر بن مالك- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٦٩. الشنفرى- شعره، ص ٤٠-٤١. حاتم الطائي- الديوان، ص ٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأحلاف والعهود

كان أهل الجاهلية يغلب على حياتهم "التنازع والتقاتل والعداوة والثأر والتعاون على الإثم والعدوان، وظلم بعضهم بعضاً بتقديم مصلحة قبيلة وتقديم مصلحة الفرد على مصلحة القبيلة"[١]، وكان أمراً طبيعياً أن يحدث عن هذا التنازع بين عرب الجاهلية أحداث سياسية واضطرابات اجتماعية ينجم عنها الحروب وسفك الدماء، وقد وجد من بين هؤلاء قبائل ضعيفة لا تستطيع أن تحمي نفسها، فكانت تلجأ إلى قبائل قوية تحتمي بها أو تذود عنها.

"فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، وتنافس الناس في الماء والكلأ والتماسهم المعاش في المتسع وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوي الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم، وانتشر كل قوم فيما يليهم"[٢].

وقد يكون بين هذه القبائل انفصال لتنضم إلى أحلاف أخرى أو قبائل لم تدخل في أحلاف ولذلك سميت باسم جمرات العرب[٣].

وإزاء هذه الأحداث السياسية والاجتماعية التي أوجبت العرب لعقد الأحلاف والمواثيق بينهم، فقد راح الشعراء يصورونها في ضوء الرؤى الإنسانية والاجتماعية لكل منهم، يقول خداش بن زهير:

فَأَيِّيْ وأيُّ ابنِ الحُصَيْنِ وعَثْعَثٍ ... إذا ما التَقَيْنَا كان بالحِلْفِ أَغْدَرَا
وَذَكَّرْتُهُ باللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... وما بَيْنَنَا من مُدَّةٍ لو تَذَكَّرا
وبالمَرْوَةِ البَيْضَاءِ يومَ تَبَالَةٍ ... ومَحْبَسَةِ النُّعْمَانِ حَيْثُ تَنَصَّرا[٤]

يلوم الشّاعر عثعث الخثعمي لعهد كان بينهما، فغدر به، وتساؤل الشّاعر، يثير غرابة الفعل الذي صدر عن الخثعمي، لأن العهد الذي أبرم بينهما، كان في دور

---

(١) عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم، ص ٤١.

(٢) البكري- معجم ما استعجم، ج ١ (المقدمة)، ص ٥٣. وانظر كذلك: ابن رشيق- العمدة، ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، انظر: ص ٥٨، وانظر في جمرات العرب: القيرواني- زهر الأدب، ج ١، ص ٥٥، والجاحظ- الحيوان، ج ٥، ص ١٢٣.

(٤) خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبادة تقام فيها طقوس دينية، يذكر فيها اسم الله تعالى، والمكان الذي تنصر فيه النعمان مكان مقدس، والخروج عليها مخالفة للدين والمعتقد.

وقد اتخذ مفهوم العهود والمواثيق بعداً اجتماعيا لدى بعض شعراء الجاهليّة ولعل هذا المنحى يعزز مبدأ ثقة الإنسان بنفسه وإبراز دوره في حضوره الاجتماعي يقول ربيعة بن مقروم:

وَيَحِقُّ في أَمْوَالِنَا لِحَلِيفِنَا حَقّاً يَبُوءُ به وإنْ لم يَسْأَلِ[١]

يريد الشاعر أن يعزز قيمة الحليف ودوره في بناء المجتمع، حين يكسب ثقة الآخرين واهتمامهم، يعزز الروابط الإنسانية بين المجتمعات.

فالشاعر شديد الفخر بقبيلته التي تعلي من قيمة الحليف وتعزز دوره في بناء المجتمع، وتقوية دعائم القبيلة "وكانت القبيلة التي تدخل في حلف يصبح لها في أحلافها كل الحقوق، فهم ينصرونها على أعدائها"[٢].

وراح بعض الشّعراء يذكر قيمة الإنسان الذي يتخذه صديقاً آخر له، أو نديما، فربما يجده في الملمات والمحن، يقول زهير بن أبي سلمى:

إلى مَعشرٍ لم يُورِثِ اللُّؤمَ جَدُّهم أَصاغِرَهُم وكُلُّ فَحْلٍ لهُ نَجلُ
إذَا فَزِعُوا طارُوا إلى مُسْتَغِيثِهم طِوالَ الرِّماحِ لا ضِعافٌ ولا عُزْلُ[٣]

يصف الشّاعر معشراً في مكان خارج إطار قومه وقبيلته بأنهم ذوو أنساب كريمة انحدروا من أباء عريقة في الكرم فقد نادمهم واتخذهم أصدقاء، لأنهم يسرعون إلى نصرة من يستغيث بهم. وهذا تطبيق لمبدأ الأحلاف التي تسعى إليها القبائل "طلباً للأمن ودفعاً للعدوان وإيثاراً للعافية"[٤].

والشّاعر حين تجاوز البعد المكاني الذي يعيش فيه بين قومه وقبيلته ممثلاً بالوطن أو الحمى إلى مكان آخر من بلاد العرب، فإنه يشير إلى أن العناصر الإنسانية الأصيلة منتشرة في معظم بقاع الجزيرة العربية.

---

(١) ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٣٥.

(٢) شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص ٥٨.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٣٣-٣٤.

(٤) عفيف عبد الرحمن- الشعر وأيام العرب، ص ٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت بعض القبائل تنقض العهود والأحلاف، في أوقات الحرب، من ذلك، ما قاله تأبّط شراً حين حالفت عدوان رهطاً من كلب:

بَصُرْتُ بنارٍ شِمْتُها حين أُوقِدَتْ ... تَلُوحُ لنا بَيْنَ الرُّتَيلَةِ فالهَضْبِ
لَقَدْ أَطْلَقَتْ كَلْبٌ إليكُم عُهودَكُمْ ... وَلَسْتُم إلى سَلْمَى بأفْقَرَ مِنْ كَلْبِ
وهم أَسْلَمُوكُمْ يَوْمَ نَعْفِ مُرامِرٍ ... وقد شَمَّرَتْ عن سَاقِها جُمْرَةُ الحَرْبِ[1]

يشير الشّاعر إلى قبيلة كلب التي نقضت عهدها مع بني عدوان، ثم يذكرهم بأن قبيلة سلمى، ليست أكثر وفاء في عهودها من قبيلة كلب التي نكثت عهدها يوم وقعة نعف مرامر. ويبدو أن نقض العهود كان يعتمد لغة إشارية تتمثل في إبقاء النيران مشتعلة، فالشّاعر حين نظر النار بين الرتيلة والهضب عرف أن قبيلة كلب نقضت عهدها.

وهذه النار التي أشار إليها تأبط شراً هي ما تسمى بنار التحالف، فقد كان العرب "إذا أرادوا الحلف أوقدوا ناراً، وعقدوا حلفهم عندها، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ويحل العقد، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا للحالف: هذه النار تهددك، فإن كان مبطلاً نكل وإن كان بريئاً حلف، ولهذا سموها أيضاً نار المهول، وإنما خصوها لأنها لا ينتفع بها من بين أنواع الحيوان غير الإنسان"[2].

وقد ينبثق عن الالتزام بالعهود والمواثيق، تقوية الروابط الاجتماعية بين الناس وتعزيز مبدأ الأمانة والوفاء. يقول النابغة الذّبياني حين أعان بني أسد على بني عبس:

وَقَدْ نَصَرْتُ بَنِي دُودَانَ إذْ نُشِدُوا ... حِلْفِي وَلَو نُشِدُوا بالحِلْفِ ما غَدَرُوا
أَبْلَيْتُهُم خُلُقاً أَثْنَوْا بِأَحْسَنِهِ ... إنَّ الكِرَامَ إذَا أَبْلَيْتَهُمْ شَكَرُوا
مَا زَالَ حُسْنَايَ تَأْتِيهِمْ وَتَنْأَشُهُمْ ... حَتَّى شَفَوْا كُلَّ داءٍ عِرْقُهُ غَبِرُ[3]

---

(١) تأبط شراً- شعره، ص ٧٦.

(٢) الآلوسي- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ١٦٢. وانظر: الجاحظ- الحيوان، ج ٤، ص ٤٧٠-٤٧٢.

(٣) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٩٢-١٩٣. تنأشهم: تنعشهم. الغبر: الجرح الذي يبرأ أعلاه دون أسفله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد يتنامي اعتزاز الشّاعر لنصرته بني دودان الذين استنشدوه حلفه فحالفهم ولم يغدروا به، فقابلوه بإحسان وثناء أكثر مما قدم، وهذا فعل كرام الناس، ولا يزال هذا القوم تلهج ألسنتهم بالمعروف الذي تنتعش له قلوبهم كلما ذكروه.

والأحلاف من منظور الإنسان الجاهليّ حرز منيع يجب صونه واحترامه، فهو ذمة وعهد، يقطعه الإنسان على نفسه، تحكمه قيم ومبادىء كونية وعقدية. ودفاع الحليف عن حليفه من أهم القيم التي يرتكز عليها مفهوم العهود والأحلاف، والإنسان الجاهليّ تتملكه أنفة المحافظة على حليفه.

وعبر بعض شعراء الجاهليّة عن مدى محافظتهم على حليفهم، فهو عزيز مكرم، لا يلحقه أذى ما دام في حماهم يقول عبيد بن الأبرص:

وَلَرُبَّ سَيِّدِ مَعْشَرٍ ضَخْمِ الدَّسيعَةِ قَدْ رَمَيْنَا
إِنَّا لَعَمْرُكَ لا يُضَا مُ حَلِيفُنا أَبَداً لَدَيْنا[1]

تشير الأبيات إلى مكانة الحليف في ضمير القبيلة، وقد تمثل ذلك في موقف قبيلة الشّاعر حين أبدت استعدادها إلى محاربة سادات القبائل التي ترفع لهم رايات الزعامة، حماية للحليف من أن يضام أو يهان، فمن السهل أن تفرط القبيلة بإساءة العلاقة مع القبائل الأخرى لأجل أن تحمي حليفها، وتحافظ عليه.

وكانت القبائل العربية تدخل الحروب نصراً لأحلافهم ودفاعاً عن المال والنفس والسبي ضد المغيرين، أو تنافس على شرف أو رئاسة، أو بسبب التشاجر على الماء والكلأ[2].

ووجدت طائفة من المجتمع الجاهليّ، لا تأمن حلفاءها، وقد يرتبط ذلك، بهدف عقدي كما جاء في قول عبد الله بن الزبعرى حين أسلم عبد الله بن طلحة، وخالد بن الوليد بعد الخندق:

أَنْشُدُ عُثْمَانَ بنَ طَلْحَةَ حِلْفَنَا ومُلْقَى نِعَالِ القَوْمِ عِنْدَ المُقَبَّلِ
وما عَقَدَ الآباءُ مِنْ كُلِّ حِلْفَةٍ وما خَالِدٌ مِنْ مِثْلِها بِمُحَلَّلِ

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٣٨.

(٢) محمد عثمان علي- في أدب ما قبل الإسلام، انظر: ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَمِفْتَاحَ بَيْتٍ غَيْرَ بَيْتِكَ تَبْتَغي وما يُبْتَغى من مَجْدِ بَيْتٍ مُؤَثَّلِ
فَلا تأْمَنَنَّ خالِداً بَعْدَ هذهِ وعُثْمانُ جَاءَ بالدُّهَيْمِ المُعَضَّلِ(١)

فالأحلاف الذين عناهم الشاعر هم: مخزوم وعدي وسهم وجمح وعبد الدار وسموا أحلافاً لجزور نحروه فدافوا دمه في جفنه فمسوه بأيديهم ولعقوا منه وسموا الأحلاف ولعقة الدم"(٢).

والشّاعر يشير إلى ذلك الحلف ولا يأمن جانب عثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد، لأنهما جاءا بداهية شديدة، فلا بد أن ينقضا عهدهما مع الشّاعر، بسبب إسلامهما.

وقد تتجه أطراف النزاع المتقاتلة إلى وقف القتال عن طريق اتفاقات متبادلة، فردية كانت، أو جماعية، وهذه الظاهرة، تفسر لنا عمق الرؤية الاجتماعية للإنسان الجاهليّ، من ذلك ما قاله زيد الخيل في عامر بن الطّفيل، بعد وقعة بينهما، فجنح عامر إلى السلم بعد أن أحس بدنو أجله، يقول زيد الخيل:

وَعَامِرُ بنُ طُفَيلٍ قَدْ نَحَوْتُ له صَدْرَ القَنَاةِ بِماضِي الحَدِّ مُطَّرِدِ
لَمَّا أَحَسَّ بأَنَّ الوِرْدَ مُدرِكُهُ وَصَارِمًا وَرَبِيطَ الجَأْشِ ذا لَبَدِ
نَادَى إِليَّ بِسَلْمٍ بَعْدَما أَخَذَتْ مِنْهُ المَنِيَّةُ بالحَيْزُومِ واللُّغُدِ(٣)

يصور الشّاعر، عامر بن الطّفيل، وقد أحس بفرس زيد أنه مدركه، وزيد سدد له رمحاً غليظة مستقيمة، وسيفاً صقيلاً، وبعد أن شعر بدنو أجله، كان دعا زيداً إلى السّلم، ولو أنه تجلد لزيد وراوغه في الاقتتال، لكان زيد قد ضربه بطعنة يوقدها ناراً وسعيراً، ولكنه، كما تقول الرواية، استأنس وجز ناصيته، وأخذ رمحه(٤).

---

(١) عبد الله بن الزبعرى- شعره، ص ٤٤. المقبل: موضع تقبيل الحجر الأسود. الدهيم: من أسماء الداهية. المعضل: الشديد.

(٢) ابن رشيق- العمدة، ج ٢، ص ١٩٤. وانظر كذلك: شوقي ضيف - العصر الجاهلي، ص٥٨، عبد الله بن الزبعرى- الديوان، (الهامش) ص ٤٤، الجاحظ- الحيوان، ج ٤، ص ٤٧٠.

(٣) زيد الخيل- الديوان، ص ٥٠-٥١. نحا: تحرف ليطعن. المطرد: الرمح المستقيم. الورد: فرس زيد الخيل، ذو اللبد: الأسد. الحيزوم: الصدر.

(٤) زيد الخيل- الديوان، انظر القصة، ص ٤٩-٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأساليب الخداع، من السياسات العسكرية التي يستخدمها الإنسان المحارب في كل زمان ومكان، فقد صور الشّعراء بعض القبائل التي جنحت للسلم والصلح حال شعورها بالهزيمة، ثم أعرضت عن ذلك، حين أحست بأن الحرب قد تحولت لصالحهم، يقول أبو زبيد الطائي يصور الحوار الذي جرى بين قومه، ومعشر من شيبان:

هَلْ عَلِمْتُم مِن مَعْشَرٍ سَافَهُونَا ثُمَّ عَاشُوا صَفْحاً ذَوي غُلْوَاءِ
بَعَثُوا حَرْبَنَا إلَيْهِم وَكَانُوا في مَقَامٍ لَوْ أَبْصَرُوا وَرَخَاءِ
ثُمَّ لَمَّا تَشَذَّرَتْ وأَنَافَتْ وَتَصَلُّوا مِنْها كَرِيهَ الصِّلاءِ
طَلَبُوا صُلْحَنا وَلَاتَ أَوَانٍ فأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ(١)

يصف الشّاعر رزانة قومه، ورجاحة حلومهم، حين أعرضوا صفحاً عن نفر من شيبان ذهبت بهم سفاهتهم للنيل من قوم الشّاعر فتركوهم وشأنهم يعيشون في مرح وحرية، لأنهم يعرفون أن رماح قوم الشاعر، تصل إلى كل من يدعي أنه بعيد عنها.

وهذا النفر من شيبان، حين رأوا أنفسهم أنهم في حرية من أمرهم، ظنوا أنهم مهيبو الجانب لا يقدر أحد عليهم، فتناسوا منزلة قبيلة الشّاعر العسكرية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وعرفوا أنهم صلوا بنارها، جنحوا إلى الصلح.

وكان من نتائج الحروب الطاحنة بين القبائل العربية إحلال الصلح محل الحروب الدامية، يقول أمية بن أبي الصلت، يتحدث عن الصلح الذي تم بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس التي دامت سنوات طويلة:

أَلَا قُلْ لِلقَبائِلِ إنَّ بَكْراً وتَغْلِبَ بَعْدَ حَرْبِهِمُ سِنِينا
أَطاعُوا اللّه في صِلَةٍ وَعَطْفٍ وأَضْحَوْا إِخْوَةً مُتَجاوِرِينَا(٢)

---

(١) أبو زبيد الطائي- شعره، ص ٣٠. صفحا: إعراضا. الغلواء: النشاط. تشذرت: لما رفعت الحرب ذنبها. أنافت: ارتفعت.

(٢) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه القبائل عادت إلى حلومها بعد حرب ضروس، امتدت زهاء أربعين سنة حتى هداهم الله تعالى طائعين، فسادت بينهم مودة ورحمة، كأن لم تكن بينهم إحن ومصائب من قبل، ثم أصلحوا أمرهم معلنين توحد الحال والمصير في السراء والضراء[١].

---

(١) وانظر صورة الأحلاف والعهود عند: الحارث بن حلزة- الديوان، ص ١٣، ٢١-٢٢. أوس بن حجر- الديوان، ص ٣٧، ١١٨، ١٢٠-١٢٠. المتلمس الضبعي- الديوان، ص ٢١٥-٢٢١. المثقب العبدي- الديوان، ص ١٧-٢٣. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٧. النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٧٨-١٧٩. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٦٦-٦٧. امرىء القيس- الديوان، ص ١٨٦. زيد الخيل- الديوان، ص ٥٠-٥١. المسيب بن علس- شعره، ص ٩٩. قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١١٦-١١٧. خداش بن زهير- أشعار العامريين الجاهليين، ص ٣٠، ٤١. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٨٨-٨٩. قيس بن زهير- شعره، ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السادس

العلاقات الاجتماعية

العلاقات الأسرية

كان الشّاعر الجاهليّ شديد الولاء لأسرته، متعصباً لأبيه وأمه فخوراً بهما يحاول أن يدحض أية صفة من شأنها أن تقلل من مكانتهما، أو أن تحط من قيمة حسبه ونسبه. وذو الإصبع العدوانيّ يترجم هذا الولاء في قوله:

عَنِّي إلَيْكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ تَرْعَى المَخَاضَ ولا رَأْيِي بِمَغْبُونِ
إنِّي أبيٌّ أَبِيٌّ ذُو مُحَافَظَةٍ وابْنُ أبيٍّ أبيٍّ مِنْ أَبِيِّينِ
عَفٌّ نَدُودٌ إذا ما خِفْتُ مِنْ بَلَدٍ هُوْناً فَلَسْتُ بِوقَّافٍ على الهُونِ[1]

فالشّاعر، شديد الغيرة على مكانة أمه الاجتماعية، ويحاول تبرئتها من أي عيب يحط من حسبها ونسبها فهي ليست ممتهنة كالنساء اللواتي كن يرعين الحوامل من النوق. ثم يؤكد صحة نسبه من التكرار الذي جاء في البيت الثاني، فهو شديد الكراهية للذل، نفور منه.

وهذا عبيد بن الأبرص يرسم صورة إنسانية لأبيه كريمة، فيقول:

لَعَمْرُك إنَّنِي لأُعِفُّ نَفْسِي وأَسْتُرُ بالتَّكَرُّمِ من خَصَاصِ
وأُكْرِمُ والِدي وأَصُونُ عِرْضِي وأَكْرَه أَنْ أُعَدَّ مِنَ الحِرَاصِ[2]

إن علاقة الأبوة بادية من خلال إصرار الشّاعر على قبول الفقر بنفس عفيفة صوناً لعرضه وإكراماً لوالده، في حين أنه يأبى على نفسه أن يكون واحداً من الناس الذين يحرصون على جمع المال وإيلائه الغاية والهدف فوق كل اعتبار.

---

(١) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص٩٣-٩٤. المخاض: الحوامل من الإبل. الندود: النفور.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وقد عبّر الشاعر العربي عن هذا الحب بمظاهره الشتى، فكان حب الشاعر لولده، وحب الشاعر لأخيه، وحب الشاعر لآبائه وحب الشاعر لنفسه، وحب الشاعر للمرأة، وحب الشاعر لله"(١)، وهذه كلها نوازع عقلية عاطفية يدركها الإنسان من خلال معرفته بشؤون الحياة المختلفة.

وهذه صورة إنسانية تترجم علاقة الآباء بالأبناء، لنعلم من خلالها إلى أي مدى كانت علاقة الأبوة أو الأمومة في مجتمع ما قبل الإسلام، يقول أميّة بن أبي الصّلت يخاطب ابنه:

غَذَوْتُك مَوْلُوداً وعُلْتُك يَافِعاً ... تُعَلُّ بما أُدنِي عَلَيْكَ وتَنْهَلُ
إذا لَيْلَةٌ نَابَتْك بالشَّكْوِ لم أبِتْ ... لِشَكْوَاكَ إلا سَاهِراً أتَمَلْمَلُ
كأنّي أنَا المَطْرُوق دُونَك بالذِي ... طُرِقَتْ به دُونِي وعَيْنِي تَهْمُلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وإنَّها ... لَتَعْلَمُ أنَّ المَوْتَ حَتْمٌ مُؤَجَّلُ(٢)

فقد عني الشّاعر عناية فائقة بتربية ابنه بأن احتضنه زمناً طويلاً وأنفق عليه طفلاً وشاباً، وهذا إشارة إلى أن الإنسان الجاهليّ كان شديد التمسك بأبنائه، فيؤرقه النومُ سهراً على ابنه إذا ما شكا علة أو مرضاً، حتى لكأن الشّاعر نفسه بات يعاني من هذا المرض بكل ما يتراءى للأب من مشاعر الحرص على الأبناء.

"والواقع أن الشاعر الجاهلي لم يكن يصور مشاعره الفردية الخاصة في تلك الرؤيا، وإنما كان يعيش مشاعر الآخرين من خلال ذاته أو مشاعره من خلال وعيه بمشاعر الآخرين"(٣).

لكن هذه الرعاية التي أولاها الأب لابنه قوبلت بالجفوة والعقوق، فقلب الابن لأبيه ظهر المجن، فانقطع الأمل وخاب الرجاء، انظر إلى أمية وهو يقول:

فَلَمَّا بلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ التي ... إلَيْهَا مَدَى ما كُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فَلَيْتَك إذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أبُوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المُجَاوِرُ يَفْعَلُ(٤)

(١) ثريا ملحس- القيم الروحية في الشعر العربي، ص ٨٧.

(٢) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص٤٣٠-٤٣١.

(٣) عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في النقد الشعري، ص ١٥٤.

(٤) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص٤٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمّة ظروف حياتية قاسية، ينبثق عنها، إيجاد علاقة متينة بين الأب والابن، وهذه العلاقة، تقوى أواصرها في حالة شعور الابن بالعزلة نتيجة اغتراب الأب أو سفره، ويبدو ذلك واضحاً في قول الأعشى يصف ابنته:

تَقُولُ بِنْتِي وقد قَرَّبْتُ مُرْتَحِلاً يا رَبِّ جنِّبْ أبي الأَوْصَابَ والوَجَعا
واسْتَشْفَعَتْ من سَرَاةِ الحيِّ ذَا شَرَفٍ فَقَدْ عَصَاها أَبُوها والذي شَفَعا
مَهْلاً بُنَيَّ فإنَّ المَرْءَ يَبْعَثُه هَمٌّ إذا خَالَطَ الحَيْزُومَ والضِّلَعَا(١)

إن العلاقة الحميمة بين الأب وابنته، تتجسد في ابتهال الابنة إلى الله تعالى أن يجنب أباها كل مرض و، وكم هي حريصة على أن تثني أباها عن السفر، فلجأت إلى سادة القوم الذين لم يذعن لهم، فأصر على سفره.

وقد أفصح الشّاعر عن رحلته بسبب ثقل الهموم التي يعانيها، ولا يسع الأعشى هنا إلا أن يبادل ابنته حباً بحب، محاولاً طمأنتها في أن الإنسان، لن يصيبه إلا ما كتب الله له:

عَلَيْكِ مِثْلُ الذي صَلَّيْتِ فاغْتَمِضِي نَوْماً فإنَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعاً(٢)

يحاول الشّاعر أن يزيل عن قلب ابنته هاجس الخوف والشكوك التي تغدو بها قلقة على أبيها، وهو في ديار الغربة، وهذا يشير إلى شدة الروابط الأسرية بين الآباء والأبناء، ثم يحاول الشّاعر الأب أن يجدد في نفس ابنته أمل أوبته من السفر، يقول لها:

واسْتَخْبِرِي قَافِلَ الرُّكْبَانِ وانْتَظِرِي أَوْبَ المُسَافِرِ إنْ رَيْثًا وإنْ سَرَعا
كُونِي كَمِثْلِ التي إذْ غَابَ وَافِدُها أَهْدَت له مِنْ بَعِيدٍ نَظْرَةً جَزِعاً
ولا تَكُونِي كَمَنْ لا يَرْتَجِي أَوْبَةً لِذِي اغْتِرَابٍ ولا يَرْجُو لَهُ رِجَعَا(٣)

فقد بلغ من حب ابنته له أن ترك في نفسها أمل العودة، وطلب إليها أن تستخبر أوبة المسافرين، إذا أحست أن أباها أطال المكث، ثم أمرها أن تكون متفائلة بعودته إليها لا متشائمة كمن لا يرجو أوبة مسافر.

---

(١) الأعشى- الديوان، ص١٣٧. الحيزوم: وسط الصدر.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ١٣٧.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالأب ليس في موضع النادم على الابن، بقدر ما يكون عاتباً عليه، وهو لا يترجم حادثة أو قصة واقعية بينه وبين ابنه بقدر ما يقدم للإنسانية هذا النموذج من البناء الاجتماعي الذي تمثل فيه حرص الشّاعر على تماسكه، ثم انهدم وتصدع نتيجة عقوق الابن. وحين يبدي الأب شيئاً من القبول في أن يعامله ابنه معاملة الجار، فيحسن إليه في طعامه وشرابه، فإن ذلك يعني بداية تفكك الأسرة الذي يقود إلى ضياع المجتمع وانهياره.

والشّاعر بعد ذلك شديد الألم، وهو يعاتب ابنه متظاهراً على أنه لا يزال قوي البنية لم تذهب به السن مذهب الشيخوخة فيكون عالة على غيره، يقول:

زَعَمْتَ بأَنّي قَدْ كَبِرْتُ وَعِبْتَنِي ... ولَمْ يَمْضِ لي في السِّنِّ سِتُّونَ كُمَّلُ
وسَمَّيْتَنِي باسْمِ المُفَنَّدِ رَأْيُهُ ... وفي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لو كُنْتَ تَعْقِلُ
تَرَاقِبُ مِنّي عَثْرَةً أَوْ تَنَالَها ... هَبِلْتَ وهَذا مِنْكَ رَأْيٌ مُضَلَّلُ[1]

فلا يزال الشّاعريضع موازنة بينه وبين ابنه فيبين فضله عليه، وهو لا يعد حق الرعاية فضلاً بل واجب محتم على الآباء في تربية الأبناء والقيام على شؤونهم. غير أن الشّاعر قلق لمصيره الذي بات يؤرقه، فالابن يتربص بأبيه لقاء خطأ أو زلة. واتهمه بالهرم والشيخوخة، فأعاب عليه سلوكه مدعياً أنه قد خرف ولمّا يبلغ الستين بعد. وفي ذلك تجن على الأب الذي يصف سلوك ابنه بأنه خارج عن حدود العقل والمنطق.

وإزاء ما لقيه الشاعر الأب من معاملة الابن إلا أنه "لم يكن يفر من بين ذاته ومجتمعه، لأنه لا يستطيع الانفصال عن هذا المجتمع حتى حين يكون وحيداً أو مشردا منه"[2]، وهذا يترجم لديه معرفة أثر السلوك الذاتي في الكشف عن الجوانب الشخصية للإنسان، وقد رأينا عند الشاعر أن "جوهر الشخصية ثابت لا يتغير، فالشخصية يطرأ عليها التغيير في عملية تحقق ذاتها، بيد أن ذاتيتها تظل ثابتة دون تحول"[3].

---

(١) أمية بن أبي الصلت-الديوان، ص٤٣١-٤٣٢. الفند: الخرف. هبلت: ثكلت.

(٢) عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في النقد الشعري، ص ١٥٤.

(٣) نيكولاس برديائيف- العزلة والمجتمع ص ١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس من الغريب أن نرى تبايناً في العلاقات الأسرية في المجتمع الجاهليّ فقد يكون اهتمام الأبوين، منصباً على واحد دون الآخر من بين الإخوة، وهذا التفضيل يتضح في شعر ضمرة بن ضمرة، معاتباً أمه التي كانت تفضل أخاه جُندُباً عليه، يقول:

يا جُنْدُبُ اخْبِرْنِي ولَسْتُ بِمُخْبِرِي ... وأَخُوكَ نَاصِحُكَ الذي لا يَكْذِبُ
هل في القَضِيَّةِ أنْ إذَا استَغْنَيْتُمُ ... وأَمِنْتُمُ فَأَنَا البَعِيدُ الأَجْنَبُ
وَإِذَا الشَّدَائِدُ بالشَّدَائِدِ مَرَّةً ... أَشْجَتْكُمُ فَأَنَا المُحِبُّ الأَقْرَبُ
وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةٌ أُدْعَى لَهَا ... وإِذَا يُحَاسُ الحِيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ
وَلِجُنْدُبٍ سَهْلُ البِلَادِ وَعَذْبُها ... ولِيَ المِلَاحُ وَخَبْتُهُنَّ المُجْدِبُ[1]

يرى الشّاعر نفسه بعيداً عن مودة أخيه وأمه معاً، وذلك واضح من خلال لغة الحوار التي أجراها مع أخيه جندب، والشّاعر لا يزال غريباً مستبعداً عن بيت المودة حتى إذا ما ألمت بأمه الشدائد يهب مسرعاً لنجدتها والدفاع عنها فحينذاك يكون هو المحبوب المقرب، وإذا كان في نفس أخ الشاعر شيء من نوازع الشر أو التنافس على مظهر من مظاهر الحياة، فذاك أمر من طباع البشر، لأن "الرغبة في السيطرة لاثبات الذات من الدوافع الإنسانية الشائعة"[2].

فالشّاعر يبدي رغبة في أن ينال مودة أخيه جندب، ليعرف مكانته في الأسرة وكأن نفسه تحدثه من خلال ممارسة العلاقات الأسرية، أنه يعامل معاملة الإنسان البعيد الذي لا صلة له بأهله، فلا يشعر بالوصل والقرابة، إلا وقت أن يقع أهله في ضائقة أو مكروه، لأنه خلص أهله من تلك الجائحة.

ومن هنا، يستدل على أن قيمة الإنسان في إطار الأسرة، تقوم على مدى الحب أو الكره الذي يكنه كبير الأسرة أباً كان أو أماً للأبناء، ولعل هذه الظاهرة الاجتماعية التي تنم عن تباين في العلاقة الشخصية على مستوى الأسرة تقوم على مبدأ الاستعداد النفسي في تقبّل الأشخاص أو رفضهم، في حين أن الشّاعر نفسه يحرم فيما يلاقيه من تحيز في التعامل بين الإخوان والأهل، يقول ضمره

---

(١) ضمرة بن ضمرة- شعره، ص١١٣. الحيس: التمر والأقط يدقان ويعجنان عجناً شديداً ثم يسوى ذلك كالثريد.

(٢) محمد عثمان نجاتي- علم النفس في حياتنا اليومية، ص ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضمن هذا التسلسل الزّمني في الأحداث:

عَجَبٌ لِتلْكَ قَضِيَّةً وَإِقَامَتِي فِيكُم عَلَى تِلْكَ القَضِيَّةِ أَعْجَبُ
هَذا وَجَدُّكُم الصَّغَارُ بِعَيْنِه لا أُمَّ لي إنْ كَانَ ذَاكَ ولَا أَبُ[١]

إن العجب الذي يعجب له الشّاعر، يتراءى له من الجو النفسي المضطرب الذي يعيشه بين أهله، حتى كأن إقامته بينهم أصبحت بلا معنى. وهذه العلاقة المحمومة مع أهله التي شكلت منه شخصاً غير مرغوب فيه، أحدث في نفس الشّاعر تساؤلاً غريباً، موءداه أن سلوك الأبوين إذا كان قد شابها شيء من التفرقة بين الأبناء، فهو الذل بعينه، وعلى الأبوين أن يتحملا تبعات ذلك. والشّاعر إزاء هذا الواقع قد يتجرد من أن ينتسب لأب أو لأم إن لم يكونا قادرين على إنصاف الأبناء.

"ولم يستطع الإنسان قط أن يخرج عن هذا النطاق الذي فرضه عليه وجوده نفسه ككائن يعيش في جماعة، ويخضع لظروف مادية خارجة عن إرادته، ولكنه استطاع فقط أن يعيش في صراع دائم مع هذا النطاق الاجتماعي والكوني"[٢]، فما أكثر ما يقوم القهر الاجتماعي بكبح أفعال البشر والالتواء بها من منازعها في نفوسهم تحت اسم الحياة تارة وتحت اسم الخوف تارة أخرى أو رغبة في الثواب تارة ثالثة[٣].

وحين نتلمّس صورة العزلة التي يعانيها الشّاعر الأب جراء ظلم الأهل بعامة فإنا نجد بالمقابل بعض الآباء في المجتمع الجاهليّ يفخرون بأنهم تركوا إرثاً كبيراً لأبنائهم من بعدهم، فيعززون بذلك مكانة أبنائهم خشية أن يلحقهم، ظلم أو جور، وهذا يبدو واضحاً في قول حاتم الطائي:

مَتَى يأْتِ يَوْماً وارِثِي يَبْتَغِي الفَتَى يَجِدْ جُمَعَ كَفٍّ غَيْرِ مِلء ولا صِفْرِ
يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ العِنَانِ وصَارِماً حُسَاماً إذا ما هُزَّ لَمْ يَرْضَ بالهَبْرِ
وأَسْمَرَ خَطِّياً كأَنَّ كُعُوبَهُ نَوَى القَسْبِ قد أَرْمَى ذِرَاعاً على العشْرِ[٤]

(١) ضمرة بن ضمرة- شعره، ص١١٤.

(٢) شكري عياد- البطل في الأدب والأساطير، ص ١٤٠.

(٣) نظمي لوقا- نحو مفهوم إنساني، ص ١٢٢.

(٤) حاتم الطائي- الديوان، ص ٤٦. جمع كف: أي مقدار ما يشمل عليه الكف من مال وغيره. العنان: سير اللجام. كعوبه: عقده. القسب: ضرب من الثمر غليظ النوى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد كان الإنسان الجاهليّ، على وعي، بضرورة تأمين وارثيه بالمال والسيف والركوبة، وهي أساسيات الحياة الجاهليّة وأهم مقوماتها، وفيما يبدو أن هذا النمط من الحياة، كان أمل الإنسان الجاهليّ، ذلك لأن طبيعة الحياة، كانت تفرض عليه أن يؤمن عيشه بالطعام والشراب، ويدافع عن نفسه بالسلاح، ويتخذ من الدواب أسفاراً له، فتغدو هذه الحاجات من مقومات وجوده.

ويأتي حنان الأم في المجتمع الجاهليّ مثلاً واقعياً على عمق الروابط الأسرية، انظر إلى إحساس الشّاعر، حين رأى أمه التي قامت بزيارته وهو في السجن وقد عبر عن ذلك عديّ بن زيد في قوله:

وَلَقَدْ سَاءَنِي زِيَارَةُ ذِي قُرْ ... بَى حَبِيبٍ لِوِدِّنا مُشْتَاقِ
سَاءَهُ ما بِنَا تَبَيَّنَ في الأَيـ ... ـدِي وإِشْنَاقُها إلى الأَعْنَاقِ
فَاذْهَبِي يا أُمَيْمُ غَيْرَ بَعِيدٍ ... لا يُوَاتِي العِنَاقُ مَنْ في الوِثَاقِ
واذهَبِي يا أُمَيْمُ إنْ يَشَأِ اللّـ ... ـهُ يُنَفِّسْ مِنْ أَزْمِ هذا الخِنَاقِ(١)

فالشّاعر، يصف المشاعر الإنسانية التي تتجلى عند أمه، حين زارته وهو في السجن، مكبّل اليدين، فيرى نفسه ضئيلاً مهاناً، وهذا يدل على نفس أبية تأبى الظلم في جميع أموره، وهو يحاول أن يبعد أمه عن وجه الزمان صوناً لمشاعرها، ويرجوها أن تكف عن زيارته، لأنه شعر أن في زيارتها إهانة لها، ثم يصور لها أن حياة الإنسان، معرّضة للمهالك والأقدار، وأنّ قدر الإنسان بين يدي الله، وهو بهذا يحاول أن يعزز الإيمان في قلب الأم فتقبل بمصير ابنها مرهوناً بإرادة الله فإما أن يزيل عنه هذا الكرب، أو أن يكون الموت مصيراً محتماً له.

وتتجسد علاقة الأم مع الابن لتشكل نفساً واحدة في قول أبي كبير الهذلي:

يَبْكِي خَلَاوَةُ أَنْ يُفَارِقَ أُمَّهُ ... ولَسَوْفَ يَلْقَاهَا لَدَى المُتَهَوَّمِ
أَخَلَاوَ إنَّ الدَّهْرَ مُهْلِكُ مَنْ تَرَى ... مِنْ ذِي بَنِينَ وأُمِّهِمْ ومِنِ ابْنَمِ(٢)

إن التخوف الذي يبديه خلاوة وهو ابن الشّاعر من مفارقة أمه، يدل على متانة الرابطة بين أفراد الأسرة، ويأتي دور الشّاعر فيبين لابنه أن الدهر قادر على قطع هذه العلاقة عن طريقة الموت والفناء.

---

(١) عديّ بن زيد- الديوان، ص ١٥٠-١٥١. الإشناق: أن تغل اليد إلى العنق.

(٢) أبو كبير الهذلي- ديوان الهذليين، ج ٢، ص ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما علاقة الأخوة في الأسرة الجاهليّة فهي متفاوتة في نظر الشّعراء بتفاوت الحياة الاجتماعية أو الدينية أو القبلية، فالإنسان ابن بيئته، وبذلك فإن العلاقات الأسرية ستكون انعكاساً لهذه البيئة، انظر إلى دريد بن الصّمة حين يفتدي أخاه بنفسه، فيقول:

وكُنْتُ كَذَاتِ البَوِّ رِيعَتْ فَأَقْبَلَت ... إلى جَلدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ
فطاعَنَتْ عنْهُ الخَيْلَ حَتَّى تَنَهْنَهَتْ ... وحتَّى عَلاَنِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَد
فَمَا رِمْتُ حَتَّى خَرْقَتْنِي رِمَاحُهُم ... وَغُودِرْتُ أَكْبُو في القَنَا المتَقَصِّدِ(١)

يعبر الشّاعر عن مدى ارتباطه بأخيه، ويكشف عن طبيعة الحزن الذي أصابه جراء تعرّض أخيه للخطر، وقد بلغ من حب الشّاعر لأخيه، أن جسمه تخرّق لكثرة قتاله دفاعاً عنه، وتظهر علاقته الحميمة بأخيه من تصويره نفسه كالناقة التي فقدت ولدها، فجيء لها بالبوشبيهاً فغدت تحنو عليه. وقد تكون ظروف الحياة الاجتماعية هي التي تفرض على أبناء الأسرة الواحدة حتمية العلاقة الوطيدة، فالشّاعر هنا شديد الحاجة إلى إنسان يرافقه في درب حياته، وقد يعز على الإنسان الجاهليّ أن يهجر الأخ أخاه مضطراً بفعل الدهر، فكثير من الشّعراء عبروا عن ذلك في شعرهم. انظر إلى تميم بن مقبل وهو يقول:

تَذَكَّرْتُ إخْوَانِي الذينَ هَجَرْتُهُم ... كأَنْ لَمْ يَكُنْ شَكْلِي لَهُمْ مَرَّةً شَكْلا
هَجَرْتُهُم مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ ولَا قِلًى ... ولَكِنَّ مَرَّ الدَّهْرِ كانَ لَهُمْ شُغْلَا(٢)

فالبعد المكاني بين الشّاعر وإخوته، جاء نتيجة حركة الزمان الذي يعيش فيه الإنسان، إذ ليس من الغريب أن تكون علاقات الناس في مجتمع الشّاعر، سبباً في البعد عن الأهل والوطن. ويعزو الشّاعر سبب الهجرة والتباعد بين الإخوان إلى ظروف الحياة الاجتماعية والمعاشية، فما من إنسان يهجر أهله عن رغبة منه، بل يكون مكرهاً على ذلك، فالناس لا يعيشون فرادى، بل هم أعضاء في إطارات جماعية أو قوالب لها روحها وأحكامها وقيودها وأوضاعها(٣).

---

(١) دريد بن الصمة- الديوان، ص٤٨. المسك: الجلد. السقب: الذكر من أولاد الإبل. المتقصد: المتكسر.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص٢٠٢.

(٣) نظمي لوقا- نحو مفهوم إنساني، ص ١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعض الشّعراء أبدى رأيه حول علاقة الأخوان فقال أوس بن حجر:

وَلَيْسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ العَهْدِ بالذِي يذُمُّكَ إنْ وَلَّى ويُرْضِيكَ مُقْبِلاً
ولَكِنْ أَخُوكَ النَّائِي ما دُمْتَ آمِناً وصَاحِبُكَ الأَدْنَى إذَا الأَمْرُ أَعْضَلَا(١)

يرسم الشّاعر صورة للروابط الأخوية، فيعطي قيمة إنسانية كريمة لمن يقيم علاقة الود والاحترام مع الأخرين، وهو بذلك يقدر الرجال الثوابت على موقف موحد لا تغيرهم الأحداث.

وتبدو خبرة الشّاعر بطبيعة مجتمعه واضحة من ألوان التعامل، فهو يركز على عمق الأواصر الإنسانية حين تترجم إلى واقع ملموس فالصاحب عند الشدائد والملمات وليس عند تبادل المنافع الشخصية.

وبعض الشّعراء يعتقد أن الأخ الحقيقي، هو الذي يناصر أخاه في السراء والضراء، وتبدو هذه الصورة عند ربيعة بن مقروم في قوله:

أَخُوكَ أَخُوكَ مَنْ يَدْنُو وتَرْجُو مَوَدَّتَهُ وإن دُعِيَ اسْتَجَابَا
إذا حَارَبْتَ حَارَبَ مَنْ تُعَادِي وزَادَ سِلَاحَهُ مِنْكَ اقْتِرَابا(٢)

فقد يكون مجتمع الشّاعر، من ذلك القوم الذي يؤمن بمقولة: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وقد ترى علاقة الإخوة في نظر الشّاعر مرهونة بمقدار التعصب خيراً أو شراً، تسيطر عليه روح القبيلة والجماعة.

ويصل الأمر بالإنسان الجاهليّ لشدة ارتباطه بأخيه، إلى أن يحرم على نفسه ملذات الحياة، تحسراً على فراق الإخوان، ونجد هذه النزعة الإنسانية الحميمة عند تأبّط شرّاً الذي يقول بعد أن بلغه مقتل أخيه:

وَحُرِّمَتِ النِّسَاءُ وإنْ أُحِلَّتْ بِشَوْرٍ أو بِمَزْجٍ أو لِصَابِ
حَيَاتِي أو أَزُورَ بَنِي عُثَيْرٍ وكَاهِلها بِجَمْعٍ ذي ضَبَابِ
أَظُنِّي مَيِّتاً كَمَداً ولما أُطَالِعْ طَلْعَةَ أَهْلَ الكرابِ(٣)

---

(١) أوس بن حجر- الديوان، ص٩٢.

(٢) ربيعة بن مقروم- الديوان، ص١٤.

(٣) تأبط شراً- شعره، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كانت الروابط الأخوية سبباً في إحداث تغيير في حياة الشاعر الاجتماعية، فهو لأجل أخيه، يحرم نفسه من النساء، والشّاعر حين أزاح عن نفسه متع الحياة وملذاتها، ليعبِّر بصدق عن مدى تحسّره على فقده أخاه، إنما يعني ذلك، انتفاء صفة الأنانية وبرهاناً على أنه لا يعيش لذاته فقط بل يعيش لغيره.

ومهما بلغت العلاقة بين الإخوان حداً من الجفاء والبعد، فإن قرابة الدم، هي التي تعمل على تقوية هذه العلاقة. وقد تصل العلاقة بين الإخوان أحياناً، حداً من العبث، مشوباً بالأمل الذي يفترضه الشّاعر بأخيه. ومن ذلك قول ابن الأسلت:

أَبْلِغْ أَبَا حِصْنٍ وَبَعْـ ضُ القَوْلِ عِنْدِي ذُو كِبَارَه
أَنَّ ابْنَ أُمِّ المَرْءِ لَيـ سَ مِنَ الحَدِيدِ ولا الحِجَارَه
ماذَا عَلَيْكُم أَنْ يَكُـ ونَ لكُمْ بها رَحلاً عِمَارَه
يَحْمِي ذَمَارَكُمْ وَبَعْـ ضُ القَوْمِ لا يَحْمِي ذَمَارَه(١)

فإذا نظرت إلى مناسبة الأبيات، وجدت ابن الأسلت يوجه خطابه إلى أخيه أبي حصن الذي لامه على فراره من الخزرج، والشّاعر، لا يريد أن يقابل اللوم بمثله، بل يريد أن يبين لأخيه، أنه رجل يسعى لحماية القبيلة بما يعود عليها بالنفع والفائدة، وأن الإنسان قوي ضعيف يتأثر بمتغيرات الحياة فليس هو من الحديد أو الحجارة بشيء.

ومن الشّعراء من كان يشيد بالصفات الحميدة التي يتحلى بها إخوانهم فهذا دريد بن الصمّة يذكر فضل أخيه، فيقول فيه:

تَنَادَوا فَقَالُوا أَرْدَتِ الخَيْلَ فَارِساً فَقُلْتُ أَعَبْدُ اللَّهِ ذَلِكُم الرَّدِي
فَإِنْ يَكُ عَبْدَ اللَّهِ خَلَّى مَكَانَهُ فما كَانَ وَقَّافاً ولاَ طَائِشَ اليَدِ(٢)

يشكل المدح محوراً لحديث الشّاعر الذي يجعل شخصية أخيه عبد الله إنساناً تركن إليه الأمور وقت الشدائد، فهو فارس يتجلد أمام الصعاب، غير برم بها.

---

(١) ابن الأسلت- الديوان، ص٧٤. العمارة: الحي العظيم. ذمار الرجل: حمايته.

(٢) دريد بن الصمة- الديوان، ص٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقات أبناء العمومة

لا تكاد تتفق وجهات النظر بين أفراد المجتمع الواحد تبعاً لتفاوت الآراء والاتجاهات، والإنسان الجاهليّ كغيره من أبناء المجتمعات البشرية تختلف نظرته إلى ذوي قرابته، ولم ينس الشّعراء الجاهليّون أن يعبروا عن طبيعة مجتمعاتهم، وعن حاجة الإنسان إلى غيره، وبخاصة أبناء العمومة، فهذا عبيد بن الأبرص يعبر عن ذلك بقوله:

أَبَعْدَ بَنِي عَمِّي وَرَهْطِي وإِخْوَتِي ... أُرَجِّي لَيَانَ العَيْشِ ضلاً بتَضْلَالِ
فَلَسْتُ وإنْ أَضْحَوْا مَضَوْا لِسَبِيلِهِم ... بِنَاسِيهِمُ طُولَ الحَيَاةِ ولا سَالِي
أَلَا تَقِفَانِ اليَوْمَ قَبْلَ تَفَرُّقٍ ... ونأيٍ بَعِيدٍ واخْتِلافٍ وأَشْغَالِ(١)

فالشّاعر، لا يرى ضرورة لوجوده في غياب أبناء عمومته ورهطه، وكأن لا طعم للحياة في غيابهم، وهو يعد رخاء العيش نمطاً من الضلال إذا مارسه وحده بمعزل عن بني قومه، فنظرته إذن نظرة مجتمعية، لا نظرة فردية، يسعى لتحقيق وحدة الروح الجماعية فهو يرجوهم أن يجتمعوا قبل أن يفترقوا؛ لأن ثمّة صوارف تلهيهم وتشغلهم.

وكذلك الحال، فإن التحام أبناء العمومة تبدو ظاهرة اجتماعية ملحة في قول حاتم الطائي:

وأَغْفِرُ إنْ زَلَّتْ بِمَوْلَايَ نَعْلُه ... ولا خَيْرَ في المَوْلَى إذا كَان يُقْرِفُ
سَأَنْصُرُوَ إنْ كَانَ للحَقِّ تَابِعاً ... وإنْ جَار لم يُكْثِر عَلَيَّ التَّعَطُّفُ
وإن ظَلَمُوه قُمْتُ بالسَّيْفِ دُونَهُ ... لِأَنْصُرَهُ إنَّ الضَّعِيفَ يؤنَّفُ(٢)

لعل هذه الأبيات، ترينا نوع التعايش الاجتماعي الذي كان قائماً في المجتمع الجاهليّ على شيء من العدل والاستقامة، فالشّاعر لا يساوره قلق على ابن عمه ما دام مجانباً الصواب والحق، في حين، أنه لم يعطف عليه إذا حاد عن ذلك، لأن الشرع الاجتماعي السائد ينطلق من مبدأ نصرة المظلوم قريباً كان أو بعيداً، وكان الشّاعر يعد نصرة الضعيف واجباً اجتماعياً محتوماً لإزالة ما لحقه من إكراه وذل.

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص١١٣.

(٢) حاتم الطائي- الديوان، ص٧١. أقرفه: ذكره بسوء. يؤنف: يضرب على أنفه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن بين هذه العلاقة الاجتماعية يتبين لنا أن "الإنسان الذي شعر باجتماعياته وهو يمر عبر مراحل الحياة الطويلة، عرف مقدار التآلف، وأحس بحالات الاطمئنان وعرف أن الرغبة في ديمومة المسيرة الإنسانية تفرض عليه أن يتصرف وفق السلوك الاجتماعي المطلوب باعتباره واحداً من الأسرة الكبيرة"(١)، ويرى رجال علم الاجتماع أن الأثر الاجتماعي يكون ويشكل إلى حد كبير الفرد حتى ولو كان هذا الفرد العبقري المفرط العبقرية ،في حين أن أتباع النزعة الفردية يرون أن الأثر الاجتماعي لا يزيد عن أن يكون عامل إفساد وتشويه"(٢).

ولعل طبيعة الحياة الاجتماعية تلزم في كثير من الأحيان أبناء القبيلة على التماسك كما ورد في أبيات عبيد بن الأبرص، وحاتم الطائي السابقة. غير أنّ هذه الصورة المجتمعية المتماسكة، تختلف في بنيتها لدى كثير من الشّعراء الجاهليّين انظر إلى الأعشى وهو يقول:

بَنِي عَمِّنا لا تَبْعَثُوا الحَرْبَ بَيْنَنَا ... كَرَدِّ رَجِيعِ الرَّفْضِ وارْمُوا إلى السِّلْمِ
وكُونُوا كَمَا كُنَّا نَكُونُ وحَافِظُوا ... عَلَيْنَا كمَا كُنَّا نُحَافِظُ عَنْ رُهْمِ
نِسَاءِ مَوَالِينا البَوَاكِي وأَنْتُمُ ... مَدَدْتُم بأَيْدِينا حِلَافَ بَنِي غَنْمِ
فَلَا تَكْسِرُوا أَرْمَاحَكُم في صُدُورِكُم ... فَتَغْشَمَكُمْ إنَّ الرِّمَاحَ من الغَشْمِ(٣)

فالأعشى يترجم ظاهرة اجتماعية يسودها الاضطراب الأمني، وهو وضع اصطنعه أبناء عمومته الذين يحاولون إحياء نار الفتنة من جديد، فيعيدون بذلك أبناء المجتمع إلى ما كانوا عليه في عهودهم الموروثة التي تقوم على الفتن والقلاقل. والشّاعر حريص على طمس مثل هذه الفتن، وهو يشترط على أبناء عمومته أن يحافظوا على الأحلاف، ويلتزموا المواثيق والعهود، فتحقن بذلك دماء أبناء القبيلة؛ لأن إعلان الحرب، يعني تفسخاً تاماً لبنية القبيلة.

ولعل نظرة الأعشى تتسم بطابع حضاري، فهو شديد الحرص على تماسك أبناء مجتمعه، وفي ذلك تغاض عن الماضي واستشراف المستقبل ومستجداته.

---

(١) نوري القيسي- محاولات في دراسة اجتماع الأدب، ص ٨٦.

(٢) شارل لالو- مبادىء علم الجمال، ص ١٢٧ .

(٣) الأعشى- الديوان، ص٣٤١. الرجيع: المردود إلى صاحبه. الرفض: الإبل الراعية وحدها. ارموا: أي ارماوا: ادنوا: رهم: اسم حي. ورهم: بنت العباب، وهي أم الأسود بن يعفر النهشلي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان الأعشى في أبياته السابقة يعبر عن بداية التمزق الذي يهدد ترابط الأمة، فإن غيره من شعراء الجاهليّة، يعبرون عن علاقة محمومة تسود أبناء العمومة، من ذلك ما قاله طرفة بن العبد في علاقته بابن عمه:

فَمَالِي أَرَانِي وابْنَ عَمِّي مَالِكاً ... متَى أَدْنُ منْهُ يَنْأَ عنِّي ويَبْعُدِ
يَلُومُ وما أَدْرِي عَلَامَ يَلُومُنِي ... كما لَامَنِي في الحَيِّ قُرْطُ بْنُ أَعْبَدِ
عَلَى غَيْرِ شَيءٍ قُلْتُه غَيْرَ أَنَّنِي ... نَشَدْتُ فَلَمْ أُغْفِلْ حَمُولَةَ مَعْبَدِ
بلَا حَدَثٍ أَحْدَثْتُه وكَمُحْدِثٍ ... هِجَائِي وَقَذْفِي بالشَّكَاةِ وَمُطْرَدِي[1]

يظهر الشّاعر موقفه الإيجابي من ابن عمه الذي أبدى له الصد والإعراض دونما حدث يحدثه، فيسيء به إلى ذوي قرابته، وهو ينكر عليهم لومهم وهجاءهم من غير ذنب، ولعل الشّاعر، يفترض إنساناً آخر غير ابن عمه، ليفرج كربه، وهذا إثبات على أن ابن العم، يشكل غُصة تعرقل مسير الشّاعر؛ لأنه لا يستطيع أن يتجاوز أعراف مجتمعه، فها هو ابن عمه يقف عقبة أمامه، فيمنعه حق التعبير عن رأيه أو محاولة التسآل عن أمر يبطل فيه قول المتقولين ويدحض ادعاءات المدعين.

"ويظهر أن طرفة لم يكن ملتزماً بتبعات قومه حيث يلمح ذلك عند تبريره ودفاعه عن نفسه"[2]، ويبدو أن الرباط القبلي في المجتمع الجاهلي "يجعل المقاييس الاجتماعية التي يميز بها الشعر محدودة بالمثل العليا لحياة القبيلة نفسها، فمهمة الشاعر أن يمجد الظلم والعدوان والحرب إذا كان هذا مما يرضي مبادىء قبيلته وطبيعة حياتها"[3].

إن الأفق الاجتماعي الذي ينظر طرفة منه إلى أبناء عمومته، أفق قومي، يحاول أن يحافظ على وحدة القوم وتماسكهم، وهو على الرغم مما يلاقي من جفاء المعاملة من أبناء عمّه فإنه يبقى لهم ودوداً ونصيراً، يقول:

وإنْ أَدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِها ... وإن يَأْتِكَ الأَعْدَاءُ بالجَهْدِ أَجْهَدِ
وإنْ يَقْذِفُوا بالقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ ... بِشِرْبِ حِيَاضِ المَوْتِ قَبْلَ التَّهَدُّدِ[4]

(١) طرفة بن العبد- الديوان، (باريس)، ص٣٢-٣٥. نشدت: طلبت. الحمولة: الإبل يحمل عليها.

(٢) أحمد الربيعي- الرمزية في مقدمة القصيدة، ص ٣٤.

(٣) إحسان عباس- فن الشعر، ص١٦٨.

(٤) طرفة بن العبد- الديوان، ص٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن غيرة الشّاعر القومية تبعده عن الوصول إلى تحقيق هدف شخصي، فهو يدافع عن الجماعة من خلال الفرد، وكأنه يريد أن يثبت مجد قبيلته المؤثل من خلال الحماس الذي يتأجج في صدره؛ لأن الدفاع عن القبيلة وصون أعراضها، من أهم مقومات شخصية الإنسان العربي في العصر الجاهليّ[١].

ومن الطبيعي أن ت العلاقات الاجتماعية بين المجتمع الجاهليّ، فتشكل في النفوس نزعات وأهواء، قد تلحق أذىً اجتماعياً يؤدي إلى النفور. فهذا أبو دؤاد الإيادي، لا يرى ما يراه ابن عمه فيما حوله من ظروف اجتماعية، يقول:

وَلَقَدْ رَابَنِي ابْنُ عَمِّيَ كَعْبٌ ... أَنَّهُ قد يَرُومُ ما لا يُرَامُ
غَيْرَ ذَنْبٍ بَنِي كِنَانَةَ إنّي ... إنْ أُفَارِقْ فَإنَّنِي مِجْذَامُ
لا أَعُدُّ الإقْتَارَ عُدْماً ولَكِنْ ... فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ الإعْدَامُ
مِنْ رِجَالٍ مِنَ الأَقَارِبِ فَادُوا ... من حَذَاقٍ هُمُ الرؤُوسُ العِظَامُ
فَهُمْ للمُلائِمِينَ أَنَاةٌ ... وعُرَامٌ إذا يُرَادُ العُرَامُ
وَسَمَاحٌ لدَى السِّنينَ إذا ما ... قَحَطَ القَطْرُ واستَقَلَّ الرِّهَامُ[٢]

فقد لحق الشّاعر شيء من الريبة والشك، من ابن عمه كعب الذي يحاول أن يبعده عن أقاربه، ليس لعلة، سوى أنه شديد الالتصاق بهم، حريص عليهم. وهو يه أن يعيش وحده، منسلخاً عن أقاربه، والفقير بنظره ليس فقير المال بل هو من يرزأ بأهله فيستقل بنفسه. ويتأسى الشّاعر لرجال قومه الذين هلكوا وهم السادة العظام. تراهم ذوي حلم وأناة في أيام السلم، وأصحاب عنف وشدة الهول، كراماً لا يهمهم جدب السماء وقلة الأمطار.

وإذا كانت الصورة السابقة التي عبر عنها أبو دؤاد الإيادي، تشير إلى بداية إحداث خلل في الروابط الاجتماعية لقبيلته، من قبل أبناء العمومة لإحداث انقلاب في بنية القبيلة، بصورة غير مباشرة -والشّاعر شديد التحفظ على ذلك- فإننا نجد بعضاً من الشّعراء يصرح بذلك دون تحفظ. انظر إلى ذي الإصبع العدوانيّ، وهو يعبر عن الكراهية لابن عمه، فيقول:

---

(١) انظر تكرار هذه الصورة عند: أوس بن حجر- الديوان، ص ٨٢، حاتم الطائي- الديوان، ص ٥١.

(٢) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص٣٣٨. فاد: هلك. العرام: العنف والشدة. الرهام: الأمطار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَلِيَ ابْنُ عَمٍّ عَلَى ما كَانَ مِنْ خُلُقٍ مُخْتَلِفَانِ فَأَقْلِيهِ وَيَقْلِينِي
أَزْرَى بِنَا أَنَّنا شَالَتْ نَعَامَتُنَا فَخَالَنِي دُونَهُ بل خِلْتُه دُونِي
فَإِنْ تُصِبْكَ مِنَ الأَيَّامِ جَائِحَةٌ لم أَبْكِ مِنْكَ على دُنْيَا ولا دِينِ[1]

فقد كان الشّاعر وابن عمه على شيء من الود، ثم سرعان ما انقلب ذلك إلى خلاف وتفرق في الأمر، ولو لم تكن العلاقة هشة بين الطرفين لما استطاع أحد من أفراد القبيلة أن يفرق بينهما، فالبغض انتزع منهما عنصر إحساس الواحد بالآخر، وطمس فيهما الشعور المتبادل إلى حد غدا فيه كل منهما لا يحزن لمصاب الآخر إذا أصابته جائحة أو بلية[2].

وتباينت علاقة الإنسان الجاهليّ بأخواله، ونجد هذه الصورة قليلة الورود عند شعراء الجاهليّة فاتضحت في شعر المتلمس الضبعي الذي يقول:

ولَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ العَرَانِينِ مِيْسَمَا
وهَلْ لِيَ أُمٌّ غَيْرُهَا إن تَرَكْتُهَا أَبَى اللَّهُ إلا أَنْ أَكُونَ لها ابْنَما[3]

إن التزام الشّاعر بأخواله يبعث على العجب، فهو من شدة حبه لهم، يرفض أن يتقرب إلى أي مجتمع آخر سواهم، ولعل هذا الحب نابع من تعلقه بأمه التي من الله عليه بأن تكون هي لا غيرها أماً له. والشّاعر وهو يعلن هذا الولاء، فقد يستدل على أن قرابة الدم للأم أشد صلة من قرابة الدم للأب من وجهة نظر وجدان الإنسان وميوله.

وكان لانتساب الإنسان الجاهليّ إلى رهطين متباعدين حسباً ونسباً، أثر واضح في تحديد الانتماء الاجتماعي والتوجه القومي، من ذلك ما جاء في قول المتلمس الضبعي:

تَفَرَّقَ أَهْلِي مِنْ مُقِيمٍ وَظَاعِنٍ فَلِلَّه دَرِّي أَيَّ أَهْلِيَ أَتْبَعُ
أَقَامَ الذينَ لا أُبَالِي فِرَاقَهُم وشَطَّ الذينَ بَيْنَهُم أَتَوَقَّعُ
على كُلِّهم آسَى وللأَصْلِ زُلْفَةٌ فَزَحْزِحِ عَنِ الأَدْنَيْنِ أَنْ يَتَصَدَّعُوا[4]

---

(١) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص٨٩. شالت نعامتنا: تفرق أمرنا. الجائحة: الشدة. تخزوني: تسوسني. الديان: القائم بالأمر.

(٢) وانظر تكرار الصورة نفسها عند: خداش بن زهير- أشعار العامريين، ص ٢٤، ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٩١-٩٢، ٤٣-٤٤.

(٣) المتلمس الضبعي- الديوان، ص٢٩-٣٠. العرنين: أول كل شيء.

(٤) المتلمس الضبعي- الديوان، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشّاعر يعبر عن قلق الانتماء إلى قومه الذين سيطرت عليهم محن الفرقة والتمزق، وهو حائر الرأي والهوى، في أن يبقى مع أهله المقيمين الذين لا يبالي لفراقهم، أو يتبع أهله الظاعنين الذين يعز عليه فراقهم. ويكشف لنا حال أهل الشّاعر -بين مقيم وظاعن- عن تباين في طبيعة القوم الذين ينتمي إليهم، فأبناء عمومته وخؤولته ليسوا من رهط واحد، ويتضح لنا انتماء الشّاعر إلى أخواله، لأنه عدهم أهلاً ذوي زلفة وقربى. وهذه الصورة التي يعبر عنها الشّاعر، تعكس بعداً إنسانياً، يتمثل في حرص بعض أبناء القبيلة على ضرورة توحيد المشاعر بين أفرادها. ويحاول الشّاعر جاهداً أن يمنع تصدع القبيلة لأن موقفه منهم موقف من يجد في رأب الصدع منعاً لوقوع الفتن وما يؤكد ذلك قوله في القصيدة نفسها:

أَلِكْنِي إلى قَوْمِي ضُبَيْعَةَ أَنَّهم أُنَاسِي فَلُومُوا بَعْدَ ذَلِكَ أو دَعُوا
وَقَدْ كَانَ أَخْوَالِي كَرِيماً جِوَارُهُم ولَكِنَّ أَصْلَ العُودِ من حَيْثُ يُنْزَعُ[1]

فقد يبدو الالتزام بالقوم، ظاهرة اجتماعية متأصلة في البيئة الجاهليّة، والإنسان فيها لا يملك سوى لغة الولاء التام، والشّاعر ملتصق بضبيعة قومه، فهم أناسه الذين لا خلاص له منهم. ويظهر الشّاعر لوناً من التحول إلى أخواله لحسن جوارهم ثم يعود إلى التمسك بقومه فيندمج فيهم لأن الإنسان يعود إلى منبته وأصله الذي انحدر منه، وهو يعبر عن شدة انتمائه إلى قومه فلا يخذلهم رغم ما يحدثه الدهر بينهم من فرقة وتصدع، ويلاحظ أن الشّاعر مشدود إلى مجتمع القبيلة، لا يستطيع الخروج على أعرافها.

وهكذا يرى الشاعر واقعاً "يفرض نفسه في كل عصر، فيجعل الإنسان يتأقلم في الظروف التي تفرضها عليه خصائص البيئة وعاداتها وأعرافها"[2]، وقد تمثل الشاعر هذا الواقع، ولم يكن يخرج عن مجتمعه الإقليمي وإن كان خرج على إقليم النسب لأبيه وبقي مشدوداً إلى أخواله، وهذا يفسر لنا أن "وطن الجاهليين إذن هو العصبية وهذه العصبية هي القانون الوحيد الذي كانت عليه حياتهم العقلية"[3].

---

(١) المتلمس الضبعي- الديوان، ص١٥٩-١٦١. ألكني: أبلغ عني. المألكة: الرسالة.

(٢) حسين الحاج حسن- أدب العرب في عصر الجاهلية، ص ١٨١.

(٣) عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، ص ٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقات العامة

لا يكاد الإنسان الجاهليّ يخرج نفسه من إطار الحياة الإنسانية العامة في علاقاته مع غيره، سواء أكانت تلك الحياة مع أبناء القبيلة أم خارج مجتمعها، ولعل الحياة بعامتها تشكل المرجعية الأساسية لإنسان ذلك العصر، في صقل شخصيته وجعله إنساناً قادراً على التعايش معها بكل أشكالها، وخبرة الإنسان في الحياة واحدة من تلك المرجعية التي حددت سلوك الإنسان، يقول زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ لا يُصَانِع في أُمُورٍ كَثِيرة يُضرَّس بأَنْيَاب وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ[1]

يكاد الشّاعر بخبرته الحياتية الواعية يرسم نظاماً اجتماعياً للناس يتمثل في كيفية قدرة الإنسان على التكيّف من خلال تعايشه مع منظومته الاجتماعية.

وهذا البعد الإنساني يركز على اكتساب الإنسان مهارة القدرة على التعامل مع الآخرين، "فالإنسان والمجتمع يشكلان جانبي عالم واحد، وإذا كان المجتمع نتاجاً لتعامل البشرية ومظهرها، وإذا كان الإنسان هو الذي يشكل الظروف، فإن الظروف تتغير من قبل البشر بالذات"[2]، ولعل الشّاعر يطرح مجموعة من المقومات التي إذا أخذ بها الإنسان كان أقدر من غيره على استيعاب الناس، والتعايش معهم، وهذه المقومات تتركز في أن يكون الإنسان صاحب فضل ومعروف ومعاملة كريمة.

والأبيات السابقة، تظهر لوناً من القوانين التي تشكل نظاماً حياتياً يتعامل معه الناس. وفي ضوء هذه الأنظمة التي صنعها الإنسان من خلال تجربته الحياتية، يتبدى لنا الإشارة إلى طبيعة العلاقات الإنسانية بين الناس، على اختلاف درجات القرب والبعد، وهي طبيعة تقوم على بنية مجتمع تبنى بعض أبنائه رسم سياسة، تقوم على نشر الوعي الاجتماعي.

ولعل زهيراً يرمي في هذا النص إلى افتراض نظرية سلوكية أو "تأسيس معادلة منطقية في أدب السلوك الاجتماعي المهذب، وتقوم على أن مسلك الفرد هو

---

(١) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص٢٦. لا يصانع: لا يجامل.

(٢) لودميلا- الإنسان، ص ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأصل فيما يلاقيه هذا الفرد من الجماعة، وهذا المسلك الفردي يقوم على أن الفرد لا بد له من أمور يفعلها لكي يتجنب أموراً يكرهها"[١].

ولعل زهير بن أبي سلمى، يسعى إلى نشر الفضيلة بين الناس، وبخاصة مجتمع الأصدقاء ويعززها في شعره ليشكل منها منهج حياة، يقول:

أَبِيتُ فَلا أَهْجُو الصَّدِيقَ وَمَنْ يَبِعْ بِعِرْضِ أَبِيه في المَعَاشِرِ يُنْفِقِ
وَمَنْ لا يُقَدِّمْ رِجْلَهُ مُطْمَئِنَّةً فَيُثْبِتَها في مُسْتَوى الأَرْضِ تَزْلَقِ[٢]

يرسم زهير للناس نمطاً اجتماعياً يتمثل في كيفية التعامل مع الأصدقاء فهو يركز على الأثر الذي يحدثه هجاء الصديق لصديقه فحرص الإنسان على صديقه لا يقل أهمية عن حرصه على عرضه. ويوضح الشّاعر العلاقة الضعيفة بين الناس، كمن تزل قدمه في الأرض، لعدم ثباتها، وكذلك فإن الشّاعر حين يؤكد على عمق الصداقة، فإنه يدعو إلى أن تكون العلاقة قائمة على الثقة الثابتة، بعيدة عن الأهواء والمصالح وفي ذلك دعوة صريحة من الشّاعر إلى تكوين شبكة من العلاقات الإنسانية، قائمة على تبادل المودة، وتعزيز جوانب الثقة والاحترام المتبادل.

ومما يعزز افتراض الشّاعر في الأبيات السابقة الذي يقوم على تقوية العلاقات بين الأصدقاء قول الأفوه الأودي:

الخِلُّ رَاضٍ شَاكِرٌ في عَهْدِهِ وَعَدُوُّه المَقْهُورُ مِنْهُ آذِ
إن عَابَهُ الحُسَّادُ لا تَعْبأْ بهم في هَذِهِ الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ هَاذِ
اللّهُ خَوَّلَهُ حَيَاةً ما لَها كَدَرٌ وعَيْشاً طَابَ في الأَلْوَاذِ[٣]

ينظر الشّاعر إلى المجتمع من خلال شريحتين من الناس، إنسان منحته الحياة كل وسائل الراحة والنعيم، فلا شيء يكدر صفو حياته، وإنسان تجهمت له الحياة، فحرمته من نعيمها، حتى جعلته ناقماً على كل عناصر الخير التي يمارسها الإنسان.

---

(١) عبد الله الغذامي- الخطيئة والتكفير، ص ٩٩.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص٢٦٠.

(٣) الأفوه الأودي- شعره، ص١١. آذٍ: متأذٍ. الألواذ: جمع لوذ: وهو حصن الجبل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتنامى في الأبيات حسّ اجتماعي، يدعو إلى الثورة ضد كل من هيأت له الحياة سبل العيش الكريم، هذا الحسّ ينحصر في فئة الحساد الذين يقف الشّاعر منهم موقفاً دينياً يتمثل في أن الله تعالى يهب نعمه لمن يشاء ولا مسوغ لمن لا يمتلك صفو الحياة أن ينقلب إنساناً نزاعاً للشر، وهذه النظرة العدائية كفيلة بتفسخ أبناء المجتمع.

"وبهذا يتضح أن للتوتر تأثيراً على مختلف جوانب الشخصية والسلوك فقد أثر التوتر على إنتاجية الجماعة وعلى تفاعلها، وعلى رغبة أفرادها في البقاء معاً أو في الانعزال"(١).

وإذا أراد الإنسان أن يبني مجتمعاً متماسكاً تسوده عوامل المودة، عليه أن ينبذ الشر والحسد، ويسعى إلى تعميم النفع والفائدة كما في قول أبي دؤاد الأيادي:

إذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِم فَرِشْ واصْطَنِعْ عِنْدَ الذينَ بِهِم تَرْمِي(٢)

ولعل التجربة الاجتماعية التي اكتسبها الإنسان الجاهليّ بالمران والممارسة، جعلته قادراً على التكيف مع أبناء مجتمعه، فلم يعد يقبل ما تفرضه عليه الحياة، بل راح يميز ويحاور، حتى يصل إلى علاقة تتخذ منها موقف الصد أو القبول، وقد اتضح هذا السلوك الإنساني في العلاقات السلبية، يقول ابن الأسلت:

مَنْ كَانَ في نَفْسِه حَوْجَاءُ يَطْلُبُها عِنْدِي فإنّي لَهُ رَهْنٌ بإصْحَارِ
أُقِيمُ عَوْجَتَهُ إنْ كَانَ ذا عِوَجٍ كما يُقَوَّمُ قِدْحُ النَّبْعَةِ البَارِي
وصاحِبُ الوِتْرِ لَيْسَ الدَّهْرُ مُدْرِكَهُ عِنْدِي وإنّي لَدَرَّاكٌ بِأَوْتَارِ(٣)

إن علاقة الشّاعر مع غيره تقوم على المكاشفة في التعامل، فهو صريح مع من يطلب منه حاجة، ولم يعد يقف موقف المجامل الذي يتستر على مطالب الناس وحاجاتهم، وهذا النمط في العلاقات الاجتماعية، ينبعث من إنسان يعي أبعاد الذات الإنسانية، ويقوم على فهم نوايا الخصوم، وكيفية التعامل معهم.

---

(١) سلوى سا مي- الابداع والتوتر النفسي، ص ٥١.

(٢) أبو دؤاد الإيادي- شعره، ص٣٤٤. رُش: قوِّ الجناح، والمعنى التقوية بالإحسان والاصطناع.

(٣) ابن الأسلت- الديوان، ص٧٥-٧٦. حوجاء: حاجة. رهن بإصحار: أي لا أستتر عنه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان هناك حاجة في نفس الفرد الذي يتعامل معه الشاعر فإن "عوامل كثيرة تتدخل في هذه الحاجات النفسية الرئيسية منها الثواب والعقاب والوسط الاجتماعي، ثم المبادىء والأهداف الفردية أو الاجتماعية، ثم الجو الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد"(١)، والسلوك الذي يبديه الشاعر مع هذه الفئة من الناس هو "ظاهرة ديناميكية تتشكل وتتعدل، بناء على تفاعل ديناميكي بين الكائن الحي وبيئته"(٢).

وقد ظهرت فطنة التعامل مع الآخرين، أصدقاء كانوا أو أعداء عند ابن مقبل في قوله:

إذَا النَّاسُ قَالُوا: كَيْفَ أَنْتَ وقَدْ بَدا ضَمِيرُ الذي بِي قُلْت للنَّاسِ صَالِحُ
لِيَرْضَى صَدِيقٌ أَوْ لِيَبْلُغَ كَاشِحاً وما كُلُّ مَنْ سلَفْتَهُ الوُدَّ نَاصِحُ(٣)

فالشّاعر ينبىء عما في سريرته من نوايا وصفات، فهو يبدي لهم الود التام دون أن ينتظره منهم وليس هدفه أن يرضي في ذلك صديقاً أو يغضب كاشحاً، إنما يريد أن يكون واضحاً للآخرين، فليس كل من قدمت له الود إنساناً صالحاً.

والإنسان الجاهليّ، كان يحرص على إبقاء العلاقات الإنسانية قائمة بين الناس، فهم إن شاءوا أم أبوا، يتقاسمون الحياة بينهم بكل أشكالها، فهذا عبيد بن الأبرص يعبر عن ذلك في قوله:

لا يَنْفَعُ اللُّبُّ عَنْ تَعَلُّمٍ إلا السَّجِيَّاتُ والقُلُوبُ
فَقَدْ يَعُودَنْ حَبِيباً شَانِيءً وَيَرْجِعَنْ شَانِئاً حَبِيبُ
سَاعِدْ بأَرْضٍ إذا كُنْتَ بها ولا تَقُلْ إنَّنِي غَرِيب
قد يوصَلُ النَّازِحُ النَّائِي وَقَدْ يُقْطَعُ ذو السُّهْمَةِ القَرِيبُ(٤)

فالشّاعر يدعو إلى توثيق العلاقة بين الناس، فالطباع الإنسانية التي يكتسبها المرء -حتى تكون جزءاً من شخصيته وسلوكه- هي التي تحدد طبيعة

---

(١) فوزي عفيفي- السلوك الاجتماعي، ص ٣٠.

(٢) محمد عماد الدين- المنهج العلمي وتفسير السلوك، ص ٢١٨.

(٣) تميم بن مقبل- الديوان، ص٤٢-٤٣. الضمير: السر. الكاشح: العدو المبغض. سلفته: أعطيته.

(٤) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص١٤-١٥.النازح النائي: البعيد النسب والدار. يقطع: يعقّ. السهمة: القرابة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقات الإنسانية مع الآخرين، والإنسان صاحب الخبرة هو الأقدر من غيره على الاستمرار في الحياة، وصاحب العقل هو الذي يدرك كيفية التعامل مع الحياة حلوها ومرها، فالناس فيهم شانىء وحبيب، والحياة كفيلة بأن تقلب الموازين فتجعل من الصديق عدواً، ومن العدو صديقاً، والإنسان الفطن، هو وحده الذي يتكيّف مع الحياة.

فالنوازع الإنسانية الكامنة في النفس تكشف عن عمق العلاقة بين الأفراد أو سطحيتها، لأن الذات الإنسانية ذات اتجاهات وميول متفاوتة "فالميول الفردية والميول الاجتماعية بداخل الفرد توجد على شكل مجموعتين من القوى المتواجهة، أو نوعين من الحقائق الفعالة على الدوام، تتجاذبان بعضهما مع البعض النشاط والتفاعل"(١).

ومبدأ الشّاعر هنا، يكمن في كون الإنسان مسؤولاً عن تعمير الأرض والحياة ومسؤوليته تظهر بتقديم المساعدة إلى الآخرين، حتى يصبح المكان لا قيمة له بظهور عنصر الخير الذي يزرعه الإنسان لغيره، وهذا الخير يجعل من الإنسان محباً لغيره، يتعاون وإياه في إعمار الكون، فتتوحد القيم والاتجاهات، ويحتل التعاون مكاناً لائقاً في النفوس.

ولم يعد للعرق أو الجنس، أي حضور يحد من تقارب الناس وانسجامها، فالإنسان في رأي الشّاعر، ليس مقيداً بزمان أو بمكان فالأرض أرضه، أينما حل وارتحل، ما دامت نفسه تنزع إلى تعميرها، وهذا يساعد على محو الاتجاه العرقي أو الطائفي، فلم تعد أواصر القربى، هي وحدها التي تبني المجتمعات البشرية، فالإنسان سلوك ومعاملة، فقد يتم وصال الأباعد وقطع وصال الأقارب، وهذه هي طبيعة الحياة الإنسانية قديماً وحديثاً تعتمد على علاقات ارتباطية بين الطبع الكامن في النفس والسلوك المترجم.

وعلى هذا النحو، فإن التواصل الإنساني بين الأفراد والجماعات يمتلك "استقلالية نسبية نظراً لأنه شكل فردي للعلاقات الاجتماعية وتحديد فردي سيكولوجي، وتتحدد خاصية ظهور علاقات اجتماعية في التواصل بشخصية الفرد وتجربته الاجتماعية، وسماته"(٢).

---

(١) شارل لالو- مبادىء علم الجمال، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) لودميلا- الإنسان، ص ١٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة

الوصف الحسي

سخر الشعراء الجاهليون الطبيعة الساكنة والمتحركة لقرائحهم، فاستمدوا من عناصرها مادة خصبة ولكنهم جعلوا المرأة أقرب عنصر يقاسمهم شطر الحياة، فراحوا يصفون المرأة ومفاتنها، ومظاهر زينتها، وصفاً ينسجم مع أحاسيسهم ومشاعرهم. فقد وصفها قيس بن الخطيم بالشمس في قوله:

فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلوعِها ... في الحُسْنِ أو كدُنُوِّها لِغُرُوبِ
صَفْراءُ أعْجَلَها الشَّبَابُ لِدَاتِها ... مَوْسُومةٌ بالحُسْنِ غَيْرُ قَطُوبِ
تَخْطُو على برديتين غذاهُما ... غَدِقٌ بِسَاحَةِ حَائِرٍ يَعْبوبِ[1]

فقد جعل الشاعر تماثلا بين المرأة والشمس، يقوم على بهاء الطلعة، وجمال الصورة وقد ارتبط التماثل بتفاوت زمني، يمتد بين طلوع الشمس وغروبها، فتتشكل صورة المرأة منسجمة مع الشمس بياضاً عند الشروق، وصفرة عند الغروب ولعل ذلك يدل على أن الشاعر وصف المرأة عندما تتطيب وتتزين، فيخرج وجهها مائلاً إلى الصفرة، كالشمس عند خروجها.

ويصور الأسود بن يعفر النساء الساقيات وهن في مجالس الشراب، كالبدور والدّمى، يقول:

والبِيضُ تَمْشِي كالبُدُورِ وكالدُّمَى ... ونَوَاعِم يَمْشِينَ بالأَرْفَادِ
يَنْطِقْنَ مَخْفُوضَ الحَدِيثِ تَهَامُساً ... فبَلَغْنَ ما حَاولْنَ غَيْرَ تَنَادِي[2]

تمثل صورة المرأة هنا أهمية بالغة قد تصل درجة التقديس لاقترانها بالدمى فقد ارتقى الشاعر بالمرأة من الوصف الحسي المشاهد إلى وصف ، يقوم على عنصر الحركة المرتبطة بالنفس الإنسانية، وما يعتلج فيها من نوازع عاطفية. فالمعاملة الحسنة، ولطف الحديث ونعومته ورقّة القلب والأحاسيس، كلها حركات تعتمل في النفس، لتكشف ما في الدخائل من أنوثة قد تفضي إلى الهيجان العاطفي لدى الشاعر، وهذا يترجم حالة الاختناق العاطفي في المجتمع الجاهلي الذي ينبع من

---

(١) قيس بن الخطيم- الديوان، ص ٥٧-٥٩ .لداتها: قرانها. غدق: كثير الماء. يعبوب: طويل.

(٢) الأسود بن يعفر- الديوان،ص ٣٠. الأرفاد: جمع رفد: وهو القدح الضخم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شدة حاجة الإنسان الجاهلي إلى المرأة "فالمرأة قد شبهت بالدمية وهي مقدسة عن الجاهليين"(١).

وسعي الرجل الدائب نحو المرأة، والتعبير عن شدة حاجته لها قد يعزز ما يذهب إليه الأعشى حين يصف المرأة، كأنها درّة كلفت غواصها نفسه، فهلك لأجلها، يقول:

كأنَها دُرَّةٌ زَهْرَاءُ أخْرَجَهَا ... غَوَّاصُ دَارِينَ يَخْشَى دُونَهَا الْغَرَقَا
قَدْ رَامَهَا حِجَجا مُذْ طَرَّ شَارِبُهُ ... حَتَّى تَسَعْسَعَ يَرْجُوهَا وَقَدْ خَفَقَا
لا النَّفْسُ تُوئِسُهُ مِنْهَا فَيَتْرُكُهَا ... وَقَدْ رَأى الرَّغْبَ رَأْيَ العَيْنِ فَاحْتَرَقَا
وَمَارِدٌ مِنْ غُوَاةِ الجِنِّ يَحْرُسُهَا ... ذو نِيقَةٍ مُسْتَعِدٌّ دُونَهَا تَرَقَا
لَيْسَتْ لَهُ غَفْلَةٌ عَنْهَا يُطِيفُ بِهَا ... يَخْشَى عَلَيْهَا سُرَى السَّارِينَ والسُّرَّقَا
تِلكَ الَّتِي كَلَّفَتْكَ النَّفْسُ تَأْمُلُهَا ... وَمَا تَعَلَّقْتَ إلاَّ الْحَيْنَ والحرقا(٢)

يصور الشاعر شدة تعطشه للمرأة، واستمراره في البحث عنها، ويتمثل ذلك، في وصفه إياها درّة أفنى غواصها دهراً من عمره باحثاً عنها، طامعاً في نوالها دون أن يدب في نفسه يأس أو قنوط، فقام من دونها مارد من الجن، فغيبها عن أعين الصائدين والسارقين حرصاً عليها، ولو أنه طاوع نفسه لهلك دونها لمكانتها التي إن حظي بها، نال عزاً خالداً لا ينقطع، فيغدو بها ناعم البال رضيّ النفس.

والشاعر إلى هذا الحد الزمني، يعيش في حلم، يفصله عن الحقيقة قوله: تلك التي كلّفتك... فأدرك أنه كَلِفٌ بهذه المرأة التي أذهبت عقله، فما وجد لها سبيلاً، سوى أن آماله احترقت في البحث عنها دون أن يعثر عليها.

وإزاء هذا السعي الدؤوب الذي رسمه الشاعر بحثاً عن المرأة فقد يرتد إلى مجتمع منغلق لا يملك الرجل من خلاله حرية البوح عن مكنون فؤاده تجاه المرأة. ولكنه يتمثلها عن طريق الإحساس والخيال تارة، وعن طريق تجسيدها بالدرة تارة أخرى. وعلى هذا النحو، فقد يتخذ الشعراء الجاهليون جميعاً "تشبيه المحبوبة بالدرة وسيلة إلى وصف استخراج اللؤلؤ من البحر"(٣).

---

(١) نصرت عبد الرحمن- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ١١٩.

(٢) الأعشى- الديوان، ص٤٠٣. دارين: ثغر في البحرين. تسعسع: هرم واضطراب. تنوق: بالغ. الترق: شبيه بالدرج.

(٣) حسين عطوان- مقالات في الشعر ونقده، ص ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتغنّى الشعراء بالمرأة، فوقفوا على مفاتنها الحسية، فوصفوا عذوبة ريقها وطول جيدها وجاوزوا ذلك إلى كثير من أجزاء جسمها يقول النَّمِر بن تولب:

كَأَنَّ مُدامَةً مِنْ أَذْرِعاتٍ وماءَ المُزْنِ والعِنبَ القَطِيفَا
عَلَى أَنيابِ جَمْرَةَ بَعْدَ وَهْنٍ إذا مَا خَالَطَ النَّسمَ الرَّشِيفَا[1]

فقد وصف الشاعر ريق جمرة بعد وهن من الليل، بخمر شآمية صنعت من العنب الذي سقي بماء المطر.

وهذا أوس بن حجر، يجعل ريق محبوبته، لذيذ الطعم كالخمر المعتقة، أو كطعم الرمان والتفاح، يقول:

كأَنَّ رِيقَها بَعْدَ الكَرَى اغْتَبَقَتْ مِنْ ماءِ أَصْهَبَ في الحانُوتِ نَضَّاحِ
أَوْ مِنْ مُعَتَّقَةٍ وَرْهَاءَ نَشْوَتُهَا أَوْ مِنْ أَنابِيب رُمّانٍ وتُفَاحِ[2]

وقال العسكري في فضل التنبيه على خطأ المعاني وصوابها: ومن لا يعرف الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه، وضرب بيتي أوس بن حجر السابقين مثالاً لذلك، فظن أن الرمان والتفاح في أنابيب وقيل: إن الأنابيب الطرائق التي في الرمان وإذا حمل على هذا الوجه صح المعنى[3]، ويصف سلامة بن جندل عذوبة رضاب المرأة فيقول:

وَكَأَنَّ ريقَها إذَا نَبَّهْتَها كَأْسٌ يُصَفَّقُها لِشُرْبٍ سَاقِي
صِرْفٌ تَرَى مَعْرَ الإِنَاءِ وَراءَهَا تُودي بِعَقْلِ المَرْءِ قَبْلَ فُوَاقِ
ينْسَى لِلذَّتِها أصالةَ حِلْمِهِ فَيَظَلُّ بَيْنَ النَّومِ والإِطراقِ[4]

إن ريق المرأة صافٍ عذب، مثل كأس الخمر التي يدور بها الساقي في الحانوت لجماعة الشاربين، تكاد لرقتها وصفائها ترى قعر الزجاجة. وجعل الشاعر وجه التماثل بين الصورتين، يكمن في أن هذه المرأة تترك أثراً بالغاً في نفس عاشقها، كالخمر التي تذهب بعقل شاربها.

---

(١) النمر بن تولب- شعره، ص ٧٧.

(٢) أوس بن حجر- الديوان، ص ١٤. النضاح: الراشح. ورهاء: حمقاء.

(٣) العسكري- الصناعتين، انظر: ص ٥٢-٥٤.

(٤) سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٤٤-١٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل علاقة الشاعر بالمرأة في العصر الجاهلي، كانت تشكل له القلق والحرمان، لذلك كان تفكيره بالمرأة، هاجسه الوحيد، يحلم بها، حتى إذا ما صحا من نومه وجد نفسه ثملاً، تنسيه لذة الشراب حلمه، فيظل بين النائم والمطرق.

وقد ورد في الشعر الجاهلي وصف آخر لمفاتن المرأة، تَمثَّلَ في العينين والجيد يقول الحادرة:

وَتَصَدَّفَتْ حَتَّى اسْتَبَتْك بِوَاضِحٍ صَلْتٍ كَمُنْتَصَبِ الغَزَالِ الأَتْلَعِ
وَبِمُقْلَتَي حَوْرَاءَ تَحْسَبُ طَرْفَهَا وَسْنَانَ حُرَّةٍ مُسْتَهَلِّ الأَدْمُعِ
وإذا تُنَازِعُكَ الحَدِيثَ رَأَيْتَهَا حَسَناً تَبَسُّمها لَذِيذَ المَكْرَعِ[1]

يصف الشاعر هذه المرأة، أنها تكاد تستلب ألباب الرجال، لما تبديه من فرط في زينتها ومفاتنها، فهي تعرض عن جيد طويل أبيض ناصع، كجيد الغزال. وهي كريمة الوجه، لها عينان حوراوان، يخال الناظر إليهما أن فيهما نعاساً لكثرة دلها ونعومتها، تراها وهي تحدثك حسنة التبسم، "إن المحبوبة في الشعر الجاهلي توصف عادة بجمال الثغر الواضح العذب، بل يصف الشعراء ريق هذه المحبوبة ولا أحد يدري تماماً على أي نحو فكر الشعراء ولكن الشعر الجاهلي نظام موحد يفسر بعضه بعضاً. وثغر هذه المحبوبة ليس واحداً من الثغور العادية؛ لأن المحبوبة هي التي استطاعت أن تستقبل المطر ومن الصعب تجنب هذه الفكرة أو هذه العلاقة بين الثغر العذب وفكرة المطر"[2]، وعلقمة الفحل يجيد في وصف عيني محبوبته وجيدها، فيقول:

تَرَاءَتْ وأَسْتَارٌ من البَيْتِ دُونَها إلينا وحَانَتْ غَفْلَةُ المتَفَقِّدِ
بعَيْنَي مَهَاةٍ يحدُرُ الدَّمْعَ منهما بريمَيْنِ شَتَّى مِنْ دُمُوعٍ وإثْمِدِ
وَجِيدِ غَزَالٍ شَادِنٍ فَرَّدْتُ له من الحَلْيِ سِمْطَي لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ[3]

يصور الشاعر حال محبوبته حين برزت له من وراء أستار البيت متخفية بعد أن غفل الرقيب المتفقد وقد أطلعت عليه بعينين واسعتين، كعيني بقرة الوحش

(١) الحادرة- الديوان، ص ٤٥-٤٦. تصدفت: أعرضت. استبتك: غلبتك. الأتلع: الطويل العنق.

(٢) مصطفى ناصف- قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص ١٣٣.

(٣) علقمة الفحل- الديوان، ص ١٠٥. تراءت: برزت وتظاهرت. بريمين: لونين مختلفين. فردت له: نظمت لجيدها. السمط: الخيط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتحدران دمعاً ممزوجاً بالكحل، وجيد غزال شادن نظم حوله عقد من اللؤلؤ والزبرجد.

وقد استوحى الشاعر صورة المهاة والشادن لا ليجعلهما نظيرا لمحبوبته، بل ليدل بهما على الخوف والقلق، خشية الرقيب. وهذا يدل على أن العلاقات العاطفية مشوبة بالحذر والتوجس.

وقد يعلم من النص، أن هذا الوصف الذي بلغ غاية في الجمال، مشوب بحذر يكتنفه شوق، قد يصل درجة كبيرة من الحرقة والألم، مخبوء تحت القيود الاجتماعية التي يفرضها النظام القبلي في المجتمع الجاهلي وهو حب حبيس بين جيشان الصدر الذي يتطلع إلى الانفلات والتحرر وبين انغلاق المجتمع الذي يحاول أبناؤه الانعتاق من قيوده.

وقد جمع امرؤ القيس معظم صفات المرأة الحسية في قوله:

تَصُدُّ وتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وتَتَّقِي ... بِنَاظِرَةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وَجِيدٍ كجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بفَاحِشٍ ... إذا هي نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ
وفَرْعٍ يُغَشِّي المَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ... أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ
وكَشْحٍ لَطِيفٍ كالجَدِيلِ مُخَصَّرٍ ... وَسَاقٍ كأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ
وتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأَنَّهُ ... أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إسْحَلِ
تُضِيءُ الظَّلامَ بالعِشَاءِ كأَنَّها ... مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ(١)

فالمرأة في نظر امرىء القيس، لها من الصفات ما يفوق غيرها من النساء جمالاً وبهاء منظر، فلها خدّ أسيل، وعينا بقرة وحشية، وعنق طويل لا فحش فيه، مزين بالحلي والجواهر، وشعر أسود فاحم غزير، وخصر لين مجدول وساق أبيض ناعم طري كأعذاق النخل المسقي، وأصابع دقيقة ناعمة بيضاء كالمساويك تضيء الظلام لحسنها وبياضها كمنارة راهب منقطع للعبادة.

وقد استمد الشاعر هذه الصورة المتكاملة، من البيئة المحيطة، التي جعلها الشاعر معادلاً موضوعياً، فأضفى عليها من عناصر الطبيعة، ما يماثل صفات المرأة،

---

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ١٦-١٧. الأسيل: الخد السهل. نصته: أبرزته. الفرع: الشعرا لطويل. الأثيث: الكثير النبات. القنو: العذق. المتعثكل: المتداخل لكثرته. الكشح: الخصر. الشثن: الجافي الغليظ. الإسحل: شجر يستاك به.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك يعني أن كل ما في الطبيعة من جمال وهدوء وسمو، كان له أثر كبير في تشكل جماليات المرأة، فقد أضفت الطبيعة عليها روحها الخلابة وحسنها الآخاذ(١).

لقد حظيت المرأة مكانة كبيرة في الشعر الجاهلي، وكانت نظرة الرجل إليها، متفاوتة الاتجاهات والأبعاد، تركزت في بُعديّ المرأة المعشوقة، والمرأة الزوجة، واتخذ كل بعد أنماطه التعبيرية الخاصة فيه من قبل الشعراء، وما يحمل من معانٍ إنسانية، اقتضتها طبيعة العلاقة التي شكلت مسارها الإنساني، لذلك انصرف الشعراء، يصورون مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي على اختلاف الرؤى وأنماط العلاقات يقول طفيل الغنوي:

إنَّ النِّساءَ كأشْجَارٍ نَبَتْنَ معاً ... مِنْها المَرَارُ وبَعْضُ المُرِّ مَأكُولُ
إنَّ النِّساءَ مَتَى يَنْهَيْنَ عن خُلُقٍ ... فإنَّهُ وَاجِبٌ لا بُدَّ مَفْعُولُ
لا يَنْثَنِينَ لِرُشْدٍ إنْ مُنِينَ له ... وهُنَّ بَعْدُ مَلُومَاتٌ مَخَازِيلُ(٢)

فالشاعر يصور النساء، كالأشجار تختلف ثمراتها وإن كانت أحادية المنبت والأصول، فقد يكون الثمر مرا لكنه يؤكل لظروف محتومة، وكذلك حال النساء تختلف الواحدة عن الأخرى على الرغم من توحد البيئة ومن عادة النساء إلزام من ينهينه عن خلق لا يرضين به سلوكاً وهذا يعني التفرد في الرأي الذي ربما يقود إلى الوقوع في الأحكام الجائرة وهن بالإضافة إلى ذلك لا يتراجعن عن خطأ يرين أنفسهن فيه ملومات وهذا الحكم الذي جاء به الشاعر يعبر عن علاقة الإنسان بالمرأة وهي علاقة ترتبط بما يفرضه الزمن عليه فيذعن لحكم الأيام.

وبشر بن أبي خازم، يصور قدرته على استلاب عقول النساء، يقول:

أَجَدَّ مِنْ آلِ فَاطِمَةَ اجْتِنَابَا ... وأَقْصَرَ بَعْدَما شَابَتْ وَشَابَا
وَشَابَ لِدَاتُه وَعَدَلْنَ عَنْهُ ... كَمَا أَبْلَيْتَ مِنْ لُبْسٍ ثِيَابَا
فَتَصْطَادُ الرِّجَالَ إذا رَمَتْهُم ... وأَصْطَادُ المَخَبَّأَةَ الكَعَابَا(٣)

---

(١) وانظر الصفات الحسية للمرأة عند: الأعشى- الديوان، ص ٣٨٧-٣٨٩. قيس بن الخطيم- الديوان، ص ٦٠، ١٢٥. تميم بن مقبل- الديوان، ص ١٤٣. عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٥٦-٥٧. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٢٩-٢٣٠. طرفة بن العبد- الديوان، ص ٨-٩. عمرو بن كلثوم- الديوان، ص ٦٧-٦٩.

(٢) طفيل الغنوي- شعره، ص ٣٤.

(٣) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ٣١. أجد: جدد. أقصر: كف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتساءل الشاعر عما إذا جدّد علاقته مع فاطمة، بعد أن وصل كلاهما إلى مرحلة الشيب الذي يعيب صاحبه أن يصبو ويلهو في حين أن النساء قد صرفن النظر عن أقرانه ونسينهم كأنهم أثواب قديمة بالية. ثم يعود الشاعر، فيختبر قلب فاطمة فيجده ميالا إلى إعادة العلاقة، حتى استطاعت أن تسلب قلبه، وتصطاده والشاعر كذلك لديه القدرة على اصطياد الجواري الكعاب.

ويصف عدي بن وداع، صور النساء اللواتي كان يأنس إلى حديثهن لما فيه من مودة، فيقول:

وَحُورٍ قد خَزَزْتُ لَهُنَّ طَرْفِي ... لَذِيذَاتِ المَوَدَّةِ والعِنَاقِ
يدُفْنَ الزَّعْفَرَانَ على خُدُودٍ ... نَوَاعِمَ لا كَلِفْنَ ولا بِهَاقِ
لَذِيذَاتِ الشَّبَابِ مُخَصَّرَاتٍ ... مَخَاصِرُهُنَّ في نَشْرٍ رِقَاقِ(١)

فهؤلاء النساء يعشن مترفات فخدودهن ناعمة صافية بالزعفران، امتلأت وجوههن بشراً ونضارة، يمشين في ثياب رقيقة وقد بدت منها خصورهن الدقيقة. وحين يقف الشاعر على هذا الجانب المشرق من الحياة فإنه يشير إلى المدنية التي تكشف عن حس حضاري في المجتمع الجاهلي. "تبدو الشمس الإطارالعام في الشعر الجاهلي، ويبدو أن هذا الرمز الديني العام يحوي رموزاً خاصة لكل اسم من أسماء النساءاللائي وردن في الشعر الجاهلي"(٢).

وكانت المرأة تقف من الرجل أحياناً موقف العاتب العاذل، دون أن تجد استجابة منه وكان الرجل يأخذ عليها هذا فيعيبها عليه. فهذا السليك يصرف النظر عن المرأة التي لا تقوم الرجل إلا بما يكون فيه من حسن مظهر، يقول:

أَلَا عَتِبَتْ عَلَيَّ فَصَارَمَتْنِي ... وأَعْجَبَها ذَوُو اللِّمَمِ الطِّوَالِ
فإنِّي يا ابْنَةَ الأَقْوَامِ أُرْبِي ... عَلَى فِعْلِ الوَضِيِّ مِنَ الرِّجَالِ
فَلا تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نَؤُومٍ ... إذا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ
إذا أَضْحَى تَفَقَّدَ مَنْكِبَيْهِ ... وأَبْصَرَ لَحْمَهُ حَذَرَ الهُزَالِ
ولكِنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرُوبٍ ... بِنَصْلِ السَّيْفِ هَامَاتِ الرِّجَالِ(٣)

(١) عدي بن وداع- قصائد نادرة، ص ١٤٤.

(٢) نصرت عبد الرحمن- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ١٥٠.

(٣) السليك بن السلكة- الديوان، ص ٦١-٦٢. أربي: أزيد. الوضي: الأبيض من الرجال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكشف الشاعر عن نفسية تلك المرأة التي أعرضت عنه، فمالت إلى الرجال ذوي اللمم، فخدعت بحسن منظرهم، وبياض أشكالهم. والشاعر على هزال جسمه وتغير شكله فهو يزيدهم جمالاً وحسناً؛ لأنه صاحب مبدأ في الحياة، فهو بطل مجرّب للأمور، ليس ممن يخلدون إلى الراحة، فيقعدون عن الهمم والمعالي ولكنه رجل صعب مراسه، يتطلع إلى الأمور التي يجد فيها هلاكه، لعلو شأنها.

ولعل الشاعر يعيب على هذا النمط من النساء اللواتي يعجبن بالمنظر دون المخبر، فلا يقمن لمبدأ وزنا أو قيمة. وفي هذه النظرة بعد اجتماعي يتمثل في موقف المرأة الجاهلية من فئة الصعاليك، فهو في رأيها طبقة منسلخة عن قيم المجتمع الجاهلي وتقاليده، لذلك فالنساء لا ينظرن إليهم وهم في هذه الحالة من الفقر والخروج على قوانين المجتمع، فضلاً عن أن هذه الفئة من السودان كانت منبوذة اجتماعياً.

وقد يئس بعض شعراء الجاهلية من المرأة حين أعرضت عنه، بسبب ما علاه من شيب، أو ما اعتراه من قلة مال فتحولت إلى أناس وجدت فيهم حيوية الشباب وثوب العافية والغنى. وقد ساء الشاعر الجاهلي ما رآه منها يقول الأعشى:

وأَرَى الغَوَانِي حينَ شِبْتُ هَجَرْنَنِي أن لا أَكُونَ لَهُنَّ مِثْلِي أَمْرَدَا
إنَّ الغَوَانِي لا يُوَاصِلْنَ امْرَءاً فَقَدَ الشَّبَابَ وقد يَصِلْنَ الأَمْرَدا[1]

فالأعشى يروي تجربته مع المرأة من خلال واقع عاشه هو بنفسه، فهو مقرب لدى الغواني ما دام يتمتع بحيوية ونضرة شباب فإذا ما وخط الشيب رأسه، تحولن عنه، وبحثن عن شاب يافع أمرد. وربما كانت المرأة أكبر بغضة للشيب من الفقر، لأنالفقر عارض قد يزول، وأما الشيب فإنه وافد لا يبرح، وتشد وطأته حينا بعد حين[2].

والبعد المادي لا يقل أهمية عن ظهور الشيب في إحداث تحول المرأة وانقلاب علاقتها مع الرجل، يقول امرؤ القيس:

وَيَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ أَرُوحُ مُرَجَّلاً حَبِيباً إلى البِيْضِ الكَوَاعِبِ أَمْلَسَا

---

(١) الأعشى- الديوان، ص٢٦٣.

(٢) أحمد الحوفي- المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَرَاهُنَّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قَلَّ مَالُه ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيه وقوّسا[١]

وقد يبلغ به الإعجاب درجة الغرور، حين يرى نفسه مقرباً إلى البيض الكعاب، فيحادثهن ويجلس إليهن ثم يعرضن عنه، إذا ما شاهدنه ذات يوم فقيرا قليل المال أو أشيب هرما متقوس الظهر.

وهذا علقمة الفحل يعلن أن له خبرة متميزة بالنساء حتى صار طبيباً مختصاً بأدواء النساء ومشكلاتهن، يقول:

فَإِنْ تَسْأَلُوني بالنِّسَاءِ فإنَّنِي بَصِيرٌ بأَدْوَاءِ النِّساءِ طَبِيبُ
إذا شَابَ رأْسُ المَرْءِ أو قَلَّ مالُهُ فَلَيْسَ له مِنْ وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ وشَرْخَ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ[٢]

يبين الشاعر أنه بصير بأخلاق النساء فهو خير من جرب التعامل معهن، وعرف ما هن فيه من صفات. وقد خرج من خلال تجربته بأحكام تتمثل في أن النساء يعرضن عن رجل شاب رأسه، أو قل ماله، فليس له نصيب بهن، فيرون ذوي المال والثراء، ومن كان في ميعة الشباب والصبا.

وإزاء ما عرف عن المجتمع الجاهلي بأنه يتسم بالانغلاق الاجتماعي أحياناً كثيرة إلا أن فيه إيماءات شعرية، تكشف عن شيء من الإباحية في ذلك المجتمع، فقد ذكر غير شاعر علاقته غير الشرعية مع المرأة بعامة، وكان ذلك مبعث فخر عنده، يقول عمرو بن شأس:

وَبِيضٍ تَطَلَّى بالعَبِيرِ كأنَّمَا يطأْنَ وإنْ أَعْتَقْنَ في جُدَدٍ وَحْلا
لَهَوْنَا بها يَوْماً ويَوْماً بشَارِبٍ إذا قُلْتُ مَغْلُوباً وَجَدْتُ له عَقْلا[٣]

يصور الشاعر الأماكن الفسيحة، يقضي فيها أوقاتاً مع الندامى والأصحاب، أو يجلس إلى نساء متكنزات الجسوم، يمشين متثاقلات على أرض صلبة، كمن يمشي في وحل، وهذا يدل على حياة الترف ونعومة العيش. واجتمع بعض الشعراء إلى النساء في جلسات الشراب واللذة، فجاء في شعر تأبط شراً قوله:

---

(١) امرؤ القيس- الديوان،١٠٦-١٠٧. المرجل: المسرح الجمة المدهونها.

(٢) علقمة الفحل- الديوان، ص ٣٥-٣٦. شرخ الشباب: أجر له.

(٣) عمرو بن شأس- شعره، ص ٧٢. الإعناق: سير فسيح سريع. الجدد: الأرض الصلبة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَقَدْ لَهَوْتُ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضُها بِكْرٍ تُنَازِعُنِي كَأْساً وعِنْقَادا
ثم انْقَضَى عَصْرُها عَنِّي وأَعْقَبَهُ عَصْرُ المَشِيبِ فَقُلْ في صَالِحٍ بَادَا(١)

يمثل الشاعر في هذا النمط من العلاقات الاجتماعية في الحياة الجاهلية جانباً مما أحدثته الحضارة الاجتماعية في عصرنا هذا لدى بعض الشعوب. فاجتماع الشاعر إلى المرأة على كأس من الخمر يقضي بانسجام العلاقة العاطفية، ويترجم البعد الحضاري في الوسط الاجتماعي الجاهلي.

ثم إذا ما انقضى بينهما دهر، وبان الشيب في مفرقيهما، عاد كل منهما يسعى لتصويب مسار حياته الدينية فيعمل صالحاً، وقد ندرك من خلال هذا التصور، أن عودة الإنسان في مشيبه إلى العمل الصالح بعد انفلات اجتماعي، وتخبط في العلاقات الإنسانية، يترجم إحساس الإنسان الجاهلي بدنو أجله، فيحاول حينذاك أن تكون علاقته قائمة على الدين والمعتقد فيتخذ السلوك الديني منهج حياة له للتكفير عن سيئاته.

وقد ظلت علاقة الرجل بالمرأة متصلة بعد سن الشيب والصلع، وهو العمر الزمني الذي يجد فيه صاحبه حرجا، إذا حاد عن جادة الصواب، فهذا ابن مقبل يصف استمرار علاقته مع المرأة في جلسات اللهو والشرب، يقول:

بِيضٌ مَلَاوِيحُ يَوْمَ الصَّيْفِ لا صُبُرٌ على الهَوَانِ ولا سُودٌ ولا نُكُعُ
بَلْ ما تَذَكَّرُ من كَأْسٍ شَرِبْتُ بها وقد عَلا الرَّأْسَ مِنْكَ الشَّيْبُ والصَّلَعُ
مِنْ أُمِّ مَثْوَى كَرِيمٍ هَابَ ذِمَّتَها إنَّ الكَرِيمَ على عِلَّاتِه وَرِعُ
حَوْرَاءَ بَيْضَاءَ ما نَدْرِي أَتَمْكِنُنَا بَعْدَ الفُكَاهَةِ أم تِئْبَى فَتَمْتَنِعُ(٢)

يصف الشاعر مجالس اللهو والشرب التي قضاها بعد الهرم والشيب مع امرأة منعمة مترفة ليس فيها عيب أو مذمة، كريمة المنزل والصفات. ونفس الشاعر تسائله في هذا الموقف هل سيحظى بعد هذه الساعات الممتعة بشيء من هذه المرأة التي فاكهها، أم أنها تتأبى عليه وتتمنع؟ ويبدو أن هذه المرأة قد أسرت

---

(١) تأبط شراً- شعره، ص ٨٠.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص ١٧١. الملاويح: جمع الملواح، وهي المرأة السريعة العطش ها هنا. النكع: جمع نكوع وهي المرأة القصيرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلب الشاعر فبدت لديه رغبة لمجالستها والحديث إليها في حين أنه تظاهر بالكف عن المحارم والقبائح من الأمور فعبر عن كريم أخلاقه، ثم عاد فأفصح عما في نفسه من رغبة في مداعبة النساء.

وكان بعض الشعراء لا يروم، يبني علاقة مع طفلة حديثة العهد، يستغل خفة عقلها، وطيش تصرفاتها، يقول النمر بن تولب:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطِفْلَةٍ مِيَّالَةٍ بَلْهاءَ تُطْلِعُنِي على أَسْرَارِها
عَبِقَ المُمْسِكُ والعَبِيرُ بِجُبِّها وكأَنَّ نَضْحَ دَمٍ عَلَى أَظْفَارِها(١)

فهذه الفتاة البلهاء، فتنت بما ساقه الشاعر إليها من أساليب الغواية والضلال فقادها إلى مرحلة كشفت له عن أسرارها الخاصة، وعلى الرغم من جهل هذه الفتاة وسفاهة عقلها إلا أنها ذكية القلب، فهي تعنى بنفسها، تتطيب وتظهر زينتها لتستميل بها الرجال. والمرأة عند عبيد بن الأبرص غزلة لعوب تصطاد الرجال يقول:

وَغَيْلَةٍ كَمَهَاةِ الجَوِّ نَاعِمَةٍ كأَنَّ رِيقَتَها شِيْبَتْ بِسَلْسَالِ
قَدْ بِتُّ أَلْعِبُها طَوْراً وتُلْعِبُنِي ثُمَّ انصَرَفْتُ وَهِيَ مِنِّي على بَالِ(٢)

فهي امرأة ممتلئة الجسم ناعمة، تبدي عن ريق أشنب بارد استهوت قلب الشاعر، فمكث وقتاً يلاعبها طوراً وتلاعبه، ثم فارقته وهي على شوق كبير إليه. وقد شغف أبو زبيد الطائي كثيراً بالمرأة فجسدها أروع تجسيد، وبلوغه غاية في جمال المرأة ومعرفة كنهها وأسرار جمالها، فيقول:

نِعْمَتْ بِطَانَةُ يَوْمِ الدَّجْنِ تَجْعَلُها دُونَ الثِّيَابِ وقد سَرَّيْتَ أَثْوَابا
قِرَابَ حِضْنِكَ لا بِكْرٌ ولا نَصَفٌ تُولِيكَ كَشْحاً لَطِيفاً لَيْسَ مِجْشَابا
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةً مَحْطُوطَةً جُدِلَتْ شَنْبَاءَ أَنْيَابا
تَرْنُو بِعَيْنَي غَزَالٍ تَحْتَ سِدْرَتِهِ أَحَسَّ يَوْماً مِنَ المِشْتَاةِ هَلاَّبا
بِجِيدِ رِيمٍ كَرِيمٍ زَانَهُ نَسَقٌ يَكَادُ يُلْهِبُه اليَاقُوتُ إِلْهَابَا

---

(١) النمر بن تولب- شعره، ص ٦٠-٦١.

(٢) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَيَّامَ تَجْلُو لَنَا عَنْ بَارِدٍ رَتِلٍ تَخَالُ نَكْهَتَهَا بِاللَّيْلِ سَيَّابا[١]

فقد تمادى الشاعر في هذا الغزل المكشوف وخرج عن الطور الأخلاقي، فهو يتمنى أن يظفر بها فيجعل جسدها بطانة ثوب له في يوم بارد، ذي مطر شديد فينزع عنها ثوبها ويكون شق بطنه جزءاً منها ثم يتمتع الشاعر في وصف مفاتنها فهي ضامرة البطن ملساء الظهر هيفاء عجزاء ليست مترهلة اللحم باردة الأسنان عذبة الريق جيدها متناسق منتظم يزينه الياقوت والحلي[٢].

المرأة المحبوبة

قد يكون للمرأة المحبوبة تصور معين في إحساس الشاعر، أو رؤية متميزة، ونحاول في هذا السرد أن نبين أهم علاقاته مع المرأة المحبوبة حين يتذكرها أو يعبر عن وجده بها أو وصف مفاتنها، أو عن الوصل والقطيعة والهجران.

صور الشاعر الجاهلي علاقته مع المرأة المحبوبة، بكل أنماط العلاقة وجوانبها الإنسانية، وحدد السلوك الذي يثير في نفسه انجذابا نحو المرأة، يقول ذو الإصبع العدواني يتذكر أم هارون ويصور معاناته وموقف الدهر والوشاة، فيقول:

يا مَنْ لِقَلْبٍ شَدِيدِ الهَمِّ مَحْزُونِ أَمْسَى تَذَكُّرُ رَيَّا أُمِّ هَارُونِ
أَمْسَى تَذَكَّرَها من بَعْدِما شَحَطَتْ والدَّهْرُ ذُو غِلْظَةٍ حِيْنَا وَذُو لِينِ
فإنْ يَكُنْ حُبُّها أَمْسَى لَنَا شَجَنًا وأَصْبَحَ الوَلْيُ مِنْها لا يُوَاتِينِي
فقد غَنِيْنَا وَشَمْلُ الدَّارِ يَجْمَعُنَا أُطِيعُ رَيَّا وَرَيَّا لا تُعَاصِينِي
نَرْمِي الوُشَاةَ فَلا نُخْطِي مَقَاتِلَهُم بِخَالِصٍ من صَفَاءِ الوُدِّ مَكْنُونِ[٣]

---

(١) أبو زبيد الطائي- شعره، ص ٣٦-٣٧. يوم دجن: يوم مطر. سربت الثوب: نزعته. المجشاب: البدن الغليظ. المحطوطة: المصقولة الملساء الظهر. الهلابة: الريح الباردة.

(٢) وانظر صورة المرأة عند: الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٥٩-٦٠. امرىء القيس- الديوان، ص ٣١. زهير بن مسعود- قصائد نادرة، ص ١٥٤. عروة بن الورد- الديوان، ص ٥٧. عمرو ب معد يكرب- شعره، ١٢٩. السموأل بن عادياء- الديوان، ص ٤-٨٥. قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١٠٨. أوس بن حجر- الديوان، ص ٤٠. سلامة بن جندل- الديوان، ص ١٨٨-١٨٩. حاتم الطائي- الديوان، ص ٧٩-٨٠. المثقب العبدي- الديوان، ص ١٠-١٥. معاوية بن مالك- أشعار العامرين الجاهليين، ص ٥٢-٥٣. عدي بن زيد- الديوان، ص ١٣٩. المرقش الأصغر- شعره، ص ٥٣٨-٥٣٩.

(٣) ذو الإصبع العدواني- الديوان، ص ٨٨. الولي: القرب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشكو الشاعر همومه وأحزانه للدهر الذي باعد ما بينه وبين محبوبته أم هارون، فقلبه محزون، كلما طرق ذكراها مسامعه، وإذا كان حبها قد أثار شجون الشاعر وأحدث حزناً في قلبه فأصبح الدنو إليها أمرا عسيراً، فإن ما قضياه معاً من لقاءات سابقة تغنيه عن هذا الحرمان ومهما تباعد وصالهما فقد يسهل عليهما إعادة الشمل، لأن كل واحد منهما يطيع الآخر ولا يعصيه.

ويذكر الشاعر موقفه من الوشاة، فيجعل الود والصفاء سلاحا يرد به عليهم، فهو لا يتبنى مبدأ أن الأعداء يعامل بعضهم بعضاً باستخدام أساليب الشر والعنف، بل يتودد إليهم ويتلطف بهم.

والشاعر إزاء ما يعانيه من معاملة من الزمن والإنسان على حد سواء، وما يترتب عليها من متغيرات نفسية، فإن هذه المعاناة تجدد تعلق الشاعر بمحبوبته، وتزرع فيه حس التذكر والشوق.

وللمرأة المحبوبة نصيب وافر من التقدير في المجتمع الجاهلي فكان الشاعر الجاهلي يحفظ عهدها معه، ولذلك كان يكثر من ذكرها والتفكير فيها، يقول عمرو بن شأس:

إذَا نَحْنُ أَدْلَجْنَا وأَنْتِ أَمَامَنَا ... كَفَى لِمَطَايَانَا بِرَيَّاكِ هَادِيا
ذَكَرْتُك بالدَّيْرَيْنِ يَوْماً فَأَشْرَقَتْ ... بَنَاتُ الهَوَى حَتَّى بَلَغْنَ التَّرَاقِيا
أَعُدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ ... وقَدْ عِشْتُ دَهْراً لا أَعُدُّ اللَّيَالِيا
إذا ما طَوَاكِ الدَّهْر يا أُمَّ مالِكٍ ... فَشَأْنُ المَنَايَا القَاضِيَات وَشَانِيا
فَمَا مَسَّ جِلْدِي الأَرْضَ إلا ذَكَرْتُها ... وإلاّ وَجَدْتُ طِيْبَها في ثِيَابِيا[1]

يصور الشاعر مدى حبه أم مالك، وآية ذلك أن الشاعر إذا عزم وصحبه على السفر ليلاً كانت إبلهم تتجه بهم إلى ديار محبوبة الشاعر، وهذا ما يثبت أن راحلة الشاعر تعرف منازل المحبوبة لكثرة الانتقال إليها.

والشاعر يعبر عن ألمه لفراق محبوبته تشكلت لديه على أثر ذلك معاناة مستمرة، فقد عاش دهراً من الزمان يلتقي محبوبته ولكنه الآن يحسب الليالي ويسرّع في انقضائها فآلت حاله من هدوء وطمأنينة إلى شقاء ومعاناة وهذا

---

(١) عمرو بن شأس- شعره، ص ٨٤-٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانقطاع يحدث في نفسه أثراً من السلوك الثوري ضد إرادة الزمن فيتولد عنده مبدأ رفض الواقع والتسلي بآثار الماضي.

ويؤكد الشاعر أن محبوبته تعيش في إحساسه فهي في حركاته وسكناته وإذا كان الأمر غير ذلك فإنه يذكرها من خلال عطرها الذي خالط ثيابه. والشاعر وفي لمحبوبته فهو على عهدها أمين.

وإذا كان عمرو بن شأس أكد في الصورة السابقة أن تذكره محبوبته يتزامن مع حركاته أو سكناته فإن بشرا الشاعر يربط ذلك التذكر مع الدمن التي بادت قديماً منذ عهد عاد، يقول:

أَمِنْ دِمْنَةٍ عَادِيَّةٍ لم تَأَنَّسِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الكَثِيبِ فَعَسْعَسِ
ذَكَرْتَ بها سَلْمَى فَظَلْتَ كأَنَّنِي ... ذَكَرْتُ حَبِيبا فَاقِدا تَحْتَ مَرْمَسِ
فَأَسْبَلَتِ العَيْنَانِ مِنِّي بِوَاكِفٍ ... كما انْهَلَّ مِنْ وَاهِي الكُلَى مُتَبَجِّسِ
سَرَاةَ الضُّحَى حتَّى تَجَلَّت عَمَايَتِي ... وقال صِحَابِي أَيُّ مَبْكًى ومَحْبَسِ(١)

فقد جعل الشاعر حدود المكان بين الكثيب فعسعس مرتبطاً بزمان الدمن الدارسة التي تقادم عهدها ليقرن بها علاقته مع سلمى التي ظل الشاعر يذكرها بعد انقطاع وصل دام طويلاً كأنما يذكر حبيباً له دفن في قبر طوته ذاكرة الزمن تلك الذكرى التي هيجت إحساس الشاعر، فأخذت عيناه تذرفان دمعاً حتى ارتفعت شمس الضحى في السماء، وأدرك أصحابه ما به من عمى القلب حين تذكر محبوبته.

ويصور الفند الزماني شدة تعلقه بليلى التي سلبت عقله، فيقول:

أَيْنَ لَيْلَى وأَيْن لَيْلي ولَيْلَى ... أَمْرَضَتْ غَيْرَنا رِجَالاً صِحَاحا
لا تَرَى عَاشِقاً تَعَلَّقَ لَيْلَى ... ويُلَاقِي المَمَاتَ مِنْهَا رَوَاحا
عَاجَ لي ذِكْرُها حَمَام هُدُوٌّ ... يَذْكُرُ الإِلْفَ في الغُصُونِ فَنَاحَا(٢)

لها القدرة على امتلاك الرجال، فهي تأسر قلب كل من يتعلق في حبها، فكم رجل راجح العقل سلبت قلبه، وأوقعته في شباكها فليس ثمة عاشق وقع في حبها

(١) بشر بن أبي خازم- الديوان،ص ٩٩-١٠٠. عادية: قديمةكأنها نسبت إلى عاد. السقط: منقطع الرمل. وارهي الكلى: يريد مزادة واهية الكلى. العماية: الجهالة.

(٢) الفند الزماني- شعره، ص٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأفلت منها. والشاعر واحد من بين الذين هاموا في حبها، فأخذ يتساءل عنها بلهفة وشوق.

وتكرار التسآل عنها، يقود إلى أن طيفها ألم بالشاعر فعادت له ذكراها الطيبة وكان كلما هدل الحمام وناح على أعضانه الميادة تذكر ليلى وذرف من أجلها دموع الحزن والألم.

وفي الشعر الجاهلي صور إنسانية تعبر عما تفرزه علاقة الحب، من وجد ولوعة في قلب الرجل، يقول الأعشى:

نَامَ الخَلِيُّ وبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ... أَرْعَى النُّجُومَ عَمِيداً مُثْبِتاً أَرِقا
أَسْهُو لِهَمِّي ودَائِي فَهْي تُسْهِرُنِي ... بانَتْ بِقَلْبِي وأَمْسَى عِنْدَها غَلِقا
يا لَيْتَها وَجَدَتْ بي ما وَجَدْتُ بها ... وكَانَ حُبٌّ وَوَجْدٌ دَامَ فاتَّفَقَا
لا شَيءَ يَنْفَعُنِي من دُونِ رُؤْيَتِها ... هل يَشْتَفِي وَامِقٌ ما لم يُصِبْ رَهَقا(١)

يعبر الشاعر عن حرقة كبده وكلفه الشديد بمحبوبته التي أورثت له هما مستديما فبات ليله ساهراً قتيل الفؤاد مؤرقاً، يرقب النجوم متكئاً على مرفقه وقد أضناه الشوق، فشغف فؤاده بها حتى صار رهينة عندها. والشاعر إزاء هذا الوجد والهيام فهو يتمنى أن تبادله حباً بحب، فيلقى منها مثل ما يكنه لها حتى يجمعهما ودّ لا يزول، فلا دواء يشفى علة نفسه سوى دوام رؤيتهاوالدنو إليها.

ونتيجة لما يحدثه الحب في قلب صاحبه من وجد وحرقة كبد، ولوعة، فقد رأى بعض الشعراء أن الموت أهون عليه من حياة يسودها مكابدة الحب يقول طرفة بن العبد:

لَعَمْرِي لَمَوتَ لا عُقُوبَةَ بَعْدَهُ ... لِذي البَثِ أَشْفَى مِنْ هَوًى لا يُزَايِلُه
فَوَجْدِي بِسَلْمَى مِثْلُ وَجْدِ مُرَقِّشٍ ... بِأَسْمَاءَ إذْ لا تَسْتَفِيقُ عَوَاذِلُه
قَضَى نَحْبَهُ وَجْداً عَلَيْهَا مُرَقِّشٌ ... وعلِّقْتُ مِن سَلْمَى خَبَالا أُمَاطِلُه(٢)

---

(١) الأعشى- الديوان، ص ٤٠١. ارتفق: اتكأ على مرفقه. العميد: الذي أضناه الحب. سها: نظر. الوامق: المحب. الرهق: القرب.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ١٢٠. البث: الحزن. لا تستفيق عواذله: لا يتركن من عذلهن له مقدار فيقة. والفيقة: ما بين الحلبتين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقسم الشاعر يميناً أن موت الإنسان بسبب هموم الحياة ومتاعبها أهون عليه من أن يعيش في لوعة وحزن دائبين، فما لقيه الشاعر من وجد بسلمى، لا يقل عما وجده المرقش الشاعر من أسماء التي كلف بها فقضى بسببها، وكذلك فإن حال طرفة، كحال المرقش فقد وُجد بسلمى وحزن، حتى أصابه خبل في العقل فغيرت مسار إدراكه ووعيه(١).

ومن هذه حاله وشأنه، فإنه يعيش ملتاع القلب، محزون الفؤاد، مهموم البال والخاطر. وهذا بشر بن أبي خازم يعبر عن معاناة قلبه وما تركته سلمى من وجد حين ارتحلت عن الديار يقول:

تَعَنَّى القَلْبُ مِنْ سَلْمَى عَنَاء فَمَا للقَلْبِ مُذْ بَانُوا شِفَاءُ
أَكاتِمُ صَاحِبي وَجْدِي بِسَلْمَى ولَيْسَ لِوَجْدِ مُكْتَتِمٍ خَفَاءُ
فَلَمَّا أَدْبَرُوا ذَرَفَتْ دُمُوعِي وَجَهْلٌ من ذَوِي الشَّيْبِ البُكَاءُ(٢)

يشكو الشاعر شدة وجده الذي أحدثته سلمى عند رحيلها، وما تلاه من معاناة وهموم فأصبح قلبه مكدوداً، متعباً، ولم يعد ثمة من يعزيه ويسليه. وقد حاول الشاعر أن يكتم وجده فيخفيه عن أصدقائه، لكن ذلك لم يكن خافياً لأحد، فالقوم كلهم عرفوا ما فيه من لوعة حب والشاعر أخذ على نفسه هذا السلوك بعد المشيب، يقول المسيب بن علس:

كَلِفْتُ بِلَيْلَى خَدِينَ الشَّبَابِ وعَالَجْتُ مِنْها زَمَانَا خَبَالا
فَدَعْ عَنْكَ لَيْلَى وَأَتْرَابِها فَقَدْ تَقْطَعُ الغَانِيَاتُ الوِصَالا(٣)

فقد كلف الشاعر بليلى وأصابه منها عناء وخبالاً، ثم يفيء إلى نفسه بعد طول مشقة فيعيب نفسه، لسعيه وراءها بعد ما غزا الشيب مفرق شعره وكأنه أعرض عن طلبها إذ لا طائل من السعي وراء الغانيات.

ومن خلال علاقة الشاعر بالمرأة المحبوبة، فقد وقف على مفاتنها الحسية ووصفها مشبباً بها حتى غدت هذه الصفات من أهم المعايير التي تساهم في إقامة

---

(١) انظر قصة المرقش الأكبر مع أسماء: ابن قتيبة- الشعر والشعراء، ج ١، ص ٢١٠-٢١١.

(٢) بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١-٢.

(٣) المسيب بن علس- شعره، ص ١٢٦. الخدين: الصديق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقة بين الرجل والمرأة، وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل:

عَرَفْتُ بِجَوِّ عَارِمَةَ المُقَامَا ... لِسَلْمَى أو عَرَفْتَ لهَا عَلاَمَا
لَيَالِي تَسْتَبِيكَ بذي غُرُوبٍ ... وَمُقْلَةِ جُؤْذَرٍ يَرْعَى بَشَامَا
وإذ قَوْمِي لأُسْرَتِها عَدُوٌّ ... لِتُبْلِيَ بَيْنَها سَجْلا وَخَامَا
فإنْ يَمْنعك قَوْمُك أن تبيني ... فقد نَغْنَى بِعَارِمَةٍ سِلاَمَا
فلو عَلِمَتْ سُلَيْمَى عِلْم مِثْلي ... غَدَاةَ الرَّوْعِ واصَلَتِ الكِرَاما(١)

يصور الشاعر جوّ عارمة ذلك المكان الذي عرف به سلمى، حين صادفته بيعني جؤذر وثغر أشنب بارد فسبته بهما وهو عدو لقومها، وقد يكون لهذه العلاقة أثر في تحول سياسة القبائل المتعادية إلى الوجه الإيجابي فتنمو العلاقات على إصلاح حال القبائل ورأب صدعها.

ويقيم الشاعر مع محبوبته حواراً يتمثل في تأكيد رغبته على بقاء المودة قائمة بينهما، ولو علمت سلمى بما بذله الشاعر من جهد يوم الروع لتعلقت به رغم عداء القبائل ولعل الشاعر بهذه السياسة الهادئة يطلب من سلمى أن تثور على أعراف قومها فتحفظ وصاله وإن لم تستطع فقد يكفيهما جو عارمة ذكرى ومودة ولعل هذا النمط من العلاقة يترجم قدرة الشاعر على اختراق الحواجز الإقليمية والقبلية فيبني علاقة مودة مع فتاة من قبيلة معادية.

وأمية بن أبي الصلت، يقع في حب سلمى، ويظلمه فيها أبوها، وإخوتها فيظهر تذمره من ما سلكوا، فيقول:

أَفِي سَلْمَى يُعَاتِبُنِي أَبُوها ... وإِخْوَتُها وَهُمْ لي ظَالِمُونا
فإنَّكِ قَدْ شَغَفْتِ القَلْبَ حَتَّى ... بَلِيتُ ولا أَرَاكِ تُغَيِّرِينا
أَجُودُ وتَبْخَلِينَ إذا التَقَيْنَا ... يَلِينُ لَكِ الفُؤَادُ وتَغْلُظِينَا(٢)

يمنح الشاعر نفسه، حق الوقوع في حب سلمى التي أبدت له مفاتن شغفت منه القلب والفؤاد ثم يعود ثانية ليعبر عن سخطه لما أبدت من تحول وصد، فقد تأثرت بموقف أبيها وإخوتها من الشاعر، فأعرضت عنه، وبخلت عليه.

---

(١) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١١٥-١٢٢. السجل: الدلو العظيمة المملؤة ماء. وخم الطعام: إذا ثقل فلم يستثمر. عارمة: أرض لبني عامر. سلاما: أي سلما.

(٢) أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٥١١-٥١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعدي بن زيد يكشف عن صورة جمالية في المرأة غير التي ذهبت إليها النصوص السابقة، فهو يتغزل بأصابعها الناعمة وأسنانها التي تشبه الأقحوان وهذا يدل على رغد العيش، وترف الحياة، يقول:

مَنْ لِقَلْبٍ دَنِفٍ أو مُعْتَمَدْ قَد عَصَى كُلَّ نَصِيحٍ ومُفَدْ
راعَنِي مِنْهَا بَنَانٌ نَاعِمٌ كَسُيُورِ القِدِّ في مِثْلِ البَرَد
وشَنِيبٌ كالأَقَاحِي شَابَهُ نُضْحُ ماءِ المُزْنِ في غَيْرِ صَرَد
حُرَّةُ الطَّرْفِ رَخِيمٌ دَلُّها لم تُعَالِجْ سُوءَعَيْشٍ في كَبَد
تَسْرِقُ الطَّرْفَ بعَيْنَيْ جُؤْذُرٍ مُسْتَحِيلٍ بَيْنَ رَمْلٍ وَجَلَد(١)

فقلب الشاعر أدنفه حب سلمى التي تعصي كل من يفديها بنفسه، فهي فتاة متمنعة، راعه منها ما رآه من مظاهر ترف، ظهرت بادية عليها من خلال أناملها الناعمة وما جلت عن عوارض وأسنان بيضاء يتخللها رضاب عذب كأنه خلط بماء المزن الصافي الذي لا تشوبه شائبة تنظر بعينين حذرتين كعيني بقرة وحش، راعها انفرادها في بيداء واسعة.

وفي الشعر الجاهلي ما يشير إلى حياة الوصل والهجر، بين الشاعر ومحبوبته ونتيجة لذلك كان لا بد من تحديد علاقة الشاعر بها يقول المرقش الأصغر:

ألا يا اسْلَمِي بالكَوْكَبِ الطَّلقِ فَاطِما وإنْ لم يَكُن صَرْفُ النَّوَى مُتَلَائِما
ألا يا اسْلَمِي ثم اعْلَمِي أنَّ حَاجَتِي إليْكِ فَرُدِّي مِنْ نَوَالِكِ فَاطِمَا
أَفَاطِم لو أنَّ النِّساءَ بِبَلْدَةٍ وأَنْتِ بأُخْرَى لاتَّبَعْتُكِ هَائِما
متَى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يَصْرِم خَلِيلَهُ ويَعْبَدْ عَلَيْه لا مَحَالَةَ ظَالِما(٢)

يعبر الشاعر عن حاجته الماسة إلى فاطمة التي يحب، ويطلب اليها النوال والوصل وهو من شدة هيامه بها يرفض أن يتعلق قلبه بغيرها، فهو يشيح بوجهه عن جميع النساء، ويسعى لطلبها هي وحدها ثم يعود إليها فيبين أن حفظ الود

---

(١) عدي بن زيد- الديوان، ص ٤٢. قلب دنف: لازمه المرض. القد: الجلد غير المدبوغ. الصرد: الخالص.

(٢) المرقش الأصغر- شعره، ص ٥٣٦. الطلق: الذي لا حر فيه. يعبد: يغضب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والوصال تبنيه أحكام سريعة، تقع تحت تأثير انفعال، أو نزوة جامحة وهو لا يريد محبوبته أن تكون من هذه الفئة، فالود يحفظه أصحابه الذين يتغاضون عن صغائر الأمور التي تؤدي إلى الظلم والقطيعة.

وبعض الشعراء يتأسى على الأماكن التي جمعته مع محبوبته، فغدت رمزاً لكل محب، يقول زيد الخيل:

سَقَى اللّهُ ما بَيْنَ القَفِيلِ فَطَابَةٍ ... فما دُون أَرْمَامٍ فَمَا فَوْقَ مُنْشِدِ
هُنَالِكَ لو أنِّي مَرِضْتُ لَعَادَنِي ... عَوَائِدُ مَنْ لَمْ يُشْفَ مِنْهُنَّ مُجْهِد
فَلَيْتَ اللَّوَاتِي عُدْنَنِي لم يَعُدْنَنِي ... ولَيْتَ اللَّوَاتِي غِبْنَ عَنِّي عُوَّدِي[1]

يدعو الشاعر إلى هذه الأماكن بالسقيا والغيث فهي أماكن خصب لأنها كانت موطن بذار حبه تمثلت في تشكل علاقته بمن يحب ويهوى، فهذا المكان يعيش في نفس الشاعر ووجدانه، ويشير إلى بعد العلاقات الاجتماعية التي انبثقت عن هذه الأماكن فعرف فيها معظم نساء الحي اللواتي يعدنه في حال مرضه، والشاعر لا يقبل بهن عوائد، إنما يبحث عن إنسان غائب، أحبه قلبه فكان ذلك يتمثل في محبوبته التي تمنى ألا يعوده أحد سواها.

وتناول بعض شعراء الجاهلية مجالس اللهو التي كان يقضيها مع المرأة المحبوبة، فهذا تميم بن مقبل يذكر ليلة سمر قضاها مع كبيشة، فيقول:

لَيْتَ اللَّيَالِي يا كُبَيْشَةُ لم تَكُنْ ... إلا كَلَيْلَتِنَا بِخَبْتِ طِحَالِ
بِتْنَا بِدَيِّرة يُضِيءُ وُجُوهَنَا ... دَسَمُ السَّلِيطِ على فَتِيلِ ذُبَالِ
حتى انْتَشَيْنَا عِنْدَ أَدْكَنَ مُتْرَعٍ ... جَحْلٍ أُمِرَّ كُرَاعُهُ بِعِقَالِ
مما تُعَتَّقُ في الدِّنَانِ كأَنَّها ... بِشِفَاهِ نَاطِلِها ذَبِيحُ غَزَالِ
وَغِنَاءِ مُسْمِعَةٍ جَرَرْتُ لِصَوْتِها ... ثَوْبِي ولَذَّةِ شَارِبٍ وفِضَالِ[2]

يصور الشاعر جمال تلك الليلة التي قضاها بخبت طحال مع كبيشة، وهي ليلة بات الشاعر فيها مع محبوبته في نشوة وطرب، يشربان خمرا معتقة صافية

---

(١) زيد الخيل- الديوان، ص ٥٢-٥٣.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٥٧-٢٥٩. أدكن: زق. الجحل: الزق العظيم. كراعه: رجله. الناطل: الذي يصب الخمر. العضال: التفاضل بين القوم في الفضل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبين في دنانها كدم الغزال، ويستمعان إلى مغنية حسنة الصوت، طويلة الجيد، تسعى إلى جماعة الشاربين بثياب فتبدي لهم عن زينتها وأدوات حليها.

وإزاء هذا التصور في قضاء أوقات اللهو مع المرأة ومجالس الشراب، فإن هذه المظاهر لا تكاد تختلف عما هي عليه في أيامنا هذه، فالخمر والنساء والطرب كل هذا ظواهر اجتماعية تبين في كل عصر وزمن. وقد تكون "المرأة بنظر الإنسان العادي، هي أنوثة الجسد، أما بنظر الفنان الشاعر، فهي جسد الأنوثة، النظرة الأولى نظرة افتراس، يجب أن تسبق بكل تأكيد تلك النظرة الثانية التي هي نظرة الانغراس"(١)، وعلى أثر ذلك، فقد تجسدت علاقة الإنسان الجاهلي مع محبوبته من تجارب متعددة، فهذا امرؤ القيس يصور إباحيته مع المرأة، دون أن يأخذ للموازين القيمية أي أهمية، يقول:

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذي شَمَارِيخَ مَيَّالِ
وَصِرْنَا إلى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إذْلَالِ
فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وأَصْبَحَ بَعْلُها ... عَلَيهِ القَتَامُ سَيِّئَ الظَّنِّ والبَالِ
يغِطُّ غَطِيطَ البِكْرِ شُدَّ خِنَاقُه ... لِيَقْتُلَنِي والمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالِ
أَيَقْتُلَنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيَابِ أَغْوَالِ
أَيَقْتُلَنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فُؤَادَها ... كَمَا شَغَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَالِي(٢)

تجاوز امرؤ القيس حد المألوف في منظومة القيم الاجتماعية، وهذا النمط من العلاقات، يفصح عن تمثل الشاعر لمفهوم الغزل الإباحي أو المكشوف، تمثلاً واقعياً يظهر فيه أنوثة المرأة على حقيقتها لأنه أبقى في تجسيد مفاتن المرأة إلى حدّ الإسراف.

وكان امرؤ القيس يؤثر اللذة الحسية السادية على السعادة الأليفة الداجنة في عائلة يقيم بين أحضانها، فأنت تراه مفاخراً بالاقتحام على المرأة المرضع والاستئثار بالزوجة بين يدي الزوج مخلفاً إياه في حالة من الفكر والغيظ. وهذا النوع من الفخر ينطوي على أكثر من معناه الظاهر، إذ يوعز الشاعر من خلاله،

(١) قصي الحسين- العمارة الفنية في شعرا امرىء القيس، ص ٤٣.

(٢) امرؤ القيس- الديوان،ص ٣٢-٣٣. هصرت: جذبت. البكر: الفتى من الإبل. المهنوءة: المطلية بالقطران.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بإلحاده المطلق الذي لا يتحرم فيه بحرمة العائلة ولا يؤخذ فيه بمآخذ العفة فكأن القيم جميعاً انتفت بالنسبة إليه[١].

ونجح الشاعر في ترويض المحبوبة بعد تمنع، فنال منها ما يريد حتى أصبح هو المعشوق، وهذا إيحاء إلى ما يملكه الشاعر من دربة في أمور النساء.

وأيّ غزل هذا الذي يجرؤ فيه الشاعر وأمثاله إلى تجاوز القيم الإنسانية كلها، فيأتون نساء غيرهم، وبعولتهن ينامون إلى جوارهن. وقد نذهب في الحكم إلى أن طبيعة المجتمع الجاهلي الذي لم تكن تحكمه ديانة تنظم حياته، كان يسمح بهذا النمط من الانفلات الأخلاقي، أو أن خيانة الزوجة إلى جانب استخدام التهديد قد فرضا نفسيهما على هذا اللون من العلاقات الاجتماعية. فالزوج هنا، معدوم الحضور والمكانة، فهو على رأي الشاعر، رجل تملكته الغيرة على وجهه فتظاهر بالنوم حتى تسنح له الفرصة فيثأر لكرامته، ولكنه يخشى سطوة رجل يتشح بسيف عضب، ورماح مسنونة.

ونتيجة لتعلق الإنسان الجاهلي بالمرأة فقد عبر الشعراء عن التنائي والوصل حتى باتت هذه الحالة تشكل ظاهرة مأساوية في نفس الشاعر، يقول تميم بن مقبل في علاقته مع دهماء زوجة أبيه التي أصبحت مجرد ذكرى في خاطره:

أَبَى القَلْبُ إلا ذِكْرَ دَهْمَاءَ بَعْدَما ... غَنِينَا وأَضْحَى حَبْلُها قَدْ تَبَتَّرا
وكُنَّا اجْتَنَيْنَا مَرَّةً ثَمَرَ الصِّبَا ... فلم يَبْقَ مِنْهُ الدَّهْرُ إلا تَذَكُّرَا
وعَمْدا تَصَدَّت يَوْمَ شَاكِلَةِ الحِمَى ... لتَنْكَأَ قَلْباً قد صَحَا وتَوَقَّرَا[٢]

يأبى الشاعر إلا أن يكون مشدوداً إلى دهماء التي باتت ذكرى في خياله لما أصابهما من فراق. فقد غدا حبل المودة بينهما مبتوراً. والشاعر شديد التحسر على ما فاته من أيام جنى فيها مع دهماء ثمار الحب في أيام الجهل والفتوة، وقد مرّت ذات يوم بمنازل الحيّ، لتحيي الحب وتجدده في قلب الشاعر الذي صحا عن الغواية ولزم الوقار.

---

(١) في النقد والأدب- إيليا الحاوي، ج ١، ص ١٦٠.

(٢) تميم بن مقبل- الديوان، ص ١٤٢-١٤٣. غنينا: افترقنا. شاكلة الحمى: جانبه. توقر: لزم الوقار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وفي تضاعيف الوصف الحسي لجسم الحبيبة، كان كثير من الشعراء يصفون ما يحسونه من النشوة والبهجة، حينما يؤخذون بجمال حبيباتهم وما يشعرون به من الألم والعذاب عند فراقهن"(١).

والحارث بن حلزة اليشكري، يجعل الفراق قائماً بينه وبين أسماء، بعد عهد من الوصال دام طويلاً، يقول:

أَذَنَتْنَا بِبَيْنِها أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَّا ءَ فَأَدْنَى دِيَارِها الخَلْصَاءُ
لا أَرَى مَنْ عَهِدْتُ فِيها فَأَبْكِي الـ يَوْمَ دَلْها وَمَا يُرَدُّ البُكَاءُ(٢)

لقد شعرت أسماء أن المكان الذي أقامت فيه قد سئمها وملها، فكانت أعلنت فراقها عنه وهجرها إياه، وهذا القرار يهدد الشاعر ويقض مضجعه؛ لأنه أقام مملكة حبه في ذلك المكان الذي أعلنت عنه الرحيل.

فبرقة شماء والخلصاء، كلها أماكن شكلت عند الشاعر تحولا في سلوكه العام، وهذه الأمكنة التي لم ير فيها حضوراً لأسماء التي رحلت عنه، أحدثت له حزناً في القلب لا يزول.

ولكن أسماء هي الأخرى، باتت مهمومة الوجدان، فقد شاركت الشاعر همومه، فباتت توقد نارا في أعالي الجبال، ليراها الشاعر من خلال ضوئه وهو يعلم أن المزار إليها بعيد، وقد يستعين على تصريف همومه بثوائه في ذلك المكان الذي يطل من بعيد.

وقد تعرض الشعراء إلى هجر وقطيعة من محبوباتهم، أدى ذلك إلى التعبير عما في مواجدهم ونفوسهم يقول المثقب العبدي في محبوبته هند التي رحلت عنه دون وداع:

أَلا إِنَّ هِنداً أَمْسِ رَثَّ جَدِيدُها وَضَنَّتْ وَمَا كَانَ المَتَاعُ يَئُودُها
فَلَوْ أَنَّها مِنْ قَبْلُ جَادَتْ لَنَا به على العَهْدِ إذ تَصْطَادُنِي وأَصِيدُها
ولكنَّها مما تُمِيطُ بِوُدِّها بَشَاشَةُ أَدْنَى خُلَّةٍ تَسْتَفِيدُها(٣)

(١) علي الجندي- ملحق تاريخ الأدب الجاهلي، ص ٤١.

(٢) الحارث بن حلزة- الديوان،ص ٩. أذنتنا: أعلمتنا. دلها: باطلا.

(٣) المثقب العبدي- الديوان، ص ٨٣-٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتأسى الشاعر على اللحظة الزمنية التي فارقت فيها محبوبته الديار، وقد بخلت عليه بكلمة وداع، ولحظة الرحيل هي التي قصرت من عمر الزمن، فلو طال المكث بهذا لقوي العهد والوصال، لكنها أماطت بودها عنه، وانصرفت إلى غير أوبة.

والشاعر "هذا المحب الذي نأت عنه الحبيبة أو نأى عنها، لا يفتأ يذكرها ويتذكرها، ويتمثلها في حله وارتحاله، ويقظته ومنامه، ولقد يسعده طيفها في حلمه، فإذا صحا لم يجد إلا نفسه"(١).

وكانت للظروف الاجتماعية والاقتصادية أثر في إيجاد عامل الفرقة بين الرجل ومحبوبته، يقول عنترة العبسي:

كَيْفَ المَزَارُ وقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُها ... بِعُنَيْزَتَيْنِ وأَهْلُنَا بالغَيْلَمِ
إن كُنْتِ أَزْمَعْتِ الفِرَاقَ فَإِنَّما ... زُمَّتْ رِكَابُكُم بِلَيْلٍ مُظْلِمِ
ما رَاعَنِي إلا حَمُولَةُ أَهْلِها ... وَسْطَ الدِّيارِ تَسفُّ حَبَّ الخُمْخُمِ(٢)

فقد راع الشاعر، ما شاهده في ديار المحبوبة، من ركاب محملة بالأقتاب والمتاع إيذانا بالرحيل، وقد أزمعوا على ذلك في وقت متأخر من الليل فتعذر على الشاعر أن يتم المزار بينه وبين محبوبته.

وهذا النابغة الذبياني يقف على ذكريات سعاد التي انقطع حبل مودتها ويصف ودها له، يقول:

بَانَتْ سُعَادُ وأَمْسَى حَبْلُها انْجَذَما ... واحْتَلَّتِ الشَّرْعَ فالحَيَّيْنِ مِنْ إضَما
لَيْسَتْ مِنَ السُّودِ أَعْقَابًا إذا انْصَرَفَتْ ... والبَائِعَاتِ بِشَطَّيْ نَخْلَةَ البُرَمَا
غَرَّاءُ أَكْمَلُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ ... جِسْماً وأَحْسَنُ مَنْ حَاوَرْتَهُ الكَلِما(٣)

إن انقطاع عهد المحبوبة، ورحيلها، باتا يشعلان في قلب الشاعر جذوة حزن وألم لما تتصف به المحبوبة من كمال الحسن والخلق، فهي كريمة الحسب عزيزة النفس ليست من المبتذلات، يُسَرّ الناظر إليها، ويسعد المستمع بحديثها.

"وهكذا فإن المرأة الرضية الناعمة التي يتغنى بها الشاعر، هي تعبير غير مباشر عن تغنيه بنعيم الحياة وإقبالها وخيرها وجمالها"(٤)، ولتأكيد مكانة المرأة

(١) أحمد الحوفي- الغزل في العصر الجاهلي، ص ٢٩٦.
(٢) عنترة- الديوان، ص ١٨٧-١٨٨. أزمعت: عزمت. زُفت ركابكم: شُدت.
(٣) النابغة الذبياني- الديوان، ص ١٠٥-١٠٦. بُرم: قدور من حجارة.
(٤) إيليا الحاوي- في النقد والأدب، ج ١، ص ١٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في نفوس الجاهليين، فيكفي "أن القصيدة الجاهلية كانت تبدأ بذكرها وإظهار الأسى والحزن لفراقها، والبكاء على أطلال ديارها"(١).

ومن الشعراء من بعث رحيل الأحبة في نفسه جزعاً لا ينقطع ودموعاً لا تتوقف، يقول علقمة الفحل:

هَلْ ما عَلِمْتَ وما اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ ... أم حَبْلُها إذ نَأَتْكَ اليَوْمَ مَصْرُومُ
أمْ هَلْ كَبِيرٌ بَكَى لم يَقْضِ عَبْرَتَهُ ... إثْرَ الأحِبَّةِ يَوْمَ البَيْنِ مَشْكُومُ(٢)

فقد فوجيء الشاعر برحيل القوم، دون أن يشفي نفسه من أحبته، ويتساءل عما إذا بقي عهد المودة قائماً بينهما، أم أن الرحيل سيجعل هذه العلاقة طي النسيان؟.

وقد ساد علاقة الرجل بالمرأة المحبوبة شعور بالغيرة، من أناس الحي فكثر الواشون الذين كانوا يهدفون إلى قطع المودة بين المحبين، يقول الأعشى:

وفي الحَيِّ مَنْ يَهْوَى لِقَانَا وَيَشْتَهِي ... وآخَرُ مَنْ أَبْدَى العَدَاوَةَ مُغْضَبُ
فمَا أَنْسَ مِلأَ شَيْءٍ لا أَنْسَ قَوْلَها ... لَعَلَّ النَّوَى بَعْدَ التَّفَرُّقِ تُصْقِبُ(٣)

يكشف الشاعر عن سلوك أبناء الحي حين رأوه على علاقة مع إحدى النساء، فمنهم من رغب في بقاء العلاقة قائمة ومنهم من نظر بعين الغيرة والغضب، يسعى إلى تحطيم العلاقة بينهما، والشاعر يضع كل هذا دبر أذنه، فقد سلاه ونسيه، سوى قولها له لعل النوى تقربنا بعد تفرق واغتراب، متحدية بذلك كل أعراف المجتمع وتقاليده. ولعل موقف هذه المرأة ينم عن شيء من التحرر الذي يكشف عن الجانب الضار في المجتمع الجاهلي.

وعبّر تميم بن مقبل عن فئة الحساد والوشاة الذين يعترضون سبيله، في حين أن لا أحد من الأقارب أو الغرباء كشف علاقته مع محبوبته، يقول:

ولَقَدْ أَرَانا لا يَشِيعُ حَدِيثُنَا ... في الأَقْرَبِينَ ولا إلى الأَجْنَابِ
ولقد نَعِيشُ وَوَاشِيَانا بَيْنَنَا ... صَلِفَانِ وهْي غَرِيرَة الأَتْرَابِ

(١) محمد عثمان علي- في أدب ما قبل الإسلام، ص ٤٧.

(٢) علقمة الفحل- الديوان، ص ٥٠، المشكوم: المجازى.

(٣) الأعشى- الديوان، ص ٢٣٧. تصقب: تدني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَفَظَتْ كُبَيْشَةُ قَوْلَ شَكٍّ كَاذِبٍ منها وَبَعْضُ القَوْلِ غَيْرُ صَوَابِ[١]

يعيش الشاعر في علاقته العاطفية ضمن مجتمع، يسوده الشك والحسد والغيرة، فهو حريص على ألا يشيع خبره مع كبيشة عند الناس، أقرباء وغرباء، ثم يصور ظلم مجتمع الوشاة في معاملتهم لطائفة المحبين، فهم يضيقون العيش على أصحاب القلوب المتآلفة، ولكن الشاعر غير آبه بما يفعله الأعداء والوشاة؛ لأنه يطمئن إلى ما تقوم به كبيشة من رفض قاطع لكل واش يدعي عليها كذباً وزوراً.

وكان بعض حالات الفراق بين الرجل والمرأة، تعود إلى فعل الوشاة الذين نجحوا في إحداث هذه الفجوة العاطفية، فحركة الإنسان الدائبة في محور الزمان استطاعت بعين غاضبة أن تقوض أي علاقة بين طرفين تقوم على قدر من الانسجام والمودة.

وقد تشترك المرأة إلى جانب الوشاة في إحداث تغيير العلاقة مع الرجل يقول زهير بن أبي سلمى:

صَرَمَتْ جَدِيدَ حِبَالِها أَسْمَاءُ وَلَقَدْ يَكُونُ تَوَاصُلٌ وَإِخَاءُ
فَتَبَدَّلَتْ مِنْ بَعْدِنَا أو بُدِّلَتْ وَوَشَى وُشَاةٌ بَيْنَنَا أَعْدَاءُ[٢]

إن حبال الوصل مع أسماء قد تغيّرت وتقطعت بعد مودة، وأصبح عنها اليوم نائياً، وسلاها بعد حب أحدث في قلبه داء، وسيحرص الشاعر على أن يحفظ هذا العهد فلا تحول عنه مهما حاول الوشاة أن يفرقوا أو يضعفوا حبل المودة بينهما[٣].

---

(١) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٣.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٠١.

(٣) وانظر صورة المرأة المحبوبة عند:

امرىء القيس- الديوان، ص ١٢-١٣، ٤١. الأعشى- الديوان، ص ٨١، ١١٣، ٣٥٧، ٤٠١-٤٠٢. عدي بن زيد- الديوان، ٥٠، ٦٣، ٩٣، ١٣٨. ربيعة بن مقروم- شعره، ص ٩، ١٨، ٢٧-٢٨. علقمة الفحل- الديوان، ص ٣٣-٣٤، ٧٩، ٨٢-٨٤. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٦٨، ٣١١. بشر بن أبي خازم- الديوان، ص ١٣-١٤، ٢٠-٢٩، ٨٠-٨٢، ١٦١، ٢٠١-٢٠٢. أوس بن حجر- الديوان، ص ٣٩، ١١٧. أحيحة بن الجلاح- الديوان، ص ٦٢، ٧٣-٧٤. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ٤٠، ٤٣، ٨٠، ١١٠. المثقب العبدي- الديوان، ص ١٦٠-١٦٤. المرقش الأصغر- شعره، ص ٥٣٦. قيس بن الخطيم- الديوان، ص ١١١-١١٣. زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٣١-٣٢. عمرو بن قميئة- الديوان، ص ١١٦-١١٧. الحادرة- الديوان، ص ٨٠-٨١. عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٣٨٣. عنتره- الديوان، ص ٣٠٨. عمرو بن شاس- شعره، ص ٨١-٨٢. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١٢٨-١٣٠. ضمرة بن ضمرة- شعره، ص ١١٧-١١٨. العباس بن مرداس- الديوان، ص ١١ ١١٥. أمية بن أبي الصلت- الديوان، ص ٤٥٠، ٥١١-٥١٢. المرقش الأكبر- المفضليات، ص ٢٣١-٢٣٢. طرفة بن العبد- الديوان، ص ٨٦. الأسود بن يعفر- الديوان، ص ٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرأة الزوجة

تعددت أنماط العلاقات الزوجية في العصر الجاهلي بين الرجل والمرأة، ومن الطبيعي أن تتفاوت هذه الأنماط؛ لأن ذلك مرتبط بتقلب الحياة في شتّى مجالاتها، والإنسان أيا كان نوعه يدور في فلك هذه الحياة لا يملك من أمره شيئاً، فهو مقود إلى الحياة، ولذلك نرى في كثير من الأحيان أن الحياة هي التي تصنع الإنسان، وتعده في أحضانها ثم تعود إليه، فتقيده كي يتمثل روحها، ويترجم ذاته بها.

ويعيش الإنسان في تيارات الحياة بشخصية مزدوجة، تشكل في كثير من الأحيان ثنائية الشخصية الواقعية والشخصية المتخيلة، وينجم عن ذلك كله انعكاس على إحساس الإنسان مع نفسه ومع الآخرين.

وكان للمرأة الزوجة بعامة، نصيب وافر في ذاكرة الشعراء، يستهلون بها قصائدهم باكين، ومتغزلين،و واقفين على الديار، واحتلت حضوراً متواضعاً في الشعر الجاهلي، فخاطبها الشعراء الأزواج بغير صورة وموضوع، ولذلك تفاوتت صورة الزوجة في نظر الشعراء، فهذا امرؤ القيس يعبر عن حبه لزوجته وهو في بلاد الشام حين لحق بقيصر، يقول:

لَقَدْ أَنْكَرَتْنِي بَعْلَبَكُّ وأَهْلُها ... وَلَابْنُ جُرَيجٍ في قُرَى حِمْصَ أنكَرَا
نَشِيمُ بُروقَ المُزْنِ أَيْنَ مَصابُه ... وَلَا شَيءَ يَشْفِي مِنْكِ يا بُنَةَ عَفْزَرا
مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْدَبَّ مُحْوِلٌ ... مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ منها لَأَثَّرَا
لَهُ الوَيْلُ إِنْ أَمْسَى ولا أُمُّ هَاشِمٍ ... قَرِيبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرا(١)

إن ذهاب الشاعر إلى بلاد الروم لاحقا بقيصر، كان يحمل في طياته اتجاهاً سياسياً، رسمه الشاعر للثأر بأبيه. وحين حل في بلاد الشام أنكره أهلها فأصبح غريب الدار والأهل، وفضل العودة إلى حيث كان.

ولعل تشوقه إلى نساء الحي: ابنة عفزر وأم هاشم والبسباسة، لم يكن نابعاً من عمق إحساسه الشخصي فذلك أمر لم يعد ذا قيمة، لأن الهدف الذي سار إليه كان أجل وأهم. ولكنه حين أحس بفشل طموحه، وعدم تقدير أهل الشام له، وجه أنظاره إلى نساء قومه، فأخذ يشيم بروق المزن المتجهة صوب بلاد العرب تعبيراً عن شوقه إلى مملكته، حيث الأهل والديار.

---

(١) امرؤ القيس- الديوان،ص ٦٨. نشيم: ننظر. الإتب: ثوب رقيق له جيب وليس له كمان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظهرت الزوجة في صورة الإنسان الغيور على زوجه يقول الأفوه الأودي:

أَضْحَتْ قَرِينَةُ قَدْ تَغَيَّرَ بِشْرُهَا وَتَجَهَّمَتْ بِتَحِيَّةِ القَوْمِ العِدَى
أَلْوَتْ بِإِصْبَعِها وَقَالَتْ إِنَّما يَكْفِيكَ مِمَّا لَا تَرَى مَا قَدْ تَرَى
مَا بَالُ عِرْسِي لا تَبِشُّ كَعَهْدِهَا لَمَّا رَأَتْ سِرِّي تَغَيَّرَ وانْثَنَى[1]

يصور الشاعر زوجته وقد تغير حالها وتبدل، فتجهمت لقومه مظهرة لهم العداوة على غير عهدهم بها، ثم أحس الشاعر أن تفاقم أمر زوجته، يعود إلى أنها كشفت سرّه فظهر منها ذلك التغير، وكأنما كان موقفها ينم عن تهديد، وستريه من التعامل والسلوك ما لم يعهده منها.

من ذلك، تتضح بعض ظواهر المجتمع الجاهلي المتمثلة في مدى امتلاك الزوجة عامل الغيرة الذي ربما يؤدي إلى إحداث انقلاب اجتماعي داخل نظام الأسرة.

وكانت المرأة الجاهلية تخرج أحياناً عن أعراف المجتمع وتقاليده، فترفض الواقع الذي تعيش، وتلجأ إلى استخدام أساليب الحيل والخداع لإنقاذ نفسها من أمر أكرهت عليه، من ذلك مثلا، ما قاله النمر بن تولب في زوجته جمرة التي سباها أخوه الحارث بن تولب، وبعد أن ولدت له، طلبت إلى النمر أن تزور أهلها ففعلت، فتركت زوجها وانصرفت عنه، وبقيت في حيّ أهلها، يقول:

جَزَى اللّه عَنَّا جَمْرَةَ ابْنَةَ نَوْفَلٍ جَزاءَ مُغِلٍّ بالأَمَانَةِ كَاذِبِ
وَقَدْ سَأَلَتْ عَنِّي الوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا عَلَيَّ وقَدْ أَبْلَيْتُها في النَّوائِبِ[2]

يطلب الشاعر أن يجزى خيراً عما قام به من فعل، صدّق به أمانة زوجته فخدعته فيه، ثم حاولت أن تستعدي عليه الناس، فاستعانت بطائفة من الوشاة ليكونوا عوناً لها عليه.

وأظهرت العلاقات الزوجية جانباً من أساليب الحيل والخداع، كان سببها قوة الانتماء إلى القبيلة، خاصة إذا كان الزوج من قبيلة أخرى،يقول السليك في زوجته وقد هزئت منه لقبح منظره:

---

(١) الأفوه الأودي- الديوان، ص ٦.

(٢) النمر بن تولب- شعره، ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هَزِئَتْ أُمَامَةُ أَنْ رَأَتْ بِيَ رِقَّةً وَفَماً بِهِ فَقَمٌ وجِلدٌ أَسْوَدُ
أُعْطِي إذا النَّفْسُ الشَّعَاعُ تَطَلَّعَتْ مالي وأَطْعُنُ والفَرائِصُ تُرْعَدُ(١)

فقد استقبحت أمامة شكل الشاعر وهزئت منه؛ لأنها وجدت فيه عيباً بسواد جلده وعدم استواء ثناياه ، وهي مثالب نفّرت أمامة من الشاعر، ولكنه يستعيض بهذا العيب، جوده وشجاعته، فهو يبذل ماله إذا أحجم الناس، ويطعن أعداءه إذا جبن غيره ولعل هذه الصفات تدحض عنه ما تدعيه زوجته.

وهذا أحيحة بن الجلاح يشكو دهاء زوجته سلمى التي استعدت قومها عليه، فوقع بينهم شيء من قتال، ثم بلغ أحيحة أن سلمى أخبرتهم ذلك فضربها حتى كسر يدها ثم أطلقها، يقول:

تَبُوءُ لِلْخَلِيلَةِ حَيْثُ كَانَتْ كَمَا يَعْتَادُ لَقْحَتَهُ الفَصِيلُ
إِذَا مَا بِتُّ أَعْصُبُهَا فَبَاتَتْ عَلَيَّ مَكَانَهَا الحُمَّى النَّسُولُ
لَعَلَّ عِصَابَهَا يَبْغِيكَ حَرْباً وَيَأْتِيهِم بِعَوْرَتِكَ الدَّلِيلُ(٢)

يلجأ الشاعر إلى إتباع أسلوب الموازنة بينه وبين زوجته، بهدف إظهار عنصر الجودة والأصالة في كل منهما، فهو يمثل الزوج المطيع الذي اعتاد أن يأخذ برأي زوجته، وهو منها كفصيل الناقة من أمه اللبون، ولكنها خدعته حين علمت أنه يريد الغارة على قومها، فتمارضت وأخذ الشاعر يعصبها حتى إذا نام الزوج واطمأنت لذلك، انسلت من مضجعها وذهبت لتخبر قومها فتكشف لهم مواقع القوم أعدائهم وأماكن تجمعهم.

وتطرق بعض شعراء الجاهلية إلى الحديث عن زوجة الأب ومدى علاقة الشاعر بها، ومثال ذلك، ما يقوله عنترة العبسي في سميّة التي حرضت أباه عليه، وزعمت أنه يراودها عن نفسه، وكان ذلك قبل أن يدّعيه أبوه، وبعد ما قاتل أخذه أبوه، فضربه، فأكبت عليه، تستنقذه فكف عنه، ولما رأت ما به من الجراحات، بكت، فقال عنترة في ذلك:

---

(١) السليك بن السلكة- الديوان، ص ٥٠. الفقم: تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى. النفس الشعاع: التي انتشر رأيها فلم تتجه لأمر جزم.

(٢) أحيحة بن الجلاح- شعره، ص ٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العَينِ تَذْرِيفُ لَوْ أَنَّ ذا منكِ قَبْلَ اليْوم مَعْروفُ
تَجَلَّلَتْنِي إِذْ أَهْوَى العَصا قِبَلي كَأَنَّها صَنَمٌ يُعْتَادُ مَعْكوفُ
المالُ مالُكُم والعَبْدُ عَبْدُكُمْ فَهَلْ عَذابُكَ عنِّي اليَوْمَ مَصْروفُ
تَنْسى بَلائي إذا مَا غَارَةٌ لَقِحَتْ تَخْرُجُ مِنْها الطُّوالاتُ السَّرَاعِيفُ(١)

ينطلق عنترة في هذا النص من منظور اجتماعي تحكمه العرقية والطبقية، فهو يشعر أنه لا يزال عبداً تمارس عليه معايير القهر والعبودية، ولكنه بدأ يذوق طعم الحرية، حين رأى تحول زوجة أبيه تذرف الدمع وقت أن أهوى أبوه العصا نحوه، ومن هنا بدأ الشعور بالذات، ولكن الشاعر تمنى أن يكون هذا الإشفاق عليه من قبل، فدموع سمية أعادت إليه حضوره، وأشعرته بشيء من الثقة بالنفس، فوقفت دونه حين همّ أبوه بضربه، تدفع عنه الأذى كأنها أم تعكف على وليدها.

ويذهب الشاعر مذهباً أسطورياً، حين يقيم علاقة بين المرأة والصنم، فيجعل مكانة التقديس عاملاً مشتركاً بينهما، فحين وقعت سمية على عنترة تدفع عنه العقاب كان والد عنترة قد رآها صنم عبادة يتبتل الإنسان عنده خشية الأذى والظلم، ولهذا كانت استجابة الزوج سريعة في رفع الأذى عن الابن تقديساً لمكانة الزوجة التي تمثلت له صنم عبادة.

فالمرأة في وعي المجتمع مخلوق ولود، وعليها يتوقف استمرار الحياة وبقاء القبيلة كثيرة العدد، مرهوبة الجانب، ولذا فنحن نراها عند الشاعر والقبيلة الربّة الأم، أصل الحياة وسر الوجود والبقاء، إنها اللات نفسها(٢). التي يقدم لها الشاعر كل ألوان العبادة والطقوس. "فالمرأة ولا ريب، كاهنة هذا المعبد التي تتم على يديها مراسم العبادة ومحورها الذي تلتف حوله الشعائر والقرابين"(٣).

ثم يفيء عنترة إلى نفسه فيرفع صوته متناسياً أنه ابن أمة، رافضاً طور العبودية، فيسأل أباه قائلاً: أتنسى بلائي في اشتداد المعارك والحروب حين كانت الخيل تهرب منها سريعة كالجراد لشدة هولها واحتدامها.؟

---

(١) عنترة- الديوان، ص ٢٧٠-٢٧١. لقحت: اشتدت. الطوالات: الخيل. السراعيف: الجراد.

(٢) قصي الحسين- العمارة الفنية في شعر امرىء القيس، ص ١١٨.

(٣) العقاد- ابن الرومي، ص ٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعبر تميم بن مقبل عن علاقته بدهماء امرأته، وكانت تحت أبيه في الجاهلية فخلف عليها بعد موته، وكانت العرب تزوج نساء أبائها، وهو أشنع ما كانوا يفعلون وقد فرق الاسلام بين ابن مقبل ودهماء، فيقول:

هَلِ القَلْبُ عَنْ دَهْمَاءَ سَالٍ فَمُسْمِحُ ... وتَارِكُهُ مِنْهَا الخَيَالُ المُبَرِّحُ
لَقَدْ طالَ ما أَخْفَيتُ حُبّكِ في الحَشا ... وفي القَلْبِ حتّى كادَ بالقَلْبِ يَجْرَحُ
فَرُدِّي فُؤَادِي أَو أثِيبي ثَوابَهُ ... فَقَدْ يَمْلِكُ المَرْءُ الكَرِيمُ فَيُسْجِحُ
وَلَوْ كَلَّمَتْ دَهْمَاءُ أَخْرَسَ كَاظِماً ... لَبَيَّنَ بالتَّكْلِيمِ أَوْ كَادَ يُفْصِحُ(١)

يصور الشاعر مدى تعلقه بدهماء التي أخفى حبها في قلبه مدة طويلة من غير أن يعلم به أحد، ولأن هذا الحب اختمر في قلبه، فقد يصعب عليه أن ينساها، والشاعر يطلب إلى دهماء أن ترد له ثواب حبه من وصل ومودة، تلك إلى دهماء التي لحسنها لو كلمت إنساناً أخرس لانطلق لسانه وتكلم لما يجد فيها من حسن حديث وبهاء منظر.

"فالمرأة والصحراء هي الملهمتان الأساسيتان لأكثر شعراء البادية، ومن هنا كان طبيعياً أن تحمل هاتان الملهمتان تلك المكانة الملحوظة الثابتة في مطالع قصائدهم"(٢).

وقد أفصح تميم بن مقبل عن مدى علاقته الحميمة بدهماء، وهو القائل فيها:

أناظِرُ الوَصْلِ أَمْ غادٍ فَمَصْرُومُ ... أَمْ كُلُّ دَيْنِكَ مِنْ دَهْمَاءَ مَغْرُومُ
هَلْ عاشِقٌ نال منْ دهْمَاءَ حَاجَتَهُ ... في الجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الدِّينِ مَرْحُومُ(٣)

يطرح الشاعر تساؤلات عما إذا كانت دهماء تصل الود أم تقطعه، وعد الشاعر ذلك الوصل دينا عليها؛ لأنه دين غير مقضي، ثم يذكر الشاعر علاقته بها وقد قضى منها وطره، ونال حاجته، قبل أن يأتي دين الإسلام.

فقد لا ينتمي ابن مقبل في نظرته إلى المرأة إلى مذهب العذريين الذين ينظرون إليها على أنها مجموعة ملهمة تسمو بها إلى سماء عالية من الروحانية

(١) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٤٨-٤٩. يسجح: يرفق. كاظم: ساكت.

(٢) يوسف خليف- ذو الرمّة شاعر الحب والصحراء، ص ١٤٦.

(٣) تميم بن مقبل- الديوان، ص ٢٦٦-٢٦٧. مغروم: غير مقضي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصفاء والمتع المعنوية، إنما جاءت نظرته إلى المرأة حسية ينظر إليها على أنها جسد جميل تلذ المتعة به[١].

وهذا التعليل، يؤكد معرفة ابن مقبل التفريق بين معتقد الجاهلية وما جاء به الإسلام. وهذا عمرو بن معد يكرب يقول في امرأة لأبيه تزوجها بعده في الجاهلية وقد عابته بسبب شيبه وتفضيله خيلاً عليها:

تَقُولُ حَلِيْلَتي لَمَّا قلتني شَرَائِجُ بَيْنَ كُدْرِيٍّ وجُوْنِ
إذا مَا قُلْتُ إنَّ عَلَيَّ دَيْناً بِطَعْنَةِ فَارِسٍ قَضَّيْتُ دَيْني
لَقَعْقَعَةُ اللِّجام بِرأس طِرْفٍ أَحَبُّ إليَّ منْ أنْ تَنْكِحيني
أَخافُ إذا هَبَطْنَ بِنَا خَبَاراً وَجدَّ الرَّكضُ أَنْ لا تَحْمِليني
فَلَوْلَا إخْوَتِي وَبَنيَّ مِنها مَلأتُ لَها بِذي شُطَبٍ يَمِيني[٢]

إن علاقة الشاعر بزوجته اكتنفها شيء من التشنج، فقد عرفت ما في نفسه من انقباض تجاهها؛ لأن له هدفاً أسمى من أن يكون مرتبطاً بامرأة، وقد تمثل ذلك في أن له دينا على أعدائه لا بد من النيل منهم، وهذا يتطلب منه حسن الإعداد والتخطيط، ففضل الغزو الذي يكسبه المجد على نزوة عاطفية تكون بين الرجل والمرأة، ولهذا السبب كرهته زوجته وتعللت بكبر سنه وظهور شيبه لتسوغ ما ذهبت إليه.

ثم يعود الشاعر، فيقيم مع زوجته علاقة ضدية معقدة، فقد رأى نفسه أنه شخص غير مرغوب فيه، لشيبه أو لكبر سنه، كما تدعي زوجته، فتحول عنها إلى حيث تستخدم السيوف والرماح، لعل حتفه يكون تحت ظلالها.

والشاعر شديد التوجس بأن تكبو به الخيل، فيصاب بعاهة وعندها يقع البلاء فتعود زوجته تكرهه أكثر مما كان، ولأجل ذلك، فهو يفضل الموت على ألا يكون تحت رحمة زوجته التي ضاقت به ذرعاً لكبر سنه، والشاعر يكاد يلوح لها بالسيف، لولا أن منعه من ذلك إخوته وأبناؤه.

وقد شاب العلاقة الزوجية في المجتمع الجاهلي نوع من الملاحاة واللوم في مظاهر مختلفة من الحياة، كانت تقضي في بعض الأحيان أن يضع الشاعر حلولاً

---

(١) أحمد الحوفي- الغزل في العصر الجاهلي، ص ٢٥٦.

(٢) عمرو بن معد يكرب- شعره، ص ١٦٨-١٧٠. الكدري: الأغبر. الجون: يقال للأبيض والأسود وهو من الأضداد. الخبار: ما تحفر من الأرض. ذو الشطب: السيف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مناسبة لزوجته إزاء هذا الموقف أو ذاك، ومن ذلك ما يقوله عبيد بن الأبرص حين عاتبته زوجته لكبر سنه:

أَلا عَتَبَتْ عليَّ اليَوْمَ عِرْسِي ... وَقَدْ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَشْتَكِيني
فَقالتْ لي كَبِرْتَ فَقُلْتُ حَقّاً ... لَقَدْ أَخْلَقْتُ حِيناً بَعْدَ حِينِ
تُرِيني آيَةَ الإعْراضِ مِنْها ... وَفَظَّتْ في المَقالَةِ بَعْدَ لِينِ
وَمَطَّتْ حاجِبَيْها أَنْ رأَتْني ... كَبِرْتُ وأَنْ قَدِ ابْيَضَّتْ قُرُوني
فَقُلتُ لها رُوَيْدَكِ بَعْضَ عَتْبِي ... فإنِّي لا أَرَى أَنْ تَزْدَهِيني
وَعِيشي بالَّذي يُغْنِيك حَتَّى ... إذا ما شِئْتِ أَنْ تَنْأَيْ فَبِيني[1]

يقيم الشاعر حواراً مع زوجته، يبين فيه عتبها عليه، وشكواها منه، بسبب كبر سنه، وكثرة شيبه، فلم يعد قادراً على تلبية احتياجاتها، وكأنها اعابت عليه ذلك. والشاعر لا ينكر هذا الأمر، فيقره ويعترف به. وقد انعكس ذلك على علاقتهما سلباً، فأصبح يرى فيها الصد والإعراض والمعاملة الفظة الخشنة، ثم طلب إليها أن ترفق به؛ لأن ما فيه من علة لا يستوجب أن تزدهيه. وترك لها حرية اتخاذ القرار، فخيرها بين أن تستمر معه في الحياة، أو تبتعد عنه وتفارقه.

ومن بين العلاقة المحمومة التي أعلن عنها الشاعر مع زوجته، وكادت تفضي إلى القطيعة والطلاق فقد ندرك أن الرجل في المجتمعات البدائية إذا تقدمت به "السن يصور تصويراً سلبياً وهذا شيء بدهي لأن المجتمع لا يسمح غالباً باختيار الشريك اختياراً حراً، وكانت تحدث فيه زيجات في الغالب بين شريكين يوجد فرق كبير في عمرهما"[2]. وهذا رأي مخالف لرأي نوري القيسي حين يقول: "وامتلكت المرأة زمام المبادرة في تحديد مستقبلها، فهي لا تزوج إلا بعد أخذ موافقتها، وكان لها الحق في رفض من لا تريده من الرجال كما هو الحال بالنسبة إلى الخنساء، حين رفضت دريد بن الصمة لكبر سنه وفارق السن الكبير بينها وبينه"[3].

---

(١) عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٣٣. مطت حاجبيها: مدتهما تكبراً، تزدهيني: تستخفي بي، يغنيك: يرضيك.

(٢) محمد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ص ٥٥.

(٣) نوري القيسي- محاولات في دراسة اجتماع الأدب، ص ١١٥. وانظر: قصة دريد بن الصمة حين خطب الخنساء، الأصفهاني- الأغاني، ج ١٠، ص ٢١-٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطرق الشاعر الجاهلي موضوعاً اجتماعياً آخر، يتعلق بكيفية اختيار الزوج، وجعل الاستعانة بالوسائل الإعلامية عن طريق المجتمع، سبيلاً إلى تحقيق تلك الغاية، فهذا تأبط شراً، يروي أنه خطب امرأة أرادت أن تتزوجه، ووعدته ذلك، فلما جاءها وجدها قد رغبت عنه، فقال لها ما غيّرك؟ فقالت: والله إن الحسب لكريم، ولكن قومي قالوا ما تصنعين برجل يقتل عند أحد اليومين، وتبقين بلا زوج، فانصرف عنها وهو يقول:

وَقَالُوا لَها لَا تَنْكَحِيه فإِنَّهُ ... لِأَوَّلِ نَصْلٍ أَنْ يُلاقِيَ مَجْمَعا
فَلَمْ تَرَ مِنْ رَأْيِي فَتِيلاً وَحَاذَرَتْ ... تَأَيُّمَها مِنْ لَابِسِ اللَّيْلِ أَرْوَعَا
قَلِيلُ غِرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّهِ ... دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُقَنَّعَا
يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حتَّى أَلِفْنَهُ ... وَيُصْبِحُ لا يَحْمِي لَها الدَّهْرُ مَرْتَعَا
وَأَيْنَ فَتًى لا صَيْدُ وَحْشٍ يَهُمُّهُ ... فَلَوْ صافَحَتْ إِنْساً لَصَافَحْنَهُ مَعَا(١)

يشكل الشاعر إزاء هذا الموقف الاجتماعي رمزاً للقوة وتجسيداً لها، وليس ما جاء في قولهم: لا تنكحيه مذمة له أو منقصة، بقدر ما يكون مديحاً يندر أن يحصل عليه غيره من ذؤبان العرب.

فصورة الشاعر على صعيد اجتماعي ليست قاتمة، بل تشع بنور القوة والفروسية، وليس أفضل للنساء من أن يحظين بفارس كتأبط شراً، ولكن قومه نهوا تلك المرأة عن القبول به زوجاً، حفاظاً على دوام العلاقة الزوجية، وهذه صفة ليس لها حضور في حياة تأبط شراً الذي يقضي كل أوقاته خارج إطار الزمن الاجتماعي، فهو فارس يجوب الأمصار والفيافي ويقتحم الأهوال، ومن هذه حاله فسيكون أجله قريباً وموته سريعاً.

وخشية القوم على هذه المرأة من أن تيئم وتبقى بلا زوج سلوك يجازون عليه، لما فيه من نظرة إنسانية، بهدف الحفاظ على الأحساب والأنساب، وصوناً لعفاف المرأة.

ولعل الشاعر نفسه يسوغ لهذه المرأة رفضها أو اعتذارها. ونظرته الاجتماعية لا تنحصر في بؤرة النساء، بل تتجاوز هذا البعد، لتحقق غاية أكثر سموا في رأيه، فأكبر همه يتمثل في الثأر من الأعداء، أو مواجهة الشجعان، وهو

---

(١) تأبط شراً- شعره، ص ٩٧-٩٩. الغرار: القليل. الكمي: الشجاع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يأبه بطعام أو شراب، فتراه قليل النوم، يكتفي بما يسد رمقه من الزاد، فيأوي إلى حيث الأوابد والوحوش التي آنسته، فأصبح معها كالمجتمع الواحد.

ويدرك من الأبيات، أن الشاعر لا يهمه عدم قبول هذه المرأة به زوجاً، فهو شديد الرفض لبني البشر؛ لأنه رأى الأنس في الوحش أكثر مما رآه في الإنسان، وهذا يدل على نزعة الشر المتأصلة في الإنسان.

وهو بهذا المبدأ، يسلب إنسانية الإنسان، ويضعها في صفات الوحوش وسائر الحيوان، ولعل ابتعاد تأبط شراً عن الإنسان واللجوء إلى الحيوان الآبد، يعكس شيئاً مما في نفسه، ويصور فلسفته ومنهجه في الحياة، وهذه نزعة فكرية اجتماعية مصدرها التجربة والواقع.

وتعكس حياة الرجل وزوجه في المجتمع الجاهلي كثيرا من الظواهر الاجتماعية، فهذا عامر بن الطفيل يتذمر من عشرة زوجه، فهي تلومه على غير ذنب، يقول:

وَقَدْ أَصْبَحَتْ عِرْسِي الغَداةَ تَلُومُنِي عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ هَجْرُهَا وَصُدُودُهَا
وإنّي إذَا ما قُلْتُ قَوْلِي فَانْقَضَى أَتَتْنِي بأُخْرَى خُطَّةً لا أُرِيدُها
فَلا خَيْرَ في وُدٍّ إذَا رَثَّ حَبْلُهُ وَخَيْرُ حِبَالِ الوَاصِلِينَ جَدِيدُهَا(١)

فالشاعر ينظر إلى نفسه، لعله يجد ذنبا يكون سبباً في هجران زوجته له، فلا يكاد يجد شيئاً من ذلك، ثم يحاول أن يصد زوجته عن سبيلها فيقدم لها مسوغاً يلتمس فيه عذراً ليدرأ عنه اللبس، فما تنفك تعود له بأمر أعظم مما كان فيه يأباه ويكرهه.

وهو يرفض هذا الواقع الاجتماعي، فلا حاجة به إلى هذا الود الذي أصبح خيطه رثاً بالياً، فخير حبال الوصل وأقواها تلك التي تكون حديثة العهد، وأفضل حب يكون في بداية تشكل علاقة الرجل بالمرأة؛ لأن الود في رأي الشاعر يرث ويبلى كلما تقادم عهده.

ويكشف عروة بن الورد أحياناً عن عبثية العلاقة الزوجية، فيرى عزوف الإنسان عن زوجته سبيلاً إلى تحقيق المجد، يقول:

---

(١) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ١٧٦-١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَقِلِّي عليَّ اللَّومَ يا بِنْتَ مُنْذِرٍ وَنَامِي وإِنْ لَمْ تَشْتَهي النَّوْمَ فاسْهَري
ذَريني وَنَفْسِي أُمَّ حَسَّانَ إِنَّني بِها قَبْلَ أَنْ لا أَمْلِكَ البَيْعَ مُشْتَرِي
أَحادِيثَ تَبْقَى والفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ إذا هُوَ أَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صَيِّرِ(١)

يطلب الشاعر إلى زوجته أن تكف عن لومه، وتدعه وشأنه، ويبحث عن الأسباب التي توصله إلى تحقيق المجد وأعالي المراتب، وهو سباق إلى شراء غاياته فيلهج بذكره الناس فالدنيا فانية لا تبقي إنساناً مخلدا، والإنسان راحل وعمله باق فلا تلوميني بفعلي أيتها المرأة، فالإنسان قبل أن يخلد في قبره، وتوضع عليه أكوام الحجارة، عليه أن يقدم شيئاً للحياة يذكر به فلا تحرميني هذه المكارم.

"وكثيراً ما كان حب الأرض يقترن بحب الأهل، لأن الصلة بينهما وثيقة والعلاقة قائمة، وأسباب التعاطف مشدودة، كما كان ذكر الأرض يشغل مساحة من مشاعر -الشعراء- وهم يذكرون الحنين والوداع، فإن ذكر الأهل كان يثير في أعماقهم ألوان الأحاسيس ويذكرهم بالأيام العزيزة التي عاشت في وجودهم فترة لها ميزاتها(٢).

ومما يؤكد تشبث العربي بأرضه، أن أعرابياً كان يسكن ناحية من البادية فوصفها قائلاً "مساقط الحمى حمى ضرية، موضعة أرضها لعمر الله ما أريد بها بدلاً، ولا أبغي عنها حولا، حفتها الفلوات، ونفحتها الغدرات، فلا يملولح ماؤها، ولا تحمى تربتها ولا يمعر جنابها، ليس فيها قذى ولا أذى ولا وعك ولا موم، فنحن بأرفه عيش وأوسع معيشة وأوسع نعمة(٣).

فهذا امرؤ القيس، يجدد علاقته مع أسماء، في ضوء ما يجد من متغيرات، فهو يقابلها ودا بود وهجرا بهجر لأن حوران المكان غدا شغله الشاغل لا يبالي بأسماء إذا أحبته أو هجرته، يقول:

أَأَسْماءُ أَمْسَى وُدُّهَا قَدْ تَغَيَّرا سَنُبْدِلُ إِنْ أَبْدَلْتِ بالوُدِّ آخَرا
تَذَكَّرْتُ أَهْلي الصالِحِينَ وَقَدْ أَتَتْ عَلَى خَمَلَى خُوصُ الرِّكابِ وأَوْجَرا

---

(١) عروة بن الورد- الديوان، ص ٦٦. صيّر: حجارة تجعل كالحظيرة زربا للغنم.

(٢) نوري القيسي- محاولات في دراسة اجتماع الأدب، ص ٨٦-٨٧.

(٣) ابن سهل البغدادي- الحنين إلى الأوطان، ص ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَلَمَّا بَدَتْ حَوْرَانُ فِي الآلِ دُونَها نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ مَنْظَرَا[١]

يعقد الشاعر مقابلة بين الحاضر الذي يعيشه مع زوجته أسماء، وما سيؤول إليه المستقبل، فإن قطعت أسماء ما بينها وبينه، وهو في ديار الغربة، وتحولت إلى غيره، فإنه غير ملوم إذا وصل غيرها من النساء، وكأن الشاعر يترك خطاباً ممزوجاً أسلوبه بين النصيحة والتحذير.

ولكن سرعان ما يتبدل حال الشاعر، فيغير هذا التساؤل المشوب بالظن، ويقرّ أنه تذكر أهله الصالحين، واشتاق إليهم، حين صارت الإبل قريبة من بلاد الشام، ليثبت وفاءه إلى زوجه وأهله، وهذا الشوق انقطع حين شطّ به النوى، وباعدته الدرب، فلم ير شيئاً يُسر به.

ولعل هذه اللحظة تشير إلى اقترابه من بلاد قيصر، تلك البلاد التي كانت رحلته بسببها للثأر بأبيه، ويبدو أن المكان أنساه الأهل، وشد اهتمامه نحو الهدف الذي جاء من أجله.

ولعل لحظة الزمن التي عاشها الشاعر زرعت في نفسه صراعاً بين مواصلة الدرب، أو العودة إلى الأهل.

وهذا زهير بن أبي سلمى، يعاتب امرأته أم كعب التي أخذت تلومه لوماً حامياً على ما فيه من غنى وفقر يقول:

فِيمَ لحَتْ؟ إنَّ لَوْمَها ذُعُرُ أحميْتِ لَوماً كأنَّهُ الإبرُ
قَدْ يَقْبِلُ المالُ بَعْدَ حينٍ عَلَى الـ مَرءِ وحِيناً لِهُلْكِهِ دُبُرُ
والمالُ مَاخَوَّلَ الإلَهُ فلا بُدَّ لَهُ أَنْ يَحُوزَهُ قَدَرُ
والجِدُّ مِنْ خَيْرِ مَا أعانَكَ أَوْ صُلْتَ بِهِ والجُدُودُ تُهْتَصَرُ
قَدْ يَقْتَنِي المَرْءُ بَعْدَ عَيْلَتِهِ يَعِيلُ بَعْدَ الغِنَى وَيَجْتَبِرُ[٢]

يعبر الشاعر عن ضيقه وبرمه بامرأته التي لامته بعنف، فأحدثت في نفسه الألم والتوتر متناسية أن المال، كثيره وقليله، لا محالة هالك، والإنسان يجمع المال

---

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ٦١. الآل: منتصف النهار.

(٢) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ٢٤٢-٢٤٤. لحت: لامت. خول: ملك. الجدود: الحظوظ. تهتصر: تكسر. يجتبر: يفتقر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالقدر الذي يعطيه إياه الله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما يجود به الحظ عليه من وفرة وغنى، وعلى الإنسان أن يؤمن دائما بأن الأرزاق مقدرة من عند الله تعالى، فقد يغتني الإنسان بعد فقر وبؤس، وقد يفتقر بعد غنى وثراء.

وقد ساد العلاقات الزوجية كذلك ظواهر: الوصل والهجران والطلاق، فيقول دريد بن الصمة يخاطب زوجته بعد قتل أخيه خالد:

أَعاذِلُ مَهْلا بَعْضُ لَوْمِكِ واقْصِدِي ... وَإِنْ كَانَ عِلْمُ الغَيْبِ عِنْدَكِ فَارْشِدِي
أَعاذِلَتي كُلُّ امْرِىءٍ وابْنُ أُمِّهِ ... مَتَاعٌ كَزادِ الرَّاكِبِ المُتَزَوِّدِ
أَعاذِلُ إِنَّ الرُّزْءَ في مِثْلِ خَالِدٍ ... وَلا رُزْءَ فِيما أَهْلَكَ المرْءُ عَنْ يَدِ(١)

يطلب الشاعر إلى زوجته ألا تسرف في لومه بسبب شدة تأثره على ما حدث لأخيه الذي فجع به، وليس أشد هولاً على الإنسان من أن يرزأ بأخيه، فهو متاع الحياة، والزاد الذي يعينه في حياته، والشاعر يطلب إلى عاذلته أن تشعر بمصابه، وأن تكف عن لومه، كأنه يجردها من قيمة الشعور بأهمية الإنسان ومكانته.

والنمر بن تولب يدعو زوجته أن تحفظ ود إخوته إذا قدموا إلى بيته، وطلب إليها أن تحترمهم وتقابلهم بالحسنى، فيقول:

فَإِذَا أَتَانِي إِخْوَتِي فَدَعِيهُمُ ... يَتَعَلَّلوا في العَيْشِ أَوْ يُلْهُوا مَعِي
لَا تَطْرُديهم عَنْ فِراشِي إِنَّهُ ... لا بُدَّ يَوْمَاً أَنْ سَيَخْلُو مَضْجَعِي
هَلاَّ سَأَلْتِ بِعَادِياءَ وَبَيْتِهِ ... والخِلُّ والخَمْرُ التي لَمْ تُمْنَعِ(٢)

يرى الشاعر ضرورة إكرام زوجته إخوته، فلا تهشّ بوجوههم أو تطردهم إذا ما حلوا في بيته فكل أخ لا بد مفارقه أخوه، وليس للإنسان إلا أن يتعلل بعيشه ويلهو؛ لأنه ليس مخلدا في الحياة، واتخذ الشاعر عادياء أبا السموأل الأزدي الغساني مثالاً على سعة ملكه ولكن الحياة لم تدم له.

والإنسان الجاهلي شديد الحرص على زوجته غيور عليها، فهو بين الواثق منها والشاك فيها، ومن ذلك ما جاء في قول امرىء القيس:

---

(١) دريد بن الصمة- الديوان، ص ٤٦. المتاع: كل ما ينتفع به الإنسان من عروض الدنيا.

(٢) النمر بن تولب- شعره، ص ٧٣. الخل: الخير. الخمر: الشر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَدَامَتْ عَلى مَا بَيْنَنَا مِنْ مَوَدَّةٍ أُمَيْمَةُ أَمْ صَارَتْ لِقَوْلِ المُخَبِّبِ
فَإِنْ تَنْأَ عَنْها حِقْبَةً لا تُلاقِها فإِنَّك مِمّا أَحْدَثَتْ بالمُجرّبِ(١)

يخاطب الشاعر زوجته أم جندب حين طلقها وخلف عليها علقمة الفحل لما حكمت بينهما أيهما أشعر، ويريد أن يكشف عما في سريرة زوجته أم جندب: هل لا تزال على عهدها له وهو غائب عنها، أم أنها قطعت وصله وسمعت قول المفسدين؟.

و امرؤ القيس أخضع زوجته إلى اختبار يتمثل في أن ينأى عنها حقبة من الزمن ثم يعود، فإذا وصلته كان ذلك وفاء بالعهد، وإن خذلته وبخلت عليه كان ذلك خيانة منها، وحينذاك يجب قطع وصلها وسلوها إلى غير أوبة. وطرفة بن العبد يذكر أيام عزه مع سلمى، فيقول:

ديارُ سُلَيْمى إذْ تَصِيدُك بالمُنَى وإذْ حَبْلُ سَلْمَى مِنْكَ دانٍ تُواصِلُهْ
وإذْ هيَ مِثْلَ الرِّيم صِيدَ غَزالُها لَها نَظَرٌ سَاجٍ إِلَيْكَ تُواغِلهُ
غَنِينا وَما نَخْشَى التَّفَرُّقَ حِقْبَةً كِلانا غَرِيرٌ نَاعِمُ العَيْشِ باجِلُهْ(٢)

يصور الشاعر عهده مع سليمى حين كانا متجاورين في تلكم الديار، فقد كان حبل رحلها متيناً وهي شديدة الشوق إلى الشاعر، كالظبية التي صيد غزالها فصارت أشد شوقا وولعاً وكأن الشاعر يتحسر على أيام المودة، لما فيها من رخاء عيش، فكان وزوجته ناعمي البال لا يخشيان تفرقا ولا هجراً.

ويصور زهير بن أبي سلمى شاعر زوجته أم كعب، وقد كانت عتبت عليه؛ لأنه أعابها ذات يوم وصد عنها، فيقول:

وَقَالَتْ أُمُّ كَعْبٍ لا تَزُرْنِي فَلاَ وَاللَّهِ مَالَكَ مِنْ مَزارِ
رأَيْتُكَ عِبْتَنِي وَصَدَدْتَ عَنِّي وَكَيْفَ عَلَيْكَ صَبْرِي واصْطِبَارِي
فَلَمْ أُفْسِدْ بَنِيكَ وَلَمْ أُقَرِّبْ إِلَيْكَ مِنَ المُلِمَّاتِ الكِبارِ
أَقِيمي أُمَّ كَعْبٍ واطْمَئِنِّي فإِنَّكِ مَا أَقَمْتِ بِخَيرِ دارِ(٣)

---

(١) امرؤ القيس- الديوان، ص ٤٢. المخبب: المفسد.

(٢) طرفة بن العبد- الديوان، ص ١١٩-١٢٠، الساجي: الساكن الفاتر. تواغله: تسارقه النظر. غنينا: لبثنا. الباجل: الناعم الحسن.

(٣) زهير بن أبي سلمى- شعره، ص ١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه الصورة تمثل أعلى درجات الثقة في العلاقات الزوجية، فأم كعب تطلب إلى زهير ألا يزورها؛ لأنه لم يأت إلا ليعيبها ثم يعود فيصد عنها ويهجرها، وهي غنية عن ذلك، فلا تطيق صبراً إزاء هذا السلوك.

وأم كعب تمثل الزوجة المخلصة والأم المثالية، فلم تفسد عليه تربية أبنائه، ولم تجن له الكبائر والملمات، بل تصون نفسها عن كل إثم أو عيب، وتحفظ زوجها في حضوره وغيابه وتقوم بشؤون بيته بكل أمانة، وهذه هي أقرب الصفات للزوجة العفيفة. وحين رأى زهير منها ذلك وأيقن أنها على حق، انثنى عن موقفه وقال: أقيمي واطمئني ما دمت على قيد الحياة بدار كنت لها حافظة.

ومقابل هذه الصورة الإيجابية في العلاقات الزوجية التي أوردها زهير، ظهرت علاقة ضدية بين الأزواج تمثلت في ظاهرة الطلاق، ومن الشواهد الشعرية على ذلك قول دريد بن الصمة الذي طلق زوجته لأنها شتمت أخاه:

أَعَبْدَ اللَّهِ إِنْ سَبَّتْكَ عِرْسِي ... تَسَاقَطَ بَعْضُ لَحْمِي قَبْلَ بَعْضِ
إِذَا عِرْسُ امْرِئٍ شَتَمَتْ أَخَاهُ ... فَلَيْسَ فُؤَادُ شَانِئِهِ بِحَمْضِ
مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَشْتُمْنَ رَهْطِي ... وَأَنْ يَمْلِكْنَ إِبْرَامِي وَنَقْضِي(١)

فهذا السلوك الذي بدر من زوجة الشاعر بحق أخيه أثار حفيظته، وأحدث في نفسه ثورة تتأجج غضباً، فالشاعر يطمئن أخاه عبد الله، ويزرع ثقة الأخوة في نفسه، لغيرته المطلقة عليه؛ لأنه يعد أي أذى يلحق أخاه سيكون إهانة للشاعر وإذلالاً له، وبهذا فقد يؤكد الشاعر صدق التلاحم بين الأشقاء.

ويقارن الشاعر نفسه بغيره من الناس الذين لا تستثيرهم نخوة الدفاع عن إخوانهم، والشاعر ليس من هذه الفئة التي ليس لديها همة الرجال أو عزيمة الشجعان. وينفي عن نفسه أن يكون واحداً من أولئك الرجال الذين يأتمرون بأوامر أزواجهم وينفذونهابكل ما فيها، فموقفه ثابت، وعزيمته قوية أكيدة يحفظ ود إخوانه ورهطه.

وقد بلغ الأمر بالإنسان الجاهلي أن هدد زوجته بالطلاق إن لم تدرك سرّه، كما فعل عامر بن الطفيل مع زوجته حين يقول:

طُلِّقْتِ إِنْ لَمْ تَسْأَلِي أَيَّ فَارِسٍ ... حَلِيلُكِ إِذْ لَاقَى صُدَاءً وَخَثْعَمَا

(١) دريد بن الصمة- الديوان، ص ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَكُرُّ عَلَيْهِم دَعْلَجاً وَلَبَانَهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقْعَ الرِّمَاحِ تَحَمْحَما[١]

فالشاعر يعطي زوجته حكماً يقضي بطلاقها إن لم تدركه من بين الفرسان الذين يتعاورون على قبيلتي: صداء وخثعم، في أثناء حربه مع هذين الحيين.

والشاعر يريد أن يثبت موقعه في الحروب، فيدفع زوجته إلى معرفة بلائه وكره، ويسطو عليهم بصدر فرسه الذي لا يكل في مواجهة الأهوال، حتى إذا ما نفذت سهام المعركة إلى صدره، راح يخرج صوت حمحمة، تعبيراً عن الألم، من غير أن ينهزم من المعركة، أو يظهر إحجامه في اقتحامها.

وهذا اللون من القرارات التي يتخذها الشاعر في هذه المواقف إزاء زوجته، يترجم مدى أهمية الفروسية في تاريخ الإنسان العربي وتفضيلها أحياناً على كل قيمة وشرف، وأبيات الشنفرى التالية، تصور مدى استخفافه بالمرأة، وقدرته على حسم موقفه مع زوجته، فيقول:

إِذَا أَصْبَحْتُ بَيْنَ جِبَالِ قَوٍّ وبِيضَانِ القُرَى لَمْ تَحْذَرِيني
فإِمَّا أَنْ تَوَدِّينَا فَنَرْعَى أَمَانَتَكُمْ وإِمَّا أَنْ تَخُونِي
سَأُخْلِي لِلظَّعِينَةِ مَا أَرَادَتْ وَلَسْتُ بِحَارِسٍ لكِ كُلَّ حِينِ
إِذَا مَا جِئْتِ مَا أَنْهاكِ عَنْهُ فَلَمْ أُنْكِرْ عَلَيْكِ فَطَلِّقِينِي
فأَنْتِ البَعْلُ يَوْمَئِذٍ فَقُومي بِسَوْطِكِ لَا أَبا لَكِ فَاضْرِبِينِي[٢]

يجعل الشاعر زوجته أمانة في عنقه، ويعد ما يلحق بها من ضر أو نفع من مسؤوليته، فيقول لها: إذا صرت بين جبال قو وبيضان القرى ولم تمتثلي لأوامري فتكوني لي أمينة مخلصة فسأترك الظعن يهيم من غير حارس أو راعٍ، وتكونين أنت سبباً في ذلك.

وإن أقدمت على عمل نهيتك عنه ولم أحاسبك عليه أو أنكره عليك فإني أجيز لك أن تكوني أنت الزوج والبعل، ولك أن تحكمي علي بالطلاق، أو أن تعاقبيني.

---

(١) عامر بن الطفيل- الديوان، ص ٣٨٩-٣٩٠. اللبان: مقدم الصدر والمنحر. الحمحمة: ترديد الصوت في الجوف.

(٢) الشنفرى- شعره ص ٤١-٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ومع ذلك فليس كل تصوير شعراء ما قبل الإسلام للمرأة مقصوراً على صورة المرأة المثال، فهناك إلى جانبها صورة أخرى يصح أن نسميها المرأة الواقعية، وهي هنا إما قينة أو مغنية أو راقصة أو هي امرأة مهجورة من نساء الأعداء أو هي في النهاية الزوجة المناكدة سيئة الأخلاق"(١).

ولعل في هذا الإجراء شيئاً من التحدي الذي يبديه الشنفرى إزاء زوجته وكأنه يقول: إن لم أكن جديراً بتحمل المسؤولية في كل موقع من مواقع الحياة، فلا حاجة لك أيتها المرأة إلى زوج لا يملك من أمره شيئاً لا رأي له ولا مشورة. ولعل الأعشى من أكثر شعراء الجاهلية تصريحاً بالطلاق، يقول:

يَا جَارَتِي بِينِي فَإِنَّكِ طَالِقَةْ ... كَذَاكِ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةْ
وَبِينِي فَإِنَّ البَيْنَ خَيْرٌ مِنَ العَصَا ... وَإِلاَّ تَزَالُ فَوْقَ رَأْسِكِ بَارِقَةْ
وَمَا ذَاكَ مِنْ جُرْمٍ عَظِيمٍ جَنَيْتِهِ ... وَلَا أَنْ تَكُونِي جِئْتِ فِينَا بِبَائِقَةْ
وَبِينِي حَصَانَ الفَرْجِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ ... وَمَوْمُوقَةً فِينَا كَذَاكَ وَوَامِقَةْ(٢)

لم يقدم الأعشى تسويغاً لإقدامه على إطلاق زوجته، فقد تعرض للمرء أمور تلزمه اتباع سلوك مضاد، ولذلك أمر زوجته بأن تذهب عفيفة طاهرة محبوبة كما كانت.

والشاعر لم يكن غليظاً في خطابه لها، فقد طلقها من غير جرم ارتكبته، أو مصيبة اقترفتها، لكن الشاعر فضل أن تفارق زوجته البيت، وذلك خير لها من أن تتعرض لضرب أو أذى منه. وهذا يشير إلى أن ظاهرة الطلاق كانت موجودة في المجتمع الجاهلي، بصرف النظر عن أسبابه وموجباته(٣).

---

(١) علي البطل- الصورة في الشعر العربي ص ٨٥.

(٢) الأعشى- الديوان، ص ٢٩٩.

(٣) انظر العلاقات الزوجية عند: تأبط شراً- شعره، ص٩٦، ١٢٠. عروة بن الورد- الديوان، ص ٦٣-٦٤، ١٠٧-١٠٨. عمرو بن قميئة- الديوان، ص ٤٤-٤٥، ٧٣. تميم بن مقبل- الديوان، ص ٤٠-٤١، ١٣٧. النمر بن تولب- شعره، ص ٧١-٧٢، ٧٩، ٨٤-٨٦. عدي بن وداع- قصائد نادرة، ص ١٤٢. المسيب بن علس- الديوان، ص ١٠٠-١٠١. عبيد بن الأبرص- الديوان، ص ١٠٦-١٠٧. ابن الأسلت- الديوان، ص ٧٢. عنترة- الديوان، ص ٢٧٢-٢٧٣. دريد بن الصمة- الديوان، ص ٤٥. ذي الإصبع العدواني- الديوان، ص ٦٥. العباس بن مرداس- الديوان، ص١٣٦. عمرو بن معد يكرب- شعره، ص١٢٨. بشامة بن الغدير- شعره، ص ٢٢١-٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

هذه الدراسة التي تناولت الإنسان الجاهلي تهدف إلى فحص أنماط التعبير عن تلك النفس البشرية، وربطها بالحاجات الأساسية لذلك الإنسان مادة وروحاً، والشعر هو خير وسيلة للكشف عن الإنسان، وعما يتعلق به.

ولما كان الإنسان الجاهلي محور هذه الدراسة، يتحرك في الزمان والمكان من خلال القوالب اللفظية التي صاغها الشاعر الجاهلي الذي سبر أغوار هذه النفس، تنفذ إلى ثلاثة محاور: الذات، والمجتمع، والكون، فإن الإنسان الجاهلي يشكل دينامية هذه المحاور مجتمعة في البحث عن هذه الحاجات.

وقد كشفت لنا هذه الدراسة عن طبيعة الإنسان الجاهلي في معظم أنماط تعامله مع نفسه ومجتمعه ومع الكون، ورؤيته ما ورائيات الحياة، فقد سعى إلى تحقيق حاجاته المادية المتمثلة في شؤون رزقه بوصفه كائناً حياً، وكان الحصول على ألوان الرزق من طعام وشراب واقتناء المال، ليس هدفاً سامياً له، فكان يكتفي بالقليل من الرزق يقيم به أوده، فالبيئة الاقتصادية في شبه الجزيرة بائسة وفقيرة.

واقتناء المال في نظر الجاهلي، ضرورة من ضرورات الحياة، فكان ينتزعه انتزاعاً، وكان يعد القعود عن السعي في طلب الرزق، ذلاً، فالمال يبلغ به صاحبه المجد والسيادة وكان العرب يفاخر بعضهم بعضاً بما يملك من إبل تلك التي كانت هي المال في مفهومهم. وكان يعد الفقر ضرباً من قبح الصفات، غير أن النصوص الشعرية كشفت في غالب الأحيان عن أن الرزق ليس هو الغاية والهدف، فكان صاحبه يستخدمه في وجوه الخير، يفك به أسر المحتاجين، وأهل القبيلة والفقر، ومن شردتهم عصبات الحروب والوقائع.

والجاهلي ينفق ما يكسبه من رزق في وجوه طعامه وشرابه، ولم يكن ذلك هو الهدف والغاية، بل دأب يسعى وراء متعة النفس فرآها كامنة في الخمر التي عدّها من أولويات الحاجات النفسية والمادية، فقد حرص على اجتلابها ووصف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أطايبها وتاجر بها وقضى مع رفاق الشرب مجالس خاصة في الحل والترحال وقرنها بالمرأة التي شكلت رمزاً مقدساً لدى الإنسان الجاهلي، وأعدّ لشربها طقوساً متميزة قد تصل أحياناً إلى درجة التقديس، فثمّ الحارس الذي يبيع الخمر يفض خاتمها فيصلي عليها كما يصلى على الذبح الذي يقدم قرباناً للآلهة.

وجلت الدراسة عن اعتقاد الإنسان الجاهلي بالله، ودل على ذلك من خلال الديانات التي كانوا يعتقدونها فيظنون أنها تقربهم من الله تعالى، وذلك بصرف النظر عن طبيعة هذه الديانات، فالوثنيون كانوا يعبدون الأصنام ويتقربون بها إلى الله وأن عرب الجاهلية عظموا البيت الحرام وطافوا به وكانوا يؤدون الشعائر الدينية من حج وعمرة وطواف وذبح وغير ذلك، فالناس في شرع الله، متساوون خلقوا من نفس واحدة، وما داموا كذلك فهم إخوان في دين الله.

وقد أدرك الجاهلي عظمة الله متجلية في متغيرات الطبيعة وعناصرها، فأدرك سر طلوع الشمس والقمر وحركة الطير والحيوان وهي تأوى إلى أوكارها وأكنافها، وهذه الرؤية الواقعية لحركة الكون وعجائب المخلوقات، شدت انتباه الإنسان الجاهلي وكانت من بين رؤاه العقدية بوحدانية الله والإيمان به.

ورأى الإنسان الجاهلي أن علاقته بالحياة تقوم على إذعانه المطلق لإرادتها المتمثلة بعملية الإفناء، فليس ثمة حي ينجو من الموت، فلا راد له، وما دام مصير الإنسان يؤول إلى الهلاك والفناء، فعليه أن يتقي الله ويترك الباطل ويتمسك بالمعروف ويتجنب الكذب ويتحرى الصدق، وهي معايير يأمن بها الإنسان شرور الحياة وغوائل الدهر. فالتزام الإنسان جانب البر والتقوى سلوكاً وعملاً، فيه عظة مما يحدثه الدهر بالإنسان من فواجع ومحن، لذلك ذهب بعض شعراء الجاهلية إلى دعوة الناس لعبادة الله وتأدية ما يتوجب عليهم من شعائر وعبادات للبيت الحرام والتمسك بأستار الكعبة؛ لأن كل هذه العبادات تقيهم شر الزمان.

وأوضحت الدراسة اهتمام الجاهليين بغيبيات الأمور، فاعتقدوا بالجن والغول، وكانوا ذكروها في أشعارهم محددة في الزمان والمكان، فحين يستوحش الإنسان في الخلاء والمفاوز بعيداً عن مواطن الإنس، فإن هذه الوحشة تتمثل له بظهور الجن والغيلان فيما يعتقده ويتراءى له، وقد يرتبط ذلك بمعاناة الوجود التي عاشها الإنسان الجاهلي ضارباً في عمق الصحراء ومجاهلها، فشكلت هذه المعاناة لديه لوناً من العقلية المتطورة التي تقضي بالاعتقاد بالأساطير والخرافات،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مثل نار الاستمطار والاعتقاد بقدرة الثور الوحشي على استمطار السماء، وآمنوا بالتمائم والرقى وتعرية الناقة إذا مات صاحبها، والرقم على الماء، والضرب على الكف، والرجم بالغيب، والاستدلال على الحوادث، وبعض الغيبيات عن طريق الزجر والعيافة، باستخدام الطير أو الوحش.

وكل هذه المظاهر تكشف تطور العقلية العربية لأنها تخضع للفكر والمنطق أكثر من خضوعها إلى التجربة. وكشفت الدراسة عن مجموعة من القيم التي يتصف بها الإنسان الجاهلي وهي جزء من طباعه وفلسفته في الحياة، فالإيثار والعدل وحماية الجار والدفاع عن المظلوم والأخذ بالثأر وإغاثة الملهوف وصون الأعراض، من أهم المبادىء التي تكمن في رؤية الإنسان الجاهلي للحياة، والمجد الذي بلغه الجاهليون في المحافظة على الأنساب قمينٌ بأن يجعلنا نعتقد بأن عنصر الإنسان الجاهلي كان عنصر خير يقوم على التعامل الحسن والمودة الخالصة واحترام القيم والمثل الإنسانية، لا كما يتصوره بعض الدارسين بأنه مجتمع يقوم على الظلم والطغيان وأكل أموال الناس وسفك الدماء والقتل.

فأخلاق الإنسان الجاهلي أصبحت ماثلة للعيان من خلال هذه القيم التي يسودها الحق والعدل، وقد نرى مثالية الخلق في تعامل الإنسان الجاهلي مع المرأة، سواء كانت محبوبة أم زوجة، حتى في أثناء الانفصال والطلاق، فهو يحاورها في معظم شؤون حياته وإن كان محروماً منها، يحكي وجعه شعراً فيرثي حبه الضائع إذا كانت المحبوبة في الهوادج عند الرحيل أو الظعن.

وقد بدت علاقة الإنسان الجاهلي بالمرأة من خلال مناشدته الطلل، ووقوفه عليه وبكائه أحياناً كثيرة، لأن دمنه وأطلاله يشكلان تاريخاً يحمل في طياته حضارة إنسانية بناها الجاهلي مع المرأة أو مجتمع القوم أو القبيلة.

وأظهرت الدراسة كذلك بُعد العلاقات الاجتماعية التي انطلق منها الإنسان الجاهلي في تعامله مع أفراد أسرته وأبناء قومه، والسياسة الخارجية التي استخدمها في التعامل مع القبائل الأخرى، وليس من باب التطرف إذا قلنا بأن الإنسان الجاهلي كان يملك حرية التعامل مع غيره، فإذا دافع عن أمجاد قومه لا يعني ذلك أنه متعصب لها، فهو يصف الواقع سواء كان ذلك متعلقاً بتحقيق النصر في المعارك والحروب، أو بمواقف البطولة والشجاعة، أو بصفات الكرم التي تعلي من قيمة الإنسان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبهذه الصفات، كان العرب يتمادحون ويتفاخرون، فالشاعر إذا أشاد بقومه، فهو يصور الواقع المعاش، وهذا يعني انتماء الإنسان إلى قومه وليس التعصب بعينه، وآية ذلك أن الجاهلي كان ينبت عن قومه إذا لحق به حيف أو ظلم، وكانت القبيلة أحياناً تخلعه فيلوذ بغيرها، وهؤلاء انسلخوا عن مجتمعهم فسموا بالصعاليك، وهؤلاء كانوا يحملون مشعل الثورة ضد الاضطهاد والظلم الذي حاق بهم وبغيرهم، فيرون ما لا يراه غيرهم من وجوب العدل والمساواة في الحقوق والواجبات.

وبعد،

فإن دراسة الإنسان الجاهلي في ضوء محاورة النصوص الشعرية وأساليب التعبير فيها، فتح على الدارسين آفاقاً جديدة، يجدون فيها ظواهر قابلة للبحث والتقصي. والخوض في عالم الإنسان، وحاجاته المادية والروحية، من أكثر الموضوعات القابلة للدرس والبحث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر والمراجع

أ. المصادر

- القرآن الكريم.
- أحيحة بن الجلاح، (ت ٥٦١م)- ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي، د.ط، دراسة جمع، تحقيق حسن محمد باجودة، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٩٧٩م.
- الأسود بن يعفر، (ت ٦٠٠م)- ديوان الأسود بن يعفر، د.ط، صنعة نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٦٨م.
- أشعار العامريين الجاهليين، ط١، جمعها ووثقها وقدم لها عبد الكريم إبراهيم يعقوب، دار الحوار، سورية، ١٩٨٢م.
- ذو الإصبع العدواني، (ت ٢٢هـ/ ٦٠٢م) - ديوان ذي الإصبع العدواني حرثان بن محرث، د.ط، جمعه وحققه عبد الوهاب محمد العدناني ومحمد نائف الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل، ١٩٧٣م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٢٥٦هـ/ ٩٧٦م)- الأغاني، ٢٤م، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م.
- الأعشى، ميمون بن قيس (ت ٧هـ/ ٦٢٩م)- ديوان الأعشى الكبير، ط١، شرح وتعليق محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.
- امرؤ القيس، (ت ٥٣١م)- ديوان امرىء القيس، ط٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- أمية بن أبي الصلت (ت ٣هـ/ ٦٢٤م)- ديوان أمية بن أبي الصلت، ط٢، جمع وتحقيق ودراسة، صنعة عبد الحفيظ السطلي، ١٩٧٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أوس بن حجر، (ت ٦٢٠م)- ديوان أوس بن حجر، ط٢، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.

- بشر بن أي خازم الأسدي (ت٦٠٠م)- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، ط٢، عني بتحقيقه عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢م.

- البغدادي، محمد بن سهل المرزباني الكرخي البغدادي (ت)، الحنين إلى الأوطان، ط١، تحقيق جليل العطية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.

- البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط٣، ٢م، حققه وضبطه مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

- تأبط شراً، (ت٨٠ ق هـ/ ٥٤٠م)- شعر تأبط شراً، د.ط، تحقيق سليمان داود الفرغولي وجبار تعبان جاسم، مطبعة دار الآداب، النجف الأشرف، د.ت.

- التبريزي، الخطيب (ت ٥٠٢هـ)- شرح اختيارات المفضل، ط٢، ٤ج، تحقيق فخر الدين قبادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- التبريزي، الخطيب- شرح القصائد العشر، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.

- تميم بن أبي بن مقبل (ت ٢٥هـ/ ٦٤٦م)- ديوان تميم بن أبي بن مقبل، د.ط، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٢م.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٣٠هـ)- الكناية والتعريض، ط١، عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)- الحيوان، ط٣، ٧م، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ١٩٦٩م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر- البيان والتبيين، ط٤، ٢م، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، د.ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر- الأمل والمأمول، ط٢، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.

- الجرجاني الثقفي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٤٨٢هـ)- المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ط١، عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٨م.

- الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ)- طبقات فحول الشعراء، د.ط، ٢ج، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.

- حاتم الطائي (ت ٦٠٥م)- ديوان حاتم الطائي، د.ط، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣م.

- الحادرة (ت)- ديوان شعر الحادرة، ط٢، حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.

- الحارث بن حلزة (ت ٥٢ ق. هـ/ ٥٦٨م)- ديوان الحارث بن حلزة، د.ط، أعاد تحقيقه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م.

- الحارث بن حلزة- ديوان الحارث بن حلزة، ط١، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.

- حسّان بن ثابت (ت ٥٤هـ/ ٦٨٤م)- ديوان حسّان بن ثابت، د.ط، تحقيق سيد حنفي، مراجعة حسن كامل الصيرفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

- الخرنق بنت بدر بن هفان (ت ٥٧٠م)- ديوان شعر الخرنق بنت بدر بن هفان، د.ط، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٦٩م.

- ابن خلدون- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ١٤٠٦م)- مقدمة العلامة ابن خلدون، د.ط، تحقيق حجر عاصي، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م.

- الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن عمرو الشريد السلمية (ت ٢٤هـ/ ٦٤٦م)- ديوان الخنساء، شرحه ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني النحوي، ط١، حققه أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، ١٩٨٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أبو دؤاد الإيادي (ت ٥٥٤م) أبو دؤاد الإيادي وما تبقى من شعره، ضمن كتاب غوستاف فون غرنباوم- دراسات في الأدب العربي، ط١، ترجمة إحسان عباس وآخرون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٢٤٣-٣٥٣.

- دريد بن الصمّة الجشمي (ت ٨ هـ/ ٦٣٠م)- ديوان دريد بن الصمّة الجشمي، د.ط، جمع وتحقيق وشرح محمد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨١م.

- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)- الاشتقاق، ط١، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

- ديوان الهذليين، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت ٤٥٦هـ)- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط٥، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.

- أبو زبيد الطائي (ت ٦٢هـ/ ٦٨٢م)- شعر أبي زبيد الطائي، د.ط، جمعه وحققه نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م.

- الزمخشري (ت)- بلوغ الأرب في شرح لامية العرب، د.ط، جمع وتحقيق محمد عبد الحكيم القاضي ومحمد عبد الرزاق عرفان، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

- زهير بن أبي سلمى (ت ١٣ ق. هـ/ ٦٠٩م)- شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، ط١، تحقيق فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.

- زيد الخيل الطائي (ت ٩ هـ/ ٦٣١م)- ديوان زيد الخيل الطائي، د.ط، صنعة نوري حمودي القيسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٨م.

- سلامة بن جندل (ت ٦٠٠م أو ٦٠٨م)- ديوان سلامة بن جندل، ط١، تحقيق فخر الدين قباوة، نشر وتوزيع المكتبة العربية، حلب، ١٩٦٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- السليك بن السلكة (ت ٦٠٥م)- السليك بن السلكة أخباره وشعره، ط١، دراسة وجمع وتحقيق حميد آدم ثويني وكامل سعيد عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٤م.

- السموأل (ت ٥٦٠م)- ديوان السموأل، د.ط، تحقيق عيسى سابا، دار صادر، بيروت، د.ت.

- الشنفرى (ت ٧٠ق. هـ/ ٥١٠م)- ديوان الشنفري، ط١، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.

- طرفة بن العبد البكري (ت ٧٠ ق. هـ/ ٥٥٠م)- ديوان طرفة بن العبد البكري مع شرح الأديب يوسف الأعلم الشنتمري، ط١، اعتنى بتصحيحه مكس سلغون، باريس، ١٩٠١.

- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦)، د.ط، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م.

- طفيل بن عوف الغنوي (ت ٦١٠م)- شعر طفيل بن عوف الغنوي، رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي، د.ط، تحقيق كرنكو، لندن، ١٩٢٧م.

- عامر بن الطفيل (ت ٩هـ/ ٦٣٣م)- ديوان عامر بن الطفيل بشرح الأنباري (ت ٣٢٨م)، ط١، تحقيق أنور أبو سويلم، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

- العباس بن مرداس السلمي (ت ١٨هـ/ ٦٣٩م)- ديوان العباس بن مرداس السلمي، د.ط، جمعه وحققه يحيى الجبوري، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٨م.

- العباسي، عبد الرحيم بن أحمد (ت ٩٦٣هـ)- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، د.ط، ٢م، حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م.

- ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد (ت)- العقد الفريد، ط٣، ٧م، شرحه وضبطه ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الله بن الزبعرى (ت ١٥هـ/ ٦٣٦م)- شعر عبد الله بن الزبعري، ط٢، تحقيق يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.

- عبيد بن الأبرص (ت ٥٥٥م)- ديوان عبيد بن الأبرص، ط١، تحقيق وشرح حسين نصار، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر، ١٩٥٧م.

- عدي بن زيد العبادي (ت ٣٥ ق. هـ/ ٥٩٠م)- ديوان عدي بن زيد العبادي، د.ط، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥م.

- عروة بن الورد (ت ٣٠ق. هـ/ ٥٩٢م)-ديوان عروة بن الورد شرح ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، د.ط، حققه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ)- كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ط١، الآستانة، ١٣٢٠هـ.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل- ديوان المعاني عن نسخة الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي، د.ط، ١م، عالم الكتب، د.ت.

- علقمة الفحل (ت ٦٠٣م)- ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري، ط١، حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م.

- عمرو بن شأس الأسدي (ت ٢٠هـ/٦٤٠م)- شعر عمرو بن شأس الأسدي، ط٢، تحقيق يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، ١٩٨٣م.

- عمرو بن قميئة (ت ٥٢٠م)- ديوان عمرو بن قميئة، د.ط، عني بتحقيقه وشرحه خليل إبراهيم العطية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٢م.

- عمرو بن كلثوم (ت ٥٢ ق هـ/ ٥٨٠م)- ديوان عمرو بن كلثوم، ط١، جمعه و حققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عنترة (ت ٢٢ ق. هـ/ ٦٠٠م)- ديوان عنترة، د.ط، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٠م.

- قدامة بن جعفر، أبو الفرج (ت ٣٣٧هـ)- نقد الشعر، ط٣، تحقيق كمال مصطفى، القاهرة، ١٩٧٨م.

- القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣هـ)- زهر الآداب وثمر الألباب، ط ٤، ٢م، شرح زكي مبارك، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، د.ت.

- قيس بن الخطيم (ت ٦٢٠م)- ديوان قيس بن الخطيم، ط٣، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٩١م.

- قيس بن زهير (ت ١٠هـ/ ٦٣٢م)- شعر قيس بن زهير، د.ط، تحقيق عادل جاسم البياتي، مطبعة الآداب، النجف، الأشرف، د.ت.

- أبو قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي (ت ١هـ/ ٦٣٢)- ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي، د.ط، دراسة، جمع تحقيق حسن محمد باجودة، مكتبة دار التراث، القاهرة، تاريخ المقدمة، ١٣٩١هـ.

- ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت)- مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، د.ط، ام جزءان، دار الكتب العلمية، بيروت.

- كعب بن زهير (ت ٢٦هـ/ ٦٤٧م)- شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري، د.ط، تحقيق سامي مكي العاني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠م.

- ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ)- الأصنام، د.ط، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

- لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤١هـ/٦٦٢م)- شرح د يوان لبيد بن ربيعة العامري، ط١، حققه وقدم له إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- لقيط بن يعمر الإيادي (ت ٣٨٠م)- ديوان لقيط بن يعمر الإيادي رواية ابن الكلبي، د.ط، تحقيق خليل إبراهيم العطية، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد، ١٩٦٨م.

- المتلمس الضبعي (ت ٥٦٩م أو ٥٨٠م)- ديوان شعر المتلمس الضبعي رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، د.ط، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧٠م.

- المثقب العبدي (ت ٥٨٧م)- ديوان شعر المثقب العبدي، د.ط، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١م.

- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ)- الموشح "مآخذ العلماء الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر"، د.ط، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

- المرزباني، محمد بن سهل الكرخي البغدادي (ت)- الحنين إلى الأوطان، ط١، تحقيق جليل العطية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.

- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ)- شرح ديوان الحماسة، ط١، ٢م، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)- مروج الذهب ومعادن الجوهر، د.ط، ٤م، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت.

- المسيب بن علس (ت ٥٧٥م)- شعر المسيب بن علس، ط١، جمعه وحققه ودرسه أنور أبو سويلم، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٤م.

- المفضل الضبي (ت ١٦٨هـ/٧٨٤م)- المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، لبنان، د.ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النابغة الجعدي (ت ٦٥هـ/ ٦٨٤م)- شعر النابغة الجعدي، ط١، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٤م.

- النابغة الذبياني (ت ٦٠٤م)- ديوان النابغة الذبياني بتمامه، صنعة ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، د.ط، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨م.

- النمر بن تولب (ت ١٤هـ/ ٦٣٥م)- شعر النمر بن تولب، ط١، صنعة نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٩.

ب. المراجع

- الآلوسي، محمود شكري- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط٢، ٣م، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٤م.

- إبراهيم عبد الرحمن محمد- الشعر الجاهلي، "قضاياه الفنية والموضوعية"، ط ٢، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

- إبراهيم عبد الرحمن محمد- قضايا الشعر في النقد العربي، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٨١م.

- إبراهيم بدران، سلوى الخماش- الخرافة "دراسات في العقلية العربية"، ط٢، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٩م.

- أحمد أمين- فجر الإسلام، ط١١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٥م.

- أحمد أمين- النقد الأدبي، ط٤، ٢ج، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م.

- أحمد الربيعي- الرمزية في مقدمة القصيدة، د.ط، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٣م.

- أحمد الشايب- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، ط٥، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٧٦م.

- أحمد كمال زكي- الأساطير «دراسة حضارية مقارنة»، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أحمد كمال زكي- شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د.ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م.
- أحمد محمد الحوفي- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط٤، دار القلم، بيروت، ١٩٦٢م.
- أحمد محمد الحوفي- الغزل في العصر الجاهلي، ط٣، دار النهضة، مصر، ١٩٧٣م.
- أحمد محمد الحوفي- المرأة في الشعر الجاهلي، د.ط، نهضة مصر، ١٩٥٤م.
- أحمد نوفل- الحرب النفسية، ط٢، ٢ج، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، ١٩٨٧م.
- إحسان عباس- فن الشعر، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.
- أسعد علي- الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م.
- أمين ألبرت الريحاني- مدار الكلمة، «دراسات نقدية»، ط١، دارالكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٠م.
- أنور أبو سويلم- مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، ط١، دار عمار، عمان، ١٩٩١م.
- إيليّا الحاوي- في النقد والأدب، ط٥، ٥ج، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦م.
- بروكلمان، كارل- تاريخ الأدب العربي، ط٣، ٥ج، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.
- بلاشير، ريجس- تاريخ الأدب العربي، ط٢، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.
- ثريّا ملحس- القيم الروحية في الشعر العربي «قديمه وحديثه»، د.ط، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.
- جواد علي- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، ١٠ج، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حسين الحاج حسن- أدب العرب في عصر الجاهلية، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

- حسين عطوان- مقالات في الشعر ونقده، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

- حسين عطوان- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، ط٢، دار الجيل بيروت، ١٩٨٧م.

- خالد الكركي- الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث، ط١، دار الجيل، بيروت، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ١٩٨٩م.

- خليل أحمد خليل- مضمون الأسطورة في الفكر العربي، ط٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

- دريني خشبة- أساطير الحب والجمال عند اليونان، «دراسة ونصوص»، ط١، ٢ج، دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.

- دي لاسي أوليري- جزيرة العرب قبل البعثة، ط١، ترجمة موسى علي الغول، وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ١٩٩٠م.

- رالف بارتن بيري- آفاق القيمة «دراسة نقدية للحضارة الإنسانية»، د.ط، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مراجعة محمد علي العريان، تقديم زكي مبارك، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨م.

- رينيه ويليك، أوستن وارين- نظرية الأدب، ط٣، ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

- زكريا إبراهيم- مشكلة الإنسان، د.ط، دار مصر للطباعة، د.ت.

- زكي المحاسني- شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، ط٢، دار المعارف بمصر، د.ت.

- سلوى سامي الملاّ- الإبداع والتوتر النفسي «دراسة تجريبية»، د.ط، تصدير مصطفى سويف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٢م.

- السيد علي شتا- نظرية الاغتراب من منظور الاجتماع، ط١، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- شارل لالو- مبادىء علم الجمال «الاستطيقا»، د.ط، ترجمة مصطفى ماهر، وقدم له يوسف مراد، دار إحياء الكتب العربي، مصر، ١٩٥٩م.

- شكري عياد- البطل في الأدب والأساطير، ط٢، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧١م.

- شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ط٧، دار المعارف بمصر، تاريخ المقدمة، ١٩٦٠م.

- صلاح عبد الصبور- قراءة جديدة لشعرنا القديم، د.ط، دار النجاح، بيروت، ١٩٧٣م.

- طه أحمد إبراهيم- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، د.ط، دار الحكمة، بيروت، لبنان، تاريخ التمهيد، ١٩٣٧م.

- عبد الأمير الأعسم- المصطلح الفلسفي عند العرب، ط١، دراسة وتحقيق وتعليق عبد الأمير الأعسم، مكتبة الفكر العربي، بغداد، ١٩٨٥م.

- عبد الرزاق الخشروم- الغربة في الشعر الجاهلي، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢م.

- عبد العزيز محمد شحادة- الزمن في الشعر الجاهلي، ط١، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، إربد، ١٩٩٥م.

- عبد الغني زيتوني- الوثنية في الشعر الجاهلي، د.ط، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٧م.

- عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في النقد الشعري «دراسة في النظرية والتطبيق»، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٤م.

- عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ط١، نشر بدعم من جامعة اليرموك، إربد- الأردن، ١٩٨٠م.

- عبد القادر الرباعي- الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الله محمد الغذامي- الخطيئة والتكفير «من البنيوية إلى التشريحية، قراءات نقدية لنموذج إنساني معاصر»، ط١، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٥م.

- عبد المجيد عبد الرحيم- الأنثروبولوجيا «علم الإنسان»، د.ط، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

- عبد المنعم تليمة- مقدمة في نظرية الأدب، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.

- عز الدين إسماعيل- الأدب وفنونه «دراسة ونقد»، ط٦، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.

- عفيف عبد الرحمن- الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، ط١، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

- العقاد- ابن الرومي «حياته من شعره»، د.ط، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٤م.

- علي البطل- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري «دراسة في أصولها وتطورها، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

- علي جباوي- الأنثروبولوجيا الاجتماعية، د.ط، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٨٢م.

- علي الجندي- تاريخ الأدب الجاهلي «مقدمة لدراسة الأدب الجاهلي»، د.ط، توزيع مكتبة الجامعة العربية، بيروت، تاريخ المقدمة ١٩٦٥م.

- علي الجندي- ملحق تاريخ الأدب الجاهلي، د.ط، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م.

- علي شلق- أبو نواس «بين التخطي والالتزام»، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢م.

- عمر فروخ- العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- غاستون باشلار- جماليات المكان، ط٣، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.

- فادية الجولاني- التغير الاجتماعي «مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغير»، د.ط، دار الإصلاح للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية- الدمام، ١٩٨٤م.

- فردريش فون ديرلاين- الحكاية الخرافية، ط١، ترجمة نبيلة إبراهيم، مراجعة عز الدين إسماعيل، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣م.

- فهمي جدعان- نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٥م.

- فوزي سالم عفيفي- السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين، ط١، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ١٩٩١م.

- قصي الحسين- العمارة الفنية في شعر امرىء القيس «دراسة تحليلة تركيبية للشعر الجاهلي»، د.ط، منشورات المكتبة الحديثة، طرابلس.

- كارلوني وفيللو- تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، د.ط، ترجمة جورج سعد يونس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣م.

- كلود بيشوا وأندريه ميشيل روسو- الأدب المقارن، د.ط، ترجمة رجا عبد المنعم جبر، مكتبة دار العروبة بالكويت، ١٩٨٠م.

- كمال أبو ديب- جدلية الخفاء والتجلي «دراسات نبوية في الشعر»، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.

- كمال أبو ديب- الرؤى المقنعة «نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي البنية والرؤيا، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

- كمال أبو ديب- في الشعرية، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٧م.

- لطفي عبد البديع- التركيب اللغوي للأدب «بحث في فلسفة اللغة والأستطيقا»، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- لودميلا- الإنسان «نشاط وتواصل، ط١، ترجمة زياد الملا، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٣م.

- مجاهد عبد المنعم مجاهد- علم الجمال في الفلسفة المعاصرة، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.

- محمد إبراهيم حوّر- الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، د.ط، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.

- محمد طاهر درويش- حسان بن ثابت، د.ط، دار المعارف بمصر، د.ت.

- محمد عبد السلام كفافي- في الأدب المقارن «دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي»، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.

- محمد عبد الله دراز- الدين «بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان»، د.ط، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٩م.

- محمد عثمان علي- في أدب ما قبل الإسلام «دراسة وصفية تحليلية»، ط٢، دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.

- محمد عثمان نجاتي- علم النفس في حياتنا اليومية، ط٢، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٨م.

- محمد عزيز الحبابي- من الكائن إلى الشخص، ط٢، دارالمعارف بمصر، د.ت.

- محمد عماد الدين إسماعيل- المنهج العلمي وتفسير السلوك، د.ط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

- محمد فؤاد نعناع- الجود والبخل في الشعر الجاهلي، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٤م.

- محمد قطب- دراسات في النفس الإنسانية، ط٥، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨١م.

- محمد محمد حسين- أساليب الصناعة في شعر الخمر والأشعار بين الأعشى والجاهليين، ط١، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٥٩م.

- All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد النويهي- نفسية أبي نواس، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م.
- محمود سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا عند العرب، ط١، بيروت، ١٩٥٥م.
- محمود السمرة- القاضي الجرجاني «الأديب الناقد»، ط٢، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
- مصطفى جياووك- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، د.ط، منشورات وزارة الإعلام العراقية، سلسلة دراسات ١٢٣.
- مصطفى ناصف- دراسة الأدب العربي، د.ط، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- مصطفى ناصف- قراءة ثانية لشعرنا القديم، ط٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١م.
- منذر الجبوري- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨م.
- نبيلة إبراهيم- الأسطورة، د.ط، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، د.ت.
- نصرت عبد الرحمن- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، ط٢، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.
- نصرت عبد الرحمن- الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي، د.ط، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٥م.
- نظمي لوقا- نحو مفهوم إنساني «رؤية فلسفية»، د.ط، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.
- نعيم اليافي- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٣م.
- نوري القيسي- الفروسية في الشعر الجاهلي، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤م.

- نوري القيسي- محاولات في دراسة اجتماع الأدب، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

- نيكولاس برديائيف- العزلة والمجتمع، د.ط، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة علي أدهم، المنشورات الجامعية، طرابلس، بيروت، ١٩٨٥م.

- هاشم ياغي- معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة، ط١، دار الفجر، عمان، ١٩٩٠م.

- هنري برجسون- منبعا الأخلاق والدين، د.ط، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١م.

- هنري فرانكفورت وآخرون- ما قبل الفلسفة، ط٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.

- وهب رومية- الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م.

- يحيى الجبوري- الشعر الجاهلي «خصائصه وفنونه»، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

- يوسف خليف- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.ط، دار المعارف، مصر ، تاريخ المقدمة، ١٩٥٩م.

- يوسف خليف- دراسات في الشعر الجاهلي، د.ط، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٨١م.

- يوسف خليف- ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، د.ط، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

- يوسف اليوسف- مقالات في الشعر الجاهلي، ط٣، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، ١٩٨٣م.

٤٨٢٤٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ. رسائل الماجستير

- عاطف محمد مصطفى كنعان- الصورة الفنية في شعر الهذليين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك- إربد، ١٩٩٠م.
- محمود علي محمود الحسن- الظعينة في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك- إربد، ١٩٨٤م.

د. الدوريات

- جاسم البياتي- شعر الربيع بن زياد (ت ٥٩٠م)، جمع وتحقيق، مجلة كلية الآداب، عدد ١٤، النجف الأشرف، ١٩٧١م، ص ٣٨٦-٤٠٤.
- حاتم صالح الضامن- شعر الفند الزمّاني (ت ٥٣٠م)، تحقيق، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٣٧، الجزء الرابع، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١-٣١.
- عبد العزيز منيمني- ديوان الشنفرى الأزدي (ت ٧٠ ق هـ/٥١٠م) مجموعة- الطرائف الأدبية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ٢٥-٤٢.
- عبد العزيز منيمني- ديوان الأفوه الأودي (ت ٥٧٠م) صنعة، مجموعة الطرائف الأدبية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ١-٢٤.
- عبد القادر عبد الجليل- شعر بشامة بن الغدير المري، جمع وتحقيق، مجلة المورد، مجلد ٦، عدد ١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٢١٧-٢٣٠.
- نوري حمودي القيسي- شعر المرقش الأصغر، صنعة، مجلة كلية الآداب، عدد ١٤، النجف الأشرف، ١٩٧١م، ص ٥٢٥-٥٤٥.
- نوري حمودي القيسي- شعر ربيعة بن مقروم الضبي (ت ١٦هـ/٦٣٧م) صنعة، مجلة الآداب، عدد ١١، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٦٨م، ص ١-٥٢.
- هاشم طه شلاش- ضمرة بن ضمرة النهشلي، أخباره وما بقي من شعره، جمع وتحقيق، مجلة المورد، مجلد ١٠، عدد ٢، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١م، ص ١٠٧-١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

'Man in pre-Islamic poetry,in the Light of modern studies'

by

Atef Mohammed Mustafa Kana'an

Supervised by

Professor Mahmoud Al-Samra

The pre-Islamic poetry is regarded a productive and abundant material to study man from his various aspects-in his special and general world, and in his relationship with the land and universe around him, through his special poetic speech. These relationships that are formulated through the visions of man to his environment. This research is studying this poetic heritage in new outlook, where man is looked upon as the main core.

The pre-Islamic man moves to his land from his own starting points-his materialistic and spiritual needs. Since poetry in that period of time was nearly the only instrument to express these needs, it became a basic material to any scholar searching in the starting points of that man, and to discover his internal and external world.

The research here is distributed on the different world's, which used to touch the pre-Islamic man in his belief-the formulation of life and death visions, through penetrating and exploring the spiritual and mental relationships, that were related by the pre-Islamic man in his poetry addressing the earth and sky. I then tried to search in his personal behavior, and in his personal and tribal relationships, and with his relations with woman, and in dealing with things and materials around him.

All these steps and procedures taken by me, to enable approaching and comprehending the real thinking of the pre-Islamic man, and then to relate this to man in general.

The main and most important duty and challenge for the pre-Islamic man in general was searching for his needs and joining them to his real existence, so that if the

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

time and place elements evaded him, and made him face the nature around him alone by him self, hoping to change the bitter and miserable existence around him, and to change it into another existence where he could find himself in.

The pre-Islamic man is like any other man in this universe, tried to deal with his own real existence through the comprehensive humanistic vision, which aims to dominate over things, and for- umlauting them to serve his purpose and objectives. In addition to the various human relations which formulated the pre-Islamic society in a special social symmetry.

Trying to penetrate the depth of pre-Islamic man was apparently a main objective for this research. Poetry was a very distinctive meaning revealing the real feeling of that man towards himself and those around him, or to relate to things in nature or in sky with his own existence, in a mental philosophy, where the pre-Islamic attitude towards it is already crystallized. This is usually reached through examining the various types of expressions of the human psycho, and to join them with the essential materialistic and spiritual needs of that man, then to study their aesthetic methods.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit